الأحكام الشرعية للثورات العربية

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ ٢٠١١ م

حقوق الطبع لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه مجموعة كبيرة من البحوث قد كتبتها أو حققتها،وكلها تدور حول الأحكام الشرعية للثورات العربية عامة والثورة السورية خاصة،وهي تتكلم عن أسباب هذه الثورات،ومشروعيتها،والرد على من يراها غير مشروعة،وعن أهدافها،وفيها كثير من الوصايا والإرشادات التي يحتاجها هؤلاء الثوار،والرد على بعض الشبهات..التي يمكن أن تعترض طرسق هذه الثورات قبل الوصول إلى أهدافها.

صحيح أن كثيراً منها موجه للثورة السورية لكنها شاملها لكل الثورات العربية التي حدثت والتي يمكن أن تحدث أيضاً،حيث إن غالب أحكامها الشرعية ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والأحوال.

وهذه البحوث كلها داخلة ضمن الفقه السياسي في الإسلام،والتي يجهلها معظم طلاب العلم اليوم.

وأهم من كتب في هذا الموضوع الدكتور حاكم المطيري حفظه الله،والشيخ الفاضل حامد العلي حفظه الله وغيرهما....

ولأهمية هذا الموضوع للثوار وغيرهم فقد قمت بجمع شتاته في كتاب واحد ليسهل قراءته والاستفادة منه

وهي تتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول=أهمية إقامة الدولة الإسلامية

المبحث الثاني=وجوب العدل وتحريم الظلم

المبحث الثالث=جميع وسائل إزالة الظلم جاء النص عليها إما عاما أو خاصًّا

المبحث الرابع=لايشترط أن تكون الوسائل مستعملة في زمن النبوة حتى تكون مشروعة

المبحث الخامس=الأحكام الكونية والقدرية والشرعية للثورات العربية
المبحث السادس=الأدلة الشرعية على مشروعية المقاومة السياسية السلمية
المبحث السابع=نماذج من أقوال السلفيين المانعين للمظاهرات
المبحث الثامن=فتاوى سلفية أخرى تبين جواز المظاهرات
المبحث التاسع=الرد على مانعي مشروعية المظاهرات السلمية
المبحث العاشر=أمثلة تاريخية على جواز المظاهرات
المبحث الحادي عشر=أنواع الخروج على الحاكم
المبحث الثاني عشر=هل الثورات العربية ثورات إسلامية ؟
المبحث الثالث عشر=الانتفاضة السورية الأسباب والدواعي
المبحث الرابع عشر=الأدلة على جواز الخروج المسلح على النظام السوري
المبحث الخامس عشر=الأحكام الفقهية لشهداء الحرية والثورات العربية
المبحث السادس عشر=شهداء الثورات العربية بين جرائم الطغاة وفتنة الدعاة
المبحث السابع عشر=نظرات شرعية في النظم الدستورية والأنظمة الجمهورية
المبحث الثامن عشر=الثورات العربية من الاستبداد إلى الخلافة الراشدة
المبحث التاسع عشر=التنظيم الراشدي وشروط النصر
المبحث العشرون=الأجوبة الفقهية الدستورية عن الأسئلة الليبية والسورية
المبحث الحادي والعشرون=(التجربة الإنسانية والثورة العربية نموذجا)
المبحث الثاني والعشرون=(الثورة الأخلاقية شرط النهضة الحضارية)
المبحث الثالث والعشرون=الفرق بين الخطاب القرآني والخطاب السلطاني
المبحث الرابع والعشرون=(الحرية روح الثورة العربية)
المبحث الخامس والعشرون=الإعلام ببطلان القول بوجوب الطاعة والاستسلام لمن نصبه العدو الكافر في أرض الإسلام
المبحث السادس والعشرون=الحرية وضوابطها في الإسلام
المبحث السابع والعشرون=قصة الثورة العربية الخلاقة إرهاصاتها فلسفتها غاياتها

المبحث الثامن والعشرون=رسالة مفتوحة إلى حكام البلاد العربية وغيرها
المبحث التاسع والعشرون=رسالة من القلب للشباب الثائر على الظلم في سورية
المبحث الثلاثون=أيها الإخوة في الشام إما الخوف من الله أو الخوف من الأسد وزبانيته
المبحث الحادي والثلاثون=نصر الله آت بإذن الله تعالى ولكن له ثمن باهظ
المبحث الثاني والثلاثون=لماذا يبطئ النصر؟
المبحث الثاث والثلاثون=الثورة العربية والشعار المبارك الشعب يريد إسقاط النظام
المبحث الرابع والثلاثون=ثورة الشعوب العربية.. بين الأنظمة الملكية والأنظمة الجمهورية
المبحث الخامس والثلاثون=الثورة العربية وسحر الأنظمة الملكية
المبحث السادس والثلاثون=استحباب تعجيل الزكاة للشعب السورى المنكوب بطاغيته
المبحث السابع والثلاثون=وجوب تحكيم الإسلام عقيدة وعبادة ومنهج حياة
المبحث الثامن والثلاثين=ما هي حقيقة الاستخلاف في الأرض ؟
المبحث التاسع والثلاثون=خرج الشعب يوما هاتفا (الشعب يريد إسقاط النظام)
المبحث الأربعون=الإسلامي متهم حتى تثبت براءته وغيره بريء من كل التهم !!!!
المبحث الحادي والأربعون=أعداء الثورة السورية
المبحث الثاني والأربعون=أهمية الكلمة في مواجهة الطغيان
المبحث الثالث والأربعون =وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
المبحث الرابع والأربعون=مفهوم النصر وحقيقته
المبحث الخامس والأربعون =أسباب تأخر النصر الظاهر
المبحث السادس والأربعون =متى تنتصر ثورتنا المباركة على الطاغية الصنم بشاروعصابته المجرمة
المبحث السابع والأربعون =اشتراط إذن الإمام ووجود الراية في قتال الكفار
المبحث الثامن والأربعون =مظاهرة الكافرين على المسلمين تعتبر من نواقض الإسلام
وفي كل مبحث تفصيل يليق به.....

والأحاديث مخرجة ومحكوم عليها صحة وضعفا وفق المنهج الوسط في الجرح والتعديل،مع شرح الغريب،ورد الشبهات ...

أسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والدال عليه في الدارين...

قال تعالى على لسان النبي شعيب عليه السلام:{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود:٨٨]

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

٢٠ ذو القعدة ١٤٣٢هـ الموافق ل ٢٠١١/١٠/١٧ م

المبحث الأول

أهمية إقامة الدولة الإسلامية

إقامة الدولة العادلة من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية،ومقوّمات وجود الأمّـــة:

فمن المعلوم المتقـــرِّر في هذه الشريعة العليّة الحكيمة،أنَّ الدولة العادلة من أهـــمّ مقوّمات وجـــود الأمـــّة،وبغيرها لا تؤدّي الأمّة رسالتها الحضارية،وأنَّه يجـــب علـــى الأمّـــــة الإسلامية،أن تقيـــم نظامَ الحكم الذي يحـــقِّق العدل،ويحـــارب الجور،ويحفظ مصـــالح الناس،ويدرء المفاسد عنهم،وهـــو من أعظـــم الفروض على هذه الأمـــّة العظيـــمة.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" يَجِبُ أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ وِلَايَةَ أَمْرِ النَّاسِ مِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِ الدِّينِ؛بَلْ لَا قِيَامَ لِلدِّينِ وَلَا لِلدُّنْيَا إلَّا بِهَا.فَإِنَّ بَنِي آدَمَ لَا تَـــتِمُّ مَصْـــلَحَتُهُمْ إلَّـــا بِالِاجْتِمَاعِ لِحَاجَةِ بَعْضِهِمْ إلَى بَعْضٍ وَلَا بُدَّ لَهُمْ عِنْدَ الِاجْتِمَاعِ مِنْ رَأْسٍ حَتَّى قَالَ النَّبِـــيُّ ﷺ { إذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ }.رَوَاهُ أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَـــعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ.وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَد فِي الْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:{ لَـــا يَحِلُّ لِثَلَاثَةٍ يَكُونُونَ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ إلَّا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ } فَأَوْجَبَ ﷺ تَأْمِيرَ الْوَاحِـــدِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْقَلِيلِ الْعَارِضِ فِي السَّفَرِ تَنْبِيهًا بِذَلِكَ عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الِاجْتِمَاعِ.وَلِأَنَّ اللَّـــهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إلَّا بِقُوَّةٍ وَإِمَارَةٍ.وَكَـــذَلِكَ سَائِرُ مَا أَوْجَبَهُ مِنْ الْجِهَادِ وَالْعَدْلِ وَإِقَامَةِ الْحَجِّ وَالْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ.وَإِقَامَـــةِ الْحُدُودِ لَا تَتِمُّ إلَّا بِالْقُوَّةِ وَالْإِمَارَةِ..."[1]

وأنَّـــه يجب على الأمـــّة أن تسعى لإصلاح أي نظام حكم يُقـــــام علـــى غـــير هـــذا الأساس،فتختـــلّ فيه العدالة،وينتشر الجور،وتضطرب مصالح الناس،وتحـــلّ فيهم المفاسد الدينية،والدنيوية.

وهذا الفرض أعظم بكثيـــر من قيامها بإنكار شرب الخمر،والزنا ــ مثلا ــ فضلا عـــن إنكار التبـــرُّج،والإخـــتلاط..إلخ !! وغير ذلك من المنكـــرات،إذ فساد السلطة هـــــو

[1] - [مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية- دار الوفاء ٢٨/ ٣٩٠]

ينبوع كلِّ فساد في الناس،وظلمُها مجلبة للمحق العام لجميع مصالحهم،بل لزوالهم،وحلول العقوبة الشاملة عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" وَلَكِنَّ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا مُتَّفِقٌ عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ.فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ وَعَاقِبَةُ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ وَلِهَذَا يُرْوَى:" { اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً } " [2]

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ هَذِهِ الْآيَةَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥]،قَالَ:إِنَّ النَّاسَ يَضَعُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا،أَلَا وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوَا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْ قَالَ:الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ». [3]

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» [4]

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:" فَلِهَذَا كَانَ أُولُوا الْأَمْرِ صِنْفَيْنِ:الْعُلَمَاءُ؛وَالْأُمَرَاءُ.فَإِذَا صَلَحُوا صَلَحَ النَّاسُ وَإِذَا فَسَدُوا فَسَدَ النَّاسُ؛كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للأحمسية لَمَّا سَأَلَتْهُ:مَا بَقَاؤُنَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ ؟ قَالَ:مَا اسْتَقَامَتْ لَكُمْ أَئِمَّتُكُمْ.وَيَدْخُلُ فِيهِمْ الْمُلُوكُ وَالْمَشَايِخُ وَأَهْلُ الدِّيوَانِ؛وَكُلُّ مَنْ كَانَ مَتْبُوعًا فَإِنَّهُ مِنْ أُولِي الْأَمْرِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَأْمُرَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَيَنْهَى عَمَّا نَهَى عَنْهُ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْ عَلَيْهِ طَاعَتُهُ أَنْ يُطِيعَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ؛وَلَا يُطِيعُهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ تَوَلَّى أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَخَطَبَهُمْ؛فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ:أَيُّهَا النَّاسُ الْقَوِيُّ فِيكُمْ الضَّعِيفُ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ ؛وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ الْقَوِيُّ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ لَهُ الْحَقَّ؛أَطِيعُونِي مَا أَطَعْت اللَّهَ فَإِذَا عَصَيْت اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ." [5]

---

[2] – [مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية– دار الوفاء ٢٨/ ٦٢]

[3] – [صحيح ابن حبان – مخرجا ١/ ٥٣٩](٣٠٤) صحيح

[4] – [سنن الترمذي ت شاكر ٤/ ٤٦٨](٢١٦٩) حسن

[5] – [مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية– دار الوفاء ٢٨/ ١٧٠]

وإنما عنت السائلة بقولها:(الأمر)،استقامة الحال،وصلاح الأحوال،واجتماع الشمل،وانتشار العدل،خلاف ما كانوا عليه في الجاهلية،فبيَّن لها أنَّ ذلك مرهون باستقامة السلطة،وهو أمرمعلوم بضرورة العقل،وشهادة الواقع،والحس،ومن الخطأ الشائع الظن أنَّ فساد السلطة نتيجة لفساد الرعية،والعكس أولى بالصواب،غير أنّ الرعيّة تعاقب على سكوتها عن ظلم السلطان،ورضاها به،باستدامة ذلك الظلم عليهم جزاء وفاقاً،ولا يظلم ربك أحداً.

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي لَا تَقُولُ لِلظَّالِمِ:أَنْتَ ظَالِمٌ،فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ "[6]

ولهذا ورد في السنة كما في صحيح مسلم قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ،عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو:أَبْصِرْ مَا تَقُولُ،قَالَ:أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ،إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا:إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ،وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ،وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ،وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ:وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ "[7]

ولما كانت هذه الخُلَّة الجميلة فيهم،لا يكاد يُسلَّط عليهم ظالمٌ من أنفسهم،يستبيحهم كما يحدث عند غيرهم.ولهذا السبب _ أعني كون فريضة تقويم السلطة عظيمة جداً في هذا الدين _ صار أعظم الجهاد،ما يكون في تقويم إنحراف السلطة،وإصلاحها،كما روى النسائي عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[8]

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[9]

---

[6] - [السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ١٥٨](١١٥١٦) صحيح لغيره

[7] - [صحيح مسلم ٤/ ٢٢٢٢]٣٥ - (٢٨٩٨)

[8] - [سنن النسائي ٧/ ١٦١](٤٢٠٩) صحيح

[9] - [المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣/ ٢١٥](٤٨٨٤) وصحيح الجامع (٣٦٧٥) صحيح لغيره

ومعلوم أنَّ الجهاد أفضل متطوع به،وفي هذا الحديث أن أفضله،هو كلمة الحـــقِّ الناقـــدة لجور الحاكم،فهذا نص واضح في أنَّ جهود إصلاح الأنظمة المنحرفة،بالوسائل المشروعـــة المعتبرة،أفضل الجهاد في سبيل الله تعالى.

وليس في هذا الحـــديث ونظائره،ما يقتضي إسراراً لكلمة النقد،بل هو بـــالحضِّ علـــى إعلانها أوضـــح،إذْ ما جُعلت أفضل الجهاد إلاّ من أجل أنّ في الإعلان التعـــرُّض لـــبطش الظالم،وفي ذلك أعظم البذل للجهد،وارتكاب المشقة في سبيل الله تعالى،ولأنَّ في الجهـــر والإعـــلان تخويفُ الحاكم الجائر،من تشجيع المجاهر بالإنكار لغيره على الإنكار أيضاً،مما يؤدي إلى ارتداعه عن الظلم،فهي في الحقيقة وسيلة مؤثرة لكبح جماح السلطة وتقييدها.

وإما الإسرار فليس فيه في الغالب بذل النفس،لأنـــّه ليس مظنّـــة الأذى أصـــلا،بل قـــد أصبح الإسرار بالنصيحة للسلطة اليوم،مـــن الوسائل السياسية الماكرة التي تُضفي علـــى الظلم شرعية زائفة !

يستحيل تحقيق الدولة العادلة في هذا الزمن بغير رقابة فعّالـــة علـــى الســـلطة تقيّـــدُها وتحمـــلها على مقتضى الإصلاح،والعدل،فإن تعذّر الإصلاح تغيـــّرها.

هذا..وقد تقـــرَّر شرعـــا،وعقـــلا،وواقعـــا،إستحالة أن يـــؤدِّي نظـــام الحكـــم دوره الأساس وهـــــو الإصـــلاح،والعدالة ـــ لاســـيما في هـــذا العصـــر ـــ إلاّ بوســـائل الرقابة،والمحاسبـــة،التي تملك القدرة على الإصلاح الفعلي،لامجرد البيان القولـــي وتـــرك السلطة سادرة في غيِّها،وجوْرها !

ولهذا فإنَّ تقييد السلطة في الإسلام كمـــا هـــو فريضـــة دينية،هـــــو أيضـــا ضـــرورة اجتماعية،وذلك انطلاقاً من حقيقتين اثنتين:

الأولـــى:أن تولـــّي السلطة مع احتكار أدوات القوة،والقدرة على استعمال العنف بـــلا قيود،مدعاة إلى الاستبداد،ضرورة انقياد الطبيعـــة البشـــرية لحـــبِّ التســـلط المركـــوز فيهـــا،وهذه الطبيعة وإن كانت يمكن معارضتها بالوازع الذاتي،غير أنـــَّه محجوبٌ في طيِّ القلوب،ولا يمكن ضمانه،أو ضمان استمراره،فضلاً عن أن باب ارتكـــاب المحظـــورات بالتأويل مفتاحـــه هـــو الاستبداد بالرأي،وهـــو ملازم للسلطة المطلقة من القيود،وهـــذا

الباب قد دخل منه من ظـُنَّ فيـه الاستقامة،والمثاليـّة،وقوة الـوازع الذاتي،الـذي يُفتـرض أن يمنع من سوء استعمال السلطة،إلى ارتكاب عظـائم مـن التعسُّـف في استعمال السلطـة باسم الديـن !

ويؤيده ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَـى الْإِمَارَةِ،وَإِنَّهَـا سَتَكُونُ نَدَامَةً وَحَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ،فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ،وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ»[10]

الثانيـة:أنَّ تضخم أجهزة،وآلات السلطة في العصر الحديث،وتشعُّبها إلى مختلف أنشـطة الحياة،وتملُّـك السـلطة إلى جانـب أدوات العنـف (الشـرطة،الأمن،الجيش،أجهزة الاستخبارات..إلخ)،أدوات تمكّنها من صناعـة العقول،وصـياغتها،وكذا خـداعها (الإعلام،التعليم..إلخ).

إضافـة إلى سيطرتها على أدوات التحكُّم في موارد الإنتـاج،ودورة الاقتصـاد،وبالتالي مستوى حياة الأفراد المعيشية،يعني منحها قدرة مطلـقة علـى تحكُّـم كامـل في المجتمع،وإخضاعه بالقوة بشتى أنواع الإخضاع.

ولاريـب أنَّ هذا يعنـي أنَّ ترك السلطة التي هذا شأنها بـلا قيـود تردعهـا عـن الجـوْر،يعنـي تعريض الأمـّة لكوارث شاملة تهدِّد وجودها.

وكم من أمم ودول زالت،ودُمـِّرت،بسبب الاستبداد وترك السلطة بلا قيود،مما أغراهـا بالظلم،والطغيـان،حتى حلَّ بسبب ذلك الدمار،وأدركها وعيد الله تعالى الذي توعّـد به الظالمين،في آيات كثيرة في القرآن العظيـم.

قال تعالى:{ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا } [الكهف:٥٩]

وقال تعالى:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَـا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّـذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَـذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) } [الفجر:٦ - ١٤]

---

[10] - [صحيح ابن حبان - مخرجا ١٠/ ٣٣٤] (٤٤٨٢) صحيح

ومن يقـــــرأ تاريخ الأمم يلحظ بوضوح تلك النقطة البارزة التي كانـــت وراء الـــدمار الهائل الذي أصابها في كثير من الأحيان،أعنـــي استبداد الدولة.هذا..

ومـــن المعلوم أنَّ الإسلام قد جاء بتحصيل المنافع،والمصالح،منافع،ومصالح الناس في دينهم ودنياهم بحسب الاستطاعة،وإلغاء وتفويـــت المضار،والمفاســـد في الدين،والدنيا،بحســـب الاستطاعة،فلا يمكن أن يكون هناك شأن من الشئون،الناس معـــــه أقرب إلى الصـــلاح وأبعد عن الفساد،في حال تفرُّدهم،واجتماعهم،وإلاّ ويأتي في الإسلام الأمـــر بـــه،والحث عليه،ولهذا فقـــد سبق الفقه الإسلامي جميع الـــنظم الوضـــعيّة في تقريـــر هـــذا المبـــدأ العظيـــم،مبدأ تقييد السلطة،ورقابة الشعب للدولة.

المبحث الثاني

وجوب العدل وتحريم الظلم

قال الحـــقُّ سبحانه:{فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَـــا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَـــا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [الشورى:١٥].

وقال تعالى:{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْـــرُهُ قَـــدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [الأعراف:٨٥].

وقال تعالى:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْـــذَهُ أَلِـــيمٌ شَـــدِيدٌ } [هود:١٠٢].

وعَنِ الحَسَنِ،أَنَّ عُبَيْدَ اللَّه بْنَ زِيَاد،عَادَ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ فِي مَرَضِه الَّذي مَاتَ فيه،فَقَالَ لَـــهُ مَعْقِلٌ إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ،سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً،فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ،إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»[11]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ فِي مَرَضِه الَّـــذِي مَـــاتَ فِيه،قَالَ مَعْقِلٌ:إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَـــاةً مَـــا حَدَّثْتُكَ،إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّـــةً،يَمُوتُ يَـــوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِه،إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[12]

---

[11] - [صحيح البخاري ٩/ ٦٤](٧١٥٠)

[(يسترعيه رعية) يستحفظه عليها. (لم يحطها) لم يتعهد أمرها ويحفظها (لم يجد رائحة الجنة) لم يشم رائحتها وهو كناية عن عدم دخولها إن استحل ذلك أو تأخر دخوله إن اعتقد حرمة فعله]

[12] - [صحيح مسلم ١/ ١٢٥] ٢٢٧ - (١٤٢)

[ش (عاد عبيد الله) أي زاره في مرض موته وكان عبيد الله إذ ذاك أمير البصرة لمعاوية (يسترعيه الله رعية) يعني يفوض إليه رعاية رعية وهي بمعنى المرعية وقوله يموت خبر ما وغش الراعي الرعية تضييعه ما يجب عليه في حقهم]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:«مَنْ أَعَانَ بَاطِلًا لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ»

وفي رواية عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ أَعَانَ بِبَاطِلٍ لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرِئَ مِنْ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ،وَمَنْ مَشَى إِلَى سُلْطَانِ اللهِ لِيُذِلَّهُ أَذَلَّهُ اللهُ مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ مِنَ الْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،سُلْطَانُ اللهِ كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ،وَمَنْ تَوَلَّى مِنْ أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَوْلَى بِذَلِكَ وَأَعْلَمُ مِنْهُ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَجَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ،وَمَنْ تَرَكَ حَوَائِجَ النَّاسِ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يَقْضِيَ حَوَائِجَهُمْ وَيُؤَدِّيَ إِلَيْهِمْ بِحَقِّهِمْ،وَمَنْ أَكَلَ دِرْهَمَ رِبًا فَهُوَ ثَلَاثٌ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً،وَمَنْ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»[13]

مقتطفات من رسالة القاضي أبي يوسف إلى الخليفة الرشيد رحمهما الله

" وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله،ورعاية ما استرعاك،وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله.فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى،وتعمى في عينك وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه،وتنكر منه ما تعرف،وتعرف منه ما تنكر،فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلَج لها لا عليها،فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك عَلَى يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله،وأورده أماكن الحياة والنجاة،فإذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضر،وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك،ووفاه الله أضعاف ما وفى له.

فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيعك بما أضعت أجرك،وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم.

وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره،وعليك ما ضيعت منه،فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنسى.

ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفل عنك.

---

[13] - [المعجم الكبير للطبراني ١١/ ١١٤] (١١٢١٦) و[موسوعة السنة النبوية ٩/ ٣٩](١٦٢٦٩) حسن لغيره

ولا يضيع حظك،من الدنيا فِي هذه الأيام والليالي،من كثرة تحريك لسانك فِي نفسك بذكر الله تسبيحاً وتهليلاً وتحميداً،والصلاة عَلَى رسوله نبي الرحمة وإمام الهدى ﷺ.

وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء فِي أرضه،وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم.

وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود،ورد الحقوق إِلَى أهلها بالتثبت

والأمر البين.وإحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعاً،فإن أحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت.

وجور الراعي هلاك الرعية،واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة.فاستتمَّ ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها،والتمس الزيادة بالشكر عليها،فإن الله تبارك وتعالى يقول فِي كتابه العزيز:{لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ[إبراهيم:٧}.

وليس شيء أحب إِلَى الله من الإصلاح،ولا أبغض إليه من الفساد،والعملُ بالمعاصي كفر النعم.وقلَّ من كفر قوم قط النعمة ثُمَّ لم يفزعوا إِلَى التوبة إلا سلبوا عزهم،وسلط الله عليهم عدوهم.

وإني أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي منَّ عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك فِي شيء من أمرك إِلَى نفسك،وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه؛ فإنه وليُّ ذلك والمرغوب إليه فيه.

وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته وبينته،فتفقهْهُ وتدبره وردد قراءته حَتَّى تحفظه،فإني قد اجتهدت لك فِي ذلك و لم آلُك والمسلمين نصحاً ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه."[١٤]

وعَنْ جَرِيرٍ،قَالَ:كُنْتُ بِاليَمَنِ،فَلَقِيتُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ،ذَا كَلاَعٍ،وَذَا عَمْرٍو،فَجَعَلْتُ أُحَدِّثُهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُ:ذُو عَمْرٍو:لَئِنْ كَانَ الَّذِي تَذْكُرُ مِنْ أَمْرِ صَاحِبِكَ،لَقَدْ مَرَّ عَلَى أَجَلِهِ مُنْذُ ثَلاَثٍ،وَأَقْبَلاَ مَعِي حَتَّى إِذَا كُنَّا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ،رُفِعَ لَنَا رَكْبٌ مِنْ قِبَلِ

[14] - [الخراج لأبي يوسف ص:٥] فما بعدها -المطبعةالسلفية ومكتبتها القاهرة

الْمَدِينَةَ فَسَأَلْنَاهُمْ،فَقَالُوا:" قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ،وَالنَّاسُ صَالِحُونَ،فَقَالاَ:أَخْبِرْ صَاحِبَكَ أَنَّا قَدْ جِئْنَا وَلَعَلَّنَا سَنَعُودُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،وَرَجَعَا إِلَى الْيَمَنِ،فَأَخْبَرْتُ أَبَا بَكْرٍ بِحَدِيثِهِمْ،قَالَ:أَفَلاَ جِئْتَ بِهِمْ،فَلَمَّا كَانَ بَعْدُ قَالَ لِي ذُو عَمْرٍو:يَا جَرِيرُ إِنَّ بِكَ عَلَيَّ كَرَامَةً،وَإِنِّي مُخْبِرُكَ خَبَرًا:إِنَّكُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ،لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا كُنْتُمْ إِذَا هَلَكَ أَمِيرٌ تَأَمَّرْتُمْ فِي آخَرَ،فَإِذَا كَانَتْ بِالسَّيْفِ كَانُوا مُلُوكًا،يَغْضَبُونَ غَضَبَ المُلُوكِ وَيَرْضَوْنَ رِضَا المُلُوكِ " [١٥]

ومعنى ما قال:أي لايزال أمركم بخير ما دمتم تنصبون عليكم أمراءكم بالشورى.

قال الإمام الفخر الرازي " فَيَا أَيُّهَا الملوك لا تغتروا بما لكم مِنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ فَإِنَّكُمْ أُسَرَاءُ فِي قَبْضَةِ قُدْرَةِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ وَيَا أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ إِذَا كُنْتُمْ تَخَافُونَ سِيَاسَةَ الْمَلِكِ أَفَمَا تَخَافُونَ سِيَاسَةَ مَلِكِ الْمُلُوكِ الَّذِي هُوَ مَالِكُ يَوْمِ الدين."[١٦]

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزُّ:«الْعَقْلُ كَشَجَرَةٍ،أَصْلُهَا غَرِيزَةٌ،وَفَرْعُهَا تَجْرِبَةٌ،وَثَمَرُهَا حَمْدُ الْعَاقِبَةِ،وَالاخْتِيَارُ يَدُلُّ عَلَى الْعَقْلِ،كَمَا يَدُلُّ تَوْرِيقُ الشَّجَرَةِ عَلَى حُسْنِهَا،وَمَا أَبْيَنَ وُجُوهُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي مَرْآةِ الْعَقْلِ،إِنْ لَمْ يَصُدَّهَا الْهَوَى»[١٧]

وقال العلامة ابن القيم:"وَلَا يَتَمَكَّنُ الْمُفْتِي وَلَا الْحَاكِمُ مِنْ الْفَتْوَى وَالْحُكْمِ بِالْحَقِّ إِلَّا بِنَوْعَيْنِ مِنْ الْفَهْمِ:

أَحَدُهُمَا:فَهْمُ الْوَاقِعِ وَالْفِقْهُ فِيهِ وَاسْتِنْبَاطُ عِلْمِ حَقِيقَةِ مَا وَقَعَ بِالْقَرَائِنِ وَالْأَمَارَاتِ وَالْعَلَامَاتِ حَتَّى يُحِيطَ بِهِ عِلْمًا.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي:فَهْمُ الْوَاجِبِ فِي الْوَاقِعِ،وَهُوَ فَهْمُ حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ قَوْلِهِ فِي هَذَا الْوَاقِعِ،ثُمَّ يُطَبِّقُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ؛ فَمَنْ بَذَلَ جَهْدَهُ وَاسْتَفْرَغَ

---

[15] - [صحيح البخاري ٥/ ١٦٦](٤٣٥٩)

[ش (أمر) شأن وصفة. (صاحبك) أي النبي ﷺ. (أجله) موته. (صالحون) راضون بمن استخلف عليهم مستقيمون على بيعتهم وأمرهم ثابت ومستقر. (أخبر صاحبك) أي أبا بكر رضي الله عنه. (بعد) أي بعد أن هاجر ذو عمرو في خلافة عمر رضي الله عنه. (كرامة) فضلا. (ما كنتم) ما دمتم تفعلون ذلك. (هلك) مات. (تأمرتم في آخر) تشاورتم فيما بينكم وأقمتم أميرا تختارونه منكم ترضونه وتطيعونه. (بالسيف) أي أصبحت الإمارة بالغلبة والقهر]

[16] - [تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ١/ ٢٠٥]

[17] - [الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/ ٣٩]دار ابن الجوزي - السعودية

وُسْعَهُ فِي ذَلِكَ لَمْ يَعْدَمْ أَجْرَيْنِ أَوْ أَجْرًا؛ فَالْعَالِمُ مَنْ يَتَوَصَّلُ بِمَعْرِفَةِ الْوَاقِعِ وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ إِلَى مَعْرِفَةِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِه،كَمَا تَوَصَّلَ شَاهِدُ يُوسُفَ بِشَقِّ الْقَمِيصِ مِنْ دُبُرٍ إِلَى مَعْرِفَةِ بَرَاءَتِه وَصِدْقِه،وَكَمَا تَوَصَّلَ سُلَيْمَانُ - ﷺ - بِقَوْلِه:" ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ حَتَّى أَشُقَّ الْوَلَدَ بَيْنَكُمَا " إِلَى مَعْرِفَةِ عَيْنِ الْأُمِّ،وَكَمَا تَوَصَّلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِقَوْلِهِ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي حَمَلَتْ كِتَابَ حَاطِبٍ مَا أَنْكَرَتْهُ لَتُخْرِجْنَ الْكِتَابَ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّك إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْكِتَابِ مِنْهَا.

وَكَمَا تَوَصَّلَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ بِتَعْذِيبِ أَحَدِ ابْنَيْ أَبِي الْحُقَيْقِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى دَلَّهُمْ عَلَى كَنْزِ حَيَى لَمَّا ظَهَرَ لَهُ كَذِبُهُ فِي دَعْوَى ذَهَابِهِ بِالْإِنْفَاقِ بِقَوْلِه:الْمَالُ كَثِيرٌ وَالْعَهْدُ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ،وَكَمَا تَوَصَّلَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ بِضَرْبِ الْمُتَّهَمِينَ بِالسَّرِقَةِ إِلَى ظُهُورِ الْمَالِ الْمَسْرُوقِ عِنْدَهُمْ،فَإِنْ ظَهَرَ وَإِلَّا ضَرَبَ مِنْ اتَّهَمَهُمْ كَمَا ضَرَبَهُمْ،وَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -.

وَمَنْ تَأَمَّلَ الشَّرِيعَةَ وَقَضَايَا الصَّحَابَةِ وَجَدَهَا طَافِحَةً بِهَذَا،وَمَنْ سَلَكَ غَيْرَ هَذَا أَضَاعَ عَلَى النَّاسِ حُقُوقَهُمْ،وَنَسَبَهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ "[18]

[18] - [إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٦٩]دار الكتب العلمية - بيروت

المبحث الثالث

جميع وسائل إزالة الظلم جاء النص عليها إما عاما أو خاصًّا

ولهـــذا نجـــد جميع الآلات،والوسائل،التي تستخدمها النظم الحديثة لردع الســلطة عن الظــلم،وضمان تحقيقها العدل،والمصالح،أي ضمان عدم انحراف الدولة عن مقصودها الأساس،نجـــدها منصوصٌ عليها،أو مدلول عليها بالأدلة العامة،أو القواعـــد الكليـــة،أو القياس المضطرد الصحيح في الشريعة الإسلاميـــة،وقد أخـــذ بها علماء الإسلام قبل النظم الوضعيّة بقرون.

غير أنَّ الفقه الإسلامي في نصوصه العامة،ومصادره الأصلية ـ في عامّة القضايا المتعلقـــة بتنظيم الحياة المتغيرة،والمتطورة ـ إنـــّما يوجـــّه نحو المعاني،والحقائق العامـــّة،ويحـــرّك عوامل التفكـــُّر،والتدبـــُّر،ويدع للإنسان التفريعَ على القواعد،حتى يمكـــن اســـتيعاب المتغيـــّر.

ولهذا جاء في القواعد الفقهية:أنَّ الوسائل لها حكم المقاصد،ليتسنَّى للمسلمين الإســـتفادة من كـــلِّ وسيلة جديدة تحقق مقاصد دينهم،المنطويـــة كلُّهـــا تحـــت هـــذا العنـــوان العظيـــم:جلب المصالح،ودرء المفاســـد.

كما قال الإمام العز بن عبدالسلام رحمه الله:" اعْلَمْ أَنَّ الذَّرِيعَةَ كَمَا يَجبُ سَدُّهَا يَجـــبُ فَتْحُهَا وَتُكْرَهُ وَتُنْدَبُ وَتُبَاحُ فَإِنَّ الذَّرِيعَةَ هِيَ الْوَسِيلَةُ فَكَمَا أَنَّ وَسِيلَةَ الْمُحَـــرَّمِ مُحَرَّمَـــةٌ فَوَسِيلَةُ الْوَاجِبِ وَاجِبَةٌ كَالسَّعْيِ لِلْجُمُعَةِ وَالْحَجِّ وَمَوَارِدُ الْأَحْكَامِ عَلَى قِسْـــمَيْنِ مَقَاصِـــدُ وَهِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِلْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ فِي أَنْفُسِهَا وَوَسَائِلُ وَهِيَ الطُّـــرُقُ الْمُفْضِـــيَةُ إلَيْهَـــا وَحُكْمُهَا حُكْمُ مَا أَفَضْت إلَيْهِ مِنْ تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ غَيْرَ أَنَّهَا أَخْفَضُ رُتْبَةً مِنْ الْمَقَاصِدِ فِـــي حُكْمِهَا وَالْوَسِيلَةُ إلَى أَفْضَلِ الْمَقَاصِدِ أَفْضَلُ الْوَسَائِلِ وَإِلَى أَقْبَحِ الْمَقَاصِدِ أَقْبَحُ الْوَسَـــائِلِ وَإِلَى مَا يُتَوَسَّطُ مُتَوَسِّطَةٌ " [19]

[19] - [أنوار البروق في أنواع الفروق ٣/ ٤٦]

وفي مكان آخر " الْقِسْمُ الثَّانِي:الْوَسَائِلُ وَالْمَشْهُورُ فِي الِاصْطِلَاحِ عِنْدَ أَصْحَابِنَا التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِالذَّرَائِعِ وَهِيَ الطُّرُقُ الْمُفْضِيَةُ إلَى الْمَقَاصِدِ قِيلَ وَحُكْمُهَا حُكْمُ مَا أَفْضَتْ إلَيْهِ مِنْ وُجُوبٍ أَوْ غَيْرِهِ إلَّا أَنَّهَا أَخْفَضُ رُتْبَةً فِي حُكْمِهَا مِمَّا أَفْضَتْ إلَيْهِ فَلَيْسَ كُلُّ ذَرِيعَةٍ يَجِبُ سَدُّهَا بَلْ الذَّرِيعَةُ كَمَا يَجِبُ سَدُّهَا يَجِبُ فَتْحُهَا وَتُكْرَهُ وَتُنْدَبُ وَتُبَاحُ بَلْ قَدْ تَكُونُ وَسِيلَةَ الْمُحَرَّمِ غَيْرَ مُحَرَّمَةٍ إذَا أَفْضَتْ إلَى مَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ كَالتَّوَسُّلِ إلَى فِدَاءِ الْأَسَارَى بِدَفْعِ الْمَالِ لِلْكُفَّارِ الَّذِي هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ الِانْتِفَاعُ بِهِ بِنَاءً عَلَى الصَّحِيحِ عِنْدَنَا مِنْ خِطَابِهِمْ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ وَكَدَفْعِ مَالٍ لِرَجُلٍ يَأْكُلُهُ حَرَامًا حَتَّى لَا يَزْنِيَ بِامْرَأَةٍ إذَا عَجَزَ عَنْ دَفْعِهِ عَنْهَا إلَّا بِذَلِكَ وَكَدَفْعِ الْمَالِ لِلْمُحَارِبِ حَتَّى لَا يَقَعَ الْقَتْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِ الْمَالِ عِنْدَ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَكِنَّهُ اشْتَرَطَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ يَسِيرًا " [20]

[20] – [أنوار البروق في أنواع الفروق ٣/ ٥١] و[الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق ٢/ ٤٢] وانظر [جزء من شرح تنقيح الفصول في علم الأصول – رسالة ماجستير ٢/ ٥٠٥] و[شرح تنقيح الفصول ص:٤٤٩]

المبحث الرابع

لايشترط أن تكون الوسائل مستعملة في زمن النبوة حتى تكون مشروعة

هذا..ولايشترط،عند جميع الفقهاء،أن تكون هذه الوسائل مستعملة في زمن النبوَّة ــ وإلاّ لما قيل الوسائل لها حكم المقاصد ــ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:" وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَمَيَّزْنَا بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ وَبَيَّنَّا أَنَّ السُّنَّةَ هِيَ مَا قَامَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ سَوَاءٌ فَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ فُعِلَ عَلَى زَمَانِهِ أَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ وَلَمْ يُفْعَلْ عَلَى زَمَانِهِ لِعَدَمِ الْمُقْتَضِي حِينَئِذٍ لِفِعْلِهِ أَوْ وُجُودِ الْمَانِعِ مِنْهُ.فَإِنَّهُ إذَا ثَبَتَ أَنَّهُ أَمَرَ بِهِ أَوْ اسْتَحَبَّهُ فَهُوَ سُنَّةٌ."[21]

كما لايمنع من الإستفاده منها،كونها من إختراع غير المسلمين ــ وسنبيّن أنها كانت في التاريخ الإسلامي أصلا ــ كما أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في النفع الذي يفعله المسلم،وغير المسلم،كالبناء،والخياطة والنسيج،والصناعة،ونحو ذلك أنه يجوز أخذه من غيرالمسلم.[22]

وذكر أنه لهذا أجاز المسلمون استعمال القوس الفارسية بعد فتح فارس في عهد عمر رضي الله عنه.

وقد استفادوا بعد الفتح بعض التنظيمات الإدارية من غير المسلمين،قال ابن تيمية رحمه الله:"وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَرْمُونَ بِالْقَوْسِ الْعَرَبِيَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي تُشْبِهُ قَوْسَ النَّدْفِ وَفَتَحَ اللَّهُ لَهُمْ بِهَا الْبِلَادَ وَقَدْ رُوِيَتْ آثَارٌ فِي كَرَاهَةِ الرَّمْيِ بِالْقَوْسِ الْفَارِسِيَّةِ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ لِكَوْنِهَا كَانَتْ شِعَارَ الْكُفَّارِ فَأَمَّا بَعْدَ أَنْ اعْتَادَهَا الْمُسْلِمُونَ وَكَثُرَتْ فِيهِمْ وَهِيَ فِي أَنْفُسِهَا أَنْفَعُ فِي الْجِهَادِ مِنْ تِلْكَ الْقَوْسِ.فَلَا تُكْرَهُ فِي أَظْهَرِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ أَوْ قَوْلِ أَكْثَرِهِمْ؛لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ }.وَالْقُوَّةُ فِي هَذَا أَبْلَغُ بِلَا رَيْبٍ وَالصَّحَابَةُ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ عِنْدَهُمْ فَعَدَلُوا عَنْهَا إلَى تِلْكَ؛بَلْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ غَيْرُهَا فَيُنْظَرُ فِي

---

[21] -[مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية- دار الوفاء ٢١/ ٣١٧]

[22] - انظر [مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية- دار الوفاء ٣٠/ ٢٠٦]

قَصْدِهِمْ بِالرَّمْيِ أَكَانَ لِحَاجَةٍ إِلَيْهَا إِذْ لَيْسَ لَهُمْ غَيْرُهَا ؟ أَمْ كَانَ لِمَعْنًى فِيهَا ؟ وَمَنْ كَرِهَ الرَّمْيَ بِهَا كَرِهَهُ لِمَعْنًى لَازِمٍ كَمَا يَكْرَهُ الْكُفْرَ وَمَا يَسْتَلْزِمُ الْكُفْرَ أَمْ كَرِهَهَا لِكَوْنِهَا كَانَتْ مِنْ شَعَائِرِ الْكُفَّارِ فَكَرِهَ التَّشَبُّهَ بِهِمْ ؟.وَهَذَا كَمَا أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إذَا لَبِسُوا ثَوْبَ الْغِيَارِ مِنْ أَصْفَرَ وَأَزْرَقَ نُهِيَ عَنْ لِبَاسِهِ لِمَا فِيهِ مِنْ التَّشَبُّهِ بِهِمْ وَإِنْ كَانَ لَوْ خَلَا عَنْ ذَلِكَ لَمْ يُكْرَهْ وَفِي بِلَادٍ لَا يَلْبَسُ هَذِهِ الْمَلَابِسَ عِنْدَهُمْ إلَّا الْكُفَّارُ فَنُهِيَ عَنْ لُبْسِهَا وَالَّذِينَ اعْتَادُوا ذَلِكَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَا مَفْسَدَةَ عِنْدَهُمْ فِي لُبْسِهَا."[٢٣]

ومعلوم أنّ الصناعات والتنظيمات الإدارية – على سبيل المثال – التي أنشأها غير المسلمين،قد تصير وسائل لإنكار المنكر،والدعوة إلى الله تعالى،والإصلاح،ومن ذلك إصلاح النظام السياسي،وفي هذا العصر السريع التطور،قد تداخلت الوسائل الإدارية،والمادية التي تنظم شؤون الناس بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ،ولا يكاد شيءٌ منها يختص بجنس من البشر حتى يقال أنه من عمل الكفار دون المسلمين !

ولهذا تجد المانعين لبعض وسائل تقييد السلطة،ومحاسبتها،كالمظاهرات السلمية،محتجين بأنها تشبُّه بالكفار ! لابد أن يتناقضوا تناقضاً بيناً،فهم يستعملون من الوسائل الحادثة ما لايُحصى كثرة،ويجيزونه في وسائل الدعوة _ مثلا _ فإذا جاءت وسائل الحسبة على السلطة التي هي أعظم نفعا،وأوسع فائدة لأهل الإسلام حظروها،وحاربوها أشدّ الحرب ؟!!

[23] - [مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية- دار الوفاء ١٧/ ٤٨٧]

المبحث الخامس

الأحكام الكونية والقدرية والشرعية للثورات العربية

بدأت الأنظمة العربية اليوم بالاستنفار،بعد الذهول الذي أصابها منذ سقوط شؤمهم الرئيس التونسي،ثم سقوط طاغيتهم حسني،وبدأوا بالتخطيط لمواجهة هذه الثورات التي تعصف بالمنطقة،وقد بدأت حربهم الإعلامية التي يقودها شيوخ دين مفتونون،وكتاب مأجورون،تارة يحذرون من الثورة بدعوى الخوف من الفتنة والخوف على الدماء والأعراض،التي لم تحقن ولم تصن في ظل الأنظمة الإجرامية والطاغوتية التي يدافعون عنها،والتي بقاؤها في حد ذاته فتنة في الأرض وفساد كبير،فكم سُفك على أيدي الطغاة من دم حرام،وكم انتهكوا من عرض حرام،وكم سجنوا من مظلوم،وكم هجروا من طريد،وكم فتنوا في دينه من مؤمن لا لسبب إلا لأنه يدعو إلى تحكيم كتاب الله،حتى بلغ السجناء من الدعاة في سجون الطغاة في عالمنا العربي مئات الآلاف ظلما وعدوانا- بلغ عدد من تعرضوا للسجن والتعذيب في ظل حكم طاغوت مصر نحو مليون إنسان - فأي فتنة أشد من هذه الفتنة؟ وقد أذن النبي ﷺ لأصحابه حين تعرضوا للأذى بمكة بالهجرة للحبشة وعلل ذلك بقوله (إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ)![24]

وتارة يثير أولئك الدجالون الشك في الثورات التي جرت في تونس ومصر وليبيا،وأنها من ترتيب الماسونية،ووراءها أمريكا،وكأن الماسونية وأمريكا في حاجة إلى من هو أكثر إخلاصا من الرؤساء والأمراء العرب الحاليين لتنفيذ مخططاتهم!

إن هذه الثورات هي ثورات ضد الظلم والطغيان والفساد،ولله فيها أحكام كونية قدرية،وأخرى خبرية،وثالثة شرعية تكليفية،ومن أدركها وفقهها ازداد يقينا بعد هداية،واستبصر بعد عماية،واستهدى بها بعد غواية:

---

[24] - (انظر الخبر بطوله في المسند الجامع (٤/ ٥٣٠)(٣١٩١) ودلائل النبوة للبيهقي محققا (٢/ ٣٠١) وهو صحيح

أولا– الأحكام الكونية القدرية:

فقد أخبر الله جل جلاله بأن له سننا في الخلق لا تتخلف،ومن ذلك:

١– الانتقام من المجرمين،وقطع دابر الظالمين،كما قال تعالى:{ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ } [السجدة:٢٢]،وقال سبحانه {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:٤٥]،فمن أسباب استحقاق الله جل جلاله لكل المحامد هو كونه رب العالمين الذي يقطع دابر الظالمين،وينتقم من المجرمين،لأنه رب العالمين الرحمن الرحيم!

ولا يشك من له أدنى معرفة بأحوال الأنظمة العربية اليوم،أنها من أشد الأنظمة ظلما وطغيانا وإجراما بحق شعوبها،فقد وقع في سجونهم من الجرائم ما لا يتصوره عقل،وتواتر هذا عن الأمن المصري والتونسي والليبي وفي كل بلد عربي،ما لا يستطيع معه أحد أن ينفيه،وبلغ بهم الإجرام أن يرمى الإنسان من أعلى الأدوار حتى يموت،وأن يصعق بالكهرباء حتى يحترق،ويمشط بأمشاط الحديد حتى يتقطع،ويدفن حيا،ويهتك عرضه،وتغصب أمامه زوجته وأخته وأمه..الخ

وهذا من الظلم والطغيان الذي لا يرضى الله عنه،بل ينتقم ممن فعله،ويقطع دابره،ولهذا لا يدع الله لهؤلاء الطغاة باقية،بل يستقصيهم ويحصيهم،وهذا ظاهر للعيان فيما يجري لهؤلاء،وربما أمهلهم الله إلى أجل ليأخذهم أخذ عزيز مقتدر،فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ:ثُمَّ قَرَأَ:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود:١٠٢][25]

فكل من يتابع أخبار ما جرى للرئيس التونسي ثم المصري ثم الليبي،يعجب كل العجب كيف أعمى الله بصائرهم عن اتخاذ الرأي السديد قبل انفلات الأوضاع،وكيف أنه كانت أمامهم فرص للنجاة فيما يتوقع المراقبون،ويظنه المتابعون،فإذا الله يطمس على قلوبهم،ويمكر بهم {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [الأنفال:٣٠]،فيمضون

[25] – صحيح البخاري (٦/ ٧٤)(٤٦٨٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٧)٦١ – (٢٥٨٣)

إلى قدر الله الذي لا يحابي أحدا،ولا يتخلف أبدا،{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:٤٥]!

٢- نصر المظلومين،ونصر من بُغي عليهم ظلما وعدوانا،فقد وعد الله بنصرهم جميعا،كما قال تعالى { وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [الإسراء:٣٣]،وكما قال تعالى { وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [الحج:٦٠]،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ:الْإِمَامُ الْعَادِلُ،وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ،وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ:لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ "[26]

وهذا ظاهر في هذه الأحداث الجارية فإن الله أظهر فيها نصره للمظلومين نصرا لم يتوقعوه،ولم يظنوه،ولم يخطر على بالهم،حتى بكوا من شدة الفرح،كما بكوا قبل ذلك من شدة الحزن!

فتجلى عدل الله في الدنيا،كما سيتجلى عدله يوم القيامة كما قال سبحانه {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } [إبراهيم:٤٢]!

٣- توريث المستضعفين الأرض،وجل الدولة والعاقبة لهم،وهي سنة من سنن الله في الخلق،فقد جعل الله الأيام بين الناس دولا { وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران:١٤٠] لتتجلى قدرته وعزته،وأنه وحده مالك الملك،يؤتي الملك من يشاء،ويترع الملك ممن يشاء،ولهذا يرى الخلق جميعا كيف يُعلي الله شأن المستضعفين،ويديل الدولة لهم،وكيف يذل الملوك والمستكبرين،ويترع ملكهم {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)} [القصص]!

---

[26] - الدعاء للطبراني (ص:٣٩٢)(١٣١٥) صحيح لغيره

وقد شاهد العالم كله كيف أورث الله كثيرا من المستضعفين ملك بلدانهم،كما جرى لمانديلا في جنوب أفريقيا،وفاليسيا زعيم حركة التضامن في بولندا،.....فقد أخرجهم الله من السجون إلى العروش،لا فرق في هذه السنن بين مسلم وغير مسلم!

٤- تدمير المترفين،وإهلاك المفسدين،وقصم الملأ المستكبرين،كما قال تعالى {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء:١٦]...

فهذه سنة كونية قدرية يراها الناس في كل عصر ومصر،فكم قصم الله من الملأ المترفين،وكم دمر من المستكبرين،حتى أصبحوا أحاديث،وجعلهم آية لمن خلفهم،كما قال تعالى لفرعون حين غرقه {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) } [يونس:٩١ - ٩٣]!فالله جل جلاله لا يرضى الفساد في الأرض { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } [الأعراف:٥٦]،ولا يصلح عمل المفسدين { إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ } [يونس:٨١]!

وقد أفسد هؤلاء الطغاة في مصر وتونس وليبيا وغيرها من البلدان العربية فسادا عظيما ضجت منه الأرض،وسخطت منه السماء،فتجاوزوا الفساد الأخلاقي،إلى فساد جنائي وسياسي ومالي وإداري،حتى صارت أموال الشعوب نهبا لهم ولزوجاتهم وأبنائهم،بينما يموت الفقراء في بلدانهم جوعا وفقرا!

٥- حدوث التغيير عند وجود أسبابه،فإن الله جعل لكل شيء أسبابه التي يوجد بوجودها،ويتخلف بتخلفها،ومن ذلك أن التغيير في المجتمع لا يحدث إلا حين يتغير الناس {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد:١١]،فلما غير أهل تونس وأهل مصر وليبيا أنفسهم،وتحرروا من الخوف من الطاغوت،وخرجوا عليه،وكفروا به،وتصدوا له،جعل الله العاقبة لهم،وغير أحوالهم،بعد عقود من الركود،وسنين من الجمود!

فهذه بعض سنن الله الجارية على الخلق جميعا،وهي سنن كونية لا فرق فيها بين مسلم وغير مسلم،كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية {اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً}[27]

ثانيا–الأحكام الخبرية:

فقد تواترت الأخبار النبوية عن الأحوال المستقبلية للأمة،وأنها تتعرض بعد النبوة والخلافة الراشدة وخلافة الرحمة،إلى ملك عضوض،ثم ملك جبري،ثم حكم الطواغيت،ثم تعود خلافة على نهج النبوة،ومن تلك الأخبار:

١ــ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ "[28]

٢ــ عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ،عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَوَّلُ دِينِكُمْ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ أَعْفَرُ،ثُمَّ مُلْكٌ وَجَبَرُوتٌ يُسْتَحَلُّ فِيهَا الْخَمْرُ وَالْحَرِيرُ» [29]

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ أَوَّلَ دِينِكُمْ بَدَأُ نُبُوَّةٍ وَرَحْمَةٍ،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَجَبْرِيَّةً،يُسْتَحَلُّ فِيهَا الدَّمُ.[30]

---

27 – مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٣)

28 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٣٥٥)(١٨٤٠٦) صحيح

29 – سنن الدارمي (٢/ ١٣٣٤)(٢١٤٦) صحيح لغيره

30 – مسند البزار –مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة (٤/ ١٠٨)(١٢٨٢) صحيح لغيره

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ عَضُوضٌ،ثُمَّ تَصِيرُ جَبْرِيَّةً وَعَبَثًا»[31]

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَحَدُهُمَا:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكًا عَضُوضًا» وَقَالَ أَحَدُهُمَا:«عَاضٌّ وَفِيهِ رَحْمَةٌ،ثُمَّ جَبَرُوتٌ صَلْعَاءُ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا مُتَعَلَّقٌ،تُضْرَبُ فِيهَا الرِّقَابُ،وَتُقْطَعُ فِيهَا الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ،وَتُؤْخَذُ فِيهَا الْأَمْوَالُ»[32]

٣ــ عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«أَوَّلُ دِينِكُمْ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ وَجَبْرِيَّةٌ يُسْتَحَلُّ فِيهَا الْحِرُ وَالْحَرِيرُ».[33]

٤ــ عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ قَالَ:كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ،وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يَتَنَاجَيَانِ بَيْنَهُمَا بِحَدِيثٍ،فَقُلْتُ لَهُمَا:مَا حَفِظْتُمَا وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّه ﷺبِي؟ قَالَ:وَكَانَ أَوْصَاهُمَا بِي،قَالَا:مَا أَرَدْنَا أَنْ نَنْتَجِي بِشَيْءٍ دُونَكَ،إِنَّمَا ذَكَرْنَا حَدِيثًا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ،فَجَعَلَا يَتَذَاكَرَانِهِ قَالَا:«إِنَّهُ بَدَأَ هَذَا الْأَمْرُ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ كَائِنٌ خِلَافَةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ كَائِنٌ مُلْكًا عَضُوضًا،ثُمَّ كَائِنٌ عُتُوًّا وَجَبْرِيَّةً وَفَسَادًا فِي الْأُمَّةِ،يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيرَ وَالْخُمُورَ وَالْفُرُوجَ وَالْفَسَادِ فِي الْأُمَّةِ،يُنْصَرُونَ عَلَى ذَلِكَ،وَيُرْزَقُونَ أَبَدًا حَتَّى يَلْقُوا اللَّهَ»[34]

٥ــ عَنْ أَنَسٍ،قَالَ:إِنَّهَا سَتَكُونُ مُلُوكٌ،ثُمَّ الْجَبَابِرَةُ،ثُمَّ الطَّوَاغِيتُ.[35]

٦ــ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا يَلْبَثُ الْجَوْرُ بَعْدِي إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَطْلُعَ،فَكُلَّمَا طَلَعَ مِنَ الْجَوْرِ شَيْءٌ ذَهَبَ مِنَ الْعَدْلِ مِثْلُهُ،حَتَّى يُولَدَ فِي الْجَوْرِ مَنْ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ،ثُمَّ يَأْتِي اللهُ بِالْعَدْلِ،فَكُلَّمَا جَاءَ مِنَ الْعَدْلِ شَيْءٌ،ذَهَبَ مِنَ الْجَوْرِ مِثْلُهُ،حَتَّى يُولَدَ فِي الْعَدْلِ مَنْ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ "[36]

---

31 – الفتن لنعيم بن حماد (١/ ٩٨)(٢٣٥) صحيح

32 – الفتن لنعيم بن حماد (١/ ٩٨)(٢٣٣) صحيح لغيره

33 – مسند الشاميين (١٣٦٩) صحيح لغيره

34 – مسند أبي يعلى الموصلي (٢/ ١٧٧)(٨٧٣) صحيح لغيره

35 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٦/ ٨١)(٣١٢٠٦) صحيح موقوف ومثله لا يقال بالرأي

36 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٣/ ٤٢٢)(٢٠٣٠٨) حديث حسن

فهذه الأحاديث وغيرها تؤكد أن الانحراف سيصل بالأمة إلى حد أن يحكمها الطاغوت،بل الطواغيت،فتسفك على أيديهم الدماء،وتهتك الأعراض،وتستباح المحرمات،وتستحل الموبقات،و لم يحدث في تاريخ الأمة أن عمت هذه الظاهرة كما في هذا العصر!

كما تؤكد الأخبار أن هذا كله سيتغير،وستعود الأمة إلى العدل والإصلاح،والحديث الأخير يؤكد أنه كما بدأ الجور يحل شيئا فشيئا محل العدل،فإن العدل سيعود أيضا شيئا فشيئا محل الظلم والجور،حتى يولد في الإسلام من لا يعرف إلا العدل،فقد انتهى عصر الملك الجبري،وانتهى عصر الطاغوت،وستبدأ الأمة تشق طريقها نحو تحقيق العدل والإصلاح،وستصيب تارة،وتخطئ تارة،حتى تبلغ درجة الرشد،ثم تعود كما أراد الله لها خلافة راشدة من جديد!

ثالثا:الأحكام الشرعية التكليفية:

هذا مختصر لبيان الحكم الشرعي في مثل هذه الثورات،وهو وجوب القيام بها،ووجوب نصرتها،وذلك من وجوه:

أولا:أنها ثورة على الظلم والطغيان،وعلى البغي والعدوان،وقد أمر الشارع برد الظلم،كما قال تعالى في أبرز صفات أهل الإيمان {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)} [الشورى:٣٩ - ٤٢].

فأوجب الله على المؤمنين الانتصار ممن ظلمهم،والانتصاف لأنفسهم،ورد العدوان،كما في قوله تعالى {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } [البقرة:١٩٤].

وعَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:" أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ المَرِيضِ،وَاتِّبَاعِ الجِنَازَةِ،وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ،وَإِجَابَةِ الدَّاعِي،وَرَدِّ السَّلاَمِ،وَنَصْرِ المَظْلُومِ،وَإِبْرَارِ المُقْسِمِ."[37]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي المَعَاصِي فَنَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا،فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ،فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ {عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} » قَالَ:فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ:«لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا»[38]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسِقُونَ} [المائدة:٨١]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[39]

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[40]

وعَنْ قَيْسٍ،قَالَ:قَامَ أَبُو بَكْرٍ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [المائدة:١٠٥]- حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِ الْآيَةِ - أَلا وَإِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ لَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ،أَوْشَكَ اللهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ "[41]

---

37 – صحيح البخاري (٨/ ٤٩)(٦٢٢٢)

38 – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٥٢)(٣٠٤٧) حسن

39 – سنن أبي داود (٤/ ١٢٢)(٤٣٣٦) حسن

40 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

41 – مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٢٠٨)(٢٩) صحيح

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلَا تَظَالَمُوا..."[٤٢]

،فكل هذه النصوص تؤكد وجوب التصدي للظالم والأخذ على يديه!

ثانيا:أن الله أوجب على المؤمنين التعاون على البر والتقوى،وحرم عليهم التعاون على الإثم والعدوان،كما قال تعالى {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [المائدة:٢]،وحرم الركون إلى الظالمين فقال { وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَخْبَرَهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ،وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ،وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً،فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ،وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٤٣]

فكل من أعان الظالم على ظلمه ولو بكلمة فقد شاركه في جريمته،وباء بإثم جريرته،وكل من خذل مظلوما وهو يستطيع نصرته،أو أسلمه للظالم فقد ظلمه!فالواجب التعاون على البر والتقوى،ومن ذلك التعاون على القيام بالحق،والتصدي للجور،والأخذ على يد الظالم،ونصرة من ثار عليه!

ثالثا:أن الله جعل الأمر في الإسلام شورى{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [الشورى:٣٨] وحرم اغتصاب السلطة،وأبطل كل صور الغصب،قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:أَمَا وَاللهِ مَا وَجَدْنَا فِيمَا حَضَرْنَا أَمْرًا هُوَ أَقْوَى مِنْ مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،خَشِينَا إِنْ فَارَقْنَا الْقَوْمَ،وَلَمْ تَكُنْ بَيْعَةٌ،أَنْ يُحْدِثُوا بَعْدَنَا بَيْعَةً،فَإِمَّا أَنْ نُتَابِعَهُمْ عَلَى مَا لَا نَرْضَى،وَإِمَّا أَنْ نُخَالِفَهُمْ فَيَكُونَ فِيهِ فَسَادٌ،فَمَنْ بَايَعَ أَمِيرًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةِ الْمُسْلِمِينَ فَلا بَيْعَةَ لَهُ،وَلا بَيْعَةَ لِلَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةَ أَنْ يُقْتَلا "[٤٤]

---

42 – صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)٥٥ – (٢٥٧٧)

43 – صحيح البخاري (٣/ ١٢٨)(٢٤٤٢) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٦)٥٨ – (٢٥٨٠)

44 – مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٤٤٩) (٣٩١) صحيح

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:«مَنْ دَعَا إِلَى إِمَارَةِ نَفْسِهِ،أَوْ غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَقْتُلُوهُ»[45]

فلا شرعية للأنظمة الجبرية،ولا طاعة لها على الأمة،هذا على فرض إسلامها!

فالواجب تغييرها،ورد الحق إلى الأمة شورى بينها،كما أمر الله،فكل من اغتصب السلطة فهو ظالم جائر،يجب على الأمة قتاله حتى يرد الأمر لها،ويرجع عن الغصب!

رابعا:أنها ثورة على حكومات خائنة للأمة،موالية لعدوها،عميلة له،وهذا في حد ذاته موجب لخلعها والثورة عليها،عند كل أمم الأرض مؤمنهم ومشركهم ووثنيهم،كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة:٥١]،وإنما اشترط الله لمشروعية السلطة أن تكون منا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩].

وقد أسلمت هذه الأنظمة الأمة وأرضها وحقوقها ومصالحها للعدو يتصرف فيها كما يشاء،وقد تجلى ذلك في أوضح صوره في حرب غزة،وفي احتلال العراق،واحتلال أفغانستان،وهذه الخيانة للأمة ولشعوبها كافية وحدها في وجوب تغيير هذه الحكومات على فرض شرعيتها!

خامسا:أن الله جعل القصاص حكما عدلا،كما قال تعالى { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٧٩]،وقد كان النبي ﷺ يقص من نفسه،فكيف بمن قتل المئات بل الآلاف ظلما وعدوانا في السجون وخارجها،فللأمة الحق في الخروج عليه،والقصاص منه،وإقامة العدل فيه،بل هذا الواجب عليها،وقد أثبتت الثورات قدرة الأمة على خلع الطغاة بأقل ما يمكن من المفاسد،مقارنة مع مفسدة بقائهم في السلطة وما يترتب عليه من سفك الدماء،وإهدار الحقوق،بل وتسليم الأمة لعدوها وهي أشد المفاسد وأخطرها،إذ الغاية من إقامة السلطة أن تكون حماية للأمة والدولة من عدوها،فإذا كانت

[45] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٤٥)(٩٧٥٩) صحيح لغيره

سببا في تسلط العدو عليها سقطت مشروعية وجودها،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ،يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ،وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ،كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ،وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ"[٤٦]

فكيف بمن يقاتلنا العدو من ورائه،بل ويأتي به العدو ويسلطه على الأمة!

ولو لم يتحقق في هذه الثورات إلا دفع الظلم،والقصاص من الظالم،ونصرة المظلوم،لكان ذلك من أحب الأعمال إلى الله،ومن أوجبها،ومن العدل الذي جاء الإسلام به { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف:٢٩] وقال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد:٢٥] [٤٧]

46 -»صحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٣ - (١٨٤١)

47 - انظر:http://www.dr-hakem.com/

المبحث السادس

الأدلة الشرعية على مشروعية المقاومة السياسية السلمية

أصبحت قضية التغيير والإصلاح السياسي في العالم العربي اليوم القضية الرئيسة في ظل الانخناق السياسي والتخلف الشامل الذي تعيشه المنطقة العربية خاصة وكل الدراسات تؤكد أن العالم العربي سيشهد تحولات جذرية كبرى قد تعصف بمجتمعاته بعد أن فشلت حكوماته فشلا ذريعا في قيادته نحو الإصلاح وهو ما يقتضي طرح رؤى جديدة للإصلاح والتغيير تخفف من حدة هذا التحول القادم والحيلولة دون حدوث الاصطدام والعنف المسلح للمحافظة على السلم الأهلي والانجازات القائمة بعد أن أثبتت التجارب أن استخدام القوة قد لا تحقق بالضرورة النتائج المطلوبة ــ مع التأكيد على مشروعيتها في حد ذاتها إذا توفرت لها شروطها ــ إلا أنه بالإمكان طرح أساليب جديدة قد تكون أكثر فاعلية في تغيير الأنظمة الاستبدادية وإسقاطها دون اللجوء إلى العنف المسلح ويمكن القول بأن الدعوة إلى الإصلاح في القرآن والسنة تقوم أساسا على (التغيير السلمي) أو ما يطلق عليه (اللا عنف) وهذا ظاهر جلي في أكثر النصوص،والأدلة على مشروعيته كثيرة ...

الدليل الأول

تقرير قاعدة الدعوة إلى الإصلاح بالحكمة والموعظة والمجادلة

كما في قوله تعالى:{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [النحل:١٢٥].

قال القرطبي في تفسير هذه الآية:(هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ فِي وَقْتِ الْأَمْرِ بِمُهَادَنَةِ قُرَيْشٍ،وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ بِتَلَطُّفٍ وَلِينٍ دُونَ مُخَاشَنَةٍ وَتَعْنِيفٍ،وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُوعَظَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَهِيَ مُحْكَمَةٌ فِي جِهَةِ الْعُصَاةِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ،وَمَنْسُوخَةٌ بِالْقِتَالِ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ. وَقَدْ قِيلَ:إِنَّ مَنْ أَمْكَنَتْ مَعَهُ هَذِهِ الْأَحْوَالُ مِنَ الْكُفَّارِ وَرُجِيَ إِيمَانُهُ بِهَا دُونَ قِتَالٍ فَهِيَ فِيهِ مُحْكَمَةٌ. والله أعلم.)[٤٨]

---

[48] – تفسير القرطبي (١٠/ ٢٠٠)

والصحيح الراجح أنها محكمة غير منسوخة مع المسلمين وغير المسلمين في دار الإسلام وفي غير دار الإسلام فهذا هو الأصل في الدعوة إلى الإصلاح أنها بالحكمة واللين والرفق وهذا لا يتعارض مع النصوص الأخرى التي توضع بمواضعها ويراعى فيها حيثياتها دون إلغاء للأصل ولهذا كانت دعوة الرسل كافة دعوة للإصلاح السلمي كما قال شعيب لقومه:{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود:٨٨]

قال القرطبي في تفسيره:(أَيْ مَا أُرِيدُ إِلَّا فِعْلَ الصَّلَاحِ،أَيْ أَنْ تُصْلِحُوا دُنْيَاكُمْ بِالْعَدْلِ وَآخِرَتَكُمْ بِالْعِبَادَةِ،وَقَالَ:" مَا اسْتَطَعْتُ" لِأَنَّ الِاسْتِطَاعَةَ مِنْ شُرُوطِ الْفِعْلِ دون الإرادة) [49]

كما أمر الله نبيه موسى وأخاه هارون أن يدعوا فرعون مع طغيانه وجبروته باللين:{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)} [طه:٤٣،٤٤].

الدليل الثاني

تقرير قاعدة عدم السيطرة على المخالف

كما قال تعالى:{ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)} [الغاشية:٢١،٢٢] وقال تعالى:{وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ } [ق:٤٥].

قال ابن جرير الطبري في تفسير الآية:(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَلَّطٍ،وَلَا أَنْتَ بِجَبَّارٍ،تَحْمِلُهُمْ عَلَى مَا تُرِيدُ. يَقُولُ:كُلُّهُمْ إِلَيَّ،وَدَعْهُمْ وَحُكْمِي فِيهِمْ؛ يُقَالُ:قَدْ تَسَيْطَرَ فُلَانٌ عَلَى قَوْمِهِ:إِذَا تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ.) [50]

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآيات منسوخة بآيات القتال والصحيح والراجح أنها آيات محكمات تنفي عن النبي ﷺ نفيا قاطعا أن يكون جبارا كالملوك الجبابرة الذين

---

49 – تفسير القرطبي (٩/ ٩٠)

50 – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٤/ ٣٤٠)

يقهرون الناس بالقوة على طاعتهم وإتباع أمرهم،وهذا الوصف باق له ﷺ حتى بعد هجرته والإذن له بالجهاد لدفع عدوان الظالمين،فلم يكن ملكا ولا جبارا ولا مسيطرا حتى بعد هجرته،بل أطاعه الأنصار بعقد البيعة في العقبة،وأطاعه أهل يثرب من المشركين واليهود فيها بعقد المعاهدة في صحيفة المدينة،فالحكم العام والأصل نفي التسلط والجبر على الآخرين ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة والحكم بينهم بالقسط والعدل.

وإذا كان هذا هو الأصل في الدعوة إلى الله أنها دعوة للإصلاح السلمي حتى في مواجهة الطغاة كفرعون فقد جاء القرآن والسنة بأحكام تفصيلية في كيفية مواجهة طغيان السلطة الجائرة بطرق أخرى غير استخدام القوة والعنف الذي جعلته الشريعة آخر الحلول ومن هذه الوسائل السلمية التي تفضي إلى تحقيق الإصلاح وإسقاط الأنظمة الجائرة وتغييرها:

١ ــ التنديد بالظلم ورفضه وكشفه للناس وفضحه كما قال تعالى:{لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا } [النساء:١٤٨]

وجاء في الحديث أيضا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ عِنْدَ الْجَمْرَةِ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:" أَفْضَلُ الْجِهَادِ:كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ "المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٨٢)(٨٠٨١) صحيح لغيره

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ» [٥١]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي لَا تَقُولُ لِلظَّالِمِ:أَنْتَ ظَالِمٌ،فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ "[٥٢]

قَالَ أَحْمَدُ:" وَالْمَعْنَى فِي هَذَا:أَنَّهُمْ إِذَا خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ فَتَرَكُوهُ كَانُوا مِمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ،وَأَعْظَمُ مِنَ الْقَوْلِ،وَالْعَمَلِ أَخْوَفَ،وَكَانُوا إِلَى أَنْ يَدَعُوا جِهَادَ الْمُشْرِكِينَ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ،وَأَمْوَالِهِمْ أَقْرَبَ،وَإِذَا صَارُوا كَذَلِكَ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ،وَاسْتَوَى وُجُودُهُمْ وَعَدَمُهُمْ "[٥٣]

---

51 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

52 – السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٥٨)(١١٥١٦) صحيح لغيره

53 – شعب الإيمان (١٠/ ٤٧)

فالتصدي للظلم وللظالم وكشف جرائمه مطلوب شرعا وجوبا أو استحبابا بل جعله الله في سورة الشورى وهي مكية من أبرز خصائص أهل الإيمان كما في قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)} [الشورى:٣٩ - ٤٢]

فالانتصار للنفس ودفع الظلم والتنديد به من أهم الأساليب لمواجهة الظلم والطغيان.

٢ــ تحريم إعانة السلطة الجائرة وعصيان أوامرها ــ العصيان المدني ــ كما قال تعالى:{ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]،وقال تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [المائدة:٢]،وقال موسى:{قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ } [القصص:١٧]،

وكما جاء في الحديث الصحيح عَنْ عَلِيٍّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺبَعَثَ جَيْشًا،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا،فَأَوْقَدَ نَارًا،وَقَالَ:ادْخُلُوهَا،فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا،وَقَالَ الْآخَرُونَ:إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا مِنْهَا،فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا:«لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»،وَقَالَ لِلْآخَرِينَ قَوْلًا حَسَنًا،وَقَالَ:«لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ،إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[54]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[55]

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:" كَيْفَ بِكَ يَا عَبْدَ اللهِ،إِذَا كَانَ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُضَيِّعُونَ السُّنَّةَ،وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مِيقَاتِهَا؟ " قَالَ:كَيْفَ تَأْمُرُنِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:" تَسْأَلُنِي ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ،كَيْفَ تَفْعَلُ؟ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "[56]

---

54 - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٩ - (١٨٤٠)

55 - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ١٨٥)(٤٣٧) صحيح

56 - مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٤٣٢)(٣٨٨٩) صحيح لغيره

وعن بِشْرَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَسَارٍ السُّلَمِيِّ قَالَ:خَطَبَ عُمَرُ النَّاسَ فَقَالَ:«أَيُّهَا النَّاسُ،لَا يَبْعُدَنَّ عَلَيْكُمْ،وَلَا يَطُولَنَّ يَوْمُ الْقِيَامَةِ،فَإِنَّهُ مَنْ وَافَتْهُ مَنِيَّتُهُ فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ قِيَامَتُهُ،لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ فِي حَسَنٍ،وَلَا يَعْتِبَ مِنْ سَيِّئٍ،أَلَا لَا سَلَامَةَ لِامْرِئٍ فِي خِلَافِ السُّنَّةِ،وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ،أَلَا وَإِنَّكُمْ تُسَمُّونَ الْهَارِبَ مِنْ ظُلْمِ إِمَامِهِ الْعَاصِي،أَلَا وَإِنَّ أَوْلَاهُمَا بِالْمَعْصِيَةِ الْإِمَامُ الظَّالِمُ»[57]

ليؤكد بذلك أن حق السلطة بالطاعة إنما هو منوط بما كان معروفا أنه طاعة لله،وبهذا سبق الإسلام جميع القوانين في تقييد حق السلطة في الطاعة،وأنها ليست طاعة مطلقة،ولا طاعة لذات السلطة،وأن السلطة تفقد حق الطاعة عندما تأمر بالمنكر أو الظلم.

الدليل الثالث

الدعوة إلى اعتزال السلطة الجائرة وعدم العمل لها أو معها – المقاومة السلبية والمقاطعة الكلية–

كما قال تعالى:{وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) } [الشعراء:١٥١ - ١٥٢]

وقد نعى القرآن على من اتبعوا الجبابرة وأطاعوهم كما في قوله تعالى:{وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [هود:٥٩]،والجبار في لغة العرب الملك والطاغية واتباع أمرهم هو طاعتهم،وكما في قوله تعالى:{فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } [هود:٩٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُهْلِكُ النَّاسَ هَذَا الحَيُّ مِنْ قُرَيْشٍ» قَالُوا:فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:«لَوْ أَنَّ النَّاسَ اعْتَزَلُوهُمْ»[58]

---

[57] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٣٢٥) فيه انقطاع

[58] – صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٤) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٦)٧٤ - (٢٩١٧)

[ش(يهلك الناس) أي بسبب طلبهم للملك من أهله تقع الفتن والحروب بينهم ويتخبط الناس وتضطرب أحوالهم. (هذا الحي) أي الغلمان المذكورون في الحديث بعده وهم بعض قريش لا كلهم. (اعتزلوهم) فلا تداخلوهم ولا تقاتلوا معهم]

وعن عَمْرو بْنِ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الأُمَوِيِّ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:كُنْتُ مَعَ مَرْوَانَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ فَسَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ،يَقُولُ «هَلَاكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ غِلْمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ»،فَقَالَ مَرْوَانُ:غِلْمَةٌ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:إِنْ شِئْتَ أَنْ أُسَمِّيَهُمْ بَنِي فُلَانٍ،وَبَنِي فُلَانٍ"[59]

وعَنْ مَالِكِ بْنِ ظَالِمٍ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ لِمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ:أَخْبَرَنِي حِبِّي أَبُو الْقَاسِمِ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ،ﷺ،قَالَ:«إِنَّ فَسَادَ أُمَّتِي عَلَى يَدِي غِلْمَةٍ سُفَهَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ»[60]

وعن حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ قال:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّه ﷺعَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه،صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[61]

فالدعوة النبوية إلى اعتزال الطغاة وعدم طاعتهم مطلقا كافية في إسقاطهم إذ قوة الطغاة إنما يستمدونها من طاعة الشعوب لهم فإذا اعتزلتهم الأمة وهجرتهم تحللت قوتهم وضعفت وسقطوا تلقائيا.

---

59 – صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٥)

60 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٥١٦)(٨٤٥٠) صحيح

61 – صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ - (١٨٤٧)

[ش(تعرف منهم وتنكر) أي ترى منهم أشياء موافقة للشرع وأشياء مخالفة له. (جلدتنا) من أنفسننا وقومنا وقيل هم في الظاهر مثلنا ومعنا وفي الباطن مخالفون لنا في أمورهم وشؤونهم وجلدة الشيء ظاهره. (جماعة المسلمين) عامتهم التي تلتزم بالكتاب والسنة. (إمامهم) أميرهم العادل الذي اختاروه ونصبوه عليهم. (تعض بأصل شجرة) أي حتى ولو كان الاعتزال بالعض على أصل شجرة والعض هو الأخذ بالأسنان والشد عليها والمراد المبالغة في الاعتزال]

الدليل الرابع

المقاطعة الجزئية بعدم العمل في الوظائف التي تستقوي بها السلطة على الأمة كالشرطة وجباة الأموال

حيث نهى النبي ﷺ عن العمل في هذه الوظائف للظلمة وأئمة الجور،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،وَأَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَا:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُقَرِّبُونَ شِرَارَ النَّاسِ،وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا،فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلَا يَكُونَنَّ عَرِيفًا،وَلَا شُرْطِيًّا،وَلَا جَابِيًا،وَلَا خَازِنًا»[٦٢]

وعَنْ مَهْدِيٍّ،قَالَ:قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ:«كَيْفَ أَنْتَ يَا مَهْدِيُّ إِذَا ظُهِرَ لِخِيَارِكُمْ وَاسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ أَحْدَاثُكُمْ،أَوْ أَشْرَارُكُمْ،وَصُلِّيَتِ الصَّلَاةُ لِغَيْرِ مِيقَاتِهَا؟» قُلْتُ:لَا أَدْرِي،قَالَ:«لَا تَكُنْ جَابِيًا،وَلَا عَرِيفًا،وَلَا شُرَطِيًّا،وَلَا بَرِيدًا،وَصَلِّ الصَّلَاةَ لِمِيقَاتِهَا»[٦٣]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ لِرَجُلٍ:«لَا تَكُونَنَّ شُرْطِيًّا،وَلَا عَرِيفًا»[٦٤]

وعَنْ نَوْفٍ،قَالَ:رَأَيْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ خَرَجَ فَنَظَرَ إِلَى النُّجُومِ فَقَالَ:يَا نَوْفُ أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ قُلْتُ:بَلْ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ:يَا نَوْفُ طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا وَالرَّاغِبِينَ فِي الْآخِرَةِ أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَاطًا وَتُرَابَهَا فِرَاشًا وَمَاءَهَا طِيبًا وَالْقُرْآنَ وَالدُّعَاءَ دِثَارًا وَشِعَارًا فَرَضُوا الدُّنْيَا عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ،يَا نَوْفُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ مُرْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي إِلَّا بِقُلُوبٍ طَاهِرَةٍ وَأَبْصَارٍ خَاشِعَةٍ وَأَيْدٍ نَقِيَّةٍ فَإِنِّي لَا أَسْتَجِيبُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِي عِنْدَهُ مُظْلِمَةٌ،يَا نَوْفُ لَا تَكُونَنَّ شَاعِرًا وَلَا عَرِيفًا وَلَا شُرَطِيًّا وَلَا جَابِيًا وَلَا عَشَّارًا فَإِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ فِي سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ:إِنَّهَا سَاعَةٌ لَا يَدْعُو عَبْدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَرِيفًا أَوْ شُرَطِيًّا أَوْ جَابِيًا أَوْ عَشَّارًا أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ – وَهِيَ الطُّنْبُورُ أَوْ صَاحِبُ كُوبَةٍ – وَهِيَ الطَّبْلُ "[٦٥]

---

62 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٠/ ٤٤٦)(٤٥٨٦) حسن

63 – المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٩٩)(٩٤٩٨) صحيح

64 – جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٢٦)(٢٠٦٦٨) صحيح

65 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٥٣) حسن

ومثل الشرطة والجباية القضاء بل هو أشد،فعن زَيْدَ بْنِ أَبِي خِـــدَاشٍ،قَالَ:لَقِـــيَ سُـــفْيَانُ شَرِيكًا بَعْدَمَا وَلِيَ قَضَاءَ الْكُوفَةِ،فَقَالَ:«يَا عَبْدَ اللهِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَالْفِقْهِ وَالْخَيْرِ تَلِي الْقَضَـــاءَ وَصِرْتَ قَاضِيًا؟» فَقَالَ لَهُ شَرِيكٌ:يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ،لَابُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ قَاضٍ " فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ:يَـــا أَبَا عَبْدِ اللهِ لَابُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ شُرْطِيٍّ"[٦٦]

فشبه القضاء لهم كالعمل شرطيا لهم.

فمتى ما قررت الأمة أو شعب من شعوبها إسقاط طاغية من الطغاة واتجهت إرادتها لتحقيق هذا الهدف فمقاطعة هذه الوظائف وتركها أمر واجب شرعا وهو كاف في شـــلل قـــوة الأنظمة الاستبدادية والضغط عليها للاستجابة لإرادة الأمة.

الدليل الخامس

عدم الاعتراف بشرعية السلطة الجائرة

عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺأَبَا الْقَاسِمِ،مُحَمَّدًا ﷺيَقُولُ:" إِنَّهُ سَـــيَلِي أُمُورَكُمْ بَعْدِي رِجَالٌ يُعَرِّفُونَكُمْ مَا تُنْكِرُونَ،وَيُنْكِرُونَ عَلَيْكُمْ مَا تَعْرِفُونَ،فَلَا طَاعَةَ لِمَـــنْ عَصَى اللهَ فَلَا تَعْتُلُّوا بِرَبِّكُمْ " [٦٧]

قوله:"فلا تعتلوا بربكم"،قال السندي:من الاعتلال،أي:فلا تطيعوهم في المعاصي معـــتلين بإذن ربكم بأن أذن لكم في ذلك،فإنه ما أذن لكم بذلك،والله تعالى أعلم.

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:«خُذُوا الْعَطَاءَ مَا دَامَ عَطَاءً،فَإِذَا صَارَ رِشْوَةً فِي الدِّينِ فَلَا تَأْخُذُوهُ،وَلَسْتُمْ بِتَارِكِيهِ،يَمْنَعُكُمُ الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ،أَلَا إِنَّ رَحَى الْإِسْـــلَامِ دَائِرَةٌ،فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ،أَلَا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّـــلْطَانَ سَـــيَفْتَرِقَانِ،فَلَا تُفَـــارِقُوا الْكِتَابَ،أَلَا إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَقْضُونَ لَكُمْ،إِنْ عَصَـــيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ،وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَـــالَ:«كَمَـــا صَـــنَعَ

---

66 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٤٧)

67 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٤٢٨)(٢٢٧٦٩) حسن لغيره

أَصْحَابُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ،نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ،وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ،مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[٦٨]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«سَيَكُونُ أُمَرَاءُ يُعْرَفُونَ وَيُنْكَرُونَ،فَمَنْ نابذَهُمْ نَجَا،وَمَنِ اعْتَزَلَهُمْ سَلِمَ،وَمَنْ خالَطَهُمْ هَلَكَ»[٦٩]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ،حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ:لَمَّا بُوِيعَ أَبُو بَكْرٍ فِي السَّقِيفَةِ،وَكَانَ الْغَدُ جَلَسَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمِنْبَرِ،وَقَامَ عُمَرُ فَتَكَلَّمَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمْ بِالْأَمْسِ مَقَالَةً مَا كَانَتْ مِمَّا وَجَدْتُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ،وَلَا كَانَتْ عَهْدًا عَهِدَهُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ سَيَدْبُرُ أَمْرَنَا - يَقُولُ:يَكُونُ آخِرَنَا - وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْقَى فِيكُمْ كِتَابَهُ الَّذِي بِهِ هَدَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَإِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ هَدَاكُمُ اللَّهُ لِمَا كَانَ هَدَاهُ لَهُ،وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَمَعَ أَمْرَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ ؛ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ فَقُومُوا فَبَايِعُوهُ. فَبَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ بَيْعَةَ الْعَامَّةِ بَعْدَ بَيْعَةِ السَّقِيفَةِ،ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي،الصِّدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ،وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ،إِنْ شَاءَ اللَّهُ،وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ،إِنْ شَاءَ اللَّهُ،لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ،وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ،أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ،قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ.[٧٠]

فَقَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:وَلِيتُكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ. مِنْ بَابِ الْهَضْمِ وَالتَّوَاضُعِ،فَإِنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ وَخَيْرُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الدليل السادس

68 – المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٩٠)(١٧٢) حسن لغيره

69 – المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٩)(١٠٩٧٣) حسن لغيره

70 – البداية والنهاية ط هجر (٨/ ٨٩) وقال:وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ

التصدي للسلطة الجائرة وتغيير منكرها ومنعها من الظلم والأخذ على يدها

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:" مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ "[71]

وعَنْ قَيْسٍ قَالَ:قَالَ أَبُو بَكْرٍ:" إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥] وَإِنَّ الْقَوْمَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ،يَعُمُّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِه " [72]

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ هَذِهِ الْآيَةَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥]،قَالَ:إِنَّ النَّاسَ يَضَعُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا،أَلَا وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوَا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْ قَالَ:الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِه». [73]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِه {فَاسِقُونَ} [المائدة:٨١]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[74]

الدليل السابع

عدم دفع الزكاة والضرائب ونحوها لهم إذا كان يستقوي بها الطغاة على الأمة

---

71 – صحيح مسلم (١/ ٦٩) ٧٨ – (٤٩) و السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٥٧)(١١٥١٣)

72 – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٥١) صحيح

73 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ٥٣٩)(٣٠٤) صحيح

74 – سنن أبي داود (٤/ ١٢٢) (٤٣٣٦) حسن

سئل الإمام مالك عن دفع الزكاة للإمام الظالم:" قُلْتُ:أَرَأَيْتَ زَكَاةَ الْفِطْرِ هَلْ يَبْعَثُ فِيهَا الْوَالِي مَنْ يَقْبِضُهَا؟ فَقَالَ:قَالَ مَالِكٌ وَسَأَلْنَاهُ عَنْهَا سِرًّا فَقَالَ لَنَا:أَرَى أَنْ يُفَرِّقَ كُلُّ قَوْمٍ زَكَاةَ الْفِطْرِ فِي مَوَاضِعِهِمْ،أَهْلُ الْقُرَى حَيْثُ هُمْ فِي قُرَاهُمْ وَأَهْلُ الْعَمُودِ حَيْثُ هُمْ وَأَهْلُ الْمَدَائِنِ فِي مَدَائِنِهِمْ،قَالَ:وَيُفَرِّقُونَهَا هُمْ وَلَا يَدْفَعُونَهَا إِلَى السُّلْطَانِ إِذَا كَانَ لَا يَعْدِلُ فِيهَا. قَالَ:وَقَدْ أَخْبَرْتُكَ فِي قَوْلِ مَالِكٍ:إِذَا كَانَ الْإِمَامُ يَعْدِلُ لَمْ يَسَعْ أَحَدٌ أَنْ يُفَرِّقَ شَيْئًا مِنْ الزَّكَاةِ وَلَكِنْ يَدْفَعُ ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ.

قُلْتُ:أَرَأَيْتَ الْوَالِيَ لَوْ كَانَ عَدْلًا كَيْفَ يَصْنَعُ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ إِذْ رُفِعَتْ إِلَيْهِ،أَيُفَرِّقُهَا فِي الْمَدِينَةِ حَيْثُ هُوَ أَمْ يَرُدُّ زَكَاةَ كُلِّ قَوْمٍ إِلَى مَوَاضِعِهِمْ؟ "[٧٥]

الدليل الثامن

العمل على تغيير السلطة الجائرة وإسقاطها بالفعل بغير قتال

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» [٧٦]

وعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ،فَقُلْنَا:حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ،بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺفَبَايَعْنَاهُ،فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا،وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»،قَالَ:«إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٧٧]

---

75 – المدونة (١/ ٣٩٢)

76 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ – (٥٠)

77 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ – (١٧٠٩)

فالمنازعة المشروعة للطغاة (باليد) والمجاهدة باليد تعني (بالقوة والفعل) ويدخل ضمنها كل فعل تقوم به الأمة لتغييرهم وإسقاطهم بالقوة وليس بالضرورة بالعنف المسلح،فكل ما أزالهم عن سلطتهم وغير منكرهم فهو من التغيير باليد ومن المنازعة المشروعة بل الواجبة كالمظاهرات والاعتصامات والإضرابات إذ الشارع قد أذن للأمة بمنازعتهم الأمر حين يظهر كفر بواح والمقصود سلب السلطة منهم وتجريدهم منها فكل فعل يحقق ذلك فهو مشروع وليس بالضرورة أن يكون بالسلاح،وإن كان ذلك مشروعا بشروطه إلا أنه لا يلجأ إلى الوسيلة الأشد مع تحقق زوال المنكر بالوسيلة الأخف،ولا شك بأن إضراب الشعب عن العمل ومقاطعته له إذا كان موحدا في إرادته وقيادته خاصة في هذا العصر كفيل بتغيير النظام المستبد وإسقاطه أو على الأقل نزوله على رغبة الأمة بالإصلاح وهو المقصود.[٧٨]

[78] -أصل البحث للدكتور حاكم المطيري حفظه الله:
http://www.dr-hakem.com/Portals/Content/?info=TmpBeUpsTjFZbEJoWjJVbURPT1rdQ==.jsp

المبحث السابع

نماذج من أقوال السلفيين المانعين للمظاهرات

الذين يمنعون المظاهرات في بلاد المسلمين نوعان من المشايخ:

النوع الأول –فقهاء السلاطين في كل مكان فهم ألعوبة بيد السلطان الذي وضعهم في ذلك المنصب،ومن ثمَّ يزعمون أنه سوف يؤدي لفتنة وإراقة دماء،ومفاسد كثيرة أكثر من المصالح المرجوة على حدِّ زعمهم...

النوع الثاني – كثير ممن يتبنى الفكر السلفي يحرِّم هذه المظاهرات للأسباب المذكورة،ولأنها بدعة لا أصل لها في الإسلام....

وهذه أمثلة لهؤلاء المانعين:

١٥٥ – ما حكم المظاهرات ؟

هي غير مشروعة وعلي هذا سائر علمائنا وقد علمنا بالتجربة أن هذة المظاهرات لا قيمة لها ولا أرجعت حق مغصوب وإحراق العلم الاسرائيلي والأمريكي و صور الرؤساء لم يغير اي قرار سياسي بل أن إعتقالات وإصابات وحوادث هي نتاج تلك المظاهرات فقط

١٥٦ – اذا كان سبب حرمة المظاهرات هي المفاسد التي تنجم عنها فهل يجوز عمل مسيرة سلمية للتعبير عن رأي الشعب و بدون اي تظاهرات؟؟

الذي اعتقده عدم جواز المظاهرات حتى لو كانت سلمية.. فالمظاهرات أتتنا من الغرب والمظاهرات عندهم يمكن أن تغير قرارا سياسيا أما المظاهرات في بلاد المسلمين لا تغير شيئا. ثم الزعم بأنها مظاهرات سلمية أمر غير مضمون الدليل على ذلك المظاهرات التي نظمتها الدولة عندنا وقع فيها اعتداءات على الممتلكات ووقع إصابات في الاشتباكات بين الشرطة والشعب بالرغم من أن الدولة هي التي نظمتها.[٧٩]

المظاهرات ليست هي الحَلُّ لِمُشْكِلاتنا

---

79 -[فتاوى الشيخ أبو اسحاق الحويني ص:٣٨]

رقم الفتوى:١٣٧٧

المفتي:صالح بن فوزان الفوزان

السؤال:

هل من وسائل الدعوة القيام بالمظاهرات لحل مشاكل الأمة الإسلامية ؟

الجواب:

ديننا ليس دين فوضى؛ ديننا دين انضباط ودين نظام وهدوء وسكينة،والمظاهرات ليست من أعمال المسلمين وما كان المسلمون يعرفونها،ودين الإسلام دين هدوء وديـــن رحمـــة ودين انضباط،لا فوضى ولا تشويش ولا إثارة فتن؛ هذا هو دين الإســـلام. والحقـــوق يتوصل إليها بالمطالبة الشرعية والطرق الشرعية،والمظاهرات تحدث سفك دماء وتحـــدث تخريب أموال؛ فلا تجوز هذه الأمور.[٨٠]

80 -[فتاوى موقع الألوكة / ١] ومثله في [لقاءات الباب المفتوح(لابن عثيمين) ١٧٩/ ١٨] حكـــم المظـــاهرات في الشرع،ومثله في [مجموع فتاوى ابن باز ٦/ ٤١٨]

المبحث الثامن

فتاوى سلفية أخرى تبين جواز المظاهرات

حكم تنظيم المظاهرات والاحتجاجات

[السُّؤَالُ]

ـــ[بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الشيخ حفظكم الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أفتونا مأجورين:

الجالية الإسلامية عندنا في جنوب السويد قررت أن تقوم بمظاهرة تضامناً مع الشعب الفلسطيني،على أن تكون المظاهرة سلمية لإيصال صوت المسلمين إلى الحكومة السويدية للضغط من أجل إيقاف المجازر في حق أطفال الشعب الفلسطيني. فما حكم مثل هذه المظاهرات؟ ونحيطكم علماً أن مثل هذه المظاهرات لها دور كبير وفعال لإيصال صوت المسلمين إلى السياسيين للضغط على حكومة الصهاينة من أجل ايقاف المجازر في حق الأطفال في فلسطين.

أفتونا جزاكم الله خير الجزاء]ـــ

[الفَتْوَى]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فبارك الله فيكم على مشاعركم النبيلة،وعاطفتكم الإيمانية،وحرصكم على التزام أحكام الشرع في المنشط والمكره.

أما ماسألتم عنه من رغبتكم القيام بمظاهرة تضامنا مع إخوانكم في فلسطين فإننا نقول:

إن هذه المظاهرات وغيرها من طرائق التعبير عن الرأي،وقنوات التأثير على الآخر هي وسائل يتوصل بها إلى غايات،وليست غاية في ذاتها. وما كان على هذا النحو فإنه ينظر إليه من جهتين:

الأولى:من جهة الوسيلة المستخدمة في التعبير عن الغرض،المتوصل بها إلى الغاية،هل هي مأمور بها شرعا،أم مباحة،أم ممنوعة.

ـــ فإن كان مأمورا بها فلا شك في جواز استخدامها،وذلك مثل:المشي لشهود الصلاة في المسجد مع جماعة المسلمين،أو السعي في طلب الرزق،أو زيارة الأقارب والأرحام،أو في الدعوة إلى الله،ونحو ذلك.

ـــ وإن كانت الوسيلة ممنوعة،فإن كان منع تحريم فإنه يحرم اتخاذها أو التوصل بها إلى أي غاية،حتى وإن كانت الغاية مطلوبة شرعا،وذلك كمن يسرق ليتصدق،أو يودع ماله بفائدة بنية التبرع بهذه الفائدة في المشاريع الخيرية،أو ينشيء مشروعا سياحيا في بلاد المسلمين،تمارس فيه الرذيلة،ويباع فيه الخمر،ويجلب إليه العاهرات.. بغرض التجارة.. ونحو ذلك،فهذا ونحوه لايلتفت فيه إلى الغاية،لأن الطريق الموصل إليها ممنوع في ذاته.

فإن كانت ممنوعة منع كراهة فإنه يكره اتخاذها تبعا لذلك.

ـــ وإن كانت الوسيلة مباحة،فهذه مسألة اختلفت فيها أنظار أهل العلم بين مجيز ومانع.

ومستمسك المانعين أنهم جعلوا الوسائل تعبدية،فلا يتجاوز فيها المنصوص أو المقيس عليه والصواب -إن شاء الله تعالى- أن الوسائل - وهي الطرق إلى المقاصد- غير منحصرة،وأنها تأخذ حكم مقاصدها،وأن النظر في الوسائل يكون من جهة:هل هي ممنوعة أو لا؟. وليس:هل هي مأمور بها أو لا؟.

أي أننا في باب الوسائل ننظر:هل نهى الشارع عن هذه الوسيلة أو لا؟ ولانحتاج إلى البحث في:هل أمر بها الشارع أو لا؟ بل يكفي في الوسائل أن يكون الشارع قد أباحها أو سكت عنها.

الثانية:من جهة المقاصد،وذلك أننا لانحكم للوسائل ـــ على التفصيل السابق ـــ بحكم منفصل عن الغاية المقصودة من ورائها،لأنه قد تقرر أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإذا كان القصد مطلوبا شرعا،والغاية مأمورا بها من حيث هي،فإنه يشرع التوصل والتوسل إليها بكل وسيلة غير ممنوعة شرعا.. فنصرة المسلم المظلوم مطلوبة شرعا. قال تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ

اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الأنفال:٧٢]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ،وَتَرَاحُمِهِمْ،وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[٨١]

فكل وسيلة قديمة أو مستحدثة غير ممنوعة شرعا،يغلب على الظن أنها تحقق المقصود،لنصرة المظلوم،ورفع الظلم أو تخفيفه،فإنها جائزة،بل مأمور بها،بحسب مالها من أثر.

ومعلوم أن الشعوب لها طرائق مختلفة في التعبير عن آرائها،والشرع لايمنع من استخدام تلك الطرائق،ولا يحصر معتنقيه على وسائل بعينها،وليس مع من ادعى غير ذلك حجة نقلية ولاعقلية،بل مقاصد الشرع وقواعده،ووقائع تاريخ المسلمين في الصدر الأول تشهد بخلاف ذلك.

إذا تقرر هذا:فإننا لانرى مانعا من تنظيم المظاهرات والاحتجاجات على المذابح التي يتعرض لها إخواننا في فلسطين وغيرها من بلاد المسلمين،فإن هذا أضعف الإيمان،وأقل الواجب. والله المستعان. وهو حسبنا ونعم الوكيل.والله أعلم.[٨٢]

حتمية الفصل بين الجنسين أثناء المظاهرات

[السُّؤَالُ]

ـــ[الخروج إلى المظاهرات بالنسبة للنساء هل هو محرم؟]ـــ

[الفَتْوَى]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

---

[81] – صحيح البخاري (٨/ ١٠)(٦٠١١) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٦ – (٢٥٨٦)

[ش (تداعى له سائر الجسد) أي دعا بعضه بعضا إلى المشاركة في ذلك ومنه قوله تداعت الحيطان أي تساقطت أو قربت من التساقط]

[82] – [فتاوى الشبكة الإسلامية ٧/ ٢٧] [تَارِيخُ الْفَتْوَى]١٦ صفر ١٤٢٠

فقد سبق أن أجبنا على حكم المظاهرات في الجواب رقم:٥٨٤٣. وذكرنا هنالك أن المظاهرات وسيلة من وسائل التعبير عن عدم الرضى بالسبب الداعي لها وإنكاره،وكان رأينا في الجواب المذكور هو جواز تنظيم المظاهرات،والخروج فيها كوسيلة تعبير واحتجاج على أمر منكر مثل المذابح التي يتعرض لها المسلمون في فلسطين،وفي غيرها من بلاد المسلمين.

ونضيف هنا أن الأصل أن كل ما يباح للرجل يباح للمرأة،إلا ما ورد النص من الشارع بتخصيصه بالرجل دون المرأة الأمر الذي يجعل حكم خروج المرأة في المظاهرات هو حكم خروج الرجل.

هذا في الأصل،ولكنه قد يعرض لخروج المرأة ما يجعله غير جائز،كأن يؤدي خروجها إلى مزاحمة الرجال الأجانب في بعض الحالات.

ومن هنا،فإن على القائمين على تنظيم هذه المظاهرات أن يسعوا جاهدين في الفصل بين الجنسين خلال سير المظاهرة،وهذا أمر سهل خصوصاً مع انتشار وسائل التوعية ولله الحمد.والله أعلم.[٨٣]

[83] - [فتاوى الشبكة الإسلامية ٧/ ٢٤] [تَارِيخُ الْفَتْوَى] ١٤ صفر ١٤٢٣

المبحث التاسع

الرد على مانعي مشروعية المظاهرات السلمية[84]

إن من حق المسلمين – كغيرهم من سائر البشر – أن يسيروا المسيرات وينشئوا المظاهرات،تعبيرا عن مطالبهم المشروعة،وتبليغا بحاجاتهم إلى أولي الأمر،وصنّاع القرار،بصوت مسموع لا يمكن تجاهله. فإن صوت الفرد قد لا يسمع،ولكن صوت المجموع أقوى من أن يتجاهل،وكلما تكاثر المتظاهرون،وكان معهم شخصيات لها وزنها:كان صوتهم أكثر إسماعا وأشد تأثيرا. لأن إرادة الجماعة أقوى من إرادة الفرد،والمرء ضعيف بمفرده قوي بجماعته. ولهذا قال تعالى:{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة:٢][85] والمظاهرات من الوسائل المعاصرة للتعبير عن الرأي وإظهار المشاعر والأحاسيس،وإذا أردنا أن نعطي حكماً شرعياً للمظاهرات،فلا بد أولاً من تحرير محل النزاع كما يقول الفقهاء،حتى يكون كلامنا دقيقاً،فالمظاهرات التي أتكلم عليها هي المظاهرات التي تخلو من المحرمات والمخالفات مثل:اختلاط الرجال بالنساء أثناء المظاهرة،وخروج النساء متبرجات،ومثل الاعتداء على ممتلكات الناس كتحطيم السيارات والمحلات أو حرق المباني،واستخدام السباب والشتائم والهتاف بشعارات لا يقرها الشرع،ونحو ذلك من المخالفات التي تحدث في المظاهرات.

الأدلة على مشروعية المظاهرات السلمية

إذا تقرر هذا فإن المظاهرات تضبطها القواعد الشرعية التالية:

أولاً:قاعدة الأصل في الأشياء الإباحة.

---

84 – انظر:فتاوى يسألونك (١٤/ ٢٥) فما بعدها

85 – http://www.qaradawi.net/fatawaahkam/٣٠٩٢٩-٢٠١١-٠٨-٠٨-١٧-١٠.html

فلا حرام إلا ما جاء بنصٍّ صحيح الثبوت،صريح الدلالة على التحريم. أما ما كان ضعيفا في مسنده،أو كان صحيح الثبوت،ولكن ليس صريح الدلالة على التحريم،فيبقى على أصل الإباحة،حتى لا نحرم ما أحل الله.

ومن هنا ضاقت دائرة المحرمات في شريعة الإسلام ضيقا شديدا،واتسعت دائرة الحلال اتساعا بالغا. ذلك أن النصوص الصحيحة الصريحة التي جاءت بالتحريم قليلة جدا،وما لم يجيء نص بحله أو حرمته،فهو باق على أصل الإباحة،وفي دائرة العفو الإلهي.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،رَفَعَ الْحَدِيثَ،قَالَ:" مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ،فَهُوَ حَلَالٌ،وَمَا حَرَّمَ،فَهُوَ حَرَامٌ،وَمَا سَكَتَ عَنْهُ،فَهُوَ عَافِيَةٌ،فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ،فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ نَسِيًّا "،ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم:٦٤][86]

وعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺعَنِ السَّمْنِ وَالْجُبْنِ وَالْفِرَاءِ،فَقَالَ:" الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ،وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللهُ فِي كِتَابِهِ،وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ "[87]

فلم يشأ عليه الصلاة والسلام أن يجيب السائلين عن هذه الجزئيات،بل أحالهم على قاعدة يرجعون إليها في معرفة الحلال والحرام،ويكفي أن يعرفوا ما حرم الله،فيكون كل ما عداه حلالا طيبا.

وعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:" إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ،فَلَا تُضَيِّعُوهَا،وَحَدَّ حُدُودًا،فَلَا تَعْتَدُوهَا،وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ،فَلَا تَنْتَهِكُوهَا،وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رُخْصَةً لَكُمْ،لَيْسَ بِنِسْيَانٍ،فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا "[88]

وهذه القاعدة كما قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:[اعْلَمْ أَنَّ الْأَصْلَ فِي جَمِيعِ الْأَعْيَانِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَتَبَايُنِ أَوْصَافِهَا أَنْ تَكُونَ حَلَالًا مُطْلَقًا لِلْآدَمِيِّينَ وَأَنْ تَكُونَ طَاهِرَةً لَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ مُلَابَسَتُهَا وَمُبَاشَرَتُهَا وَمُمَاسَّتُهَا وَهَذِهِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ

86 – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١)(١٩٧٢٤) صحيح

87 – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١)(١٩٧٢٣) صحيح لغيره

88 – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١)(١٩٧٢٥) صحيح لغيره

وَمَقَالَةٌ عَامَّةٌ وَقَضِيَّةٌ فَاضِلَةٌ عَظِيمَةُ الْمَنْفَعَةِ وَاسِعَةُ الْبَرَكَةِ يَفْزَعُ إِلَيْهَا حَمَلَةُ الشَّرِيعَةِ فِيمَا لَا يُحْصَى مِنْ الْأَعْمَالِ وَحَوَادِثِ النَّاسِ][89]

ومن المعلوم عند الفقهاء والأصوليين أن الأفعال داخلة في عموم القاعدة،قال العلامة العثيمين:[الأصل في الأشياء عموماً الأفعال والأعيان وكل شيء الأصل فيه الحل][90]

ومما يدل على ذلك ما ورد في الحديث عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:«كُنَّا نَعْزِلُ،وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ» قَالَ سُفْيَانُ:لَوْ كَانَ شَيْئًا يُنْهَى عَنْهُ لَنَهَانَا عَنْهُ الْقُرْآنُ" [91]

قال العلامة ابن القيم:[وَهَذَا مِنْ كَمَالِ فِقْهِ الصَّحَابَةِ وَعِلْمِهِمْ،وَاسْتِيلَائِهِمْ عَلَى مَعْرِفَةِ طُرُقِ الْأَحْكَامِ وَمَدَارِكِهَا،وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَمْرَيْنِ:أَحَدُهُمَا:أَنَّ أَصْلَ الْأَفْعَالِ الْإِبَاحَةُ،وَلَا يَحْرُمُ مِنْهَا إِلَّا مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ،الثَّانِي:أَنَّ عِلْمَ الرَّبِّ تَعَالَى بِمَا يَفْعَلُونَ فِي زَمَنِ شَرْعِ الشَّرَائِعِ وَنُزُولِ الْوَحْيِ وَإِقْرَارُهُ لَهُمْ عَلَيْهِ دَلِيلٌ عَلَى عَفْوِهِ عَنْهُ،وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا الْوَجْهِ وَالْوَجْهِ الَّذِي قَبْلَهُ أَنَّهُ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ يَكُونُ مَعْفُوًّا عَنْهُ اسْتِصْحَابًا،وَفِي الثَّانِي يَكُونُ الْعَفْوُ عَنْهُ تَقْرِيرًا لِحُكْمِ الِاسْتِصْحَابِ،وَمِنْ هَذَا النَّوْعِ تَقْرِيرُهُ لَهُمْ عَلَى أَكْلِ الزُّرُوعِ الَّتِي تُدَاسُ بِالْبَقَرِ،مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ لَهُمْ بِغَسْلِهَا،وَقَدْ عَلِمَ - ﷺ- أَنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ تَبُولَ وَقْتَ الدِّيَاسِ،وَمِنْ ذَلِكَ تَقْرِيرُهُ لَهُمْ عَلَى الْوُقُودِ فِي بُيُوتِهِمْ وَعَلَى أَطْعِمَتِهِمْ بِأَرْوَاثِ الْإِبِلِ وَأَخْثَاءِ الْبَقَرِ وَأَبْعَارِ الْغَنَمِ،وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ دُخَانَهَا وَرَمَادَهَا يُصِيبُ ثِيَابَهُمْ وَأَوَانِيَهُمْ،وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِاجْتِنَابِ ذَلِكَ،وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ وَلَا بُدَّ:طَهَارَةُ ذَلِكَ،أَوْ أَنَّ دُخَانَ النَّجَاسَةِ وَرَمَادَهَا لَيْسَ بِنَجِسٍ.][92]

وقال الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي:[وأحب أن أنبه هنا على أن أصل الإباحة لا يقتصر على الأشياء والأعيان بل يشمل الأفعال والتصرفات التي ليست من أمور العبادة وهي التي نسميها (العادات والمعاملات) فالأصل فيها عدم التحريم وعدم التقييد إلا ما

---

89 - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية- دار الوفاء (٢١/ ٥٣٥)

90 - القواعد الفقهية ص٣١

91 - صحيح مسلم (٢/ ١٠٦٥)١٣٦ - (١٤٤٠)

92 - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٧٩)

حرمه الشارع وألزم به،وقوله تعالى:{وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ} سورة الأنعام الآية ١١٩،عامٌ في الأشياء والأفعال.

وهذا بخلاف العبادة فإنها من أمر الدين المحض الذي لا يؤخذ إلا عن طريق الوحي وفيها جاء الحديث الصحيح عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ،فَهُوَ رَدٌّ»[٩٣]...

وذلك أن حقيقة الدين تتمثل في أمرين:ألا يُعبد إلا الله،وألا يُعبد إلا بما شرع،فمن ابتدع عبادة من عنده – كائنا من كان – فهي ضلالة ترد عليه،لأن الشارع وحده هو صاحب الحق في إنشاء العبادات التي يُتقرب بها إليه.

وأما العادات أو المعاملات فليس الشارع منشئا لها،بل الناس هم الذين أنشأوها وتعاملوا بها،والشارع جاء مصححا لها ومعدلا ومهذبا،ومقرا في بعض الأحيان ما خلا عن الفساد والضرر منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:[إِنَّ تَصَرُّفَاتِ الْعِبَادِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ نَوْعَانِ:عِبَادَاتٌ يَصْلُحُ بِهَا دِينُهُمْ،وَعَادَاتٌ يَحْتَاجُونَ إلَيْهَا فِي دُنْيَاهُمْ،فَبِاسْتِقْرَاءِ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ نَعْلَمُ أَنَّ الْعِبَادَاتِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ أَوْ أَحَبَّهَا لَا يَثْبُتُ الْأَمْرُ بِهَا إلَّا بِالشَّرْعِ.

وَأَمَّا الْعَادَاتُ فَهِيَ مَا اعْتَادَهُ النَّاسُ فِي دُنْيَاهُمْ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ،وَالْأَصْلُ فِيهِ عَدَمُ الْحَظْرِ،فَلَا يُحْظَرُ مِنْهُ إلَّا مَا حَظَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ هُمَا شَرْعُ اللَّهِ،وَالْعِبَادَةُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَأْمُورًا بِهَا،فَمَا لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ كَيْفَ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ [عِبَادَةٌ]؟ ! وَمَا لَمْ يَثْبُتْ مِنَ [الْعِبَادَاتِ] أَنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ كَيْفَ يُحْكَمُ عَلَى أَنَّهُ] مَحْظُورٌ؟ وَلِهَذَا كَانَ أحمد وَغَيْرُهُ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْحَدِيثِ يَقُولُونَ:إنَّ الْأَصْلَ فِي الْعِبَادَاتِ التَّوْقِيفُ،فَلَا يُشْرَعُ مِنْهَا إلَّا مَا شَرَعَهُ اللَّهُ،وَإِلَّا دَخَلْنَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى:٢١] [الشُّورَى:٢١].

---

[93] – صحيح البخاري (٣/ ١٨٤)(٢٦٩٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣)١٧ – (١٧١٨)

[ش (أحدث) اخترع. (أمرنا هذا) ديننا هذا وهو الإسلام. (ما ليس فيه) مما لا يوجد في الكتاب أو السنة ولا يندرج تحت حكم فيهما أو يتعارض مع أحكامها وفي بعض النسخ (ما ليس منه). (رد) باطل ومردود لا يعتد به]

وَالْعَادَاتُ الْأَصْلُ فِيهَا الْعَفْوُ،فَلَا يُحْظَرُ مِنْهَا إِلَّا مَا حَرَّمَهُ،وَإِلَّا دَخَلْنَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ:{قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا} [يونس:٥٩] [يُونُسَ:٥٩]،وَلِهَذَا ذَمَّ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ شَرَعُوا مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَحَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ - وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ - وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام:١٣٦ - ١٣٨] [الْأَنْعَامِ]][94]

فدل على أن ما سكت عنه الوحي غير محظور ولا منهي عنه،وأنهم في حل من فعله حتى يرد نص بالنهي والمنع،وهذا من كمال فقه الصحابة رضي الله عنهم،وبهذا تقررت هذه القاعدة الجليلة،ألا تشرع عبادة إلا بشرع الله،ولا تحرم عادة إلا بتحريم الله.

والقول بأن هذه المسيرات (بدعة) لم تحدث في عهد رسول الله ولا أصحابه،وكل بدعة ضلالة،وكل ضلالة في النار:قول مرفوض؛ لأن هذا إنما يتحقق في أمر العبادة وفي الشأن الديني الخالص. فالأصل في أمور الدين (الاتباع) وفي أمور الدنيا (الابتداع) (٨).

ولهذا ابتكر الصحابة والتابعون لهم بإحسان:أمورا كثيرة لم تكن في عهد النبي ﷺ،ومن ذلك ما يعرف بـ(أوليات عمر) وهي الأشياء التي ابتدأها عمر رضي الله عنه،غير مسبوق إليها،مثل:إنشاء تاريخ خاص للمسلمين،وتمصير الأمصار،وتدوين الدواوين،واتخاذ دار للسجن،وغيرها.

وبعد الصحابة أنشأ التابعون وتلاميذهم أمورا كثيرة،مثل:ضرب النقود الإسلامية،بدل اعتمادهم على دراهم الفرس ودنانير الروم،وإنشاء نظام البريد،وتدوين العلوم،وإنشاء علوم جديدة مثل:إنشاء علم أصول الفقه،وتدوين علوم النحو والصرف والبلاغة،وعلم

---

[94] - القواعد النورانية (ص:١٦٣) و الحلال والحرام ص٢١-٢٣.

اللغة،وغيرها.

وأنشأ المسلمون (نظام الحسبة) ووضعوا له قواعد وأحكاما وآدابا،وألّفوا فيه كتبا شتّى.

ولعل مما يؤيد هذا المسلك،الحديث الصحيح عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺفِي صَدْرِ النَّهَارِ،قَالَ:فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ،مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ،عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ،بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺلِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ،فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ،فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ،فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء:١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ،{إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء:١] وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ:{اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ} [الحشر:١٨] «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ،مِنْ دِرْهَمِهِ،مِنْ ثَوْبِهِ،مِنْ صَاعِ بُرِّهِ،مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ:فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا،بَلْ قَدْ عَجَزَتْ،قَالَ:ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ،حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ،حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺيَتَهَلَّلُ،كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً،فَلَهُ أَجْرُهَا،وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ،مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ،وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً،كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ،مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[95]

---

[95] - صحيح مسلم (٢/ ٧٠٤)٦٩ - (١٠١٧)

[ش (مجتابي النمار) نصب على الحالية أي لابسيها خارقين أوساطها مقورين يقال اجتبت القميص أي دخلت فيه والنمار جمع نمرة وهي ثياب صوف فيها تنمير وقيل هي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض أراد أنه جاءه قوم لابسي أزر مخططة من صوف (العباء) بالمد وبفتح العين جمع عباءة وعباية لغتان نوع من الأكسية (فتعمر) أي تغير (كومين) هو بفتح الكاف وضمها قال القاضي ضبطه بعضهم بالفتح وبعضهم بالضم قال ابن سراج هو بالضم اسم لما كوم وبالفتح المرة الواحدة قال والكومة بالضم الصبرة والكوم العظيم من كل شيء والكوم المكان المرتفع كالرابية قال القاضي فالفتح هنا أولى لأن مقصوده الكثرة والتشبيه بالرابية (يتهلل) أي يستنير فرحا وسرورا (مذهبة) ضبطوه بوجهين أحدهما وهو المشهور وبه جزم القاضي والجمهور مذهبة والثاني و لم يذكر الحميدي في الجمع بين الصحيحين غيره مدهنة وقال القاضي عياض في المشارق وغيره من الأئمة هذا تصحيف وذكر القاضي وجهين في تفسيره أحدهما معناه فضة مذهبة فهو أبلغ في حسن الوجه وإشراقه والثاني شبهه في حسنه ونوره بالمذهبة من الجلود وجمعها مذاهب وهي شيء كانت العرب تصنعه من جلود وتجعل فيها خطوط مذهبة يرى بعضها إثر بعض]

فهو يحث على المبادرة واتخاذ الموقف القدوة،الذي يرغب الآخرين في تقليده واتباعه،فيكون له أجرهم. وقد قيل:الفضل للمبتدي،وإن أحسن المقتدي!

ولهذا كان من الخطأ المنهجي:أن يطلب دليل خاص على شرعية كل شأن من شؤون العادات،فحسبنا أنه لا يوجد نص مانع من الشرع.

ودعوى أن هذه المسيرات مقتبسة أو مستوردة من عند غير المسلمين:لا يثبت تحريما لهذا الأمر،ما دام هو في نفسه مباحا،ويراه المسلمون نافعا لهم،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ،حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»[96]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ،قَالَ:كَانَ يُقَالُ:«الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَأْخُذُهَا حَيْثُ وَجَدَهَا»[97]

وقد اقتبس المسلمون في عصر النبوة طريقة حفر الخندق حول المدينة،لتحصينها من غزو المشركين،وهي من طرق الفرس.

واتخذ الرسول ﷺ خاتما،حيث أشير عليه أن يفعل ذلك،فإن الملوك والأمراء في العالم،لا يقبلون كتابا إلا مختوما.

واقتبس الصحابة نظام الخراج من دولة الفرس العريقة في المدنية والتنظيم.

واقتبسوا كذلك تدوين الدواوين من دولة الروم،لما لها من عراقة في ذلك.

وترجم المسلمون الكتب التي تتضمن (علوم الأوائل) أي الأمم المتقدمة،التي طورها المسلمون وهذبوها وأضافوا إليها،وابتكروا فيها مثل:(علم الجبر) بشهادة المنصفين من مؤرخي العلم.

ولم يعترضوا إلا على (الجانب الإلهي) في التراث اليوناني؛ لأن الله تعالى أغناهم بعقيدة الإسلام عن وثنية اليونان وما فيها من أساطير وأباطيل.

---

[96] – سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٩٥)(٤١٦٩) ضعيف

[ش – (الكلمة الحكمة) أي ذات الحكمة المشتملة عليها. (ضالة المؤمن) أي مطلوبة له بأشد ما يتصور في الطلب المؤمن ضالته. وليس المطلوب بهذا الكلام الإخبار. إذ كم من مؤمن ليس له طلب للحكمة أصلا. بل المطلوب به الإرشاد كالتعليم. أي اللائق بحال المؤمن أن يكون مطلوبة الكلمة الحكمة. (حيثما وجدها) أي ينبغي أن يكون نظر المرء إلى القول لا إلى القائل.]

[97] – المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:٤٤٧)(٨٤٤) صحيح مقطوع

ومن نظر إلى حياتنا المعاصرة في شتى المجالات:وجد فيها كثيرا جدا مما اقتبسناه من بلاد الغرب:في التعليم والإعلام والاقتصاد والإدارة والسياسة وغيرها.

ففكرة الدستور،والانتخابات بالصورة المعاصرة،وفصل السلطات،وإنشاء الصحافة والإذاعة والتلفزة،بوصفها أدوات للتعبير والتوجيه والترفيه،وإنجاز الشبكة الجبارة للمعلومات (الإنترنت).

والتعليم بمؤسساته وتقسيماته وترتيباته ومراحله واختباراته وآلياته المعاصرة،مقتبس في معظمه من الغرب.

والشيخ رفاعة الطهطاوي،حين ذهب إلى باريس إماما للبعثة المصرية،ورأى من ألوان المدنية ما رأى،بهرته الحضارة الحديثة،وعاد لينبه قومه إلى ضرورة الاقتباس مما سبق به الأوربيون،حتى لا يظلوا يتقدمون ونحن نتأخر.

ومن يومها بدأ المصريون،وبدأ معهم كثير من العرب،وقبلهم بدأ العثمانيون في اقتباس ما عند الغربيين.

كل هذه مقتبسات من الغرب الذي تفوق علينا وسبقنا بها،ولم نجد بدا من أن نأخذها عنه،ولم تجد نكيرا من أحد من علماء الشرع ولا من غيرهم فأقرها العرف العام. وقد أخذ الغرب عنا من قبل واقتبس منا،وانتفع بعلومنا أوائل نهضته:{وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران:١٤٠].

المهم أن نأخذ ما يلائم عقائدنا وقيمنا وشرائعنا،دون ما يناقضها أو ينقضها. فالناقل هو الذي يأخذ من غيره ما ينفعه لا ما يضره. وأهم ما يأخذه المسلم من غيره:ما كان متعلقا بشؤون الحياة المتطورة،وجله يتصل بالوسائل والآليات التي طابعها المرونة والتغير،لا بالأهداف والمبادئ التي طابعها الثبات والبقاء.[٩٨]

وبناءً على ما سبق فإن المظاهرات داخلة تحت القاعدة السابقة والقول بتحريمها باطلٌ لأنه لا تحريم إلا بنص.

---

98 – انظر موقع القرضاوي

ثانياً:قرر العلماء أن للوسائل أحكام المقاصد.

هي أن للوسائل في شؤون العادات حكم المقاصد،فإذا كان المقصد مشروعا في هذه الأمور،فإن الوسائل إليه تأخذ حكمه،و لم تكن الوسيلة محرمة في ذاتها.

ولهذا حين ظهرت الوسائل الإعلامية الجديدة،مثل (التلفزيون) كثر سؤال الناس عنها:أهي حلال أم حرام؟

وكان جواب أهل العلم:أن هذه الأشياء لا حكم لها في نفسها،وإنما حكمها بحسب ما تستعمل له من غايات ومقاصد. فإذا سألت عن حكم (البندقية) قلنا:إنها في يد المجاهد عون على الجهاد،ونصرة الحقِّ،ومقاومة الباطل،وهي في يد قاطع الطريق عون على الجريمة،والإفساد في الأرض،وترويع الخلق.

وكذلك التلفزيون:مَن يستخدمه في معرفة الأخبار،ومتابعة البرامج النافعة ثقافيا وسياسيا واقتصاديا،بل والبرامج الترفيهية بشروط وضوابط معينة،فهذا لا شك في إباحته ومشروعيته،بل قد يتحول إلى قربة وعبادة بالنية الصالحة. بخلاف من يستخدمه للبحث عن الخلاعة والمجون وغيرها من الضلالات في الفكر والسلوك.

وكذلك هذه المسيرات والتظاهرات،إن كان خروجها لتحقيق مقصد مشروع،كأن تنادي بتحكيم الشريعة،أو بإطلاق سراح المعتقلين بغير تهمة حقيقية،أو بإيقاف المحاكمات العسكرية للمدنيين،أو بإلغاء حالة الطوارئ التي تعطي للحكام سلطات مطلقة. أو بتحقيق مطالب عامة للناس مثل:توفير الخبز أو الزيت أو السكر أو الدواء أو البترين،أو غير ذلك من الأهداف التي لا شك في شرعيتها:فمثل هذا لا يرتاب فقيه في جوازه.

ومثل ذلك:الاحتجاج على ما يحدث للإخوة في فلسطين،أو الحفريات تحت المسجد الأقصى،أو الحرب على العراق،أو الاحتجاج على الرسوم المسيئة لشخصية النبي عليه الصلاة والسلام.[٩٩]

فالمظاهرات وسيلة للتضامن مع المسلمين،وفيها إظهارٌ للحق،ورفضٌ للظلم،وشحذٌ للهمم،وتعبيرٌ عن كون المسلمين كالجسد الواحد،عَنْ عَامِرٍ،قَالَ:سَمِعْتُهُ يَقُولُ:سَمِعْتُ

---

99 - موقع القرضاوي

النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ،كَمَثَلِ الجَسَدِ،إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» [100].

فلا شك أن المظاهرة وسيلة لمقاصد عظيمة،وهذه المقاصد مطلوبة شرعاً،فالوسيلة المؤدية إليها مطلوبة شرعاً،قال الإمام العز بن عبد السلام:[الْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ ضَرْبَانِ:أَحَدُهُمَا مَقَاصِدُ،وَالثَّانِي وَسَائِلُ،وَكَذَلِكَ الْمَكْرُوهَاتُ وَالْمُحَرَّمَاتُ ضَرْبَانِ:أَحَدُهُمَا مَقَاصِدُ،وَالثَّانِي:وَسَائِلُ،وَلِلْوَسَائِلِ أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ،فَالْوَسِيلَةُ إِلَى أَفْضَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَفْضَلُ الْوَسَائِلِ،وَالْوَسِيلَةُ إِلَى أَرْذَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَرْذَلُ الْوَسَائِلِ،ثُمَّ تَتَرَتَّبُ الْوَسَائِلُ بِتَرَتُّبِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ][101]

وقال الإمام شهاب الدين القرافي:[اعْلَمْ أَنَّ الذَّرِيعَةَ كَمَا يَجِبُ سَدُّهَا يَجِبُ فَتْحُهَا وَتُكْرَهُ وَتُنْدَبُ وَتُبَاحُ فَإِنَّ الذَّرِيعَةَ هِيَ الْوَسِيلَةُ فَكَمَا أَنَّ وَسِيلَةَ الْمُحَرَّمِ مُحَرَّمَةٌ فَوَسِيلَةُ الْوَاجِبِ وَاجِبَةٌ كَالسَّعْيِ لِلْجُمُعَةِ وَالْحَجِّ وَمَوَارِدُ الْأَحْكَامِ عَلَى قِسْمَيْنِ مَقَاصِدُ وَهِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِلْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ فِي أَنْفُسِهَا وَوَسَائِلُ وَهِيَ الطُّرُقُ الْمُفْضِيَةُ إلَيْهَا وَحُكْمُهَا حُكْمُ مَا أَفْضَتْ إلَيْهِ مِنْ تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ غَيْرَ أَنَّهَا أَخْفَضُ رُتْبَةً مِنْ الْمَقَاصِدِ فِي حُكْمِهَا وَالْوَسِيلَةُ إلَى أَفْضَلِ الْمَقَاصِدِ أَفْضَلُ الْوَسَائِلِ وَإِلَى أَقْبَحِ الْمَقَاصِدِ أَقْبَحُ الْوَسَائِلِ وَإِلَى مَا يُتَوَسَّطُ مُتَوَسِّطَةٌ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الْوَسَائِلِ الْحَسَنَةِ قَوْله تَعَالَى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} [التوبة:١٢٠] فَأَثَابَهُمْ اللَّهُ عَلَى الظَّمَأِ وَالنَّصَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُونَا مِنْ فِعْلِهِمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمَا حَصَلَا لَهُمْ بِسَبَبِ التَّوَسُّلِ إلَى الْجِهَادِ الَّذِي هُوَ وَسِيلَةٌ لِإِعْزَازِ الدِّينِ وَصَوْنِ الْمُسْلِمِينَ فَيَكُونُ الِاسْتِعْدَادُ وَسِيلَةَ الْوَسِيلَةِ.] [102]

---

100 – صحيح البخاري (٨/ ١٠)(٦٠١١) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٦ – (٢٥٨٦)

[ش (تراحمهم) رحمة بعضهم بعضا. (توادهم) تحابهم. (تعاطفهم) تعاونهم (الجسد) الجسم الواحد بالنسبة إلى جميع أعضائه. (اشتكى عضوا) لمرض أصابه. (تداعى) شاركه فيما هو فيه. (السهر) عدم النوم بسبب الألم(الحمى) حرارة البدن وألمه]

101 – قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٥٣)

102 – الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (٢/ ٣٣)

وقال العلامة العثيمين:[وقد قال أهل العلم للوسائل أحكام المقاصد فما كان وسيلةٌ لمطلوبٍ فهو مطلوب وما كان وسيلةً لمنهيٍ منه فهو منهيٌ عنه][١٠٣].

أما ما قيل من منع المسيرات والتظاهرات السلمية،خشية أن يتخذها بعض المخربين أداة لتدمير الممتلكات والمنشآت،وتعكير الأمن،وإثارة القلاقل. فمن المعروف:أن قاعدة سد الذرائع لا يجوز التوسع فيها،حتى تكون وسيلة للحرمان من كثير من المصالح المعتبرة.

ويكفي أن نقول بجواز تسيير المسيرات إذا توافرت شروط معينة يترجح معها ضمان ألا تحدث التخريبات التي تحدث في بعض الأحيان،كأن تكون في حراسة الشرطة،أو أن يتعهد منظموها بأن يتولوا ضبطها بحيث لا يقع اضطراب أو إخلال بالأمن فيها،وأن يتحملوا المسؤولية عن ذلك. وهذا المعمول به في البلاد المتقدمة ماديا.

ثالثاً:إذا سلَّمنا بأنه لم يرد دليل شرعي خاص في المظاهرات – مع أن القائلين بالجواز أوردوا أدلة كثيرة – فيمكن تخريج جواز المظاهرات بناءً على قاعدة المصلحة المرسلة.

وهي التي لم يرد دليل من الشرع باعتبارها ولا بإلغائها. فيقال:[هذه الممارسات التي لم ترد في العهد النبوي،ولم تعرف في العهد الراشدي،ولم يعرفها المسلمون في عصورهم الأولى،وإنما هي من مستحدثات هذا العصر:إنما تدخل في دائرة المصلحة المرسلة... وشرطها:أن لا تكون من أمور العبادات حتى لا تدخل في البدعة،وأن تكون من جنس المصالح التي أقرها الشرع،والتي إذا عرضت على العقول،تلقتها بالقبول،وألا تعارض نصاً شرعياً،ولا قاعدة شرعية. وجمهور فقهاء المسلمين يعتبرون المصلحة دليلاً شرعياً يُبنى عليها التشريع أو الفتوى أو القضاء،ومن قرأ كتب الفقه وجد مئات الأمثلة من الأحكام التي لا تعلل إلا بمطلق مصلحةٍ تُجلب،أو ضررٍ يُدفع،وكان الصحابة – وهم أفقه الناس لهذه الشريعة– أكثر الناس استعمالاً للمصلحة واستناداً إليها][١٠٤] .

---

103 - http://www.ibnothaimeen.com/all/khotab/article_٤٩٩.shtml.

104 - http://www.gharbiaonline.com/send_Details_ask.aspx؟Kind=١&News_ID=٥٩

http://www.qaradawi.net/fatawaahkam/٣٠-٤٩٢٩-٢٠١١-٠٨-٠٨-١٧-١٠.html.

وقد شاع أن الاستدلال بالمصلحة المرسلة خاص بمذهب المالكية،ولكن الإمام شهاب الدين القرافي المالكي (٦٨٤هـ) يقول،ردا على من نقلوا اختصاصها بالمالكي:" وأما المصلحة المرسلة فالمنقول أنها خاصة بنا،وإذا افتقدت المذاهب وجدتهم إذا قاسوا وجمعوا وفرقوا بين المسألتين لا يطلبون شاهداً بالاعتبار لذلك المعنى الذي به جمعوا وفرقوا،بل يكتفون بمطلق المناسبة،وهذا هو المصلحة المرسلة،فهي حينئذ في جميع المذاهب."[١٠٥]

رابعاً:إن ما زعمه المانعون من المظاهرات بأنها بدعة لم ترد في الشرع،وأن كل بدعة ضلالة،أقول هذا الكلام مردود.

لأن الراجح من أقوال أهل العلم أن البدعة التي هي ضلالة،محصورة في العبادات ولا تدخل في الأمور العادية.

قال الإمام الشاطبي:[فَالْبِدْعَةُ إِذَنْ عِبَارَةٌ عَنْ:طَرِيقَةٍ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٍ،تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ.وَهَذَا عَلَى رَأْيِ مَنْ لَا يُدْخِلُ الْعَادَاتِ فِي مَعْنَى الْبِدْعَةِ،وَإِنَّمَا يَخُصُّهَا بِالْعِبَادَاتِ][١٠٦].

إذا تقرر هذا فإن البدعة هي التعبد لله بما لم يشرعه الله سبحانه وتعالى ولا جاء به الرسول ﷺ ولم يأت عن الخلفاء الراشدين،وهذا لا يكون إلا في العقائد والعبادات،فالبدعة التي تُعدُّ بدعةً في الدين،هي البدعة في العقيدة أو العبادة قولية أو فعلية،كبدعة نفي القدر وبناء المساجد على القبور وإقامة القباب على القبور..والطواف حول المزارات،فهذه وأمثالها كلها ضلال لقول النبي ﷺ:«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي،فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَالْمُحْدَثَاتِ،فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ» وقالَ أَبُو عَاصِمٍ مَرَّةً:«وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[١٠٧] ...

---

105 – شرح تنقيح الفصول (ص:٣٩٤)

106 – الاعتصام للشاطبي ت الهلالي (١/ ٥٠)

107 – سنن الدارمي (١/ ٢٢٨) (٩٦) صحيح

وأما الأمور العادية والدنيوية فالمحْدَث منها لا يسمى بدعةً شرعاً وإن سمي بدعة لغة،فلا تُعدُّ المحدثات الجديدة بدعاً في الدين مثل الطائرات ووسائل الاتصالات ومكبرات الصوت... الخ. وكذلك ما يُعدُّ من الوسائل كتعلم العلوم المختلفة كعلم النحو وكذا طبع المصحف وحفظه بوسائل الحفظ الحديثة كالأشرطة المسجلة والحاسوب ونحوها فهذه الوسائل لها أحكام الغايات والمقاصد فإذا كانت الغايات مشروعة كانت وسائلها المؤدية إليها مشروعة وليست من البدع في شيء][108]

وبناءً على ما سبق فالمظاهرات لا تدخل في مفهوم البدعة.

خامساً:قول المانعين للمظاهرات بسبب ما يرافقها من أمور منكرة،لا يعني منعها مطلقاً.

بل المنع يكون مُنصبَّاً على تلك الأمور المرافقة المحرمة فقط،ولا ينسحب هذا التحريم على أصل المسألة،ما دام هذا الأصل ضمن دائرة الإباحة.

ويضاف إلى ما سبق أن المظاهرات لنصرة المسلمين والوقوف مع المستضعفين،فيها نوعٌ من تحقيق الشعور بالأخوة الإسلامية وتعبيرٌ واضحٌ عن كون المؤمنين كالجسد الواحد،كما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ،وَتَرَاحُمِهِمْ،وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[109]. ولا شك أن هذا الأمر داخل في عقيدة أهل السنة والجماعة،هذه العقيدة التي يجب أن تطبق بشكل عملي،وليس مجرد كلام يطير مع الهواء،قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند حديثه عن أصول أهل السنة والجماعة:[ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ:يَأْمُرُونَ:بِالْمَعْرُوفِ،وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ،عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ. وَيَرَوْنَ إقَامَةَ:الْحَجِّ،وَالْجِهَادِ،وَالْجُمَعِ،وَالْأَعْيَادِ؛ مَعَ الْأُمَرَاءِ؛ أَبْرَارًا كَانُوا،أَوْ فُجَّارًا. وَيُحَافِظُونَ عَلَى:الْجَمَاعَاتِ.وَيَدِينُونَ:بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ.وَيَعْتَقِدُونَ:- مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ:" إنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ "[110].- وَقَوْلُهُ

---

108 – اتباع لا ابتداع – قواعد وأسس في السنة والبدعة (ص:٤٣)

109 – صحيح البخاري (٨/ ١٠)(٦٠١١) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٦ – (٢٥٨٦)

110 – صحيح البخاري (١/ ١٠٣)(٤٨١) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٥ – (٢٥٨٥)

ﷺ:«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ؛ كَمَثَلِ الْجَسَدِ،إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ» [111].

وَيَأْمُرُونَ:- بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ.- وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ.- وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.][112] .

وأخيراً فإن وسيلة التظاهر لا تمنع التعبير عن الإخوة الإيمانية بوسائل أخرى كالدعم المالي والمادي والدعاء للمسلمين وخاصة في قنوت النوازل وفي قيام الليل،وغير ذلك.

وخلاصة الأمر أن المظاهرات وسيلة مشروعة للتعبير عن الرأي وللتضامن مع المسلمين الذين يتعرضون للمحن والويلات والمآسي من تقتيلٍ وتشريدٍ وهدمٍ للمنازل وهدمٍ للمساجد والمؤسسات العامة والخاصة،والقول بأن المظاهرات بدعةٌ أو إفسادٌ في الأرض قول غير صحيح،تأباه قواعد الشريعة الإسلامية.[113]

سادساً- المظاهرات في الأصل هي من باب الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله.

فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ - وَهَذَا حَدِيثُ أَبِي بَكْرٍ - قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[114].

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:«سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ،فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ،وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ،وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قَالُوا:أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ:«لَا،مَا صَلَّوْا»[115]

[ش (المؤمن كالبنيان) وفي الحديث الآخر مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم الخ هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه]

111 - مر تخريجه

112 - العقيدة الواسطية:اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة (ص:١٢٩)

113 - فتاوى يسألونك (١٤/ ٢٥)

114 -[صحيح مسلم ١/ ٦٩](٧٨ - (٤٩))

115 -[صحيح مسلم ٣/ ١٤٨٠]٦٢ - (١٨٥٤)

وقد أمر الله تعالى بهذه الفريضة حيث قال:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران:١١٠]

وقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله تعالى بالرغم أن الأصل هو الإيمان بالله وهو غير مرئي،لكن الأمر بالمعروف والنهي هو الثمرة العملية الصحيحة للإيمان الصحيح،فقدمت لبيان أهميتها

بل هو سفينة النجاة وصمام الأمان للمجتمعات الإسلامية من السقوط والتردي،فعن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:" مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا،كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ،فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا،فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ،فَقَالُوا:لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا،فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا،وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا،وَنَجَوْا جَمِيعًا "[116]

بل لعن الله تعالى بني إسرائيل لتركهم هذه الفريضة {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)} [المائدة:٧٨ - ٨١]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي،نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ،فَلَمْ يَنْتَهُوا،فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ،قَالَ يَزِيدُ:أَحْسِبُهُ قَالَ:وَأَسْوَاقِهِمْ،وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ،فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ،وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ،وَعِيسَى ابْنِ

---

116 -[صحيح البخاري ٣/ ١٣٩](٢٤٩٣)[ش (القائم على حدود الله) المستقيم مع أوامر الله تعالى ولا يتجاوز ما منع الله تعالى منه والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر. (الواقع فيها) التارك للمعروف المرتكب للمنكر. (استهموا) اقترعوا ليأخذ كل منهم سهما أي نصيبا. (أخذوا على أيديهم) منعوهم من خرق السفينة]

مَرْيَمَ،ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ،وَكَانَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - مُتَّكِئًا،فَجَلَسَ،فَقَالَ:لاَ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا."[117]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:" هَلْ تَدْرُونَ فِيمَا سَخِطَ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ " قَالُوا:اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:" إِنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَرَى الرَّجُلَ مِنْهُمْ عَلَى مَعْصِيَةٍ فَيَنْهَاهُ بَعْدَ النَّهْيِ،ثُمَّ يَلْقَاهُ بَعْدُ فَيُصَافِحُهُ وَيُوَاكِلُهُ وَيُشَارِبُهُ،كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ حَتَّى كَثُرَ ذَلِكَ فِيهِمْ،فَلَمَّا رَأَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ،ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ،ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ يَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ "[118]

سابعاً- بيَّن تعالى أن من يطيع الحاكم في معصية الله تعالى فهور شريكه في الإثم.

حيث قال عن فرعون:{ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦) } [الزخرف:٥١ - ٥٦]

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة،ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها،ولا يعودوا يبحثون عنها ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك،ويلين قيادهم،فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق،ولا يمسكون بحبل الله،ولا يزنون بميزان الإيمان. فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم

---

[117] -(مسند أحمد (عالم الكتب) - (٢/ ٤٧) (٣٧١٣) حسن -تأطر:تعطفه عليه وتوجهه إليه) أي تعطفوهم وتردوهم.

[118] - شعب الإيمان - (١٠/ ٤٥) (٧١٣٩) حسن

واللعب بهم كالريشة في مهب الريح. ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول:«فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ. إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»[119]

وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسبب غضب الله ومقته،فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" وَإِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي لَا تَقُولُ لِلظَّالِمِ أَنْتَ ظَالِمٌ،فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ "[120]

قوله:"فقد تودع منهم" على بناء المفعول،قال السندي:أي:قطع منهم العون الإلهي والتأييد الرباني على صلاح الحال.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،أَوْ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ،ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[121]

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَالَ:" وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ،ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ " [122]

وعَنِ الْعُرْسِ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ «إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا». وَقَالَ مَرَّةً «أَنْكَرَهَا». «كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا».[123]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». أَوْ «أَمِيرٍ جَائِرٍ»[124]

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ:سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ،فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ "[125]..

---

119 - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٠٠٣)

120 -[شعب الإيمان ١٠/ ٤٥](٧١٤٠) صحيح لغيره

121 -[المعجم الأوسط ٢/ ٩٩](١٣٧٩) حسن

122 -(شعب الإيمان - (١٠/ ٥٤) (٧١٥٢) صحيح لغيره)

123 - (سنن أبي داود - المكتز - (٤٣٤٧) حسن).

124 -(سنن أبي داود - المكتز - (٤٣٤٦) صحيح لغيره).

125 -(المستدرك للحاكم (٤٨٨٤) صحيح)

بل إن الركون للظالمين يوجب سخط الله تعالى،قال تعالى:{ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]

لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا. إلى الجبارين الطغاة الظالمين،أصحاب القـــوة في الأرض،الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبّدونهم لغير الله من العبيد.. لا تركنوا إليهم فـــإن ركونكم إليهم يعني إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه. ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير.«فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ».. جزاء هذا الانحراف.«وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ».

المبحث العاشر

أمثلة تاريخية على جواز المظاهرات

أمثلة على دخول المظاهرات،وسائر وسائل الإحتجاج السلمي في الوسائل المشروعة لإصلاح السلطة،وتقييدها،وردعها عن الظلم.

وهذا كلُّه يدلّ على أنَّ المظاهرات وغيرها من وسائل الإحتجاج السلمي إذا صارت وسيلة لجلب المصالح،ودرء المفاسد،وعادت بالخير على المجتمع،بتقييدها السلطة،ثمَّ حملِها على تحقيق العدالة،وإصلاح الأحوال،وإرجاع الحقوق،ورفع الظلم،فهي مشروعة،وقد تكون واجبة.

وحتى لو كانت تُمنع فيما مضى في زمن لاتحقِّق مصالحها،فلايجب استصحاب التحريم في كلّ عصر،كما قال القرافي في فروقه:"فَإِنَّ الْفُتْيَا بِغَيْرِ مُسْتَنَدٍ مُجْمَعٌ عَلَى تَحْرِيمِهَا،وَكَذَلِكَ التَّلَوُّمُ لِلْخُصُومِ فِي تَحْصِيلِ الدُّيُونِ لِلْغُرَمَاءِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْعَوَائِدِ مِمَّا لَا يُحْصَى عَدَدُهُ مَتَى تَغَيَّرَتْ فِيهِ الْعَادَةُ تَغَيَّرَ الْحُكْمُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ،وَحَرُمَتْ الْفُتْيَا بِالْأَوَّلِ "[126]

ومعلوم أنَّ المظاهرات،وسائر وسائل الإحتجاج السلمي،قد أصبحت في هذا العصر،وسيلة ناجحة في التغيير،والإصلاح،وهي تستعمل ـ تقريبا ـ كلَّ يوم في العالم كلِّه،وهي في عامتها تحقق مصالح الشعوب،وتردع السلطة عن جورها،وتعقبها منافع عظيمة،وما يحدث منها بضد ذلك،في غاية الندرة،مما لايلتفت إليه عند بناء الأحكام على مقتضى الوقائع،كما هو متقرر في قواعد الشريعة.

وبهذا يكفي في الإستدلال على مشروعتها،الإباحة الأصلية،إذْ من قواعد الشريعة العامة عظيمة النفع،أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة،ولايحرم منها شيء إلاّ بدليل.

كما يستدل أيضاً بقاعدة الوسائل لها حكم المقاصد على ما ذكرنا قبل قليل.

---

126 – [أنوار البروق في أنواع الفروق ١/ ١٥٤] و [الفروق للقرافي – دار الكتب العلمية ١/ ٨٤]

ومع ذلك،ولأنَّ وسيلة الإحتشاد للتظاهـــر،مؤثـــِّرة في التغيير الإصلاحي،فقد استعملت في تاريخ أمّتنـــا الإسلامية،بالطبيعة التي أودعها الله في السنن الإجتماعية البشرية،أنَّ الناس تجتمع فيما تشترك فيه،وتستعمـــل اجتماعها في تحقيـــق أهدافهـــا،ولهذا أُسِّســـت النقابات،والاتحادات،والأحزاب،ونحوها من التجمَّعات وجعل في يدها وسائـــل تمكنـــها من نيل حقوقها بقـــوة الدســـتور،في كـــلّ دول العـــالم المتحضّـــر،التي تـــرفض الاستبداد،وتترفَّع عن الصيـــغ المتخـــلّفة للحكم !

ومن الأمثـــلة على ما ذكرته من استعمال وســـائل الاحتجـــاج الجمـــاعي في تـــاريخ أمـــّتنا،مـــا في المنتظم للإمام ابن الجوزي رحمه الله قال _ بعدما ذكر انتشار المفاســـد في بغداد آنذاك _:(واجتمع الحنابلـــة في جـــامع القصـــر مـــن الغـــد،فأقامـــوا فيـــه مستغيثيـــن،وأدخلوا معهم الشيخ أبا إســـحاق الشـــيرازي وأصـــحابه _ أي فقهـــاء الشافعيـــّة _ وطلبوا قلع المواخير،وتتبع المفسدات،ومن يبيع النبيذ،وضرب دراهم المعاملة بها عوض القراضة،فتقدم أميـــر المؤمنين بذلك،فهرب المفسدات،وكبست الدور،وارتفعت الأنبذة،ووعد بقلع المواخير،ومكاتبة عضد الدولة برفعها،والتقدم بضرب دراهم يتعامـــل بها،فلم يقتنع أقوام منهم بالوعد،وأظهر أبو إسحاق الخروج من البلد فروســـل برســـالة سكتته) [١٢٧]

فهذه مظاهرة،واعتصام،نظمهما علمـــاء الحنابلة،والشافعية معهـــم،لحمل السلطة علـــى تتبّع الفساد،فنجحت،وآتت أكلَهـــا،و لم ينكرها أحـــدٌ من العلماء،إذ كيف ينكر فقيـــه وسيلـــة اجتماعيـــة لانص على تحريمها،ومع ذلك تفضـــي إلى مصلحة شرعية ؟!!

ومما ورد في تاريخنـــا أيضـــا من غير نكيـــر من العلماء،ما ذكره ابن الجوزي في المنتظم أيضـــا قال:"واجتمـــع في يـــوم الخمـــيس رابـــع عشـــر المحـــرم خلـــق كـــثير مـــن الحربية،والنصرية،وشارع دار الرقيق،وباب البصرة،والقلائين،ونهر طابق بعـــد أن أغلقـــوا دكاكينهم،وقصدوا دار الخلافة وبين أيديهم الدعاة والقراء وهم يلعنـــون أهـــل الكـــرخ واجتمعوا وازدحموا على باب الغربة،وتكلموا من غير تحفظ في القول،فراسلهم الخليفـــة

[127] - [المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٦/ ١٣٩]

ببعض الخدم أننا قد أنكرنا ما أنكرتم،وتقدمنا بأن لا يقع معاودة،ونحن نغفل في هذا ما لا يقع به المراد.فانصرفوا وقبض على ابن الفاخر العلوي في آخرين،ووكل بهم في الديوان،وهرب صاحب الشرطة لأنه كان أجاز لأهل الكرخ ما فعلوا،وركب أصحاب السلطان فأرهبوا العامة،وقد كانوا على التعرض بأهل الكرخ وإيقاع الفتنة،ثم واصل أهل الكرخ التردد إلى الديوان،والتنصل مما كان،والاحتجاج بصاحب الشرطة،وأنه أمرهم بذلك،والسؤال في معنى المعتقلين،فأفرج عنهم في ثامن عشر المحرم بعد أن خرج توقيع بلعن من يسب الصحابة،ويظهر البدع."[١٢٨]

فهؤلاء الدعاة،والقرّاء،تقدّموا المحتجّين المتظاهرين ضد السماح ببدعة شتم الصحابة،في مسيرة إلى دار الخلافة،وتكلّموا بغير تحفّظ في القول _ فلعلّهم شتموا السلطة لتقصيرها في أداء واجبها ! _ وكان مع هذه المسيرة،إضراب عن العمل ذلك اليوم،بإغلاق الدكاكين،و لم ينكر ذلك أحدٌ من العلماء،إذ لايستنكر مثل هذه الوسائل الاجتماعية السلميّة الفعّالة عاقل فضلا عن عالم !!

ومما ورد أيضا في هذا الباب،مما في حياة شيخ الإسلام المجتهد الإمام ابن تيمية الحنبلي قال:(فبلغ الشيخ أنّ جميع ما ذكر من البدع يتعمدها النّاس عند العمود المخلق الذي داخل (الباب الصغير) الذي عند (درب النافدانيين) فشد عليه،وقام،واستخار الله في الخروج إلى كسره،فحدثني أخوه الشيخ الإمام القدوة شرف الدين عبدالله بن تيمية قال:فخرجنا لكسره،فسمع الناس أنَّ الشيخ يخرج لكسر العمود المخلق،فاجتمع معنا خلق كثير) ص ١٠ رسالة بعنوان ناحية من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق محبّ الدين الخطيب

فهذا شيخ الإسلام،خرج معه خلق كثير ليغيِّروا منكرا،فلم يأمرهم بالرجوع عنه (بحجة أنها مظاهرة محرَّمة) ! بل سار معهم إلى أن غيَّر المنكر بهم !!

فكذا لو خرج العلماء،ومعهم المحتجُّون،وساروا _ مثلا _ إلى مقرِّ السلطة،ليظهروا النكير عليها في ظلم،أو منكر،أو لرد حقّ،أو إطلاق سجناء حُبسوا بغير حق،ونحو

---

128 - [المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٦/ ٩٤]

ذلك،لكان من يسمِّي هذا (خروجـاً عن ولاة الأمـر)،ويحرّمه مخطئـا خطأ بيِّنـا،بل يكون تحريمه من أعظم أسباب بقاء الظلم،وإستمراره،وتعطل المصالح،وزيادة المفاسـد في الأمـّة،فيكون هو من أعوان الظلمة !

ومن الأمثلة أيضا،ما هـو معلومٌ مشهـور،ما حملته كتب التراجم مـن قيـام العلمـاء السالفين بالخروج متظاهريـن لدفع المفاسد،وللإصلاح في جماعات كثيرة،ومن ذلك مـا نقل عن الإمام البربهاري أنه كان يظهر مع أصحابه،وينتشـرون في الإنكار،حتى حملـت كتب التاريخ تلك القصة المشهورة عن اجتيازه بالجانب الغربـي في بغـداد،فعطس فشمَّته أصحابه،فارتفعت ضجّتهُم حتى سمعها الخليفة وهو في روشنـه ! فسـأل عـن الحال،فأخبر بها،فاستهولها !!

فليت شعـري ماذا كان يفعل البربهاري في مسيره هذا مع آلاف من أنصـاره في ذلـك الزمن في شوارع عاصمة الخلافة الإسلامية،ولماذا لم يُنكـر عليه،هذا الحشـد الهائـل الذي كان يتوصل به إلى إنكار المنكرات،ومقاومة الفساد،وهو حشـد كبير بحيـث إنْ يُشمّته من حوله،يبلغ صـوت:(يرحمك الله) إلـى رأس السلطة في مقـرِّه !!

وأيضـا مما ورد في السنة من استدعاء الحشد للبلاغ،ما في الصحيحين عَنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:لَمَّا نَزَلَتْ:{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤]،صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا،فَجَعَلَ يُنَادِي:«يَا بَنِي فِهْرٍ،يَا بَنِي عَدِيٍّ» - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَـا هُوَ،فَجَـاءَ أَبُـو لَهَـبٍ وَقُرَيْشٌ،فَقَالَ:«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِـالوَادِي تُرِيـدُ أَنْ تُغِـيرَ عَلَيْكُمْ،أَكُنْـتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا:نَعَمْ،مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا،قَالَ:«فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَـدَيْ عَـذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ:تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ،أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ:{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد:٢][129]

---

129 - [صحيح البخاري ٦/ ١١١](٤٧٧٠) و[صحيح مسلم ١/ ١٩٣]٣٥٥ - (٢٠٨)

[ش (رسولا) من يستطلع له الخبر. (أرأيتكم) أخبروني. (خيلا) عليها فرسان يركبونها. (تغير) تهجم

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤] وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ،قَالَ:وَهُنَّ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ،خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى الصَّفَا،فَصَعِدَ عَلَيْهَا،ثُمَّ نَادَى:«يَا صَبَاحَاهُ»،فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ فَبَيْنَ رَجُلٍ يَجِيءُ،وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ،فَقَالَ ﷺ:«يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،يَا بَنِي فِهْرٍ،يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ،يَا بَنِي،يَا بَنِي أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَصَدَّقْتُمُونِي؟ »،قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:«فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»،فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ:تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ،أَمَا دَعَوْتُمُونَا إِلَّا لِهَذَا،ثُمَّ قَامَ،فَنَزَلَتْ:{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} [المسد:١]،وَقَدْ تُبَّ،وَقَالُوا:مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا" [١٣٠]

فهذا نصٌ واضح في أنَّ النبيّ ﷺ،صعّد ليراه الناس،واستدعاهم ليجمعهم في مكان واحد ـ في صورة أشبه ما تكون بالمظاهرات السلمية اليوم التي يراد منها رفع مستوى قوّة الاحتجاج ـ وليبلّغهم،فاحتشدوا له،واستغلّ هذا الحشد،ليوصل صوته إلى أبعد مدى،فيبلغ ما أمر بتبليغه.

وهذا نص آخر أوضح من الأول وهو نص في محل النزاع،عَنْ إِيَاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ذُبَابٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:" لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ " فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ:" قَدْ ذَئِرَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَأَذِنَ لَهُمْ فَضَرَبُوهُنَّ فَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - نِسَاءٌ كَثِيرٌ " فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -:" لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - اللَّيْلَةَ سَبْعُونَ امْرَأَةً كُلُّهُمْ يَشْتَكِينَ أَزْوَاجَهُنَّ،وَلَا تَجِدُونَ أُولَئِكَ خِيَارَكُمْ "[١٣١]

قلت:هذه النسوة التي تزيد على السبعين قمن بمظاهرةٍ ليليةٍ احتجاجاً على ضرب أزواجهن لهنَّ بغير حق،وطفن حول بيت النبي ﷺ،وهو الرئيس الأعلى للمسملين والمرجع الأول لهم،ولم ينكر عليهن النبي ﷺ،وأقرهنَّ النبي ﷺ على ذلك وأنَّب أزواحهنَّ على هذا التجاوز،وفيه أمرٌ آخر مهمٌّ جدًّا،وهو أنه ﷺ صدَّقهن مباشرة دون الرجوع لأزواجهن

---

130 - [صحيح ابن حبان - مخرجا ١٤/ ٤٨٦](٦٥٥٠) صحيح

131 - [عشرة النساء للإمام للنسائي - الطبعة الثالثة ص:١٨٧](٢٧١-٧٩٢٥) وتهذيب الآثار للطبري - (ج ٢ / ص ١٧٩) برقم (١١٣٧) وسنن البيهقى برقم (١٥١٧٨) ومسند الحميدى - برقم (٩١٦) وهو صحيح

لاستحالة اتفاقهن على الباطل،وهؤلاء الذين يخرجون للمطالبة بحقوقهم المشروعة يجب الأخذ بها دون نقاش،لأنها حقٌّ بلا ريب "

وهذا مثال آخر عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:سَأَلْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ:" لِأَيِّ شَيْءٍ سُمِّيتَ الْفَارُوقَ؟ قَالَ:أَسْلَمَ حَمْزَةُ قَبْلِي بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ،ثُمَّ شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلْإِسْلَامِ فَقُلْتُ:اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى،فَمَا فِي الْأَرْضِ نَسَمَةٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَسَمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قُلْتُ:أَيْنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟،قَالَتْ أُخْتِي:هُوَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ الْأَرْقَمِ عِنْدَ الصَّفَا،فَأَتَيْتُ الدَّارَ وَحَمْزَةُ فِي أَصْحَابِهِ جُلُوسٌ فِي الدَّارِ،وَرَسُولُ اللهِ ﷺفِي الْبَيْتِ،فَضَرَبْتُ الْبَابَ فَاسْتَجْمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ لَهُمْ حَمْزَةُ:مَا لَكُمْ؟ قَالُوا:عُمَرُ،قَالَ:فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺفَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثِيَابِهِ ثُمَّ نَثَرَهُ نَثْرَةً فَمَا تَمَالَكَ أَنْ وَقَعَ عَلَى رُكْبَتِهِ فَقَالَ:«مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ يَا عُمَرُ؟» قَالَ:فَقُلْتُ:أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،قَالَ:فَكَبَّرَ أَهْلُ الدَّارِ تَكْبِيرَةً سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ،قَالَ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ إِنْ مُتْنَا وَإِنْ حَيِينَا؟ قَالَ:«بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،إِنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ إِنْ مُتُّمْ وَإِنْ حَيِيتُمْ»،قَالَ:فَقُلْتُ:فَفِيمَ الِاخْتِفَاءُ؟ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَتَخْرُجَنَّ،فَأَخْرَجْنَاهُ فِي صَفَّيْنِ،حَمْزَةُ فِي أَحَدِهِمَا،وَأَنَا فِي الْآخَرِ،لَهُ كَدِيدٌ كَكَدِيدِ الطَّحِينِ،حَتَّى دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ،قَالَ:فَنَظَرَتْ إِلَيَّ قُرَيْشٌ وَإِلَى حَمْزَةَ،فَأَصَابَتْهُمْ كَآبَةٌ لَمْ يُصِبْهُمْ مِثْلُهَا،فَسَمَّانِي رَسُولُ اللهِ ﷺيَوْمَئِذٍ الْفَارُوقَ،وَفَرَّقَ اللهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ "[132]

فليت شعري أيُّ فرق بين هذا،وأن يدعو دعاةُ الإصلاح الناسَ لمكان محدد،يدعون إلى حشد كبير،ليبلّغوا السلطة مطالبهم،وليوصلوا حقوقهم،ليكون فعلهم أشد وطأة،وأعظم تأثيرا في التغيير !

إذ من المعلوم أنَّ استدعاء الحشد متظاهرين،للاحتجاج الجماعي،يؤدي دورا بالغ التأثير في التغيير،كما هو شأن كلّ ما يجتمع عليها الناس في شئونهم العامّة،فيكونون أقوى به من حال الانفراد،كما ذكرنا.

---

[132] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٤٠)

ولهذا ورد عن الأئمة،الإرشاد إليه في إنكـــار المنكـــــر،كما روى الخـــلال في الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر،أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي حَرْبٍ،حَدَّثَهُمْ قَالَ:سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَـــنِ الرَّجُلِ،يَسْمَعُ الْمُنْكَرَ فِي دَارِ بَعْضِ جِيرَانِهِ؟ قَالَ:يَأْمُرُهُ،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ؟ قَالَ:«تَجْمَـــعُ عَلَيْهِ الْجِيرَانَ،وَتُهَوِّلُ عَلَيْهِ»[١٣٣]

وقوله تجمع عليه الجيران،وتهـــوّل عليه أي ليكون ذلك أردع،عندما يرى تظاهر الجيران كلّهم في الإنكـــار.

وهذا مثال آخر أيضا،فعَنْ أَبِـــي هُرَيْرَةَ،قَـــالَ:جَـــاءَ رَجُـــلٌ إِلَـــى النَّبِـــيِّ ﷺ يَشْـــكُو جَارَهُ،فَقَالَ:«اذْهَبْ فَاصْبِرْ» فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا،فَقَالَ:«اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ» فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ،فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ،فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ:فَعَلَ اللَّهُ بِهِ،وَفَعَلَ،وَفَعَلَ،فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ:ارْجِعْ لَا تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ "[١٣٤]

فهذا قد حرض عليه جمهور الناس ليلعنوه حتى يرتدع عن أذاه لجاره،وكانت وسيلة فعالة جدا في ردعه عن الأذى...

ولهذا جاء في شريعتنا في مواضـــع كثيرة في إظهار الاحتشاد في المجامع العامة،كالجمع في الجوامـــع الكبيـــرة،والأعيـــاد في المصلّيـــات في الفضـــاء،ويسار إليها مشيـــــا،لرفع راية الدين،وإغاضة أعدائه،كما أراد النبيُّ ﷺ أن يملأ قلب أبي سفيان رهبة من أمر الإسلام فأمر العبّاس أن يريـــه الكتائب المحمدية في فتح مكة،وهي تسيـــر محتشـــدة في مواكبها المهيبـــة،لتحقيـــق بعض مصالح الشريعة في ذلك اليوم العظيـــم.

قَالَ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا،قَالَ:«نَعَمْ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ»،فَلَمَّـــا ذَهَبْتُ لِأَنْصَرِفَ قَالَ يَا عَبَّاسُ احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ حَطِيمِ الْجُنْدِ حَتَّى يَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللهِ فَيَرَاهَا،قَالَ:فَحَبَسْتُهُ حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ:وَمَرَّتْ بِهِ الْقَبَائِلُ عَلَى رَايَاتِهَا بِهَا فَكُلَّمَا مَرَّتْ قَبِيلَةٌ قَالَ:مَنْ هَذِهِ؟ قُلْتُ:بَنُو سُلَيْمٍ قَالَ:يَقُولُ:مَا لِي وَلِبَنِي سُلَيْمٍ ثُمَّ تَمُرُّ بِـــهِ

---

133 - [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال ص:٣٨]

134 - [سنن أبي داود ٤/ ٣٣٩](٥١٥٣) صحيح

قَبِيلَةٌ فَيَقُولُ:مَنْ هَذِهِ فَأَقُولُ:مُزَيْنَةُ فَقَالَ:مَا لِي وَلِمُزَيْنَةَ،حَتَّى نَفِدَتِ الْقَبَائِلُ لَا تَمُرُّ بِهِ قَبِيلَةٌ إِلَّا سَأَلَنِي عَنْهَا فَأُخْبِرُهُ إِلَّا قَالَ:مَا لِي وَلِبَنِي فُلَانٍ،حَتَّى مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْخَضْرَاءِ كَتِيبَةٍ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ،وَالْأَنْصَارُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَا يُرَى مِنْهُمْ إِلَّا الْحَدَقُ فِي الْحَدِيدِ،فَقَالَ:سُبْحَانَ اللهِ مَنْ هَؤُلَاءِ يَا عَبَّاسُ؟ قُلْتُ:هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمُهَاجِرِينَ،وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ،فَقَالَ:مَا لِأَحَدٍ بِهَؤُلَاءِ قِبَلٌ وَاللهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْغَدَاةَ عَظِيمًا،قَالَ:قُلْتُ:وَيْلَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ إِنَّهَا النُّبُوَّةُ قَالَ:فَنَعَمْ،قَالَ:قُلْتُ الْتَجِئْ إِلَى قَوْمِكَ اخْرُجْ إِلَيْهِمْ،حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ فِيمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ،فَقَامَتْ إِلَيْهِ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فَأَخَذَتْ شَارِبَهُ فَقَالَتِ:اقْتُلُوا الْحَمِيتَ الدَّسِمَ فَبِئْسَ طَلِيعَةُ قَوْمٍ،قَالَ:وَيْلَكُمْ لَا تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ،قَالُوا:قَاتَلَكَ اللهُ وَمَا يُغْنِي غَنَاءَ دَارِكَ قَالَ:وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ.."[135]

وهذا كلُّه في غاية الوضوح،أعني ما في شريعتنا من الاستفادة من التظاهرات العامة،لمقاصد شرعيَّة متعددة،تنبّه إلى مشروعيتها في الجملة،وفائدتها للأمَّة،وإنه _ والله _ ليستغرب أن يُحتاج إلى بيان مثل هذا لاسيما في هذا الزمن ؟!!

وإذا كان العلماء قد أفتوا بالثورة لإصلاح أحوال المسلمين في ظلِّ سلطة،لاترعى لهم حقًّا،ولا تقيم بهم عدلا،ولا تحفظ لهم كرامة،كما قال إمام الحرمين:"وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِإِتْمَامِ الْغَرَضِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُتَصَدِّيَ لِلْإِمَامَةِ إِذَا عَظُمَتْ جِنَايَتُهُ،وَكَثُرَتْ عَادِيَتُهُ،وَفَشَا احْتِكَامُهُ وَاهْتِضَامُهُ،وَبَدَتْ فَضَحَاتُهُ،وَتَتَابَعَتْ عَثَرَاتُهُ،وَخِيفَ بِسَبَبِهِ ضَيَاعُ الْبَيْضَةِ،وَتَبَدُّدُ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ،وَلَمْ نَجِدْ مَنْ نُنَصِّبُهُ لِلْإِمَامَةِ حَتَّى يَنْتَهِضَ لِدَفْعِهِ حَسْبَ مَا يَدْفَعُ الْبُغَاةَ،فَلَا نُطْلِقُ لِلْآحَادِ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ أَنْ يَثُورُوا ؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَاصْطُلِمُوا وَأُبِيرُوا،وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي ازْدِيَادِ الْمِحَنِ،وَإِثَارَةِ الْفِتَنِ،وَلَكِنْ إِنِ اتَّفَقَ رَجُلٌ مُطَاعٌ ذُو أَتْبَاعٍ وَأَشْيَاعٍ،وَيَقُومُ مُحْتَسِبًا،آمِرًا بِالْمَعْرُوفِ نَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ،وَانْتَصَبَ بِكِفَايَةِ الْمُسْلِمِينَ مَا دُفِعُوا إِلَيْهِ،فَلْيَمْضِ

---

135 - [شرح معاني الآثار ٣/ ٣٢١]صحيح

فِي ذَلِكَ قُدُمًا.وَاللَّهُ نَصِيرُهُ عَلَى الشَّرْطِ الْمُقَدَّمِ فِي رِعَايَةِ الْمَصَالِحِ،وَالنَّظَرِ فِي الْمَنَاجِحِ،وَمُوَازَنَةِ مَا يُدْفَعُ،وَيَرْتَفِعُ بِمَا يُتَوَقَّعُ."[١٣٦]

فكيف _ ليت شعري _ يكون الحكم بالمظاهرات السلميّة التي يتحقق بها ما هو من أعظم أهداف هذه الأمّة،وأرفع غاياتها،وأسمى قِيَمِها،وهو العدل،والإصلاح،وتحرير العباد من الجور،ورفع المظالم،والمفاسد عنهم.فالله المستعان !

هذا..ونسأله سبحانه أن يخرج هذه الأمّة من محنتها،فيقم فيها راية العدل،والإصلاح،ويقوّض راية الجور،والفساد،وينشر الخير في البلاد،والعباد،ويهدي هذه الأمة لسبل الرشاد.والله أعلم.[١٣٧]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[136] - [غياث الأمم في التياث الظلم ص:١١٥]

[137] - http://www.h-alali.org/f_open.php?id=d49d0e98-49ca-11e0-b28b-e82f326c8865

المبحث الحادي عشر

أنواع الخروج على الحاكم

إن الخروج على الحكام يعتبر من الموضوعات الهامة التي شغلت كل من بحث بالسياسة الشرعية من علماء الإسلام،وقد تكلموا عنها،ووضعوا ضوابطها وتفاصيلها...

لكن فقهاء آخر زمان صاروا يكتبون ويخطبون على عامة الناس بأنه يحرم الخروج على حكام آخر زمان،ثم يأتون بآيات وأحاديث وأقوال لبعض الفقهاء للدلالة على صحة مدعاهم،لكنك إذا دققت النظر فيما يقولون لوجدت أنهم يخلطون حقاً بباطل،ويتزلون هذه النصوص على غير مواردها التي جيئت لها.

والفقهاء الذين الذين قالوا:بأنه يحرم الخروج على الإمام الجائر – وهم قسم من الفقهاء فقط- يعنون به الخليفة الشرعي الذي يحكم بما أنزل الله،ويقيم الحدود،ويحمي الثغور،وينصف المظلوم من الظالم.... لكنه يقع ببعض المعاصي في خاصة نفسه أو يقصر في بعض الطاعات...

لأنهم نظروا إلى مجموع السلبيات والإيجابيات فهو من حيث العموم يغلب خيره على شره وصلاحه على فساده،وذلك لأنهم كانوا واقعيين وليسوا خياليين مثل كثير من الباحثين اليوم.

و لم يختلفوا في وجوب الخروج على الإمام الذي ارتد أو ارتكب مكفرا أوحكم بغير ما أنزل الله،أو أحل ما حرم الله أو حلل ما حرم الله ورسوله ﷺ.

أو عطل الشرائع أو بدَّلها....أو والى أعداء الإسلام...أو أهلك الحرث والنسل...

وحكام اليوم لا علاقة لهم بكلام الفقهاء الأول،بل ينطبق عليهم كلامهم الثاني وهو أن ولايتهم غير شرعية أصلاً ؛لأنها لم تستوف شروط الولاية الشرعية **وأهمها على الأقل الحكم بما أنزل الله جملة وتفصيلاً عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة...**

وهذا البحث يؤصل لهذه القضية الجلل،ويبين الحق من الباطل في ذلك { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال:٤٢]

وأما الإدعاء بحرمة الخروج مطلقا وأن ذلك مخالف لأصول أهل السنة ومـــذهب ســـلف الأمة،فهو ادعاء باطل حيث يتزل كلام أهل السنة على غـــير مـــوارده ومقاصـــده،فإن للخروج أحكاما لا تخفى على أهل العلم والفقه وأهل الشام هم معدنه ورجالـــه،وتجري عليه الأحكام الخمسة فمنه:

١- خروج محرم بالنص والإجماع:

وهو الخروج على الإمام العدل الذي اختارته الأمة بالشورى والرضـــا دون وقـــوع مـــا يوجب عزله،كخروج من خرجوا على عثمان رضي الله عنه[١٣٨]،ومثله الخروج على كـــل إمام شرعي اختارته الأمة،ووقع منه بعض الجور والقصور في خاصة نفسه،غير أنه لم يختل ميزان العدل في الرعية،ولا فشا عدوانه على البرية،فيحرم الخروج عليه مراعاة للمقاصـــد الكلية،كوحدة الأمة،وحفظ البيضة،وأمن السبيل.[١٣٩]

٢- وخروج مكروه كراهة تحريمية:

وهو الخروج في قتال الفتنة[١٤٠]،كتنازع فئتين من المسلمين على الســـلطة،أو قتـــال فئـــة للسلطة،بالتأويل السائغ،إذا كانوا جميعا عدولا،كقتال أهل الجمل[١٤١].

---

138 - لأنهم على باطل وجميع شبههم باطلة،فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّـــهِ ﷺ يَقُولُ:«يَا عُثْمَانُ،إِنَّ اللَّهَ مُقَمِّصُكَ قَمِيصًا،فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ»السـنة لابـــن أبي عاصـــم (٢/ ٥٦٢)(١١٧٩) صحيح مشهور

139 - قلت:وهذا لا خلاف فيه

140 - قال ابن تيمية رحمه الله:" وَلِهَذَا لَمَّا اعْتَقَدَتْ طَوَائِفُ مِنْ الْفُقَهَاءِ وُجُوبَ الْقِتَالِ مَعَ عَلِيٍّ جَعَلُوا ذَلِكَ " قَاعـــدَةً فِقْهِيَّةً " فِيمَا إذَا خَرَجَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْإِمَامِ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ وَهِيَ عِنْدُهُ رَاسَلَهُمْ الْإِمَامُ فَإِنْ ذَكَرُوا مَظْلِمَةً أَزَالَهَا عَـــنْهُمْ وَإِنْ ذَكَرُوا شُبْهَةً بَيَّنَهَا فَإِنْ رَجَعُوا وَإِلَّا وَجَبَ قِتَالُهُمْ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ إنَّهُمْ أَدْخَلُوا فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ " قِتَالَ الصِّدِّيقِ لِمَانِعِي الزَّكَاةِ " وَ " قِتَالَ عَلِيٍّ لِلْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ " ؛ وَصَارُوا فِيمَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ وَغَيْرِهِمْ يَجْعَلُونَ أَهْلَ الْعَدْلِ مَنْ اعْتَقَدُوهُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَجْعَلُونَ الْمُقَاتِلِينَ لَهُ بُغَاةً لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ قِتَالِ الْفِتْنَةِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَالَّذِي تَرْكُهُ خَيْرٌ مِنْ فِعْلِهِ كَمَا يَقَعُ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ وَغَيْرِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ:كَاقْتِتَالِ الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ وَغَيْرِهِمَـــا ؛ وَبَـــيْنَ قِتَـــالِ " الْخَوَارِجِ " الحرورية وَالْمُرْتَدَّةِ وَالْمُنَافِقِينَ " كالمزدكية " وَنَحْوِهِمْ.مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية- دار الوفاء (٤/ ٤٥٠)

141 - أما قتال الفتنة -الذي وقع بين الصحابة -رضي الله عنهم- فكلام أهل العلم فيه طويل جداً،والذي تدل عليـــه الأدلة -وهو قول جمهور السلف- أن علياً كان أولى بالحق من معاوية -رضي الله عنهما- كما ثبت في الصحيحين -في شأن ذي الثدية الخارجي-:"تقتله أولى الطائفتين بالحق"،وليس هذا مجال بسط الأدلة في ذلك.إلا أن الذي يجـــب أن

٣- وخروج واجب بالنص والإجماع:

وهو الخروج على ولاية الكافر أو من طرأ عليه كفر في دار الإسلام،وكذا وجوب عزله عند القدرة على ذلك عند ظهور الكفر البواح وإن لم يكفر الإمام،كما في الحديث المتفق عليه في وجوب السمع والطاعة فعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،وَهُوَ مَرِيضٌ،قُلْنَا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ،حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ،سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا،عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[١٤٢]

قال القاضي عياض:(أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ لَا تَنْعَقِدُ لِكَافِرٍ وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ انْعَزَلَ قَالَ وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَةَ الصَّلَوَاتِ وَالدُّعَاءَ إِلَيْهَا قَالَ وَكَذَلِكَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمُ الْبِدْعَةُ قَالَ وَقَالَ بَعْضُ الْبَصْرِيِّينَ تَنْعَقِدُ لَهُ وَتُسْتَدَامُ لَهُ لِأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ قَالَ الْقَاضِي فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَتَغْيِيرٌ لِلشَّرْعِ أَوْ بِدْعَةٌ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ الْوِلَايَةِ وَسَقَطَتْ طَاعَتُهُ وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقِيَامُ عَلَيْهِ وَخَلْعُهُ وَنَصْبُ إِمَامٍ عَادِلٍ إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ فَإِنْ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ إِلَّا

يُعْلم هنا،أن ذلك لا يبيح وصف أحدٍ من الطرفين بالفسق،فضلاً عن التكفير -والعياذ بالله- فإنهم مجتهدون،وراغبون في الوصول إلى الحق -رضي الله عنهم- بغض النظر عن المصيب منهم في هذه القضية-،وقد ثبت في الصحيحين من حديث عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أنه قال:"إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران،وإذا حكم فأخطأ فله أجرٌ واحد"،ولا يختلف أهل العلم أن كبار الصحابة الذين شاركوا في القتال هم من المجتهدين،وليس كل مجتهدٍ مصيب.

ثانياً:من حيث العموم -وبعيداً عن قضية الاقتتال بين الصحابة- فقد أثبت الله تعالى الإيمان بين المقتتلين،فقال تعالى:"وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا... الآية)،[الحجرات:٩]،فتأمل قوله:"وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا" فسماهم مؤمنين مع سل السيوف،وإزهاق النفوس! وهذا الحكم يشمل المؤمنين إلى قيام الساعة،وإذا كان هذا الحكم ثابتاً،ولو كان القتال على سبيل البغي والعدوان،فما ظنك إذا كان القتال بتأويل واجتهاد؟!

كما أن الله -عز وجل- أثبت عقد الأخوة بين القاتل والمقتول في آية سورة البقرة،فقال:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ...الآية"،[البقرة:١٧].

فتأمل -بارك الله فيك- كيف سمّى الله القاتل أخاً؟ كلُّ ذلك حفاظاً على أصل الأخوة الإيمانية حتى وإن وجد ما ينغصها،ويكدرها،وهو القتل.فتاوى واستشارات الإسلام اليوم (١٧/ ٦٦)

[142] - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥و٧٠٥٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤١ - (١٧٠٩)

لِطَائِفَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ بِخَلْعِ الْكَافِرِ وَلَا يَجِبُ فِي الْمُبْتَدِعِ إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ فَإِنْ تَحَقَّقُوا الْعَجْزَ لَمْ يَجِبِ الْقِيَامُ وَلْيُهَاجِرِ الْمُسْلِمُ عَنْ أَرْضِهِ إِلَى غَيْرِهَا وَيَفِرَّ بِدِينِهِ قَالَ وَلَا تَنْعَقِدُ لِفَاسِقٍ ابْتِدَاءً فَلَوْ طَرَأَ عَلَى الْخَلِيفَةِ فِسْقٌ قَالَ بَعْضُهُمْ يَجِبُ خَلْعُهُ إِلَّا أَنْ تَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ فِتْنَةٌ وَحَرْبٌ."[١٤٣]

وقال الحافظ ابن حجر:يَنعَزِل بِالكُفرِ إجماعًا " فَيَجِب عَلَى كُلّ مُسلِم القِيام فِي ذَلِكَ،فَمَن قَوِيَ عَلَى ذَلِكَ فَلَهُ الثَّواب،ومَن داهَنَ فِعلَيهِ الإِثم،ومَن عَجَزَ وجَبَت عَلَيهِ الهِجرَة مِن تِلكَ الأَرض "[١٤٤]

وقال ابن بطال:(إِذَا وَقَعَ مِنَ السُّلْطَانِ الْكُفْرُ الصَّرِيحُ فَلَا تَجُوزُ طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ بَلْ تَجِبُ مُجَاهَدَتُهُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا).[١٤٥]

٤- وخروج مندوب وقد يجب:

لدفع عدوان السلطان المسلم الجائر إذا تواصل غشمه وبطشه،وكان للأمة قدرة على عزله وخلعه،وإقامة إمام عادل مكانه،وهو المقصود بحديث أمراء السوء كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[١٤٦]

---

143 - شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٩)

144 - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٢٣)

145 - نيل الأوطار (٧/ ٢٠٨) وفتح الباري لابن حجر (١٣/ ٧)

146 - صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ - (٥٠)

[ش (ثم إنها تخلف) الضمير في إنها هو الذي يسميه النحويون ضمير القصة والشأن ومعنى تخلف تحدث وأما الخلوف فهو جمع خلف وهو الخالف بشر وأما بفتح اللام فهو الخالف بخير هذا هو الأشهر (فتزل بقناة) هكذا هو في بعض الأصول المحققة وهو غير مصروف للعلمية والتأنيث وقناة واد من أودية المدينة عليه مال من أموالها]

والمقصود باليد هنا القوة،وهذا لا يخالف فيه أحد من الأئمة بما فيهم أحمد بن حنبل الذي كان لا يرى الخروج بالسيف على أئمة المسلمين – على فرض أن النظام السوري له ولاية شرعية في نظر بعض المفتونين[١٤٧] – قال ابن رجب الحنبلي:(وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جِهَادِ الْأُمَرَاءِ بِالْيَدِ. وَقَدِ اسْتَنْكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ هَذَا الْحَدِيثَ فِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ،وَقَالَ:هُوَ خِلَافُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الْأَئِمَّةِ. وَقَدْ يُجَابُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ التَّغْيِيرَ بِالْيَدِ لَا يَسْتَلْزِمُ الْقِتَالَ. وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَحْمَدُ أَيْضًا فِي رِوَايَةِ صَالِحٍ،فَقَالَ:التَّغْيِيرُ بِالْيَدِ لَيْسَ بِالسَّيْفِ وَالسِّلَاحِ،وَحِينَئِذٍ فَجِهَادُ الْأُمَرَاءِ بِالْيَدِ أَنْ يُزِيلَ بِيَدِهِ مَا فَعَلُوهُ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ،مِثْلُ أَنْ يُرِيقَ خُمُورَهُمْ أَوْ يَكْسِرَ آلَاتِ الْمَلَاهِي الَّتِي لَهُمْ،وَنَحْوَ ذَلِكَ،أَوْ يُبْطِلَ بِيَدِهِ مَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الظُّلْمِ إِنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ،وَكُلُّ هَذَا جَائِزٌ،وَلَيْسَ هُوَ مِنْ بَابِ قِتَالِهِمْ،وَلَا مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمِ الَّذِي وَرَدَ النَّهْيُ عَنْهُ،فَإِنَّ هَذَا أَكْثَرُ مَا يُخْشَى مِنْهُ أَنْ يُقْتَلَ الْآمِرُ وَحْدَهُ.").[١٤٨]

وقد قال إمام الحرمين الجويني الشافعي عن الإمام الجائر:(فَأَمَّا إِذَا تَوَاصَلَ مِنْهُ الْعِصْيَانُ،وَفَشَا مِنْهُ الْعُدْوَانُ،وَظَهَرَ الْفَسَادُ،وَزَالَ السَّدَادُ،وَتَعَطَّلَتِ الْحُقُوقُ وَالْحُدُودُ،وَارْتَفَعَتِ الصِّيَانَةُ،وَوَضَحَتِ الْخِيَانَةُ،وَاسْتَجْرَأَ الظَّلَمَةُ،وَلَمْ يَجِدِ الْمَظْلُومُ مُنْتَصِفًا مِمَّنْ ظَلَمَهُ،وَتَدَاعَى الْخَلَلُ وَالْخَطَلُ إِلَى عَظَائِمِ الْأُمُورِ،وَتَعْطِيلِ الثُّغُورِ،فَلَا بُدَّ مِنِ اسْتِدْرَاكِ هَذَا الْأَمْرِ الْمُتَفَاقِمِ عَلَى مَا سَنُقَرِّرُ الْقَوْلَ فِيهِ عَلَى الْفَاهِمِ – إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ – وَذَلِكَ أَنَّ الْإِمَامَةَ إِنَّمَا تُعْنَى لِنَقِيضِ هَذِهِ الْحَالَةِ.

فَإِذَا أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى خِلَافِ مَا تَقْتَضِيهِ الزَّعَامَةُ وَالْإِيَالَةُ،فَيَجِبُ اسْتِدْرَاكُهُ لَا مَحَالَةَ،وَتَرْكُ النَّاسِ سُدًى،مُلْتَطِمِينَ لَا جَامِعَ لَهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ أَجْدَى عَلَيْهِمْ مِنْ تَقْرِيرِهِمْ عَلَى اتِّبَاعِ مَنْ هُوَ عَوْنُ الظَّالِمِينَ،وَمَلَاذُ الْغَاشِمِينَ،وَمَوْئِلُ الْهَاجِمِينَ،وَمُعْتَصَمُ الْمَارِقِينَ النَّاجِمِينَ،وَإِذَا دُفِعَ الْخَلْقُ إِلَى ذَلِكَ،فَقَدِ اعْتَاصَتِ الْمَسَالِكُ،وَأَعْضَلَتِ الْمَدَارِكُ،فَلْيَتَّئِدِ النَّاظِرُ هُنَالِكَ،وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْأَمْرَ إِذَا اسْتَمَرَّ عَلَى الْخَبَالِ،وَالْخَبْطِ وَالِاخْتِلَالِ،كَانَ ذَلِكَ لِصِفَةٍ

147 – من فقهاء الهزيمة والنفاق أو الجهال

148 – جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٢٤٨)

فِي الْمُتَصَدِّي لِلْإِمْرَةِ،وَتيكَ هِيَ الَّتِي جَرَّتْ مِنْهُ هَذِهِ الْفَتْرَةَ،وَلَا يَرْتَضِي هَذِهِ الْحَالَةَ مَنْ نَفْسُهُ ذُو حَصَافَةٍ فِي الْعَقْلِ،وَدَوَامُ التَّهَافُتِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مُشْعِرٌ بِرَكَاكَةِ الدِّينِ فِي الْأَصْلِ،أَوْ بِاضْطِرَابِ الْجِبِلَّةِ،وَهُوَ خَبَلٌ،فَإِنْ أَمْكَنَ اسْتِدْرَاكُ ذَلِكَ،فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ قَبْلَ أَنْ تَزُولَ الْأُمُورُ عَنْ مَرَاتِبِهَا وَتَمِيلَ مِنْ مَنَاصِبِهَا،وَتَمِيدَ خِطَّةُ الْإِسْلَامِ بِمَنَاكِبِهَا"[١٤٩]

ثم قال:" وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِإِتْمَامِ الْغَرَضِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُتَصَدِّيَ لِلْإِمَامَةِ إِذَا عَظُمَتْ جِنَايَتُهُ،وَكَثُرَتْ عَادِيَتُهُ،وَفَشَا احْتِكَامُهُ وَاهْتِضَامُهُ،وَبَدَتْ فَضَحَاتُهُ،وَتَتَابَعَتْ عَثَرَاتُهُ،وَخِيفَ بِسَبَبِهِ ضِيَاعُ الْبَيْضَةِ،وَتَبَدُّدُ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ،وَلَمْ نَجِدْ مَنْ نُنَصِّبُهُ لِلْإِمَامَةِ حَتَّى يَنْتَهِضَ لِدَفْعِهِ حَسْبَ مَا يَدْفَعُ الْبُغَاةَ،فَلَا نُطْلِقُ لِلْآحَادِ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ أَنْ يَثُورُوا ؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَاصْطُلِمُوا وَأُبِيرُوا،وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي ازْدِيَادِ الْمِحَنِ،وَإِثَارَةِ الْفِتَنِ،وَلَكِنْ إِنِ اتَّفَقَ رَجُلٌ طَاعٌ ذُو أَتْبَاعٍ وَأَشْيَاعٍ،وَيَقُومُ مُحْتَسِبًا،آمِرًا بِالْمَعْرُوفِ نَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ،وَانْتَصَبَ بِكِفَايَةِ الْمُسْلِمِينَ مَا دُفِعُوا إِلَيْهِ،فَلْيَمْضِ فِي ذَلِكَ قُدُمًا. وَاللَّهُ نَصِيرُهُ عَلَى الشَّرْطِ الْمُقَدَّمِ فِي رِعَايَةِ الْمَصَالِحِ،وَالنَّظَرِ فِي الْمَنَاجِحِ،وَمُوَازَنَةِ مَا يُدْفَعُ،وَيَرْتَفِعُ بِمَا يُتَوَقَّعُ."[١٥٠]

وهنا يؤكد الإمام الجويني أن وجوب نصب الإمام حكم شرعي معلل بقصد حماية الدولة والقيام بمصالح الأمة،بحراسة الدين،وسياسة الدنيا،فإذا كان وجود الإمام المسلم يفضي إلى خلاف هذا القصد،بحيث يؤدي إلى ضياع الدولة وحقوق الأمة ومصالحها،وجب شرعا خلعه،ونصب إمام قادر على القيام بما وكل إليه؛ إذ ترك الناس بلا إمام خير لهم من إمام يقطع طريقهم،ويسفك دماءهم،ويستحل محارمهم؛ ويسجن خيارهم،إذ الإمامة إنما وجبت لغير هذا القصد،وهذا معنى الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ،يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ،وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ،كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ،وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ»[١٥١].

---

149 – غياث الأمم في التياث الظلم (ص:١٠٦)

150 – غياث الأمم في التياث الظلم (ص:١١٥)

151 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٣ – (١٨٤١)

[ش(الإمام جنة) أي كالستر لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ويمنع الناس بعضهم من بعض ويحمي بيضة الإسلام ويتقيه الناس ويخافون سطوته ومعنى يقاتل من ورائه أي يقاتل معه الكفار والبغاة والخوارج وسائر أهل الفساد وينصر

فالإمام وقاية ودرع تحتمي به الأمة من عدوها الخارجي،ومن العدوان الداخلي،فإذا صار هو العدو الذي يصول عليهم ويقاتلها فلها التصدي له وخلعه! حيث نافى وجوده مقصود الإمامة وغايتها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:(" وَوَلِيُّ الْأَمْرِ إذَا تَرَكَ إنْكَارَ الْمُنْكَرَاتِ وإقامة الحدود عليهما بِمَالٍ يَأْخُذُهُ:كَانَ بِمَنْزِلَةِ مُقَدَّمِ الْحَرَامِيَّة،الَّذِي يُقَاسِمُ الْمُحَارِبِينَ عَلَى الْأَخِيذَةِ،وَبِمَنْزِلَةِ الْقَوَّادِ الَّذِي يَأْخُذُ مَا يَأْخُذُهُ؛ لِيَجْمَعَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَلَى فَاحِشَةٍ،وَكَانَ حَالُهُ شَبِيهًا بِحَالِ عَجُوزِ السُّوءِ امْرَأَةِ لُوطٍ،الَّتِي كَانَتْ تَدُلُّ الْفُجَّارَ عَلَى ضَيْفِهِ،الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا:{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} [الأعراف:٨٣] (سورة الأعراف:الآية ٨٣). وَقَالَ تَعَالَى:{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ} [هود:٨١] (سورة هود:من الآية ١٨). فَعَذَّبَ اللَّهُ عَجُوزَ السُّوءِ الْقَوَّادَةَ بِمِثْلِ مَا عَذَّبَ قَوْمَ السُّوءِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ الْخَبَائِثَ،وَهَذَا لِأَنَّ هَذَا جَمِيعَهُ أَخْذُ مَالٍ لِلْإِعَانَةِ على الإثم والعدوان،وولي الأمر إنما نُصِبَ لِيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ،وَيَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ،وَهَذَا هُوَ مَقْصُودُ الْوِلَايَةِ. فَإِذَا كَانَ الْوَالِي يُمَكِّنُ مِنْ الْمُنْكَرِ بِمَالٍ يَأْخُذُهُ،كَانَ قَدْ أَتَى بضد المقصود،مثل مَنْ نَصَّبْتَهُ لِيُعِينَكَ عَلَى عَدُوِّكَ،فَأَعَانَ عَدُوَّكَ عَلَيْكَ. وَبِمَنْزِلَةِ مَنْ أَخَذَ مَالًا لِيُجَاهِدَ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَقَاتَلَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ. يُوَضِّحُ ذَلِكَ أَنَّ صَلَاحَ الْعِبَادِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ؛ فَإِنَّ صَلَاحَ الْمَعَاشِ وَالْعِبَادِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إلَّا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ،وَبِهِ صَارَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران:١١٠] (سورة أل عمران:من الآية ١١٠). وَقَالَ تَعَالَى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران:١٠٤] (سورة آل عمران:من الآية ١٠٤). وَقَالَ تَعَالَى:{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة:٧١] (سورة التوبة:من الآية ٧١). وَقَالَ تَعَالَى عَنْ بَنِي إسْرَائِيلَ:{كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ

عليهم ومعنى يتقى به أي شر العدو وشر أهل الفساد والظلم مطلقا والتاء في يتقى مبدلة من الواو لأن أصلها من الوقاية]

لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المائدة:٧٩] (سورة المائدة:الآية ٧٩). وَقَالَ تَعَالَى:{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف:١٦٥] (سورة الأعراف:الآية ١٦٥). فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْعَذَابَ لَمَّا نَزَلَ نَجَّى الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ،وَأَخَذَ الظَّالِمِينَ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ. وَفِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَا وَضَعَهَا اللَّهُ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ،لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥]،إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوَا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ،يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»[١٥٢].

وفي حديث آخر عن الْأَوْزَاعِيِّ،سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ:" إِنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا خَفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا،وَإِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُغَيَّرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ " وَفِي رِوَايَةٍ " إِنَّ الْخَطِيئَةَ إِذَا خَفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ،إِلَّا عَامِلَهَا،وَإِذَا ظَهَرَتْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ " [١٥٣].

وَهَذَا الْقِسْمُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْحُكْمِ فِي حدود الله وحقوقه:مقصوده الْأَكْبَرِ:هُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ. فَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ:مِثْلُ الصَّلَاةِ،وَالزَّكَاةِ،وَالصِّيَامِ،وَالْحَجِّ،والصدق،وَالْأَمَانَةِ،وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ،وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ،وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ مَعَ الْأَهْلِ وَالْجِيرَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَالْوَاجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يَأْمُرَ بِالصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ جَمِيعَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَمْرِهِ،وَيُعَاقِبُ التَّارِكَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ كَانَ التَّارِكُونَ طَائِفَةً مُمْتَنِعَةً قُوتِلُوا عَلَى تَرْكِهَا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ،وَكَذَلِكَ يُقَاتَلُونَ عَلَى تَرْكِ الزكاة،والصيام،وغيرهما،وعلى استحلال الْمُحَرَّمَاتِ الظَّاهِرَةِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا،كَنِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ،وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَكُلُّ طَائِفَةٍ مُمْتَنِعَةٍ عَنْ الْتِزَامِ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الإسلام الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ يَجِبُ جِهَادُهَا،حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ،بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.". [١٥٤]

---

152 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ٥٤٠)(٣٠٥) صحيح

153 – شعب الإيمان (١٠/ ٨٠)(٧١٩٦) صحيح مقطوع ومثله لا يقال بالرأي

154 – السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (ص:٥٨-٦٠)

وكان الإمام مالك إذا سئل عن القتال مع الخلفاء المسلمين من أئمة الجور في عصره ضد من خرج عليهم يقول:(إن كان الخليفة كعمر بن عبد العزيز فقاتل معه،وإن كان كمثل هؤلاء الظلمة،فلا تقاتل معهم).[١٥٥]

لأنه لا يرى لهم ولاية شرعية تقتضي وجوب السمع والطاعة لهم،ولا القتال معهم ضد من خرج عليهم! قَالَ سَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ:أَخْبَرَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ مَالِكًا اسْتُفْتِيَ فِي الْخُرُوجِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَقِيلَ لَهُ:إِنَّ فِي أَعْنَاقِنَا بَيْعَةً لِلْمَنْصُورِ،فَقَالَ:إِنَّمَا بَايَعْتُمْ مُكْرَهِينَ وَلَيْسَ عَلَى مُكْرَهٍ يَمِينٌ،فَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَى مُحَمَّدٍ وَلَزِمَ مَالِكٌ بَيْتَهُ.[١٥٦]

وسئل الإمام مالك أيضا عن الوالي إذا قام عليه قائم يريد إزالة ما بيده:هل يجب الدفع عنه؟ فقال:(أما مثل عمر بن عبد العزيز فنعم،وأما غيره فلا ودعه وما يريد،فينتقم الله من ظالم بظالم،ثم ينتقم الله منهما جميعا).

وقال مالك أيضا:(إذا بايع الناس رجلا بالإمارة ثم قام آخر فدعا إلى بيعته فبايعه بعضهم أن المبايع الثاني يقتل إذا كان الإمام عدلا،فإن كان مثل هؤلاء فلا بيعة له تلزم،إذا كانت بيعتهم على الخوف،والبيعة للثاني إن كان عدلا،وإلا فلا بيعة له تلزم).[١٥٧]

قلت:" وهناك أقوال أخرى تبين تفريق الإمام مالك الإماما العادل عن غيره،قَالَ ابْنُ وَهْبٍ:إِنْ كَانَ الْإِمَامُ عَدْلًا لَمْ يَجُزْ لِأَحَدٍ أَنْ يُبَارِزَ الْعَدُوَّ إِلَّا بِإِذْنِهِ،وَإِنْ كَانَ غَيْرَ عَدْلٍ فَلْيُبَارِزْ وَلْيُقَاتِلْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ. ابْنُ رُشْدٍ:هَذَا كَمَا قَالَ إِنَّ الْإِمَامَ إِذَا كَانَ غَيْرَ عَدْلٍ لَمْ يَلْزَمْ اسْتِئْذَانُهُ فِي مُبَارِزَةٍ وَلَا قِتَالٍ وَإِنَّمَا يَفْتَرِقُ الْعَدْلُ مِنْ غَيْرِ الْعَدْلِ فِي الِاسْتِئْذَانِ لَهُ لَا فِي طَاعَتِهِ إِذَا أَمَرَ بِشَيْءٍ أَوْ نَهَى عَنْهُ. ثُمَّ قَالَ:فَوَاجِبٌ عَلَى الرِّجَالِ طَاعَةُ الْإِمَامِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ عَدْلٍ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِمَعْصِيَةٍ.[١٥٨]

---

155 – انظر تبصرة الحكام ٢/٩٦.

156 – سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨/ ٨٠) والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي (ص:٣٥٨) والكامل في التاريخ (٥/ ١١١) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٨/ ٦٤) وتاريخ ابن خلدون (٣/ ٢٤٠) و تاريخ الإسلام ت بشار (٣/ ٧٨٣) وتاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٧/ ٥٦٠) وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (٤/ ١٧٠)

157 – العقد المنظم بحاشية تبصرة الحكام ٢/١٩٥ – ١٩٧.

158 – البيان والتحصيل (٣/ ٦٣) والتاج والإكليل لمختصر خليل (٨/ ٩١)

وقَالَ مَالِكٌ:وَإِذَا كَانَ الْإِمَامُ عَدْلًا مِثْلَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَلَا يُخْرِجُ أَحَدٌ زَكَاتَهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُصَدِّقُ. فَإِنْ أَتَاهُ فَقَالَ قَدْ أَدَّيْتهَا لَمْ يُقْبَلْ قَوْلُهُ وَلْيَأْخُذْهُ بِهَا. وَقَالَ أَشْهَبُ:لَا شَيْءَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُتَّهَمَ بِمَنْعِ الزَّكَاةِ.

قَالَ مَالِكٌ:وَإِنْ كَانَ الْإِمَامُ غَيْرَ عَدْلٍ فَلْيَضَعْهَا مَوَاضِعَهَا إِنْ خَفِيَ لَهُ ذَلِكَ وَأَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَهْرُبَ بِهَا عَنْهُمْ إِنْ قَدَرَ،فَإِنْ خَافَ أَنْ يَأْتُوهُ وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُخْفِيَهَا عَنْهُمْ فَلْيُؤَخِّرْ ذَلِكَ حَتَّى يَأْتُوهُ فَإِنْ أَخَذُوهَا مِنْهُ أَجْزَأَهُ"[١٥٩]

فأبطل الإمام مالك بيعة من أكره الناس على بيعته وأخذ السلطة بالقوة،وأبطل ولايته،وإنما ولايته على الناس ولاية جبرية قهرية بحكم الواقع لا بحكم الشارع،ولها أحكام الاضطرار،فإن قام عدل ينازعه فالبيعة للعدل!

ولشهرة هذا الخلاف بين أئمة أهل السنة قال العلامة المعلمي:(" كان أبو حنيفة يستحب أو يوجب الخروج على خلفاء بني العباس لما ظهر منهم من الظلم ويرى قتالهم خيراً من قتال الكفار،وأبو إسحاق ينكر ذلك،وكان أهل العلم مختلفين في ذلك فمن كان يرى الخروج يراه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالحق،ومن كان يكرهه يرى أنه شق لعصا المسلمين وتفريق لكلمتهم وتشتيت لجماعتهم وتمزيق لوحدتهم وشغل لهم بقتل بعضهم بعضاً،فتهن قوتهم وتقوى شوكة عدوهم وتتعطل ثغورهم،فيستولي عليها الكفار ويقتلون من فيها من المسلمين ويذلونهم وقد يستحكم التنازع بين المسلمين فتكون نتيجة الفشل المخزي لهم جميعاً.....

هذا والنصوص التي يحتج بها المانعون من الخروج والمجيزون له معروفة،والمحققون يجمعون بين ذلك بأنه إذا غلب على الظن أن ما ينشأ عن الخروج من المفاسد أخف جداً مما يغلب على الظن أنه يندفع به جاز الخروج وإلا فلا. وهذا النظر قد يختلف فيه المجتهدان...")[١٦٠]

---

159 – التاج والإكليل لمختصر خليل (٣/ ١٠٨)

160 – التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (١/ ٢٨٨) فما بعدها

ويلاحظ أن من منعوا من الخروج عللوا المنع بأن لا يتعطل الجهاد وأن تحمى البلاد وتأمن السبل وينتصف الضعيف من القوي،فليس هو حكما تعبديا محضًا،بل مصلحي معلل،والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

وقد ذكر ابن حزم أنه مذهب أئمة المذاهب المشهورة في القرن الثاني،حيث قال:(" اتّفقت الْأمة كلهَا على وجوب الْأَمر بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْي عَن الْمُنكر بِلَا خلاف من أحد مِنْهُم لقَوْل الله تَعَالَى {ولتكن مِنْكُم أمة يدعونَ إِلَى الْخَيْر ويأمرون بِالْمَعْرُوف وَينْهَوْنَ عَن الْمُنكر} ثمَّ اخْتلفُوا فِي كيفيته فَذهب بعض أهل السّنة من القدماء من الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم فَمن بعدهمْ وَهُوَ قَول أَحْمد بن حَنْبَل وَغَيره وَهُوَ قَول سعد بن أبي وَقاص وَأُسَامَة ابْن زيد وَابْن عمر وَمُحَمّد بن مسلمة وَغَيرهم إِلَى أَن الْغَرَض من ذَلِك إِنَّمَا هُوَ بِالْقَلْبِ فَقَط وَلَا بَدأَ وباللسان إِن قدر على ذَلِك وَلَا يكون بِالْيَدِ وَلَا بسل السيوف وَوضع السِّلَاح أصلا وَهُوَ قَول ابي بكر ابْن كيسَان الْأَصَم وَبِه قَالَت الروافض كلهم وَلَو قتلوا كلهم إِلَّا أَنَّهَا لم تَرَ ذَلِك إِلَّا مَا لم يخرج النَّاطِق فَإِذا خرج وَجب سل السيوف حِينَئِذٍ مَعَه وَإِلَّا فَلَا واقتدى أهل السّنة فِي هَذَا بعثمان رَضِي الله عَنهُ وَممَّنْ ذكرنَا من الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم وبمن رأى الْقعُود مِنْهُم إِلَّا أَن جَمِيع الْقَائِلين بِهَذِهِ الْمقَالة من أهل السّنة إِنَّمَا رَأَوْا ذَلِك مَا لم يكن عدلا فَإِن كَانَ عدلا وَقَامَ عَلَيْهِ فَاسق وَجب عِنْدهم بِلَا خلاف سل السيوف مَعَ الإِمَام الْعدْل وَقد روينَا عَن ابْن عمرانة قَالَ لَا أَدْرِي من هِيَ الفئة الباغية وَلَو علمنَا مَا سبقتني أَنْت وَلَا غَيْرك إِلَى قتالها.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد وَهَذَا الَّذي لَا يظنّ بأولئك الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم غَيره،وَذَهَبت طوائف من أهل السّنة وَجَمِيع الْمُعْتَزلَة وَجَمِيع الْخَوَارِج والزيدية إِلَى أَن سل السيوف فِي الْأَمر بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَاجِب إِذا لم يُمكن دفع الْمُنكر إِلَّا بذلك قَالُوا فَإِذا كَانَ أهل الْحق فِي عِصَابَة يُمكنهُم الدّفع وَلَا ييئسون من الظفر فَفرض عَلَيْهِم ذَلِك وَإِن كَانُوا فِي عدد لَا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر كَانُوا فِي سَعَة من ترك التَّغْيِير بِالْيَدِ وَهَذَا قَول عَليّ بن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ وكل من مَعَه من الصَّحَابَة وَقَول أم الْمُؤمنِينَ عَائِشَة رَضِي الله عَنْهَا وَطَلْحَة وَالزُّبَيْر وكل من كَانَ مَعَهم من الصَّحَابَة وَقَول مُعَاوِيَة وَعَمْرو والنعمان بن بشير وَغَيرهم مِمَّن مَعَهم من الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم أَجْمَعِينَ وَهُوَ قَول عبد الله بن الزبير وَمُحَمّد وَالْحسن بن عَليّ وَبَقِيَّة الصَّحَابَة من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار والقائمين يَوْم الْحرَّة رَضِي الله عَن جَمِيعهم أَجْمَعِينَ وَقَول كل من أَقَامَ على الْفَاسِق الْحجَّاج وَمن

وَالَاهُ من الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم جَمِيعهم كأنس بن مَالك وكل من كَانَ مِمَّن ذكرنَا من أفاضل التَّابعين كَعبد الرَّحْمَن ابْن أبي ليلى وَسَعِيد بن جُبَير وَابْن البحتري الطَّائِي وَعَطَاء السّلميّ الْأَزْديّ وَالْحسن الْبَصْرِيّ وَمَالك بن دِينَار وَمُسلم بن بشار وَأبي الْحَوْرَاء وَالشعْبِيّ وَعبد الله بن غَالب وَعقبَة بن عبد الغافر وَعقبَة بن صهْبَان وماهان والمطرف بن الْمُغيرَة ابْن شُعْبَة وَأبي الْمعد وحَنْظَلَة بن عبد الله وَأبي سح الْهنائِي وطلق بن حبيب والمطرف بن عبد الله ابْن السخير والنصر بن أنس وَعَطَاء بن السَّائب وَإِبْرَاهِيم بن يزِيد التَّيْمِيّ وَأبي الحوسا وجبلة بن زحر وَغَيرهم ثمَّ من بعد هَؤُلَاءِ من تَابِعِيّ التَّابعين وَمن بعدهمْ كَعبد الله بن عبد الْعَزِيز ابْن عبد الله بن عمر وكعبد الله بن عمر وَمُحَمّد بن عجلَان وَمن خرج مَعَ مُحَمَّد بن عبد الله بن الْحسن وهَاشِم بن بشر ومطر وَمن أخرج مَعَ إِبْرَاهِيم بن عبد الله وَهُوَ الَّذِي تدل عَلَيْهِ أَقْوَال الْفُقَهَاء كَأبي حنيفَة وَالْحسن بن حيّ وَشريك وَمَالك وَالشَّافِعِيّ وَدَاوُد وأصحابهم فَإِن كل من ذكرنَا من قديم وَحَدِيث إِمَّا نَاطِق بذلك فِي فتواه وَإِمَّا الْفَاعِل لذَلِك بسل سَيْفه فِي إِنْكَار مَا رَآهُ مُنْكرا"[١٦١]

وقال ابن حجر مفرقا بين خروج الخوارج،وخروج البغاة،وخروج أهل الحق:(والثّاني مَن خَرَجَ فِي طَلَبِ المُلكِ لا للدُّعاءِ إِلَى مُعتَقَدِه،وهُم عَلَى قِسمَينِ أَيضًا:قِسمٌ خَرَجُوا غَضَبًا للدِّينِ مِن أَجلِ جَورِ الوُلاةِ وتَركِ عَمَلِهِم بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فَهَؤُلاءِ أَهلُ حَقٍّ،ومِنهُمُ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ وأَهلُ المَدِينَةِ فِي الحَرَّةِ والقُرّاءُ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى الحَجّاجِ،وقِسمٌ خَرَجُوا لِطَلَبِ المُلكِ فَقَط سَواءٌ كانَت فِيهِم شُبهَةٌ أَم لا وهُمُ البُغاةُ.)[١٦٢]

وقال أيضاً:" وأَمّا مَن خَرَجَ عَن طاعَة إِمام جائِر أَرادَ الغَلَبَة عَلَى ماله أَو نَفسه أَو أَهله فَهُو مَعذُور ولا يَحِلّ قِتاله ولَهُ أَن يَدفَع عَن نَفسه وماله وأَهله بِقَدرِ طاقَته.

وقَد أَخرَجَ الطَّبَرِيُّ بِسَنَد صَحِيح عَنْ عَبْد الله بْن الْحَارِث،عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي نَصْر بْن مُعَاوِيَةَ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ فَذَكَرُوا أَهْلَ النَّهَرِ فَسَبَّهُمْ رَجُلٌ،فَقَالَ عَلِيٌّ:لاَ تَسُبُّوهُمْ،وَلَكِنْ إِنْ

---

161 – الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٣٢) وأتى به المؤلف مختصرا

162 – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (١٢/ ٢٨٥)

خَرَجُوا عَلَى إمَامٍ عَادِلٍ فَقَاتِلُوهُمْ،وَإِنْ خَرَجُوا عَلَى إمَامٍ جَائِرٍ فَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ،فَإِنَّ لَهُمْ بِذَلِكَ مَقَالاً.[١٦٣]

قُلت:أي (الحافظ ابن حجر):وعَلَى ذَلِكَ يُحمَل ما وقَعَ لِلحُسَينِ بن عَلِيّ ثُمَّ لأَهلِ المَدِينَة فِي الحَرَّة ثُمَّ لِعَبدِ الله بن الزُّبَير ثُمَّ لِلقُرّاءِ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى الحَجّاج فِي قِصَّة عَبد الرَّحمَن بن مُحَمَّد بن الأَشعَث والله أَعلَمُ. "[١٦٤]

ونص أيضًا أن الخروج على الظلمة كان مذهبا للسلف فقال في ترجمة الحسن بن حي:(وقولهم كان يرى السيف يعني كان يرى الخروج بالسيف على أئمة الجور وهذا مذهب للسلف قديم).[١٦٥]

وهو مذهب أبي حنيفة كما قال أبو بكر الجصاص:(" وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ مَذْهَبَ أَبِي حَنِيفَةَ تَجْوِيزُ إمَامَةِ الْفَاسِقِ وَخِلَافَته وَأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَاكِمِ فَلَا يُجِيزُ حُكْمَهُ،وَذُكِرَ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَهُوَ الْمُسَمَّى زُرْقَانَ وَقَدْ كَذَبَ فِي ذَلِكَ وَقَالَ بِالْبَاطِلِ،وَلَيْسَ هُوَ أَيْضًا مِمَّنْ تُقْبَلُ حِكَايَتُهُ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ بَيْنَ الْقَاضِي وَبَيْنَ الْخَلِيفَةِ فِي أَنَّ شَرْطَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْعَدَالَةُ،وَأَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَكُونُ خَلِيفَةً وَلَا يَكُونُ حَاكِمًا؛ كَمَا لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ وَلَا خَبَرُهُ لَوْ رَوَى خَبَرًا عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَيْفَ يَكُونُ خَلِيفَةً وَرِوَايَتُهُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ وَأَحْكَامُهُ غَيْرُ نَافِذَةٍ وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُدْعَى ذَلِكَ عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَكْرَهَهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى الْقَضَاءِ وَضَرَبَهُ فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ وَحُبِسَ فَلَجَّ ابْنُ هُبَيْرَةَ وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ كُلَّ يَوْمٍ أَسْوَاطًا. فَلَمَّا خِيفَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ الْفُقَهَاءُ:فَتَوَلَّ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِ أَيَّ شَيْءٍ كَانَ حَتَّى يَزُولَ عَنْك هَذَا الضَّرْبُ فَتَوَلَّى لَهُ عَدَّ أَحْمَالِ التِّبْنِ الَّذِي يَدْخُلُ،فَخَلَّاهُ،ثُمَّ دَعَاهُ الْمَنْصُورُ إلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَأَبَى،فَحَبَسَهُ حَتَّى عَدَّ لَهُ اللَّبِنَ الَّذِي كَانَ يُضْرَبُ لِسُورِ مَدِينَةِ بَغْدَادَ.وَكَانَ مَذْهَبُهُ مَشْهُورًا فِي قِتَالِ الظَّلَمَةِ وَأَئِمَّةِ الْجَوْرِ،وَلِذَلِكَ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:احْتَمَلْنَا أَبَا حَنِيفَةَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى جَاءَنَا بِالسَّيْفِ يَعْنِي قِتَالَ الظَّلَمَةِ فَلَمْ نَحْتَمِلْهُ،وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ:وُجُوبُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ فَرْضٌ بِالْقَوْلِ،فَإِنْ لَمْ

---

163 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (٢١/ ٤٤٦)(٣٩٠٧١)

164 – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (١٢/ ٣٠١)

165 – تهذيب التهذيب (٢/ ٢٨٨)

يُؤْتَمَرْ لَهُ فَبالسَّيْف،عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ. وَسَأَلَهُ إبْرَاهِيمُ الصَّائِغُ وَكَانَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَرُوَاةِ الْأَخْبَارِ وَنُسَّاكِهِمْ عَنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ،فَقَالَ:هُوَ فَرْضٌ وَحَدَّثَهُ بِحَدِيثٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:"أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَامَ إلَى إمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاهُ عَنْ الْمُنْكَرِ فَقُتِلَ". فَرَجَعَ إبْرَاهِيمُ إلَى مَرْوَ وَقَامَ إلَى أَبِي مُسْلِمٍ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ظُلْمَهُ وَسَفْكَهُ الدِّمَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ،فَاحْتَمَلَهُ مِرَارًا ثُمَّ قَتَلَهُ. وَقَضِيَّتُهُ فِي أَمْرِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ مَشْهُورَةٌ وَفِي حَمْلِهِ الْمَالَ إلَيْهِ وَفُتْيَاهُ النَّاسَ سِرًّا فِي وُجُوبِ نُصْرَتِهِ وَالْقِتَالِ مَعَهُ وَكَذَلِكَ أَمْرُهُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ ابْنَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنٍ،وَقَالَ لِأَبِي إسْحَاقَ الْفَزَارِيِّ حِينَ قَالَ لَهُ:لِمَ أَشَرْت عَلَى أَخِي بِالْخُرُوجِ مَعَ إبْرَاهِيمَ حَتَّى قُتِلَ؟ قَالَ:مَخْرَجُ أَخِيك أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ مَخْرَجِك. وَكَانَ أَبُو إسْحَاقَ قَدْ خَرَجَ إلَى الْبَصْرَةِ،وَهَذَا إنَّمَا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَغْمَارُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ بِهِمْ فُقِدَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ حَتَّى تَغَلَّبَ الظَّالِمُونَ عَلَى أُمُورِ الْإِسْلَامِ،فَمَنْ كَانَ هَذَا مَذْهَبُهُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ كَيْفَ يَرَى إمَامَةَ الْفَاسِقِ؟)[١٦٦].

وهذا هو مذهب شيخه حماد بن أبي سليمان،إمام أهل الكوفة في عصره.[١٦٧]

وهو مذهب مالك،قال ابن العربي:(قَالَ عُلَمَاؤُنَا فِي رِوَايَةِ سَحْنُون:إنَّمَا يُقَاتَلُ مَعَ الْإِمَامِ الْعَدْلِ سَوَاءٌ كَانَ الْأَوَّلَ أَوْ الْخَارِجَ عَلَيْهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا عَدْلَيْنِ فَأَمْسِكْ عَنْهُمَا إلَّا أَنْ تُرَادَ بِنَفْسِك أَوْ مَالِكَ أَوْ ظُلْمَ الْمُسْلِمِينَ فَادْفَعْ ذَلِكَ.

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ:لَا تُقَاتَلُ إلَّا مَعَ إمَامٍ [عَادِلٍ] يُقَدِّمُهُ أَهْلُ الْحَقِّ لِأَنْفُسِهِمْ،وَلَا يَكُونُ إلَّا قُرَشِيًّا،وَغَيْرُهُ لَا حُكْمَ لَهُ،إلَّا أَنْ يَدْعُو إلَى الْإِمَامِ الْقُرَشِيِّ؛ قَالَهُ مَالِكٌ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَةَ لَا تَكُونُ إلَّا لِقُرَشِيٍّ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ،عَنْ مَالِكٍ:إذَا خَرَجَ عَلَى الْإِمَامِ الْعَدْلِ خَارِجٌ وَجَبَ الدَّفْعُ عَنْهُ،مِثْلُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،فَأَمَّا غَيْرُهُ فَدَعْهُ يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْ ظَالِمٍ بِمِثْلِهِ ثُمَّ يَنْتَقِمُ مِنْ كِلَيْهِمَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ

---

166 – أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (١/ ٨٥)

167 – تاريخ بغداد ٣٩٨/١٣.

الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا} [الإسراء:٥].قَالَ مَالِكٌ:إِذَا بُوِيعَ لِلْإِمَامِ فَقَامَ عَلَيْهِ إِخْوَانُهُ قُوتِلُوا إِذَا كَانَ الْأَوَّلُ عَدْلًا،فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَلَا بَيْعَةَ لَهُمْ إِذَا كَانَ بُوِيعَ لَهُمْ عَلَى الْخَوْفِ.)[١٦٨]

وفي مذهب الشافعي " وَإِنْ صَرَّحَ الْمُتَوَلِّي وَغَيْرُهُ بِأَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى الْجَائِرِ لَيْسَ بَغْيًا فَقَدْ صَرَّحَ الْقَفَّالُ بِأَنَّهُ بَغْيٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْعَزِلُ بِالْجَوْرِ وَنَقَلَهُ ابْنُ الْقُشَيْرِيِّ عَنْ مُعْظَمِ الْأَصْحَابِ،وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ إنَّ الْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ،وَإِنْ كَانُوا فَسَقَةً ظَالِمِينَ وَنُوزِعَ فِي دَعْوَى الْإِجْمَاعِ بِخُرُوجِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَمَعَ كُلٍّ مِنْهُمَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ السَّلَفِ وَأُجِيبَ بِأَنَّ مَحَلَّ الْإِجْمَاعِ فِي الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ بِلَا عُذْرٍ،وَلَا تَأْوِيلٍ"[١٦٩]

قال الزبيدي:إن الخروج على الإمام الجائر هو مذهب الشافعي القديم.[١٧٠]

وفي مذهب أحمد رواية مرجوحة بجواز الخروج على الإمام الجائر،بناءً على ما روي عنه من عدم انعقاد الإمامة بالاستيلاء كما تقدم فقد جَوَّزَ ابْنُ عَقِيلٍ،وَابْنُ الْجَوْزِيِّ الْخُرُوجَ عَلَى إمَامٍ غَيْرِ عَادِلٍ،وَذَكَرَا خُرُوجَ الْحُسَيْنِ عَلَى يَزِيدَ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ. وَهُوَ ظَاهِرُ كَلَامِ ابْنِ رَزِينٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ.[١٧١]

وهذا الخلاف كله في شأن الخلفاء المسلمين إذا وقع منهم جور،أما اليوم فلا توجد أصلا إمامة شرعية تجب لها بيعة.

"قلت:لأن الخلافة الإسلامية الشرعية قد ألغيت عام ١٩٢٤ م على يد اليهودي كمال أتاتورك،وهذه المرحلة تمثل الحكم الجبري،يعني الذي يحكم بلاد الإسلام بالقوة،والبطش والإرهاب،وليس في واحد من هؤلاء يسمَّى خليفة أصلاً...فلا تنعقد بيعة أي واحد منهم،ولا يلزم الوفاء بها،فعن بِيبَ بْنِ سَالِمٍ،قَالَ:سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ

---

168 – أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٥٣)

169 – أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٤/ ١١١) و التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي (٢/ ٦٨٥)

170 – إتحاف السادة المتقين٢/٢٣٣ والتشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي (٢/ ٦٨٥)

171 – الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (١٠/ ٣١١)

أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ،أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،**ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا**،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ»[172]

ونحن الآن في المرحلة الرابعة من أمور نظام الحكم في الإسلام.."

قال د حاكم:" والأمر في الشام اليوم وكثير من الأمصار تجاوز حدود الردة وأحكامها الموجبة للخروج!"

قال د–حاكم حفظه الله:"ومسألة الخروج على الإمام الشرعي تُبنى هي أيضا على مسألة انفساخ عقد الإمامة بالفسق،وهي مسألة خلافية أيضا،قال القرطبي:(الْإِمَامُ إِذَا نُصِّبَ ثُمَّ فَسَقَ بَعْدَ انْبِرَامِ الْعَقْدِ فَقَالَ الْجُمْهُورُ:إِنَّهُ تَنْفَسِخُ إِمَامَتُهُ وَيُخْلَعُ بِالْفِسْقِ الظَّاهِرِ الْمَعْلُومِ،لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْإِمَامَ إِنَّمَا يُقَامُ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَاسْتِيفَاءِ الْحُقُوقِ وَحِفْظِ أَمْوَالِ الْأَيْتَامِ وَالْمَجَانِينِ وَالنَّظَرِ فِي أُمُورِهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ،وَمَا فِيهِ مِنَ الْفِسْقِ يُقْعِدُهُ عَنِ الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ وَالنُّهُوضِ بِهَا. فَلَوْ جَوَّزْنَا أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا أَدَّى إِلَى إِبْطَالِ مَا أُقِيمَ لِأَجْلِهِ،أَلَا تَرَى فِي الِابْتِدَاءِ إِنَّمَا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْقَدَ لِلْفَاسِقِ لِأَجْلِ أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى إِبْطَالِ مَا أُقِيمَ لَهُ،وَكَذَلِكَ هَذَا مِثْلُهُ. وَقَالَ آخَرُونَ:لَا يَنْخَلِعُ إِلَّا بِالْكُفْرِ أَوْ بِتَرْكِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ أَوِ التَّرْكِ إِلَى دُعَائِهَا أو شي مِنَ الشَّرِيعَةِ لحديث جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ،فَقُلْنَا:حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ،بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ

[172] – مسند أبي داود الطيالسي (١/ ٣٥٠)(٤٣٩) صحيح

وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا،وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»،قَالَ:«إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ».[173]

وقد ذكر الماوردي هذه المسألة فلم يذكر فيها خلافًا،إذا كان خروجه عن حد العدالة بسبب اتباع الشهوات من الفسق والجور بفعل المحظورات،وارتكاب المنكرات،وتحكيم الشهوات،فهذا فسق يمنع من عقد الإمامة له ابتداءً،ومن استدامتها إذا طرأ شيء من ذلك على الإمام،ويخرج من الإمامة.

قلت:قال الماوردي رحمه الله:" فَأَمَّا الْجَرْحُ فِي عَدَالَتِهِ وَهُوَ الْفِسْقُ فَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا:مَا تَابَعَ فِيهِ الشَّهْوَةَ.

وَالثَّانِي:مَا تَعَلَّقَ فِيهِ بِشُبْهَةٍ،فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنْهُمَا فَمُتَعَلِّقٌ بِأَفْعَالِ الْجَوَارِحِ،وَهُوَ ارْتِكَابُهُ لِلْمَحْظُورَاتِ،وَإِقْدَامُهُ عَلَى الْمُنْكَرَاتِ تَحْكِيمًا لِلشَّهْوَةِ وَانْقِيَادًا لِلْهَوَى،فَهَذَا فِسْقٌ يَمْنَعُ مِنِ انْعِقَادِ الْإِمَامَةِ وَمِنِ اسْتِدَامَتِهَا،فَإِذَا طَرَأَ عَلَى مَنِ انْعَقَدَتْ إِمَامَتُهُ خَرَجَ مِنْهَا،فَلَوْ عَادَ إِلَى الْعَدَالَةِ لَمْ يَعُدْ إِلَى الْإِمَامَةِ إِلَّا بِعَقْدٍ جَدِيدٍ."[174]

٥- وخروج جائز:

وهو الخروج لدفع طغيان كافر أو جائر بما هو أخف منه كفرا أو جورا،أو أكثر عدلا ورحمة،سواء في دار الإسلام حال عجز الأمة عن نصب إمام مسلم عدل،أو في غير دار الإسلام حال قدرة المسلمين على نصب غير مسلم أكثر عدلا وأقل جورا،وهي من النوازل وأحكام الضرورة مراعاة للمصلحة ودفعا للمفسدة،وقد نص العز بن عبد السلام على ذلك فقال:(وَيقدم فِي الْوِلَايَة الْعُظْمَى الأعرف بمصالح الْعَامَّة والخاصة الْقَادِر

---

173 - تفسير القرطبي (١/ ٢٧١)

والحديث في صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ - (١٧٠٩) [ش(عندكم من الله فيه برهان) أي حجة تعلمونها من دين الله تعالى قال النووي معنى الحديث لا تنازعوا ولا ة الأمور في ولاي تهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين]

174 - الأحكام السلطانية للماوردي (ص:٤٢) دار الحديث - القاهرة،و الأحكام السلطانية ص ١٩.

على الْقيام بجلب مصالحها ودرء مفاسدها وَيقدم فِي كل تصرف من التَّصَرُّفَات الأعرف بجلب مَصَالِحه ودرء مفاسده الأقوم بهما كالقسمة والخرص والتقويم...

وَيسْقط شَرط الْعَدَالَة فِي الْوِلَايَة الْعَامَّة لتعذرها فَينفذ من تصرفهم مَا ينفذ مثله فِي الإِمَام الْعَادِل وَيرد من تصرفهم مَا يرد من تصرف الإِمَام الْعَادِل وَإِنَّمَا جَاءَ ذَلِك دفعا للمفاسد عَن الرعايا وجلبا لمصالحهم.....

وإِذا لم نجد عدلا يقوم بالولايات الْعَامَّة والخاصة قدم الْفَاجِر على الأفجر والخائن على الأخون لِأَن حفظ الْبَعْض أولى من تَضْيِيع الْكل وَفِي مثله فِي الشَّهَادَات نظر)[١٧٥].

والواجب التعاون مع كل فئات الشعب السوري لدفع عدوان هذا الطاغوت[١٧٦] قال العلامة السعدي في تفسيره:(" ومنها أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئا منها وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم أو أهل وطنهم الكفار كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها بل ربما تعين ذلك لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية وتحرص على إبادتها وجعلهم عمَلَةً وخَدَمًا لهم. نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المتعين ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة والله أعلم")[١٧٧].

175 – الفوائد في اختصار المقاصد (ص:٨١-٨٥) باختصار،عبد العزيز بن عبد السلام السلمي

176 – الطاغوت:هو كل من أمر الناس بعبادته أو تقديسه أو اتباع أوامره ونواهيه من دون شرع الله

177 – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٨٩)

وانظر: http://www.dr-RPT١hakem.com/Portals/Content/?info=TnpNNUpsTjFZbEJoWjJVbURdQ==.jsp

المبحث الثاني عشر
هل الثورات العربية ثورات إسلامية ؟

إن وصف الشيء بأنه إسلامي أو غير إسلامي من المصطلحات المحدثة التي لا اعتبار لها في أحكام الشريعة،إلا من حيث التعريف والتوصيف للأشياء ليس إلا،فالحكم على الأشـــياء هو بالنظر إلى مشروعيتها وعدم مشروعيتها،وذلك بحكم الشارع عليها إما بالوجوب أو الاستحباب أو التحريم أو الكراهة أو الإباحة فأقول:

وصف (إسلامي) استخدمه المسلمون قديما كمصطلح حادث باعتبارين اثنين:

الأول:بالنظر إلى العصر،كما أطلقوا على شعراء ما بعد الإسلام (الشعراء الإســـلاميين) فيعدون فيهم الأخطل وهو شاعر نصراني،إلا أنه إسلامي باعتبار العصر،كما يطلقون على شعراء ما قبل الإسلام (الجاهليين)،وعلى من أدركوا العصرين (المخضرمين).

الثاني:بالنظر إلى من صدرت عنهم،كما في تسمية الإمام الأشعري لكتابـــه (مقـــالات الإسلاميين)،لكونها منسوبة لمن ادعوا الإسلام ومنسوبة للفرق والمذاهب الإسلامية للتفريق بينها وبين مقالات أهل الأديان الأخرى.

فهذان هما الاعتباران المشهوران لمصطلح (إسلامي) قديما.

الثالث:باعتبار المشروعية،وقد شاع في العصر الحديث استخدامه لتمييز كثير من الأشياء كمصطلح (أدب إسلامي) و(اقتصاد إسلامي) و(فـــن إســـلامي)..الخ وهـــذا باعتبـــار مشروعيتها في الإسلام.

وبناء على ما سبق فالثورة العربية المعاصرة ثـــورة إســـلامية بكـــل هـــذه الاعتبـــارات والمصطلحات،سواء باعتبار العصر وبالنظر إلى تاريخ الإسلام فهي (ثـــورة إســـلامية)،أو بالنظر إلى من صدرت عنهم وهم الشعوب العربية المسلمة فهي (ثورة إسلامية)،أو بالنظر إلى مشروعيتها في حكم الإسلام في حد ذاتها فهي (ثورة إسلامية)!

والسؤال الصحيح يجب أن يكون عن مشروعية الثورة وعن حكم الشرع فيها،لا عن تسميتها أو وصفها وتعريفها،فهل الثورة التي تقوم فيها الشعوب العربية اليوم جائزة ومشروعة أم لا؟

الأدلة على أن الثورات العربية ثورات إسلامية

ولا شك بأنها مشروعة من وجوه:

الأول:أنها ثورة على الظلم المحرم شرعا،من أجل إقامة العدل الواجب شرعا.

كما في قوله تعالى:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]،وقال سبحانه:{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ } [الأعراف:٢٩]،وقال:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل:٩٠]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلَا تَظَالَمُوا..."[١٧٨]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ:«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ،فَإِذَا جِئْتَهُمْ،فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» [١٧٩]

وقد أمر النبي ﷺ بالأخذ على يد الظالم ونصرة المظلوم،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ

---

178 – صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)٥٥ – (٢٥٧٧)

179 – صحيح البخاري (٢/ ١٢٨)(١٤٩٦) وصحيح مسلم (١/ ٥٠)٢٩ – (١٩)

"،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِه {فَاسِقُونَ} [المائدة:٨١]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّه لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[١٨٠]

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّى أَرَاكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥] وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا عُمِلَ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي فَلَمْ يُغَيِّرُوا أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابٍ» [١٨١]

وعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:لَمَّا قَدِمَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ،لَقِيَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ:«حَدِّثْنِي بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ»،قَالَ:مَرَّتِ امْرَأَةٌ عَلَى رَأْسِهَا مِكْتَلٌ فِيهِ طَعَامٌ،فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ فَأَصَابَهَا فَرَمَى بِهَا،فَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَهِيَ تُعِيدُهُ فِي مِكْتَلِهَا وَهِيَ تَقُولُ:وَيْلٌ لَكَ مِنْ يَوْمٍ يَضَعُ الْمَلِكُ كُرْسِيَّهُ،فَيَأْخُذَ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فَقَالَ:«كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقَّهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعْتَعٍ»[١٨٢]

وعَنْ يُونُسَ بْنِ مَيْسَرَةَ بْنِ حَلْبَسٍ،قَالَ:كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ وَهُوَ بِمِصْرَ أَنْ سَلْ عَبْدَ اللَّه بْنَ عُمَرَ هَلْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«لَا يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُقْضَى فِيهَا بِالْحَقِّ وَيَأْخُذُ الضَّعِيفُ حَقَّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ» فَإِنْ أَخْبَرَكَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَابْعَثْهُ عَلَى مَرْكَبِهِ مِنَ الْبَرِيدِ. فَسَأَلَهُ فَقَالَ:«نَعَمْ» فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْكِتَابَ فَقَدِمَ عَلَى مَرْكَبِهِ مِنَ الْبَرِيدِ وَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُهُ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:وَأَنَا سَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتَ"[١٨٣]

---

180 – سنن أبي داود (٤/ ١٢١)(٤٣٣٦) حسن

181 – السنن الواردة في الفتن للداني (٣/ ٧٠١)(٣٣٥) صحيح

182 – السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٥٧)(٥٨٢) صحيح

183 – مسند الشاميين للطبراني (١/ ١٨٢)(٣١٥) صحيح

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا تَأْخُذُ لِضَعِيفِهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيِّهَا غَيْرَ مُتَعْتَعٍ "[184]

وعَنِ الْبَرَاءِ،قَالَ:«أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ،وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى،وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ،وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ،وَنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ،وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ،وَإِجَابَةِ الدَّاعِي».[185]

وكل هذا من المعلوم من الإسلام بالضرورة القطعية،فإنما أرسل الله رسله وأنزل كتبه كما قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } [الحديد:٢٥].

فالظلم محرما مطلقا ويجب تغييره،والعدل واجب مطلقا ويجب تحقيقه.

ومن نظر في أحوال العرب اليوم وشيوع الظلم والتظالم بينهم،وما يجري في السجون والمحاكم من ظلم في الأحكام،وما يجري في الوظائف الإدارية من ظلم في الاستحقاق،وما يحدث في دولهم من ظلم سياسي طبقي وفئوي يدرك سبب ضعفهم وانحطاط أحوالهم وتسلط عدوهم عليهم،وهي نتيجة للظلم واستشرائه بينهم،كما في الحديث الصحيح عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ،فَقَالُوا:وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا:وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ،ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ،أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ،وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "[186]

ولا يشك من يعرف أحكام الله وسننه الشرعية والقدرية أن ما عليه العرب اليوم من ذل وهوان هو من العقوبة والعذاب بسبب سكوتهم عن الظلم الذي ضجت منه الأرض والسماء،وعدم أخذهم على يد الظالم،حتى عمهم العقاب والخذلان،وكما قال شيخ

184 – شعب الإيمان (١٠/ ٤٨)(٧١٤٣) صحيح لغيره

185 – صحيح ابن حبان – مخرجا (٧/ ٣١٢)(٣٠٤٠) صحيح

186 – صحيح البخاري (٤/ ١٧٥)(٣٤٧٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥) ٨ – (١٦٨٨)

الإسلام ابن تيمية:" إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ:الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ."[١٨٧]

وهي أيضا ثورة على الاستبداد المحرم شرعا،من أجل إقامة الشورى الواجبة شرعا،فقد استبد الطغاة بالأمة وشئونها وأرضها وثرواتها على نحو لا تقره الشرائع السماوية ولا القوانين الوضعية،ولا يرضى به أهل الكتاب ولا المشركون ولا الوثنيون البوذيون،حتى جرى في العالم العربي من الحوادث ما لا يصدقه عقل،وحتى تم تصنيف دوله بمعيار الأمم المتحدة بأنها أكثر الدول استبدادا وانتهاكا للحريات وحقوق الإنسان،وهذا حكم الأمم الأخرى على اختلاف أديانها وقومياتها على أحوال العرب توصلت له بهدايات عقولها،فكيف بحكم الإسلام الذي جاء لتحرير الخلق من كل أشكال العبودية لغير الله،ومن ذلك تحريرهم من الاستبداد كما قال تعالى:{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨]،وقال:{ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } [آل عمران:١٥٩]،وقال:{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٥٦]..الخ

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ فَقَالَ:" قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ:إِنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً،وَلَكِنْ وَقَى اللهُ شَرَّهَا وَإِنَّهُ لَا خِلَافَةَ إِلَّا عَنْ مَشُورَةٍ،وَأَيُّمَا رَجُلٍ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ،لَا يُؤَمَّرُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا " قَالَ شُعْبَةُ:قُلْتُ لِسَعْدٍ:مَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا؟ قَالَ:عُقُوبَتُهُمَا أَنْ لَا يُؤْمَرَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا.." [١٨٨]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،قَالَ:حَجَّ عُمَرُ فَأَرَادَ أَنْ يَخْطُبَ النَّاسَ خُطْبَةً،فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ:إِنَّهُ قَدِ اجْتَمَعَ عِنْدَكَ رِعَاعُ النَّاسِ وَسِفْلَتُهُمْ،فَأَخِّرْ ذَلِكَ حَتَّى تَأْتِيَ الْمَدِينَةَ،قَالَ:فَلَمَّا قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ دَنَوْتُ قَرِيبًا مِنَ الْمِنْبَرِ،فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ،أَنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ:إِنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةٌ،وَإِنَّمَا كَانَتْ فَلْتَةً،وَلَكِنَّ اللَّهَ وَقَى شَرَّهَا،إِنَّهُ لَا خِلَافَةَ إِلَّا عَنْ مَشُورَةٍ.[١٨٩]

---

187 – الحسبة لابن تيمية ت الشحود (ص:١٧٨) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٣) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٦)

188 – السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٤٠٨)(٧١١٣) صحيح

189 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (٢٠/ ٥٧٤)(٣٨١٩٧) صحيح

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:«مَنْ دَعَا إِلَى إِمَارَةِ نَفْسِهِ،أَوْ غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَقْتُلُوهُ»[190]

وهذا حكم شرعي بإجماع الصحابة – بناء على نصوص القرآن والسنة – على عدم شرعية الاستبداد وتحريمه ووجوب تغييره ولو بقتل المستبد!

وقد تحكم الطغاة بشعوب العالم العربي حتى صار الرجل الواحد المجنون يحكم جبرا بلا شورى ولا اختيار ولا رضا الأمة،ويتصرف بالملايين كما يتصرف السيد برقيقه،يقتل من يشاء بلا محاكمة،ويعفو عمن يشاء،ويهب من يشاء من أموال الأمة ما يشاء،ويمنع من يشاء،ويسجن ويهجر من يشاء..الخ

وهي كذلك ثورة على الفساد المحرم شرعا،من أجل تحقيق الإصلاح الواجب شرعا،كما قال تعالى:{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } [الأعراف:٥٦]،وقال تعالى:{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [الأعراف:٨٥]،وقال سبحانه:{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة:٢٠٥].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»[191]

ولا يخفى على أحد مدى الفساد الذي استشرى في دول العالم العربي بكل أشكاله وصوره سياسيا واقتصاديا وماليا وقضائيا وإداريا والواقع المشاهد والتقارير الدولية تؤكد ذلك كله،وقد أصبحت الدول العربية تصنف في عداد الدولة الفاشلة،حيث تحولت الحكومات إلى عصابات إجرامية لا هم لها إلا نهب المال العام،والعبث بمصالح الشعوب،والتواطؤ مع العدو الخارجي على حساب الأمة وأرضها وحقوقها،وما تجري من محاكمات اليوم لزين العابدين في تونس،ولنظام حسني مبارك في مصر،يكشف عن جزء يسير من هذا الفساد،الذي صار ضحيته ملايين الفقراء والسجناء والبؤساء في تونس ومصر والعالم العربي!

---

190 – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٤٥)(٩٧٥٩) والسنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٤٣)(١٠٦) صحيح

191 – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٨)(٢٦٣٠) حسن لغيره

وهي ثورة على الجوع والفقر والخوف،من أجل تأمين العيش والحياة الكريمة والأمن المفقود في العالم العربي،وهي من أوجب الواجبات الشرعية التي يجب على السلطة القيام بها وتأمينها،فإذا لم تستطع فللشعوب الحق شرعا في تغييرها.

وهي ثورة على الذل والمهانة والعار الذي لحق بالشعوب العربية وهي ترى حكوماتها تحاصر غزة وتتواطأ مع إسرائيل على الشعب الفلسطيني،ومع أمريكا على احتلال العراق،فثارت على حكوماتها بعد أن فقدت شرعيتها ومشروعية وجودها..

الثاني:أن الثورة على هذه الأوضاع من باب (تغيير المنكر).

كما قال تعالى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران:١١٠]،وقد أمر النبي ﷺ بتغيير المنكر باليد ابتداء،واليد المقصود بها القوة كما في الصحيح عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[١٩٢]

فجعل الشارع أعلى مراتب الإيمان التغيير باليد والقوة،ومما يؤكد أن اليد في الحديث هي القوة ما جاء في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[١٩٣]

---

192 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ – (٤٩).

193 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ – (٥٠)

وقد قام المسلمون في تونس ومصر بتغيير كل هذه المنكرات العامة بالقوة السياسية الشعبية السلمية،وهو ما أمر الشارع الأمة القيام به كما في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه،لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ،وَلَيَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ،وَلَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»[194]

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ يَقُولُ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥] وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»[195]

فقد أخذوا على يد الظالم،وخلعوه وعزلوه.

الثالث:أن هذه الثورة من باب (إقامة القصاص) واسترجاع الحقوق من غاصبيها،وهو واجب بالإجماع.

فقد قتل هؤلاء الطغاة آلافا من الأبرياء،وسجنوا الآلاف ظلما وعدوانا،واغتصبوا الأموال،وقد أوجب الله في ذلك كله القصاص،ولا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم،فمن قتل يقتل،ومن أجرم منهم يعاقب،ومن حق الأمة الثورة عليهم حتى يقتص منهم،وحتى يحاكموا على جرائمهم،كما قال تعالى:{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:١٧٩]

وقد كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يقصون من أنفسهم،عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ،رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ:بَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَكَانَ فِيهِ مِزَاحٌ بَيْنَا يُضْحِكُهُمْ فَطَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ فَقَالَ:أَصْبِرْنِي فَقَالَ:«اصْطَبِرْ» قَالَ:إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصًا وَلَيْسَ عَلَيَّ

---

194 – المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ١٤٦)(١٠٢٦٧) حسن

195 – مكارم الأخلاق للطبراني (ص:٣٤٠)(٧٩) صحيح

قَمِيصٌ،«فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَمِيصِهِ،فَاحْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ»،قَالَ إِنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ"[١٩٦]

وعَنْ قَيْسٍ،قَالَ:خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ:وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فَسَدِّدُونِي،فَإِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِيلَا أَذَا رَأَيْتُمُونِي غَضِبْتُ فَاجْتَنِبُونِي،لَا أُؤْثِرُ فِي أَجْسَادِكُمْ وَلَا أَبْشَارِكُمْ" [١٩٧]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَمِلْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى» أَوْ قَالَ:«التُّقَى» «وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[١٩٨]

وقد قام آلاف الصحابة مع طلحة والزبير وعائشة وخرجوا من المدينة إلى مكة ثم إلى البصرة للقصاص ممن قتل عثمان رضي الله عنه وهو رجل واحد،جرد الصحابة رضي الله عنهم سيوفهم من أجل إقامة القصاص على من قتله ظلما وعدوانا،فكيف بمن قتل الآلاف في السجون وخارجها،واغتال الأبرياء في الداخل والخارج؟!

وقد ثارت الشعوب العربية لتقتص ممن ظلمها وسفك دماءها ونهب أموالها واغتصب حقوقها.

الرابع:أن هذه الثورة من باب (جهاد الجائر).

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ،فَنَهَاهُ وَأَمَرَهُ،فَقَتَلَهُ»[١٩٩]

---

196 – سنن أبي داود (٤/ ٣٥٦)(٥٢٢٤) صحيح

197 – الزهد لأبي داود (ص:٥٦)(٣١) صحيح

198 – الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(٨ و٩) صحيح

199 – المعجم الأوسط (٤/ ٢٣٨)(٤٠٧٩) صحيح لغيره

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٢٠٠]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،أَنَّ رَجُلًا عَرْضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٢٠١]

وقد خرجت الشعوب العربية بثورة شعبية سلمية وقامت إلى السلطات الجائرة في بلدانها لتأمرها بالمعروف وتنهاها عن المنكر،ومن أجل تغييرها ولتزيل منكراتها،وتقتص منها،وتقيم الحق عليها،وكل ذلك من الجهاد المشروع كما في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[٢٠٢]

خامسا:أن الثورة العربية المعاصرة في حقيقتها هي خروج الشعب إلى الميادين العامة بشكل سلمي،والاعتصام بها،حتى تستجيب السلطة لهم،وهذا في حد ذاته مشروع بلا خلاف.

كما قال تعالى:{لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا } [النساء:١٤٨]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ،فَقَالَ:«دَعُوهُ،فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا،وَاشْتَرُوا لَهُ بَعِيرًا فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ» وَقَالُوا:لاَ نَجِدُ إِلَّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ،قَالَ:«اشْتَرُوهُ،فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ،فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»[٢٠٣]

---

200 – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣)(٧٧٨٦) صحيح

201 – المعجم الأوسط (٧/ ٥٢)(٦٨٢٤) صحيح

202 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ – (٥٠)

203 – صحيح البخاري (٣/ ١١٦) (٢٣٩٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٢٥)١٢٠ – (١٦٠١)

وعَنْ أَبِي حُمَيْد السَّاعديِّ قَالَ:اسْتَسْلَفَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مِنْ رَجُلٍ تَمْرًا فَلَمَّا جَاءَهُ يَتَقَاضَاهُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«لَيْسَ عِنْدَنَا الْيَوْمَ فَإِنْ شِئْتَ أَخَّرْتَ عَنَّا حَتَّى يَأْتِينَا فَنَقْضِيَكَ» فَقَالَ الرَّجُلُ:وَاعُذْرَاهُ فَتَذَمَّرَ عُمَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ:دَعْهُ يَا عُمَرُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا انْطَلِقُوا إِلَى خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ الْأَنْصَارِيَّةِ فَالْتَمِسُوا لَنَا عِنْدَهَا تَمْرًا " فَانْطَلَقُوا فَقَالَتْ:وَاللَّه مَا عِنْدِي إِلَّا تَمْرٌ ذخيرَةٌ فَأَخْبَرُوا رَسُولَ اللَّه ﷺ،فَقَالَ:خُذُوهُ فَاقْضُوهُ فَلَمَّا قَضَوْهُ أَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ لَهُ:«قَد اسْتَوْفَيْتُ» ؟ قَالَ:نَعَمْ قَدْ أَوْفَيْتَ وَأَطَبْتَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللَّه الْمُوفُونَ الْمُطِيبُونَ»[٢٠٤]

فللمظلوم أن يجهر بالقول السوء على من ظلمه،وأن يرفع مظالمه،وأن يتصدى لمن ظلمه،كما قال تعالى:{ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} [الشورى:٣٩]،وقال:{وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) } [الشورى:٤١ - ٤٢].

سادسا:أن أكثر من وقع فيها من الضحايا هم من المتظاهرين سلميا على يد رجال السلطة ظلما وعدوانا،فالمتظاهرون معتدَى عليهم،والسلطة هي التي اعتدت.

وقد قال تعالى:{الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة:١٩٤].

والمقتول في مثل هذه الحال شهيد،كما في الحديث الصحيح عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِهِ،فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٠٥]

---

[204] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٣/ ٢٩٠) صحيح

[205] - السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٤)(٣٥٤٣) صحيح

وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ سُوَيْدِ بْنِ مُقَرِّنٍ فَقَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٠٦]

سابعا:وهذا كله على فرض أن هذه الحكومات شرعية،وأنه تجب لها طاعة على الأمة.

أما إذا ثبتت عدم شرعيتها أصلا لفقد شروط الإمامة الشرعية،أو ثبتت ردتها شرعا،فالأمر يختلف ويكون جهادها من باب جهاد الطاغوت كما قال تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦].

وكل هؤلاء الذين يحكمون في الأمة بغير حكم الله ورسوله بل ويقاتلونها على ذلك ويكرهونها عليه طواغيت وجبابرة يدخلون في عموم قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠].

ومن قاتل دونهم بنفسه أو بالكلمة أو بالرأي فهو منهم وممن يقاتل في سبيل الطاغوت وفي سبيل الشيطان!

والخلاصة من هذا كله أن هذه الثورات السلمية الشعبية التي يقوم بها المسلمون في العالم العربي اليوم ثورات إسلامية مشروعة،بل هي من الجهاد في سبيل الله،ومن قتل فيها من المتظاهرين ظلما وعدوانا فهو شهيد بإذن الله تعالى بل هم سادة الشهداء كما في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ،فَنَهَاهُ وَأَمَرَهُ،فَقَتَلَهُ»[٢٠٧]

ولا يشترط للحكم على هذه الثورات بالجواز والمشروعية أن تطالب الشعوب بتحكيم الشريعة،إذ أن قيامهم على الظالم وإبطال جوره وظلمه من إقامة شرع الله وعدله،وكذلك ثورتهم من أجل إطلاق المعتقلين ظلما وعدوانا من سجون الطغاة ونصرة المظلومين هو من

---

206 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٥)(٣٥٤٥) صحيح

207 – المعجم الأوسط (٤/ ٢٣٨)(٤٠٧٩) صحيح لغيره

إقامة حكم الله وعدله،ورد الغصب وإرجاع الحقوق والأموال المنهوبة من الأمة إلى أهلها هو من إقامة حكم الله وعدله،ورفض الاستبداد بالأمر ورد الأمر شورى بين الأمة هو من إقامة حكم الله وشرعه،ورفض الخضوع للنفوذ الأجنبي هو من إقامة حكم الله وشرعه..الخ

فإذا كانت الشعوب تثور من أجل هذا كله فثورتها مشروعة وهي تمارس بالفعل ما أوجب الله عليها من إقامة دينه وشرعه وعدله والقسط الذي جاء به رسله!

فإن كانت الشعوب الثائرة تستصحب نية تحكيم الشريعة في واقع حياتها كله فهذا هو الغاية،وإلا فلا يشترط في فروض الكفاية أن لا تقام إلا بهذا الشرط،فالجهاد مثلا واجب على الأمة لدفع العدو الخارجي وهو فرض كفاية وقد يتعين،ولا يشترط له أن لا تجاهد الأمة ولا تدفع عدوها إلا بهذا الشرط،إذ الجهاد فرض في حد ذاته،كما إن تحكيم الشريعة فرض في حد ذاته،ويجب إقامة كلا الفرضين،وكذا كل الفروض والواجبات الشرعية،لا يسقط المقدور منها لعدم القدرة على غيره للحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ،وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[208]

ولا يشترط على المظلوم ألا يدفع الظلم عن نفسه حتى يطالب بإقامة الشريعة،ولا يشترط على الجائع ألا يثور من أجل لقمة عيشه حتى يطالب بالشريعة،ومن يشترطون مثل هذه الشروط،أو يبطلون جهاد الأمة اليوم بهذه الذرائع فهم إحدى طائفتين:

إما طائفة في قلوبهم مرض ممن داهنوا الطغاة وبرروا لهم طغيانهم واعتذروا لهم عن عدم تطبيقهم للشريعة بأن هذا لا يخرجهم عن دائرة الإسلام ولا يخرجهم عن دائرة الإمامة الشرعية الواجبة الطاعة،حتى إذا خرجت الأمة إليهم،وثارت عليهم لدفع طغيانهم وظلمهم،فإذا هذه الطائفة تجعل من قضية الشريعة وعدم ثورة الشعوب من أجلها الذريعة للحكم على الثورة بعدم الجواز وعدم المشروعية لا نصرة للشريعة التي استخفوا بها وهونوا أمرها للطغاة،بل نصرة للطغاة وحبا لهم،حتى امتلأت قلوبهم قيحا وضغينة على الأمة

208 – صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٨) وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٥)٤١٢ – (١٣٣٧)

وشعوبها الثائرة تبديه أفواههم وما تخفي صدروهم أكبر حزنا على سقوط الطغاة بأيدي المستضعفين،فجمعوا بين الإعراض عما أمرهم الله به من جهاد الطاغوت وجهاد السلطان الجائر من جهة،والاعتراض على سنن الله القدرية وعلى عدله في نصرة المظلوم والانتقام من الظالم كما قال تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)} [إبراهيم:١٣ - ١٥] من جهة أخرى!

وطائفة لا يعرف عنها أنها وقفت مع الطاغوت وحزبه،إلا أنه لفرط جهلها بحقائق الإسلام وغاياته ومقاصده الكلية،نأت بنفسها عن جهاد الطاغوت من جهة،وعابت على الأمة قيامها عليه من جهة أخرى،بدعوى أنه يجب على الأمة أن تكون ثورتها لله لا لنفسها،ولدينه لا لدنياها،ونسيت هذه الطائفة أن سبيل الله وسبيل المستضعفين كلاهما سبيل للمؤمنين كما قال تعالى:{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } [النساء:٧٥]،وأن الله شرع الجهاد عن الدنيا كما شرعه عن الدين كما في قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } [البقرة:٢٤٦]،وقال تعالى:{ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [الممتحنة:٩]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِهِ،فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٠٩]

---

[209] - السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٤) (٣٥٤٣) صحيح

فكما شرع الله الجهاد لحفظ الدين،شرعه كذلك لحفظ الدنيا ولحفظ حقـــوق العبـــاد ومصالحهم وهذا من الدين أيضا..

فثبت أنها ثورة عربية إسلامية شـــرعية في أســـبابها وغاياتهـــا وممارســـاتها،وهي في أول طريقها،والواجب على علماء الأمة ومفكريها ترشيدها وتوجيهها حتى تستكمل الثـــورة عناصر نجاحها ولو بعد سنين،والله غالب على أمره ولو كره المجرمون،وقاصـــمهم ولـــو شايعهم الجاهلون![٢١٠]

[210] http://www.dr-۰RPT۱hakem.com/Portals/Content/?info=TnpFeUpsTjFZbEJoWjJVbUrdQ==.jsp

المبحث الثالث عشر

الانتفاضة السورية الأسباب والدواعي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه،أما بعد:

فمنذ أن قضي على الدولة العثمانية وقسمت بلاد المسلمين بين الصليبيين الفرنسيين والإنكليز آن ذاك

جاءت فرنسا لاحتلال سوريا،ثم قسمت بلاد الشام لأربعة دول،ثم قسمت سورية أيضا وكان الاحتلال الفرنسي على يعتمد على أسرة آل الأسد كثيرا كما هو معروف لكل دارس للتاريخ،فهيأت الأجواء لكي يستلم آل الأسد الحكم في سوريا حتى ينفذوا مخططات أعداء الإسلام ومن ثم فقد أسقط الأسد الكبير القنيطرة والجولان قبل مجيء القوات الإسرائلية بعدة أيام لكي يُعطى حكم سورية،وقضى على كل معارضيه بمؤامرات دنيئة كما هو معلوم من تاريخه الإجرامي ثم يستلم سدة الحكم من أجل تنفيذ ما عجزت عنه فرنسا واليهود،ففعل أكثر مما يريدون،ولو راجعنا حساباتنا للوراء لوجدنا أنه منذ قيام ثورة البعث الملحد حرمت الحركات الإسلامية بما فيها الإخوان المسلمين والتحرير والسلفية.....

ومن ثم لو دققنا جيدا في الأحداث التي جرت عام ١٩٧٩ م وما تلاها مع الإخوان لتيقنا أن النظام هو الذي استدرجهم واستفزهم للقيام بالثورة عليه لكثرة المجازر التي ارتكبها بحق قادة الإخوان كمروان حديد رحمه الله وغيره،كما أن الصحوة الإسلامية كانت في أواخر السبيعات جيدة فضربها الأسد بيد من حديد يساعده في ذلك كل أعداء الإسلام في الداخل والخارج،بل أنا أعرف وغيري أن كثيرا من حوادث التفجير التي حصلت في الشام في ذلك الحين ٩٠% منها من تدبير النظام الأسدي و٨% من تدبير أعداء الإسلام،والباقي من فعل الإخوان المسلمين....

بل كانوا يداهمون البيوت ويقتلون من فيها ثم بعد ذلك يأتون بالأسلحة والـــدولارات ثم يصورونهم على أنهم قضوا وكر إرهابي من أوكار الإخوان المسلمين،وقد قتل أو ســـجن كل الأخيار الذين كانوا بالشام و لم يسلم منهم حتى الصوفية المقربين....

والمصيبة العظمى أن الأسد بعد ذلك قد غيَّر جميع وسائل التعليم في سوريا بما يتوافق مـــع أفكار حزب البعث الملحد وأفكار النصيري الخبيث حافظ الأسد،وعلماء الشام الذين بقوا في الشام يباركون للنظام بكل خطواته وجرائمه.....

وصار المنبر أسيرا وفرغت خطبة الجمعة من محتواها،وصـــار مـــدح الأســـد وبطولاتـــه وعطاءاته عليها،وصارت الخطبة بعيدة عن واقع الناس وهمومهم،بل غدت بوقـــا للنظـــام ينفث سمومه وأراجيفه من خلالها

بل واتبع سياسة التجويع والقهر والإذلال والرعب ومن ثم كان همُّ المواطن تأمين لقمـــة العيش له ولأسرته وصارت المواد الأساسية من سكر وشاي ونفـــط وكـــل الحاجـــات الأساسية عن طريق بطاقات تموينية...وصار الناس يذبحون بعضهم البعض من أجل كيلو سكر وهم طوابير يقفون اليوم كاملا على مؤسسات الأسد كالمتسولين حتى يحصلوا على الفتات.....

فلم يكن هناك وقت عند الناس لتفكر بالسياسة أو بما يفعله الأسد،لأن الرعب الذي زرعه الأسد في نفوس الناس – لكثرة ما بطش وفتك بهم – جعلهم يخافون من كل شـــيء،بل يخاف الرجل أن يتحدث عن الظلم أو عن جرائم الأسد أمام زوجتـــه أو أولاده حـــتى لا يخبروا عنه النظام الذي جثم على صدور الناس وحبس أنفاسهم.....

وأما على مستوى الوظائف

فقد وظف الأسد جماعته جميعا – إلا من هو غير راض عنه– فاستلموا مقدرات البلد كلها من القشاش حتى رئيس الجمهورية،وأطلق أيديهم في النهب والسلب.....والرشاوى والمحسوبيات

بل صار عامة الموظفين ممن لا يخافون الله تعالى،ولا يحسبون حسابه،وأقصي كل مواطن شريف لا يسرق ولا ينهب ولا يرتشي،بل وجهزت له التهم الباطلة لإقصائه.

فانتشرت البطالة والفقر بشكل منقطع النظير،وتمخض عنهما السرقات والنهب والسلب والقتل بين الناس...

وصارت الوظيفة تعتمد على المحسوبيات والرشاوى والتزوير.....

وأما على مستوى الأمن الشرطة والمخابرات فقد تحولت إلى أجهزة قمعية لا يهمها إلا النهب والسلب وإذلال الناس،والتجسس عليهم حتى تدخَّلوا بين الرجل وزوجته.

بل لو رفع لهم واحد قضية على غيره فالذي يربح القضية هو الذي يدفع أكثر لأن القضاء وكل وسائل الدولة قد فسدت فسادا غير قابل للإصلاح.....

وتركوا مهمتهم الأساسية وهي الحفاظ على الأمن،فعم الفساد والجرائم والقتل والزنا وانتهاك الحرمات،وتهريب المخدرات والمحرمات للبلد،وصار الشبيحة وغيرهم ينهبون خيرات البلد ويهربونها للدول المجاورة لأنه لا أحد سوف يحاسب هؤلاء.

وكذلك المسؤلون الكبار ينهبون ويسلبون ولا تعمل مناقصة لعمل إلا لهم أو يقبضون عليها رشاوى،وصار الغش في العمل والتنفيذ شيئا لا يتصور.....

وأما الاقتصاد

فكان في انهيار دائم هو والعملة السورية،ذلك لأن الاقتصاد بيد حفنة قليلة من مصاصي الدماء والمقربين من النظام،وكذلك يسرقون مقدرات البلد وكل ما له قيمة ويضعونه في الخارج حتى صارت المليارات لا تعد ولا تحصى في البنوك الأجنبية لآل الأسد ومخلوف وشوكت ودوبا.....وغيرهم من الحرامية الكبار.....

وكذلك فإن رواتب الموظفين لا تتناسب مع حاجياتهم اليومية والشهرية.....
وكذلك كثرة القوانين الجائرة التي تكبل المزارع أو التاجر أو الصانع والذي سوف يدفع نصف أرباحه لهؤلاء المجرمين وأجهزتهم القمعية....
وكذلك جميع المؤسسات الحكومية خاسرة سنة بعد سنة من النفط للغاز للفوسفات وللإسمنت والحديد بسبب أن القائمين عليها كلهم لصوص لا دين ولا ذمة ولا خلق عندهم.....وهم يوضعون في إدارة هذه المشاريع حسب قربهم من النظام وحسب ما يقدمون له من إتاوات وموبقات ليل نهار....

وكذلك كثرة القوانين التي تكبل المواطن فممنوع العمار ممنوع الزراعة،ممنوع كذا ممنوع.....فيضطر الناس للتحايل على هذه القوانين الجائرة الظالمة التي تمنع الناس من مزاولة حقوقهم المشروعة.....

وأما على مستوى السياسة

فحدث ولا حرج عن الكذب والنفاق،فالحزب الواحد حزب البعث لا يستلم فيه منصب إلا من كان عديم الإحساس والقيم عدوا لله ولرسوله – ملحدا- منافقا عليم اللسان
وداخل الحزب لا يوجد انتخابات فكلها قائمة على التعيين من قبل سدنة الحزب الذي يتحكم به آل الأسد.....
وكذلك الانتخابات في مجلس الشعب كلها قائمة على المحسوبيات والنفاق للنظام وعلى التزوير والغش والخداع.....لذلك ترى في هذا المجلس النصاب والوصولي والحرامي وتاجر المخدرات،والجاهل الأحمق،.ولا ترى فيه عاقلاً أو يفهم شيئا من السياسة المهم أن تتحقق مصالحه ويدافع عن النظام،فهو لا يمثل أحداً من الشعب أصلاً....
وكذلك في انتخابات البلدية وكل الانتخابات في بلدنا قائمة على التزوير والغش والطائفية المقيتة....

وكذلك السياسة الإعلامية والثقافية للنظام فقد ملَّ الناس منها لكثرة أكاذيب هؤلاء والمتاجرة بقضايا الأمة المصيرية وعلى الأرض عكس ذلك تماما.....

وأما على مستوى الجيش

فقد نُظف من كل العناصر التي فيها خير وخاصة الضباط الكبار – إلا من أخفى إيمانه– لأن من ثبت أنه يصلي في القطعة سوف تلصق به التهم ويحاكم ويسرح تسريحا تعسفيا وأعرف الكثيرين من هؤلاء....

فقد سيطر هؤلاء المجرمون على الجيش وعلى مقدراته سيطرة تامة ونهبوا مستحقات المجندين الأساسية،وجيء له بأسوأ الأسلحة وأردئها....

بل لا يسمح لأحد بإجازة إلا برشوة،وصار التفييش هو الشائع في هذا الجيش وهو أن يبقى المجند في بيته ويعطي راتبا للعقيد أو المقدم المسؤول عنه آخر الشهر...

كما أن الروح المعنوية قد قتلت في هذا الجيش الذي لا يسمع من قادته إلا الكلام الفاحش البذيء والفكر الصريح والسكر والعربدة والفسوق والمجون.....

ومن ثم فالذي يتطوع بهذا الجيش – إن كان عنده ضمير – يريد التخلص منه بأية وسيلة كانت...

والمجند يريد الخلاص منه بأية وسيلة أيضاً..

لقد تحوَّل من جيش لحماية الأوطان إلى جيش يسيطر عليه الفساد بكل جوانبه والذل والهوان ولا هم له إلا الحفاظ على كرسي الرئاسة يعني لحماية العروش والكروش وليس لحماية الحدود وتحرير الجولان أو فلسطين !!!!!

فالروح المعنوية قد انعدمت فيه انعداماً تاماً..

والآن بدءوا بتصفية كثير من الرؤوس التي لا يثقون بها تحت مسميات كثيرة.....والقاتل مجهول،وربما يقولون غدا الذي قتله السلفية الجهادية !!!!!

بل وقتلوا كل من رفض تنفيذ الأوامر بقتل الشعب الأعزل فقتلوه بمحاكمة عسكرية باطلة لأنه ارتكب جريمة الخيانة العظمى حيث لم ينفذ أوامر القائد العام للجيش والقوات

المسلحة وحيد دهره فريد عصره بشار حافظ الأسد فكل من خالف أوامره يجب قتله رميا بالرصاص،لأنه لا يسأل عما يفعل وأما الجيش والشعب فيسألون !!!!!

وقد وضعت التهمة بالمندسين والمخربين والمرتزقة والسلفية الجهادية....لكي يصدق الناس ذلك...

وهم الآن يريدون القيام بتصفيات كثيرة في الجيش ويضعوا التهمة على المندسين وعلى السلفية الجهادية ليضمنوا ولاء الجيش لهم وحتى ينفذ كل ما يريدون،كما فعلوا بحماة عندما استباحوها عام ١٩٨٢ وقتلوا أكثر من أربعين ألف مواطن فيها ظلما وعدوانا والعالم كله يتفرج عليهم بل ويبارك للأسد في القضاء على هؤلاء المخربين.....!!!!

وهم على حد - فهمهم- سيكررون نفس السيناريو اليوم إن استطاعوا ونسأل الله تعالى أن يردَّ كيدهم في نحرهم....

وكذلك هذا النظام قائم على الاغتيالات:

فهؤلاؤ لا صاحب لهم،فعندهم استعداد لاغتيال أي واحد منهم أو مقرب إليهم،والتبرير جاهز أنه انتحر،مهما قدم لهم من تضحيات،مثل الزعبي،وغازي كنعان وغيرهم كثير،والاغتيال من طبيعة الجبان الغادر الخبيث.....

أما على المستوى الخارجي

فإننا نلاحظ أنه بعد حرب الخليج الأولى واحتلال صدام للكويت ومجيء قناة الجزيرة حيث بدأ الناس يتفتحون قليلا قليلاً،ثم ما تلاها من أحداث جسام من الحرب على أفغانستان ظلما وعدوانا إلى احتلال العراق في عهد الأسد الصغير،وترافق ذلك بوجود فضائيات حرة ووجود النت،فتنفس الناس الصعداء وشعروا أنهم في هامش التاريخ،لقد أشبعهم الأسد الكبير ذلا وفقرا وجوعاً وجاء الأسد الصغير فأشبهم كذباً ودجلاً ومراسيم لا تغني ولا تسمن من جوع...

وكذلك رأوا بأم أعينهم كيف أن الأسد الصغير قد أغضى الطرف في بداية احتلال العراق لمن يريد الذهاب للجهاد في العراق لكي يتخلص منه الأسد ومن عاد منهم يودع السجن بتهمة التآمر والخيانة،ثم إغلاق الحدود مع العراق والتنسيقات الأمنية السورية الأمريكية على طول الحدود السورية العراقية....

ثم ما فعله النظام بإلقاء القبض على أي واحد يحض على الجهاد في العراق أو يريد الذهاب للعراق فملئت السجون الأسدية بهؤلاء المساكين.....الذين لم يفكروا بجهاد النظام الأسدي((الذي يقف سدًّا منيعا أمام المخططات الامبريالية والصهيونية)).....

والدليل على ذلك وقوفه بجانب حزب اللات اللبناني ((الرافضي)) والسماح لحماس والجهاد الإسلامي بفتح مكتبين في دمشق لا يستطيع أحد منهما الدخول للمكتب إلا بإذن النظام.....

أضف إلى ذلك كيف فتح الأسد الكبير ثم الصغير بشكل أكثر البلد لرافضة إيران والعراق فأدخلوا ملايين الكتب الرافضية منذ عام ١٩٨٠ إبان الثورة الخمينية ثم بناء الحسينيات،ثم الدعوة للتشيع الرافضي ومباركة مشايخ الشام لذلك وحضور مؤتمرات التقريب بين السنة والشيعة وأنه لا فرق بيننا وبينهم إلا في الفروع ولكن مجيء بعض الفضائيات وأولها المستقلة حيث فضح هؤلاء وبين كذبهم بدأ الناس شعرون بالمد الرافضي الخبيث.....وأنه مؤامرة دنيئة على أهل الشام وعلى قيمهم ومعتقداتهم.....

وهناك عدة حوادث قميئة جدا قد ارتكبها هذا الدكتور (الفهمان):

منها مجزرة سجن صيدنايا التي يندى لها جبين الإنسانية..

وإغلاق المنتديات التي سمح الأسد بفتحها في سورية وهي في الأصل منتديات علمانية ملحدة وأصحابها ليسو من التيار الإسلامي ولكنه أغلقها لأنه لا يقبل أن يقول له أحد أنت غلطان يا سيدي،فالأسد (فرعون سورية) لا يغلط،فهو يردد دائما أمام الشعب { مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩]

وبعدها تجريد بعض أعضاء مجلس الشعب من الحصانة ثم تدبيس التهم الجاهزة لهم لأنهم انتقدوا بعض سياسات النظام على استحياء...

ثم جاءت حادث الموصلي الذي عمل لقاء على الجزيرة مع أحد ملاحدة مصر حول النقاب فيلقى القبض عليه من المطار ويودع في السجن....

ثم جاء بعده قرار وزير التربية بإغلاق المدارس الشرعية الإعدادية ولما قدم مشايخ الشام المشهورين بيانا واعتراضا على القرار - علما أن نصف البيان مدح وإطراء للأسد ومنجزاته التي لا يوجد حرف منها على الأرض - يوقف القرار إلى حين ثم يحقق مع معظم الذين وقعوا على هذا البيان،بل تداهم بيوتهم وتصادر الحواسب والكتب أيضا..

.---

وصارت مداهمة البيوت في عهد الأسد الصغير تتكرر كل يوم فأي واحد يدخل على النت ثم يدخل على بعض المواقع التي يمكن أن يكشف بها هذا النظام الفاشي الإجرامي يراقب ثم يداهم بيته ويلقى القبض عليه ويصادر الحاسوب والكتب والسيديات وتدبس له التهمة بأنه يريد قلب نظام الحكم !!!!!

والسجون مليئة بمثل هؤلاء المساكين..

وجاءت حادثة طل الملوحي لتذرَّ الرماد بأعين الإصلاحات التي قام بها الأسد،فتراقب ثم يلقى القبض عليها متلبسة بالجريمة الكبرى حيث وجدوا الحاسوب مفتوح وعلى بعض المواقع التي لا تعجب النظام ويصادر الحاسوب والكتب وتودع السجن والتهمة جاهزة وهي التآمر على أمن البلد والتعامل مع المخابرات الأمريكية والإسرائيلية !!!!

وأبوها قد اعترف بذلك لما قابل الأسد من أجل أن يراها حيث اشترط عليه زبانية النظام حتى يقابل الأسد أن يقول أمام وسائل الإعلام:إن ابنته عميلة لدول خارجية !!!!!

لكي يبرر النظام سجنها وتعذيبها.....

ورافق ذلك الثورات العربية في تونس ومصر وليبيا حيث بدأ الخوف يتقهقر في نفوس الناس،ولما راجعوا حساباتهم وما رأوه وسمعوه من جرائم الأسد وأكاذيبه فهبوا للمطالبة بحقوقهم المشروعة....

فكانت في البداية المناداة ببعض الإصلاحات والتي يستطيع النظام القيام بها بسهولة،ولكن النظام تبجح وأعرض عن هذه المطالب،وبدأ يتهم القائمين عليها:

فمرة قالوا:مدسوسين،ثم قالوا:عملاء للحريري- بندر -الخدام،دول مجاورة - أمريكا - الموساد..

ثم قالوا:هؤلاء يريدون القضاء على الوحدة الوطنية وزعزعة أمن البلد،...

ثم قالوا:هؤلاء يدعون للطائفية...

ثم قالوا:هؤلاء مغرر بهم..

ثم قالوا هؤلاء بينهم السلفية الجهادية والتي تريد قتل الشعب والأمن والجيش !!!!

ثم قالوا:تنظيم مسلح يريد عمل إمارة إسلامية....

ثم قالوا وقالوا قالوا.....وحبل الكذب مفتوح....

وهذه التهم ومثلها كثير قد قالها فرعون مصر قبلهم بقرون متطاولة،فلما جاءه النبي موسى عليه السلام بالبينات قال له هو وزيانيته:أنت ساحر جئت لتخريب البلد وتقضي على مقدراتها،وسوف نأتيك بسحرة يردون عليك،ولما التقوا بالسحرة قال لهم فرعون سوف أعطيكم مكافأة ضخمة جدا جدا إذا غلبتم موسى هذا،بل سوف تكونون من أكثر المقربين لي،ولما حضرالموعد المرسوم للمباراة والشعب كله يصفق بحياة ربهم فرعون وألقى السحرة عصيهم وحبالهم فظن الناس أنها حيات تسعى،فلما ألقى موسى عليه السلام عصاه تحولت لأفعى حقيقة وبلعت جميع عصي وحبال السحرة.....

فأيقن السحرة أن القضية ليست قضية سحر وشعوذة بل قضية معجزة حقيقية فآمنوا عن بكرة أبيهم وسجدوا لله رب العالمين،ولم يهابوا بطش فرعون،فطار صواب فرعون لما حصل حيث سيكشف الناس أنه ليس بإله وأنه كان يكذب عليهم...فكانت التهمة جاهزة فقال مباشرة للسحرة:كيف تؤمنون بموسى قبل أن آذن لكم لأنه ظن أنه قد استولى على القلوب كما استولى على الأجساد....

ثم قال بأعلى صوته:إن موسى هو كبيركم الذي علمكم السحر فسوف تعلمون.....وقد انطلت الكذبة في البداية على الجمهور...

ولم يفكر الجمهور بعقولهم آن ذاك،فكيف يكون موسى عليه السلام كبيرهم الذي علمهم السحر ؟ وهو قد كان في مدين هاربا من بطش فرعون،ولم ير هؤلاء السحرة إلا في هذا المكان ؟؟؟!!!

بل قال تهمة ثانية:وهو أن هناك اتفاق بينهم وبين موسى تم خفية عن الناس من أجل إخراجهم من المدينة ومن النعيم المقيم،بينما كان هذا الاتفاق السري بين السحرة وبين فرعون،وليس بين موسى عليه السلام وبين السحرة.....

ثم قتلهم عن بكرة أبيهم ومثل بهم أمام الشعب لماذا ؟؟؟

حتى لا تسول لأحد من الناس أن يشك بألوهية فرعون أو بالقيام عليه !!!!!!

والأسد وزبانيته يفعلون كما فعل فرعون مصر تماما وبنفس الخطوات،فالتهم جاهزة،والبطش بالشعب أو بمن يعارض هؤلاء المجرمين جاهز....

حتى يستكين الناس ويبقوا خاضعين لحكم آل الأسد أبد الدهر يفعلون بهم كما يشاءون من تقل ونهب وسلب وإذلال،وما على الجماهير إلا التصفيق لهم ليل نهار والتسبيح بحمدهم....

لكن نسوا أن الله تعالى لهم بالمرصاد:

قال تعالى:{قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ

الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)} [الأعراف]

وقال تعالى:{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) } [طه:٦٥ - ٧٤]

ولكن النتجية أن أهلكهم الله جميعا جزاءا وفاقا،قال تعالى:{وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) } [الدخان]

وصارت وسائل إعلام النظام الأسدي والتي ما رأيت بحياتي إعلاما أكذب منه،يروجون لأكاذيب الأسد أنه أمر بعدم إطلاق النار على المتظاهرين ولكن الناس يرون عكس ذلك تماما على الأرض

ثم رأوا البطش والتنكيل بالمتظاهرين وذويهم بل حتى بالقتلى والجرحى....فما زادهم ذلك إلا تصميما على المطالبة بحقوقهم المشروعة...

ثم جاء قرار إلغاء حالة الطوارئى المزعوم...

ثم يفاجأ الناس بمنع التظاهرات إلا بإذن مولانا السلطان صاحب الزمان...

والنتيجة أن هذا النظام يريد القضاء على الانتفاضة بأية وسيلة كانت فهو لا يتورع عن ارتكاب أية جريمة أو مجزرة في سبيل بقاء القائد الرمز الأسد في سدة الحكم،وزبانيته يعيثون في الأرض فسادا.

==========

أيها الإخوة الأحباء في سورية الحبيبة:عليكم بالتظاهر حتى إسقاط النقام

يجب عليكم التظاهر والاعتصام في كل مكان والإضراب عن العمل والدراسة حتى يسقط هذا النظام كاملا ويعاقب كل رموزه والمادفعين عنه

لكن عليكم ما يلي:

١- العمل الجماعي والتنسيق بين بعضكم البعض وترك العمل الفـــردي -فيـــد الله مـــع الجماعة -

٢- لا تسمعوا أي شيء يقوله إعلام النظام الأسدي ولا رئيسه لأنهم لا يصدقون أبدا...

٣- عليكم بتصوير وتوثيق كل ما تقومون به من مظاهرات وشعارات واعتصـــامات،وما يقوم به النظام والشبيحة والمخابرات والشرطة والجيش من أي عمل بربري ضـــدكم،ولو أمسكتم ببعض هؤلاء المجرمين وحققتم معهم أرسلوا الفيديو للنت ولشـــبكات التلفـــزة المحايدة فورا وذلك من أجل فضح النظام وبيان أكاذيبه.

٤- أكثروا من عمل لقاء مع ناشط في المظاهرات دون ذكر اسمه،أو الاعتصامات ومـــا شابه ذلك تبينون للعالم ماذا فعل بكم أزلام النظام،وماذا تريدون وهو إســـقاط النظـــام ومحاكمة القائمين عليه كلهم...

٥- أي طالب علم لا يحثكم على التظاهر والمطالبة بحقوقكم فهو عميل للنظام بيقين فـــلا يجوز أن تسمعوا له ويجب أن تعروه وتفضحوه حتى لا يثق به أحد....

٦- لا يجوز أن تسمعوا لأي واحد يدعوكم للحوار أو النقاش من أجل مطـــالبكم...إلا بعد سقوط النظام.

٧- لا يجوز وقف الانتفاضة حتى يزول النظام نهائيا ولا يجوز أن تثقوا بأي وعد من النظام أو من أزلامه أو المقربين إليه مهما علا شانهم....

٨- اعلموا رحمكم الله أن النصر مع الصبر،وأنكم على الحق،وأن من مات منكم يمـــوت شهيدا في سبيل الله،ومن مات منهم فإلى جهنم وئبس المهـــاد،وأن الله تعـــالى ناصـــركم ومؤيدكم،قال تعالى:{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَـــأْلَمُونَ كَمَـــا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١٠٤]

وقال تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء:٧٦]

وقال تعالى:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) } [الصافات:١٧١ - ١٨٢]

==========

أيها الأحبة الكرام:ماذا يخطط النظام الأسدي لكم ؟

اعلموا رحكم الله تعالى أن النظام الأسدي قد استكلب بعد نجاح الثورة،فهو يخطط الآن لعدة أمور:

الأول- عمل أفلام مزورة عن السلفية الجهادية وأنها هي التي كانت تقود المظاهرات،حتى يبين للرأي العام العالمي أنه اضطر لاستعمال القوة في قمع المظاهرات،وليضحك على المغفلين من الشعب الذين ما زالوا يصدقونه..

وتعلمون أنه نظام منذ قام قام على الكذب والغدر والخيانة،فهو لا يتورع عن أي ناقصة أبدا

الثاني- قد استقدم قوات كثيرة من الخارج من إيران الرافضية المجوسية ومن جماعة حزب اللات اللبناني الرافضي...لقمع الانتفاضة الشعبية...

الثالث- القيام بعمليات اغتيال واسعة لرموز السنة خاصة ولمعارضيه عامة،ثم توضع التهمة على تنظيم السلفية الجهادية والأفلام جاهزة مع الاعترافات بذلك....

الرابع- محاولة إعلامه الكاذب طمس الحقيقة وتشويه سمعة الثائرين،ومحاولة خرقهم بأنصاف حلول وهمية من أجل إجهاض الانتفاضة المباركة....

الخامس- القيام بمجازر جماعية بعد قطع الكهرباء والاتصالات عن المتظـــاهرين حـــتى لا يسمع بهم أحد،ويكون ذلك في ساعات متأخرة من الليل....ثم أخذ الجثـــث والإجهـــاز على الجرحى ودفنهم في مقابر جماعية كما فعل مع الإخوان....

السادس- مداهمة البيوت ونهب ما فيها وإهانة السكان،وارتكاب كل الموبقـــات بحقهـــم بحجة البحث عن المدسوسين والسلفية الجهادية.....حتى لا يفكروا بالتظاهر أبدا..

السابع- إجبار الناس على القيام بمظاهرات موالية للنظام تهتف بحياة القائد المفدى بشـــار الأسد....

الثامن – الإكثار من عمل لقاءات مع العلماء المنافقين والجبناء وطلاب الدنيا ليتكلموا عن جماعة السلفية الجهادية وأنها خطيرة جدا ويجب علينا جميعا حكومـــة وعلمـــاء وشـــعبا الوقوف يدا واحدا ضد هؤلاء الذين نزلوا من المريخ ويريدون على القضاء على الشـــعب السوري كله وعلى حكومته الرشيدة.....

التاسع- اختلاق حروب داخلية – طائفية – وخاصة من خلال قتل رموز في كل طائفـــة وتدبيس التهمة بالطائفة الأخرى والشهود جاهزون والفيلم جاهز.....

العاشر- القيام بعمليات اغتيال لبعض الضباط الكبار وخاصة غير الموالين للنظـــام تمامـــا ووضع التهمة على السلفية الجهادية والأفلام معدة مسبقاً من أجل ضمان ولاء الجيش لـــه وتنفيذ كل ما يريد من مجازر وبطش بالشعب الأعزل.....

الحادي عشر – ضرب جميع المواقع التي تنقل أخبار الثورة في سورية واتهام القائمين عليها بالعمالة والخيانة..ومحاولة تشويه سمعة الانتفاضة بكل ما أوتي من قوة بوســـائل إعلامـــه الخبيثة....

وغير ذلك كثير.....من وسائل خسيسة نجسة....

لكن نقول لهؤلاء الشياطين:

لقد خاب مسعاكم،ومسعى كل من يخطط لكم،فســـورية ليســـت مزرعـــة للأســـد وأزملاه.....

فهذا المجرم بن المجرم يظنُّ نفسه أنه ناج من عقاب الله تعالى،ولكن لا عجب في ذلك فهو غير مؤمن بالله تعالى ولا باليوم الآخر أصلاً.....

ولذلك يظن نفسه هو وزبانيته أنهم يمكرون ويذبحون وينهبون ويسلبون ويفتكون بالشعب الأعزل الذي هبَّ من رقاده للمطالبة بحقوقه السليبة وبشكل سلمي أنهم يستطيعون البطش بهم والقضاء عليهم بهذه الوسائل القميئة...

ونسوا أن عين الله تعالى لاتنام ولا يمكن أن ينصر الظالمين ولا الكافرين،ولا المنافقين ولا المجرمين....ولو خيِّل إليهم ذلك...

قال تعالى:{ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [يونس:٢٤]

وقال تعالى:{فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦)} [فصلت:١٥،١٦]

وقال تعالى:{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) } [الرعد:٣٢ - ٣٤]

وقال تعالى:{ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)} [النمل:٥٠ - ٥٣]

وأين مكر من مكر؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة؟

وكم ذا يخطىء الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة،ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل،والقوة التي تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لا يشعرون:«فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ.أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ.فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا»..ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك،وإذا الدور الخاوية والبيوت الخالية.وقد كانوا منذ لحظة واحدة،في الآية السابقة من السورة،يدبرون ويمكرون،ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون!

ونقول لهم كما قال تعالى:{ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ } [النحل:٢٦]

والتعبير يصور هذا المكر في صورة بناء ذي قواعد وأركان وسقف إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته.ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتدبيره:«فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ،فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ» وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل،يطبق عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم،فالقواعد التي تحمل البناء تحطم وتهدم من أساسها،والسقف يخر عليهم من فوقهم فيطبق عليهم ويدفنهم «وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ» فإذا البناء الذي بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه.إذا هو مقبرهم التي تحتويهم،ومهلكتهم التي تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم.وهو الذي اتخذوه للحماية و لم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته! إنه مشهد كامل للدمار والهلاك،وللسخرية من مكر الماكرين وتدبير المدبرين،الذين يقفون لدعوة الله،ويحسبون مكرهم لا يرد،وتدبيرهم لا يخيب،والله من ورائهم محيط!.

وهو مشهد مكرر في الزمان قبل قريش وبعدها.ودعوة الله ماضية في طريقها مهما يمكر الماكرون،ومهما يدبر المدبرون.وبين الحين والحين يتلفت الناس فيذكرون ذلك المشهد المؤثر الذي رسمه القرآن الكريم:«فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ،وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ».هذا في الدنيا،وفي واقع الأرض...(الظلال)

أيها الأحبة الكرام:وجوب الاستمرار في الانتفاضة حتى تحقيق النصر

يجب الاستمرار في الانتفاضة المباركة مهما كلف الثمن والله تعالى معينكم وناصركم،قال تعالى:{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)} [غافر:٥١،٥٢]

وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) } [محمد:٧ - ١١]

ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه،وفيه الكفاية والغناء وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير.

لا تخليا من الله عن ولايته له،ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده.ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له،ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء.فهو في النهاية مضيع عاجز ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس![211]

[211] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٠٠)

المبحث الرابع عشر

الأدلة على جواز الخروج المسلح على النظام السوري

نعم جائز للشعب السوري استخدام القوة بما في ذلك القوة المسلحة لدفع عدوان السلطة وإسقاطها بالقوة[212]،إن رأى أهل الرأي وقادة الثورة في الداخل ذلك[213]،وإذا تحقق أو ترجح لهم المصلحة في ذلك،ويكون القتال حينئذ جهادا واجبا على الجميع[214]،ويجب على الأمة من ورائهم نصرتهم،بالقوة والمال والرجال[215]،وبالدعم المعنوي سياسيا وإعلاميا،وإن كان أهل الرأي من قادة الثورة يرون بأن المقاومة السلمية هي الأجدى في هذه المرحلة فالواجب الاستمرار بالثورة الشعبية السلمية حتى يسقط النظام،وعلى الأمة نصرتهم ماديا

---

212 – قلت:يعترض على هذا الأمر أن الشعب أعزل ولا يملك أية أسلحة ليواجه بها هذا النظام الطاغوتي،وإنما الذي يملك القوة هو الدولة فقط،وهذا لا يمكن إلا إذا انشق عنها جزء من الجيش بسلاحه،وعندئذ فمن الواجب على هذا الجيش الدفاع عن المتظاهرين،والمساعدة في القضاء على هذا الطاغية الصنم بأسرع وقت ممكن.

ويمكن لبعض الدول الإسلامية تسليح الجيش السوري الحر الذي انشق عن هذا النظام،وأما بغير ذلك فلا،فلا نريد تدخل أعداء الإسلام من أجل إزاحة الأسد بالقوة ليضعوا علينا طاغية مثله،كما حدث في كثير من بلاد المسلمين وما أمر العراق عنا ببعيد

213 – هذا هو الكلام السليم المنطقي،فلا يجوز لأحد أن يفرض على الشعب السوري ما لا يرغب به

214 – لأنه يكون حينئذ جهاد دفع،وفي جهاد الدفع يجب على كل السوريين مقاتلة هذا الطاغية،كل بحسب وسعه وطاقته،وكل حسب موقعه،بالنفس والمال واللسان والدعاء وكل شيء مادي أو معنوي،انظر:الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٠)

215 – لقوله تعالى:{وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ } [الأنفال:٧٢]،وقوله تعالى:{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } [النساء:٧٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَحَاسَدُوا،وَلَا تَنَاجَشُوا،وَلَا تَبَاغَضُوا،وَلَا تَدَابَرُوا،وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ،وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ،لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ،وَلَا يَحْقِرُهُ...»صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦)٣٢ – (٢٥٦٤)

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ،وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُ أَذَلَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " مسند أحمد ط الرسالة (٢٥/ ٣٦١)(١٥٩٨٥) حسن

ومعنويا،بما في ذلك دفع الزكاة لهم في سهم {وفي سبيل الله}[216]،ولا حرج على من دفع السلطة بالقوة عن نفسه وماله وعرضه[217].

الأدلة على كفر النظام السوري

هذا النظام الطاغوتي الفرعوني في الشام – على فرض أنه كان مسلما و لم يكن في يوم من الأيام – فقد خرج من الإسلام للأمور التالية:

١– هو لا يلتزم بشيء من أحكام الإسلام أصلاً

٢– حكمه بغير ما أنزل الله،فالدستور السوري مستورد من الغرب والشرق،فالعمل به كفر مخرج من الملة لأنه حكم بغير ما أنزل الله تعالى،قال تعالى:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة:٤٤]

قال الشنقيطي رحمه الله:"وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ كَوْنِ الْحُكْمِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهِ عَلَى كِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ،كَقَوْلِهِ تَعَالَى:إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [١٢ \ ٤٠]،وَقَوْلِهِ تَعَالَى:إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ الْآيَةَ [١٢

---

216 – وهو سهم من سهام الزكاة لقول الله تعالى:{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٦٠]

217 – وهذا من باب دفع الصائل،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَانِي رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟،قَالَ:«لَا تُعْطِهِ مَالَكَ»،قَالَ:أَفَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟،قَالَ:«فَقَاتِلْهُ»،قَالَ:أَفَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟،قَالَ:«فَأَنْتَ شَهِيدٌ»،قَالَ:أَفَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟،قَالَ:«هُوَ فِي النَّارِ»الإيمان لابن منده (٢/ ٦٣٣)(٥٨٣) صحيح

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أُصِيبَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٨٦)(١٩٦) صحيح

وقِيلَ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ:رَجُلٌ دَخَلَ دَارَ قَوْمٍ بِسِلَاحٍ فَقَتَلُوهُ؟ فَلَمْ يُجِبْ فِيهِ،فَأَخْبَرَنِي زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَى أَنَّ أَبَا طَالِبٍ حَدَّثَهُمْ،قَالَ:سُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَنْ لُصُوصٍ دَخَلُوا عَلَى رَجُلٍ مُكَابَرَةً،يُقَاتِلُهُمْ أَوْ يُنَاشِدُهُمْ؟ قَالَ:" قَدْ دَخَلُوا عَلَى حُرْمَتِهِ،مَا يُنَاشِدُهُمْ،يُقَاتِلُهُمْ،يَدْفَعُهُمْ عَنْ نَفْسِهِ،وَلَكِنْ لَا يَنْوِي الْقَتْلَ،قَالَ:فَيَضْرِبُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ قَالَ:يَدْفَعُهُمْ عَنْ نَفْسِهِ بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ،بِالسَّيْفِ وَغَيْرِهِ،وَلَا يَنْوِي قَتْلَهُ،قَالَ:فَإِنْ ضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ،قُلْتُ لَهُ:السُّلْطَانُ لَا يَلْزَمُهُ فِيهِ شَيْءٌ،قَالَ:إِذَا عَلِمَ النَّاسُ وَقَتَلَهُ فِي دَارِهِ مَا عَلَيْهِ،لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ،إِنَّمَا يُقَاتِلُ دُونَ مَالِهِ،وَدُونَ نَفْسِهِ وَحُرْمَتِهِ،قَالَ:فَإِنْ وَلَّى فَلْيَدَعْهُ،وَلَا يَتَّبِعْهُ،قُلْتُ لَهُ:فَإِنْ أَخَذَ مَالًا وَذَهَبَ،أَتَّبِعُهُ؟ قَالَ:إِنْ أَخَذَ مَالَكَ فَاتَّبِعْهُ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،فَأَنْتَ تَطْلُبُ مَالَكَ،فَإِنْ أَلْقَاهُ إِلَيْكَ فَلَا تَتَّبِعْهُ وَلَا تَضْرِبْهُ،دَعْهُ يَذْهَبْ،وَإِنْ لَمْ يَلْقَهُ إِلَيْكَ ثُمَّ ضَرَبْتَهُ وَأَنْتَ لَا تَنْوِي قَتْلَهُ،إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَأْخُذَ شَيْئَكَ وَتَدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِكَ،فَإِنْ مَاتَ فَلَيْسَ عَلَيْكَ شَيْءٌ؛ لِأَنَّكَ إِنَّمَا تُقَاتِلُ دُونَ مَالِكَ" السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٧٦)(١٧٧) صحيح

\ ٦٧]،وَقَوْله تَعَالَى:وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّـه [٤٢ \ ١٠]،وَقَوْلـه تَعَالَى:ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِه تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ [٤٠ \ ١٢]،وَقَوْله تَعَالَى:كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٢٨ \ ٨٨]،وَقَوْله تَعَالَى:لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٢٨ \ ٧٠]،وَقَوْله:أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [٥ \ ٥٠]،وَقَوْله تَعَالَى:أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا [٦ \ ١١٤]،إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ،كَقَوْله:وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا [١٨ \ ٢٦]،أَنَّ مُتَّبِعِي أَحْكَامِ الْمُشَرِّعِينَ غَيْرِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ،وَهَذَا الْمَفْهُومُ جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ،كَقَوْله فِيمَنِ اتَّبَعَ تَشْرِيعَ الشَّيْطَانِ فِي إِبَاحَةِ الْمَيْتَةِ بِدَعْوَى أَنَّهَا ذَبِيحَةُ اللَّهِ:وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ [٦ \ ١٢١]،فَصَرَّحَ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِطَاعَتِهِمْ،وَهَذَا الْإِشْرَاكُ فِي الطَّاعَةِ،وَاتِّبَاعِ التَّشْرِيعِ الْمُخَالِفِ لِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُرَادُ بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ فِي قَوْله تَعَالَى:أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [٣٦ \ ٦٠،٦١]،وَقَوْله تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ:يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا [١٩ \ ٤٤]،وَقَوْله تَعَالَى:إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا [٤ \ ١١٧]،أَيْ:مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا شَيْطَانًا،أَيْ:وَذَلِكَ بِاتِّبَاعِ تَشْرِيعِهِ،وَلِذَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ يُطَاعُونَ فِيمَا زَيَّنُوا مِنَ الْمَعَاصِي شُرَكَاءَ،فِي قَوْله تَعَالَى:وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ الْآيَةَ [٦ \ ١٣٧]،وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ قَوْله تَعَالَى:اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ [٩ \ ٣١]،فَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ،وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَاتَّبَعُوهُمْ فِي ذَلِكَ،وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ اتِّخَاذُهُمْ إِيَّاهُمْ أَرْبَابًا.

وَمِنْ أَصْرَحِ الْأَدِلَّةِ فِي هَذَا:أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا فِي «سُورَةِ النِّسَاءِ» بَيَّنَ أَنَّ مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ،وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ مَعَ إِرَادَةِ التَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ بَالِغَةٌ مِنَ الْكَذِبِ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ الْعَجَبُ ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا [٤ \ ٦٠].

وَبِهَذِهِ النُّصُوصِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَا يَظْهَرُ غَايَةَ الظُّهُورِ:أَنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْقَوَانِينَ الْوَضْعِيَّةَ الَّتِي شَرَعَهَا الشَّيْطَانُ عَلَى أَلْسِنَةِ أَوْلِيَائِهِ مُخَالَفَةً لِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ،أَنَّهُ لَا يَشُكُّ فِي كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ إِلَّا مَنْ طَمَسَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ،وَأَعْمَاهُ عَنْ نُورِ الْوَحْيِ مِثْلَهُمْ."[٢١٨]

وقال ابن كثير:" وَقَوْلُهُ:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ،النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدَلَ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ،الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ،كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ،مِمَّا يَضَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ،وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ،الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ الْيَاسَاقَ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدِ اقْتَبَسَهَا عَنْ شَرَائِعَ شَتَّى،مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ،فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا،يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ. وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ،حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [ﷺ] فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ "[٢١٩]

---

218 – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٢٥٨)

219 – تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)

وقال أيضا:" فَمَنْ تَرَكَ الشَّرْعَ الْمُحْكَمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ،وَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَنْسُوخَةِ كَفَرَ،فَكَيْفَ بِمَنْ تَحَاكَمَ إِلَى " الْيَاسَاقِ " وَقَدَّمَهَا عَلَيْهِ؟ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَفَرَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ."[٢٢٠]

٣- هو يوالي أعداء الإسلام موالاة ظاهرة قطعية،وهذا كفر مخرج من الملة،قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [الممتحنة:١٣]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١]

وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [التوبة:٢٣]

قال الشنقيطي:

"قَوْلُهُ تَعَالَى:وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ،أَنَّ مَنْ تَوَلَّى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْهُمْ بِتَوَلِّيهِ إِيَّاهُمْ،وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ تَوَلِّيَهُمْ مُوجِبٌ لِسُخْطِ اللَّهِ،وَالْخُلُودِ فِي عَذَابِهِ،وَأَنَّ مُتَوَلِّيَهُمْ لَوْ كَانَ مُؤْمِنًا مَا تَوَلَّاهُمْ،وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [٥ \ ٨٠،٨١].

وَنَهَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَنْ تَوَلِّيهِمْ مُبَيِّنًا سَبَبَ التَّنْفِيرِ مِنْهُ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ [٦٠ \ ١٣].

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ:أَنَّ مَحَلَّ ذَلِكَ،فِيمَا إِذَا لَمْ تَكُنِ الْمُوَالَاةُ بِسَبَبِ خَوْفٍ،وَتَقِيَّةٍ،وَإِنْ كَانَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ فَصَاحِبُهَا مَعْذُورٌ،وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً [٣ \

---

220 - البداية والنهاية ط هجر (١٧/ ١٦٢)

٢٨]،فَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا بَيَانٌ لِكُلِّ الْآيَاتِ الْقَاضِيَةِ بِمَنْعِ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ مُطْلَقًا وَإِيضَاحٌ ؛ لِأَنَّ مَحَلَّ ذَلِكَ فِي حَالَةِ الِاخْتِيَارِ،وَأَمَّا عِنْدَ الْخَوْفِ وَالتَّقِيَّةِ،فَيُرَخَّصُ فِي مُوَالَاتِهِمْ،بِقَدْرِ الْمُدَارَاةِ الَّتِي يَكْتَفِي بِهَا شَرُّهُمْ،وَيُشْتَرَطُ فِي ذَلِكَ سَلَامَةُ الْبَاطِنِ مِنْ تِلْكَ الْمُوَالَاةِ:[الْوَافِرُ]

وَمَنْ يَأْتِي الْأُمُورَ عَلَى اضْطِرَارٍ... فَلَيْسَ كَمِثْلِ آتِيهَا اخْتِيَارًا

وَيُفْهَمُ مِنْ ظَوَاهِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ مَنْ تَوَلَّى الْكُفَّارَ عَمْدًا اخْتِيَارًا،رَغْبَةً فِيهِمْ أَنَّهُ كَافِرٌ مِثْلَهُمْ."[221]

٤- هم لا يقيموم الصلاة بل يحاربون أهل الصلاة،ويهدمون المساجد،ويهينون كتاب الله تعالى،قال تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة:١١٤]

وعَنْ جَابِرٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ»[222]

وعَنْ أَبِي سُفْيَانَ،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرًا،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ»[223]

وعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ،فَقُلْنَا:حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ،بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا،وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»،قَالَ:«إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[224]

---

221 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٤١٢)

222 - الإيمان لابن منده (١/ ٣٨٣)(صحيح)

223 - صحيح مسلم (١/ ٨٨)١٣٤ - (٨٢)

224 - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ - (١٧٠٩)

قلت:كل واحد في الشام يعلم هذا الكفر الصريح ومنه عبادة الطاغية الصنم الأسد،ومنها الشرك في قوله – الله – سوريا – بشار وبس"[٢٢٥]

ومنها سب الدين وحرماته،ومن انتهاك حرمات الدين واستحلالها... ومنها إهانة القرآن الكريم وتمزيقه وكتابة عبارات الكفر في المساجد...

٥– تحليل المحرمات المجمع عليها كتحليل الزنا إذا كان برضا الطرفين والربا والقمار وشرب الخمر

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَالْإِنْسَانُ مَتَى حَلَّلَ الْحَرَامَ – الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ – أَوْ حَرَّمَ الْحَلَالَ – الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ – أَوْ بَدَّلَ الشَّرْعَ – الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ – كَانَ كَافِرًا مُرْتَدًّا بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ. وَفِي مِثْلِ هَذَا نَزَلَ قَوْلُهُ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة:٤٤] أَيْ هُوَ الْمُسْتَحِلُّ لِلْحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ "[٢٢٦]

٦– تعمد قتل المسلمين العزل بسبب التظاهر السلمي المشروع،قال تعالى:{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء:٩٣]

وعن سَعِيدَ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:آيَةٌ اخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ الكُوفَةِ،فَرَحَلْتُ فِيهَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا،فَقَالَ:" نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ} [النساء:٩٣] هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ،وَمَا نَسَخَهَا شَيْءٌ "[٢٢٧] وغير ذلك من أدلة مفصلة [٢٢٨] "

---

225 – كتبت مقالا مطولا في بيان كفر وردة من يقول هذه الألفاظ وهو بالمنتدى وهو بعنوان " **الله بشار الوطن هل هو شرك أكبر يخرج من الملة ؟؟؟؟**"

226 – مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية– دار الوفاء (٣/ ٢٦٧)

227 – صحيح البخاري (٦/ ٤٧)(٤٥٩٠) وصحيح مسلم (٤/ ٢٣١٧)١٦ – (٣٠٢٣)

228 – انظر كتاب:" **فراعنة العصر في العراء** "

المبحث الخامس عشر

الأحكام الفقهية لشهداء الحرية والثورات العربية

ما حكم من يُقتل من المتظاهرين في الثورة الشعبية في الدول العربية من أجل العدل والحرية؟

وهل يصدق عليهم أنهم شهداء أم لا؟

وهل هذه الثورة شرعية أم ثورة دنيوية؟

أولا– عموم أحكام الشريعة لأفعال المكلفين:

فليس في أفعال المكلفين عامة ما هو خارج عن الشريعة وأحكامها،فكل فعل يصدر عن فرد أو جماعة أو دولة له حكم شرعي بالحل أو التحريم أو الإيجاب،وهذا بإجماع علماء الأمة من الفقهاء والأصوليين على اختلاف مذاهبهم،واستدل له الشافعي في الرسالة بقوله تعالى:{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } [القيامة:٣٦]،أي لا يؤمر ولا ينهى!

وكما قال تعالى { يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)}(سورة الزلزلة)!

وبناء عليه فهذه الثورة التي قامت – أو ستقوم – بها الشعوب في العالم العربي إما أنها مشروعة سواء كانت واجبة أو مباحة،أو أنها محرمة غير مشروعة،ولا حكم غير هذين الحكمين العامين،فمن قال بأنها ثورة من أجل الدنيا لا من أجل الدين! قيل له:هل الثورة من أجل الدنيا مشروعة أم غير مشروعة؟ ووصفها بأنها دنيوية لا يخرجها عن دائرة الأحكام الشرعية،فإن كانت مشروعة فهي ثورة دنيوية شرعية،وإن كانت غير مشروعة فهي ثورة دنيوية محرمة غير شرعية!

ولا يوجد في الإسلام فصل في الأحكام بين ما هو ديني وما هو دنيوي،بل هذه هي النصرانية التي ترفع شعار (**دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر**)[٢٢٩]،وتفرعت عنها العلمانية

---

229 – طبيعة الديانة النصرانية ومبادئها الأساسية التي تقوم على الفصل بين الدين والدنيا،أو بين الكنيسة والدولة ونظم الحياة المختلفة،فهي ديانة روحية شعائرية لا شأن لها بنظم الحياة وشؤون الحكم والمجتمع،يعبر عن ذلك الشاعر النصراني

الغربية التي فصلت الديني عن الدنيوي،أما في الإسلام فالشريعة تنتظم كل أفعال العباد،وتحكم لها أو عليها،لا يخرج عن أحكامها شيء مطلقا،فما حرمته فهو الحرام،وما أباحته فهو الحلال،وما أوجبته فهو الواجب!

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»[230]،دليل على أن الأصل في الأشياء الدنيوية الإباحة،وهي أيضا حكم شرعي،فثبت أن الشارع قد حكم في كل شيء تفصيلا أو إجمالا،ودائرة الإباحة في الأشياء والمعاملات والعادات أوسع من دائرة الحظر،كما قال تعالى:{ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة:١٨٥]،وقال سبحانه:{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج:٧٨]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ،وَلَكِنْ بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[231]

ثانيا– مشروعية القتال عن الدنيا

وإذا ثبت ذلك فالسؤال هل للإنسان شرعا فردا كان أو مجموعة أن يقاتل من أجل الدفاع عن حقوقه الدنيوية أم لا؟

والجواب كما هو معلوم من دين الإسلام بالضرورة القطعية أن للإنسان الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وأرضه وحقه،ومن مات دون شيء من ذلك فهو شهيد،كما توافرت وتواترت بذلك النصوص كقوله تعالى:{ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ

" دع ما لله،وما لقيصر لقيصر "..! ولهذا فإن النصارى أمماً وشعوباً حين يندفعون للبحث عن تنظيم أمور حياتهم، في العلمانية أو غيرها، لا يشعرون بأي حرج من ناحية دينهم ومعتقداتهم،بل إن طبيعة دينهم تدفعهم لهذا الأمر،ولذلك فإن نشأة العلمانية وانتشارها وسيادتها في المجتمعات الغربية أمر طبيعي. العلمانية والرد عليها (١٩/ ٢)

230 – صحيح مسلم (٤/ ١٨٣٦)١٤١ – (٢٣٦٣) وفيه قصة

231 – مسند الروياني (٢/ ٣١٧)(١٢٧٩) والمعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٢٢)(٧٨٨٣) والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٤٣٠) حسن لغيره

النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)} [الشورى:٣٩ - ٤٢]..

وكما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٣٢]

وعنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ مَظْلُومًا فَلَهُ الْجَنَّةُ»[٢٣٣]

وقد احتج بهذا الحديث الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،أَنَّ عَامِلًا مِنْ عُمَّالِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْرَى عَيْنًا مِنْ مَاءٍ لِيَسْقِيَ بِهَا أَرْضًا،فَأَجْرَاهَا حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ حَائِطٍ يُسَمَّى الْوَهْطَ لِآلِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،أَرَادَ أَنْ يَخْرِقَ الْحَائِطَ لِيُجْرِيَ الْعَيْنَ إِلَى أَرْضٍ لَهُ أُخْرَى،فَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَمَوَالِيهِ بِالسِّلَاحِ،وَقَالَ:وَاللَّهِ لَا تَخْرِقُونَ حَائِطَنَا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنَّا أَحَدٌ،فَقَالُوا:اتَّقِ اللَّهَ،فَإِنَّكَ مَقْتُولٌ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ،فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ مَظْلُومًا فَإِنَّهُ فِي الْجَنَّةِ»[٢٣٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ:«فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ» قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ:«قَاتِلْهُ» قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ:«فَأَنْتَ شَهِيدٌ»،قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ:«هُوَ فِي النَّارِ»[٢٣٥]

وقد احتج الصحابي سعيد بن زيد ــ أحد العشرة المبشرين بالجنة ــ بحديث:(من قتل دون ماله فهو شهيد)،فعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٣٦]

---

232 - صحيح البخاري (٣/ ١٣٦)(٢٤٨٠) وصحيح مسلم (١/ ١٢٤)٢٢٦ - (١٤١)

233 - السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٢)(٣٥٣٥) صحيح

234 - تهذيب الآثار مسند ابن عباس (٢/ ٧٩٤)(١١٦٨) صحيح

235 - صحيح مسلم (١/ ١٢٤)٢٢٥ - (١٤٠)

236 -السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٥)(٣٥٤٤) صحيح

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٣٧]

وعن عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرٍو،عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ أُرِيدَ مَالُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ فَقَاتَلَ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٣٨]

وعَنْ أَبِي بَكْرٍ يَعْنِي ابْنَ حَفْصٍ،فَذَكَرَ قِصَّةً،قَالَ سَعْدٌ:إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:"نِعْمَ الْمِيتَةُ أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ دُونَ حَقِّهِ "[٢٣٩]

فساوت هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة بين القتال عن الدين،والقتال عن النفس والأهل والعرض والمال والأرض والحقوق كالحرية والعدل والكرامة،فكلها مشروع القتال دونه،وكلها يصدق على من قتل دونها بأنه شهيد!

وهذان صحابيان جليلان عبد الله بن عمرو وسعيد بن زيد يرويان هذه الأحاديث ويحتجان بها قوليا وعمليا في تصديهم بالقوة لمن أرد أن يظلمهما ويأخذ حقهما وإن كانت السلطة نفسها! ولا يعرف لهما مخالف من الصحابة وهما أدرى بروايتهما ممن سواهما.

قالَ ابن المُنذِر:والَّذي عَلَيه أَهل العِلمِ أَنَّ لِلرَّجُلِ أَن يَدفَعَ عَمّا ذَكَرَ إِذا أُرِيدَ ظُلمًا بِغَيرِ تَفصِيل،إِلاَّ أَنَّ كُلّ مَن يُحفَظُ عَنهُ مِن عُلَماءِ الحَدِيث المُجمعِينَ عَلَى استِثناءِ السُّلطانِ لِلآثارِ الوارِدَةِ بِالأَمرِ بِالصَّبرِ عَلَى جَورِهِ وتَركِ القِيامِ عَلَيه.[٢٤٠]

وقال الخطابي:"فقد دل ذلك على أن من دافع عن ماله أو عن أهله أو دينه إذا أربد على شيء منها فأتي القتل عليه كان مأجوراً فيه نائلاً به منازل الشهداء.وقد كره ذلك قوم زعموا أن الواجب عليه أن يستسلم ولا يقاتل عن نفسه وذهبوا في ذلك إلى أحاديث

---

237 – سنن النسائي (٧/ ١١٦)(٤٠٩٤) صحيح

238 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٣)(٣٥٣٧) صحيح

239 – مسند أحمد ط الرسالة (٣/ ١٥٤)(١٥٩٨) فيه انقطاع وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٦٩٧ وهو كذلك بشواهده.

240 – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٥/ ١٢٤)

رويت في ترك القتال في الفتن وفي الخروج على الأئمة،وليس هذا من ذلك في شـــيء،إنما جاء هذا في قتال اللصوص وقطاع الطريق،وأهل البغي والساعين في الأرض بالفساد ومن دخل في معناهم من أهل العيث والافساد."[٢٤١]

وكما ثبت في الصحيحين بل ما تواتر في كتاب فريضة الزكاة الذي كتبه النبي ﷺ قبـــل وفاته،فعن ثُمَامَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ،أَنَّ أَنَسًا،حَدَّثَهُ:أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،كَتَبَ لَـــهُ هَذَا الكِتَابَ لَمَّا وَجَّهَهُ إِلَى البَحْرَيْنِ:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذِهِ فَرِيضَةُ الصَّدَقَةِ الَّتِـــي فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى المُسْلِمِينَ،وَالَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ،«فَمَنْ سُئِلَهَا مِنَ المُسْـــلِمِينَ عَلَى وَجْهِهَا،فَلْيُعْطِهَا وَمَنْ سُئِلَ فَوْقَهَا فَلاَ يُعْطِ..."[٢٤٢]

قال ابن حجر:قَوله:"ومَن سُئِلَ فَوقَها فَلا يُعطِ"؛أَي:مَن سُئِلَ زائدًا عَلَى ذَلكَ فِي سِـــنٍّ أَو عَدَد فَلَهُ المَنعُ. ونَقَلَ الرّافعِيّ الاتِّفاق عَلَى تَرجيحه. وقِيلَ مَعناهُ فَليُمنَع السّاعِي وليَتَولَّ هُو إِخراجَهُ بنَفسه أَو بِساعٍ آخَرَ فَإِنَّ السّاعِيَ الَّذي طَلَبَ الزِّيادَة يَكُونُ بِذَلكَ مُتَعَدِّيًا وشَرطُهُ أَن يَكُونَ أَمينًا،لَكِنَّ مَحلّ هَذا إِذا طَلَبَ الزِّيادَةَ بِغَير تَأوِيل.[٢٤٣]

فليس للسلطة أخذ أموال الناس بالباطل ولو كانت جباية الزكـــاة،وليس لهـــا حبســـهم واعتقالهم ظلما،وليس لها انتهاك حرماتهم،فإن فعلت فجائز لهم دفعها عن ذلك والامتناع عن طاعتها ومقاومتها.

قال الإمام ابن حزم بعد أن ذكر حديث عبد الله بن عمرو وقصته،وحديث أبي بكـــر في الزكاة:فَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – يَأْمُرُ مَنْ سُئِلَ مَالَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ أَنْ لَا يُعْطِيَهُ،وَأَمَرَ أَنْ يُقَاتِـــلَ دُونَهُ فَيَقْتُلُ مُصِيبًا سَدِيدًا،أَوْ يُقْتَلُ بَرِيئًا شَهِيدًا،وَلَمْ يَخُصَّ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مَالًا مِنْ مَالٍ. وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ،وَعَبْدُ اللَّهُ بْنُ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – يَرَيَانِ السُّلْطَانَ فِي ذَلِكَ وَغَيْرَ السُّلْطَانِ سَوَاءً – وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.[٢٤٤]

---

241 – معالم السنن (٤/ ٣٣٦)

242 – صحيح البخاري (٢/ ١١٨)(١٤٥٤)

243 – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (٣/ ٣١٩)

244 – المحلى بالآثار (١٢/ ٢٨٥)

فهذه بعض الأدلة القطعية في ثبوتها ودلالاتها تؤكد أن للإنسان الحق أن يقاتل دون دنياه سواء كان مالا أو أرضا أو نفسا أو أهلا،وهذا من العدل والقسط الذي جاء به الإسلام،كما قال تعالى:{ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف:٢٩]،وقال:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد:٢٥]..

ولا فرق في هذا الحق بين مسلم وغير مسلم،وصالح وغير صالح،بل لكل إنسان في دار الإسلام الدفع عن حقوقه ممن أراد الاعتداء عليها.

وبناء على كل ما سبق فإن للأمة شرعاً بأفرادها أو بمجموعها أن تقاتل عن دنياها كما تقاتل عن دينها،كما ثبت أيضا بأن من يقتل دون دنياه مظلوما فهو شهيد،كمن يقاتل دون دينه،وهذا بنص رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى!

ثالثا– ثبوت أحكام الشهادة للمتظاهرين دفاعا عن حقوقهم:

وإذا ثبت أن الشارع أطلق اسم الشهادة ووصفها على من قاتل دون حقوقه الدنيوية،فقد اجتمع لمن قتلوا في الثورات العربية الشعبية وصفان يوجب كل واحد منهما وصف الشهادة وأحكامها لهم:

الأول:من قاتل منهم دون نفسه أو أهله أو دينه أو ماله أو حقه فقتل.

والثاني:من قتل منهم مظلوما،وإن لم يقاتل،بل خرج مسالما يدعو إلى إنصافه ورفع الظلم عنه وعن غيره،فاعتدت عليه السلطة وقتلته،ولهذا جاء في دليل الطالب في فقه الحنابلة:(وشهيد المعركة والمقتول ظلما لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ويجب بقاء دمه عليه ودفنه في ثيابه.

وإن حمل فأكل أو شرب أو نام أو بال أو تكلم أو عطس أو طال بقاؤه عرفا أو قتل وعليه ما يوجب الغسل من نحو جنابة فهو كغيره.)[٢٤٥].

وجاء في الشرح الكبير:(قَوْلُهُ (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا) كَقَتِيلِ اللُّصُوصِ وَنَحْوِهِ (فَهَلْ يُلْحَقُ بِالشَّهِيدِ؟ عَلَى رِوَايَتَيْنِ) وَأَطْلَقَهُمَا فِي

[245] – دليل الطالب لنيل المطالب (ص:٦٧)

الْفَائِقِ،وَالْمُغْنِي،وَالشَّرْحِ،وَالرِّعَايَتَيْنِ،وَالْحَاوِيَيْنِ،إحْدَاهُمَا:يُلْحَقُ بِشَهِيدِ الْمَعْرَكَةِ،وَهُوَ الْمَذْهَبُ اخْتَارَهُ أَكْثَرُ الْأَصْحَابِ. قَالَ فِي الْفُرُوعِ:وَلَا يُغَسَّلُ الْمَقْتُولُ ظُلْمًا عَلَى الْأَصَحِّ قَالَ الزَّرْكَشِيُّ:اخْتَارَهُ الْقَاضِي وَعَامَّةُ أَصْحَابِهِ وَصَحَّحَهُ فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَقَدَّمَهُ ابْنُ تَمِيمٍ الرِّوَايَةُ ")![246]

وقد جاء في صحيح مسلم عن جهاد الأئمة المضلين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[247]

وجاء في الحديث أيضا عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[248]

وفي الحديث الآخر عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[249]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَى:أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ،ثُمَّ سَأَلَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى فَأَعْرَضَ عَنْهُ،ثُمَّ سَأَلَهُ عِنْدَ الْعَقَبَةِ،فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ ثُمَّ قَالَ:أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:" أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ "[250]

وفي الصحيح عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو

---

246 – الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٢/ ٥٠٣) والشرح الكبير على متن المقنع (٢/ ٣٣٦) والمبدع في شرح المقنع (٢/ ٢٣٩) وشرح الزركشي على مختصر الخرقي (٢/ ٣٤٥)

247 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ – (٥٠)

248 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

249 – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣)(٧٧٨٦) صحيح

250 – شعب الإيمان (١٠/ ٦٧)(٧١٧٤) والمعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٨٢)(٨٠٨١)صحيح لغيره

سَعِيد:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[٢٥١]..

وهذان الوصفان – أي وصف الجهاد ووصف الشهادة – يثبتان لمن تظاهروا وقتلوا في المظاهرات السلمية،على الأنظمة الشرعية،إذا جارت وظلمت واعتدت على الرعية،أما إذا ثبت عدم شرعيتها بل وثبتت ردتها كأكثر الحكومات العربية اليوم[٢٥٢]،فالمقتول في الثورة عليها هو شهيد المعركة نفسه عند أكثر الفقهاء كما سيأتي بيانه!

رابعاً – أقسام الشهداء وأحكامهم:

الشهداء أقسام ولكل قسم أحكامٌ،كما دلت على ذلك النصوص،وأقوال الفقهاء،فهم:

القسم الأول:شهداء في حكم الدنيا والآخرة:

فلا يغسلون،ولا يصلَّى عليهم،ويدفنون في لباسهم الذي قتلوا فيه،وهم أنواع أيضا:

النوع الأول:كل قتيل من المسلمين في حربهم مع عدوهم أثناء الحرب أو بسببها،كشهداء معركة أحد،ويصدق ذلك اليوم على من يستشهدون في مواجهة الاحتلال الأجنبي في فلسطين أو في العراق أو أفغانستان..الخ،وهذا النوع لا خلاف فيه بين الأئمة في الحكم الدنيوي والأخروي.

النوع الثاني:القتيل من المسلمين في تصديهم للسلطان الكافر أو السلطان إذا ارتد،أو السلطان الجائر،إذا خرجوا عليه لمنعه من الجور،وتغيير المنكر،كشهداء أهل المدينة يوم الحرة في خروجهم على يزيد،وشهداء كربلاء مع الحسين سيد شباب أهل الجنة،وشهداء القراء في دير الجماجم في خروجهم على الحجاج...الخ[٢٥٣]،ومثلهم من يخرجون اليوم في الثورات العربية بقصد مواجهة الطاغوت،وإعلاء كلمة الله.

---

251 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ – (٤٩)

252 – **لأنها تحكم بغير ما أنزل الله،وتوالي أعداء الإسلام،وتعطل الأحكام وتبدلها...**

253 – هناك فرق كبير بين أولئك الذين خرجوا عليهم وبين حكام اليوم،لأن السابقين كانوا يحكمون بالإسلام ويجاهدون في سبيل الله،ويقيمون الحدود... وإن حصل منهم بعض الظلم...

النوع الثالث:كل قتيل ظلما دون نفسه أو ماله أو عرضه أو أهله أو حقه:

كمن يخرجون اليوم في الثورات العربية بقصد الدفاع عن حقوقهم الدنيوية،فيقُتلون على يد رجال السلطة ظلماً وعدواناً..

وهذان النوعان الأخيران لا خلاف بين الفقهاء في الحكم الأخروي لهم،ولا خلاف على إطلاق وصف الشهادة عليهم،وإنما اختلفوا في الحكم الدنيوي هل يغسلون ويصلَّى عليهم أم لا؟ وأكثر الفقهاء على أنهم كالنوع الأول في الحكم الدنيوي أيضا..

ولا فرق في الأحكام السابقة بين أهل الصلاح وأهل المعاصي،إذا تحقق لهم وصف الشهادة وسببها.

كما لا خلاف بين الفقهاء على أن أعلاهم وأشرفهم في الجهاد والشهادة من قُتل لتكون كلمةُ الله هي العليا،عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ،قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ،أَنَّ رَجُلًا أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ،فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ أَعْلَى،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[٢٥٤]

سواء تحقق له ذلك على يد عدو كافر كحمزة بن عبد المطلب،أو سلطان جائر كالحسين بن علي رضي الله عنهم،كما في عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[٢٥٥].

القسم الثاني:شهداء في حكم الدنيا فقط

وهم النوع الأول والثاني من القسم الأول إذا كان قتالهم نفاقا ورياء وللغنيمة لا في سبيل الله،فلا يغسلون ولا يصلَّى عليهم بل يدفنون كسائر الشهداء،إلا إنهم ليسوا شهداء في

أما حكام اليوم فلا يحكمون بما أنزل الله،ولا يقيمون الحدود،ولا يجاهدون في سبيل الله،ويوالون أعداء الإسلام وينفذون مخططاتهم،ويبطشون بالأخيار الأبرار وينهبون خيرات الأمة

254 – صحيح مسلم (٣/ ١٥١٢)١٤٩ – (١٩٠٤)

[ش (مكانه) أي مكانته ومرتبته وقدرته على القتال أو شجاعته (فمن في سبيل الله) أي فقتال من في سبيل الله على حذف المضاف أو فمن المقاتل فيه]

255 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

الآخرة،وليس لهم ثواب الشهداء،وهذا أمر لا يعلمه إلا الله،إلا من عرف من حاله نفاق ظاهر.

القسم الثالث:شهداء في حكم الآخرة فقط

وهم كل من مات بسبب من الأسباب التي ثبت بنص الشارع أن القتيل بها شهيد،كالطاعون والمبطون والحريق والغريق والنفساء الخ،فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ،وَالْغَرَقُ شَهَادَةٌ،وَالْبَطْنُ شَهَادَةٌ،وَالنُّفَسَاءُ شَهَادَةٌ "[٢٥٦]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ ؟ قَالُوا:الَّذِي يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ،الْقَتِيلُ فِي سَبِيلِ اللهِ شَهِيدٌ،وَالْمَطْعُونُ شَهِيدٌ،وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ،وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ،يَعْنِي حَامِلاً شَهِيدٌ.[٢٥٧]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّهُ مَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ،فَقَالَ قَائِلٌ مِنْ أَهْلِهِ:إِنْ كُنَّا لَنَرْجُو أَنْ تَكُونَ وَفَاتُهُ قَتْلَ شَهَادَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ،الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهَادَةٌ،وَالْمَطْعُونُ شَهَادَةٌ،وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهَادَةٌ - يَعْنِي الْحَامِلَ -،وَالْغَرِقُ،وَالْحَرِقُ وَالْمَجْنُوبُ،- يَعْنِي ذَاتَ الْجَنْبِ - شَهَادَةٌ»[٢٥٨]

وعَنْ مَسْرُوقٍ،قَالَ:الطَّاعُونُ،وَالْبَطْنُ،وَالنُّفَسَاءُ،وَالْغَرَقُ،وَمَا أُصِيبَ بِهِ مُسْلِمٌ،فَهُوَ لَهُ شَهَادَةٌ.[٢٥٩]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللهِ:إِنَّ مِمَنْ يَغْرَقُ فِي الْبُحُورِ،وَيَتَرَدَّى مِنَ الْجِبَالِ،وَتَأْكُلُهُ السِّبَاعُ،لَشُهَدَاءُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.[٢٦٠]

---

256 – مسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٢١)(١٥٣٠٧) وسنن الدارمي (٣/ ١٥٦٣)(٢٤٥٧) صحيح

257 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٠/ ٣٢٣)(١٩٨٢٢) صحيح

258 –سنن ابن ماجه (٢/ ٩٣٧)(٢٨٠٣) ومصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٠/ ٣٢٣)(١٩٨٢٣) صحيح

[ش – (تموت بجمع) قال الخطابي هم أن تموت وفي بطنها ولد. زاد في النهاية وقيل أن تموت بكرا. والمعنى أنها ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكارة. (والغرق) الذي يموت غريقا في الماء. (والحرق) الذي يموت حريقا في النار.]

259 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٠/ ٣٢٤)(١٩٨٢٦) صحيح مقطوع

260 –مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٠/ ٣٢٤)(١٩٨٢٥) صحيح

وعَنْ رَاشِدِ بْنِ حُبَيْشٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ يَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَتَعْلَمُونَ مَنِ الشَّهِيدُ مِنْ أُمَّتِي؟ " فَأَرَمَّ الْقَوْمُ،فَقَالَ عُبَادَةُ:سَانِدُونِي،فَأَسْنَدُوهُ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،الصَّابِرُ الْمُحْتَسِبُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ:الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شَهَادَةٌ،وَالطَّاعُونُ شَهَادَةٌ،وَالْغَرَقُ شَهَادَةٌ،وَالْبَطْنُ شَهَادَةٌ،وَالنُّفَسَاءُ يَجُرُّهَا وَلَدُهَا بِسُرَرِهِ إِلَى الْجَنَّةِ " قَالَ:وَزَادَ فِيهَا أَبُو الْعَوَّامِ:" سَادِنُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْحَرْقُ،وَالسَّيْلُ "[٢٦١]

فهؤلاء ونحوهم يغسلون ويصلَّى عليهم في حكم الدنيا،ويطلق عليهم وصف الشهادة في حكم الآخرة،ولهم ثواب الشهداء.

فتلك بعض أحكامهم إجمالا،وهذه بعض نصوص الفقهاء في تفصيل ذلك:

جاء في رد المحتار في فقه الحنفية:(مَطْلَبٌ فِي تَعْدَادِ الشُّهَدَاءِ (قَوْلُهُ فِي الشَّهِيدِ الْكَامِلِ) وَهُوَ شَهِيدُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَشَهَادَةُ الدُّنْيَا بِعَدَمِ الْغُسْلِ إلَّا لِنَجَاسَةٍ أَصَابَتْهُ غَيْرَ دَمِهِ كَمَا فِي أَبِي السُّعُودِ،وَشَهَادَةُ الْآخِرَةِ بِنَيْلِ الثَّوَابِ الْمَوْعُودِ لِلشَّهِيدِ أَفَادَهُ فِي الْبَحْرِ ط وَالْمُرَادُ بِشَهِيدِ الْآخِرَةِ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا أَوْ قَاتَلَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - حَتَّى قُتِلَ فَلَوْ قَاتَلَ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ فَهُوَ شَهِيدُ دُنْيَا فَقَطْ تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الشَّهِيدِ فِي الدُّنْيَا،وَعَلَيْهِ فَالشُّهَدَاءُ ثَلَاثَةٌ..)[٢٦٢].

وجاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة في تعريف الشهيد وأحكامه:((الحنفية قالوا:الشهيد هو من قتل ظلما سواء قتل في حرب أو قتله باغ أو حربي أو قاطع طريق أو لص ولو كان قتله بسبب غير مباشر،وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول:الشهيد الكامل وهو شهيد الدنيا والآخرة ويشترط في تحقق الشهادة الكاملة ستة شروط وهي:العقل والبلوغ والإسلام والطهارة من الحدث وأن يموت عقب الإصابة بحيث لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتداوى ولا ينتقل من مكان الإصابة إلى خيمته أو منزله حيا...

---

261 -مسند أحمد ط الرسالة (٢٥/ ٣٧٨)(١٥٩٩٨) حسن

262 - الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٢/ ٢٥٢)

ويدخل في هذا القسم من قتل مدافعا عن ماله أو نفسه أو المسلمين أو أهل الذمة بشرط أن يقتل بمحدد،وحكم هذا القسم من الشهداء أن لا يغسل إلا لنجاسة أصابته غير دمه ويكفن في أثوابه...

الثاني:من الشهداء شهيد الآخرة فقط،وهو كل من فقد شرطا من الشروط السابقة،بأن قتل ظلما وهو جنب أو حائض أو نفساء أو لم يمت عقب الإصابة أو كان صغير أو مجنونا أو قتل خطأ ووجب بقتله مال،فهؤلاء ليسوا كاملي الشهادة إلا أنهم شهداء في الآخرة،لهم الأجر الذي وعد به الشهداء يوم القيامة فيجب تغسيلهم وتكفينهم والصلاة عليهم كغيرهم،ومثل هؤلاء في شهادة الآخرة الغرقى والحرقى ومن مات بسقوط جدران عليه وكذلك الغرباء والموتى بالوباء وبداء الاستسقاء أو الإسهال أو ذات الجنب أو النفاس أو السل أو الصرع أو الحمى أو لدغ العقرب ونحوه كالموتى في أثناء طلب العلم.. ومثل هؤلاء يغسلون ويكفنون ويصلى عليهم،وإن كان لهم أجر الشهداء في الآخرة.

الثالث الشهيد في الدنيا فقط وهو المنافق الذي قتل في صفوف المسلمين ونحوه وهذا لا يغسل ويكفن في ثيابه ويصلَّى عليه اعتبارا بالظاهر)[٢٦٣].

ويلاحظ أن الحنفية جعلوا قتيل المعركة والمقتول ظلما بيد الجائر قسما واحدا،وأدخلوا معهم من قتل دفاعا عن نفسه وعن ماله وعرضه أو دفاعا عن غيره بالحق،ولو كان دفاعا عن غير مسلم..

وجاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة أيضا (المالكية قالوا:الشهيد هو من قتله كافر حربي أو قتل في معركة بين المسلمين والكفار سواء كان القتال ببلاد الحرب أو ببلاد الإسلام،كما إذا غزا الحربيون المسلمين،وحكم الشهيد المذكور أنه يحرم تغسيله والصلاة عليه ولو لم يقاتل بأن كان غافلا أو نائما.... والشهيد المذكور يشمل شهيد الدنيا والآخرة وهو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا،وشهيد الدنيا فقط وهو من قاتل للغنيمة،وأما شهيد الآخرة فقط وهو المبطون والغريق والحريق ونحوهم والمقتول ظلما في غير قتال الحربيين ولم يقتله حربي فهو كغيره من الموتى في غسله وغيره،فيجب تغسيله

263 – الفقه على المذاهب الأربعة (١/ ٤٧٩)

والصلاة عليه،ولا يجب دفنه في ثيابه،وشهيد الآخرة المذكور له في الآخرة الأجر الوارد في الشرع إن شاء الله تعالى،وأما شهيد الدنيا فقط فلا أجر له في الآخرة،وإن كان يعامل معاملة الشهداء في الدنيا)[٢٦٤].

وقال الجزيري:" الشافعية قالوا:الشهيد ثلاثة أقسام:

-"١" شهيد الدنيا والآخرة،وهو من قاتل الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى من غير رياء ولا غلول من الغنيمة – الغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمها بين المجاهدين

– "٢" شهيد الدنيا فقط،وهو من قاتل بهدم أو غرق أو نحوها،كالمقتول ظلماً،والقسمان الأولان يحرم تغسيلهما والصلاة عليهما،ولو كان بهما حدث أصغر أو أكبر. ولا فرق بين أن يقتل واحد من القسمين المذكورين بسلاح كافر أو مسلم خطأ،وكذا من يقتل بسلاح نفسه. بأن يرجع عليه سلاحه فيقتله،أو يسقط عن دابته فيموت،أو تطأه الدواب،أو نحو ذلك،ولا فرق أيضاً بين أن يموت في الحال أو يبقى حياً بعد الإصابة،بشرط أن يكون بذلك السبب قبل انقضاء الحرب،أو يموت بعد انقضاء الحرب إذا كانت حياته غير مستقرة بأن لم يبق فيه إلا حركة مذبوح،ويجب تكفينه،ويسن أن يكفن بثيابه،وتكمل بما يستره إن لم تستره،ويندب أن يترع عنه آلات الحرب،كالدرع والخف والفروة والسلاح ونحوها،

وأما القسم الثالث فهو شهيد في ثواب الآخرة فقط،وأما في الدنيا فهو كغيره من الموتى يغسل ويصلي عليه،ويلاحظ فيه كل ما تقدم مما يتعلق بسائر الموتى،وتجب إزالة النجاسة من على بدن من يحرم غسله سوى دم الشهادة،ولو أدى إزالتها إلى إزالة دم الشهادة"[٢٦٥]

وفي إعانة الطالبين في فقه الشافعية:(والمراد بالشهيد – فيما تقدم – شهيد المعركة،سواء كان شهيدا في الدنيا والآخرة،وهو من قاتل لإعلاء كلمة الله.

أو كان شهيدا في الدنيا فقط،وهو من قاتل للغنيمة مثلا.

وأما شهيد الآخرة فقط:فهو كغير الشهيد،فيغسل،ويكفن،ويصلى عليه،ويدفن.

---

264 – الفقه على المذاهب الأربعة (١/ ٤٨١)

265 – الفقه على المذاهب الأربعة (١/ ٤٨١)

وأقسامه كثيرة،فمنها الميتة طلقا،ولو كانت حاملا من زنا،والميت غريقا وإن عصى بركوب البحر،والميت هديما،أو حريقا أو غريبا وإن عصى بالغربة،والمقتول ظلما ولو هيئة،كأن استحق شخص حز رقبته فقده نصفين،والميت بالبطن،أو في زمن الطاعون،ولو بغير،لكن كان صابرا محتسبا،أو بعده:وكان في زمنه كذلك.

والميت في طلب العلم ولو على فراشه،والميت عشقا ولو لمن لم يبح وطؤه كأمرد،بشرط العفة،حتى عن النظر،بحيث لو اختلى بمحبوبه لم يتجاوز الشرع.

وبشرط الكتمان حتى عن معشوقه.

وأما خبر:إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره،فمحمول على غير العشق.)[٢٦٦].

وفي حاشية قليوبي وعميرة في فقه الشافعية تعريف الشهيد بأنه قتيل المسلمين قَوْلُهُ:" (فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ) أَيْ فِي مُحَارَبَةِ كَافِرٍ وَلَوْ وَاحِدًا أَوْ مُرْتَدًّا،أَوْ فِي قَطْعِ طَرِيقٍ أَوْ فِي صِيَالٍ،أَوْ قَتَلَهُ كَافِرٌ اسْتَعَانَ بِهِ الْبُغَاةُ،وَكَذَا عَكْسُهُ بِأَنْ قَتَلَهُ بَاغٍ اسْتَعَانَ بِهِ كَافِرٌ،وَتَوَقَّفَ شَيْخُنَا الرَّمْلِيُّ فِي الْمَقْتُولِ مِنْ الْبُغَاةِ بِكَافِرٍ اسْتَعَنَّا بِهِ عَلَيْهِمْ. قَوْلُهُ:(أَوْ تَرَدَّى فِي حَمْلَتِهِ) أَوْ عَادُوا إلَيْهِ بَعْدَ انْهِزَامِهِمْ فَقَتَلُوهُ،وَالْحَمْلَةُ قُوَّةُ الْحَمِيَّةِ فِي شِدَّةِ الْقِتَالِ. قَوْلُهُ:(فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ) وَلَمْ يَقْتُلْهُ كَافِرٌ اسْتَعَانُوا مَثَلًا كَمَا مَرَّ. قَوْلُهُ:(أَمَّا الشَّهِيدُ) أَيْ الَّذِي يُعْطَى مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ فِي الْآخِرَةِ. قَوْلُهُ:(الْعَارِي إلَخْ) أَيْ الْعَارِي عَنْ شَهَادَةِ الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ عَدَمُ الْغُسْلِ وَالصَّلَاةِ،فَعُلِمَ أَنَّ الشَّهِيدَ قِسْمَانِ:شَهِيدٌ فِي الْآخِرَةِ دُونَ الدُّنْيَا وَهُوَ الْعَارِي عَنْ الضَّابِطِ الْمَذْكُورِ،وَشَهِيدٌ فِيهِمَا وَهُوَ مَنْ فِيهِ الضَّابِطُ الْمَذْكُورُ. نَعَمْ إنْ لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ إعْلَاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى،بَلْ تَحْصِيلَ الْكَسْبِ أَوْ الْمُفَاخَرَةَ،أَوْ لِيُقَالَ:إنَّهُ شُجَاعٌ مَثَلًا فَهُوَ وَشَهِيدٌ فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ فَهُوَ قِسْمٌ ثَالِثٌ. وَبَحَثَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ لَوْ عُلِمَ مِنْهُ ذَلِكَ وَجَبَ فِيهِ الْغُسْلُ،وَالصَّلَاةُ كَغَيْرِ الشَّهِيدِ فَرَاجِعْهُ. قَوْلُهُ:(كَالْغَرِيقِ) أَيْ وَإِنْ عَصَى فِيهِ بِنَحْوِ شُرْبِ خَمْرٍ. نَعَمْ يُسْتَثْنَى مِنْهُ مَنْ غَرِقَ بِسَيْرِ سَفِينَتِهِ وَفِي وَقْتِ هَيَجَانِ الْأَمْوَاجِ. قَوْلُهُ:(وَالْمَطْعُونِ) أَيْ الْمَيِّتُ بِالطَّاعُونِ وَلَوْ فِي غَيْرِ زَمَنِهِ،أَوْ بِغَيْرِهِ فِي زَمَنِهِ،أَوْ بَعْدَ زَمَنِهِ حَيْثُ كَانَ فِيهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا.....

---

266 – إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين (٢/ ١٢٤)

(وَالْمَيِّتِ عِشْقًا) أَيْ وَلَمْ يَتَسَبَّبْ فِيهِ كَمَا قَالَهُ شَيْخُنَا الرَّمْلِيُّ،وَلَمْ يَرْتَضِهِ شَيْخُنَا الزِّيَادِيُّ،وَسَوَاءٌ كَانَ لِمَنْ يَحْرُمُ عِشْقُهُ كَالْمُرْدِ أَوْ لَا،وَشَرْطُهُ أَنْ يَكْتُمَ وَيَعِفَّ عَمَّا يَحْرُمُ وَلَوْ بِنَحْوِ نَظَرٍ. قَوْلُهُ:(وَالْمَيِّتَةِ طَلْقًا) وَلَوْ مِنْ زِنًى مَا لَمْ تَتَسَبَّبْ فِي الْإِجْهَاضِ. قَوْلُهُ:(وَالْمَقْتُولُ ظُلْمًا) وَلَوْ بِحَسَبِ الْهَيْئَةِ كَمَا قِيلَ،وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ مَنْ مَاتَ فِي غُرْبَةٍ أَوْ بِهَدْمٍ أَوْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ. وَالْحَاصِلُ كَمَا قَالَهُ شَيْخُنَا الرَّمْلِيُّ:أَنَّهُ إنْ كَانَ سَبَبُ الْمَوْتِ مَعْصِيَةً كَشَرْقٍ بِشُرْبِ خَمْرٍ،أَوْ رُكُوبِ بَحْرٍ لِشُرْبِهِ،أَوْ تَسْيِيرِ سَفِينَةٍ فِي وَقْتِ رِيحٍ عَاصِفٍ كَمَا مَرَّ،أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَغَيْرُ شَهِيدٍ،وَإِلَّا فَشَهِيدٌ وَلَا يَضُرُّ مُقَارَنَةُ مَعْصِيَةٍ لَيْسَتْ سَبَبًا كَزِنًى وَنُشُوزٍ،وَإِبَاقٍ وَشُرْبِ خَمْرٍ كَرَاكِبِ سَفِينَةٍ لِغَيْرِ شُرْبِهِ فَتَأَمَّلْ"[٢٦٧].

فهنا نص الشافعية على أن قتيل المعركة شهيد،سواء قتل في معركة مع عدو كافر خارجي،أو بيد عدو داخلي ثبتت ردته وكفره،كحال طغاة العرب اليوم!

وقال في مطالب أولي النهى في فقه الحنابلة:(سِوَى (مَقْتُولٍ ظُلْمًا) كَمَنْ قَتَلَهُ نَحْوُ لِصٍّ أَوْ أُرِيدَ مِنْهُ الْكُفْرُ،فَقُتِلَ دُونَهُ،أَوْ أُرِيدَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ حُرْمَتِهِ فَقَاتَلَ دُونَ ذَلِكَ فَقُتِلَ لِحَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ مَرْفُوعًا " «مَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

وَلِأَنَّهُمْ مَقْتُولُونَ بِغَيْرِ حَقٍّ أَشْبَهُوا قَتْلَى الْكُفَّارِ فَلَا يُغَسَّلُونَ،بِخِلَافِ نَحْوِ الْمَبْطُونِ وَالْمَطْعُونِ وَالْغَرِيقِ وَنَحْوِهِمْ (وَلَوْ) كَانَ شَهِيدُ مَعْرَكَةٍ وَمَقْتُولٌ ظُلْمًا ")[٢٦٨].

وجاء في منار السبيل في فقه الحنابلة:(وشهيد المعركة لا يغسل،ولا يكفن،ولا يصلى عليه،لحديث جابر أن النبي ﷺ (أمر بدفن شهداء أحد في دمائهم ولم يغسلوا،ولم يصل عليهم) رواه البخاري. والمقتول ظلما لا يغسل،ولا يكفن،ولا يصلى عليه،لحديث سعيد بن زيد مرفوعا (من قتل دون دينه فهو شهيد،ومن قتل دون دمه فهو شهيد،ومن قتل دون ماله فهو شهيد) رواه أبو داود والترمذي وصححه،وعنه:يغسل ويصلى عليه،لأن ابن

---

267 – حاشية البجيرمي على شرح المنهج = التجريد لنفع العبيد (١/ ٤٨٧) وحاشيتا قليوبي وعميرة (١/ ٣٩٦)

268 – شرح منتهى الإرادات = دقائق أولي النهى لشرح المنتهى (١/ ٣٤٤) ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (١/ ٨٤٥)

الزبير غُسل وصلي عليه،فأما الشهيد بغير قتل كالمطعون والمبطون فيغسل لا نعلم فيه خلافا).

وفي فتاوى محمد بن إبراهيم مفتي المملكة الأسبق (الشهداء وأحكامهم:الشهداء أوصلهم بعض العلماء بالتتبع إلى نحو عشرين،لكنهم ينقسمون إلى أربعة أقسام:

قسم شهيد في الدنيا والآخرة:وهو قتيل المعركة الذي قتل صابرا لإعلاء كلمة الله،فهذا لا يغسل في الدنيا ولا يصلى عليه،لفعله ﷺ بقتلى أحد،وما جاء أنه صلى عليهم فلا يصح،وإن صح فليس معناه إلا الدعاء لهم في مصارعهم.

وشهيد في الدنيا فقط:وهو من قتل في المعركة،لكن نيته ليست في سبيل الله.

وشهيد في الآخرة فقط:وهو الذي قاتل في سبيل الله فقتل وتأخر موته،فيصلى عليه في الدنيا ويغسل..

والمقتول ظلما مثل شهيد المعركة في الأحكام الدنيوية،وكذلك في الأجر بالنسبة إلى مقامه فإنه شهيد في الدنيا والآخرة،أما بقية الشهداء – كالمبطون والمطعون والغريق والحريق الخ – فإن لهم أحكام الشهداء في الآخرة لا في الدنيا،فالواحد منهم يغسل ويصلى عليه)[٢٦٩].

فجعل الشيخ المقتول ظلما كشهيد المعركة في الحكم الدنيوي فلا يصلى يغسل ولا يصلى عليه ويدفن في ثيابه،وفي الحكم الأخروي والثواب يوم القيامة..

وقال ابن عثيمين في شرح الزاد:(وقوله:«ومقتول ظلماً»،أي:المقتول ظلماً لا يغسل أيضاً؛ لأن المقتول ظلماً شهيد،عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٧٠].

والصحيح أن المقتول ظلماً يغسل كغيره من الناس؛ لأنه داخل في عمومات الأدلة الدالة على وجوب الغَسْل،وهذه العمومات لا يمكن أن يخرج منها شيء إلاَّ ما دلّ الدليل عليه،وهو شهيد المعركة.

---

269 – فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (٣/ ١٨٦)

270 – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٠)(١٤٢١) صحيح

ولا يمكن أن يساوى المقتول ظلماً بشهيد المعركة،وإن كان يطلق عليه اسم شهيد،فالمطعون شهيد،والمبطون شهيد،والغريق شهيد،والحريق شهيد،وليس كل ما أطلق عليه اسم الشهيد يكون حكمه كشهيد المعركة؛ لأن شهيد المعركة مدَّ رقبته إلى عدوه ليقطعها في سبيل الله،والمقتول ظلماً أُكره على المقاتلة حتى قتل،فبينهما فرق عظيم.)[٢٧١].

فالشيخ ابن عثيمين يرجح كون القتيل ظلما يغسل ويصلَّى عليه كسائر الأموات،إلا أنه لا ينفي عنه اسم ووصف الشهادة الدنيوي وثوابها الأخروي لثبوتها له بنص الشارع!

فانظر كيف يطلق الفقهاء على أعيان قتلى المعركة اسم ووصف الشهيد،وكيف يجرون عليهم أحكاما خاصة بناء على هذا الوصف الشرعي،ومثلهم في الحكم القتيل ظلما خاصة من قتل دون حقه،بناء على إطلاق وصف الشهادة عليهم بأعيانهم!

خامساً – حكم أصحاب المعاصي إذا تحقق لهم وصف الشهادة:

لا فرق في هذه الأحكام بين قتلى المتظاهرين الصالح منهم وغير الصالح،كما نصَّ الفقهاء في شهداء المعركة،وهو ظاهر النصوص الشرعية حيث قالوا عن شهيد المعركة:هو كل قتيل من المسلمين في حرب مع عدوهم،صالحا كان أو فاسقا،سنيا كان أو بدعيا،(قالَ الزَّين بن المُنير:والمُراد بالشَّهيد قَتيل المَعرَكَة فِي حَرب الكُفّار انتَهَى. وكَذا المُراد بقَوله بَعد " مَن لَم يَرَ غُسل الشَّهيد " ولا فَرق فِي ذَلكَ بَين المَرأَة والرَّجُل صَغيرًا أَو كَبيرًا حُرًّا أَو عَبدًا صالحًا أَو غَير صالح،وخَرَجَ بقَوله:"المَعرَكَة " مَن جُرِحَ فِي القتال وعاشَ بَعد ذَلكَ حَياة مُستَقرَّة،وخَرَجَ بحَرب الكُفّار مَن ماتَ بقتال المُسلمينَ كَأَهلِ البَغي،وخَرَجَ بجَميعِ ذَلكَ مَن سُمِّيَ شَهيدًا بسَبَب غَير السَّبَب المَذكُور،وإنَّما يُقال لَهُ شَهيد بمَعنَى ثَواب الآخرَة،وهَذا كُلّه عَلَى الصَّحيح من مَذاهب العُلَماء.)[٢٧٢].

وجاء في رد المحتار في فقه الحنفية:(الْمَعْصِيَةُ هَلْ تُنَافِي الشَّهَادَةَ؟

---

271 – الشرح الممتع على زاد المستقنع (٥/ ٢٨٨)

272 – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (٣/ ٢٠٩)

ذَكَرَ الْأُجْهُورِيُّ قَالَ فِي الْعَارِضَةِ:مَنْ غَرِقَ فِي قَطْعِ الطَّرِيقِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَعَلَيْهِ إثْمُ مَعْصِيَتِهِ وَكُلُّ مَنْ مَاتَ بِسَبَبِ مَعْصِيَةٍ فَلَيْسَ بِشَهِيدٍ،وَإِنْ مَاتَ فِي مَعْصِيَةٍ بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الشَّهَادَةِ فَلَهُ أَجْرُ شَهَادَتِهِ وَعَلَيْهِ إثْمُ مَعْصِيَتِهِ،وَكَذَلِكَ لَوْ قَاتَلَ عَلَى فَرَسٍ مَغْصُوبٍ،أَوْ كَانَ قَوْمٌ فِي مَعْصِيَةٍ فَوَقَعَ عَلَيْهِمْ الْبَيْتُ فَلَهُمْ الشَّهَادَةُ،وَعَلَيْهِمْ إثْمُ الْمَعْصِيَةِ انْتَهَى.

ثُمَّ نَقَلَ عَنْ بَعْضِ شُيُوخِهِ أَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ شَرِقَ بِالْخَمْرِ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ لِأَنَّهُ مَاتَ فِي مَعْصِيَةٍ لَا بِسَبَبِهَا ثُمَّ نَظَرَ فِيهِ لِأَنَّهُ مَاتَ بِسَبَبِهَا لِأَنَّ الشَّرْقَةَ بِالْخَمْرِ مَعْصِيَةٌ لِأَنَّهَا شُرْبٌ خَاصٌّ. قَالَ:وَيُتَرَدَّدُ النَّظَرُ فِيمَنْ مَاتَتْ بِالْوِلَادَةِ مِنْ الزِّنَا فِي أَنَّ سَبَبَ السَّبَبِ هَلْ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ السَّبَبِ فَلَا تَكُونُ شَهِيدَةً أَمْ لَا وَالظَّاهِرُ الْأَوَّلُ. اهـ. وَجَزَمَ الرَّمْلِيُّ الشَّافِعِيُّ بِالثَّانِي،وَقَالَ:أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ لِمَعْصِيَةٍ أَوْ سَافَرَ آبِقًا أَوْ نَاشِزَةً،بِخِلَافِ مَا إذَا رَكِبَ الْبَحْرَ فِي وَقْتٍ لَا تَسِيرُ فِيهِ السُّفُنُ أَوْ تَسَبَّبَتْ امْرَأَةٌ فِي إلْقَاءِ حَمْلِهَا لِلْعِصْيَانِ بِالسَّبَبِ اهـ مُلَخَّصًا.

قُلْت:الَّذِي يَظْهَرُ تَقْيِيدُ رُكُوبِ الْبَحْرِ أَوْ السَّفَرِ بِمَا إذَا كَانَ لِغَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَإِلَّا كَانَ مَعْصِيَةً لِكَوْنِهِ سَبَبًا لِلْمَعْصِيَةِ،فَهُوَ كَمَنْ قَاتَلَ عَصَبِيَّةً. فَجُرِحَ ثُمَّ مَاتَ،فَالْمُنَاسِبُ مَا نَقَلَهُ عَنْ بَعْضِهِمْ مِنْ تَقْيِيدِ السَّفَرِ بِالْإِبَاحَةِ،وَاَللَّهُ أَعْلَمُ)[٢٧٣].

ولا يقتضي الحكم لمن سبق بالشهادة الدنيوية والأخروية القطع لهم بالجنة والشهادة لهم بها،إذ لا يعلم نياتهم وقبول أعمالهم إلا الله،قال الحافظ ابن حجر:" قَوله:"بابُ لا يُقالُ فُلانٌ شَهِيدٌ" أَي عَلَى سَبِيلِ القَطعِ بِذَلِكَ إلاَّ إن كانَ بالوحي.....

وعَلَى هَذا فالمُراد النَّهي عَن تَعيينِ وصفٍ واحِدٍ بِعَينِهِ بِأَنَّهُ شَهِيد بَل يَجُوزُ أَن يُقالَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الإِجمال.

وإن كانَ مَعَ ذَلِكَ يُعطَى حُكمَ الشُّهَداءِ فِي الأَحكامِ الظّاهِرَةِ ولِذَلِكَ أَطبَقَ السَّلَف عَلَى تَسمِيَةِ المَقتُولِينَ فِي بَدرٍ وأُحُد وغَيرِهِما شُهَداء.

والمُراد بِذَلِكَ الحُكمُ الظّاهِر المَبنِيّ عَلَى الظَّنِّ الغالِبِ واللَّهُ أَعلَمُ"[٢٧٤]..

---

273 – الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٢/ ٢٥٣)

274 – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (٦/ ٩٠)

وهكذا يقال في المقتول دون ماله وعرضه،والمقتول ظلما،لا فرق بين صالح وفاسق،بل كل من قتل مظلوما من المسلمين،فهو شهيد في أحكام الدنيا،وله أحكام الشهداء،وأما الآخرة فهو شهيد بحكم الظاهر،ولا يقطع له بالشهادة بالجنة،بل نرجو له ذلك!

فهذه أحكام شهداء الثورة العربية،على فرض أنهم لا يريدون إلا الدفاع عن حقوقهم،وعلى فرض أن السلطة شرعية،أما من قاتل منهم لتكون كلمة الله هي العليا فهذا أشرف أنواع الجهاد في سبيل الله،وهو أعلى درجة عند الله ممن قاتل فقط دفاعا عن نفسه وماله وأرضه،وإن كان كلاهما مجاهد وشهيد،وكما في الحديث الصحيح عن عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ،قالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى المِنْبَرِ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ،وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى،فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا،أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا،فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[٢٧٥]

وكما في الحديث الآخر عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ أَكْثَرَ شُهَدَاءِ أُمَّتِي أَصْحَابُ الْفُرُشِ،وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ»[٢٧٦].

وأحق هؤلاء بوصف الشهادة من قتل مظلوما بيد سلطان جائر،لقصده إقامة الحق والعدل،كما في الحديث عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[٢٧٧]

وجهاد أئمة الجور بالقول والفعل واجب حسب الاستطاعة كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ

---

275 – صحيح البخاري (١/ ٦)(١) وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٥)١٥٥ – (١٩٠٧)

276 – مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٣١٣)(٣٧٧٢) ومسند ابن أبي شيبة (١/ ٢٧٠)(٤٠٣) وفتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١/ ١١) وقال:ورجال سَنَده مُوثَّقُونَ.

277 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[٢٧٨]

وأحق منه بالشهادة من قام لإعلاء كلمة الله،فقتل مظلوما بيد الطاغوت وأئمة الطغيان ممن ثبتت ردتهم وزندقتهم!

ومما يؤكد ذلك إطباق الأمة على أن الحسين بن علي قتل مظلوما شهيدا،وكذا عبد الله بن الزبير،وكذا أهل الحرة،ودير الجماجم،وكذا أطلق الأئمة وصف الشهيد على كثير من العلماء والمصلحين،كالإمام أحمد بن نصر الخزاعي،وقد قال عنه الذهبي:(الإِمَامُ الكَبِيْرُ،الشَّهِيْدُ،أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بنُ نَصْرِ بنِ مَالِكِ بنِ الهيثَمِ الخُزَاعِيُّ،المَرْوَزِيُّ،ثُمَّ البَغْدَادِيُّ.

كَانَ جَدُّهُ أَحَدَ نُقَبَاءِ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ،وَكَانَ أَحْمَدُ أَمَّاراً بِالمَعْرُوْفِ،قَوَّالاً بِالْحَقِّ)[٢٧٩]

وكان قد خرج وأعد العدة،وبايعه الناس سرًّا على الأمر بالمعروف،وخلع الواثق العباسي،سنة ٢٣١هـ،فظفروا به،وامتحنه الواثق في خلق القرآن فلم يجبه،فأمر به وصلب،قَالَ المَرُّوْذِيُّ:سَمِعْتُ أَحْمَدَ ذَكَرَ أَحْمَدَ بنَ نَصْرٍ،فَقَالَ:رَحِمَهُ اللهُ،لَقَدْ جَادَ بِنَفْسِهِ[٢٨٠].

وقَالَ ابْنُ الجُنَيْدِ:سَمِعْتُ يَحْيَى بنَ مَعِيْنٍ يَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ،وَقَالَ:خَتَمَ اللهُ لَهُ بِالشَّهَادَةِ،قَدْ كَتَبْتُ عَنْهُ"[٢٨١]

سادساً- حكم خروج أهل الذمة على السلطة الجائرة:

إذا خرج أهل الذمة على سلطة أئمة الجور،فحكمهم حكم المسلمين الذين يخرجون على الظلمة من حيث حرمة قتالهم،إذا كانوا خرجوا لدفع الظلم عنهم!

---

278 - صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ - (٥٠)

279 - سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١١/ ١٦٦) وتاريخ الإسلام ت بشار (٥/ ٧٦٦)

280 - سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١١/ ١٦٨)

281 - سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١١/ ١٦٧)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"وَقَد اتَّفَقَت الصَّحَابَةُ عَلَى قِتَالِهِمْ،(الخوارج) وَلَا خِلَافَ بَيْنَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ مَعَ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ،مِثْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَكِنْ هَلْ يُقَاتَلُونَ مَعَ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ؟ فَنُقِلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُمْ لَا يُقَاتَلُونَ،وَكَذَلِكَ قَالَ فِيمَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ:لَا يُقَاتَلُونَ مَعَ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ،وَنُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي الْكُفَّارِ،وَهَذَا مَنْقُولٌ عَنْ مَالِكٍ وَبَعْضِ أَصْحَابِهِ،وَنُقِلَ عَنْهُ خِلَافُ ذَلِكَ،وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ،وَأَكْثَرُ أَصْحَابِهِ خَالَفُوهُ فِي ذَلِكَ،وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ،وَقَالُوا:يُغْزَى مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا إِذَا كَانَ الْغَزْوُ الَّذِي يَفْعَلُهُ جَائِزًا،فَإِذَا قَاتَلَ الْكُفَّارَ أَوِ الْمُرْتَدِّينَ أَوْ نَاقِضِي الْعَهْدِ أَوِ الْخَوَارِجَ قِتَالًا مَشْرُوعًا قُوتِلَ مَعَهُ،وَإِنْ قَاتَلَ قِتَالًا غَيْرَ جَائِزٍ لَمْ يُقَاتَلْ مَعَهُ،فَيُعَاوَنُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى،وَلَا يُعَاوَنُ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ،كَمَا أَنَّ الرَّجُلَ يُسَافِرُ مَعَ مَنْ يَحُجَّ وَيَعْتَمِرَ،وَإِنْ كَانَ فِي الْقَافِلَةِ مَنْ هُوَ ظَالِمٌ،فَالظَّالِمُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعَاوَنَ عَلَى الظُّلْمِ،لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَقُولُ:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [سُورَةُ الْمَائِدَةِ:٢].

وَقَالَ مُوسَى:{رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ} [سُورَةُ الْقَصَصِ:١٧].

وَقَالَ - تَعَالَى -:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [سُورَةُ هُودٍ:١١٣].

وَقَالَ - تَعَالَى -:{مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا} [سُورَةُ النِّسَاءِ:٨٥].

وَالشَّفِيعُ:الْمُعِينُ،فَكُلُّ مَنْ أَعَانَ شَخْصًا عَلَى أَمْرٍ فَقَدْ شَفَّعَهُ فِيهِ،فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعَانَ أَحَدٌ:لَا وَلِيُّ أَمْرٍ وَلَا غَيْرُهُ عَلَى مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَأَمَّا إِذَا كَانَ لِلرَّجُلِ ذُنُوبٌ،وَقَدْ فَعَلَ بِرًّا،فَهَذَا إِذَا أُعِينَ عَلَى الْبِرِّ،لَمْ يَكُنْ هَذَا مُحَرَّمًا،كَمَا لَوْ أَرَادَ مُذْنِبٌ أَنْ يُؤَدِّيَ زَكَاتَهُ،أَوْ يَحُجَّ،أَوْ يَقْضِيَ دُيُونَهُ،أَوْ يَرُدَّ بَعْضَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَظَالِمِ،أَوْ يُوصِيَ عَلَى بَنَاتِهِ - فَهَذَا إِذَا أُعِينَ عَلَيْهِ فَهُوَ إِعَانَةٌ عَلَى بِرٍّ وَتَقْوَى،لَيْسَ إِعَانَةً عَلَى إِثْمٍ وَعُدْوَانٍ،فَكَيْفَ الْأُمُورُ الْعَامَّةُ؟[٢٨٢].

ويتلخص من كل ما سبق بيانه ما يلي:

---

[282] - منهاج السنة النبوية (٦/ ١١٦) فما بعدها

أولا:مشروعية الثورة السلمية بل والثورة المسلحة على الأنظمة الطاغوتية التي تحكم الأمة اليوم،لعدم شرعيتها من جهة،ولطغيانها وحق الشعوب في تغييرها من جهة أخرى.

ثانيا:مشروعية التظاهرات السلمية الشعبية لمنع الظلم وتغيير المنكر،وهي تدخل في مفهوم اليد كما في الحديث الصحيح عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».[283]

فقدم الشارع التغيير باليد وهو الفعل،على التغيير باللسان والقول،واليد تصدق على القوة بكل صورها،ومنها القوة السياسية التي تستطيع الشعوب من خلالها الضغط على الحكومات وإسقاطها أو إصلاحها،أو كف ظلمها،والأخذ على يدها.

ثالثا:ومشروعية القتال دون الحقوق الدنيوية،إذا لم تستطع الأمة حماية حقوقها إلا بالقتال.

رابعا:وأن من يقتَل في هذه المظاهرات والثورات فهو شهيد،وله أحكام شهداء المعركة.

خامسا:وأنه لا فرق بين من خرج بشكل سلمي فقتل مظلوما،كما جرى في تونس ومصر واليمن وسوريا،ومن قاتل دون حقه وقتل،كما جرى في ليبيا،فكلاهما شهيد في حكم الدنيا والآخرة.

سادسا:وأنه لا فرق في وصف الشهادة وحكمها بين صالح وعاص،وسني وبدعي،إذا ثبت لهم سبب الشهادة ووصفها،لعموم النصوص،كشهداء المعركة،فإنه لا فرق بينهم بلا خلاف.

سابعا:وأن وصف الشهادة يطلق على الأعيان الذين أطلق عليهم الشارع هذا الوصف،ويبنى عليه أحكام محددة بحقهم،ومنهم المقتول ظلما،ومن قتل دون حقه!

ثامنا:وأن من خرج في التظاهرات بنية إقامة حكم الله وعدله فقُتل،فهو في سبيل الله،وهو أشرف وأعلى أنواع الشهادة!

---

283 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ – (٤٩)

تاسعا:وأنه يحرم القتال مع السلطة الجائرة فضلا عن الكافرة،ويحرم إعانتها إذا قاتلت من خرج عليها دفاعا عن حقه،ورفضا لظلمها،حتى وإن كان الخارج عليها غير مسلم،فيحرم إعانة السلطة عليه،كما نص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية،وهو مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد.

عاشرا:وأنه إذا جاز خروج غير المسلمين على الإمام الشرعي،لدفع جوره وظلمه عنهم،وإذا كان يحرم إعانة الجائر عليهم،بل ويجب إعانتهم على دفع الظلم عن أنفسهم،كما في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:" يَا هَذَا،اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ "،" ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ " {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المائدة:٧٩] "،ثُمَّ قَالَ:" كَلَّا وَاللهِ،لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا "[٢٨٤].

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[٢٨٥].

فمن باب أولى إذا خرج عليه المسلمون لدفع ظلمه،وحماية حقوقهم،فضلا عن السلطان إذا كان غير شرعي،أو كان طاغوتا يحكم بينهم بغير ما أنزل الله،فجهاده أوجب،ويحرم إعانته وطاعته،بل يجب الكفر به والبراءة منه،كما قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠].

---

284 – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٥٩)(٢٠١٩٦) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٥٢)(٣٠٤٨) حسن

285 – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٤٦٨)(٢١٦٩) حسن

ويجب قتاله وجهاده على من استطاعه كما قال تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦].[٢٨٦]

[286] http://www.mlfnt.com/do.php?id=٧٠٢٣٣٦

المبحث السادس عشر

شهداء الثورات العربية بين جرائم الطغاة وفتنة الدعاة

أولا–أسباب الكتابة في هذا الموضوع الجلل:

جاء في الحديث الصحيح عَنْ ثَوْبَانَ،أَنَّ نَبِيَّ اللَّه ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَأَعْطَانِي الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيُهْلِكَهُمْ،وَلَا يُلْبِسَهُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،إِنِّي إِذَا أَعْطَيْتُ عَطَاءً فَلَا مَرَدَّ لَهُ،إِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا يُهْلِكُوا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ،وَلَكِنْ أُلْبِسُهُمْ شِيَعًا،وَلَوِ اجْتُمِعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا،وَبَعْضُهُمْ يُفْنِي بَعْضًا،وَبَعْضُهُمْ يَسْبِي بَعْضًا،وَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي إِلَى التُّرْكِ،وَعِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَإِنَّ مِنْ أَخْوَفِ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ،وَإِنَّهُمْ إِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِيهِمْ لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي كَذَّابُونَ دَجَّالُونَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ،وَإِنِّي خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ،لَا نَبِيَّ بَعْدِي،وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّه»[٢٨٧].

وعَنْ أَبِي محْجَنٍ قَالَ:أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي ثَلَاثًا:حَيْفُ الْأَئِمَّةِ،وَإِيمَانٌ بِالنُّجُومِ،وَتَكْذِيبٌ بِالْقَدَرِ "[٢٨٨]

وعن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ اسْتَقْبَلَ بِي الشَّامَ وَوَلَّى ظَهْرِي الْيَمَنَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِي جعلت ما ورائك مَدَدًا لَكَ وَجَعَلْتُ مَا تِجَاهَكَ عِصْمَةً لَكَ وَرِزْقًا ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَزَالُ اللَّهُ يَزِيدُ الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ

---

287 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٥/ ١٠٩) (٦٧١٤) صحيح

288 – جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧٩٥)(١٤٨٢) حسن لغيره

وَيَقْبِضُ الشِّرْكَ وَأَهْلَهُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ بين النُّطْفَتَيْنِ لا يَخْشَى إِلا جَوْرًا يَعْنِي جَوْرَ السُّلْطَانِ.."[٢٨٩]

كنت أظن – وأكذب الحديث الظن – أن الخلاف في حكم قتلى الثورة العربية هو فقط في هل هم شهداء لهم أحكام الشهداء في الدنيا والآخرة؟ أم شهداء في حكم الآخرة فقط؟ أم ليسوا شهداء وإنما هم كسائر أموات المسلمين؟

و لم أتصور أن يصل الخلاف فيهم إلى ما هو أبعد من ذلك كأن يدعي أحد بأنهم خوارج وحرورية! وأن يدعي أحد أن ابن علي في تونس وبشار في سوريا والقذافي في ليبيا وحسني في مصر وعلي صالح في اليمن وأشباههم ولاة أمر تجب طاعتهم،وأن طاعتهم من طاعة الله ورسوله،ومن خرج عليهم ولو بشكل سلمي فيجب قتله وسفك دمه؟! ومن مات منهم مات ميتة جاهلية!

وحين يصل الخلاف إلى هذا الحد،وإلى حد تصور أن هؤلاء ولاة أمر شرعيون،وأن طاعتهم من طاعة الله ورسوله،وأنهم يدخلون في عموم قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩]،وليس في عموم قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة:٥١]،ولا في عموم {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠]!.

وحين تتزّل فيهم وعليهم نصوص السمع والطاعة،والصبر على جور أئمة المسلمين،فإن الموضوع حينئذ يخرج بنا عن مسألة القتلى وحكمهم،إلى مسألة أخرى أشد خطرا في الدين والاعتقاد تتمثل في:ما هو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ؟ وما حقيقة التوحيد الذي

289 – فضائل الشام للسمعاني (ص:٤٤)(١٧) صحيح لغيره

دعا إليه؟ وما هو الطاغوت الذي يجب الكفر به؟ وما هي الإمامة الشرعية التي يجب لها السمع والطاعة؟ ومتى تكون السلطة شرعية ومتى لا تكون؟...الخ

إلى عشرات الأسئلة التي هي مقدمات طبيعية لا يمكن فهم موضوع حكم شهداء الثورة ما لم يتم فهم تلك المقدمات! مع أن عامة المسلمين بفطرتهم السليمة لا يحتاجون إلى كل ذلك!

لقد جاءتني رسائل كثيرة من بعض الدعاة وطلبة العلم الشرعي يستشكلون بعض ما جاء من ردود على المقال،مع أن تلك الردود هي دليل أزمة فكرية تعيشها الأمة بسبب عجز دعاتها وعلمائها حين فاجأتهم الأحداث وتجاوزتهم،وإذا الأمة تشق طريقها نحو حريتها وكرامتها وإنسانيتها المسلوبة،بعد عقود من التيه،الذي لم يستطع الدعاة خلاله إخراجها مما هي فيه،بعد أن تحالف قسم كبير منهم في كل بلد مع نظامه وطاغوته على حساب حرية الأمة وكرامتها وحقوقها،فلم يأخذوا بالعزيمة ويجاهدوا الطاغوت،ولا هم اعتزلوه كما أمر الله بقوله:{ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]!

فلما مضت وحدها تدكُّ عروش الطغاة،وتنسفها في اليم نسفا،فتذرها قاعا صفصفا،فإذا أولئك المفتونون يحنُّون من حيث يشعرون أو لا يشعرون،إلى الطغاة وعهودهم،الذين أشربوا حبهم في قلوبهم واتخذوهم أندادا من دون الله،يوالون من يوالونهم،ويعادون من يعادونهم،فلم يجدوا لتبرير صمتهم طول هذه المدة،ولتبرير تخلفهم عن الوقوف مع الأمة في ثورتها ضد الظلم والاستبداد،وضد الفوضى والفساد،وضد الخيانة والعمالة التي تأباها كل شعوب الأرض على حكوماتها،إلا بادعاء أن الدين يمنعهم من ذلك!

وأن في أعناقهم بيعة لطواغيتهم! وأن من خرج عليهم فمات مات ميتة جاهلية!

وأن أهل السنة يحرمون الخروج..الخ!

فإذا الأمة بين طغيان الرؤساء الذين يقاتلونها،وفتنة الدعاة الذين يضلونها ويخذلونها!

ثانيا – **هل الحكومات العربية التي تحكم بالحديد والنار لها ولاية شرعية ؟**

وهل المقتول ظلما وفي المظاهرات ودون حقه ينطبق عليه أحكام الشهداء؟

والسؤال هنا هل هذه الحكومات العربية الإجرامية – **التي تحكم الأمة بالحديد والنار،بدعم من العدو الخارجي،الذي فرضها على الأمة** – لها ولاية شرعية؟ وإذا كانت كذلك فهل لها أن تقتل شعبها إذا خرج يدعوها بشكل سلمي إلى رفع الظلم عنه؟ وإذا كان لا يحق لها ذلك فما حكم من قتلته؟ وهل يصدق عليه أنه مقتول ظلما وبغيا أم لا؟ وهل يدخل في عموم النصوص التالية أم لا ؟

عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ سُوَيْدِ بْنِ مُقَرِّنٍ فَقَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[290]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[291]

لا خلاف بين الفقهاء في إثبات وصف الشهادة لـ:

١- المقتول ظلما،ممن خرج في المظاهرات يدعو إلى رفع الظلم،بشكل سلمي،و لم يقاتل،فقتل على يد السلطة،كما جرى في تونس ومصر واليمن وسوريا.

٢- والمقتول دون حقه،ممن قاتل دفعا لعدوان السلطة التي اعتدت عليه،كما جرى ويجري في ليبيا.

٣- والمقتول في المظاهرات،ممن خرج احتسابا وتغييرا للمنكر.

فكل هؤلاء شهداء،ويسمون شهداء،ويطلق على أعيانهم هذا الوصف كما تواترت به السنة،بلا خلاف بين الأئمة،وإنما اختلف الفقهاء في هل هم كشهداء المعركة لا يغسلون ولا يصلى عليهم،وهم الشهداء في حكم الدنيا والآخرة؟

أم يغسلون ويصلى عليهم كشهداء الغرق والحريق والطاعون ونحوهم ممن وردت السنة بإطلاق وصف الشهادة عليهم،وقد بلغ عددهم عند بعض الفقهاء عشرين صنفا،وهم الشهداء في حكم الآخرة،دون حكم الدنيا؟[292]

---

290 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٥)(٣٥٤٥) صحيح

291 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٢)(٣٥٣٦) صحيح

292 – للإمام السيوطي رحمه الله رسالة خاصة بشهداء غير المعركة

والفرق بين شهيد المعركة وشهيد الحريق ونحوه هو في أحكام الدنيا فقط،فشهيد المعركة لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ويدفن بلباسه،بخلاف شهيد الغرق والحريق والطاعون ونحوهم فإنهم شهداء إلا أنهم يغسلون ويكفنون ويصلَّى عليهم كسائر أموات المسلمين،وأما في حكم الآخرة فهم جميعا شهداء لهم الثواب الموعود للشهداء يوم القيامة،فلا يتعرضون لفتنة القبر ولا فتنة البرزخ ولا فتنة الحساب[293]،بل يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب،رحمة من الله بهم لما تعرضوا له من فتنة وتمحيص في الدنيا والوفاة بتلك الأسباب التي هي من أشد البلاء،ويختص شهداء المعركة عن باقي الشهداء بكونهم أحياء عند ربهم يرزقون،قال تعالى:{ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)} [آل عمران:١٦٩ - ١٧١]

وبأنهم أعلى درجة في منزلة الشهادة من غيرهم من الشهداء،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ)،قَالَ:«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَأَقَامَ الصَّلَاةَ،وَصَامَ رَمَضَانَ،كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَفَلاَ نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ:«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ،أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّ لِلظُّلْمِ أَثَرًا فِي الْحُكْمِ عَلَى الْمَقْتُولِ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ،وَيُقْصَدُ بِهِ غَيْرُ شَهِيدِ الْمَعْرَكَةِ مَعَ الْكُفَّارِ،وَمِنْ صُوَرِ الْقَتْلِ ظُلْمًا:قَتِيلِ اللُّصُوصِ وَالْبُغَاةِ وَقُطَّاعِ الطُّرُقِ،أَوْ مَنْ قُتِلَ مُدَافِعًا عَنْ نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ دَمِهِ أَوْ دِينِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،أَوْ مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَةٍ،أَوْ مَاتَ فِي السِّجْنِ وَقَدْ حُبِسَ ظُلْمًا. انظر: الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي – دار الفكر (٢/ ٦٩٩) والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٩/ ١٧٤) و فتاوى الزحيلي (٢/ ١٢١) وفتاوى الشبكة الإسلامية (١/ ١٧٥١) الفرق بين شهيد المعركة وغيره من الشهداء وفتاوى الشبكة الإسلامية (١١/ ١٢٦٤٢) شهداء الآخرة.. وهل يغفر للغريق الدين وفتاوى الشبكة الإسلامية (١١/ ١٢٦٥٣)شهداء غير المعركة وفتاوى الشبكة الإسلامية (١١/ ٢٠٧٧١)شهيد المعركة أكثر ثوابا من باقي أصناف الشهداء وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١٠/ ٣٨٢) حكم تغسيل ودفن الذي يقتل بين القبائل بدون ذنب وفتاوى موقع الألوكة (/ ١) متى يسمى القتيل شهيداً ؟ وفتاوى واستشارات الإسلام اليوم (٧/ ٣٥٩) فضل شهيد المعركة على غيره وموقع الإسلام سؤال وجواب (٥/ ٤٨١٦) هل المسلم المقتول ظلماً أو غدراً أو هدم عليه بيته يكون شهيداً؟

293 – عَنْ رَجُلٍ،مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ:«كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»السنن الكبرى للنسائي (٢/ ٤٧٤)(٢١٩١) صحيح

سَبِيلِه،كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ،فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ،فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ،وَأَعْلَى الجَنَّةِ،وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ،وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[294]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ):«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ،كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[295]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ):«مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ،وَآتَى الزَّكَاةَ،وَمَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا،كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ هَاجِرًا وَمَاتَ فِي مَوْلِدِه» فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَلَا نُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا بِهَا؟ فَقَالَ:«إِنَّ لِلْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ،بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ،أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ،وَلَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ،وَلَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا بَعْدِي،مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ،وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ»[296]

حتى أن شهيد المعركة يشفع في سبعين من أهله ممن وجبت لهم النار!

فعَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ):" لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ:يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ،وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ،وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ،وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ،الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ "[297]

فأكثر الفقهاء كأبي حنيفة والأوزاعي والشافعي وأحمد وهو مذهب الزيدية وغيرهم يرون بأن المقتول ظلما،والمقتول دون حقه،والمقتول لقيامه بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن

---

294 - صحيح البخاري (٩/ ١٢٥)(٧٤٢٣)

295 - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ١٠٤٤) صحيح

296 - سنن النسائي (٦/ ٢٠)(٣١٣٢) صحيح لغيره

297 - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٨٧)(١٦٦٣) صحيح

المنكر،لهم حكم شهيد المعركة في الدنيا والآخرة،وذهب مالك وغيره إلى أن لهم حكم شهيد الغرق والحريق.[٢٩٨]

فالخلاف بين الفقهاء ليس في تسميتهم شهداء ولا في ثوابهم في الآخرة،بل في حكمهم الدنيوي!

وإذا كان الخلاف له وجه في المقتول ظلما،والمقتول دون حقه،وأنه شهيد فقط في حكم الآخرة،فيطلق عليه وصف الشهادة في الدنيا والآخرة،إلا أنه يغسل ويصلى عليه كشهيد الغرق والحريق والهدم والمبطون الخ[٢٩٩].

فلا وجه للخلاف في المقتول بسبب تصديه للسلطان الجائر،فهو كشهيد المعركة سواء بسواء،للحديث الصحيح في مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[٣٠٠]

---

298 – قال الأستاذ عبد الرحمن بن غرمان بن عبد الله حفظه الله:"ذهب الجمهور،من الحنفية،والحنابلة،والصحيح من مذهب المالكية،وقول عند الشافعية:إلى أن مقتول الحربي بغير معركة:شهيد على الإطلاق،بأي صورة كان ذلك القتل،سواء كان غافلاً،أو نائماً،ناصبه القتال،أو لم يناصبه....

والذي يظهر لي – والله تعالى أعلم – رجحان قول الجمهور ؛ لأن اشتراط القتل في المعترك:ليس عليه دليل بيِّن" انتهى باختصار.انظر كتاب " أحكام الشهيد في الفقه الإسلامي " (١٠٣ – ١٠٦).

299 – ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ:إِلَى أَنَّ مَنْ قُتِلَ ظُلْمًا يُعْتَبَرُ شَهِيدَ الْآخِرَةِ فَقَطْ،لَهُ حُكْمُ شَهِيدِ الْمَعْرَكَةِ مَعَ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ،وَلَيْسَ لَهُ حُكْمُهُ فِي الدُّنْيَا،فَيُغَسَّلُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ .

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ فِي الْمَذْهَبِ:إِلَى أَنَّ مَنْ قُتِلَ ظُلْمًا فَهُوَ شَهِيدٌ يُلْحَقُ بِشَهِيدِ الْمَعْرَكَةِ فِي أَنَّهُ لاَ يُغَسَّلُ وَلاَ يُصَلَّى عَلَيْهِ،لِقَوْلِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ:يَقُولُ مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ " وَلأَنَّهُمْ مَقْتُولُونَ بِغَيْرِ حَقٍّ فَأَشْبَهُوا مَنْ قَتَلَهُمُ الْكُفَّارُ ".

الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٩/ ١٧٤) وحاشية ابن عابدين ١ / ٦١١،٦٠٨،مواهب الجليل ٢ / ٢٤٨،٢٤٧،المدونة ١ / ١٨٤،كشاف القناع ٢ / ١٠٠،الإنصاف ٢ / ٥٠٣،٥٠٢،٥٠١،مغني المحتاج ١ / ٣٥٠.وكشاف القناع ٢ / ١٠٠،والإنصاف ١ / ٥٠٣،٥٠٢،٥٠١.

300 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ – (٥٠)

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَــرْزِ،أَيُّ الْجِهَــادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٣٠١]

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ» [٣٠٢]الخ

فقد أثبتت هذه النصوص وغيرها كثير بأن القائم بالحق والآمر بالمعروف أمام الســلطان الجائر مجاهد في سبيل الله،بل هو أفضل الجهاد،فإن قتله فهو شهيد بل سيد الشهداء!

فمثل هذا لا يغسل ولا يصلَّى عليه على الصحيح،وإن غسل وصلي عليه فلا حرج.

ثالثا– أحوال المتظاهرين الذين خرجوا في الثوراة العربية:

وعند النظر في أحوال من خرجوا في الثورة العربية نجد أنهم لا يخرجــون عــن هــذه الأقسام بحسب الظاهر إما أنهم:

١– مظلومون ابتداء تعرضوا للظلم:

في أموالهم وأرزاقهم وحرياتهم وكرامتهم وأعراضهم فخرجوا يطالبون بحقوقهم بشــكل سلمي،و لم يقاتلوا ولا قصدوا القتال،فتم قتلهم أثناء ذلك ظلما وعدوانا من قبل الســلطة ورجالها،فيصدق فيهم ما جاء عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ "[٣٠٣]

وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ سُوَيْدِ بْنِ مُقَرِّنٍ فَقَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٣٠٤].

٢– أو مدافعون عن المظلومين:

وإن لم يقع عليهم ظلم مباشر،إلا أنهم خرجوا بشكل سلمي لنصرة المظلومين والــدفاع عنهم،وهؤلاء قاموا بالواجب الشرعي كما قال تعالى:{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَــا

---

301 – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣)(٧٧٨٦) صحيح

302 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) حسن لغيره

303 – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٢٣)(١٦٧٧٧) صحيح

304 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٥)(٣٥٤٥) صحيح

تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢]،وجاء في الصحيح عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا،فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ:«تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ»[٣٠٥]

وجاء في عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:" أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعٍ،وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ:أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ الجَنَائِزِ،وَعِيَادَةِ المَرِيضِ،وَإِجَابَةِ الدَّاعِي،وَنَصْرِ المَظْلُومِ،وَإِبْرَارِ القَسَمِ،وَرَدِّ السَّلاَمِ،وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ،وَنَهَانَا عَنْ:آنِيَةِ الفِضَّةِ،وَخَاتَمِ الذَّهَبِ،وَالحَرِيرِ،وَالدِّيبَاجِ،وَالقَسِّيِّ،وَالإِسْتَبْرَقِ "[٣٠٦]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسِقُونَ} [المائدة:٨١]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[٣٠٧]

---

305 – صحيح البخاري (٣/ ١٢٨)(٢٤٤٤)

306 – صحيح البخاري (٢/ ٧١)(١٢٣٩) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٣٥)٣ – (٢٠٦٦)

[ش (عيادة المريض) زيارته من العود وهو الرجوع. (إجابة الداعي) تلبية دعوة وليمة الزواج وهي واجبة إذا لم يكن هناك منكر لا يستطيع إزالته كاختلاط النساء بالرجال والضرب على آلات اللهو وربما كان من جملة المنكرات ما يفعله الناس أحيانا من الإسراف والتبذير مباهاة ومفاخرة. (إبرار القسم) من البر وهو خلاف الحنث والمعنى تصديق من أقسم عليك بفعل ما طلبه منك. (تشميت العاطس) تدعو له بالخير والبركة كأن تقول له يرحمك الله بعد حمده لله تعالى مشتق من الشوامت وهي القوائم فكأنه دعاء له بالثبات على طاعة الله عز وجل. (آنية الفضة) أي عن اقتنائها واستعمالها لما فيه من السرف والخيلاء ولا فرق في ذلك بين الرجال والنساء. (الديباج) الثياب المتخذة من الإبريسم وهو نوع من الحرير. (القسي) ثياب من كتان مخلوط بحرير. (الإستبرق) الثخين من الديباج والغليظ منه]

307 – سنن أبي داود (٤/ ١٢١)(٤٣٣٦) حسن لغيره

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّى أَرَاكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥] وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا عُمِلَ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي فَلَمْ يُغَيِّرُوا أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابٍ»[٣٠٨] الخ

فإن اعتدت السلطة عليهم،فقتلت أحدا منهم،فهو مقتول ظلما وعدوانا وبلا وجه حق بلا خلاف،وهو كشهيد المعركة عند الأكثر.

٣- أو مصلحون محتسبون خرجوا بشكل سلمي بنية إعلاء كلمة الله،وتغيير المنكر:

فيدخلون في عموم ما جاء عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ.[٣٠٩]

٤- أو مجاهدون خرجوا على طاغية فقاتلهم،فقاتلوه لدفع عدوانه:

فهم شهداء معركة بلا خلاف.

فهذه أحوال من خرجوا في الثورات العربية من حيث العموم[٣١٠]،فالمقتول منهم شهيد،سواء كان مقتولا دون حقه ظلما وعدوانا كالقسم الأول وهم الأكثر،أو مقتولا ظلما وعدوانا لنصرته المظلومين كالقسم الثاني،أو مقتولا لقيامه بإعلاء كلمة الله ونصرة دينه،وهم كثير من أهل الصلاح والفضل،ممن خرجوا في هذه الثورات نصرة لدين الله وتغييرا للمنكر،أو مقتولا في معركة مع جيش الطاغية فهو شهيد معركة،وإنما يبعثون يوم القيامة على نياتهم كما في الصحيح عن عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ،قالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى المِنْبَرِ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ،وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى،فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا،أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا،فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[٣١١]!

---

308 - السنن الواردة في الفتن للداني (٣/ ٧٠١)(٣٣٥) صحيح

309 - المستدرك على الصحيحين -دار المعرفة بيروت (٣/ ١٩٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

310 - المقصود بذلك قطعا المسلمون فقط

311 - صحيح البخاري (١/ ٦)(١)

رابعا– إذا كانت هذه الحكومات شرعية فيجب عليها إقامة العدل وإزالة الظلم:

وهذا التفصيل كله على فرض أن الحكومات العربية اليوم حكومات شرعية إسلامية لها ولاية على الأمة،فكان الواجب على السلطة في كل بلد – على فرض شرعيتها – أن تنصفهم وترفع الظلم عنهم،وأن تمنحهم حقهم،بما في ذلك حقهم في الشورى واختيار السلطة نفسها،وهو الحق الذي جعله الله لهم في قوله تعالى:{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨]،لا أن تقاتلهم وتقتلهم وتشنَّ الحروب عليهم كما في ليبيا وسوريا واليمن،وقد أجمع الفقهاء على أنه إذا خرجت خارجة على الإمام الشرعي،دعاهم للفيئة والرجوع،فإن ذكروا ظلما وقع عليهم،وجب عليه رفعه عنهم وإنصافهم،ويحرم قتالهم إذا لم ينصفهم كما ثبت عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ،عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي نَصْرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ فَذَكَرُوا أَهْلَ النَّهَرِ فَسَبَّهُمْ رَجُلٌ،فَقَالَ عَلِيٌّ:لاَ تَسُبُّوهُمْ،وَلَكِنْ إِنْ خَرَجُوا عَلَى إِمَامٍ عَادِلٍ فَقَاتِلُوهُمْ،وَإِنْ خَرَجُوا عَلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ،فَإِنَّ لَهُمْ بِذَلِكَ مَقَالاً.[٣١٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ،فَأَغْلَظَ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«دَعُوهُ،فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا»،ثُمَّ قَالَ:«أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِلَّا أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ،فَقَالَ:«أَعْطُوهُ،فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً»[٣١٣]

سادساً– صفات الإمام العادل:

والإمام العادل هو كل إمام اختارته الأمة بالشورى والرضا،واجتمع عليه المسلمون،ولم يظهر منه فجور ولا جور،فإذا أخذها بالسيف والقوة فهو **غير** جائر وإن كان من أهل الصلاح،كما ثبت عن عمر في صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كُنْتُ أُقْرِئُ رِجَالًا مِنَ

---

312 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (٢١/ ٤٤٦)(٣٩٠٧١) فيه مبهم،وقال عنه الدكتور حاكم:إسناده صحيح،وليس كذلك

313 – صحيح البخاري (٣/ ٩٩)(٢٣٠٦)

[ش (فأغلظ) شدد في المطالبة وأثقل بالقول. (فهم به) قصدوه ليؤذوه باللسان أو باليد. (مقالا) صولة الطلب وقوة الحجة. (أمثل) أفضل]

الْمُهَاجِرِينَ،مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ،فَبَيْنَمَا أَنَا فِي مَنْزِلِهِ بِمِنًى،وَهُوَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ،فِي آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّهَا،وفيه قال:إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ:وَاللَّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلاَنًا،فَلاَ يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ:إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وَتَمَّتْ،أَلاَ وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ،وَلَكِنَّ اللَّهَ وَقَى شَرَّهَا،وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ،مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلاَ يُبَايَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ..." [٣١٤]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:«مَنْ دَعَا إِلَى إِمَارَةِ نَفْسِهِ،أَوْ غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَقْتُلُوهُ» [٣١٥]

وكتب عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة إلى الحسن ابن أبى الحسن البصرىّ أن يكتب له بصفة الإمام العادل؛ فكتب إليه الحسن:اعلم يا أمير المؤمنين،أن الله جعل الإمام العادل قوام كلّ مائل،وقصد كل جائر،وصلاح كلّ فاسد،وقوّة كلّ ضعيف،ونصفة كلّ مظلوم،ومفزع كلّ ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله والحازم الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المراعى،ويذودها عن مراتع الهلكة،ويحميها من السباع،ويكنفها من أذى الحرّ والقرّ.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده،يسعى لهم صغارا،ويعلّمهم كبارا،يكسب لهم فى حياته،ويدّخر لهم بعد وفاته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأمّ الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها،حملته كرها،ووضعته كرها،وربّته طفلا،تسهر لسهره وتسكن لسكونه،وترضعه تارة وتفطمه أخرى،وتفرح بعافيته،وتغتّم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصىّ اليتامى،وخازن المساكين،يربّ صغيرهم،ويمون كبيرهم.

---

314 – صحيح البخاري (٨/ ١٦٩)(٦٨٣٠)

[ش أ(وقى شرها) حماهم وحفظهم من شر العجلة فيها. (من تقطع الأعناق إليه) أي أعناق الإبل من كثرة السير والمعنى ليس فيكم مثل أبي بكر رضي الله عنه في الفضل ولذلك مضت خلافته – على ما كان في بيعته من عجلة – بخير وسلامة فلا يطمعن أحد منكم في مثل ذلك. (تغرة أن يقتلا) تغرة مصدر غرر بنفسه تغريرا وتغرة إذا عرضها للهلاك أي خوفا من أن يقتل المبايع والمتابع..]

315 – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٤٥)(٩٧٥٩) والسنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٤٣)(١٠٦) حسن لغيره

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح،تصلح الجوارح بصلاحه،وتفسد بفساده. والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده،يسمع كلام الله ويسمعهم،وينظر إلى الله ويريهم،وينقاد لله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيّده واستحفظه ماله وعياله،فبدّد المال وشرّد العيال فأفقر أهله وأهلك ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجربها عن الخبائث والفواحش،فكيف [إذا أتاها من يليها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده،فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده،وقلّة أشياعك عنده وأنصارك عليه؛ فتزوّد له وما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك مترلا غير مترلك الذى أنت به،يطول فيه ثواؤك،ويفارقك أحبّاؤك،ويسلمونك فى قعره فريدا وحيدا؛ فتزوّد له ما يصحبك يوم يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه. واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور،وحصّل ما فى الصّدور؛ فالأسرار ظاهرة،والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها؛ فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل،قبل حلول الأجل،وانقطاع الأمل؛ لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين،ولا تسلك بهم سبيل الظالمين،ولا تسلّط المستكبرين على المستضعفين،فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلّا ولا ذمّة،فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك،وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك.

ولا يغرّنك الذين ينعمون بما فيه بؤسك،ويأكلون الطيّبات من دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك. ولا تنظرنّ إلى قدرك اليوم،ولكن انظر الى قدرك غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت،وموقوف بين يدى الله تعالى فى مجمع الملائكة والمرسلين،وقد عنت الوجوه للحيّ القيّوم. إنى يا أمير المؤمنين إن لم أبلغ فى عظتى ما بلغه أولو النّهى قبلى،فلم آلك شفقة ونصحا؛ فأنزل كتابى هذا إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له بذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته"[٣١٦]

316 – نهاية الأرب في فنون الأدب (٦/ ٣٧) زيادة مني

سادساً– لا يجوز إعانة الحاكم المسلم على الظلم:

فولاية مثل هؤلاء الذين يغتصبون السلطة بالقوة ليست شرعية،بل ولاية قهرية بحكم الواقع لا بحكم الشارع،ولها أحكامها الاضطرارية كما فصلته في (**تحرير الإنسان**)![317]

فإذا قويت الأمة على الأخذ على أيديهم،ورد باطلهم،فلها ذلك!

وكان الإمام مالك إذا سئل عن القتال مع الخلفاء في عصره ضد من خرج عليهم يقول:(إن كان الخليفة كعمر بن عبد العزيز فقاتل معه،وإن كان كمثل هؤلاء الظلمة،فلا تقاتل معهم).[318]

لأنه لا يرى لهم ولاية شرعية تقتضي وجوب السمع والطاعة لهم والقتال معهم ضد من خرج عليهم!

وقد سئل عن خروج محمد ذو النفس الزكية على أبي جعفر المنصور مع أنه أخذ البيعة من أهل المدينة،فقال الإمام مالك:(إِنَّ فِي أَعْنَاقِنَا بَيْعَةً لِلْمَنْصُورِ،فَقَالَ:إِنَّمَا بَايَعْتُمْ مُكْرَهِينَ وَلَيْسَ عَلَى مُكْرَهٍ يَمِينٌ،فَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَى مُحَمَّدٍ وَلَزِمَ مَالِكٌ بَيْتَهُ.)[319]

وسئل الإمام مالك أيضا عن الوالي إذا قام عليه قائم يريد إزالة ما بيده:هل يجب الدفع عنه؟ فقال:(أما مثل عمر بن عبد العزيز فنعم،وأما غيره فلا ودعه وما يريد،فينتقم الله من ظالم بظالم،ثم ينتقم الله منهما جميعا).

وقال مالك أيضا:(إذا بايع الناس رجلا بالإمارة ثم قام آخر فدعا إلى بيعته فبايعه بعضهم أن المبايع الثاني يقتل إذا كان الإمام عدلا،فإن كان مثل هؤلاء فلا بيعة له تلزم،إذا كانت بيعتهم على الخوف،والبيعة للثاني إن كان عدلا،وإلا فلا بيعة له تلزم).[320]

---

317 – يمكن تحميله من هنا:

http://www.pdfshere.com/up/index.php?action=viewfile&id=١٠٧٣

318 – انظر تبصرة الحكام ٢/٩٦.

319 – السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي (ص:٣٥٨) والكامل في التاريخ (٥/ ١١١) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٨/ ٦٤) وتاريخ ابن خلدون (٣/ ٢٤٠) وتاريخ الإسلام ت بشار (٣/ ٧٨٣) وتاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٧/ ٥٦٠)

320 – العقد المنظم بحاشية تبصرة الحكام ٢/١٩٥ – ١٩٧.

فأبطل الإمام مالك بيعة من أكره الناس على بيعته وأخذ السلطة بالقوة،وأبطل ولايته،وإنما ولايته على الناس ولاية جبرية قهرية بحكم الواقع لا بحكم الشارع،ولها أحكام الاضطرار،فإن قام عدل ينازعه فالبيعة للعدل!

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (وَقَدِ اتَّفَقَتِ الصَّحَابَةُ عَلَى قِتَالِهِمْ،(الخوارج) وَلَا خِلَافَ بَيْنَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ مَعَ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ،مِثْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَكِنْ هَلْ يُقَاتَلُونَ مَعَ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ؟ فَنُقِلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُمْ لَا يُقَاتَلُونَ،وَكَذَلِكَ قَالَ فِيمَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ:لَا يُقَاتَلُونَ مَعَ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ،وَنُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي الْكُفَّارِ،وَهَذَا مَنْقُولٌ عَنْ مَالِكٍ وَبَعْضِ أَصْحَابِهِ،وَنُقِلَ عَنْهُ خِلَافُ ذَلِكَ،وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ،وَأَكْثَرُ أَصْحَابِهِ خَالَفُوهُ فِي ذَلِكَ،وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ،وَقَالُوا:يُغْزَى مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا إِذَا كَانَ الْغَزْوُ الَّذِي يَفْعَلُهُ جَائِزًا،فَإِذَا قَاتَلَ الْكُفَّارَ أَوِ الْمُرْتَدِّينَ أَوْ نَاقِضِي الْعَهْدِ أَوِ الْخَوَارِجَ قِتَالًا مَشْرُوعًا قُوتِلَ مَعَهُ،وَإِنْ قَاتَلَ قِتَالًا غَيْرَ جَائِزٍ لَمْ يُقَاتَلْ مَعَهُ،فَيُعَاوَنُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى،وَلَا يُعَاوَنُ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ،كَمَا أَنَّ الرَّجُلَ يُسَافِرُ مَعَ مَنْ يَحُجَّ وَيَعْتَمِرَ،وَإِنْ كَانَ فِي الْقَافِلَةِ مَنْ هُوَ ظَالِمٌ.

فَالظَّالِمُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعَاوَنَ عَلَى الظُّلْمِ،لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَقُولُ:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [سُورَةُ الْمَائِدَةِ:٢])[321]

فالإمام مالك - إمام أهل السنة في عصره - لا يرى القتال مع أئمة الجور من خلفاء المسلمين حتى لو خرج عليهم أهل الذمة إذا وقع عليهم ظلم!

أما الجمهور فذهبوا إلى أنه لا يحرم القتال مع الإمام الجائر بشرط أن يكون القتال نفسه مشروعا،كأن يجاهد العدو الحربي،أو يقاتل قطاع الطريق،أما إذا كان يقاتل من خرجوا عليه بسبب ظلمه لهم،و لم ينصفهم،فإنه يحرم إعانة الجائر عليهم بالإجماع،سواء كان يقاتل الخوراج أو أهل الذمة أو غيرهم!

قال ابن حزم (قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:وَأَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ الْأَحْوَلُ أَنَّ ثَابِتًا مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخْبَرَهُ،قَالَ:لَمَّا كَانَ بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،وَبَيْنَ عَنْبَسَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ

321 - منهاج السنة النبوية (٦/ ١١٦)

مَا كَانَ وَتَيَسَّرُوا لِلْقِتَالِ رَكِبَ خَالِدُ بْنُ الْعَاصِ - هُوَ ابْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيّ - إلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَوَعَظَهُ،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ «مَنْ قُتِلَ عَلَى مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:فَهَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بَقِيَّةُ الصَّحَابَةِ وَبِحَضْرَةِ سَائِرِهِمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - يُرِيدُ قِتَالَ عَنْبَسَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ عَامِلِ أَخِيهِ مُعَاوِيَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إذْ أَمَرَهُ بِقَبْضِ " الْوَهْطِ " وَرَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أَنَّ أَخْذَهُ مِنْهُ غَيْرُ وَاجِبٍ،وَمَا كَانَ مُعَاوِيَةُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لِيَأْخُذَ ظُلْمًا صُرَاحًا،لَكِنْ أَرَادَ ذَلِكَ بِوَجْهٍ تَأَوَّلَهُ بِلَا شَكٍّ،وَرَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِحَقٍّ،وَلَبِسَ السِّلَاحَ لِلْقِتَالِ،وَلَا مُخَالِفَ لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَهَكَذَا جَاءَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ،وَالشَّافِعِيِّ،وَأَبِي سُلَيْمَانَ،وَأَصْحَابِهِمْ:أَنَّ الْخَارِجَةَ عَلَى الْإِمَامِ إذَا خَرَجَتْ سُئِلُوا عَنْ خُرُوجِهِمْ؟ فَإِنْ ذَكَرُوا مَظْلَمَةً ظُلِمُوهَا أُنْصِفُوا،وَإِلَّا دُعُوا إلَى الْفَيْئَةِ،فَإِنْ فَاءُوا فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِمْ،وَإِنْ أَبَوْا قُوتِلُوا،وَلَا نَرَى هَذَا إلَّا قَوْلَ مَالِكٍ أَيْضًا.

فَلَمَّا اخْتَلَفُوا كَمَا ذَكَرْنَا وَجَبَ أَنْ نَرُدَّ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ إلَى مَا افْتَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا الرَّدَّ إلَيْهِ،إذْ يَقُولُ تَعَالَى {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء:٥٩].

فَفَعَلْنَا:فَلَمْ نَجِدْ اللَّهَ تَعَالَى فَرَّقَ فِي قِتَالِ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ عَلَى الْأُخْرَى بَيْنَ سُلْطَانٍ وَغَيْرِهِ،بَلْ أَمَرَ تَعَالَى بِقِتَالِ مَنْ بَغَى عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ - عُمُومًا - حَتَّى يَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم:٦٤] وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» أَيْضًا - عُمُومٌ - لَمْ يَخُصَّ مَعَهُ سُلْطَانًا مِنْ غَيْرِهِ،وَلَا فَرْقَ فِي قُرْآنٍ،وَلَا حَدِيثٍ،وَلَا إجْمَاعٍ وَلَا قِيَاسٍ:بَيْنَ مَنْ أُرِيدَ مَالُهُ،أَوْ أُرِيدَ دَمُهُ،أَوْ أُرِيدَ فَرْجُ امْرَأَتِهِ،أَوْ أُرِيدَ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ.وَفِي الْإِطْلَاقِ عَلَى هَذَا هَلَاكُ الدِّينِ وَأَهْلِهِ،وَهَذَا لَا يَحِلُّ بِلَا خِلَافٍ - وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.)[٣٢٢]

وقال ابن تيمية أيضا (مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ،وَقَالُوا:يُغْزَى مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا إذَا كَانَ الْغَزْوُ الَّذِي يَفْعَلُهُ جَائِزًا،فَإِذَا قَاتَلَ الْكُفَّارَ أَوِ الْمُرْتَدِّينَ أَوْ نَاقِضِي الْعَهْدِ أَوِ الْخَوَارِجَ قِتَالًا مَشْرُوعًا قُوتِلَ مَعَهُ،وَإِنْ قَاتَلَ قِتَالًا غَيْرَ جَائِزٍ لَمْ يُقَاتَلْ مَعَهُ،فَيُعَاوَنُ

322 - المحلى بالآثار (١١/ ٣٣٦)

عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى،وَلَا يُعَاوَنُ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ،كَمَا أَنَّ الرَّجُلَ يُسَافِرُ مَعَ مَنْ يَحُجَّ وَيَعْتَمِرَ،وَإِنْ كَانَ فِي الْقَافِلَةِ مَنْ هُوَ ظَالِمٌ.

فَالظَّالِمُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعَاوَنَ عَلَى الظُّلْمِ،لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَقُولُ:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [سُورَةُ الْمَائِدَةِ:٢].

وَقَالَ مُوسَى:{رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}[سُورَةُ الْقَصَصِ:١٧].

وَقَالَ - تَعَالَى -:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [سُورَةُ هُودٍ:١١٣].

وَقَالَ - تَعَالَى -:{مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا} [سُورَةُ النِّسَاءِ:٨٥].

وَالشَّفِيعُ:الْمُعِينُ،فَكُلُّ مَنْ أَعَانَ شَخْصًا عَلَى أَمْرٍ فَقَدْ شَفَّعَهُ فِيهِ،فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعَانَ أَحَدٌ:لَا وَلِيُّ أَمْرٍ وَلَا غَيْرُهُ عَلَى مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.")[323]

وهذا بإجماع الفقهاء،فالسلطة الشرعية لا تعان على الظلم والإثم بأي حال من الأحوال،فإذا قاتلت السلطة الشرعية طائفة من الأمة ظلما وعدوانا،فللطائفة الدفع عن نفسها،وكان الواجب كما قال تعالى:{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات:٩]،ولهذا رضي علي بالتحكيم مع كونه إماما شرعيا،إلا أنه لما دعوه إلى الصلح أجاب إليه كما أمر الله بذلك المؤمنين إذا اقتتلوا،ورأى علي أن الآية عامة في السلطان وغيره!

فإذا افترضنا جدلا أن الحكومات العربية حكومات شرعية فالواجب عليها إنصاف شعوبها المظلومة،فإن قاتلت الحكومات شعوبها ظلما وعدوانا،وردوا عدوانها،فقتيل الطائفة المظلومة شهيد،والواجب الدعوة إلى الصلح والحكم بينهم بما أنزل الله،ومن ذلك حكم الله في الشورى وحق الأمة بأن لا يحكمها إلا من اختارته بالرضا،فإن أبت السلطة ذلك وبغت وعادت للقتال،فيجب على الأمة نصرة الطائفة المبغي عليها:{فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ }!

---

323 - منهاج السنة النبوية (٦/ ١١٦)

وعلى فرض أن المتظاهرين سلميا بغاة على السلطة،فإن الله لم يأمر بقتالهم مباشرة،بل أمر بالصلح معهم بالحق والعدل،فإن رفضوا الصلح والحكم بالعدل وبغوا وجب قتالهم،وكذلك السلطة إن رفضت الصلح وبغت عليهم وجب قتالها حتى تفيء إلى أمر الله كما هو نص الآية،قال شيخ الإسلام ابن تيمية (فَلَمْ يَأْمُرْ بِقِتَالِ الْبَاغِيَةِ ابْتِدَاءً.فَالاقْتِتَالُ ابْتِدَاءً لَيْسَ مَأْمُورًا به؛ وَلَكِنْ إذَا اقْتَتَلُوا أَمَرَ بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ؛ ثُمَّ إنْ بَغَتْ الْوَاحِدَةُ قُوتِلَتْ؛ وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ الْفُقَهَاءِ:إنَّ الْبُغَاةَ لَا يَبْتَدِئُونَ بِقِتَالِهِمْ حَتَّى يُقَاتِلُوا. وَأَمَّا الْخَوَارِجُ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - فِيهِمْ:«أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَقَالَ:«لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

وَكَذَلِكَ مَانِعُوا الزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الصِّدِّيقَ وَالصَّحَابَةَ ابْتَدَءُوا قِتَالَهُمْ،قَالَ الصِّدِّيقُ:وَاَللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - لَقَاتَلْتهمْ عَلَيْهِ. وَهُمْ يُقَاتَلُونَ إذَا امْتَنَعُوا مِنْ أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَإِنْ أَقَرُّوا بِالْوُجُوبِ.)[٣٢٤].

وقال أيضا (فَإِنْ كَانَتْ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ تَبْغِي بِأَنْ تَمْتَنِعَ عَنْ الْعَدْلِ الْوَاجِبِ،وَلَا تُجِيبَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَتُقَاتِلُ عَلَى ذَلِكَ أَوْ تَطْلُبُ قِتَالَ الْأُخْرَى وَإِتْلَافَ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ،كَمَا جَرَتْ عَادَتُهُمْ بِهِ؛ فَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى كَفِّهَا إلَّا بِالْقَتْلِ قُوتِلَتْ حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ؛ وَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ تُلْزَمَ بِالْعَدْلِ بِدُونِ الْقِتَالِ مِثْلُ أَنْ يُعَاقَبَ بَعْضُهُمْ،أَوْ يَحْبِسَ؛ أَوْ يَقْتُلَ مَنْ وَجَبَ قَتْلُهُ مِنْهُمْ،وَنَحْوُ ذَلِكَ:عَمِلَ ذَلِكَ،وَلَا حَاجَةَ إلَى الْقِتَالِ.)[٣٢٥].

سابعاً – إذا كانت السلطة غير شرعية فيجب الخروج عليها:

أما إذا كانت السلطة غير شرعية أصلا،أو ثبت ردتها،كحال أكثر الحكومات العربية اليوم – التي لا تحكم أصلا بالإسلام،ولا تلتزم بقطعيات الأحكام،وتستحل المحرمات القطعية بقوانينها الوضعية،وهي في حكم الطائفة الممتنعة عن الالتزام بالشرائع،كما قال شيخ الإسلام في أمثالها من الطوائف التي أقامت لها دول كالقرامطة في المشرق والعبيدية

---

324 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٤٤٦) والمنتخب من كتب شيخ الإسلام (ص:١٥٨) ومجموع الفتاوى (٣٥/ ٥٧)

325 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٤٦٥) ومجموع الفتاوى (٣٥/ ٨٦)

في المغرب،مما يوجب على الأمة جهادها حال القدرة – فالأمر هنا يختلف،ويكون كل مقتول بيدها ممن خرج عليها من المسلمين شهيد كشهيد المعركة سواء بسواء!

قال ابن تيمية رحمه الله:" يَجِبُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ قِتَالُ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ مُمْتَنِعَةٍ عَنْ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ،مِثْلُ الطَّائِفَةِ الْمُمْتَنِعَةِ عَنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ أَوْ عَنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ إلَى الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ الَّتِي سَمَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ،وَعَنْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ أَوْ الَّذِينَ لَا يَمْتَنِعُونَ عَنْ سَفْكِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ،أَوْ لَا يَتَحَاكَمُونَ بَيْنَهُمْ بِالشَّرْعِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ،كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – فِي مَانِعِ الزَّكَاةِ،وَكَمَا قَاتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُ النَّبِيِّ – ﷺ – الْخَوَارِجَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ النَّبِيُّ:«يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ،أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» () وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة:١٩٣] (). وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٧٨] {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩] (). وَالرِّبَا آخِرُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ تَحْرِيمًا. وَيُدْعَوْنَ قَبْلَ الْقِتَالِ إلَى الْتِزَامِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،فَإِنْ الْتَزَمُوهَا اسْتَوْثَقَ مِنْهُمْ،وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِمُجَرَّدِ الْكَلَامِ كَمَا فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ بِمَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَذَلَّهُمْ،وَقَالَ اخْتَارُوا إمَّا الْحَرْبَ وَإِمَّا السِّلْمَ الْمُخْزِيَةَ،وَقَالَ أَنَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالُوا هَذِهِ حَرْبُ الْحِيلَةِ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ،قَالَ تَشْهَدُونَ أَنَّ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ وَنَنْزِعُ مِنْكُمْ الْكُرَاعَ يَعْنِي الْخَيْلَ وَالسِّلَاحَ،حَتَّى يَرَى خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَالْمُؤْمِنُونَ أَمْرًا بَعْدُ،فَهَكَذَا الْوَاجِبُ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ،إذَا أَظْهَرُوا الطَّاعَةَ يُرْسَلُ إلَيْهِمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ وَيُقِيمُ بِهِمْ الصَّلَوَاتِ،وَمَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،وَإِمَّا أَنْ يَسْتَخْدِمَ بَعْضَ الْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ فِي جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ،وَيَجْعَلَهُمْ فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَّا بِأَنْ يَنْزِعَ مِنْهُمْ السِّلَاحَ الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ وَيُمْنَعُونَ مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ،وَإِمَّا

أَنَّهُمْ يَضَعُونَهُ حَتَّى يَسْتَقِيمُوا،وَإِمَّا أَنْ يَقْبَلَ الْمُمْتَنِعُ مِنْهُمْ الْتِزَامَ الشَّرِيعَةِ،وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ،وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.."[٣٢٦]

وقال أيضاً:" وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ إذَا امْتَنَعَتْ عَنْ بَعْضِ وَاجِبَاتِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ،فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا إذَا تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ،وَامْتَنَعُوا عَنْ الصَّلَاةِ،وَالزَّكَاةِ،أَوْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ،أَوْ حَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ،أَوْ عَنْ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،أَوْ عَنْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ،أَوْ الْخَمْرِ،أَوْ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ،أَوْ عَنْ اسْتِحْلَالِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ،أَوْ الرِّبَا،أَوْ الْمَيْسِرِ،أَوْ الْجِهَادِ لِلْكُفَّارِ،أَوْ عَنْ ضَرْبِهِمْ الْجِزْيَةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،فَإِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ."[٣٢٧]

قال في مغني المحتاج في فقه الشافعية في تعريف الشهيد ((وَهُوَ) أَيْ الشَّهِيدُ الَّذِي يَحْرُمُ عَلَيْهِ غُسْلُهُ وَالصَّلَاةُ عَلَيْهِ،ضَابِطُهُ أَنَّهُ كُلُّ (مَنْ مَاتَ) وَلَوْ امْرَأَةً أَوْ رَقِيقًا أَوْ صَغِيرًا أَوْ مَجْنُونًا (فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ) أَوْ الْكَافِرِ الْوَاحِدِ،سَوَاءٌ أَكَانُوا حَرْبِيِّينَ أَمْ مُرْتَدِّينَ أَمْ أَهْلَ ذِمَّةٍ،قَصَدُوا قَطْعَ الطَّرِيقِ عَلَيْنَا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ (بِسَبَبِهِ) أَيْ الْقِتَالِ سَوَاءٌ قَتَلَهُ كَافِرٌ،أَمْ أَصَابَهُ سِلَاحُ مُسْلِمٍ خَطَأً،أَمْ عَادَ إلَيْهِ سِلَاحُهُ،أَمْ تَرَدَّى فِي بِئْرٍ أَوْ وَهْدَةٍ،أَمْ رَفَسَتْهُ دَابَّتُهُ فَمَاتَ،أَمْ قَتَلَهُ مُسْلِمٌ بَاغٍ اسْتَعَانَ بِهِ أَهْلُ الْحَرْبِ كَمَا شَمِلَهُ قِتَالُ الْكُفَّارِ،أَمْ قَتَلَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْحَرْبِ حَالَ انْهِزَامِهِمْ انْهِزَامًا كُلِّيًّا بِأَنْ تَبِعَهُمْ فَكَرُّوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ وَإِنْ لَمْ تَشْمَلْهُ عِبَارَةُ الْمُصَنِّفِ أَوْ اتِّبَاعُهُ لَهُمْ لِاسْتِئْصَالِهِمْ،فَكَأَنَّهُ قُتِلَ فِي حَالِ الْقِتَالِ،أَمْ قَتَلَهُ الْكُفَّارُ صَبْرًا،أَمْ انْكَشَفَتْ الْحَرْبُ عَنْهُ وَلَمْ يُعْلَمْ سَبَبُ قَتْلِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَثَرُ دَمٍ؛ لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ مَوْتَهُ بِسَبَبِ الْقِتَالِ كَمَا جَزَمَا بِهِ.)![٣٢٨]

---

326 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٤٧٣)

327 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٥٧) كلاهما زيادة مني

328 – مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٢/ ٣٤)

وفي حاشية قليوبي وعميرة في فقه الشافعية تعريف الشهيد بأنه قتيل المسلمين (قَوْلُهُ:(فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ) أَيْ فِي مُحَارَبَةِ كَافِرٍ وَلَوْ وَاحِدًا أَوْ مُرْتَدًّا،أَوْ فِي قَطْعِ طَرِيقٍ أَوْ فِي صِيَالٍ،أَوْ قَتَلَهُ كَافِرٌ اسْتَعَانَ بِهِ الْبُغَاةُ،وَكَذَا عَكْسُهُ بِأَنْ قَتَلَهُ بَاغٍ اسْتَعَانَ بِهِ كَافِرٌ "[329]

فإذا قامت سلطة ثبتت ردتها،وظهر كفرها،وشنت حربها على شعبها،فكل قتيل من المسلمين بيدها شهيد بلا خلاف.

وإذا خرجت الأمة في ثورة سلمية أو مسلحة على سلطة غير إسلامية،أو سلطة ثبتت ردتها عن الإسلام،فجرى بينها وبين الأمة قتال،فالمقتول من المسلمين شهيد معركة عند الشافعية وغيرهم،وهو من أشرف أنواع الجهاد في سبيل الله،إذ دفع المرتد الداخلي عن الولاية على الأمة أوجب من دفع الحربي الخارجي بلا خلاف!

ثامناً– في بيان معنى أحاديث السمع والطاعة:

وأما الاحتجاج بأحاديث السمع والطاعة وبحديث سُبَيْعِ بْنِ خَالِدٍ،قَالَ:غَلَتِ الدَّوَابُّ فَأَتَيْنَا الْكُوفَةَ نَجْلِبُ مِنْهَا دَوَابَّ فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَجُلٌ صَدَعٌ مِنَ الرِّجَالِ حَسَنُ الثَّغْرِ يُعْرَفُ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الْحِجَازِ وَإِذَا نَاسٌ مُشْرَئِبُّونَ عَلَيْهِ فَقَالَ:لاَ تَعْجَلُوا عَلَيَّ أُحَدِّثْكُمْ،فَإِنَّا كُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ فَإِذَا أَمْرٌ لَمْ أَرَ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَكَانَ اللَّهُ رَزَقَنِي فَهْمًا فِي الْقُرْآنِ وَكَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ شَرٌّ ؟ قَالَ:نَعَمْ،قُلْتُ:فَمَا الْعِصْمَةُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ:السَّيْفُ،قُلْتُ:فَهَلْ لِلسَّيْفِ مِنْ بَقِيَّةٍ ؟ فَمَا يَكُونُ بَعْدَهُ ؟ قَالَ:تَكُونُ هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ،قَالَ:قُلْتُ:فَمَا يَكُونُ بَعْدَ الْهُدْنَةِ ؟ قَالَ:دُعَاةُ الضَّلاَلَةِ فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً فَالْزَمْهُ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ وَإِنْ لَمْ تَرَ خَلِيفَةً فَاهْرُبْ حَتَّى

---

[329] – حاشيتا قليوبي وعميرة (١/ ٣٩٦) وحاشية البجيرمي على شرح المنهج = التجريد لنفع العبيد (١/ ٤٨٧)

يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ:الدَّجَّالُ."[330]

لتحريم هذه الثورة،فباطل من وجوه:

١- إن حقيقة دين الإسلام وغايته أن تكون الطاعة لله وحده:

وطاعة من سواه تبع لطاعته،كما قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ } [النساء:٦٤]،وكما قال تعالى:{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦]،بمعنى لآمرهم فيطيعون،كما قال المفسرون،فلا طاعة لغير الله،ولا سمع لمن خالف أمره وشرعه ودينه،فهذا من توحيد الله جل جلاله،المعلوم من دين الإسلام بالضرورة القطعية.

٢- كما إن الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو هداية الخلق وبيان الحق والقسط والعدل الذي يحبه الله ويرضاه لهم:

كما قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد:٢٥]،وقال سبحانه:{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } [الأعراف:٢٩]،وقال جل جلاله عن الغاية من دعوة رسوله ﷺ:{وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ } [الشورى:١٥]،فلا يأمر النبي ﷺ إلا بالعدل والقسط الذي أمره الله به.

٣- كما حرم الله جل جلاله الظلم على عباده مطلقا،ونفاه عن نفسه:

فقال:{ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف:٤٩]،وقال:{وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا } [الفرقان:١٩]،وجاء

---

330 - مسند أبي الطيالسي -طبعة دار هجر - مصر (١/ ٢٥٢)(٤٤٤) ومسند البزار -مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة (٧/ ٣٦١)(٢٩٦٠) صحيح

في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلَا تَظَالَمُوا..."[331]

وتوعد سبحانه بإهلاك الظالمين فقال:{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ } [إبراهيم:١٣] الخ

فلا يتصور شرعا وعقلا أن يجوز الله الظلم أو يأذن به في دين الإسلام!

٤- وقد حدد الله ورسوله حدود الطاعة للسلطة في الإسلام:

كما في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩]!

وَفِي هَذِهِ الآيَةِ يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِإِطَاعَتِهِ تَعَالَى،وَبِالعَمَلِ بِكِتَابِهِ،وَبِإِطَاعَةِ رَسُولِهِ،لأَنَّهُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَيُبَلِّغُ عَنِ اللهِ شَرْعَهُ وَأَوَامِرَهُ،كَمَا يَأْمُرُ اللهُ بِإِطَاعَةِ أُوْلِي الأَمْرِ،مِنْ حُكَّامٍ وَأُمَرَاءٍ وَرُؤَسَاءِ جُنْدٍ،مِمَّنْ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي الحَاجَاتِ،وَالمَصَالِحِ العَامَّةِ،فَهَؤُلاءِ إِذَا اتَّفَقُوا عَلَى أَمْرٍ وَجَبَ أَنْ يُطَاعُوا فِيهِ،بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ،وَأَنْ لاَ يُخَالِفُوا أَمْرَ اللهِ،وَلاَ سُنَّةَ نَبِيِّهِ التِي عُرِفَتْ بِالتَّوَاتُرِ،وَأَنْ يَكُونُوا مُخْتَارِينَ فِي بَحْثِهِمْ فِي الأَمْرِ،وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ غَيْرَ مُكْرَهِينَ عَلَيهِ بِقُوَّةِ أَحَدٍ أَوْ نُفُوذِهِ.

وَكُلُّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ المُسْلِمُونَ فَمِنَ الوَاجِبِ رَدُّهُ إِلى كِتَابِ اللهِ،وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ،وَيَحْتَكِمْ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَيْسَ مُؤْمِناً بِاللهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ.وَمَنْ يَحْتَكِم إِلى شَرْعِ اللهِ،وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلاً (تَأْوِيلاً)،لأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ لِلنَّاسِ إِلاَّ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهُمْ وَمَنْفَعَتُهُمْ،وَالاحْتِكَامِ إِلى الشَّرْعِ يَمْنَعُ الاخْتِلافَ المُؤَدِّي إِلَى التَّنَازُعِ وَالضَّلاَلِ.[332]

وفي هذا النص القصير يبين الله – سبحانه – شرط الإيمان وحد الإسلام. في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة وقاعدة الحكم،ومصدر السلطان..

---

331 – صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)٥٥ – (٢٥٧٧)

332 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٢،بترقيم الشاملة آليا) زيادة مني

وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصا،من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام.. ليكون هنالك الميزان الثابت،الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام!

إن «الحاكمية» لله وحده في حياة البشر - ما جل منها وما دق،وما كبر منها وما صغر - والله قد سن شريعة أودعها قرآنه. وأرسل بها رسولا يبينها للناس. ولا ينطق عن الهوى. فسنته - ﷺ - من ثم شريعة من شريعة الله.

والله واجب الطاعة. ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة. فشزيعته واجبة التنفيذ. وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله - ابتداء - وأن يطيعوا الرسول - بما له من هذه الصفة. صفة الرسالة من الله - فطاعته إذن من طاعة الله،الذي أرسله بهذه الشريعة،وببيانها للناس في سنته.. وسنته وقضاؤه - على هذا - جزء من الشريعة واجب النفاذ.. والإيمان يتعلق - وجودا وعدما - بهذه الطاعة وهذا التنفيذ - بنص القرآن:«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».. فأما أولو الأمر فالنص يعين من هم.

«وَأُولِي الْأَمْرِ.. مِنْكُمْ.. » أي من المؤمنين.. الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية.. من طاعة الله وطاعة الرسول وإفراد الله - سبحانه - بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء والتلقي منه وحده - فيما نص عليه - والرجوع إليه أيضا فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء،مما لم يرد فيه نص لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه. والنص يجعل طاعة الله أصلا وطاعة رسوله أصلا كذلك - بما أنه مرسل منه - ويجعل طاعة أولي الأمر.. منكم.. تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله. فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم،كما كررها عند ذكر الرسول - ﷺ - ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله - بعد أن قرر أنهم «منكم» بقيد الإيمان وشرطه..

وطاعة أولي الأمر.. منكم.. بعد هذه التقريرات كلها،في حدود المعروف المشروع من الله،والذي لم يرد نص بحرمته ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مبادئ شريعته،عند الاختلاف فيه.. والسنة تقرر حدود هذه الطاعة،على وجه الجزم واليقين:في الصحيحين

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ،فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ،مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ» [333]

وعَنْ عَلِىٍّ - رضى الله عنه - قَالَ بَعَثَ النَّبِىُّ - ﷺ - سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ،وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ،فَغَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ النَّبِىُّ - ﷺ - أَنْ تُطِيعُونِى. قَالُوا بَلَى. قَالَ فَاجْمَعُوا لِى حَطَبًا. فَجَمَعُوا،فَقَالَ أَوْقِدُوا نَارًا. فَأَوْقَدُوهَا،فَقَالَ ادْخُلُوهَا. فَهَمُّوا،وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا،وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِىِّ - ﷺ - مِنَ النَّارِ. فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ،فَسَكَنَ غَضَبُهُ،فَبَلَغَ النَّبِىَّ - ﷺ - فَقَالَ «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،الطَّاعَةُ فِى الْمَعْرُوفِ». [334]

وأخرج عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ سَمِعْتُ جَدَّتِى تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِىَّ - ﷺ - يَخْطُبُ فِى حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ «وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا» [335]

وعن يَحْيَى بْنِ الْحُصَيْنِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّتَهُ قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَخْطُبُ بِعَرَفَاتٍ وَهُوَ يَقُولُ:وَلَوْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا،قَالَ عَبْدُ اللهِ:وسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:إِنِّي لأَرَى لَهُ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ. [336]

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينا على شريعة الله وسنة رسوله. أمينا على إيمانه هو ودينه. أمينا على نفسه وعقله. أمينا على مصيره في الدنيا والآخرة.. ولا يجعله بهيمة في القطيع تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع! فالمنهج واضح،وحدود الطاعة واضحة. والشريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد،ولا تتفرق،ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون! ذلك فيما ورد فيه نص صريح. فأما الذي لم يرد فيه نص. وأما الذي يعرض من

---

333 - صحيح البخارى- المكتز [٢٣/ ٣٦٣] (٧١٤٤) وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٠/ ١٢٥٩] (٨١٥٩)

334 - صحيح البخارى- المكتز [١٤/ ٢٥٦] (٤٣٤٠) وصحيح مسلم- المكتز [١٢/ ٢٥٥] (٤٨٧١)

335 - صحيح مسلم- المكتز [١٢/ ٢٤٨] (٤٨٦٤)

336 - مسند أحمد (عالم الكتب) [٨/ ٨٠٩] (٢٧٢٦٩) ٢٧٨١٢ صحيح

فالعبرة هي الحكم بما أنزل الله ليس إلا،ولا قيمة لأي حاكم مهما علا كعبه إذا لم يحكم بما أنزل الله.

المشكلات والأقضية،على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات – ولا يكون فيه نص قاطع،أو لا يكون فيه نص على الإطلاق.. مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام – فإنه لم يترك كذلك تيها. و لم يترك بلا ميزان.

و لم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع.. ووضع هذا النص القصير،منهج الاجتهاد كله،وحدده بحدوده وأقام «الأصل» الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضا.

«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ».. ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمنا. فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو،فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته.. وهذه ليست عائمة،ولا فوضى،ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول. وهناك – في هذا الدين – مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح،تغطي كل جوانب الحياة الأساسية،وتضع لها سياجا خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين.

«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».. تلك الطاعة لله والطاعة للرسول،ولأولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة الله وسنة الرسول.. ورد ما يتنازع فيه إلى الله والرسول.. هذه وتلك شرط الإيمان بالله واليوم الآخر. كما أنها مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر.. فلا يوجد الإيمان ابتداء وهذا الشرط مفقود.. ولا يوجد الإيمان،ثم يتخلف عنه أثره الأكيد.

وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي،يقدمها مرة أخرى في صورة «العظة» والترغيب والتحبيب على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب:«ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا».. ذلك خير لكم وأحسن مآلا. خير في الدنيا وخير في الآخرة. وأحسن مآلا في الدنيا وأحسن مآلا في الآخرة كذلك.. فليست المسألة أن اتباع هذا المنهج يؤدي إلى رضاء الله وثواب الآخرة –وهو أمر هائل،عظيم – ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة.

إن هذا المنهج معناه:أن يستمتع «الإنسان» بمزايا منهج يضعه له الله.. الله الصانع الحكيم العليم البصير الخبير.. منهج بريء من جهل الإنسان،وهوى الإنسان،وضعف الإنسان.

وشهوة الإنسان.. منهج لا محاباة فيه لفرد،ولا لطبقة،ولا لشعب،ولا لجنس،ولا لجيل من البشر على جيل.. لأن الله رب الجميع،ولا تخالجه – سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا – شهوة المحاباة لفرد،أو طبقة،أو شعب،أو جنس،أو جيل.

ومنهج من مزاياه،أن صانعه هو صانع هذا الإنسان.. الذي يعلم حقيقة فطرته،والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة،كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها ووسائل خطابها وإصلاحها،فلا يخبط – سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا – في تيه التجارب بحثا عن منهج يوافق. ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية،حين يخبطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم أن يجربوا في ميدان الإبداع المادي ما يشاءون. فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشري. وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول.

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون،الذي يعيش فيه الإنسان. فهو يضمن للإنسان منهجا تتلاءم قواعده مع نواميس الكون فلا يروح يعارك هذه النواميس. بل يروح يتعرف إليها،ويصادقها،وينتفع بها.. والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه.

ومنهج من مزاياه أنه – في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه – يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل في المنهج.. مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة. ثم الاجتهاد في رد مالم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادئ العامة للدين.. ذلك إلى المجال الأصيل،الذي يحكمه العقل البشري،ويعلن فيه سيادته الكاملة:ميدان البحث العلمي في الكون والإبداع المادي فيه[٣٣٧]

تاسعاً– هناك شرطان لطاعة أولي الأمر:

هذا وقد اشترطت الآية شرطين لطاعة أولي الأمر:

١– أن تكون طاعة أولي الأمر في طاعة الله ورسوله،فإن خرجت عن طاعة الله ورسوله فلا طاعة لهم كما في الحديث الصحيح عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ

---

337 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٣٣) زيادة مني

جَيْشًا،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا وَقَالَ:ادْخُلُوهَا،فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا،وَقَالَ آخَرُونَ:إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا،فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا:«لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»،وَقَالَ لِلْآخَرِينَ:«لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ،إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»[٣٣٨]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»[٣٣٩]

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ عَلَيْهِ وَلَا طَاعَةَ»[٣٤٠]

وكما في صحيح مسلم عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ،عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ الْحُصَيْنِ،قَالَ:سَمِعْتُهَا تَقُولُ:حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ،فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ،وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ،وَالْآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الشَّمْسِ،قَالَتْ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا،ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ:«إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - حَسِبْتُهَا قَالَتْ - أَسْوَدُ،يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[٣٤١]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ الحُصَيْنِ،عَنْ أُمِّهِ قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ،اتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا،وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "[٣٤٢]

وهذا هو المقصود أصلا من إقامة السلطة في الإسلام وهو أن تقيم الدين وتحكم بالكتاب،ولهذا قال سبحانه:{ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ } أنتم وولاتكم { فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ }،ولم يقل فردوه إلى ولاة أمركم،فجعل طاعة الله ورسوله هي الحكم والفيصل

---

338 - صحيح البخاري (٩/ ٨٨)(٧٢٥٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٩ - (١٨٤٠)

339 - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ١٧٠)(٣٨١) صحيح

340 - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٢١٠)(١٧٠٧) صحيح زيادة مني

341 - صحيح مسلم (٢/ ٩٤٤)٣١١ - (١٢٩٨)

[ش (عبد مجدع) أي مقطع الأعضاء والتشديد للتكثير وإلا فالجدع قطع الأنف والأذن والشفة والذي قطع منه ذلك أجدع والأنثى جدعاء والمقصود التنبيه على نهاية خسته فإن العبد خسيس في العادة ثم سواده نقص آخر وجدعه نقص آخر ومن هذه الصفات مجموعة فيه فهو في نهاية الخسة والعادة أن يكون ممتهنا في أرذل الأعمال]

342 - مسند أحمد ط الرسالة (٢٧/ ٢٠٩)(١٦٦٤٩) صحيح

على الجميع،فإذا كان الله قد أرسل رسوله وأمره بقول تعالى:{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } [المائدة:٤٩]،فكذلك الخلفاء من بعده ليس لهم من الطاعة إلا ما وافق حكم الله جل جلاله.

ولوضوح هذا الأصل كانت أول خطبة خطبها أبو بكر وهو أول خليفة بعد رسول الله ﷺ في بيان هذا الأصل العظيم،حيث حدد فيها حدود طاعته،فعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ:«إِنِّي وُلِّيتُكُمْ وَلَسْتُ مِنْ أَخْيَرِكُمْ،وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فَإِنْ أَصَبْتُ فَاحْمَدُوا اللَّهَ وَإِنْ أَخْطَأْتُ فَقَوِّمُونِي،وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعْصَمُ بِالْوَحْيِ»[٣٤٣]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَمِلْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى» أَوْ قَالَ:«التُّقَى» «وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[٣٤٤]،وعلى هذا أجمع الصحابة رضي الله عنهم،وأن طاعة السلطة في الإسلام منوطة ومرهونة بكونها في دائرة طاعة الله ورسوله فقط.

٢- أن يكون أولي الأمر منا { وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ }،وهذا هو الشرط الثاني،فلا سمع ولا طاعة شرعية دينية لمن لم يكن من أهل الإيمان والإسلام،كما قال تعالى:{ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } [النساء:١٤١]!

---

343 - مسند البزار = البحر الزخار (١/ ١٨٠)(١٠٠) صحيح لغيره

344 - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(٨ و٩) صحيح لغيره زيادة مني

وكذلك لا سمع ولا طاعة لمن ظهرت ردته كما في حديث البيعة الصحيح عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،وَهُوَ مَرِيضٌ،قُلْنَا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ،حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ،سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا،عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[345]

أي فلا سمع ولا طاعة بل الواجب الخروج عليه وجهاده!

وعدم الحكم بردته بتأويل سائغ لا يمنع من سقوط ولايته على الأمة إذا ظهر كفر بواح مع قدرته على منعه،فنص الحديث اشترط لوجوب السمع والطاعة عدم ظهور كفر بواح فحينئذ تسقط الطاعة والولاية،سواء حكم بردة السلطان أو لم يحكم لوجود مانع وعذر!

عاشرا– من صور ردة الحاكم ووجوب الخروج عليه:

ومن صور الردة التي تسقط الولاية حتى لو لم يحكم بكفر من صدرت منه:

١– موالاة الأعداء ومظاهرتهم على الأمة كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة:٥١]،بينما آية الطاعة اشترطت أن يكون أولي الأمر منا!

٢– ومن صور الردة الظاهرة عدم الحكم بما أنزل الله كما قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠]،فمن عطل

---

345 – صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥-٧٠٥٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ - (١٧٠٩)

[ش (أصلحك الله) كلمة اعتادوا أن يقولوها عند الطلب أو المراد الدعاء له بإصلاح جسمه ليعافى من مرضه. (أخذ علينا) اشترط علينا. (على السمع والطاعة) لله تعالى ورسوله ﷺ. (منشطنا) حالة نشاطنا. (مكرهنا) في الأشياء التي نكرهها وتشق علينا. (أثرة علينا) استئثار الأمراء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم أي ولو منعنا حقوقنا. (الأمر) الملك والإمارة. (كفرا) منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فتكون المنازعة بالإنكار عليهم. أو كفرا ظاهرا فينازعون بالقتال والخروج عليهم وخلعهم. (بواحا) ظاهرا وباديا. (برهان) نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل]

الشرع،وحكم بين الأمة بغير ما أنزل الله،باختياره ورضاه،فهو طاغوت يجب البراءة منه وعدم اعتقاد ولايته أو موالاته!

قال القاضي عياض:" أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ لَا تَنْعَقِدُ لِكَافِرٍ وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ انْعَزَلَ قَالَ وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَةَ الصَّلَوَاتِ وَالدُّعَاءَ إِلَيْهَا قَالَ وَكَذَلِكَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمُ الْبِدْعَةُ قَالَ وَقَالَ بَعْضُ الْبَصْرِيِّينَ تَنْعَقِدُ لَهُ وَتُسْتَدَامُ لَهُ لِأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ قَالَ الْقَاضِي فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَتَغْيِيرٌ لِلشَّرْعِ أَوْ بِدْعَةٌ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ الْوِلَايَةِ وَسَقَطَتْ طَاعَتُهُ وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقِيَامُ عَلَيْهِ وَخَلْعُهُ وَنَصْبُ إِمَامٍ عَادِلٍ إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ فَإِنْ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ إِلَّا لِطَائِفَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ بِخَلْعِ الْكَافِرِ وَلَا يَجِبُ فِي الْمُبْتَدِعِ إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ فَإِنْ تَحَقَّقُوا الْعَجْزَ لَمْ يَجِبِ الْقِيَامُ وَلْيُهَاجِرِ الْمُسْلِمُ عَنْ أَرْضِهِ إِلَى غَيْرِهَا وَيَفِرَّ بِدِينِهِ"[٣٤٦]

وقال الحافظ ابن حجر:" يَنْعَزِلُ بِالْكُفْرِ إِجْمَاعًا فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ الْقِيَامُ فِي ذَلِكَ فَمَنْ قَوِيَ عَلَى ذَلِكَ فَلَهُ الثَّوَابُ وَمَنْ دَاهَنَ فَعَلَيْهِ الْإِثْمُ وَمَنْ عَجَزَ وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ من تِلْكَ الْأَرْضِ"[٣٤٧]

وقال ابن بطال:(إِذَا وَقَعَ مِنَ السُّلْطَانِ الْكُفْرُ الصَّرِيحُ فَلَا تَجُوزُ طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ بَلْ تَجِبُ مُجَاهَدَتُهُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا)[٣٤٨]

فإذا كان الواجب بإجماع العلماء الخروج على مثل هؤلاء وقتالهم لمن قدر عليه،فهو جهاد في سبيل الله،والقتيل فيه شهيد معركة بلا خلاف.

وكذلك لا سمع ولا طاعة ولا ولاية لمن ظهر نفاقه وزندقته،بل الواجب جهاده كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [التوبة:٧٣]...

قال الإمام الطبري:يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ وَالسِّلَاحِ وَالْمُنَافِقِينَ. وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي صِفَةِ الْجِهَادِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِهِ فِي الْمُنَافِقِينَ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:أَمَرَهُ بِجِهَادِهِمْ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ،وَبِكُلِّ مَا أَطَاقَ جِهَادَهُمْ بِهِ...

---

346 – شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٩)

347 – فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٢٣)

348 – فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٧) ونيل الأوطار (٧/ ٢٠٨)

فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:" {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [التوبة:٧٣] قَالَ:بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَكْفَهِرَّ فِي وَجْهِهِ "حسن

وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ أَمَرَهُ بِجِهَادِهِمْ بِاللِّسَانِ"فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ تَعَالَى:" {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة:٧٣] فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ وَالْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ،وَأَذْهَبَ الرِّفْقَ عَنْهُمْ "حسن

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:" {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [التوبة:٧٣] قَالَ:الْكُفَّارَ بِالْقِتَالِ،وَالْمُنَافِقِينَ:أَنْ تَغْلُظَ عَلَيْهِمْ بِالْكَلَامِ "حسن لغيره...

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ مَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ مِنْ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ جِهَادِ الْمُنَافِقِينَ،بِنَحْوِ الَّذِي أَمَرَهُ بِهِ مِنْ جِهَادِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَكَيْفَ تَرَكَهُمْ ﷺ مُقِيمِينَ بَيْنَ أَظْهُرِ أَصْحَابِهِ مَعَ عِلْمِهِ بِهِمْ؟ قِيلَ:إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ إِنَّمَا أَمَرَ بِقِتَالِ مَنْ أَظْهَرَ مِنْهُمْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ،ثُمَّ أَقَامَ عَلَى إِظْهَارِهِ مَا أَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَأَمَّا مَنْ إِذَا اطُّلِعَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ أَنَّهُ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ وَأَخَذَ بِهَا،أَنْكَرَهَا وَرَجَعَ عَنْهَا وَقَالَ:إِنِّي مُسْلِمٌ،فَإِنَّ حُكْمَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ بِلِسَانِهِ،أَنْ يُحْقَنَ بِذَلِكَ لَهُ دَمُهُ وَمَالُهُ وَإِنْ كَانَ مُعْتَقِدًا غَيْرَ ذَلِكَ،وَتَوَكَّلَ هُوَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِسَرَائِرِهِمْ،وَلَمْ يَجْعَلْ لِلْخَلْقِ الْبَحْثَ عَنِ السَّرَائِرِ،فَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ عِلْمِهِ بِهِمْ وَاطِّلَاعِ اللَّهِ إِيَّاهُ عَلَى ضَمَائِرِهِمْ وَاعْتِقَادِ صُدُورِهِمْ،كَانَ يُقِرُّهُمْ بَيْنَ أَظْهُرِ الصَّحَابَةِ،وَلَا يَسْلُكُ بِجِهَادِهِمْ مَسْلَكَ جِهَادِ مَنْ قَدْ نَاصَبَهُ الْحَرْبَ عَلَى الشِّرْكِ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ إِذَا اطُّلِعَ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ قَالَ قَوْلًا كَفَرَ فِيهِ بِاللَّهِ ثُمَّ أُخِذَ بِهِ أَنْكَرَهُ،وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ بِلِسَانِهِ،فَلَمْ يَكُنْ ﷺ يَأْخُذُهُ إِلَّا بِمَا أَظْهَرَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ عِنْدَ حُضُورِهِ إِيَّاهُ وَعَزْمِهِ عَلَى إِمْضَاءِ الْحُكْمِ فِيهِ،دُونَ مَا سَلَفَ مِنْ قَوْلٍ كَانَ نَطَقَ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ،وَدُونَ اعْتِقَادِ ضَمِيرِهِ الَّذِي لَمْ يُبِحِ اللَّهُ لِأَحَدٍ الْأَخْذَ بِهِ فِي الْحُكْمِ وَتَوَلَّى الْأَخْذَ بِهِ هُوَ دُونَ خَلْقِهِ. وَقَوْلُهُ:{وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة:٧٣] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:وَاشْدُدْ عَلَيْهِمْ بِالْجِهَادِ وَالْقِتَالِ وَالْإِرْهَابِ. وَقَوْلُهُ:{وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [التوبة:٧٣] يَقُولُ:وَمَسَاكِنُهُمْ

جَهَنَّمُ وَهِيَ مَثْوَاهُمْ وَمَأْوَاهُمْ. {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التوبة:٧٣] يَقُولُ:وَبِئْسَ الْمَكَانُ الَّذِي يُصَارُ إِلَيْهِ جَهَنَّمُ "[349]

فلا يتصور أن تكون للكافر أو المنافق ولاية شرعية دينية على المؤمنين مع الأمر بجهادهم!

فولاية المؤمنين هي لله ولرسوله ولمن تولاهما كما قال تعالى:{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)} [المائدة:٥٥،٥٦]..

وكذلك لا ولاية ابتداء للظالم وغير العدل كما قال تعالى:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]،وقال تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٢٤].

وقد اشترط الله العدالة فيمن يحكم في الصيد:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [المائدة:٩٥].

واشترطه في الشهداء:{ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الطلاق:٢].

فكيف بالقاضي فضلا عن الإمام الذي يولي القضاة ليحكموا بالعدل؟!

قال الإمام الرازي:" قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ:الْفَاسِقُ حَالَ فِسْقِهِ لَا يَجُوزُ عَقْدُ الْإِمَامَةِ لَهُ،وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الْفِسْقَ الطَّارِئَ هَلْ يُبْطِلُ الْإِمَامَةَ أَمْ لَا؟ وَاحْتَجَّ الْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَصْلُحُ أَنْ تُعْقَدَ لَهُ الْإِمَامَةُ بِهَذِهِ الْآيَةِ،وَوَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ بِهَا مِنْ وَجْهَيْنِ. الْأَوَّلُ:مَا بَيَّنَّا أَنَّ قَوْلَهُ:لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ جَوَابٌ لِقَوْلِهِ:وَمِنْ ذُرِّيَّتِي وَقَوْلُهُ:وَمِنْ ذُرِّيَّتِي طَلَبٌ لِلْإِمَامَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى،فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْعَهْدِ هُوَ الْإِمَامَةُ،لِيَكُونَ

[349] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٥٦٥-٥٦٨) زيادة مني

الْجَوَابُ مُطَابِقًا للسُّؤَالِ،فَتَصِيرُ الْآيَةُ كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ:لَا يَنَالُ الْإِمَامَةُ الظَّالِمِينَ،وَكُلُّ عَاصٍ فَإِنَّهُ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ،فَكَانَتِ الْآيَةُ دَالَّةً عَلَى مَا قُلْنَاهُ،فَإِنْ قِيلَ:ظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي انْتِفَاءَ كَوْنِهِمْ ظَالِمِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ فِي الْأَئِمَّةِ وَالْقُضَاةِ،قُلْنَا:أَمَّا الشِّيعَةُ فَيَسْتَدِلُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِهِمْ فِي وُجُوبِ الْعِصْمَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا،وَأَمَّا نَحْنُ فَنَقُولُ:مُقْتَضَى الْآيَةِ ذَلِكَ،إِلَّا أَنَّا تَرَكْنَا اعْتِبَارَ الْبَاطِنِ فَتَبْقَى الْعَدَالَةُ الظَّاهِرَةُ مُعْتَبَرَةً،فَإِنْ قِيلَ:أَلَيْسَ أَنَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ:سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [الْأَنْبِيَاء:٨٧] وَقَالَ آدَمُ:رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا [الْأَعْرَاف:٢٣] قُلْنَا:الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ هُوَ الظُّلْمُ الْمُطْلَقُ،وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي آدَمَ وَيُونُسَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. الْوَجْهُ الثَّانِي:أَنَّ الْعَهْدَ قَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِمَعْنَى الْأَمْرِ،قَالَ اللهُ تعالى:أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ [يس:٦٠] يَعْنِي أَلَمْ آمُرْكُمْ بِهَذَا،وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:قالُوا إِنَّ اللَّهَ،قَالَ:وَهَذَا خَطَأٌ،وَلَمْ يُفَرِّقْ أَبُو حَنِيفَةَ بَيْنَ الْخَلِيفَةِ وَالْحَاكِمِ فِي أَنَّ شَرْطَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْعَدَالَةُ،وَكَيْفَ يَكُونُ خَلِيفَةً وَرِوَايَتُهُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ،وَأَحْكَامُهُ غَيْرُ نَافِذَةٍ،وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَدَّعِيَ ذَلِكَ عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَكْرَهَهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى الْقَضَاءِ،وَضَرَبَهُ فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَحُبِسَ،فَلَحَّ ابْنُ هُبَيْرَةَ وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ كُلَّ يَوْمٍ أَسْوَاطًا،فَلَمَّا خِيفَ عَلَيْهِ،قَالَ لَهُ الْفُقَهَاءُ:تَوَلَّ لَهُ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ أَيَّ شَيْءٍ كَانَ حَتَّى يَزُولَ عَنْكَ الضَّرْبُ،فَتَوَلَّى لَهُ عَدَّ أَحْمَالِ التِّبْنِ الَّتِي تَدْخُلُ فَخَلَّاهُ،ثُمَّ دَعَاهُ الْمَنْصُورُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ حَتَّى عَدَّ لَهُ اللَّبِنَ الَّذِي كَانَ يُضْرَبُ لِسُورِ مَدِينَةِ الْمَنْصُورِ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَقِصَّتُهُ فِي أَمْرِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ مَشْهُورَةٌ،وَفِي حَمْلِهِ الْمَالَ إِلَيْهِ وَفُتْيَاهُ النَّاسَ سِرًّا فِي وُجُوبِ نُصْرَتِهِ وَالْقِتَالِ مَعَهُ،وَكَذَلِكَ أَمْرُهُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ ابْنَيِ عَبْدِ اللَّهِ بن الحسن،ثم قَالَ:وَإِنَّمَا غَلِطَ مَنْ غَلِطَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ أَنَّ قَوْلَ أَبِي حَنِيفَةَ:إِنَّ الْقَاضِيَ إِذَا كَانَ عَدْلًا فِي نَفْسِهِ،وَتَوَلَّى الْقَضَاءَ مِنْ إِمَامٍ جَائِرٍ فَإِنَّ أَحْكَامَهُ نَافِذَةٌ،وَالصَّلَاةَ خَلْفَهُ جَائِزَةٌ،لِأَنَّ الْقَاضِيَ إِذَا كَانَ عَدْلًا فِي نَفْسِهِ وَيُمْكِنُهُ تَنْفِيذُ الْأَحْكَامِ كَانَتْ أَحْكَامُهُ نَافِذَةً،فَلَا اعْتِبَارَ فِي ذَلِكَ بِمَنْ وَلَّاهُ،لِأَنَّ الَّذِي وَلَّاهُ بِمَنْزِلَةِ سَائِرِ أَعْوَانِهِ،وَلَيْسَ شرط أعوان القاضي أن يكون عُدُولًا أَلَا تَرَى أَنَّ أَهْلَ بَلَدٍ لَا سُلْطَانَ عَلَيْهِمْ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى الرِّضَا بِتَوْلِيَةِ رَجُلٍ عَدْلٍ مِنْهُمُ الْقَضَاءَ

حَتَّى يَكُونُوا أَعْوَانًا لَهُ عَلَى مَنِ امْتَنَعَ مِنْ قَبُولِ أَحْكَامِهِ لَكَانَ قَضَاؤُهُ نَافِذًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وِلَايَةٌ مِنْ جِهَةِ إِمَامٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ."[٣٥٠]

وقال الشوكاني:" وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالشَّرْعِ كَمَا وَرَدَ،لِأَنَّهُ إِذَا زَاغَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ ظَالِمًا. وَيُمْكِنُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَى مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْعَهْدِ،وَمَا تُفِيدُهُ الْإِضَافَةُ مِنَ الْعُمُومِ،فَيَشْمَلُ جَمِيعَ ذَلِكَ اعْتِبَارًا بِعُمُومِ اللَّفْظِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى السَّبَبِ وَلَا إِلَى السِّيَاقِ،فَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ مِنْ وَصْفِ الظُّلْمِ فِي كُلِّ مَنْ تَعَلَّقَ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ."[٣٥١]

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ:وَقَالُوا فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ،وَكَيْفَ يَصْلُحُ لَهَا مَنْ لَا يَجُوزُ حُكْمُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ،وَلَا تَجِبُ طَاعَتُهُ،وَلَا يُقْبَلُ خَبَرُهُ،وَلَا يُقَدَّمُ لِلصَّلَاةِ؟ وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُفْتِي سِرًّا بِوُجُوبِ نُصْرَةِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ،وَحَمْلِ الْمَالِ إِلَيْهِ،وَالْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى اللِّصِّ الْمُتَغَلِّبِ الْمُتَسَمِّي بِالْإِمَامِ وَالْخَلِيفَةِ،كَالدَّوَانِيقِيِّ وَأَشْبَاهِهِ.

وَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ:أَشَرْتَ عَلَى ابْنِي بِالْخُرُوجِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ،ابْنَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ،حَتَّى قُتِلَ فَقَالَ:لَيْتَنِي مَكَانَ ابْنِكِ. وَكَانَ يَقُولُ فِي الْمَنْصُورِ وَأَشْيَاعِهِ:لَوْ أَرَادُوا بِنَاءَ مَسْجِدٍ،وَأَرَادُونِي عَلَى عَدِّ آجُرِّهِ لَمَا فَعَلْتُ. وَعَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ:لَا يَكُونُ الظَّالِمُ إِمَامًا قَطُّ. وَكَيْفَ يَجُوزُ نَصْبُ الظَّالِمِ لِلْإِمَامَةِ،وَالْإِمَامُ إِنَّمَا هُوَ لِكَفِّ الْمَظْلَمَةِ؟ فَإِذَا نُصِّبَ مَنْ كَانَ ظَالِمًا فِي نَفْسِهِ،فَقَدْ جَاءَ الْمَثَلُ السَّائِرُ:مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ فَقَدْ ظَلَمَ. انْتَهَى كَلَامُهُ.[٣٥٢]

وقال ابن خويز منداد المالكي:الظَّالِم لَا يَصْلُح أَنْ يَكُون خَلِيفَة وَلَا حَاكِمًا وَلَا مُفْتِيًا وَلَا شَاهِدًا وَلَا رَاوِيًا.[٣٥٣]

---

350 – تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٤/ ٣٨) زيادة مني

351 فتح القدير للشوكاني (١/ ١٦٠) وفتح البيان في مقاصد القرآن (١/ ٢٧٤) زيادة مني

352 – البحر المحيط في التفسير (١/ ٦٠٥) وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٨٤) زيادة مني

353 – تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٢٨٩) وسقط هذا النص من طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع،لا أدري عمدا أم سهوا

وقال الماوردي:" وَالثَّانِي:مَا تَعَلَّقَ فِيهِ بِشُبْهَةٍ،فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنْهُمَا فَمُتَعَلِّقٌ بِأَفْعَالِ الْجَوَارِحِ،وَهُوَ ارْتِكَابُهُ لِلْمَحْظُورَاتِ،وَإِقْدَامُهُ عَلَى الْمُنْكَرَاتِ تَحْكِيمًا لِلشَّهْوَةِ وَانْقِيَادًا لِلْهَوَى،فَهَذَا فِسْقٌ يَمْنَعُ مِنِ انْعِقَادِ الْإِمَامَةِ وَمِنِ اسْتِدَامَتِهَا،فَإِذَا طَرَأَ عَلَى مَنِ انْعَقَدَتْ إِمَامَتُهُ خَرَجَ مِنْهَا،فَلَوْ عَادَ إِلَى الْعَدَالَةِ لَمْ يَعُدْ إِلَى الْإِمَامَةِ إِلَّا بِعَقْدٍ جَدِيدٍ."[٣٥٤]

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية:(اسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ مَعَ الْقُوَّةِ عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ،وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا يُنَازِعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ،عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقَوْلِ فِيهِ. فَأَمَّا أَهْلُ الْفُسُوقِ وَالْجَوْرِ وَالظُّلْمِ فَلَيْسُوا لَهُ بِأَهْلٍ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:" لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" وَلِهَذَا خَرَجَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَالْحُسَيْنُ بن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَخَرَجَ خِيَارُ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَعُلَمَاؤُهُمْ عَلَى الْحَجَّاجِ،وَأَخْرَجَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بَنِي أُمَيَّةَ وَقَامُوا عَلَيْهِمْ،فَكَانَتِ الْحَرَّةُ الَّتِي أَوْقَعَهَا بِهِمْ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ.)[٣٥٥]

وقَالَ ابْنُ خُوَيْزِ مَنْدَادَ:" وَكُلُّ مَنْ كَانَ ظَالِمًا لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً وَلَا حَاكِمًا وَلَا مُفْتِيًا،وَلَا إِمَامَ صَلَاةٍ،وَلَا يُقْبَلُ عَنْهُ مَا يَرْوِيهِ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ،وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ فِي الْأَحْكَامِ،غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُعْزَلُ بِفِسْقِهِ حَتَّى يَعْزِلَهُ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ،وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَحْكَامِهِ مُوَافِقًا لِلصَّوَابِ مَاضٍ غَيْرَ مَنْقُوضٍ.وَقَدْ نَصَّ مَالِكٌ عَلَى هَذَا فِي الْخَوَارِجِ وَالْبُغَاةِ أَنَّ أَحْكَامَهُمْ لَا تُنْقَضُ إِذَا أَصَابُوا بِهَا وَجْهًا مِنَ الِاجْتِهَادِ،وَلَمْ يَخْرِقُوا الْإِجْمَاعَ،أَوْ يُخَالِفُوا النُّصُوصَ."[٣٥٦]

وقال ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير:"وَفِي الْآيَةِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ يَوْمئِذٍ لَيْسُوا جَدِيرِينَ بِالْإِمَامَةِ لِاتِّصَافِهِمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الظُّلْمِ كَالشِّرْكِ وَتَحْرِيفِ الْكِتَابِ وَتَأْوِيلِهِ عَلَى حَسَبِ شَهَوَاتِهِمْ وَالِانْهِمَاكِ فِي الْمَعَاصِي حَتَّى إِذَا عَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ عَلِمُوا انْطِبَاقَهُ عَلَيْهِمْ.

وَإِنَاطَةُ الْحُكْمِ بِوَصْفِ الظَّالِمِينَ إِيمَاءٌ إِلَى عِلَّةِ نَفْيِ أَنْ يَنَالَهُمْ عَهْدُ اللَّهِ فَيَفْهَمُ مِنَ الْعِلَّةِ أَنَّهُ إِذَا زَالَ وَصْفُ الظُّلْمِ نَالَهُمُ الْعَهْدُ.

---

354 – الأحكام السلطانية للماوردي (ص:٤٢) والإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ص:٨٤) والخلافة (ص:٤٦) محمد رشيد رضا زيادة مني

355 – تفسير القرطبي (٢/ ١٠٨)

356 – تفسير القرطبي (٢/ ١٠٩)

وَفِي الْآيَةِ أَنَّ الْمُتَّصِفَ بِالْكَبِيرَةِ لَيْسَ مُسْتَحِقًّا لِإِسْنَادِ الْإِمَامَةِ إِلَيْهِ أَعْنَى سَائِرَ وِلَايَاتِ الْمُسْلِمِينَ:الْخِلَافَةُ وَالْإِمَارَةُ وَالْقَضَاءُ وَالْفَتْوَى وَرِوَايَةُ الْعِلْمِ وَإِمَامَةُ الصَّلَاةِ وَنَحْوَ ذَلِكَ. قَالَ فَخْرُ الدِّينِ:قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ الْفَاسِقُ حَالَ فِسْقِهِ لَا يَجُوزُ عَقْدُ الْإِمَامَةِ لَهُ. وَفِي «تَفْسِيرِ ابْنِ عَرَفَةَ» تَسْلِيمُ ذَلِكَ. وَنَقَلَ ابْنُ عَرَفَةَ عَنِ الْمَازِرِيِّ وَالْقُرْطُبِيُّ عَنِ الْجُمْهُورِ إِذَا عُقِدَ لِلْإِمَامِ عَلَى وَجْهٍ صَحِيحٍ ثُمَّ فَسَقَ وَجَارَ فَإِنْ كَانَ فِسْقُهُ بِكُفْرٍ وَجَبَ خَلْعُهُ وَأَمَّا بِغَيْرِهِ مِنَ الْمَعَاصِي فَقَالَ الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَبَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ يَخْلَعُ وَقَالَ جُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ لَا يُخْلَعُ بِالْفِسْقِ وَالظُّلْمِ وَتَعْطِيلِ الْحُدُودِ وَيَجِبُ وَعْظُهُ وَتَرْكُ طَاعَتِهِ فِيمَا لَا تَجِبُ فِيهِ طَاعَةٌ وَهَذَا مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى خَلْعِهِ فَإِنْ لَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهِ إِلَّا بِفِتْنَةٍ وَحَرْبٍ فَاتَّقَفُوا عَلَى مَنْعِ الْقِيَامِ عَلَيْهِ وَأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى جَوْرِهِ أَوْلَى مِنَ اسْتِبْدَالِ الْأَمْنِ بِالْخَوْفِ وَإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ انطلاق أَيْدِي السُّفَهَاءِ وَالْفُسَّاقِ فِي الْأَرْضِ وَهَذَا حُكْمُ كُلِّ وِلَايَةٍ فِي قَوْلِ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ،وَمَا نُقِلَ عَنْ أَبِي حنيفة مِنْ جَوَازِ كَوْنِ الْفَاسِقِ خَلِيفَةً وَعَدَمِ جَوَازِ كَوْنِهِ قَاضِيًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ الْجَصَّاصُ هُوَ خَطَأٌ فِي النَّقْلِ."[٣٥٧]

فهذه بعض أحكام السمع والطاعة وشروطها وحدودها،كما جاءت في القرآن والسنة،وكما فهمها علماء الأمة من السلف والخلف،ليس فيهم من يقول بأن لغير المسلم أو المرتد ولاية شرعية كحال كثير من الأنظمة العربية اليوم،ولا أنه يجب إعانة الظالم على ظلمه لا على الغير ولا على النفس،ولا أنه يجب الصبر على عدوانه،ولم يحتج أحد على جواز ذلك بحديث (وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ)،فلا يتصور أن يحرم الله الظلم ويوجب التصدي للظالم والأخذ على يده وأطره على الحق أطرا،ويأمر بتغيير المنكر،كما في الصحيح عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[٣٥٨]

---

357 – التحرير والتنوير (١/ ٧٠٧)

358 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ – (٤٩)

وكما في حديث البيعة في الصحيحين عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ،وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ،وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا،لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»[359]

ويأمر بجهادهم باليد،فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[360]

وفي المقابل يأمر بالسمع والطاعة لهم وإن أخذوا مال الإنسان أو اعتدوا عليه! فهذا تناقض صريح لا يقع أبدا من الشارع الحكيم!

وإذا كان لا يجوز بالإجماع إعانة الظالم والسلطان الجائر على ضرب بريء أو أخذ ماله ولو كان غير مسلم كما قال تعالى:{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢]

فكيف يتصور أن يأمر الله المسلم أن يعين الجائر على ظلم نفسه وأخذ ماله؟! أو أن يصبر على ذلك ولا يدفع عن نفسه كما أذن له على لسان نبيه ﷺ،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[361]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَانِي رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟،قَالَ:«لَا تُعْطِهِ مَالَكَ»،قَالَ:أَفَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟،قَالَ:«فَقَاتِلْهُ»،قَالَ:أَفَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟،قَالَ:«فَأَنْتَ شَهِيدٌ»،قَالَ:أَفَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟،قَالَ:«هُوَ فِي النَّارِ»[362]

---

359 – صحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧١٩٩) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤١ – (١٧٠٩) واللفظ له

360 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ – (٥٠)

361 – صحيح البخاري (٣/ ١٣٦)(٢٤٨٠)

362 – الإيمان لابن منده (٢/ ٦٣٣)(٥٨٣) صحيح

وكيف يأمر الله المؤمنين بقبول الظلم وإقراره على أنفسهم بينما ذكر أهم صفات أهل الإيمان وأنهم يدفعون الظلم وينتصرون ممن ظلمهم فقال:{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)} [الشورى:٣٧ - ٤٢]!

وفي الصحيح عَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّهُ قَالَ:«عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ،إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»[٣٦٣]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ،مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ»[٣٦٤]

فإذا أراد السلطان المسلم الجائر ضرب إنسان،أو أخذ ماله،فإن كان هذا الضرب والأخذ للمال ظلما فهو معصية،فلا سمع ولا طاعة،بنص هذا الحديث الذي في الصحيحين،بل يجب الامتناع ومقاومة الجائر كما في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٣٦٥]

فكيف ترد كل قطعيات القرآن والسنة هذه بمثل هذه الزيادة الضعيفة (وإن أخذ مالك وضرب ظهرك) التي ضعفها أئمة الحديث أنفسهم ونقاده كالإمام الدارقطني وهو أعلم أهل عصره بعلم العلل بلا خلاف!

الحادي عشر– في بيان معنى لفظة (اسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك)

---

363 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٨ – (١٨٣٩)

364 – صحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٤)

365 – سنن النسائي (٧/ ١١٤)(٤٠٨٤) صحيح

عَنْ أَبِي سَلَّامٍ،قَالَ:قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ،فَجَاءَ اللهُ بِخَيْرٍ،فَنَحْنُ فِيهِ،فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قُلْتُ:هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قُلْتُ:فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قُلْتُ:كَيْفَ؟ قَالَ:«يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ،وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي،وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»،قَالَ:قُلْتُ:كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ،إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ:«تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ،وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ،وَأُخِذَ مَالُكَ،فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[٣٦٦]

وهذه زيادة وردت في حديث محفوظ مشهور عن حذيفة،ولم يذكر عامة الرواة عنه هذه الزيادة،فالموقف منها على ثلاثة أنحاء:

الأول:الحكم عليها بالضعف وردها،أولا لكونها مرسلة منقطعة،وقد أخرجها مسلم في المتابعات لا في الأصول،وثانيا لأنها زيادة تفرد بها راو ليس ممن يحتمل منه مثل هذا التفرد في حديث محفوظ مشهور،وهذا عند نقاد الحديث علة ترد بسببها هذه الزيادة لو كانت متصلة،فكيف وهي مرسلة منقطعة بلا خلاف!

قال الدارقطني في التتبع فيما استدركه على الصحيحين رقم ٥٣ (وأخرج مسلم حديث معاوية بن سلام عن زيد عن أبي سلام عن حذيفة.. وهذا عندي مرسل لم يسمع أبو سلام من حذيفة)!

وقد وافق الدارقطني على الحكم بالإرسال بين أبي سلام وحذيفة،كل من الحافظ المزي في تهذيب الكمال،والحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب،والعلائي في جامع التحصيل،والنووي في شرح مسلم حيث قال (قال الدارقطني:هذا عندي مرسل،وهو كما قال الدارقطني)!

---

366 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٦)٥٢ – (١٨٤٧)

[ش (عن أبي سلام قال قال حذيفة) قال الدارقطني هذا عندي مرسل لأن أبا سلام لم يسمع حذيفة وهو كما قال الدارقطني لكن المتن صحيح متصل بالطريق الأول وإنما أتى مسلم بهذا متابعة كما ترى وقد قدمنا أن الحديث المرسل إذا روي من طريق آخر متصلا تبينا به صحة المرسل وجاز الاحتجاج به ويصير في المسئلة حديثان صحيحان (في جثمان إنس) أي في جسم بشر]

وقال محقق الكتاب الشيخ مقبل بن هادي (في حديث حذيفة هذا زيادة ليست في حديث حذيفة المتفق عليه،وهي قوله ((وإن أخذ مالك وضرب ظهرك))،فهذه الزيادة ضعيفة،لأنها من هذه الطريق منقطعة)!

فهذه الزيادة منكرة عند أهل التحقيق،لأنه اجتمع فيها تفرد في الزيادة،وضعف في الرواية!

قلت:الصواب أنها صحيحة؛لأنها وردت موصولة من طريق آخر صحيح،فعَنْ سُبَيْعِ بْنِ خَالِدٍ،قَالَ:خَرَجْتُ إِلَى الْكُوفَةِ زَمَنَ فُتِحَتْ تُسْتَرُ لِأَجْلبَ مِنْهَا بِغَالًا،فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا صَدْعٌ مِنَ الرِّجَالِ تَعْرِفُ إِذَا رَأَيْتَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ رِجَالِ الْحِجَازِ،قَالَ:قُلْتُ:مَنْ هَذَا؟ قَالَ:فَحَدَّقَنِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ،وَقَالُوا:مَا تَعْرِفُ هَذَا؟ هَذَا حُذَيْفَةُ صَاحِبُ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:فَقَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنَّ النَّاسَ كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَرَأَيْتَ هَذَا الْخَيْرَ الَّذِي أَعْطَانَا اللَّهُ يَكُونُ بَعْدَهُ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَمَا الْعِصْمَةُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ:«السَّيْفُ» قُلْتُ:وَهَلْ لِلسَّيْفِ مِنْ بَقِيَّةٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قَالَ:قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«ثُمَّ هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ» قَالَ:«جَمَاعَةٌ عَلَى فِرْقَةٍ،**فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةٌ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ،فَاسْمَعْ وَأَطِعْ** وَإِلَّا فَمُتْ عَاضًّا بِجِذْلِ شَجَرَةٍ» قَالَ:قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«يَخْرُجُ الدَّجَّالُ وَمَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ،فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ أَجَرَهُ وَحَطَّ وِزْرَهُ،وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ» قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«ثُمَّ إِنَّمَا هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ»

وفي رواية:" **فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فَالْزَمْهُ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ وَإِنْ لَمْ تَرَ خَلِيفَةً فَاهْرُبْ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ**»[٣٦٧]

---

[367] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٧٩)(٨٣٣٢) وصححه ووافقه الذهبي ومسند البزار = البحر الزخار (٧/ ٣٦١)(٢٩٥٩ و٢٩٦٠و٢٩٦١) من طرق وهو صحيح،وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ٥٣٩)(٢٧٣٩) وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١٣/ ٨٤٧)(٦٣٨١)

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه،مَا الْعِصْمَةُ مِنْ ذَلِكَ؟،وَذَكَرَ دُعَاةَ الضَّلَالَةِ،فَقَالَ:«إِنْ لَقِيتَ لِلَّه يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَالْزَمْهُ،وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ،وَأَخَذَ مَالَكَ،وَإِلَّا فَاهْرُبْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ»[٣٦٨]

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«سَتَكُونُ أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي،وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي،وَسَتَكُونُ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي أَجْسَادِ الْإِنْسِ» قُلْتُ:كَيْفَ أَصْنَعُ إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:«تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ الْأَعْظَمِ،وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ،وَأَخَذَ مَالَكَ،فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[٣٦٩]

وعجبت لمن يزعم أنه محدث ثم لا يستوعب طرق الحديث،فكيف إذا كان في صحيح الإمام مسلم،ثم يسارع فيحكم عليه بالضعف !!!!!

الثاني:قبول الزيادة بشرط تفسيرها على نحو يوافق النصوص القرآنية والنبوية القطعية،بأن يقال وإن أخذ مالك بالحق وقضى به لخصمك،أو ضرب ظهرك في حد من حدود الله بالحق،فلا تخرج عليه كحال أهل الجاهلية الذين لا يعرفون السمع والطاعة في مثل هذا الأمر،كما قال ابن حزم:" كل هَذَا لَا حجَّة لَهُم فِيهِ لما قد تقصيناه غَايَة التَّقَصِّي خَبرا خَبرا بأسانيدها ومعانيها فِي كتَابنَا الموسوم بالاتصال إِلَى فهم معرفَة الْخِصَال وَنَذْكُر مِنْهُ إِن شَاءَ الله هَاهُنَا جملا كَافِيَة وَبِاللَّه تَعَالَى نتأيد أما أمره ﷺ بِالصبرِ على أَخذ الْمَال وَضرب الظّهْر فَإِنَّمَا ذَلِك بِلَا شكّ إِذا تولى الإِمَام ذَلِك بِحَق وَهَذَا مَا لَا شكّ فِيهِ أَنه فرض علينا الصَّبْر لَهُ وَإِن امْتنع من ذَلِك بل من ضرب رقبته إِن وَجب عَلَيْهِ فَهُوَ فَاسق عَاص لله تَعَالَى وَإِمَّا إِن كَانَ ذَلِك بباطل فمعاذ الله أَن يَأْمر رَسُول الله ﷺ بِالصبرِ على ذَلِك برهَان هَذَا قَول الله عز وَجل {وتعاونوا على الْبر وَالتَّقوى وَلَا تعاونوا على الْإِثْم والعدوان} وَقد علمنَا أَن كَلَام رَسُول الله ﷺ لَا يُخَالف كَلَام ربه تَعَالَى قَالَ الله عز وَجل {وَمَا ينْطق عَن الْهوى أَن هُوَ إِلَّا وَحي يُوحى} وَقَالَ تَعَالَى {وَلَو كَانَ من عِنْد غير الله لوجدوا فِيهِ اخْتِلَافا كثيرا} فصح أَن كل مَا قَالَه رَسُول الله ﷺ فَهُوَ وَحي من عِنْد الله عز وَجل وَلَا

368 – الفتن لنعيم بن حماد (١/ ١٤٤) (٣٥٧) صحيح

369 – المعجم الأوسط (٣/ ١٩٠) (٢٨٩٣) صحيح لغيره

اخْتِلَاف فِيهِ وَلَا تعَارض وَلَا تنَاقض فَإِذا كَانَ هَذَا كَذَلِك فيقين لَا شكّ فِيهِ يدْرِي كل مُسلم أَن أَخذ مَال مُسلم أَو ذمِّي بِغَيْر حق وَضرب ظَهره بِغَيْر حق إِثْم وعدوان وَحرَام قَالَ رَسُول الله ﷺ إِن دماءكم وَأَمْوَالكُمْ وَأَعْرَاضكُمْ حرَام عَلَيْكُم فَإِذْ لَا شكّ فِي هَذَا وَلَا اخْتِلَاف من أحد من الْمُسلمين فالمسلم مَاله للأخذ ظلما وظهره للضرب ظلما وَهُوَ يقدر على الامْتِنَاع من ذَلِك بِأَيّ وَجه أمكنه معاون لظالمه على الْإِثْم والعدوان وَهَذَا حرَام بِنَصّ الْقُرْآن وَأما سَائِر الْأَحَادِيث الَّتِي ذكرنَا وقصة ابْني آدم فَلَا حجَّة فِي شَيْء مِنْهَا أما قصَّة ابْني آدم فَتلك شَرِيعَة أُخْرَى غير شريعتنا قَالَ الله عز وَجل {لكل جعلنَا مِنْكُم شرعة ومنهاجاً} وَأما الْأَحَادِيث فقد صَحَّ عَن رَسُول الله ﷺ من رأى مِنْكُم مُنْكرا فليغيره بِيَده إِن اسْتَطَاعَ فَإِن لم يسْتَطع فبلسانه فَإِن لم يسْتَطع فبقلبه وَذَلِكَ أَضْعَف الْإِيمَان لَيْسَ وَرَاء ذَلِك من الْإِيمَان شَيْء وَصَحَّ عَن رَسُول الله ﷺ لَا طَاعَة فِي مَعْصِيّة إِنَّمَا الطَّاعَة فِي الطَّاعَة وعَلى أحدكُم السّمع وَالطَّاعَة مَا لم يُؤمر بِمَعْصِيَة فَإِن أَمر بِمَعْصِيَة فَلَا سمع وَلَا طَاعَة وَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ من قتل دون مَاله فَهُوَ شَهِيد والمقتول دون دينه شَهِيد والمقتول دون مظْلمَة شَهِيد وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لتأمرن بِالْمَعْرُوف ولتنهون عَن الْمُنكر أَو ليعمنكم الله بِعَذَاب من عِنْده فَكَانَ ظَاهر هَذِه الْأَخْبَار مُعَارضا للْآخر فصح أَن إِحْدَى هَاتين الجملتين ناسخة للْأُخْرَى لَا يُمكن غير ذَلِك فَوَجَبَ النّظر فِي أَيهمَا هُوَ النَّاسِخ فَوَجَدنَا تِلْكَ الْأَحَادِيث الَّتِي مِنْهَا النَّهْي عَن الْقِتَال مُوَافقَة لمعهود الأَصْل وَلما كَانَت الْحَال فِيهِ فِي أول الْإِسْلَام بِلَا شكّ وَكَانَت هَذِه الْأَحَادِيث الْأُخر وَارِدَة بشريعة زَائِدَة وَهِي الْقِتَال هَذَا مَا لَا شكّ فِيهِ فقد صَحَّ نسخ متن تِلْكَ الحاديث وَرفع حكمهَا حِين نطقه عَلَيْهِ السَّلَام بِهَذِه الْأُخر بِلَا شكّ فَمن الْمحَال الْمحرم أَن يُؤْخَذ بالمنسوخ وَيتْرك النَّاسِخ وَأَن يُؤْخَذ الشَّك وَيتْرك الْيَقِين وَمن ادّعى أَن هَذِه الْأَخْبَار بعد أَن كَانَت هِيَ الناسخة فَعَادَت مَنْسُوخَة فقد ادّعى الْبَاطِل وَقفا مَا لَا علم لَهُ بِهِ فَقَالَ على الله مَا لم يعلم وَهَذَا لَا يحل وَلَو كَانَ هَذَا لما أخلا الله عز وَجل هَذَا الحكم عَن دَلِيل وبرهان يبين بِهِ رُجُوع الْمَنْسُوخ نَاسِخا لقَوْله تَعَالَى فِي الْقُرْآن تبياناً لكل شَيْء وبرهان آخر وَهُوَ أَن الله عز وَجل قَالَ {وَإِن طَائِفَتَانِ من الْمُؤمنِينَ اقْتَتَلُوا فأصلحوا بَينهمَا فَإِن بَغت إِحْدَاهمَا على الْأُخْرَى فَقَاتلُوا الَّتِي تبغي

حَتَّى تفيء} لم يخْتَلف مسلمان فِي أَن هَذِه الْآيَة الَّتِي فِيهَا فرض قتال الفئة الباغية محكمَة غير مَنْسُوخَة فصح أَنَّهَا الحاكمة فِي تِلْكَ الْأَحَادِيث فَمَا كَانَ مُوَافقا لهَذِهِ الْآيَة فَهُوَ النَّاسِخ الثَّابِت وَمَا كَانَ مُخَالفا لَهَا فَهُوَ الْمَنْسُوخ الْمَرْفُوع"[٣٧٠]

الثالث:حمل الزيادة على معنى خاص لا يتعارض مع النصوص الأخرى،وهو الحث على لزوم الجماعة ولزوم الخلافة في عصور الفتن،حتى وإن تعرض المسلم للتعذيب بسبب ذلك،فالخلافة العامة عصمة من الفتنة العامة،وقد ضبطت اللفظة على المبني للمجهول (وإن أُخذ مالك،وضُرب ظهرك)![٣٧١]

ويكون المعنى الزم الخلافة والجماعة،حتى وإن أوذيت بسبب ذلك على يد أهل الفتنة والفرقة فأخذوا مالك وضربوا ظهرك،كما فعل الخوارج في المسلمين حين كانوا يمتحنونهم بالبيعة لهم،ونقض بيعة خلفاء المسلمين!

ويزيده وضوحا رواية أبي داود الطيالسي عَنْ سُبَيْعِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ:غَلَتِ الدَّوَابُّ فَأَتَيْنَا الْكُوفَةَ نَجْلِبُ مِنْهَا دَوَابَّ فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَجُلٌ صَدَعٌ مِنَ الرِّجَالِ حَسَنُ الثَّغْرِ يُعْرَفُ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الْحِجَازِ وَإِذَا نَاسٌ مُشْرَئِبُّونَ عَلَيْهِ فَقَالَ:لَا تَعْجَلُوا عَلَيَّ أُحَدِّثْكُمْ،فَإِنَّا كُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ فَإِذَا أَمْرٌ لَمْ أَرَ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَكَانَ اللَّهُ رَزَقَنِي فَهْمًا فِي الْقُرْآنِ وَكَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ شَرٌّ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قُلْتُ:فَمَا الْعِصْمَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«السَّيْفُ»،قُلْتُ:فَهَلْ لِلسَّيْفِ مِنْ بَقِيَّةٍ؟ فَمَا يَكُونُ بَعْدَهُ؟ قَالَ:«تَكُونُ هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ»،قَالَ:قُلْتُ:فَمَا يَكُونُ بَعْدَ الْهُدْنَةِ؟ قَالَ:«دُعَاةُ الضَّلَالَةِ فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فَالْزَمْهُ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ وَإِنْ لَمْ تَرَ خَلِيفَةً فَاهْرُبْ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ»،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ:«الدَّجَّالُ».[٣٧٢]

---

370 – الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٣٣)

371 – كما في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٤٤/١٥ !

372 – مسند أبي داود الطيالسي (١/ ٣٥٥)(٤٤٤) صحيح

فالمقصود ليس الصبر على الجائر حتى وإن أخذ المال واستحل الضرب،بل الصبر على لزوم الخلافة العامة وجماعة الأمة،مهما تعرض المسلم للأذى على يد دعاة الضلالة والفرقة بسبب لزومه للخلافة والجماعة!

ويزيده بيانا الحديث المتفق عليه في الصحيحين عن أَبِي إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ يَقُولُ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه،صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[373]

وفي رواية أحمد عَنْ سُبَيْعٍ قَالَ:أَرْسَلُونِي مِنْ مَاهٍ إِلَى الْكُوفَةِ أَشْتَرِي الدَّوَابَّ،فَأَتَيْنَا الْكُنَاسَةَ فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ جَمْعٌ،قَالَ:فَأَمَّا صَاحِبِي فَانْطَلَقَ إِلَى الدَّوَابِّ وَأَمَّا أَنَا فَأَتَيْتُهُ،فَإِذَا هُوَ حُذَيْفَةُ،فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَأَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ شَرٌّ؟ قَالَ:" نَعَمْ "،قُلْتُ:فَمَا الْعِصْمَةُ مِنْهُ؟ قَالَ:" السَّيْفُ " - أَحْسَبُ أَبُو التَّيَّاحِ يَقُولُ:السَّيْفُ،أَحْسَبُ - قَالَ:قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:" ثُمَّ تَكُونُ هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ "،قَالَ:قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:" ثُمَّ تَكُونُ

---

373 - صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ - (١٨٤٧)

[ش (أسأله عن الشر) أستوضحه عنه. (مخافة أن يدركني) خوفا من أن أقع فيه أو أدرك زمنه. (دخن) من الدخان أي ليس خيرا خالصا بل فيه ما يشوبه ويكدره وقيل الدخن الأمور المكروهة. (تعرف منهم وتنكر) أي ترى منهم أشياء موافقة للشرع وأشياء مخالفة له. (جلدتنا) من أنفسنا وقومنا وقيل هم في الظاهر مثلنا ومعنا وفي الباطن مخالفون لنا في أمورهم وشؤونهم وجلدة الشيء ظاهره. (جماعة المسلمين) عامتهم التي تلتزم بالكتاب والسنة. (إمامهم) أميرهم العادل الذي اختاروه ونصبوه عليهم. (تعض بأصل شجرة) أي حتى ولو كان الاعتزال بالعض على أصل شجرة والعض هو الأخذ بالأسنان والشد عليها والمراد المبالغة في الاعتزال]

دُعَاةُ الضَّلَالَةِ،فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةَ اللهِ فِي الْأَرْضِ فَالْزَمْهُ،وَإِنْ نَهَكَ جِسْمَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ،فَإِنْ لَمْ تَرَهُ فَاهْرَبْ فِي الْأَرْضِ،وَلَوْ أَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ عَاضٌّ بِجِذْلِ شَجَرَةٍ "،قَالَ:قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:" ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ "،قَالَ:قُلْتُ:فَبِمَ يَجِيءُ بِهِ مَعَهُ؟ قَالَ:" بِنَهَرٍ ــ أَوْ قَالَ:مَاءٍ ــ وَنَارٍ،فَمَنْ دَخَلَ نَهْرَهُ حُطَّ أَجْرُهُ،وَوَجَبَ وِزْرُهُ،وَمَنْ دَخَلَ نَارَهُ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وِزْرُهُ "،قَالَ:قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:" لَوْ أَنْتَجْتَ فَرَسًا لَمْ تَرْكَبْ،فَلُوَّهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ "[٣٧٤]

ففيه تحذير من طاعة دعاة الضلالة والدعاة على أبواب جهنم،حتى وإن أخذوا ماله وضربوا ظهره،والأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم،إن كانت الخلافة قائمة،وإلا وجب على الفرد اعتزال تلك الفرق كلها،ووجب على الأمة بمجموعها القيام بواجبها في أن تقيم الجماعة الواحدة والخلافة الراشدة!

فقسَّم هذا الحديث الصحيح عن حذيفة الأطوار التي تمر بها الأمة،وأنظمتها السياسية،وخطابها السياسي إلى ثلاث مراحل:

أولا:مرحلة الخير المحض،وهو عهد النبوة والخلفاء الراشدين،حيث يسود الخطاب السياسي المنزل،وحيث الأمة الواحدة،والإمامة والخلافة الواحدة،ثم تحدث فتنة وشر،وهو ما جرى من فتن في آخر عهد الصحابة،وهي إرهاصات التحول إلى مرحلة جديدة.

ثانيا:مرحلة الخير الذي فيه دخن،حيث يظهر الخطاب المؤول،ويكون الناس جماعة واحدة على دخن فيهم وبينهم،وتختلط السنة بالبدعة،والخطاب المنزل بالمؤول،حيث يكون خلفاء يخلطون الخير بالشر،والمعروف بالمنكر،والسنة بالبدعة،كما قال عنهم النبي ﷺ «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»[٣٧٥].

وهم الذين قال فيهم كما في الحديث الصحيح عَنْ فُرَاتٍ القَزَّازِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ،قَالَ:قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ،فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ،كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ،وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي،وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ

374 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٨/ ٤٢١)(٢٣٤٢٥) صحيح

"نهك جسمك":أي أجهده. "بجذل":الجذل هو أصل الشجرة.

375 – صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦)

فَيَكْثُرُونَ» قَالُوا:فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:«فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ،أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»[٣٧٦]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ،فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»[٣٧٧]

وهؤلاء هم الذين تنزل عليهم أحاديث الصبر على ما قد يقع منهم من أثرة،مع أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر،وإعانتهم على الحق.

وهذه هي مرحلة الخطاب المؤول التي ظلت الخلافة فيه قائمة نحو ألف ومائتي عام،منذ استشهاد آخر خليفة صحابي وهو عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ إلى سقوط آخر خلافة للمسلمين وهي الخلافة العثمانية على يد الجيوش الصليبية الاستعمارية في الحرب العالمية الأولى!

قلت:" وقد يكون أمره بالصبر كما أمر الصحابي الجليل أبا ذر رضي الله عنه بذلك،حيث يكون هناك اختلاف في فهم أمور الحياة،وفي فهم الظلم وغيره،فقد لا يكون مظلوما في حقيقة الأمر،لأن الله تعالى قد حرم الظلم،وجعله محرما بين عباده وأمر برد المظالم،فلا يمكن أن يقر الظالم على ظلمه إلا إذا ترتب تغيير المنكر إلى منكر أشد منه،لأن تقدير الفرد في مثل هذه الظروف غير تقدير الجماعة قطعاً "

ثالثا:ثم مرحلة الشر المحض،وهي مرحلة الخطاب المبدل كلية،وما أقامته الحملة الصليبية على أنقاض الخلافة من دويلات طوائف على أسس قومية ووطنية،لتغيب لأول مرة في تاريخ المسلمين الخلافة الجامعة،ولتتشرذم الأمة والجماعة الواحدة،وتتعطل الشريعة الحاكمة،حيث الفتنة العمياء الصماء،فعَنْ عُمَيْرِ بْنِ إِسْحَاقَ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ

---

376 – صحيح البخاري (٤/ ١٦٩)(٣٤٥٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٤ – (١٨٤٢)

[ش (تسوسهم) تتولى أمورهم والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه. (فيكثرون) أي يكون أكثر من حاكم واحد للمسلمين في زمن واحد. (فوا) من الوفاء. (ببيعة الأول فالأول) أي إن الذي تولى الأمر وبويع قبل غيره هو صاحب البيعة الصحيحة التي يجب الوفاء بها وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها مطلقا. (أعطوهم حقهم) أطيعوهم في غير معصية. (سائلهم) محاسبهم بالخير والشر عن حال رعيتهم]

377 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠)٦١ – (١٨٥٣)

يَقُولُ:وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ،أَظَلَّتْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ أَظَلَّتْ،وَاللهِ لَهِيَ أَسْرَعُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْفَرَسِ الْمُضَمَّرِ السَّرِيعِ،الْفِتْنَةُ الْعَمْيَاءُ الصَّمَّاءُ الْمُشْبِهَةُ،يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا عَلَى أَمْرٍ وَيُمْسِي عَلَى أَمْرٍ،الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ،وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي،وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي،وَلَوْ أُحَدِّثُكُمْ بِكُلِّ الَّذِي أَعْلَمُ لَقَطَعْتُمْ،عُنُقِي مِنْ هَاهُنَا،وَأَشَارَ عَبْدُ اللهِ إِلَى قَفَاهُ بِحَرْفِ كَفِّهِ يَحُزُّه،وَيَقُولُ:اللَّهُمَّ لاَ يُدْرِكُ أَبَا هُرَيْرَةَ إِمْرَةُ الصِّبْيَان.[٣٧٨]

وَعَنْ ابْنِ عَائِذ،قَالَ:حَدَّثَنِي مِشْرَحٌ،أَنَّ ثَوْبَانَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ أَمَامَكُمْ فِتَنًا ثَلَاثًا دُونَ الدَّجَّالِ،إِحْدَاهُنَّ مَوْتِي،وَالْأُخْرَى فِتْنَةُ السَّرَّاءِ،وَالْأُخْرَى الْعَمْيَاءُ الصَّمَّاءُ الْمُظْلِمَةُ،تَلِجُ كُلَّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ،يَبْعَثُهَا رَجُلٌ مِنْ بَيْنِ الْحَجَرَيْنِ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ»[٣٧٩]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:" جُعِلَتْ فِي هَذِه الْأُمَّة خَمْسُ فِتَنٍ:فِتْنَةٌ عَامَّةٌ،ثُمَّ فِتْنَةٌ خَاصَّةٌ،ثُمَّ فِتْنَةٌ عَامَّةٌ،ثُمَّ فِتْنَةٌ خَاصَّةٌ،ثُمَّ تَأْتِي الْفِتْنَةُ الْعَمْيَاءُ الصَّمَّاءُ الْمُطْبِقَةُ الَّتِي تَصِيرُ النَّاسُ فِيهَا كَالْأَنْعَامِ »[٣٨٠]

فلا جماعة ولا خلافة،ليقوم فيها دعاة من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا،على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيه،حيث يحكم الأمة ويتصرف فيها خطاب سياسي مبدل،قوميا تارة،واشتراكيا تارة،وشيوعيا تارة ثالثة،ورأسماليا ليبراليا تارة أخرى!!

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه،لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ،وَالْبُخْلُ،وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ،وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ،وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ،وَتَظْهَرَ التُّحُوتُ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوُعُولُ وَالتُّحُوتُ؟ قَالَ:«الْوُعُولُ:وجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ،وَالتُّحُوتُ:الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ».[٣٨١]

ومما يؤكد أن الانحراف المقصود بهذا الحديث هو الانحراف في الخطاب السياسي،ما جاء فعن بِشْرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ الْحَضْرَمِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ،يَقُولُ:سَمِعْتُ

---

378 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (٢١/ ٩٤)(٣٨٤٠٦) حسن

379 – مسند الشاميين للطبراني (٣/ ٣٩٢)(٢٥٣٤) حسن

380 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٨٤)(٨٣٥٠) حسن زيادات مني

381 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٥/ ٢٥٨)(٦٨٤٤) صحيح لغيره زيادة مني

حُذَيْفَةَ،رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ يَقُولُ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ:إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،فَقُلْتُ:هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ فَقَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ»،فَقُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي،وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»،فَقُلْتُ:هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ:صِفْهُمْ لَنَا،قَالَ:«نَعَمْ،هُمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا». قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:«تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ:«اعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[382]

فجعل العصمة من هذه الفتنة العامة،لا بلزوم الكتاب والسنة الذين يجب لزومهما في كل وقت وحال،بل بلزوم النظام السياسي الإسلامي المتمثل في الخلافة الجامعة،والأمة الواحدة،وفي رواية عَنْ سُبَيْعِ بْنِ خَالِدٍ،قَالَ:غَلَتِ الدَّوَابُّ فَأَتَيْنَا الْكُوفَةَ نَجْلِبُ مِنْهَا دَوَابَّ فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَجُلٌ صَدَعٌ مِنَ الرِّجَالِ حَسَنُ الثَّغْرِ يُعْرَفُ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الْحِجَازِ وَإِذَا نَاسٌ مُشْرَئِبُّونَ عَلَيْهِ فَقَالَ:لَا تَعْجَلُوا عَلَيَّ أُحَدِّثْكُمْ،فَإِنَّا كُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ فَإِذَا أَمْرٌ لَمْ أَرَ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَكَانَ اللَّهُ رَزَقَنِي فَهْمًا فِي الْقُرْآنِ وَكَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ شَرٌّ ؟ قَالَ:نَعَمْ،قُلْتُ:فَمَا الْعِصْمَةُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ:السَّيْفُ،قُلْتُ:فَهَلْ لِلسَّيْفِ مِنْ بَقِيَّةٍ ؟ فَمَا يَكُونُ بَعْدَهُ ؟ قَالَ:تَكُونُ هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ،قَالَ:قُلْتُ:فَمَا يَكُونُ بَعْدَ الْهُدْنَةِ ؟ قَالَ:دُعَاةُ الضَّلَالَةِ فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً فَالْزَمْهُ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ وَإِنْ لَمْ تَرَ خَلِيفَةً فَاهْرُبْ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ:الدَّجَّالُ.[383]

---

382 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٧٢) صحيح

383 – مسند أبي الطيالسي –طبعة دار هجر – مصر (١/ ٢٥٢)(٤٤٤) صحيح

فدل على أن المحدثات والبدع هي في الخطاب السياسي الذي يسوس شئون الأمة على غير هدى الكتاب والسنة وسنن الخلفاء الراشدين،كما في الحديث عن خَالِدَ بْنِ مَعْدَانَ،قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ،وَحُجْرُ بْنُ حُجْرٍ،قَالَا:أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة:٩٢] فَسَلَّمْنَا،وَقُلْنَا:أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ،فَقَالَ الْعِرْبَاضُ:صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ،تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ،فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ،وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٣٨٤]

حيث بدأت بالملك العضوض،ثم يأتي زمان تزول فيه الخلافة كلية،ويكون البديل عنها جبابرة وطواغيت ودعاة على أبواب جهنم،كل طاغوت يحكم في بلده وفق هواه وشهواته وياسقه![٣٨٥]

ثم ستعود بعد ذلك خلافة على نهج النبوة من جديد،كما جاء في أحاديث صحيحة أخرى عن حذيفة نفسه!

---

384 – سنن أبي داود (٤/ ٢٠١)(٤٦٠٧) صحيح

385 – قال ابن كثير:وَقَوْلُهُ:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ،النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدَلَ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ،الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ،كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ،مِمَّا يَضَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ،وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ،الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ الْيَاسَاقَ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدِ اقْتَبَسَهَا عَنْ شَرَائِعَ شَتَّى،مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ،فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا،يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ. وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ،حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [ﷺ] فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} أَيْ:يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ،وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ.تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)

فربط حديث حذيفة الانحراف بما سيجري من افتراق الجماعة والإمامة،وهو موضوع سياسي،إذ توحيد الأمة السياسي قرين توحيدها الديني كما في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا،وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا،فَيَرْضَى لَكُمْ:أَنْ تَعْبُدُوهُ،وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا،وَيَكْرَهُ لَكُمْ:قِيلَ وَقَالَ،وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ،وَإِضَاعَةَ الْمَالِ "[٣٨٦]

ويزيده وضوحا ما جاء عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثُهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ "[٣٨٧]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ وَهْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ،رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ يَقُولُ:لَكَأَنِّي بِرَاكِبٍ قَدْ أَنَاخَ بِكُمْ،فَقَالَ:الْأَرْضُ أَرْضُنَا،وَالْمَالُ مَالُنَا،فَحَالَ بَيْنَ الْأَرَامِلِ وَالْمَسَاكِينِ،وَبَيْنَ الْمَالِ الَّذِي أَفَاءَ اللهُ عَلَى آبَائِهِمْ "[٣٨٨]

فكل هذه الأحاديث التي كان يحدث بها حذيفة بن اليمان تتحدث عن فتن سياسية،وعن انحراف في الخطاب السياسي،وعن بعض ملامح هذا الانحراف،وأنها تطرأ على الخلافة وتحولها من خلافة راشدة وشورى على نهج النبوة،إلى خلافة ملك عضوض،ثم ملك جبري قهري،واستبداد بالسلطة،واستئثار بالأموال،وأن من يفعلون ذلك سيدَّعون أن الأرض أرضهم والمال مالهم،بعد أن كانت الأرض للأمة والمال مالها!

386 – صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٠)١٠ – (١٧١٥)

387 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٣٥٥)(١٨٤٠٦) صحيح

388 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٧٥) صحيح

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ،أَنَّهُ صَعِدَ الْمِنْبَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ:إِنَّمَا الْمَالُ مَالُنَا،وَالْفَيْءُ فَيْئُنَا،فَمَنْ شَاءَ أَعْطَيْنَاهُ وَمَنْ شِئْنَا مَنَعْنَاهُ،فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ،فَلَمَّا كَانَ الْجُمُعَةُ الثَّانِيَةُ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ،فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ،فَلَمَّا كَانَ الْجُمُعَةُ الثَّالِثَةُ قَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ،فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِمَّنْ حَضَرَ الْمَسْجِدَ،فَقَالَ:كَلَّا،إِنَّمَا الْمَالُ مَالُنَا وَالْفَيْءُ فَيْئُنَا،فَمَنْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ حَاكَمْنَاهُ إِلَى اللهِ بِأَسْيَافِنَا،فَنَزَلَ مُعَاوِيَةُ فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَأَدْخَلَهُ فَقَالَ الْقَوْمُ:هَلَكَ الرَّجُلُ،ثُمَّ دَخَلَ النَّاسُ فَوَجَدُوا الرَّجُلَ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِلنَّاسِ:إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَحْيَانِي أَحْيَاهُ اللهُ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«سَيَكُونُ أَئِمَّةٌ مِنْ بَعْدِي يَقُولُونَ وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ،يَتَقَاحَمُونَ فِي النَّارِ كَمَا تَتَقَاحَمُ الْقِرَدَةُ»،وَإِنِّي تَكَلَّمْتُ أَوَّلَ جُمُعَةٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ أَحَدٌ،فَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ،ثُمَّ تَكَلَّمْتُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ أَحَدٌ،فَقُلْتُ فِي نَفْسِي:إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ،ثُمَّ تَكَلَّمْتُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّالِثَةِ فَقَامَ هَذَا الرَّجُلُ فَرَدَّ عَلَيَّ فَأَحْيَانِي أَحْيَاهُ اللهُ"[٣٨٩]

الثاني عشر – ملامح الانحراف السياسي وتحوله من خلافة راشدة...

لقد وردت أحاديث كثيرة كحديث حذيفة،تحدد ملامح الانحراف في الخطاب السياسي وتحوله من خلافة راشدة،ثم خلافة رحمة،إلى خلافة ملك عضوض،ثم إلى جبابرة وطواغيت ومن ذلك:

١– عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَوَّلُ دِينِكُمْ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ أَعْفَرُ،ثُمَّ مُلْكٌ وَجَبَرُوتٌ يُسْتَحَلُّ فِيهَا الْخَمْرُ وَالْحَرِيرُ» قَالَ أَبُو مُحَمَّد:" سُئِلَ عَنْ أَعْفَرَ فقال:يُشَبِّهُهُ بالتُّرَابِ ولَيْسَ فيه خَيْرٌ "[٣٩٠]

وفي رواية عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«أَوَّلُ دِينِكُمْ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ وَجَبْرِيَّةٌ يُسْتَحَلُّ فِيهَا الْحِرُ وَالْحَرِيرُ»[٣٩١]

---

389 – المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٣٩٣)(٩٢٥) حسن زيادة مني

390 – سنن الدارمي (٢/ ١٣٣٤)(٢١٤٦) صحيح لغيره

391 – مسند الشاميين للطبراني (٢/ ٢٩٣)(١٣٦٩) صحيح لغيره

وفي رواية عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«أَوَّلُ هَـذِه الْأُمَّة نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ عَضُوضٌ،ثُمَّ تَصِيرُ جَبْرِيَّةً وَعَبَثًا»[٣٩٢]

وفي رواية وعَنْ أَبِي عُبَيْدَة بْنِ الْجَرَّاحِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَحَدُهُمَا:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«أَوَّلُ هَذِه الْأُمَّة نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكًا عَضُوضًا» وَقَالَ أَحَدُهُمَا:«عَاضٌّ وَفِيه رَحْمَةٌ،ثُمَّ جَبَرُوتٌ صَلْعَاءُ لَيْسَ لِأَحَد فِيهَا مُتَعَلَّقٌ،تُضْرَبُ فِيهَا الرِّقَابُ،وَتُقْطَعُ فِيهَا الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ،وَتُؤْخَذُ فِيهَا الْأَمْوَالُ»[٣٩٣]

٢- عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ دِينَكُمْ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكًا وَجَبْرِيَّةٌ،ثُمَّ مُلْكًا عَضُوضًا يُسْتَحَلُّ فِيه الْحِرُ وَالْحَرِيرُ»[٣٩٤]

٣- عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ قَالَ:كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ،وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يَتَنَاجَيَانِ بَيْنَهُمَا بِحَدِيثٍ،فَقُلْتُ لَهُمَا:مَا حَفِظْتُمَا وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّه ﷺ بِي؟ قَالَ:وَكَانَ أَوْصَاهُمَا بِي،قَالَا:مَا أَرَدْنَا أَنْ نَنْتَجِي بِشَيْءٍ دُونَكَ،إِنَّمَا ذَكَرْنَا حَدِيثًا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ،فَجَعَلَا يَتَذَاكَرَانِه قَالَا:«إِنَّهُ بَدَأَ هَذَا الْأَمْرُ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ كَائِنٌ خِلَافَةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ كَائِنٌ مُلْكًا عَضُوضًا،ثُمَّ كَائِنٌ عُتُوًّا وَجَبْرِيَّةً وَفَسَادًا فِي الْأُمَّة،يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيرَ وَالْخُمُورَ وَالْفُرُوجَ وَالْفَسَادِ فِي الْأُمَّة،يُنْصَرُونَ عَلَى ذَلِكَ،وَيُرْزَقُونَ أَبَدًا حَتَّى يَلْقُوا اللَّهَ»[٣٩٥]

٥- عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي عَمْرٍو السَّيْبَانِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ كَعْبًا،يَقُولُ:«أَوَّلُ هَذِه الْأُمَّة نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ سُلْطَانٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ مُلْكٌ جَبْرِيَّةٌ،فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَبَطْنُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنْ ظَهْرِهَا»[٣٩٦]

ويظهر من مجموع هذه الأحاديث أنه تكون بعد النبوة ثلاث نظم سياسية:

---

392 - الفتن لنعيم بن حماد (١/ ٩٨)(٢٣٥) حسن

393 - الفتن لنعيم بن حماد (١/ ٩٨)(٢٣٣) صحيح لغيره

394 - المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٢٢٣)(٥٩١) صحيح لغيره

395 - مسند أبي يعلى الموصلي (٢/ ١٧٧)(٨٧٣) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ١٥٢)(٥٩٤) والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (٩/ ٥٧٤)(٢٠٩٢) حسن

396 - الفتن لنعيم بن حماد (١/ ٩٩)(٢٣٧) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٢٥) صحيح

أولا:خلافة رحمة على نهج النبوة،وهي التي تعبر عن مضامين الخطاب المترل،وهي تنقسم إلى فترتين:خلافة نبوة،وهو عهد الخلفاء الراشدين،وخلافة رحمة،وهم الخلفاء من الصحابة بعد الخلفاء الراشدين،كما فصلته في (تحرير الإنسان).

ثانيا:خلافة مشوبة بملك فيه رحمة،وسلطان ورحمة،وملك أعفر مختلط،وهو الذي يمثل الخطاب المؤول،وهم الخلفاء الذين تتابعوا بعد عهد الصحابة من خلفاء بني أمية وبني العباس وبني عثمان،حيث يكون الأمر فيه بالمغالبة والقوة وهو خلافة الملك،مع العدل والصلاح والحكم بالشريعة والجهاد في سبيل الله،إلا أنه تختلط فيه السنة والبدعة،والمعروف والمنكر،وسلطان ورحمة،وملك أعفر،ويختلط فيه الخير والشر،والرحمة والشدة،والاستبداد والعدل،كما في الحديث الصحيح (تعرف منهم وتنكر)،ثم يزول هذا الأمر كلية.

ثالثا:ثم تزول الخلافة كلية ويخلفها جبرية وطاغوتية وعبث لا رحمة فيه،وجبابرة وطواغيت،يستحلون فيها كل المحرمات،وتضرب فيها الرقاب،وتسفك الدماء،وتقطع الأيدي والأرجل،وتؤخذ الأموال،ويستباح الخمر والربا والزنى،فلا خلافة،ولا جماعة واحدة،ولا شريعة حاكمة،ولا جهاد قائم،وهم الذين قال فيهم الحديث «دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»[397]،وهم الذين أوجب الشارع على الأمة اعتزالهم!

وهو الواقع المعاصر الذي زالت فيه الخلافة الإسلامية كلية لأول مرة في تاريخ الأمة،بعد أن ساد المسلمون العالم مدة ثلاثة عشر قرنا بالخلافة والجماعة،فحدث ما أخبر به النبي ﷺ بحذافيره،وحلَّ محل ذلك خطاب سياسي مبدل،على يد الحملة الصليبية في الحرب العالمية الأولى،التي أقامت على أنقاض الخلافة دويلات الطوائف والفتنة،حيث تم تعطيل الشريعة الإسلامية كلية،وتم استباحة الربا والخمر والزنى،وقام فيها الطواغيت في عامة أمصار المسلمين،وتسلطت أنظمة حكم بدعم من الاستعمار الأجنبي بما لا عهد للأمة به في تاريخها كله،حتى تحول العالم العربي خاصة إلى سجن كبير لشعوبه،وحتى بلغ سجناء الرأي

---

397 – صحيح البخاري (٩/ ٥١)(٧٠٨٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ – (١٨٤٧)

في بعض دوله في مدة واحدة مائة ألف سجين،وقام فيه دعاة للطواغيت من بني جلـــدتنا ويتكلمون بألسنتنا،يدعون إلى أبواب جهنم!

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري قَوله:"هُم مِن جِلدَتِنا"؛أَي مِن قَومِنا ومِن أَهلِ لِساننا ومِلَّتنا،وفِيهِ إِشارَة إِلَى أَنَّهُم مِنَ العَرَب.

وقالَ الدّاوُدِيُّ:أَي مِن بَنِي آدَم.وقالَ القابِسِيّ:مَعناهُ أَنَّهُم فِي الظّاهِرِ عَلَى مِلَّتنا وفِي الباطِنِ مُخالِفُونَ.

وقَولُه:"وأَنتَ عَلَى ذَلِكَ أَي العَضّ"،وهُو كِنايَة عَن لُـــزُوم جَماعَـــة المُســـلِمِينَ وطاعَـــة سَلاطِينهم ولَو عَصَوا. قالَ البَيضاوِيّ:المَعنَى إِذا لَم يَكُن فِي الأَرض خَلِيفَة فَعَلَيك بِالعُزلَـــةِ والصَّبر عَلَى تَحَمُّل شِدَّة الزَّمان "..[٣٩٨]

رابعا:ثم ستزول هذه الأنظمة،لتعود من جديد خلافة على نهج النبوة،وستعود وحـــدة الأمة من جديد،وتعود أحكام الشريعة من جديد بالعدل والقسط والرحمة والعلم،وتعـــود للأمة حريتها وخلافتها في الأرض من جديد،كما بشر بذلك النبي ﷺ،وكما تشـــهد بـــه إرهاصات الواقع المعاصر،وما ذلك على الله بعزيز،إلا إن الإصلاح لن يحدث فجأة،كمـــا أن الانحراف لم يحدث فجأة،بل على مراحل كما هي سنن الله الـــتي لا تتخلف،وكمـــا أخبر بذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح عَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ..»[٣٩٩]

وكما في الحديث الآخر عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا يَلْبَثُ الْجَـــوْرُ بَعْدِي إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَطْلُعَ،فَكُلَّمَا طَلَعَ مِنَ الْجَوْرِ شَيْءٌ ذَهَبَ مِنَ الْعَدْلِ مِثْلُهُ،حَتَّى يُولَدَ فِي الْجَوْرِ مَنْ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ،ثُمَّ يَأْتِي اللهُ بِالْعَدْلِ،فَكُلَّمَا جَاءَ مِنَ الْعَدْلِ شَيْءٌ،ذَهَبَ مِنَ الْجَوْرِ مِثْلُهُ،حَتَّى يُولَدَ فِي الْعَدْلِ مَنْ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ "[٤٠٠]

الثالث عشر – ليست كل سلطة شرعية وتجب طاعتها

---

398 – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ٣٦)

399 – صحيح مسلم (١/ ١٣١)(١٤٦)

400 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٣/ ٤٢٢)(٢٠٣٠٨) ومسند الروياني (٢/ ٣٢٧)(١٢٩٢) حسن

من ظن أن كل سلطة هي سلطة شرعية مهما كانت طبيعة النظام السياسي،وأن كل ذي سلطان مهما كان حاله يجب طاعته،فقد خالف الكتاب والسنة وأقوال الأئمة،بل إن أهل السنة والجماعة لا يعترفون بأي نظام حكم إلا بالخلافة على أصولها،كما جاء في الحديث الصحيح عن خَالِدَ بْنِ مَعْدَانَ،حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ،وَحُجْرُ بْنُ حُجْرٍ الْكَلَاعِيُّ،قَالَا:أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ:{وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة:٩٢]،فَسَلَّمْنَا وَقُلْنَا:أَتَيْنَاكَ زَائِرَيْنَ وَمُقْتَبِسَيْنِ،فَقَالَ الْعِرْبَاضُ:صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً،ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ:«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ،وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،فَتَمَسَّكُوا بِهَا،وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ،وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٤٠١]

وفي الصحيح عَنْ فُرَاتٍ القَزَّازِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ،قَالَ:قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ،فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ،كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ،وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي،وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ» قَالُوا:فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:«فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ،أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»[٤٠٢]

وفي الحديث الأخر الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ،فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»[٤٠٣]

---

401 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ١٧٨)(٥) صحيح

402 – صحيح البخاري (٤/ ١٦٩)(٣٤٥٥)

[ش (تسوسهم) تتولى أمورهم والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه. (فيكثرون) أي يكون أكثر من حاكم واحد للمسلمين في زمن واحد. (فوا) من الوفاء. (ببيعة الأول فالأول) أي إن الذي تولى الأمر وبويع قبل غيره هو صاحب البيعة الصحيحة التي يجب الوفاء بها وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها مطلقا. (أعطوهم حقهم) أطيعوهم في غير معصية. (سائلهم) محاسبهم بالخير والشر عن حال رعيتهم]

403 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠)٦١ – (١٨٥٣)

الرابع عشر– أهل السنة والجماعة لا يعترفون بتعدد الأئمة:

فأهل السنة والجماعة وهم عامة الأمة،يرون الخلافة الواحدة هي النظام الشرعي الوحيد في الإسلام،ولا يعترفون بتعدد الأئمة،ولا بافتراق الأمة،فإذا كانت الأمة جماعة واحدة على إمام واحد،يحكم بينهم بما أنزل الله،فهذا الذي تجب طاعته بالمعروف،فإن كان زمن فتنة وفرقة،ولا خلافة ولا جماعة،كما هو حال الأمة اليوم،فلا بيعة تلزم الأمة لواحد من المختلفين،قال الخلال:وَأَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي هَارُونَ،أَنَّ إِسْحَاقَ،حَدَّثَهُمْ أَنَّ أَبَا عَبْد اللَّه سُئِلَ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ:«مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»،مَا مَعْنَاهُ؟ قَالَ أَبُو عَبْد اللَّه:" تَدْرِي مَا الْإِمَامُ؟ الْإِمَامُ الَّذِي يُجْمِعُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ،كُلُّهُمْ يَقُولُ:هَذَا إِمَامٌ،فَهَذَا مَعْنَاهُ "[٤٠٤]

وقَالَ أَحْمَدُ فِي رِسَالَةِ عُبْدُوسِ بْنِ مَالِكٍ الْعَطَّارِ:" أُصُولُ السُّنَّةِ عِنْدَنَا التَّمَسُّكُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – " إِلَى أَنْ قَالَ:" وَمَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ فَأَجْمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَرَضُوا بِهِ،وَمَنْ غَلَبَهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى صَارَ خَلِيفَةً وَسُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَدَفْعُ الصَّدَقَاتِ إِلَيْهِ جَائِزٌ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا ".

وَقَالَ فِي رِوَايَةِ إِسْحَاقَ بْنِ مَنْصُورٍ،وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ – ﷺ – " «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» " مَا مَعْنَاهُ؟ فَقَالَ:تَدْرِي مَا الْإِمَامُ؟ الْإِمَامُ الَّذِي يُجْمِعُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ،كُلُّهُمْ يَقُولُ:هَذَا إِمَامٌ؛ فَهَذَا مَعْنَاهُ " [٤٠٥]

واحتج بفعل ابن عمر نفسه،راوي هذا الحديث،فعن سَعِيدَ بْنِ حَرْبٍ الْعَبْدِيِّ،قَالَ:كُنْتُ جَلِيسًا لِعَبْد اللهِ بْنِ عُمَرَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ زَمَنَ ابْنِ الزُّبَيْرِ،وَفِي طَاعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ رُءُوسُ الْخَوَارِجِ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ وَعَطِيَّةُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَنَجْدَةُ فَبَعَثُوا أَوْ بَعْضُهُمْ شَابًّا إِلَى عَبْد اللهِ بْنِ عُمَرَ:مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُبَايِعَ لِعَبْد اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَرَأَيْتُهُ حِينَ مَدَّ يَدَهُ وَهِيَ تَرْجُفُ مِنَ الضَّعْفِ،فَقَالَ:" وَاللهِ مَا كُنْتُ لِأُعْطِيَ بَيْعَتِي فِي فُرْقَةٍ،وَلَا أَمْنَعُهَا مِنْ جَمَاعَةٍ "[٤٠٦]

---

404 – السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ٨١)(١٠)

405 – منهاج السنة النبوية (١/ ٥٢٩)

406 – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٣٤)(١٦٨٠٩) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣١/ ١٩٠) وتلخيص المتشابه في الرسم للخطيب البغدادي (٢/ ٨٠٤)(١٥٦٠) والتاريخ الأوسط (١/ ١٦٤)(٧٤٩) حسن

وعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ الْبَرَاءِ،أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ،وَعَبْدَ اللهِ بْنَ صَفْوَانَ،كَانَا ذَاتَ يَوْمٍ قَاعِدَيْنِ فِي الْحِجْرِ،فَمَرَّ بِهِمَا ابْنُ عُمَرَ،وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ،فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ:أَتُرَاهُ بَقِيَ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنْ هَذَا؟ ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ:ادْعُهُ لَنَا إِذَا قَضَى طَوَافَهُ فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ،وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ،أَتَاهُ رَسُولُهُمَا فَقَالَ:هَذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ صَفْوَانَ يَدْعُوانِكَ،فَجَاءَ إِلَيْهِمَا فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ صَفْوَانَ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُبَايِعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ،فَقَدْ بَايَعَ لَهُ أَهْلُ الْعَرُوضِ وَأَهْلُ الْعِرَاقِ وَعَامَّةُ أَهْلِ الشَّامِ؟ فَقَالَ:" وَاللهِ لَا أُبَايِعُكُمْ وَأَنْتُمْ وَاضِعُو سُيُوفِكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَصُبَّبُ أَيْدِيكُمْ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ " [٤٠٧]

وعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ،وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ صَفْوَانَ،كَانَا فِي الْحِجْرِ،فَمَرَّ بِهِمَا ابْنُ عُمَرَ،فَبَعَثَا إِلَيْهِ فَأَتَاهُمَا،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَفْوَانَ:مَا يَمْنَعُكَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنْ تُبَايِعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ،وَقَدْ بَايَعَ لَهُ أَهْلُ الْعُرُوضِ،وَأَهْلُ الْعِرَاقِ،وَعَامَّةُ أَهْلِ الشَّامِ؟ فَقَالَ:«لَا وَاللَّهِ،لَا أُبَايِعُكُمْ وَأَنْتُمْ وَاضِعُوا سُيُوفِكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ يُصِيبُ أَحَدُكُمْ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ»[٤٠٨]

وهذا مذهب محمد بن علي رضي الله عنه المشهور بابن الحنفية،جَاءَ كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَرَسُولٌ حَتَّى دَخَلَ الشِّعْبَ فقرأ محمد ابن الْحَنَفِيَّةِ الْكِتَابَ فَقَرَأَ كِتَابًا لَوْ كَتَبَ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى بَعْضِ إِخْوَتِهِ أَوْ وَلَدِهِ مَا زَادَ عَلَى أَلْطَافِهِ. وَكَانَ فِيهِ:إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ ضَيَّقَ عَلَيْكَ وَقَطَعَ رَحِمَكَ وَاسْتَخَفَّ بِحَقِّكَ حَتَّى تُبَايِعَهُ فَقَدْ نَظَرْتَ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ وَأَنْتَ أَعْرَفُ بِهِ حَيْثُ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ. وَهَذَا الشَّامُ فَانْزِلْ منه حيث شئت فنحن مكرموك وواصلو رحمك وعارفو حَقَّكَ. فَقَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ لأَصْحَابِهِ:هَذَا وَجْهٌ نَخْرُجُ إِلَيْهِ. قَالَ فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا مَعَهُ وَمَعَهُ كُثَيِّرُ عَزَّةَ يَنْشُدُ شَعَرًا:

أَنْتَ إِمَامُ الْحَقِّ لَسْنَا نَمْتَرِي... أَنْتَ الَّذِي نَرْضَى بِهِ وَنَرْتَجِي

أَنْتَ ابْنُ خَيْرِ النَّاسِ مِنْ بَعْدِ النَّبِي... يَا ابْنَ عَلِيٍّ سِرْ وَمَنْ مِثْلُ عَلِي

حَتَّى تَحِلَّ أَرْضَ كَلْبٍ وَبَلِي

---

407 – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٣٤)(١٦٨٠٨) و تاريخ دمشق لابن عساكر (٣١/ ١٨٩) صحيح

408 – الفتن لنعيم بن حماد (١/ ١٦١)(٤١٢) صحيح

قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ:فَسِرْنَا حَتَّى نَزَلْنَا أَيْلَةَ فَجَاوَرُونَا بِأَحْسَنِ جِوَارٍ وَجَاوَرْنَاهُمْ بِأَحْسَنِ ذَلِكَ وَأَحَبُّوا أَبَا الْقَاسِمِ حُبًّا شَدِيدًا وَعَظَّمُوهُ وَأَصْحَابَهُ. وَأُمِرْنَا بِالْمَعْرُوفِ وَنُهِينَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلا يُظْلَمُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ قُرْبَنَا وَلا بِحَضْرَتِنَا. فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الْمَلِكِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَذَكَرَهُ لِقَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيْبٍ وَرَوْحِ بْنِ زِنْبَاعٍ وَكَانَا خَاصَّتَهُ فَقَالا:مَا نرى أَنْ نَدَعَهُ يُقِيمُ فِي قُرْبَةٍ مِنْكَ وَسِيرَتُهُ سِيرَتُهُ حَتَّى يُبَايِعَ لَكَ أَوْ تَصْرِفَهُ إِلَى الْحِجَازِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ:إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلادِي فَنَزَلْتَ فِي طَرَفٍ مِنْهَا. وَهَذِهِ الْحَرْبُ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الزُّبَيْرِ كَمَا تَعْلَمُ. وَأَنْتَ لَكَ ذِكْرٌ وَمَكَانٌ. وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ لا تُقِيمَ فِي سُلْطَانِي إِلا أَنْ تَبَايِعَ لِي. فَإِنْ بَايَعْتَنِي فَخُذِ السُّفُنَ الَّتِي قَدِمَتْ عَلَيْنَا مِنَ الْقُلْزُمِ وَهِيَ مِائَةُ مَرْكَبٍ فَهِيَ لَكَ وَمَا فِيهَا. وَلَكَ أَلْفَا أَلْفِ دِرْهَمٍ أُعَجِّلُ لَكَ مِنْهَا خَمْسَمِائَةِ أَلْفٍ وَأَلْفَ أَلْفٍ وَخَمْسَمِائَةِ أَلْفٍ آتَيْتُكَ مَعَ مَا أَرَدْتَ مِنْ فَرِيضَةٍ لَكَ وَلِوَلَدِكَ وَلِقَرَابَتِكَ وَمَوَالِيكَ وَمَنْ مَعَكَ. وَإِنْ أَبَيْتَ فَتَحَوَّلْ عَنْ بَلَدِي إِلَى مَوْضِعٍ لا يَكُونُ لِي فِيهِ سُلْطَانٌ. قَالَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ. سَلامٌ عَلَيْكَ. فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَرَفْتَ رَأْيِي فِي هَذَا الأَمْرِ قَدِيمًا. وَإِنِّي لَسْتُ أُسَفِّهُهُ عَلَى أَحَدٍ. وَاللَّهِ لَوِ اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَيَّ إِلا أَهْلُ الزَّرْقَاءِ مَا قَاتَلْتُهُمْ أَبَدًا وَلا اعْتَزَلْتُهُمْ حَتَّى يَجْتَمِعُوا. نَزَلْتُ مَكَّةَ فِرَارًا مِمَّا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَجَاوَرْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ فَأَسَاءَ جِوَارِي وَأَرَادَ مِنِّي أَنْ أُبَايِعَهُ فَأَبَيْتُ ذَلِكَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْكَ أَوْ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَدْخُلَ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَأَكُونُ كَرَجُلٍ مِنْهُمْ. ثُمَّ كَتَبْتَ إِلَيَّ تَدْعُونِي إِلَى مَا قِبَلَكَ فَأَقْبَلْتُ سَائِرًا فَنَزَلْتُ فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِكَ. وَاللَّهِ مَا عِنْدِي خِلافٌ وَمَعِي أَصْحَابِي فَقُلْنَا بِلادٌ رَخِيصَةُ الأَسْعَارِ وندنو مِنْ جِوَارِكَ وَنَتَعَرَّضُ صِلَتَكَ.فَكَتَبْتَ بِمَا كَتَبْتَ بِهِ وَنَحْنُ مُنْصَرِفُونَ عَنْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.[٤٠٩]

الخامس عشر– لا تجوز طاعة هؤلاء الطواغيت

---

409 – الطبقات الكبرى ط العلمية (٥/ ٧٩)

فإذا كان ابن عمر ومحمد بن الحنفية وأحمد بن حنبل لا يرون البيعة ولا السمع والطاعة حال افتراق الأمة على رجلين في الحجاز والشام،فكيف بهذا العصر الذي هو عصر الشر المحض والدعاة إلى أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها،وهو الذي لا جماعة فيه ولا خلافة عامة،بل فرقة عامة وتشرذم ودويلات طوائف وملوك وجبابرة وطواغيت،لكل دولة دعاة يدعون لطاعة طاغوتها،ولها خطاب يخالف خطاب القرآن والسنة،وما كان عليها الخلفاء الراشدون،بل وما كان عليه الخلفاء المسلمون حتى في عصر المحدثات،حيث تغيب اليوم الخلافة تماما،وتتعطل أحكام الشريعة،وتستحل فيه المحرمات والموبقات وتسفك الدماء ظلما وعدوانا وطغيانا،وهو هذا الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم منذ سقوطها تحت جحافل الاستعمار الغربي في الحرب العالمية الأولى،تلك الحملة التي فرضت على الأمة واقعاً سياسياً واقتصاديا وتشريعيا وثقافيا وعسكريا يصطدم بأصول دينها وأحكام شريعتها،فأسقطت خلافتها،وفرقت وحدتها،وأقصت شريعتها،وعطلت قدرتها وقوتها،وأقامت بدلا من ذلك دويلات قطرية وحددت حدودها وفق مصالحها الصليبية الاستعمارية في العالم الإسلامي،وهو ما لم يحدث في تاريخ الأمة كله مدة ثلاثة عشر قرنا،فتحولت تلك الدويلات القطرية إلى كيانات هشة ضعيفة متخلفة وقواعد عسكرية للدول الاستعمارية والقوى الدولية!

كما فرضت تلك الحملة الاستعمارية الصليبية على الأمة القوانين والتشريعات الوضعية الغربية الفرنسية والبريطانية والسويسرية حتى غدت المصدر التشريعي الرئيسي في عامة أقطارها و لم يعد التحاكم للشريعة وللكتاب والسنة قائما بل ولا مسموحا به إلا هامشيا!

وتم استباحة الربا الصريح بكل صوره حتى شاعت مؤسساته في كل قطر وصار الاقتصاد فيها قائما عليه حتى تحولت أكثر بلدان العالم الإسلامي والعربي خاصة إلى أكبر مدين للدول الغربية الصليبية التي تتحكم بأسواقها ومنتجاتها وقراراتها الاقتصادية وأصبح العالم العربي كله يعيش حالة من التبعية للغرب والتخلف الاقتصادي والتنموي والمعرفي.

كما تم فرض ثقافة غربية صليبية تحرم على الأمة حقها في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن أرضها ودينها وحقوقها وثرواتها بذريعة مكافحة الإرهاب – في الوقت الذي تشن أمريكا

وأوربا الحروب الصليبية على الأمة – حتى وصل الأمر إلى كافة المنابر الثقافية والإعلامية والمناهج التعليمية،فتشكلت ثقافة دينية وسياسية ممسوخة ترسخ وجود الاحتلال،وتكرسه باسم الإسلام تارة،وباسم المصلحة الوطنية تارة أخرى!

كما فُرض على الأمة حصار معرفي صناعي وتقني وربطت تلك الأقطار والدويلات بمعاهدات عسكرية بالدول الصليبية تحول دون قدرتها على الدفاع عن نفسها والاستقلال بقرارها وسيادتها،حتى تحولت إلى أكبر قاعدة عسكرية للجيوش الغربية الصليبية الاستعمارية تنطلق منها لشن حروبها على شعوب العالم الإسلامي،وإذا الأمر يصل حد موالاتهم والقتال معهم لترسيخ شوكتهم وهو باب ردة جامحة كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ **وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة:٥١]،بينما اشترط في الولاية الشرعية على المؤمنين أن تكون منا { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ **وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]!

ومع هذا كله فما من بلد من هذه البلدان وهذه الفرق – التي افترقت عن الخلافة وفارقت الإسلام والكتاب والسنة وهدي الخلفاء الراشدين على اختلاف مستويات هذا الافتراق – إلا ولها دعاة ضلالة على أبواب جهنم يدعون الأمة إلى طاعة أنظمتها وطغاتها،ويعظمون أمرهم ويوجبون طاعتهم ومولاتهم باسم الإسلام والسنة وسلف الأمة! ويزينون باطلهم حتى صار المنكر معروفا والمعروف منكرا وصارت طاعة الطواغيت – الذين يعطلون حكم الله ويحاربون الله ورسوله والمؤمنين – من طاعة الله ورسوله!

هذا مع أن القرآن قد أمر المؤمنين بالكفر بهم كما قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (} [النساء:٦٠]!

وحذر من اتباعهم وطاعتهم فقال:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢٥٧]!

وأمر بجهادهم والتصدي لهم فقال:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦]!

وقد بين القرآن معنى الطاغوت الذي جاءت الرسل كلها للتحذير منه كما قال تعالى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [النحل:٣٦].

فبين القرآن أن الطاغوت ثلاثة أنواع إما:

١ ــ طاغوت العبادة:{ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا } [الزمر:١٧].

٢ــ أو طاغوت الحكم والتحاكم:{يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ } [النساء:٦٠] وهو يصدق على كل من يحكم بغير حكم الله ورسوله كأكثر الحكومات العربية اليوم!

٣ ــ أو طاغوت الاتباع والتولي والطاعة:{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢٥٧]!

وقد أخبر القرآن بأن الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت سواء منهم من يقاتل في سبيل طاغوت العبادة،أو في سبيل طاغوت الولاية والطاعة والاتباع،أو في سبيل طاغوت الحاكمية،سواء بيده أو لسانه وقلمه وفتواه!

وقد أمر القرآن بجهاد كل هؤلاء بكل أنواع الجهاد وصوره فقال تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦]

" والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت،لتحقيق مناهج شتى – غير منهج الله – وإقرار شرائع شتى – غير شريعة الله – وإقامة قيم شتى – غير التي أذن بها الله – ونصب موازين شتى غير ميزان الله! ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته.

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم،وشتى مناهجهم،وشتى شرائعهم،وشتى طرائقهم،وشتى قيمهم،وشتى موازينهم... فكلهم أولياء الشيطان.

ويأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان:«فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ،إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً». وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة،مسندين ظهورهم إلى ركن شديد. مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله،ليس لأنفسهم منها نصيب،ولا لذواتهم منها حظ. وليست لقومهم،ولا لجنسهم،ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء.. إنما هي لله وحده،ولمنهجه وشريعته. وأنهم يواجهون قوما أهل باطل يقاتلون لتغليب الباطل على الحق. لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية – وكل مناهج البشر جاهلية – على شريعة منهج الله ولتغليب شرائع البشر الجاهلية – وكل شرائع البشر جاهلية – على الله ولتغليب ظلم البشر – وكل حكم للبشر من دون الله ظلم – على عدل الله،الذي هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس..

كذلك يخوضون المعركة،وهم يوقنون أن الله وليهم فيها. وأنهم يواجهون قوما،الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف.. إن كيد الشيطان كان ضعيفا..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين،وتتحدد نهايتها. قبل أن يدخلوها. وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة – فهو واثق من النتيجة – أم بقي حتى غلب،ورأى بعينيه النصر فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه،انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل الله في حياة الجماعة المسلمة الأولى والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة. وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال فهي كثيرة مشهورة.. ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب،في أقصر فترة عرفت في التاريخ فقد كان هذا التصور جانبا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة،على المعسكرات المعادية... وبناء هذا التصور ذاته كان طرفا من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين،وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين فأمسوا مهزومين! وها نحن أولاء

نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتثبيته. فلم يكن الأمر هينا. ولم يكن مجرد كلمة تقال. ولكنه كان جهدا موصولا،لمعالجة شح النفس،وحرصها على الحياة – بأي ثمن – وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة.. وفي الدرس بقية من هذا العلاج،وذلك الجهد الموصول."[410]

السادس عشر– الرد على علماء الطواغيت في تحريم الخروج عليهم:

وهذه الآيات تصدق على الذين افتتنوا في تعظيم الطغاة وتعظيم أمرهم والدعوة إلى وجوب طاعتهم – مهما خرجوا عن طاعة الله ورسوله ومهما اختلفت طبيعة أنظمتهم وحكوماتهم – بدعوى أنهم ولاة أمر!

وقد وصل بهم الحال وتطورت بهم الأحوال حتى زعموا أن ما يدعون إليه من طاعة الطاغوت وموالاته ونصرته بل ومحبته والتحاكم إليه هو السنة وما كان عليه سلف الأمة! وأن من يدعو إلى العودة إلى التحاكم إلى الكتاب والسنة والعودة إلى سنن الخلفاء الراشدين وهديهم في باب الإمامة وسياسة الأمة بالعدل والقسط خوارج وحرورية..الخ!

وأخذوا يتزلون كلام الأئمة وسلف الأمة في خلفاء المسلمين من بني أمية وبني العباس وبني عثمان – حيث الخلافة قائمة والشريعة حاكمة والجهاد ماض – على طواغيت دويلات الطوائف الصليبية التي أقامها الاستعمار في المنطقة على أنقاض الخلافة العثمانية،وعلى حكوماته العميلة له على اختلاف أشكالها وصورها وكفرها من شيوعية واشتراكية وإباحية وشهوانية ومادية ممن قال الله فيهم:{ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } [الأنعام:٧٠]!

ولا يفرقون بين من قال فيهم النبي ﷺ «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» وهو الخير الذي فيه دخن حيث وجود الخلافة عاصم للأمة من الفتنة العامة – ومن قال فيهم النبي ﷺ «نَعَمْ،دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» وهو زمن الفتنة العامة والشر

---

410 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٥٩) زيادة مني

المحض حيث لا خلافة قائمة ولا أمة واحدة وإنما فرق شتى أمر الشارع باعتزالها فقال «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[411]!

فجعلوا جميع الرؤساء المجرمين،والطغاة الملحدين،كالخلفاء المسلمين في وجوب موالاتهم وطاعتهم والرضا بحكمهم ونصرتهم وتثبيت أمرهم والقتال معهم..الخ مهما خالفوا وغيروا وبدلوا!

فجمعوا بين من فرق الله ورسوله بينهم في الأسماء والأحكام،وعطلوا فيهم ما أجمع عليه سلف الأمة وأئمة الإسلام!

السابع عشر – الأئمة الذين تجب طاعتهم والأئمة الذين لا تجوز طاعتهم:

والمقصود مما سبق بيان ما يلي:

١- أن للولاية الشرعية شروطها،وهي أن تكون خلافة واحدة،فإذا افترقت الأمة فهو زمن فتنة فلا تجب فيه بيعة أحد،ولا تلزم المسلمين بيعة أحد حتى يجتمعوا،كما هو قول أئمة أهل السنة ومنهم أحمد بن حنبل،كما يشترط لها أن تكون عن شورى ورضا،فلا شرعية مع الإكراه والقوة كما قال مالك،والشرط الثالث أن يكون الخليفة عدلا لم يشتهر بجور ولا فجور،فالولاية التي توفرت فيها هذه الشروط فهي الولاية الشرعية التي أجمع عليها الصحابة والأئمة وسلف الأمة،وهي التي طاعتها من طاعة الله ورسوله،وهي التي تلزم لها البيعة في عنق كل مسلم حال وجودها.

٢- وأن كلام الصحابة وسلف الأمة وأئمة أهل السنة في الصبر على جور الأئمة والسمع والطاعة لهم،إنما يقصدون به الصبر على الخلفاء المسلمين – في ظل خلافة الإسلام،الذين يحكمون بالشريعة ويحمون البيضة – مراعاة للمصالح الكلية،فلا يقصدون الصبر على كل سلطان وإن كان كافرا أو مرتدا أو زنديقا أو سفيها يوليه العدو الصليبي الحكم ويقوم

---

411 – صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦)

بحمايته،ولا يقصدون كل دولة وإن كانت قومية أو وطنية،ولا يقصدون كل نظام سياسي غير الخلافة،سواء كان شيوعيا أو بعثيا أو اشتراكيا أو ليبراليا أو شهوانيا!

فمن ظن ذلك في الصحابة وسلف الأمة وأئمة أهل السنة وأنهم يقصدون السمع والطاعة لمثل هذه الأنظمة الطاغوتية فهو لم يعرف الإسلام والسنة وما كان عليه سلف الأمة!

وكيف يتصور ذلك والقرآن يدعو إلى الكفر بهم والبراءة منهم:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠]!

٣- ولا يوجد اليوم إمامة وولاية شرعية إسلامية في ظل غياب الخلافة،ولا بيعة شرعية عامة تلزم الأمة في ظل الافتراق،ولا سمع ولا طاعة شرعية للحكومات الموجودة اليوم،لعدم وجود الخلافة الواحدة والأمة الواحدة،كما هو قول أئمة أهل السنة قديما وحديثا،وكما أفتى بذلك الشيخ الألباني من المعاصرين كما نقلته عنه في كتابي (تحرير الإنسان) حيث سئل عن البيعة للحكومات الحالية فقال:(من قال لك أنه فيه بيعة اليوم؟ البيعة لا تكون إلا للخليفة الذي يبايعه المسلمون جميعا)! وسئل عن تعدد الحكومات والأمراء فقال (لا يجوز لا يجوز)![412]

وإنما الولاية لهذه الحكومات إما ولاية قهرية جبرية اضطرارية بحكم الأمر الواقع،وهذا حال الحكومات العربية،أو ولاية تعاقدية اختيارية دستورية،ولكل أحكامها في فقه النوازل!

٤- وأن للأمة ولشعوبها في هذا الدول الثورة على هذه الحكومات القهرية الجبرية غير الشرعية وتغييرها ولو بالقوة فضلا عن الثورة السلمية التي تحقق المطلوب بأقل التضحيات،ولا يشترط أن لا يخرج الناس عليها إلا من أجل الدين،بل لكل إنسان أن يشارك في الثورة للدفاع دون أي حق أو مظلمة له،وإن كان خروجه لأجل الدين أعلاها وأشرفها..

412 - (تحرير الإنسان) ص ٢٠٣

٥- وأن كل من خرج عليها بشكل سلمي يدعو للإصلاح ورفع الظلم فقتلتـــه فهـــو شهيد،وكل من رد عدوانها وقاتلها فقتل فهو شهيد.[٤١٣]

413 - وانظر مقال شهادء الثورات العربية بين جرائم الطغاة وفتنة الدعاة

المبحث السابع عشر

نظرات شرعية في النظم الدستورية والأنظمة الجمهورية

وموقف الشيخين أحمد شاكر وعبد الرحمن السعدي

أولاً- تعريف الفقه السياسي:

جاء في الحديث الصحيح عَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ،خَطِيبًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ،وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي،وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ،لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»[414]

والمراد بالفقه في الدين هنا ليس المعنى العرفي الاصطلاحي الشائع وهو معرفة الأحكام الفرعية،بل المقصود به هنا الفهم عن الله وعن النبي ﷺ مرادهما في كل ما جاء عنهما سواء في أصول الدين وكلياته،أو فروعه وجزئياته،والقدرة على تحري الحق والصواب فيما أشكل من النوازل،كما قال تعالى:{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [البقرة:٢٦٩].

وإنما ضل من ضل من هذه الأمة بسبب الإعراض عن تدبر القرآن وهداياته،في كل باب،وعن الإعراض عن السنة وتدبرها،والعمل بها في كل شئون الحياة،ومن ذلك معرفة الغايات الكلية للخطاب السياسي القرآني والنبوي،ومراعاة المقاصد في هذا الباب!

هذا وإن للدعوة للإصلاح عامة،والإصلاح السياسي خاصة،أصولا وقواعد يجب على الدعاة للإصلاح مراعاتها ومعرفة أحكامها،حتى يؤتوا الحكمة فيها،ويوفقوا للصواب فيما أشكل منها،ومن ذلك:

أن يعرف المصلح السياسي تفاصيل ما يلي:

١- واقع المجتمع الذي يعيش فيه وإشكالاته ونوازله وكيفية علاجها.

---

414 - صحيح البخاري (١/ ٢٥)(٧١) وصحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٥ - (١٠٣٧)

٢- والحكم الشرعي على هذا الواقع بمعرفة الواجبات ودرجاتها،والمحرمات ودركاتها،وما يجب عند تزاحمها.

٣- والحال التي يريد المصلح أن يصل بالمجتمع إليها،وحقيقة الإصلاح المنشود وصوره وأقسامه.

٤- والمقدور له من ذلك بحسب ظرف المكان والزمان.

ولا شك لمن عرف الجاهلية وأحوالها،وعرف واقع الأمة المعاصر،أدرك بأنها اليوم تعيش جاهلية ثانية،سواء كانت:

• جاهلية العقائد والتصورات والظنون عن الله وحقيقة الوجود وغاياته،كما قال تعالى:{يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران:١٥٤]،حتى عبد الطاغوت من دون الله باسم ولي الأمر وطاعته،فحرموا ما أحل الله،وأحلوا ما حرمه! وحتى عبدت الشهوات،وطغت العقائد المادية،وشاعت العدمية واللاأدرية والإباحية!

• جاهلية الحكم والتشريع بقيام أنظمة حكم لا تحكم بالإسلام،ولا تحتكم إليه،فرضها الاستعمار الغربي على الأمة بلا رضاها ولا {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [المائدة:٥٠].

• أو جاهلية اقتصادية بقيام مؤسسات الربا وشيوعها،حتى صار حجر الأساس للاقتصاد في كل بلد هو الربا،وقد قال ﷺ:«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا،أَلَا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ،وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمُ إِيَادِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ - كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي سَعْدٍ وَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ - وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ...»[415].

• أو جاهلية اجتماعية كالعصبية القومية والوطنية والفئوية وكل أشكال العصبيات التي تفرق بين المؤمنين،بل بين الإنسان وأخيه الإنسان بلا حق،كما قال تعالى:{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح:٢٦].

---

415 - صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦)١٤٧ - (١٢١٨)

وعَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ،قَالَ:لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ،وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ،وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ،فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ،فَقَالَ:إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ،فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ:«يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ،إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ،جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ،فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ،فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ،وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ،وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ،فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»[٤١٦]

وقد أصبحت هذه الجاهلية تسود واقع المجتمعات في العالم الإسلامي وتتحكم في العلاقات بين فئات المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا على نحو غير مسبوق!

• أو جاهلية السلوك وانحلال القيم الأخلاقية كما قال تعالى:{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب:٣٣]

وشيوع حالة من التحلل الأخلاقي والفراغ الروحي!

وقد عاد الإسلام اليوم غريبا بين أهله كما بدأ،عن كَثِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بْنِ زَيْدِ بْنِ مِلْحَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:« إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»[٤١٧].

ومع ذلك كله فهذه الأحوال الجاهلية التي تعيشها الأمة اليوم سياسيا واقتصاديا وتشريعيا وأخلاقيا واجتماعيا،لا تخرج هذه المجتمعات عن كونها شعوبا إسلامية،ومجتمعات مسلمة،ولا عن كون أهلها مسلمين مستضعفين،تتحكم فيهم الجاهلية العالمية وتؤثر بهم،وتسوس شئونهم،بسبب ضعفهم وسيطرة العدو الأجنبي على شئونهم من جهة،وعجزهم عن تدبر هدايات الكتاب والسنة من جهة أخرى،ولا يمكن وصف دولهم وحكوماتهم بأنها إسلامية إلا على سبيل المجاز لا على الحقيقة،أي بحسب ما كانت عليه،أو بحسب ما يجب أن تكون عليه،أو لكونها تحكم شعوبا إسلامية،وكل ذلك مجاز لا

416 – صحيح البخاري (١/ ١٥)(٣٠)

417 – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٨)(٢٦٣٠) حسن لغيره

حقيقة،إذ الحكومة الإسلامية هي التي تكون الشوكة فيها للأمة وللمؤمنين،فلا نفـــوذ ولا سيادة ولا شوكة للعدو الخارجي عليها،ويكون الحكم فيها للإسلام وشرائعه.

وإنما يجب على المصلحين معرفة مثل هذه الأحوال،ومعرفة الحكم الشرعي فيهـــا،ليعرفوا الخلل،وكيفية علاجه،والحال التي يريدون نقل الأمة إليه،وكما قال تعالى:{وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:٥٥]،وقال تعالى:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَـــى الَّـــذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]..الخ

فمن لم يعرف الجاهلية المعاصرة،وسبيل المجرمين،وأحوال الطغاة والظالمين،كان أعجز مـــن أن يعرف السبيل للخروج بالأمة من حالتها الجاهلية إلى واقع إسلامي!

ثانياً- الخلاف في الحكم على الواقع وكيفية علاجه:

وقد لا يكون بين المصلحين الإسلاميين كبير خلاف في أن الغاية والهدف النهائي أن تعود الأمة كما بشر بذلك النبي ﷺ (**أمة واحدة وخلافة راشدة**) كما في الحديث عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ،أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الأُمَـــرَاءِ ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَـــهُ،فَجَلَسَ أَبُـــو ثَعْلَبَـــةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَـــا إِذَا شَـــاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُـــونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَـــا إِذَا شَـــاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَـــاءَ أَنْ يَرْفَعَهَـــا،ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،ثُمَّ سَكَتَ"[418]

وإنما الخلاف بينهم في الحكم على الواقع،والحكم على الأنظمة الحاكمـــة اليوم،وكيفيـــة العودة بالأمة إلى الإسلام،وإصلاح شئونها،فأصبحوا طائفتين:

---

418 - مسند أبي الطيالسي -طبعة دار هجر - مصر (١/ ٢٤٩)(٤٣٩) صحيح

• طائفة ترى بأن الواقع الحالي مع انحرافه إلا أنه واقع مشروع من حيث الاعتراف بالدولة الوطنية والقطرية،والاعتراف بالأنظمة الحاكمة،أو بأكثرها أو بعضها،دون وجود معيار يفرقون به بين ما يعترفون بشرعيته وما لا يعترفون بشرعيته من هذه الأنظمة!

كما ترى هذه الطائفة أو بعضا مشروعية المشاركة بالواقع السياسي،حتى تورطت فيه،وأصبحت جزءا منه،وحتى قال بعضهم وهو نائب إسلامي في بلد خليجي (نحن نحتكم إلى الشريعة بنسبة ٩٩ % في كل شئوننا والباقي نعمل على استكماله)!

وإنما أتيت هذه الطائفة من جهة جهلها في طبيعة النظام السياسي الإسلامي كما جاء في الكتاب والسنة،وكما قام به الخلفاء الراشدون،إذ هذا الموضوع خارج دائرة الفقه التقليدية والفروع الفقهية التي يعنى بها الفقهاء التقليديون،فتغيب عنهم معرفة مثل هذه الأصول والكليات،وتحار فيهم عقولهم،لعدم إحاطتهم بها،واقتصارهم على الجزئيات الفرعية،وانشغالهم بها،ظنا منهم أن هذا هو الفقه!

• وطوائف أخرى لديها تصور عام عن النظام السياسي الإسلامي،وعن ضرورة الخلافة،إلا إنها ترى عدم شرعية هذا الواقع وتحرم كل مشاركة فيه،وتدعو إلى مقاطعته،وتتفاوت فيما بينها في حدود هذه المقاطعة،حتى ذهب بعضهم إلى القول بأن المقاطعة تشمل حتى العمل في الوظائف الحكومية وكل قطاعات الدولة..الخ بدعوى أن الحكومات غير شرعية،دون وجود معيار تحتكم إليه هذه الطائفة في معرفة ما يحل من ذلك وما يحرم،وبلغ الحال ببعضها أن اعتزلت الواقع السياسي،وعاشت عزلة شعورية،حتى باتت غريبة عن واقع شعوبها،مع أنها تتأثر بالواقع ولا تأثر به!

وقد ظلت الخلافة أو الدولة الإسلامية عند هذا الفريق حلما ينتظرون إقامته على الأرض دون الأخذ **بسنن المدافعة والمغالبة** التي هي الشرط لقيام أي مشروع أو نظام سياسي!

والإشكالية الثانية لدى هذه الطائفة – مع إخلاصها وتضحياتها – هو في معرفة حقيقة الخلافة الراشدة،وأصولها وقواعدها،وغاياتها،وكيفية إعادتها،فصار غاية بعضهم إقامة دولة مستبدة لا توحيد خالصا فيها لله جل جلاله،ولا حرية فيها للإنسان،ولا شورى فيها للأمة!

بل ولا تعرف هذه الطائفة كيف السبيل إلى بعث الخلافة من جديد،وتحويلها من فكرة إلى واقع سياسي!

وزاد الأمر تعقيدا حين خاض كثير من المصلحين المخلصين فيما لا يحسنون فهمه من مشكلات العصر ونوازله،فهم يتحدثون عن حاكمية الله،ولا يعرفون حقيقتها؟

وعن الطاغوت ولا يعرفون كيف يواجهونه؟

وعن الدولة ولا يعرفون مشكلاتها وأوجه الخلل فيها وكيف معالجته؟

وعن الدستور والقانون وهم لا يعرفون الفرق بينهما؟

ولا يعرفون الفرق بين إرادة التحاكم إلى غير حكم الله،والحكم بغير ما أنزل الله،والإكراه على التحاكم إلى غير حكم الله؟

ولا يفرقون بين ما يصح من تصرفات السلطة غير الشرعية وما لا يصح؟

ولا يعرفون كيف يوجبون جهاد الدفع عن بلدان المسلمين اليوم مع أن الحكومات فيها غير شرعية أو طاغوتية...الخ؟

ولا كيف يحافظون على ثروات الأمة وأرضها ومصالحها تحت ظل حكومات غير شرعية؟!

فلما حارت في هذه النوازل أفهامهم،واضطربت فيها أحلامهم،رأوا اعتزال الواقع وعدم التورط فيه وفي إشكالاته أسلم لدينهم وآخرتهم،غير أنهم أرادوا من الأمة الاعتزال معهم،والوقوف حيث وقفوا،دون أن يدركوا بأن الحياة والمجتمعات لا تتوقف،ولا تنتظر من توقف،بل هي في حركة دائبة،وهي لمن غلب (ومن عز فيها بز)!

وسيطرت على بعضهم أوهام ظنوها حلولا ناجعة،فقيدوا بها أنفسهم وأتباعهم،وأصبحوا أسرى الأوهام،فلم تحقق لهم تلك الأوهام ولا للأمة بعد سبعين سنة شيئا،وصدق فيهم قول شوقي:

وهمٌ يقيد بعضهم بعضا به وقيود هذا العالم الأوهامُ

بل و لم يستطيعوا حتى فهم كلام فقهاء الأمة وأعلامها المعاصرين لهذه النوازل،و لم يستفيدوا من رأيهم واجتهادهم،مع أنهم أول من شهد سقوط الخلافة،وعاصر قيام هذه الدويلات وأنظمتها وقوانينها!

ثالثاً– أحمد شاكر والموقف من النظام البرلماني الدستوري:

لقد كان العلامة القاضي الشرعي والمحدث المجتهد الشيخ أحمد بن محمد شاكر – محقق مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وتفسير ابن جرير الطبري – من أوائل فقهاء الأمة الذين أدركوا الفرق بين الدستور والقانون،وأجاز العمل السياسي البرلماني لتحقيق الإصلاح،حيث يقول عن القوانين الوضعية التي تصادم أحكام الشريعة (**القضاء في الأعراض والأموال والدماء بقانون يخالف شريعة الإسلام،وإلزام أهل الإسلام بالاحتكام إلى غير حكم الله،هذا كفر لا يشك فيه أحد من أهل القبلة**)![٤١٩]

بينما يقول في رسالته (الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر التشريع في مصر) – التي كانت في الأصل محاضرات ألقاها على رجال القانون في مصر قبل سبعين سنة – :(**سيكون السبيل إلى ما نبغي من نصر الشريعة السبيل الدستوري السلمي،أن نبث في الأمة دعوتنا،ونجاهد فيها ونجاهر بها،ثم نصاولكم عليها في الانتخاب،ونحتكم فيها إلى الأمة،فإذا وثقت الأمة بنا،ورضيت عن دعوتنا،واختارت أن تحكم بشريعتها،طاعة لربها،وأرسلت منا نوابها للبرلمان،فسيكون سبيلنا وإياكم أن ترضوا بما يقضي به الدستور،فتلقوا إلينا مقاليد الحكم كما تفعل كل الأحزاب،ثم نفي لقومنا بما وعدناهم به من جعل القوانين كلها مستمدة من الكتاب والسنة..**).[٤٢٠]

فكيف يكون التحاكم إلى القوانين كفر بواح وردة جامحة عند الشيخ أحمد شاكر،وقد نص على ذلك في كثير من مؤلفاته،وهو أشهر علماء الأمة الذين لم يترددوا في الحكم بالكفر على من يحكم بغير ما أنزل الله،وعلى كفر من يلزم الأمة بالتحاكم إلى غير حكم

---

419 – حاشية تفسير ابن جرير بتحقيق آل شاكر ٣٤٨/٢.

420 – ص ٢٨ – ٣٥

الله،بينما هو يدعو هنا إلى التحاكم إلى الدستور المصري،والعمل السياسي السلمي الدستوري من خلال الانتخابات،ودخول البرلمانات؟!

وما ذكره الشيخ أحمد هنا يكاد يوافقه عليه كافة علماء عصره ودعاتهم كالشيخ حسن البنا وقبلهما رشيد رضا وشيخ الإسلام مصطفى صبري وغيرهم من المصلحين؟!

رابعاً– الفرق بين الدستور والقوانين عند هؤلاء الأئمة:

ما الفرق بين الدستور والقوانين عند هؤلاء الأئمة ؟

وكيف أجازوا العمل السياسي الحزبي،وخوض الانتخابات،والوصول للبرلمانات،والتحاكم إلى الدستور التي صارت عند بعض المتأخرين من الشرك بالله؟

ولماذا أصبح الأمر مشكلا عند المتأخرين فيما كان واضحا جليا عند المتقدمين؟

ولماذا تراجع الوعي الشرعي والملكة الفقهية والوعي السياسي عند جيل الصحوة وجماعاتهم؟!

إن معرفة كل هذه المسائل وأحكامها الشرعية،هي في غاية الأهمية لمن أراد الخوض في الدعوة للإصلاح السياسي الشرعي!

إن الشيخ أحمد شاكر فقيه مجتهد وقاض شرعي يعرف الفرق الشاسع بين القوانين الوضعية التي هي أحكام،يقضي بها القضاء،ويلتزم بها المحكوم عليهم،بينما الدستور هو وثيقة سياسية وعقد ينظم شئون الدولة،فتجري عليه أحكام العقود وما يصح منها وما يبطل،وما يصح منها دون الشرط الفاسد فيها،ومن هنا صار من يخالف القانون يتعرض للعقاب،بينما من يخالف الدستور ونصوصه لا يتعرض لعقاب بل تبطل تصرفاته،ولهذا لم يشكل لا على أحمد شاكر ولا على حسن البنا ولا على أهل ذلك العصر الفرق بين القوانين التي هي أحكام قد تضاد حكم الله ورسوله،وبين الدستور الذي هو عقد بين السلطة والشعب،يتضمن مبادئ عامة،وشروطا سياسية،لا يلزم الأمة منها إلا ما وافق الشرع،ويبطل ما خالفه!

فلما رأوا أن الدساتير تنص على أن (دين الدولة الإسلام)،و(الشريعة المصدر الرئيس للتشريع)،ثم رأوا أن باقي المبادئ والشروط في الدساتير مما لا يتعارض مع الشريعة عموما، لم يروا في ذلك مشكلة،إذ مثل هذا العقد إذا وجد إرادة قوية تقف خلفه لتنفيذه،فلن يكون هناك عائق أمام أسلمة قوانين الدولة كلها،خاصة وأن خبراء الدستور يؤكدون أن نص (دين الدولة الإسلام) كاف وحده في إلزام السلطة بعدم مخالفة دين الدولة في شيء من ممارساتها..الخ

وهذا السبب ذاته الذي حمل الفقهاء المتأخرين كالشيخ بن باز وابن عثيمين على القول بجواز دخول البرلمان،والمشاركة السياسية،والإصلاح من خلالهما لتعديل القوانين التي تخالف حكم الشريعة!

لقد كان المسلمون وقبل سقوط الخلافة العثمانية يمارسون العمل السياسي،ويعرفون الأحزاب السياسية،وينتخبون أعضاء المبعوثان وهو البرلمان،في كل ولايات الدولة العثمانية،كما عرفوا المشروطية وهو الدستور،و لم يقل أحد من علماء الأمة آنذاك،بأن هذا العمل محرم،أو أن دخول البرلمان في حد ذاته شرك وكفر،أو أنه يحرم على الأمة أن تشرع الأنظمة والقوانين التي تحقق المصالح العامة لها،فيما لا نص فيه!

إلا أن المشكلة ليست في هذا كله،فليست هي في الدساتير،ولا حتى في القوانين الوضعية المصادمة للشريعة مع كونها كفرا،بل المشكلة وراء ذلك كله فهي في تنازع الإرادات،وفي نفوذ إرادة الطاغية والمستبد على الأمة كلها،حتى استطاع أن يكرهها على التحاكم لغير حكم الله،وعجز الأمة في المقابل عن فرض إرادتها،فرأى هؤلاء المصلحون أن العمل السياسي السلمي الدستوري هو أسلم طريق يحقق الإصلاح،دون أن يفضي إلى قتال ودماء،و لم يدركوا بأن الدستور والبرلمان والانتخابات ما لم تكن وراءها إرادة أمة نافذة،وإلا صارت أدوات في يد الطاغية يفرض من خلالها إرادته على الأمة باسمها!

إن هذا هو السبب ذاته الذي جعل فقهاء الأمة قديما يعرفون دار الإسلام بتعريف واحد،وهو (أن تكون الشوكة فيها للمسلمين)،كما هو الحال في المدينة حين هاجر لها النبي ﷺ،لأن الفقهاء لم يتصوروا أصلا أن تكون الشوكة والقوة للمسلمين في أرضهم،ولا

يتحاكمون للكتاب والسنة،لأنهم يخرجون بذلك من دائرة الإسلام،ولهذا صار بعض الفقهاء يزيد في تعريف دار الإسلام قيدا آخر إضافيا وهو (وتكون الأحكام فيها أحكام الإسلام)!

وقد فصلت ذلك في رسالة(الأجوبة الفاصلة في المسائل النازلة)[421] وفي (تحرير الإنسان).

لقد انشغل المصلحون السياسيون في موضوع تعديل الدستور أو تعديل القوانين،ودخلوا في صراع عقيم مع السلطة،دون أن يدركوا بأن المشكلة ليست في الدستور ولا القوانين،بل المشكلة في غياب الشوكة والقوة للأمة في أرضها،والتي هي مناط وصف الدار بالإسلام!

إن فقد الأمة للإرادة الحرة هو سبب الأزمة،فالواجب تقديم استرجاع هذه الإرادة،واستعادة الشوكة والقوة للأمة،وتحرير الأمة وإرادتها،على الانشغال بتعديل نصوص من حبر على ورق!

كما انشغل السياسيون الإسلاميون في البرلمانات في موضوع تطبيق الشريعة،دون أن يدركوا شيئا مما تمنوه،لأن الشوكة والقوة واليد ليست لهم ولا للأمة معهم،بل هي للسلطة المدعومة من الغرب،والتي لا تسمح بتحقيق ذلك!

لقد كان الفقهاء يدركون هذه الحقيقة،إلا أنهم رأوا بأن تحرير الأمة بالقوة قد يفضي إلى العنف والفتن،وقد صرح الشيخ أحمد شاكر في رسالته هذه بموقفه من العنف حيث يقول:(**لست رجلا خياليا،ولست داعيا إلى ثورة جامحة على القوانين،وأنا أعتقد أن ضرر العنف اليوم أكثر من نفعه**)!

إلا أن خوف الشيخ شاكر ورفضه للثورة وأد حلمه بالإصلاح،في ظل عملية سياسية صورية،تفتقد للعنصر الأساسي وهو (نفوذ الإرادة) الحقيقية للأمة!

لقد جاء سيد قطب رحمه الله ورأى المشهد السياسي بكل أبعاده،فإذا الدستور والبرلمان والانتخابات في مصر كلها وسيلة لفرض إرادة الطاغوت باسم الشعب،فثار ضد هذا

---

421 – انظرها هنا:-http://www.dr-hakem.com/Portals/Content/?info=TlRNMrdQ==.jsp

الزيف،وكفر به كله،ودعا إلى اعتزال هذا الواقع،والثورة عليه،إلا إنه سرعان ما وأدت الجماعة روح الثورة القطبية،وتأثر خطاه أقوام لم يفهموه،فاعتزلوا المجتمع فلم يعودوا إليه،ودخلوا عزلة شعورية فلم يخرجوا منها،ولم يستطيعوا تحريك الشعب وإحداث التغيير الذي كان يرنوا إليه سيد قطب!

لقد تحقق للخميني والشعب الإيراني من خلال الثورة الشعبية ضد الشاه،ما لم يتحقق للشعوب السنية بالمحاولات السلمية مع الطغاة!

والمقصود من ذلك كله فهم موقف علماء الأمة من الإصلاح السياسي السلمي،حيث كانوا يرون جوازه،ويدعون إليه،طمعا في تحقيق الإصلاح التدريجي،من خلال تأسيس الأحزاب السياسية،ودخول الانتخابات،والوصول إلى البرلمان،فإن حازوا على الأغلبية من الأمة ساسوها وفق حكم الإسلام وشريعته،وغيروا القوانين والأحكام التي تعارض حكم الله،وإن كانوا أقلية أمروا نواب الأمة وممثليها بالمعروف ونهوها عن المنكر،وبينوا حكم الله فيما يعرض عليهم من القضايا..الخ.

ولم يخطر ببال أولئك العلماء المجتهدين والدعاة المصلحين ما طرأ على من بعدهم بأن دخول البرلمان شرك وكفر واعتراف بالطاغوت!

إلا أن الذي حال دون تحقيق الإصلاح كما كان يرجو المصلحون في القرن الماضي،هو أن العملية السياسية كانت وما تزال صورية،لأنها تحت ظل نفوذ احتلال أجنبي،وأنظمة حكم تحت سيطرته،فلا يمكن أن تكون العملية السياسية السلمية وحدها هي وسيلة الإصلاح،ما لم تفض إلى تحرير إرادة الأمة وإطلاق يدها،ونفوذ إرادتها!

ومما يؤكد هذه الحقيقة ما جرى في تركيا من تحولات سياسية جزئية،لتحرر إرادة الأمة وأكثريتها من قبضة السلطة العسكرية جزئيا،فتأتى للأحزاب القوية التي حازت على ثقة الشعب،أن تحقق بعض الإصلاحات التي يطمح إليها الشعب التركي،فتحرير الإرادة للشعب،وحصول الشوكة للأمة في أرضها أهم مما سواهما،لأن الشريعة لا تقيمها إلا الأمة،ولا تحميها إلا الأمة،فإذا كانت الأمة مسلوبة الإرادة،مغلولة اليد،مكسورة الشوكة،تسلط عليها عدوها الخارجي أو الداخلي،فعطل شريعتها،واستعبدها،وضيع

حقوقها ومصالحها وأرضها،وكما قال ابن تيمية رحمه الله:(وَأَمَّا قِتَالُ الدَّفْعِ فَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ دَفْعِ الصَّائِلِ عَنْ الْحُرْمَةِ وَالدِّينِ فَوَاجِبٌ إجْمَاعًا فَالْعَدُوُّ الصَّائِلُ الَّذِي يُفْسِدُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَا شَيْءَ أَوْجَبَ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ دَفْعِهِ فَلَا يُشْتَرَطُ لَهُ شَرْطٌ بَلْ يُدْفَعُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.)[٤٢٢]

خامساً– معرفة حدود المقدور عليه في تغيير الواقع:

تأتي القضية الرابعة التي يجب على المصلح معرفتها وتقديرها حق قدرها ألا وهي معرفة حدود المقدور له فردا كان أو جماعة بحسب المتاح له زمانا ومكانا وإمكانات،فهنا يجب تحديد الأهداف والوسائل،وهي في مجال الإصلاح السياسي على ثلاث درجات:إصلاح كلي على مستوى الأمة،أو إصلاح كلي على مستوى قطر من الأقطار،أو إصلاح جزئي،وهي على النحو التالي:

١– الغاية المثلى والهدف الأقصى أن تعود (أمة واحدة وخلافة راشدة).

وهذه لا يمكن بداهة أن تكون هدفا لفرد،ولا لجماعة قطرية،إذ هو هدف يشترك فيه المسلمون كلهم،على اختلاف بلدانهم،ولا يتصور أن يتحقق إلا بالأمة كلها،أو أكثرها،من خلال حكوماتها التي تمثلها،كلها أو أكثرها،فكل من يعيش حلم عودة الخلافة دون وجود الوسيلة والأداة السياسية لتحقيق هذا الهدف،وهو وصوله للسلطة في أكثر الأقطار فهو واهم،وكذلك لا يمكن تحقيق هذا الهدف الأقصى ما لم تتوفر الشروط الموضوعية له وهي:

- تحرر الأمة وأقطارها كلها أو أكثرها،من الاحتلال والنفوذ الأجنبي،فلن تقوم خلافة في ظل احتلال العدو للأرض،ووجود قواعده العسكرية في كل بلد!
- تحرر إرادة الأمة من الاستبداد الداخلي،وإقامتها لحكوماتها الإسلامية،التي تمثلها وتختارها،وتعبر عن إرادتها،فلا يتصور أن تقوم الحكومات التي أوجدها الاستعمار الغربي على أنقاض الخلافة بإعادتها،أو أن تقوم حكومات علمانية لا تؤمن بالإسلام بتحقيق هذا الهدف!

---

422 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٨) والمستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٥)

• توحيد الأمة وأقطارها،كلها أو أكثرها،سواء باختيار شعوبها عند تحررها،أو بتوحيد دولة مركزية لمحيطها،لتكون الأساس القادر على النهوض بالخلافة العامة وأعبائها.

فقبل تحقق هذه الأهداف المرحلية لا يمكن الحديث عن الهدف النهائي،إلا من باب بيان الحكم الشرعي،ودعوة الأمة للعمل من أجل تحقيقه،فلن تقوم الخلافة في الهواء الطلق،ولا في الفضاء الرحب،بل ستقوم على الأرض،وفي دار الإسلام،بشرط تحرر دولها من أي احتلال خارجي أجنبي،وتحرر إرادة شعوبها من كل طاغوت داخلي!

٢- الغاية الوسطى والهدف المرحلي وجود حكومة راشدة:

وهو أن تقوم (حكومة راشدة)،في كل بلد يمكن إقامتها فيه،وهذا هدف مقدور لكل حزب سياسي قطري قادر على الوصول للسلطة في بلد يتمتع بسيادة واستقلال،أو يمكن أن يتمتع بها في حال تغير السلطة القائمة،وقيام سلطة راشدة تقيم حكومة راشدة،ولا يحتاج تحقيق هذا الهدف ما يحتاجه الهدف الأول من عمل مشترك وتنظيم سياسي على مستوى الأمة.

٣- الغاية الدنيا والهدف القريب،وهو الإصلاح الجزئي.

بإصلاح ما يمكن إصلاحه في أي بلد إسلامي،وتحقيق ما يمكن تحقيقه من العدل،ورفع ما يمكن دفعه من الظلم فيه عن الشعب،إذ كل نهضة في أي بلد من بلدان المسلمين وتطويره وإصلاح أحواله،يصب في النهاية في مصلحة الأمة وقوتها،وتسهيل مهمة عودتها وعودة خلافتها.

وكذا تعزيز قدرات التنظيم السياسي الإصلاحي في هذا البلد أو ذاك،ليكون رديفا قادرا على ملأ الفراغ السياسي عند حدوثه،أو إحداث التغيير عند وجود الفرصة لتحقيقه.

والمقصود بأن المصلحين أفرادا كانوا أو جماعات عليهم أن يحددوا هدفهم السياسي بحسب ظروف بلدانهم وقدراتهم في أوطانهم،فالبلدان المركزية في العالم الإسلامي،تختلف عن البلدان الثانوية أو الهامشية،التي لا يمكن بداهة أن تكون أساسا لقيام مشروع (الخلافة الراشدة)،فيتم الاقتصار فيها على العمل من أجل مشروع (الحكومة الراشدة)،عملا بالحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ

كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ،وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ،فَانْتَهُوا،وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ،فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٤٢٣].

فإن كانت الظروف لا تساعد حتى على تحقيق هذا الهدف في ذلك القطر،فلا يتعطل المصلحون عن الدعوة فيه إلى تحقيق ما يمكن من الإصلاح السياسي الجزئي،بتحقيق ما يمكن من العدل،وصيانة الحرية،ودفع الظلم،وحماية مصالح شعوبهم وحقوقها،حتى لو كانوا خارج السلطة،أو في ظل حكومة غير شرعية،من خلال الوسائل المتاحة إن كان بالإمكان الإصلاح من خلالها،كالعمل السياسي السلمي،ودخول مجالس الشعب،والوصول إلى الأمة من خلال كل الوسائل،كالنقابات العمالية والمهنية لدعوتها وتحريكها..الخ،

أو من خلال تحضير الأمة وإعدادها للثورة الشعبية العامة إن كان ذلك ممكنا،لبسط يدها،ونفوذ إرادتها.

أو من خلال إعداد العدة والشوكة والعصبية القادرة على التغيير بالقوة،ورفع الظلم والطغيان عن الأمة حال عجزها وضعفها،ورد الأمر إليها،وإعدادها لتحكم نفسها ينفسها.

والمقصود أن لا يحصر المصلحون وسائل التغيير المشروعة،ولا يحجروا على الأمة واسعا،ما دامت النصوص الشرعية قد جاءت بذلك كله،وتركت الأمر للمكلفين بفعل المقدور لهم من ذلك،كما في حديث عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:«خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ،وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ،وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ،وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»،قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ:«لَا،مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ،وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ،فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ،وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»[٤٢٤].

وحديث عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ،فَقُلْنَا:حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ،بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:دَعَانَا

---

423 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ١٩٨)(١٨) صحيح

424 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٨١)٦٥ – (١٨٥٥)

رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا،وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»،قَالَ:«إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[425]

وحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[426]

وحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسِقُونَ} [المائدة:٨١]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[427]

وحديث عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[428].

فالواجب على الأمة كلها أن تعمل لعودتها (أمة واحدة وخلافة راشدة)،والواجب على أهل كل بلد العمل من أجل إقامة (حكومة راشدة)،وإلى أن يتحقق شيء من ذلك،فلا

---

425 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ – (١٧٠٩)

426 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ – (٥٠)

427 – سنن أبي داود (٤/ ١٢١)(٤٣٣٦) حسن

428 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ – (٤٩)

يتوقف المصلحون عن الإصلاح حسب الإمكان والمتاح،فالأنظمة الديمقراطية خير للأمة من الأنظمة الدكتاتورية وأخف ضررا،والأنظمة الجمهورية الليبرالية خير من الأنظمة العسكرية الشمولية وأهون شرا!

سادساً- ممارسة العمل السياسي وفق المقدور عليه:

وهو أن يعمل المصلحون،وأن يمارسوا العمل السياسي،وفق المتاح لهم بحسب الظرف المكاني والزماني على أساس معرفة الأحكام الشرعية السياسية التالي:

١- أن بلدان العالم الإسلامي،هي في الأصل دار إسلام،وأهلها مسلمون.

وأن الولاية الشرعية فيها للأمة،لا تسقط بحال من الأحوال،حتى لو كانت أحوالها جاهلية،وحكوماتها غير شرعية،كما قال تعالى:{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) } [المائدة:٥٥ - ٥٦] .

وقال تعالى:{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٧١].

وقد أخبر النبي ﷺ عن الأحوال التي تطرأ على الأمة بعده،والفتن التي تتعرض لها

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَوَّلُ هَذَا الْأَمْرِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَكُونُ إِمَارَةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَتَكَادَمُونَ عَلَيْهِ تَكَادُمَ الْحُمُرِ فَعَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ،وَإِنَّ أَفْضَلَ جِهَادِكُمُ الرِّبَاطُ،وَإِنَّ أَفْضَلَ رِباطِكُمْ عَسْقَلَانُ»[٤٢٩]

وعن خَلَّادَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ أَبَا الطُّفَيْلِ،حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ،يَقُولُ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،أَلَا تَسْأَلُونِي؟ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،أَفَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ مَيِّتِ الْأَحْيَاءِ؟ فَقَالَ:إِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ فَدَعَا النَّاسَ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى،وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ،فَاسْتَجَابَ لَهُ مَنِ اسْتَجَابَ،فَحَيِيَ بِالْحَقِّ مَنْ كَانَ

---

[429] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٨٨)(١١١٣٨) صحيح

مَيِّتًا،وَمَاتَ بِالْبَاطِلِ مَنْ كَانَ حَيًّا،ثُمَّ ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ فَكَانَتِ الْخِلَافَةُ عَلَى مَنَهَاجِ النُّبُوَّةِ،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَضُوضًا،فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَالْحَقَّ اسْتَكْمَلَ،وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ كَافًّا يَدَهُ وَشُعْبَةً مِنَ الْحَقِّ تَرَكَ،وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ كَافًّا يَدَهُ وَلِسَانَهُ وَشُعْبَتَيْنِ مِنَ الْحَقِّ تَرَكَ،وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ " [430]

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ أَوَّلَ دِينِكُمْ بَدْأُ نُبُوَّةٍ وَرَحْمَةٍ،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَجَبْرِيَّةً،يُسْتَحَلُّ فِيهَا الدَّمُ» [431]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ أَبِيهِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،فِي الْمَسْجِدِ فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ،فَقَالَ لَهُ:يَا بَشِيرُ،أَتَحْفَظُ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْخُلَفَاءِ؟،فَقَالَ:لَا،فَقَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ:وَهُوَ قَاعِدٌ،أَنَا أَحْفَظُهَا،فَقَعَدَ إِلَيْهِمْ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا شَاءَ،ثُمَّ تَكُونُ الْخِلَافَةُ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَتَكُونُ مُلْكًا مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ يَرْفَعُهُ إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،ثُمَّ سَكَتَ» [432]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ،وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ،وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا» [433]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسِقُونَ} [المائدة:٨١]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ

---

430 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٧٤) حسن

431 – مسند البزار = البحر الزخار (٤/ ١٠٨)(١٢٨٢) صحيح

432 – مسند البزار = البحر الزخار (٧/ ٢٢٣)(٢٧٩٦) صحيح

433 – صحيح البخاري (٤/ ١٥)(٢٧٨٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٨)٨٦ - (١٨٦٤)

بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[٤٣٤]

وكل ذلك خطاب للأمة إلى قيام الساعة،حتى في حال استضعافها،فولايتها ووجوب الجهاد عليها سواء جهاد الكلمة أو جهاد السيف قائمان إلى قيام الساعة،وهذا معنى قول أهل السنة والجماعة بأنه (الجهاد ماض إلى يوم القيامة لا يبطله جور جائر)[٤٣٥]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ:الْكَفُّ عَمَّنْ،قَالَ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَلَا نُكَفِّرُهُ بِذَنْبٍ،وَلَا نُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ،وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ،وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ،وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ "[٤٣٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ،بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا،وَالصَّلَاةُ وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ خَلْفَ كُلِّ مُسْلِمٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا،وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ،وَالصَّلَاةُ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا،وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ»[٤٣٧]

وكما في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ».[٤٣٨]

وقال في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ،أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ هَانِئٍ،حَدَّثَهُ،قَالَ:سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ،عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ

---

434 – سنن أبي داود (٤/ ١٢١) (٤٣٣٦) حسن

435 – العقيدة وأثرها في بناء الجيل (ص:٥) ومتن الطحاوية بتعليق الألباني (ص:٧١) وموسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (١٠/ ٢٢٢)

436 – سنن أبي داود (٣/ ١٨)(٢٥٣٢) فيه ضعف

437 – سنن أبي داود (٣/ ١٨)(٢٥٣٣) فيه انقطاع

438 – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ – (٥٠)

طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ،لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»[٤٣٩]

وفي رواية قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ،وَلَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ،إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٤٤٠]

وكل ذلك يؤكد أن ولاية الأمة على نفسها لا تسقط بوجود حاكم جائر أو كافر،بل الواجب عليها بحكم هذه الولاية التي لها على نفسها أن تقوم بعزله أو قتاله والخروج عليه،فإن عجزت فلا يسقط حقها في تغييره،إلى أن تقوى على القيام بالواجب،كما تؤكد هذه النصوص أن جهادها الداخلي بالكلمة أو باليد والقوة،وكذا جهادها للعدو الخارجي بالسيف،كل ذلك لا يسقط بأي حال من الأحوال،وهو فرع عن ثبوت ولاية الأمة العامة على نفسها.

كما إن في هذه الأحاديث الأمر بالإصلاح في كل الأحوال،في حال القوة باليد،وفي حال الضعف بالكلمة،وفي أسوأ الأحوال رفض الفساد واعتقاد بطلانه ولو بالقلب!

ويدخل في مفهوم (التغيير باليد) كل ما يصدق عليه أنه من القوة كالضغط السياسي،والمغالبة السلمية للسلطة الجائرة،وتحريك الشعب لتحقيق الإصلاح ورفع الظلم.

والمقصود أن الأمة اليوم هي كما كانت بالأمس على أرضها،وفي دارها،وفي أوطانها وبلدانها،والحق والولاية لها،حتى وإن كانت إرادتها مغلولة،ويدها مشلولة،بوجود حكومات جائرة أو كافرة،فالواجب على الأمة بسط إرادتها،وإطلاق يدها،والأخذ على يد الظالم وأطره على الحق أطرا،ورفع يده ويد الكافر عن ولايتها التي جعل الله لها.

وقد كان من أشد الأخطاء تصورا اعتقاد أن كفر الحاكم في بلد إسلامي،وفي دار الإسلام،يفضي إلى فقد الأمة لولايتها على نفسها،وعلى أرضها ودولها،بحيث تترتب الأحكام كلها بالنظر إلى الحاكم وطروء الكفر عليه،بينما الصحيح أن كفره لا يبطل ولاية الأمة،ولا يحرم عليها شيئا مما ثبت لها من الحقوق والولايات،بل العكس هو

---

439 - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٤ - (١٠٣٧)

440 - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٥ - (١٠٣٧)

الصحيح حيث أن ولايته هي التي تسقط بكفره وردته،ومما يؤكد ثبوت ولاية الأمة ثبوت حقها في عزله والخروج عليه بل وقتاله.

٢- أن كل ولاية اليوم غير ولاية الأمة على نفسها،وغير الولاية الشرعية التي شرع الله لها،هي ولاية باطلة،ولا شرعية لها.

وليس للإسلام نظام سياسي شرعي إلا الخلافة على أصولها،كما قال الإمام أحمد عن حديث عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً»[٤٤١]

عن إِسْحَاقَ ،أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ سُئِلَ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ:«مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»،مَا مَعْنَاهُ؟ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:" تَدْرِي مَا الْإِمَامُ؟ الْإِمَامُ الَّذِي يُجْمِعُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ،كُلُّهُمْ يَقُولُ:هَذَا إِمَامٌ،فَهَذَا مَعْنَاهُ "[٤٤٢]

فليس في زمن الفتنة والفرقة العامة،حين تغيب الخلافة الجامعة كما في هذا العصر،(فلا) بيعة شرعية لأحد،كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ فُرَاتٍ القَزَّازِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ،قَالَ:قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ،فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ،كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ،وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي،وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ» قَالُوا:فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:«فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ،أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»[٤٤٣]

---

441 - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٣٥)(٤٥٧٣) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:«قَوْلُهُ ﷺ:مَاتَ مِيْتَةً الْجَاهِلِيَّةِ مَعْنَاهُ:مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّ لَهُ إِمَامًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ حَتَّى يَكُونَ قِوَامُ الْإِسْلَامِ بِهِ عِنْدَ الْحَوَادِثِ،وَالنَّوَازِلِ،مُقْتَنِعًا فِي الِانْقِيَادِ عَلَى مَنْ لَيْسَ نَعْتُهُ مَا وَصَفْنَا مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً»

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:«ظَاهِرُ الْخَبَرِ أَنَّ مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ،يُرِيدُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مَاتَ مِيْتَةً الْجَاهِلِيَّةِ،لِأَنَّ إِمَامَ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ إِمَامَتَهُ أَوِ اعْتَقَدَ إِمَامًا غَيْرَهُ مُؤْثِرًا قَوْلَهُ عَلَى قَوْلِهِ ثُمَّ مَاتَ مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً»

442 - السنة لأحمد بن محمد الخلال (١/ ٨٠)(١٠) وفتاوى الشبكة الإسلامية (٧/ ١٩٠) توضيح المقصود من حديث:"من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية"

443 - صحيح البخاري (٤/ ١٦٩)(٣٤٥٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧١) ٤٤ - (١٨٤٢)

[ش (تسوسهم الأنبياء) أي يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه (كلما هلك نبي خلفه نبي) في هذا الحديث جواز قول هلك فلان إذا مات وقد كثرت الأحاديث به وجاء في القرآن العزيز قوله تعالى {حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولافيكثرون) أي يكون أكثر من حاكم واحد

فدل على أنه لا بيعة إلا لخليفة واحد للأمة،وجاء في الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ،فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا».[٤٤٤]

ولهذا اعتزل أكثر الصحابة في الفتنة،عن بشر بْنِ حَرْبٍ الْعَبْدِيِّ،قَالَ:كُنْتُ جَلِيسًا لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ زَمَنَ ابْنِ الزُّبَيْرِ،وَفِي طَاعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ رُءُوسُ الْخَوَارِجِ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ وَعَطِيَّةُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَنَجْدَةُ فَبَعَثُوا أَوْ بَعْضُهُمْ شَابًّا إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ:مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُبَايِعَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَرَأَيْتُهُ حِينَ مَدَّ يَدَهُ وَهِيَ تَرْجُفُ مِنَ الضَّعْفِ،فَقَالَ:" وَاللهِ مَا كُنْتُ لِأُعْطِيَ بَيْعَتِي فِي فُرْقَةٍ،وَلَا أَمْنَعُهَا مِنْ جَمَاعَةٍ "[٤٤٥].

وعَنْ بِشْرِ بْنِ حَرْبٍ،أَنَّ ابْنَ عُمَرَ،أَتَى أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ،فَقَالَ:يَا أَبَا سَعِيدٍ،أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ بَايَعْتَ أَمِيرَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى أَمِيرٍ وَاحِدٍ؟ قَالَ:نَعَمْ،بَايَعْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ،فَجَاءَ أَهْلُ الشَّامِ،فَسَاقُونِي إِلَى حُبَيْشِ بْنِ دَلَجَةَ فَبَايَعْتُهُ،فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:إِيَّاهَا كُنْتُ أَخَافُ،إِيَّاهَا كُنْتُ أَخَافُ – وَمَدَّ بِهَا حَمَّادٌ صَوْتَهُ – قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَنَامَ نَوْمًا،وَلَا يُصْبِحَ صَبَاحًا،وَلَا يُمْسِيَ مَسَاءً إِلَّا وَعَلَيْهِ أَمِيرٌ "؟ قَالَ:نَعَمْ،وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُبَايِعَ أَمِيرَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى أَمِيرٍ وَاحِدٍ"[٤٤٦]

ويؤكده الحديث الصحيح عن بُسْرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الحَضْرَمِيِّ،قَالَ:حَدَّثَنِي أَبُو إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِيُّ،أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ يَقُولُ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ

للمسلمين في زمن واحد (فوا ببيعة الأول فالأول) معنى هذا الحديث إذا بويع لخليفة بعد خليفة فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها ويحرم عليه طلبها وسواء عقدوا للثاني عالمين بعقد الأول أم جاهلين وسواء كانا في بلدين أو بلد أو أحدهما في بلد الإمام المنفصل والآخر في غيره(سائلهم) محاسبهم بالخير والشر عن حال رعيتهم]

444 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠)٦١ – (١٨٥٣)

445 – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٣٤)(١٦٨٠٩) حسن

446 – مسند أحمد ط الرسالة (١٧/ ٣٤٦)(١١٢٤٧) وبغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (٢/ ٦٣٣)(٦٠٤) حسن

الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[٤٤٧]

وفي رواية وعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:لَمَّا كَانَ زَمَانٌ،حَاصَرَ النَّاسُ تُسْتَرَ،قُلْتُ لِصَاحِبٍ لِي:انْطَلِقْ بِنَا إِلَى الْكُوفَةِ،نَبْتَاعُ بِهَا بِغَالًا،فَقَدِمْنَاهَا،فَأَتَيْنَا الْكُنَاسَةَ،فَإِذَا نَحْنُ بِأَشْيَخَةٍ وَإِذَا شَيْخٌ يُحَدِّثُهُمْ،فَقُلْتُ لِصَاحِبِي:ادْنُ حَتَّى نَسْمَعَ مِنْ هَؤُلَاءِ،فَدَنَوْتُ،فَقَعَدْتُ فَإِذَا الشَّيْخُ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ فَسَمِعْتُهُ،يَقُولُ:كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْقُرْآنِ،وَقَدْ كَانَ اللَّهُ آتَانِي مِنْهُ عِلْمًا،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ شَرٌّ؟،قَالَ:«نَعَمْ»،قُلْتُ:فَمَا الْعِصْمَةُ مِنْهُ؟،قَالَ:«السَّيْفُ»،وَذَكَرَ الْحَدِيثَ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا بَعْدَ الْهُدْنَةِ؟،قَالَ:«دُعَاةُ ضَلَالَةٍ،فَإِذَا رَأَيْتَ فِيَ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ خَلِيفَةً فَالْزَمْهُ،وَإِنْ نَهَكَ ظَهْرَكَ،وَأَخَذَ مَالَكَ،وَإِنْ لَمْ تَجِدْ يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةً فَاهْرَبْ حَتَّى تَمُوتَ عَاضًّا بِأَصْلِ شَجَرَةٍ»[٤٤٨]

فكل دويلات الطوائف اليوم،والدول القومية،والوطنية القطرية في العالم الإسلامي،لا شرعية دينية لها،ولا بيعة شرعية لها واجبة على الأمة ولا على بعضها،بل هي فرقة عامة يجب على الأمة رفضُها وإصلاح خللها،وهذا لا ينفي كون حكوماتها لها سلطة بحكم

---

447 – صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦)

[ش (أسأله عن الشر) أستوضحه عنه. (مخافة أن يدركني) خوفا من أن أقع فيه أو أدرك زمنه. (دخن) من الدخان أي ليس خيرا خالصا بل فيه ما يشوبه ويكدره وقيل الدخن الأمور المكروهة. (تعرف منهم وتنكر) أي ترى منهم أشياء موافقة للشرع وأشياء مخالفة له. (جلدتنا) من أنفسنا وقومنا وقيل هم في الظاهر مثلنا ومعنا وفي الباطن مخالفون لنا في أمورهم وشؤونهم وجلدة الشيء ظاهره. (جماعة المسلمين) عامتهم التي تلتزم بالكتاب والسنة. (إمامهم) أميرهم العادل الذي اختاروه ونصبوه عليهم. (تعض بأصل شجرة) أي حتى ولو كان الاعتزال بالعض على أصل شجرة والعض هو الأخذ بالأسنان والشد عليها والمراد المبالغة في الاعتزال]

448 – مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٢٠)(٧١٦٨) صحيح

الأمر الواقع،فينفذ من أحكامها ما وافق الحق والعدل وحقق المصلحة،وإنما إذا قامت حكومة إسلامية في بلد من بلدان المسلمين،باختيار أهل ذلك البلد وشوكتهم،فولايتها عليهم ولاية قاصرة على أهل ذلك البلد ومستمدة منهم،وهي ولاية عرفية أو سياسية تعاقدية،وهي أشبه بإمارة السفر كما في الحديث عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ:قَالَ عُمَرُ:«إِذَا كَانَ نَفَرٌ ثَلَاثٌ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ،ذَاكَ أَمِيرٌ أَمَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»[449]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:«إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فِي سَفَرٍ،فَأَمِّرُوا أَحَدُكُمْ،وَلَا يُنَاجِ الرَّجُلُ الرَّجُلَ دُونَ صَاحِبِهِ»[450]

فيجب على أهل ذلك البلد إعانتها على القيام بالواجبات الشرعية،والمصالح السياسية،والوفاء لها بما ولوها من ولاية،وطاعتها بالمعروف،ولا تعد تلك الحكومة خلافة شرعية،في حال عجزها عن تحرير وتوحيد الأمة كلها أو أكثرها،وفي حال عجزها عن نفوذ إرادتها على الأمة أو أكثرها،لأن الخلافة شأن عام للأمة كلها أو أكثرها،لا يفتأت عليها فيه أحد،إلا من استطاع تحريرها وتوحيدها،أو من بايعته الأمة أو أكثرها على إمامته السياسية ونفوذ ولايته عليها.

٣- وأنه لا تلازم بين عدم شرعية الأنظمة التي تحكم العالم الإسلامي،وكفرها أو عدم كفرها.

وهو الشَرَك الذي وقعت فيه بعض الحركات الإصلاحية،فانشغلت في موضوع الحكم على الأنظمة بالكفر أو عدمه،وأضاعت وقتها في جدل عقيم،دون أن تغير من واقعها السياسي شيئا،مع أن مقصود الشارع أصلا هو تغيير المنكر،وتحقيق الإصلاح،سواء وصمت هذه الأنظمة بالكفر أو عدمه،فالواجب إزالة المنكر والجور والجائر سواء قيل بأنه مسلم أو كافر.

وقد أفضى جدل بعض الحركات حول هذه القضية،أن صار من يحكم بإسلام هذه الأنظمة يشاركها فيما هي فيه،ويرى بأن لها ولاية شرعية ليس عليه وحده فحسب،بل

---

449 - صحيح ابن خزيمة (٤/ ١٤١)(٢٥٤١) صحيح

450 - مسند ابن الجعد (ص:٧٨)(٤٣٠) صحيح

على كل مسلم تحت سلطتها،حتى اتسع الخرق على الراقع،واقتحموا باب ردة جامحة،فصدَّقوا الطغاة بكذبهم،وأعانوهم على باطلهم وظلمهم،وركنوا إليهم،فصاروا زبانيتهم وأعوانهم!

وذهب من حكم عليهم بالكفر إلى اعتزال الواقع،والحكم على الأمة إما بالكفر معهم،أو بأنها في العهد المكي،ولا يجب على الأمة أن تقوم بشيء من واجباتها وفروض كفاياتها،قبل إسقاط الطواغيت،وإقامة الخلافة!

وكلا الرأيين مجانب للصواب،مخالف للنصوص،فالأمة منذ أن نزل قوله تعالى:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]،وهي في حال استخلاف في الأرض إلى يوم القيامة،حتى وهي في حال الاستضعاف،وهي مخاطبة بكل الأحكام الشرعية،فلا يتعطل المقدور منها والميسور لها،بتعذر المعسور عليها.

٤- وأن الإصلاح باب واسع،وهو منوط بالقدرة والاستطاعة.

كما في قوله تعالى عن شعيب عليه السلام:{ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٨].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:« إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»[٤٥١]

فهو عام في كل من يصلح ما أفسده المفسدون،وكما في الصحيح عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[٤٥٢]

وهذا عام في كل منكر،وفي كل عصر،إلا أن الإصلاح درجات،وبعضها أشرف وأجل وأعظم درجة عند الله من بعض،كما في الحديث عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ

---

451 - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٨)(٢٦٣٠) حسن لغيره

452 - صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ - (٤٩)

النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» [٤٥٣].

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[٤٥٤]

إذ في إصلاح السلطة تحقيق الإصلاح الشامل لكل شئون الأمة والدولة،وفي فسادها فساد كل شئونها،كما في الحديث الصحيح عَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،فَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،فَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،فَإِنَّ رَبِّي،قَالَ:يَا مُحَمَّدُ،إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً،فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَإِنِّي أُعْطِيكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا،أَوْ قَالَ:مِنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ ﷺ:» إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ،وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنَ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ وَحَتَّى تُعْبَدَ الْأَوْثَانُ،وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ،وَإِنِّي خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ »[٤٥٥]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ،وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ،حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا،إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ،وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا،وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ،إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ،وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ،وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ،وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ،إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ،وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا،وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ

---

453 – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣)(٧٧٨٦) صحيح

454 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

455 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٦/ ٢٢١)(٧٢٣٨) صحيح

اللَّه،وَعَهْدَ رَسُوله،إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ،فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ،وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ،وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ،إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ "[٤٥٦]

لأن في جوره وطغيانه وانحرافه انحراف الأمة معه،إذ الأمم على دين ملوكها!

ولشرف الإصلاح في هذا الباب جاء في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي،وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ»[٤٥٧]

وعن كَثِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيُّ قَالَ:حَدَّثَنِي أَبِي،عَنْ جَدِّي،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي،فَعَمِلَ بِهَا النَّاسُ،كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا،لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا،وَمَنْ ابْتَدَعَ بِدْعَةً،فَعُمِلَ بِهَا،كَانَ عَلَيْهِ أَوْزَارُ مَنْ عَمِلَ بِهَا،لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِ مَنْ عَمِلَ بِهَا شَيْئًا»[٤٥٨]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي فَلَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ»[٤٥٩]

والمراد بسنته هنا سنته في باب الإمامة وسياسة شئون الأمة،فعَنْ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ،قَالَ:وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ،فَقَالَ رَجُلٌ:إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى

---

456 – السنن الواردة في الفتن للداني (٣/ ٦٩٢)(٣٢٧) والمعجم الأوسط (٥/ ٦١) (٤٦٧١) وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٢)(٤٠١٩) وشعب الإيمان (٥/ ٢٢)(٣٠٤٢) حسن

[ش – (إذا ابتليتم) على بناء المفعول. والجزاء محذوف. أي فلا خير. أو حل بكم من أنواع العذاب الذي يذكر بعده. (وأعوذ بالله ان تدركوهن) جملة معترضة. (لم تظهر الفاحشة) أي الزنا. (بالسنين) أي بالقحط. (منعوا القطر) أي المطر. (عهد الله) هو ماجرى بينهم وبين أهل الحرب.]

457 – المعجم الأوسط (٩/ ١٦٩)(٩٤٣٩) صحيح

458 – سنن ابن ماجه (١/ ٧٦)(٢٠٩) صحيح

[ش (من أحيا سنة من سنتي) المراد بالسنة هنا ما وضعه رسول الله ﷺ من الأحكام. وإحياؤها أن يعمل بها ويحرض الناس ويحثهم على إقامتها]

459 – أمالي ابن بشران – الجزء الأول (ص:٢١٨)(٥٠١) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٢٠٠و٢٠١) والإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٣٤٢)(٢١٢) والزهد الكبير للبيهقي (ص:١١٨)(٢٠٧) والإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٣٠٩)(١٤٥) حسن لغيره

اخْتِلَافًا كَثِيرًا،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» [٤٦٠].

وهي المراد بالحديث الوارد عَنْ رُفَيْعٍ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ:قَالَ أَبُو ذَرٍّ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُبَدِّلُ سُنَّتِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ»[٤٦١]

فإذا كان سيد الشهداء وأفضل المجاهدين من تصدى للإمام الجائر،فكيف بمن أزال الإمام الجائر،وأبطل الجور،وأحيا سنن العدل وأقام سنن النبوة في الأمة ألا يكون له أجر مائة شهيدا؟!

ولهذا أمر النبي ﷺ بلزوم سنته وسنن الخلفاء الراشدين من بعده كما مر أعلاه..،أي سننهم في باب سياسة الأمة بإقامة أحكام الدين والعدل والقسط،وبشر بعودها بعد وقوع المحدثات التي حذر منها،فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ بَدَأَ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَضُوضًا،يَشْرَبُونَ الْخُمُورَ،وَيَلْبَسُونَ الْحَرِيرَ،وَيَسْتَحِلُّونَ الْفُرُوجَ،وَيُنْصَرُونَ وَيُرْزَقُونَ،حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ»[٤٦٢]

وعن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثُهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ،أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ

---

460 – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٤)(٢٦٧٦) صحيح

461 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٩/ ٥٥٤)(٣٧٠٢٧) والكنى والأسماء للدولابي (٢/ ٥٠٨)(٩٢٢) صحيح

ولعل المراد بالحديث تغيير نظام اختيار الخليفة،وجعله وراثة. والله أعلم.سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٣٣٠)

462 – الفتن لنعيم بن حماد (١/ ٩٨)(٢٣٤) صحيح

أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ»[٤٦٣]

فدلَّ على أن أعظم ما يكون من الإصلاح في الأرض بعد عهد النبوة هو الخلافة الراشدة،ثم أعظم ما يكون من الإصلاح في الأرض بعد حدوث المحدثات والملك العضوض والملك الجبري والملك الطاغوتي عودة الخلافة الراشدة من جديد!

ثم لا يتوقف الإصلاح عند هذا الأمر العظيم،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ،وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ،فَانْتَهُوا،وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ،فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٤٦٤]

فيجب القيام بكل ما يمكن من المأمور به شرعا بحسب استطاعة الأمة وأفرادها وجماعاتها،كما في الحديث الصحيح عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:قِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ أَعُلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ:فَقَالَ:نَعَمْ،قَالَ قِيلَ:فَفِيمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قَالَ:«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[٤٦٥].

فإن استطاعت أي حركة إصلاحية في أي بلد إسلامي الوصول إلى السلطة،وتحرير إرادة الأمة،وإقامة حكم الله بالعدل والقسط،واجتهدت حسب قدرتها واستطاعتها بالإصلاح،فهي داخلة في عموم البشارة في الذين يصلحون ما أفسد الناس،وقد أدت ما عليها من الواجب الكفائي،كما قال تعالى:{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة:٢٨٦]،وقال تعالى:{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الحج:٧٨].

ثم دون ذلك من الإصلاح كل إصلاح يقوم به المصلحون في بلدانهم أفرادا كانوا أو حركات سياسية،وإن لم تكن أنظمة الحكم فيها شرعية ولا إسلامية...

---

463 – مسند أبي داود الطيالسي (١/ ٣٥٠)(٤٣٩) صحيح

464 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ١٩٨)(١٨) صحيح

465 – صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤١)٩ – (٢٦٤٩)

سابعاً– هل عدم شرعية الحكومات تعطل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

إن عدم شرعية الأنظمة وعدم إسلاميتها،لا يعطل وجوب الأمر بالمعروف،والنهي عن المنكر،والدعوة إلى الإصلاح والخير وذلك من وجوه:

الأول:أن هذا هو الواجب الشرعي في كل حال،على كل مسلم،فردا كان أو جماعة،سواء كانوا تحت حكومة مسلمة أو غير مسلمة،ولهذا كان خطاب القرآن عاما،كما في خطابه للمشركين ودعوته لهم بالعدل وإقامة القسط والرحمة باليتيم والضعيف،ولهذا توعدهم على ظلمهم كما قال تعالى:{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)} [المطففين:١ – ٥]،وقال تعالى:{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)} [الماعون:١ – ٣]،وكقوله:{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) } [المدثر:٤٢ – ٤٧]،وقال شعيب عليه السلام لقومه:{ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) } [الشعراء:١٨١ – ١٨٣]..الخ

فالقرآن حين نزل خاطب الإنسانية كلها،والنبي ﷺ كما وصفه القرآن { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:١٠٧] كلهم،وقد دعاهم إلى كل حق وخير وعدل ورحمة،ونهاهم عن كل باطل وظلم وشر،ولهذا اختلف الأصوليون في(**هل الكفار مخاطبون بفروع الشريعة أم لا؟ وهل يحاسبون عليها يوم القيامة أم لا؟**)[٤٦٦] والصحيح أنهم

---

466 – قَد اسْتَدَلَّ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ،عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ مُخَاطَبُونَ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ،بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ،وَأَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِالْآخِرَةِ،وَقَدْ تَوَعَّدَهُمْ بِالْوَيْلِ عَلَى شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِالْآخِرَةِ،وَعَدَمِ إِيتَائِهِمُ الزَّكَاةَ،سَوَاءٌ قُلْنَا إِنَّ الزَّكَاةَ فِي الْآيَةِ هِيَ زَكَاةُ الْمَالِ الْمَعْرُوفَةُ،أَوْ زَكَاةُ الْأَبْدَانِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي،وَرَجَّحَ بَعْضُهُمُ الْقَوْلَ الْأَخِيرَ لِأَنَّ سُورَةَ فُصِّلَتْ هَذِهِ،مِنَ الْقُرْآنِ النَّازِلِ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ،وَزَكَاةُ الْمَالِ

مخاطبون بها،ويجازون عليها،ولا يقبل ذلك منهم لـــدخول الجنـــة إلا بالشـــهادتين،لعموم نصوص القرآن التي خاطبتهم في مكة كما في قوله تعالى:{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُـــمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّـــهُ إِلَّـــا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّـــا وُسْـــعَهَا وَإِذَا قُلْـــتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّـــاكُمْ بِـــهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)} [الأنعام]..الخ.[٤٦٧]

ثامناً– موقف الشيخ عبد الرحمن السعدي من الأنظمة الجمهورية

إن الواجب هو الإصلاح السياسي حتى في غير دار الإسلام،كما قال الشيخ الســـعدي في تفسيره لقصة شعيب في سورة هود،والفوائد التي تستفاد منها:

" منها:أن الكفار،كما يعاقبون،ويخاطبون،بأصل الإسلام،فكذلك بشرائعه وفروعـــه،لأن شعيبا دعا قومه إلى التوحيد،وإلى إيفاء المكيال والميزان،وجعل الوعيد،مرتبا على مجمـــوع ذلك.

ومنها:أن نقص المكاييل والموازين،من كبائر الذنوب،وتخشى العقوبة العاجلـــة،على مـــن تعاطى ذلك،وأن ذلك من ســـرقة أمـــوال النـــاس،وإذا كـــان ســـرقتهم في المكاييـــل والموازين،موجبة للوعيد،فسرقتهم – على وجه القهر والغلبة – من باب أولى وأحرى.

الْمَعْرُوفَةُ إِنَّمَا فُرِضَتْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ سنة اثْنَتَيْنِ.وَعَلَى كُلٍّ حَالٍ،فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى خِطَابِ الْكُفَّارِ بِفُرُوعِ الْإِسْلَامِ،أَعْنِي امْتِثَالَ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابَ نَوَاهِيهِ،وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ،مِنْ كَوْنِهِمْ مُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ وَأَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَلَى الْكُفْرِ،وَيُعَذَّبُونَ عَلَى الْمَعَاصِي.. انظر:الجموع البهية للعقيدة السلفية (١/ ٦٧) والدرر السنية كاملة (٥٩/ ٨٤) وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد (ص:٩٩)

467 – يظهر أنا هناك نقصا بهذا البحث،و لم أجده في موقع الشيخ وغيره

ومنها:أن الجزاء من جنس العمل،فمن بخس أموال الناس،يريد زيادة ماله،عوقب بنقيض ذلك،وكان سببا لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله:{إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ} أي:فلا تسببوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها:أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله،ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة،وأن ذلك خير له لقوله:{بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ} ففي ذلك،من البركة،وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المحق،وضد البركة.

ومنها:أن ذلك،من لوازم الإيمان وآثاره،فإنه رتب العمل به،على وجود الإيمان،فدل على أنه إذا لم يوجد العمل،فالإيمان ناقص أو معدوم.

ومنها:أن الصلاة، لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين،وأنها من أفضل الأعمال،حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها،وتقديمها على سائر الأعمال،وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر،وهي ميزان للإيمان وشرائعه،فبإقامتها تكمل أحوال العبد،وبعدم إقامتها،تختل أحواله الدينية.

ومنها:أن المال الذي يرزقه الله الإنسان – وإن كان الله قد خوله إياه – فليس له أن يصنع فيه ما يشاء،فإنه أمانة عنده،عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق،والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله،لا كما يزعمه الكفار،ومن أشبههم،أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون،سواء وافق حكم الله،أو خالفه.

ومنها:أن من تكملة دعوة الداعي وتمامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به،وأول منته عما ينهى غيره عنه،كما قال شعيب عليه السلام:{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} ولقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}

ومنها أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها أو بتحصيل ما يقدر عليه منها وبدفع المفاسد وتقليلها ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية

ومنها أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملوما ولا مذموما في عدم فعله ما لا يقدر عليه فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه

ومنها أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين بل لا يزال مستعينا بربه متوكلا عليه سائلا له التوفيق وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لموليه ومسديه ولا يعجب بنفسه لقوله {وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

ومنها الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر

كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى

ومنها أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده ولا عبرة بقول من يقول "إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه العفو وأما عود الود والحب فإنه لا يعود" فإن الله قال {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}

ومنها أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئا منها وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم أو أهل وطنهم الكفار كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها بل ربما تعين ذلك لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية وتحرص على إبادتها وجعلهم عمَلَةً وخَدَمًا لهم،نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المتعين ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة والله أعلم. "[٤٦٨]

١-مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أي مجتمع:

---

468 - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٨٨)

لهذا لم يتوقف النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم وهم في مكة عن الدعوة إلى كل عدل وخير وبر،ومن ذلك قصة الأراشي – كما في السيرة – وكان رجلا غريبا عن مكة،وكان له عند أبي جهل حق،وقد رفض أبو جهل أن يرد عليه حقه،فجاء يشتكي لقريش فأشاروا عليه أن يذهب للنبي ﷺ،فلما جاءه مشى معه ﷺ حتى ضرب باب دار أبي جهل وهو (هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ) كما في الحديث[٤٦٩]،وقال له أعط الرجل حقه! فارتعد منه أبو جهل ودفع إليه حقه!

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ الثَّقَفِيِّ وَكَانَ وَاعِيَةً قَالَ:" قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ إِرَاشٍ بِإِبِلٍ لَهُ مَكَّةَ فَابْتَاعَهَا مِنْهُ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ فَمَطَلَهُ بِأَثْمَانِهَا فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى نَادٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَنْ رَجُلٌ يُؤَدِّينِي عَلَى أَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ فَإِنِّي رَجُلٌ غَرِيبٌ ابْنُ سَبِيلٍ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى حَقِّي قَالَ:فَقَالَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ:تَرَى ذَلِكَ الرَّجُلَ – لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ يَهْزِءُونَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُونَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي جَهْلٍ مِنَ الْعَدَاوَةِ – اذْهَبْ إِلَيْهِ فَهُوَ يُؤَدِّيكَ عَلَيْهِ فَأَقْبَلَ الْإِرَاشِيُّ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا الْحَكَمِ بْنَ هِشَامٍ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى حَقٍّ لِي قِبَلَهُ وَأَنَا غَرِيبٌ ابْنُ سَبِيلٍ وَقَدْ سَأَلْتُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَنْ رَجُلٍ يُؤَدِّينِي عَلَيْهِ يَأْخُذُ لِي حَقِّي مِنْهُ فَأَشَارُوا لِي إِلَيْكَ فَخُذْ لِي حَقِّي مِنْهُ رَحِمَكَ اللَّهُ،قَالَ انْطَلِقْ إِلَيْهِ وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ مَعَهُ قَالُوا لِرَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُمْ:اتْبَعْهُ انْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُ. قَالَ:وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَهُ فَضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَقَالَ:مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ:مُحَمَّدٌ فَاخْرُجْ إِلَيَّ قَالَ:فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَمَا فِي وَجْهِهِ رَائِحَةٌ قَدِ انْتُقِعَ لَوْنُهُ فَقَالَ لَهُ:أَعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ قَالَ:نَعَمْ لَا تَبْرَحْ حَتَّى أُعْطِيَهُ الَّذِي لَهُ قَالَ:فَدَخَلَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ بِحَقِّهِ فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ لِلْإِرَاشِيِّ:إِلْحَقْ بِشَأْنِكَ قَالَ:فَأَقْبَلَ الْإِرَاشِيُّ حَتَّى وَقَفَ عَلَى ذَلِكَ الْمَجْلِسِ فَقَالَ:جَزَاهُ

---

469 – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:لَمَّا هَزَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ وَمَرَرْتُ فَإِذَا أَبُو جَهْلٍ صَرِيعٌ،فَقُلْتُ:يَا عَدُوَّ اللَّهِ يَا أَبَا جَهْلٍ،قَدْ أَخْزَى اللَّهُ الْآخِرَ،فَقَالَ:ابْعَدْ مِنْ رَجُلٍ قَتَلَهُ قَوْمُهُ،فَضَرَبْتُهُ بِسَيْفٍ لِي غَيْرَ طَائِلٍ فَلَمْ يُغْنِ شَيْئًا حَتَّى سَقَطَ سَيْفُهُ مِنْ يَدِهِ،فَأَخَذْتُهُ فَضَرَبْتُهُ حَتَّى بَرَدَ،ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَشْتَدُّ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ قَتَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبَا جَهْلٍ،قَالَ:«اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟» قُلْتُ:اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،فَكَبَّرَ ثُمَّ قَالَ:«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ،وَنَصَرَ عَبْدَهُ» ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى أَتَاهُ فَقَالَ:هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ"الدعاء للطبراني (ص:٣٢٩)(١٠٧٨) صحيح لغيره

اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ – وَاللَّه – أَخَذَ لِيَ الَّذِي لِي قَالَ:وَجَاءَ الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثُوا مَعَهُ فَقَالُوا:وَيْحَكَ مَاذَا رَأَيْتَ؟ قَالَ:رَأَيْتُ عَجَبًا مِنَ الْعَجَبِ،وَاللَّه إِنْ هُوَ إِلَّا أَنْ ضَرَبَ عَلَيْه بَابَهُ فَخَرَجَ إِلَيْه وَمَا مَعَهُ رُوحُهُ فَقَالَ:أَعْطِ هَذَا حَقَّهُ قَالَ:نَعَمْ لَا تَبْرَحْ حَتَّى أُخْرِجَ إِلَيْه حَقَّهُ قَالَ:فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْه بِحَقِّه فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ قَالَ:فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ جَاءَهُمْ أَبُو جَهْلٍ فَقَالُوا لَهُ:وَيْلَكَ مَا لَكَ وَاللَّه مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ:وَيْحَكُمْ وَاللَّه إِنْ هُوَ إِلَّا أَنْ ضَرَبَ الْبَابَ وَسَمِعْتُ صَوْتَهُ فَمُلِئْتُ مِنْهُ رُعْبًا فَخَرَجْتُ إِلَيْه وَإِنَّ فَوْقَ رَأْسِه لَفَحْلًا مِنَ الْإِبِلِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَامَتِه وَلَا قَصَرَتِه وَلَا أَنْيَابِه لِفَحْلٍ قَطُّ وَاللَّه لَوْ أَبَيْتُ لَأَكَلَنِي – وَفِي رِوَايَةٍ – فَقَالُوا لِأَبِي جَهْلٍ:فَرِقْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ كُلَّ هَذَا؟ قَالَ:وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَقَدْ رَأَيْتُ مَعَهُ رِجَالًا مَعَهُمْ حِرَابٌ تَلَأْلَأُ – قَالَ أَبُو قَزَعَةَ فِي حَدِيثِه –:حِرَابًا تَلْمَعُ وَلَوْ لَمْ أُعْطِه لَخِفْتُ أَنْ يَبْعَجَ بِهَا بَطْنِي "[٤٧٠]

فلم يتوقف النبي ﷺ عن الدفاع عن المظلوم وإقامة العدل،بدعوى أنه في مكة،ولا شوكة له فيها،أو أنه لا بد من حكومة إسلامية،أو أن الطاغية لا يؤمر بإصلاح،ولا ينهى عن فساد حتى يسلم!

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَوْفٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ،وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ "[٤٧١]

وهذا يؤكد أن النبي ﷺ ظل على التزامه بهذا الحلف وهو في مكة قبل قيام الدولة الإسلامية،وكذا في المدينة بعد قيامها.

---

470 – دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ص:٢١٠)(١٦١) وسيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد (٢/ ٢٧) وعيون الأثر (١/ ١٣١) ودلائل النبوة للبيهقي محققا (٢/ ١٩٣) صحيح مرسل

471 – السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٩٦)(١٣٠٨٠) حسن

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ فِيمَا بَلَغَنِي عَنْهُ:وَكَانَ سَبَبُ الْحِلْفِ أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَتَظَالَمُ بِالْحَرَمِ،فَقَامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جُدْعَانَ وَالزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَدَعَاهُمْ إِلَى التَّحَالُفِ عَلَى التَّنَاصُرِ،وَالْأَخْذِ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ،قَالَ الْقُتَيْبِيُّ:فَتَحَالَفُوا فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ،فَسَمَّوْا ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ تَشْبِيهًا لَهُ بِحِلْفٍ كَانَ بِمَكَّةَ أَيَّامَ جُرْهُمٍ عَلَى التَّنَاصُفِ وَالْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ،وَلِلْغَرِيبِ مِنَ الْقَاطِنِ،قَامَ بِهِ رِجَالٌ مِنْ جُرْهُمٍ

والمقصود أن الأمة لا تتعطل عن الإصلاح في كل مجال،وفي كل بلد،حسب استطاعتها،فتدعو إلى العدل،وتأخذ على يد الظالم،وتسعى لتحقيق المساواة،وإصلاح شئون حياتها..الخ.

٢- أفضل الإصلاح العمل من أجل الخلافة الراشدة:

فأعظم الإصلاح وأفضل المصلحين من عمل من أجل إقامة (الخلافة الراشدة) في الأمة كلها،ثم من عمل من أجل إقامة (الحكومة الراشدة) في أي بلد من بلدان المسلمين،ثم من تصدى لتحقيق أي إصلاح ولو جزئي،في أي بلد إسلامي بأي وسيلة مشروعة تحقق الإصلاح سلمية كانت أو ثورية،دستورية كانت أو جماهيرية،بحسب الظرف المحيط به.

٣- الدعوة إلى الإصلاح لا تقتصر على دار الإسلام:

ولا يقتصر ذلك الإصلاح على الأمة في دار الإسلام،بل حتى في غير دار الإسلام،فللمسلمين في كل بلد،أن يدعوا إلى الإصلاح والعدل والخير والبر،والاستعانة بأقوامهم وعصائبهم وتجمعاتهم على تحقيق الإصلاح،كما قال العلامة عبد الرحمن السعدي في تفسير قوله {ولولا رهطك لرجمناك} وأنه يجوز للمسلمين في دار الكفر أن يؤيدوا قومهم في إقامة أنظمة الحكم الجمهورية،لما يتحقق لهم فيها من عدل وصلاح،بخلاف أنظمة الحكم المستبدة!

قال السعدي في تفسيره:(ومنها أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئا منها وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم أو أهل وطنهم الكفار كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها بل ربما تعين ذلك لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية وتحرص على إبادتها وجعلهم عمَلَةً وخَدَمًا لهم نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المتعين ولكن لعدم إمكان هذه

المرتبة فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة والله أعلم) انتهى كلام السعدي[٤٧٢].

٤- الأمر بالهجرة للحبشة لأن بها ملكا لا يظلم الناس

وهذا هو السبب في أمر النبي ﷺ بعض أصحابه بالهجرة للحبشة لما فيها من عدل!

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّهَا قَالَتْ:لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَفُتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ،وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ،وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَعَمِّهِ،لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مَا يَنَالُ أَصْحَابَهُ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ "،فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا وَنَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا،وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا..."[٤٧٣]

والضابط في هذا كله قوله تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [المائدة:٢].

وهذه الآية نزلت في شأن التعاون مع المشركين على العدل والخير والبر.

تاسعاً- لا يجوز ترك الدعوة للإصلاح بحجة عدم شرعية السلطة الحاكمة

لا يسوغ عقلا ولا شرعا القول بوجوب ترك المسلمين في كل بلد لشئون حياتهم ومصالحهم في أرضهم وبلدانهم ودولهم وولايتهم التي جعل الله لهم،بدعوى عدم شرعية السلطة،أو بدعوى أنها سلطة طاغوت،فإن الله أرسل موسى لفرعون وهو إمام الطواغيت فقال له:{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)} [طه:٤٣،٤٤]،وقال تعالى:{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩)} [النازعات:١٧ - ١٩]،وقال موسى

---

472 - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٨٩)

473 - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٦)(١٧٧٣٤) صحيح

له بعد أن أبى فرعون وطغى { فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى} [طه:٤٧]. فبعد أن يئس من هدايته طلب منه رفع الظلم عن قومه،فإذا كان باستطاعة الأمة رفع يد الطاغوت عنها فذلك الواجب عليها،فإن عجزت عن ذلك،فلها أن تدعوه إلى الإسلام والإيمان،فإن رفض فلا أقل من دعوته إلى كف ظلمه عن المظلومين!

عاشراً- الاعتزال عن الناس اليوم مستحيل

لأن الاعتزال اليوم في ظل الدولة الحديثة مستحيل،فليس هناك شعاب وصحراء يلجأ إليها الإنسان،حتى يأمن فيها من تدخل الدولة في شئون حياته،منذ ولادته إلى وفاته،فهو يحمل جنسيتها وجواز سفرها وبطاقتها،ويدرس في مدارسها،ويعمل في وظائفها..الخ فمن لم يؤثر بها أثرت به شاء أم أبى!

ثم إن الشارع أمر الفرد بالاعتزال إذا وجد وسيلة لذلك،كما في الحديث عن أبي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ،قَالَ:أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ،فَقُلْتُ:يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:{لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥]؟،قَالَ:أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا:سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فقَالَ:«بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ،حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا،وَهَوًى مُتَّبَعًا،وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً،وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ،فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ،وَدَعْ أَمْرَ الْعَوَامِّ،فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا،الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ،لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ»،قَالَ وَزَادَنِي غَيْرُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟،قَالَ:«خَمْسِينَ مِنْكُمْ»[474]

وقال عند غياب الخلافة بما جاء عن حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ قالَ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ

474 - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ١٠٨)(٣٨٥) حسن

هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه،صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[٤٧٥]

أما الأمة والجماعة فهي مخاطبة بمجموعها بإقامة الواجبات الشرعية،بحسب قدرتها وطاقتها.

عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:قَامَ أَبُو بَكْرٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الآيَةَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}[المائدة:١٠٥] وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ لاَ يُغَيِّرُونَهُ أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ "[٤٧٦]

وعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسِقُونَ} [المائدة:٨١]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ

---

475 - صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ - (١٨٤٧)

[ش (أسأله عن الشر) أستوضحه عنه. (مخافة أن يدركني) خوفا من أن أقع فيه أو أدرك زمنه. (دخن) من الدخان أي ليس خيرا خالصا بل فيه ما يشوبه ويكدره وقيل الدخن الأمور المكروهة. (تعرف منهم وتنكر) أي ترى منهم أشياء موافقة للشرع وأشياء مخالفة له. (جلدتنا) من أنفسننا وقومنا وقيل هم في الظاهر مثلنا ومعنا وفي الباطن مخالفون لنا في أمورهم وشؤونهم وجلدة الشيء ظاهره. (جماعة المسلمين) عامتهم التي تلتزم بالكتاب والسنة. (إمامهم) أميرهم العادل الذي اختاروه ونصبوه عليهم. (تعض بأصل شجرة) أي حتى ولو كان الاعتزال بالعض على أصل شجرة والعض هو الأخذ بالأسنان والشد عليها والمراد المبالغة في الاعتزال]

476 - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢١/ ٢٦٠)(٣٨٧٣٨) صحيح

بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[٤٧٧]

فللإنسان الذي يخاف على دينه ويجد وسيلة للاعتزال أن يعتزل،وللجماعة التي لا تستطيع مواجهة هذا الواقع أن تعتزله إذا استطاعت تحقيق ذلك فعلا،إلا أنه لا يعقل أن يدعو إنسان أو جماعة الأمة كلها بشعوبها التي تبلغ مليار ونصف،أن تعتزل الواقع،وأن لا تمارس حياتها،وألا تعمل في دولها وأوطانها،وألا تدافع عن حقوقها وحرياتها ومصالحها،وحماية أرضها من العدوان،بدعوى أن حكوماتها غير شرعية،أو أنها أنظمة حكم طاغوتية،أو أنه لا يجوز للشعوب أن تدعو هذه الحكومات إلى رفع الظلم،أو تحقيق العدل،أو تحقيق الوحدة بين شعوب الأمة وبلدانها التي فرقها الاستعمار،أو لا يحق للشعوب دعوة هذه الحكومات للدفاع عن الشعب الفلسطيني،أو رفع الحصار عن غزة،أو دعم الشعب العراقي،أو إنقاذ الشعوب المنكوبة بالفيضانات والمجاعات في بلدان العالم الإسلامي..الخ بدعوى أنها حكومات طاغوتية لا تحكم بما أنزل الله!

إن الأمة لن تتوقف عن الحياة ولن تموت،لأن بعض الجماعات توقفت عنها وماتت سياسيا!

ولن تنتظر الأمة وشعوبها حتى يبلور الإسلاميون نظرياتهم عن الخلافة والحكومة الإسلامية،وهم خارج دائرة التأثير في واقعها السياسي،ولن تنتظر الأمة المهدي المنتظر،بل ستعيش الأمة حياتها،وستحافظ على ما يمكن لها أن تحافظ عليه من مصالحها،وستدافع عن حقوقها بفطرتها الطبيعية،وستدافع عن لقمة عيشها بغريزتها الفطرية،إلى أن تتحرر إرادتها،من قبضة عدوها الخارجي وعميله الداخلي،وستقف الأمة مع من يشاركها همومها وآلامها وآمالها،وستمضي مع من يضحي من أجلها لا من أجل نظرياته وأفكاره الخاصة به،ولن تشك الأمة في إسلامها وإيمانها،لأن هذه الجماعة أو تلك لها موقف من هذا النظام أو ذاك،فمن يستطيع تغيير هذا الواقع فليفعل بالعمل السلمي أو الثوري،وإلا فلا يطالب الأمة فوق طاقتها،إذ لا يقود الشعوب نحو التغيير والحرية والخلاص إلا القادة التاريخيون

---

477 – سنن أبي داود (٤/ ١٢٢)(٤٣٣٦) حسن

وعصائبهم،عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ:لَمَّا الْتَقَيْنَا يَوْمَ بَدْرٍ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي فَمَا رَأَيْتُ نَاشِدًا يَنْشُدُ حَقًّا لَهُ،أَشَدَّ مِنْ مُنَاشَدَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَبَّهُ وَهُوَ يَقُولُ:«اللهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ وَعْدَكَ وَعَهْدَكَ اللهُمَّ،إِنِّي أَسْأَلُكَ مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ لَا تَعْبُدْ فِي الْأَرْضِ» ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا كَأَنَّ شُقَّةَ وَجْهِهِ الْقَمَرُ فَقَالَ:«هَذِهِ مَصَارِعُ الْقَوْمِ الْعَشِيَّةَ»[٤٧٨]

مع أن المسلمين الذين لم يحضروا أكثر ممن شهد بدرا!

فإذا تأخر ظهور القادة التاريخيين وعصائبهم،فلا يكلف العامة بما لا يستطيعون،ولهذا جاءت البشارة بالطائفة المنصورة الظاهرة بالحق،وبالغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس،فالإصلاح هو مهمة النخبة من الأمة،الذين يجاهدون في الله حق جهاده،فإن نجحوا في مهمتهم وقامت الأمة معهم،وإلا فقد أدوا الذي عليهم،وكان للأمة عذرها في عدم قيامها معهم،سواء لعجزها وضعفها ووقوعها تحت حكم الطاغوت،أو لعجز المصلحين عن إقناعها وعجزهم عن تحريكها نحو الإصلاح!

478 – السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٢٨)(٨٥٧٤) صحيح

المبحث الثامن عشر

الثورات العربية من الاستبداد إلى الخلافة الراشدة

أولاً–(الثورة العربية والحكم الراشد):

تعد الثورة العربية أجل حدث وأعظمه في تاريخ العرب المعاصر،بل هي من الملاحم الكبرى التي لا عهد للأمة بمثله إلا في ثوراتها على الاستعمار الأجنبي في القرن الماضي،وتكمن خطورة الثورة العربية المعاصرة في اتساع خريطتها الجغرافية فهي تمتد من الخليج إلى المحيط في مساحة ١٤ مليون كيلو متر مربع،وفي اتساعها الديمغرافي فهي ليست ثورة شعب في قطر كما حصل في السودان ضد النميري،إذ ظلت ثورة سودانية قطرية،بل هذه الثورة ثورة أمة يبلغ تعدادها نحو أربعمائة مليون نسمة،كما إنها تقع في منطقة هي الأهم والأخطر عالميا من حيث سيطرتها على الممرات والمضائق المائية،ومن حيث كونها الأغنى بمواردها وثرواتها خاصة النفطية،فهي شريان النفط للعالم كله،ومن حيث إنها منطقة تحد حضاري تاريخي للغرب الاستعماري!

وما زالت الثورة العربية في بداياتها حتى في الدول التي جرت فيها ونجحت كتونس ومصر،أو التي ما تزال تجري فيها كليبيا واليمن وسوريا والمغرب والجزائر،أو التي تعيش إرهاصاتها ومخاضها كالسعودية والأردن وعمان ودول الخليج الأخرى..

وتحتاج هذه الثورة إلى عقد من الزمن حتى تؤتي ثمارها وتحقق أهدافها المرحلية..

وإذا كانت هذه الثورة قد أشغلت العرب بل والعالم كله إعلاميا وسياسيا وثقافيا،فإن ما بعد الثورة سيكون الأشد خطرا والأعظم أثرا،ألا وهو تشكل النظام العربي البديل بعد سقوط النظام القديم برمته..

وإذا كانت هذه الثورة شعبية جماهيرية قامت بها الأمة بكل مكوناتها وفئاتها وطبقاتها وتياراتها،وشارك الجميع في صناعتها،فإن لكل ذلك استحقاقاته التاريخية التي لا يمكن تجاوزها،فليست كالثورات العربية التي قامت في وسط القرن الماضي،إذ تلك انقلابات عسكرية لم يكن للشعوب يد فيها،فكان لها استحقاقات لمن بادروا بها وكان للقوى

الدولية آنذاك يد فيها،وكانت الأمة خارج نطاق التأثير في مجرياتها ومآلاتها التي انتهت إليها..

إن الثورة اليوم تواجه تحديات تاريخية كبرى،وإرثا خلفته لها أنظمة حكم فاسدة،بل عصابات إجرامية،اختزلت الشعب ومصالحه والدولة كلها بمؤسسة الحكم،ثم اختزلت السلطة بالحزب والمجموعة والجماعة والقبيلة الحاكمة،ثم اختزلت كل ذلك بأسرة الرئيس والملك والشيخ،وانتهت إلى استفراد مطلق بأيدي طغاة كانوا أشد خطرا على الأمة من عدوها الخارجي،حيث فرطوا في سيادتها وكرامتها واستقلالها وثرواتها واستقرارها مقابل بقائهم في السلطة!

لقد قامت الثورة وما تزال وستظل إلى أمد تتأجج بكل عنفوانها حتى تستقر على شاطئ الحرية والكرامة والعدالة التي ثار الجميع من أجل تحقيقها،وهو ما يوجب على الجميع بلورة رؤية مشتركة للنظام البديل،يحقق لها ما تصبو إليه من إصلاح أنظمة الحكم،وإقامة حكومات راشدة..

١- الحكم الراشد ومعاييره:

إن هناك إجماعا شعبيا عربيا على ضرورة أن يكون البديل هو إقامة نظام حكم راشد،إلا إن للرشد ملامحه ومواصفاته التي يمكن تحديدها بكل دقة للحكم على النظام القادم البديل بأنها توفرت فيه أم لا،وما مدى الرشد الذي تحقق في آلياته وممارساته..

كما إن من حق كل تيار سياسي وفكري أن يطرح تصوره للرشد بحسب المرجعية التي يؤمن بها،وأن يعرضها على الأمة التي اشتركت كلها في صناعة الثورة،ولها الحق في القبول أو الرفض.

وقد حدد الإسلام في خطابه السياسي القرآني والنبوي والراشدي معايير للحكم الراشد،وأوجب على الأمة التمسك بها،فهي في حق المسلمين واجب يجب عليهم الإيمان بها والعمل من أجل تحقيقها،كما في الحديث عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ،وَحُجْرِ بْنِ حُجْرٍ،قَالَا:أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة:٩٢] فَسَلَّمْنَا،وَقُلْنَا:أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ

وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ،فَقَالَ الْعِرْبَاضُ:صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ،تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ،فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ،وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٤٧٩]

وهي بحق غير المسلمين من الأمة تجربة عربية إنسانية يمكن الاستفادة منها،فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسننهم في العدل وإدارة شئون الأمة إرث للإنسانية كلها عامة،وإرث للعرب كلهم مسلمهم ومسيحيهم خاصة،فإذا ذكر العدل ذكر عمر،ويمكن للعقل البشري أن يحكم بصحة هذا السنن أو عدم صحتها،وبصلاحيتها أو عدم صلاحيتها،فهي مما يتوافق عليه العقول البشرية والشرائع السماوية!

فليست سنن الحكم الراشد أمرا دينيا محضا لا يمكن أن يستفيد منه إلا المسلمون،بل هي سنن معقولة المعنى،يمكن اختبارها وتجربتها،ومن ثم الحكم لها أو عليها،فهي تجربة سياسية واقعية وليست خيالية،ولها أسسها وممارساتها علمها من علمها وجهلها من جهلها!

وكونها سننا يعني أنه يمكن تطبيقها والعمل بها كلها أو بعضها بحسب الإمكان كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ،وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٤٨٠]

٢- أهم ملامح الحكم الراشد:

ومن أهم ملامح الحكم الراشد تحقيق الأهداف التي جاءت الثورة لتحقيقها وهي الحرية والكرامة والحياة الكريمة للإنسان العربي وذلك من خلال:

---

479 - سنن أبي داود (٤/ ٢٠٠)(٤٦٠٧) صحيح

480 - صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٨) وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٥)٤١٢ - (١٣٣٧)

الأول:تجلّي إرادة الأمة الحرة في اختيار نظام الحكم وطبيعته:

ومن يحكم وكيف يحكم،وأن تمثل السلطة فيه اختيار الأمة ابتداء وانتهاء،فلا يحكمها إلا من انتخبته الأمة انتخابا حرا مباشرا،ولا يسوس شئونها إلا من ارتضته ورضيت بـــه،وأن يكون ذلك عن أمر جلي لا يكون عرضة للعبث،وهو ما يقتضي:

١- الاتفاق على عقد اجتماعي وسياسي جديد يعبر عن الثورة وتطلعات الأمة،من خلال وضع دساتير جديدة،تنظم عملية الوصول للسلطة بكل شفافية،وتصون الحقوق والحريات العامة والخاصة،كما فعل النبي صلى الله عليه حين دخل يثرب بعد بيعة العقبة الثانية،فكان أول عمل قام به أن كتب صحيفة المدينة التي حفظ فيها الحقوق لكل مكونـــات الدولـــة الجديدة،وحدد المرجعية السياسية،وصان الحرية الدينية،وكفل الحقـــوق الفرديـــة..الخ ثم حصن ذلك كله بقوله:(وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،وَأَنَّ بَيْـــنَكُمُ النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالنَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ،) [٤٨١]

فلا مجال لتفريغ الوثيقة من مضمونها،أو الاحتجاج بها على نقيض مقصودها من إقامـــة العدل والقسط،بالتعسف أو التأويل أو التحريف!

كما قام النبي ﷺ بالإعلان عن مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ليؤكد بأن العلاقـــة بين مكونات المجتمع الجديد تقوم على أساس الأخوة وعلى أساس المواطنة وتساوي الجميع في الحقوق وأمام القضاء،لا كما كان عليه الحال في المجتمع الجاهلي الطبقي،فلا عصـــبية جاهلية ولا طبقية ولا عنصرية قومية فسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشـــي كعمر القرشي!

وسيكون اليهود أمة مع المؤمنين للمسلمين دينهم ولليهود دينهم،على أساس من الحريـــة والمواطنة {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦]،فقد كان النبي ﷺ يفتتح بذلك عصرا جديدا للعرب خاصـــة،وللعالم كافـــة،هو عصـــر (المدينـــة) بعـــد (يثرب)،حيث سيقوم مجتمع المدينة والمدنية والحضارة والإنسانية،فلا استبداد ولا طغيـــان

---

481 - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٦٦)(٧٥٠) صحيح لغيره وهو مطول

ولا ظلم للإنسان،بل عصر جديد يفتتح بصحيفة المدينة أول دستور وعقد اجتماعي عرفته الإنسانية!

إن الدساتير العربية اليوم أعجز من أن تفي بغرض المجتمع العربي المعاصر،بل هي منذ تم وضعها وهي تستلب الأمة أحق حقوقها السياسية،باسم الإسلام تارة كما في نظام الحكم والدستور السعودي،الذي يجعل حق اختيار رئيس الدولة حكرا على الأسرة الحاكمة دون الشعب كله باسم الإسلام والسنة،أو الدستور الكويتي الذي يكرس كل صلاحيات السلطة في يد رئيس الدولة فهو رئيس السلطتين التنفيذية والتشريعية باسم (نظام الحكم ديمقراطي والأمة مصدر السلطة)،أو الدستور السوري الذي يجعل السلطة حكرا على حزب البعث باسم الشعب وطليعته الثورية..الخ

وكلها دساتير تكرس الاستبداد وحكم الفرد تحت ذرائع باطلة تجاوزها العصر،فليس أمامها إلا الإصلاح أو السقوط!

٢- إقرار التعددية السياسية والتداول السلمي للسلطة لا من خلال النص عليها بالدساتير فقط،بل من خلال الممارسة الحقيقية لها على أرض الواقع،ليكون الواقع أصدق شاهد على مدى التزام السلطة بإرادة الأمة،واحترامها للدستور والعقد الذي بينها وبين الأمة،وإلا ستبقى الدساتير حبرا على ورق لا تغني ولا تسمن من جوع،ما لم يكن هناك تداول سلمي للسلطة،وهو ما تقرر في أصول الخطاب السياسي الراشدي،بإجماع الأمة،لقوله تعالى:{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [الشورى:٣٨]،وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ عُمَرُ:" اعْقِلْ عَنِّي ثَلَاثًا:الْإِمَارَةُ شُورَى،وَفِي فِدَاءِ الْعَرَبِ مَكَانُ كُلِّ عَبْدٍ عَبْدٌ،وَفِي ابْنِ الْأَمَةِ عَبْدَانِ،وَكَتَمَ ابْنُ طَاوُسٍ الثَّالِثَةَ "[٤٨٢]

وقال أيضاً:" مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلاَ يُبَايَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ،"[٤٨٣]

---

482 – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٤٦)(٩٧٦٠) صحيح

483 – صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)(٦٨٣٠) وهو طويل

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ فَقَالَ:" قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ:إِنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً،وَلَكِنْ وَقَى اللهُ شَرَّهَا وَإِنَّهُ لَا خِلَافَةَ إِلَّا عَنْ مَشُورَةٍ،وَأَيُّمَا رَجُلٍ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ،لَا يُؤَمَّرُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا " قَالَ شُعْبَةُ:قُلْتُ لِسَعْدٍ:مَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا؟ قَالَ:عُقُوبَتُهُمَا أَنْ لَا يُؤْمَرَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا.."[٤٨٤]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:«مَنْ دَعَا إِلَى إِمَارَةِ نَفْسِهِ،أَوْ غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَقْتُلُوهُ»[٤٨٥]

فكل اغتصاب للسلطة باطل ومحرم وغير مشروع،ولا شرعية لنظام لا تختاره الأمة عن طريق التعددية والتنافس المشروع،وقد تنافس الستة الذين رشحتهم الأمة لعمر رضي الله عنه،وكان الحكم والفيصل بينهم إرادة الأمة آنذاك حتى قال عبد الرحمن بن عوف وقد استشار الناس ثلاثة أيام حتى سأل النساء في خدورهن في شأن عثمان وعلي،ما جاء عَنِ الزُّهْرِيِّ،أَنَّ حُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَخْبَرَهُ أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ،أَنَّ الرَّهْطَ الَّذِينَ وَلَّاهُمْ عُمَرُ اجْتَمَعُوا فَتَشَاوَرُوا،فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:«لَسْتُ بِالَّذِي أُنَافِسُكُمْ عَلَى هَذَا الأَمْرِ،وَلَكِنَّكُمْ إِنْ شِئْتُمُ اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنْكُمْ»،فَجَعَلُوا ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ،فَلَمَّا وَلَّوْا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَمْرَهُمْ،فَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ،حَتَّى مَا أَرَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَتْبَعُ أُولَئِكَ الرَّهْطَ وَلاَ يَطَأُ عَقِبَهُ،وَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُشَاوِرُونَهُ تِلْكَ اللَّيَالِيَ،حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَصْبَحْنَا مِنْهَا فَبَايَعْنَا عُثْمَانَ،قَالَ المِسْوَرُ:طَرَقَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَعْدَ هَجْعٍ مِنَ اللَّيْلِ،فَضَرَبَ البَابَ حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ،فَقَالَ:«أَرَاكَ نَائِمًا فَوَاللَّهِ مَا اكْتَحَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِكَبِيرِ نَوْمٍ،انْطَلِقْ فَادْعُ الزُّبَيْرَ وَسَعْدًا»،فَدَعَوْتُهُمَا لَهُ،فَشَاوَرَهُمَا،ثُمَّ دَعَانِي،فَقَالَ:«ادْعُ لِي عَلِيًّا»،فَدَعَوْتُهُ،فَنَاجَاهُ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ،ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ،وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَيْئًا،ثُمَّ قَالَ:«ادْعُ لِي عُثْمَانَ»،فَدَعَوْتُهُ،فَنَاجَاهُ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا المُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ،فَلَمَّا صَلَّى لِلنَّاسِ الصُّبْحَ،وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ عِنْدَ المِنْبَرِ،فَأَرْسَلَ إِلَى مَنْ كَانَ حَاضِرًا مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ،وَأَرْسَلَ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ،وَكَانُوا وَافَوْا تِلْكَ الحَجَّةَ

---

484 – السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٤٠٨)(٧١١٣) صحيح

485 – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٤٥) (٩٧٥٩) والسنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٤٣)(١٠٦) صحيح

مَعَ عُمَرَ،فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَشَهَّدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،يَا عَلِيُّ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ،فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ،فَلاَ تَجْعَلَنَّ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا»،فَقَالَ:أُبَايِعُكَ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَالخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ،فَبَايَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ،وَبَايَعَهُ النَّاسُ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ،وَأُمَرَاءُ الأَجْنَادِ وَالمُسْلِمُونَ"[٤٨٦]

وكل الخلفاء الراشدين تولوا السلطة باختيار الأمة وإرادتها بلا إكراه ولا إجبار،بل و لم يكن أحد منهم يستطيع ذلك،بمحضر الأنصار وهم أهل المدينة وأصحاب الشوكة والكلمة،فكان أمر السلطة بالشورى والرضا،لا بالتفويض الإلهي،ولا بالسيف والقوة،ولا بالمال السياسي،فالسلطة في النظام الراشدي سلطة مدنية،تختارها الأمة بإرادتها ورضاها وشوراها،فعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَمِلْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى» أَوْ قَالَ:«التُّقَى»،شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ،قَالَ:وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ:التُّقَى - «وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[٤٨٧]

٣- وأن يتم إصلاح مؤسسات الدولة التنفيذية والتشريعية والقضائية حتى تعبر فعلا عن إرادة الأمة ونفوذ سلطانها على الجميع،فقد غابت مؤسسات الدولة في أعرق نظام عربي وهو النظام المصري،فتم اختطاف السلطة التشريعية وتزوير إرادة الشعب المصري،حتى وصل التزوير نسبة ٩٧% فجاءت الثورة المصرية لتكشف مدى الفساد الذي استشرى في مؤسسات الدولة العريقة،وغاب القضاء المصري العريق،وشلت يده وقدرته عن محاسبة المفسدين مدة ثلاثين سنة،في مشهد يؤكد بأن الحديث عن استقلال القضاء والفصل بين السلطات،حديث خرافة في ظل فساد الحكم،وفي ظل غياب إرادة الأمة،إذ كل السلطات

---

486 - صحيح البخاري (٩/ ٧٨)(٧٢٠٧)

487 - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(٨) صحيح لغيره

تختزل في عصور الاستبداد لتصبح أداة في يد الطاغية باسم الشعب وباسم الدستور وباسم صناديق الاقتراع!{قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩]

إن الفصل بين السلطات هو سنة راشدة ابتدأها أبو بكر الصديق فجعل عمر على القضاء،وجعل أبا عبيدة على بيت المال،لتشترك الأمة كلها في إقامة العدل في القضاء والعطاء،والرقابة على بيت المال!

٤- سيادة النظام على الجميع،ووقوف الجميع أمام القضاء على قدم المساواة،لا فرق بين حاكم ومحكوم،وشريف ووضيع،وغني وفقير،حتى لا يشعر أحد بأي تمييز أو تهميش،كما في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ،فَقَالُوا:وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا:وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ،ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ،أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ،وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "[488]

فالغاية من الإصلاح السياسي ابتداء من وضع عقد اجتماعي ودستور جديد،وإقرار للتعددية والتداول السلمي للسلطة،والفصل بين السلطات واستقلال القضاء،وسيادة النظام على الجميع،كل ذلك هو من أجل صون حرية الإنسان وحقه في اختيار من يمثله في السلطة التنفيذية والتشريعية،دون وصاية من أحد على أحد،ودون تدخل من أحد،وكذا ضمان حقه في العدل والمساواة،فإن تحقق ذلك وإلا كانت كل تلك الآليات وسائل لا معنى لها في غياب الهدف والغاية وهو صون الحرية للإنسان وللأمة!

الثاني- استعادة سيادة الدولة واستقلالها عن النفوذ الأجنبي:

488 - صحيح البخاري (٤/ ١٧٥)(٣٤٧٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥)٩ - (١٦٨٨)

فقد بلغ الحال في العالم العربي أن أصار المواطن من المحيط إلى الخليج يشعر بوصمة عار في جبينه حين يرى دوله لا وزن لها في العالم من حوله،بل تحولت إلى أدوات لتنفيذ مشـــاريع القوى الدولية والإقليمية المتصارعة في المنطقة،ففقد الموطن العربي الشعور بالفخر الذي هو أهم أسس الشعور بالمواطنة،وهو ما جعل العرب في كل قطر يعيشون في حالة اغتراب غير مسبوقة في أوطانهم،فمن يحكمهم لا يمثل إرادتهم بل يمثـــل إرادة الأجـــنبي،ولا يشـــرفهم الانتماء إليه ولا إلى الوطن الذي تحكمه هذه الأنظمة العميلة الخائنة لشعوبها وأوطانها،دون أن تشعر حتى بخيانتها لهم!

وقد تجلى ذلك في أبشع صوره في موقف نظام حسني مبارك ودول الاعتدال التي شاركت في حصار وحرب غزة،حتى خرجت وزيرة الخارجية الإسرائيلية لتقول للعالم بأن إسرائيل وعرب الاعتدال في خندق واحد لمواجهة التطرف!

وقد بلغ الحال من فقدان الدول العربية لسيادتها واستقلالها أن اعترف بعض الرؤساء بأنهم عبارة عن موظفين صغار للولايات المتحدة! كما اعترف بذلك الرئيس اليمني للمشـــايخ والوجهاء في جلسة خاصة لتبرير تعاونه مع الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب!

إن أهم ملامح الحكم الراشد هو استعادة السيادة المفقودة،تلك السيادة التي يمثـــل غيابهـــا نتيجة طبيعية في ظل تنامي الفجوة بين الشعوب وحكوماتها،وشعور الحكومات بحاجتـــها للأجنبي لحماية عروشها غير الشرعية،وهذا بخلاف الأنظمة التي تختارها الشعوب وتقـــف خلفها لمواجهة أي نفوذ خارجي،فهي تستمد شرعيتها من الأمة لا من العدو!

إن حماية الدولة وصيانة سيادة الأمة هو أول واجبات السلطة كما في الحديث عَـــنْ أَبـــي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ،يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ،وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ،كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ،وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ»[٤٨٩]

فالسلطة درع وجنة تقف الأمة من ورائها وتقاتل معها وعنها.

ولهذا السبب عرف الفقهاء قديما دار الإسلام بالشوكة لا بالأحكام،فالدار الـــتي تكـــون الشوكة فيها للأمة والكلمة واليد العليا فيها لها هي وطن ودار للإسلام،كما كانت المدينة

---

489 – صحيح البخاري (٤/ ٥٠)(٢٩٥٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٣ – (١٨٤١)

النبوية،فكانت دار إسلام بتحقق الشوكة والمنعة للأمة فيها،لتقيم فيها أحكام دينها والعدل الذي جاء به نبيها.

وكما قال ابن تيمية رحمه الله:(وَأَمَّا قِتَالُ الدَّفْعِ فَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ دَفْعِ الصَّائِلِ عَنْ الْحُرْمَةِ وَالدِّينِ فَوَاجِبٌ إجْمَاعًا فَالْعَدُوُّ الصَّائِلُ الَّذِي يُفْسِدُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَا شَيْءَ أَوْجَبَ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ دَفْعِهِ فَلَا يُشْتَرَطُ لَهُ شَرْطٌ بَلْ يُدْفَعُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.)[490]

فالعناية بقوة الدولة أولى وأوجب،فإذا قويت الأمة قوي الإسلام،وإذا ضعفت ضعف،وما كان لتركيا أن تعود إلى المسرح الدولي من جديد بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى،لولا استعادتها لقوتها وسيادتها واستقلال قرارها،وما كان ذلك ليتم لها لو كانت ضعيفة عسكريا واقتصاديا،كما قال تعالى:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠]..

فكان من أهم ملامح الحكم الراشد قدرته على حماية سيادة الدولة واستقلالها،والاستغناء عن أي دعم خارجي عسكريا كان أو اقتصاديا أو سياسيا.

ثالثا:تحقيق النهضة والتنمية في جميع المجالات:

وهو حجر أساس مشروعية استمرار السلطة حتى وإن كانت شرعية في إدارة شئون الدولة،إذ المقصود من انتخاب السلطة هو إدارتها لشئون الدولة،فإذا فشلت في ذلك فقد استحقت العزل والتغيير!

والإمارة ولاية ومسئولية كما قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]

---

490 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٨) والمستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٥) وقد ذكرها الدكتور بالمعنى وليس باللفظ المذكور

وقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ:فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي،ثُمَّ قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ،إِنَّكَ ضَعِيفٌ،وَإِنَّهَا أَمَانَةُ،وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ،إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا،وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[٤٩١]

فسمى الإمارة أمانة إذ هي أصل الأمانات!

وقد فقدت الحكومات العربية الفاعلية السياسية،لغياب الكفاءات القادرة على إدارة شئون المجتمع،كفاءة القوة والقدرة وكفاءة الأمانة والنزاهة،وهو ما أدى إلى تخلف الدول العربية،وانهيارها في كل المجالات،حتى باتت دولا فاشلة،أو آيلة إلى الفشل والسقوط،وزادت نسبة الفقر والمرض والبطالة والأمية حتى تجاوزت معدلاتها حدا غير مسبوق،ولهذا كان من أهم ملامح الحكم الراشد لتحقيق النهضة والتنمية:

١- حماية المال العام وصيانته من النهب والإهدار،فلا يمكن تحقيق تنمية في ظل النهب المنظم للمال العام،وفي ظل تحول ثروة الأمة ودولها إلى الخارج بأسماء أفراد الأسر الحاكمة.

وقد كان الصحابة هم من حدد راتب أبي بكر من بيت المال فلما حضرته الوفاة رد ما زاد عنده،عنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما،قَالَ:لَمَّا احْتُضِرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:«يَا عَائِشَةُ انْظُرِي اللِّقْحَةَ الَّتِي كُنَّا نَشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا،وَالْجِفْنَةَ الَّتِي كُنَّا نَصْطَبِحُ فِيهَا،وَالْقَطِيفَةَ الَّتِي كُنَّا نَلْبَسُهَا،فَإِنَّا كُنَّا نَنْتَفِعُ بِذَلِكَ حِينَ كُنَّا فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِذَا مِتُّ فَارْدُدِيهِ إِلَى عُمَرَ،فَلَمَّا مَاتَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» أَرْسَلَتْ بِهِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:رَضِيَ اللهُ عَنْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ أَتْعَبْتَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكَ"[٤٩٢]

وكذا فعل عمر!

فليس لهم أن يتصرفوا قي مال الأمة إلا بإذنها ورضاها،فعَنْ عَطِيَّةَ بْنِ قَيْسٍ قَالَ:سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ [بْنَ أَبِي سُفْيَانَ] يَخْطُبُنَا يَقُولُ:إِنَّ فِي بَيْتِ مَالِكُمْ فَضْلًا بَعْدَ أُعْطِيَاتِكُمْ،وَإِنِّي قَاسِمُهُ

---

491 - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧)١٦ - (١٨٢٥)

492 - المعجم الكبير للطبراني (١/ ٦٠)(٣٨) حسن

بَيْنَكُمْ،فَإِنْ كَانَ يَأْتِينَا فَضْلٌ عَامًا قَابِلًا قَسَّمْنَاهُ عَلَيْكُمْ،وَإِلَّا فَلَا عَتَبَةَ عَلَيَّ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَالِي،وَإِنَّمَا هُوَ مَالُ اللَّهِ الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ.[٤٩٣]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ:أَنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ وَقَدْ حُبِسَ الْعَطَاءُ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً فَقَالَ لَهُ أَبُو مُسْلِمٍ:يَا مُعَاوِيَةُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِكَ وَلَا مَالَ أَبِيكَ وَلَا مَالِ أُمِّكَ فَأَشَارَ مُعَاوِيَةُ إِلَى النَّاسِ أَنِ امْكُثُوا وَنَزَلَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِي وَلَا بِمَالِ أَبِي وَلَا أُمِّي وَصَدَقَ أَبُو مُسْلِمٍ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«الْغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالشَّيْطَانُ مِنَ النَّارِ وَالْمَاءُ يُطْفِئُ النَّارَ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ» اغْدُوا عَلَى عَطَايَاكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"[٤٩٤]

وعَنْ سَعْدٍ،قَالَ:جَاءَ الْحَارِثُ بْنُ الْبَرْصَاءِ وَهُوَ فِي السُّوقِ،فَقَالَ لَهُ:يَا أَبَا إِسْحَاقَ،إِنِّي سَمِعْتُ مَرْوَانَ يَزْعُمُ أَنَّ مَالَ اللَّهِ مَالُهُ مَنْ شَاءَ أَعْطَاهُ،وَمَنْ شَاءَ مَنَعَهُ،فَقَالَ لَهُ:«أَنْتَ سَمِعْتَهُ يَقُولُ ذَلِكَ؟» قَالَ:نَعَمْ،قَالَ سَعِيدٌ:فَأَخَذَ بِيَدِي سَعْدٌ وَبِيَدِ الْحَارِثِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى مَرْوَانَ،فَقَالَ:«يَا مَرْوَانُ،أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ مَالَ اللَّهِ مَالُكَ،مَا شِئْتَ أَعْطَيْتَهُ وَمَنْ شِئْتَ مَنَعْتَهُ؟» قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«فَأَدْعُو» وَرَفَعَ سَعْدٌ يَدَيْهِ،فَوَثَبَ إِلَيْهِ مَرْوَانُ وَقَالَ:أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَنْ تَدْعُوَ هُوَ مَالُ اللَّهِ مَنْ شَاءَ أَعْطَاهُ وَمَنْ شَاءَ مَنَعَهُ"[٤٩٥]

فلا يؤخذ منه شيء ولا يتصرف فيه إلا بإذن الأمة.

وليس لهم أخذ هدية وهم في الوظيفة العامة بل يجب رد حتى الهدية للرئيس إلى بيت المال..

ولا يقاس أحد على النبي ﷺ،وقد كان الخلفاء الراشدون يردون ما أهدي إليهم لبيت المال،فعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ:أُهْدِيَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ تُفَّاحٌ وَفَاكِهَةٌ،فَرَدَّهَا

493 – تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٩/ ١٧٠) ومختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٥١) ومنهاج السنة النبوية (٦/ ٢٣٤) فيه ضعف

494 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٣٠) حسن

495 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٥٧٢)(٦١٢٤) صحيح

وَقَالَ:" لَا أَعْلَمَنَّ أَنَّكُمْ قَدْ بَعَثْتُمُ الَى أَحَدٍ مِنَ أَهْلِ عَمَلِي بِشَيْءٍ،قِيلَ لَهُ:أَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ،قَالَ:بَلَى،وَلَكِنَّهَا لَنَا وَلِمَنْ بَعْدَنَا رِشْوَةٌ "[٤٩٦]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مُهَاجِرٍ قَالَ:اشْتَهَى عُمَرُ تُفَّاحًا فَقَالَ:" لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا مِنَ تُفَاحٍ،فَإِنَّهُ طَيِّبٌ،فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِهِ فَأَهْدَى إِلَيْهِ تُفَّاحًا،فَلَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ قَالَ:مَا أَطْيَبَهُ وَأَطْيَبَ رِيحَهُ،وَأَحْسَنَهُ،ارْفَعْ يَا غُلَامُ،وَاقْرَأْ عَلَى فُلَانٍ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ:إِنَّ هَدِيَّتَكَ قَدْ وَقَعَتْ عِنْدَنَا بِحَيْثُ تُحِبُّ،قَالَ عَمْرُو بْنُ مُهَاجِرٍ:فَقُلْتُ لَهُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،ابْنُ عَمِّكَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ،وَقَدْ بَلَغَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ،قَالَ:«إِنَّ الْهَدِيَّةَ كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَدِيَّةً،وَهِيَ لَنَا رِشْوَةٌ»[٤٩٧]

وعن فرات بن مسلم،قال:اشتهى عمر بن عبد العزيز تفاحاً،فطلب له فلم يوجد،فركب وركبنا معه،فتلقاه غلمانٌ من الديارنة بأطباقٍ فيها تفاحٌ؛ فوقف على طبقٍ منها،فتناول تفاحةً [فشمها ثم أعادها] في الطبق،ثم قال:ادخلوا ديركم،لا أعلم أنكم بعثتم إلى أحدٍ من أصحابي بشيء. قال:فحركت بغلتي،فلحقته،فقلت:يا أمير المؤمنين،اشتهيت التفاح فطلب لك فلم يوجد،ثم أهدي لك [فرددته،ألم يكن] رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية؟ قال:إنها لرسول الله ﷺ وأبي بكرٍ وعمر هديةٌ،وللعمال بعدهم رشوةٌ.[٤٩٨]

٢- العمل على استرجاع كل ما تم نهبه طوال العقود السابقة من البنوك الخارجية،وهي ثروة تقدر بالترليونات،وهي أخطر مشكلة ستواجهها أنظمة الحكم الراشد بعد الثورة العربية،فليست هذه الثروة بالأمر الذي يمكن تعويضه لغض الطرف عنه،ولهذا كان استرجاعها أول خطوة على طريق الإصلاح الاقتصادي والتنمية الشاملة.

وقد رد الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز مظالم بني أمية وما أخذه أمراء الجور إلى أصحابه إن عرفهم،أو إلى بيت المال،مع أن بعضه مضى عليه نصف قرن،فعن الْفُرَاتَ بْنِ السَّائِبِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ لِامْرَأَتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَكَانَ عِنْدَهَا جَوْهَرٌ أَمَرَ لَهَا أَبُوهَا بِهِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ -:اخْتَارِي،إِمَّا أَنْ تَرُدِّي حُلِيَّكِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ،وَإِمَّا تَأْذَنِي لِي

496 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٩٤) صحيح

497 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٩٤) صحيح

498 - تاريخ الرقة (ص:١٠٣) (١٨٠) صحيح

فِي فِرَاقِكِ،فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ أَنَا وَأَنْتِ وَهُوَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ،قَالَتْ:لَا بَلْ أَخْتَارُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ،وَعَلَى أَضْعَافِهِ لَوْ كَانَ لِي،قَالَ:فَأَمَرَ بِهِ فَحُمِلَ حَتَّى وُضِعَ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ،فَلَمَّا هَلَكَ عُمَرُ وَاسْتُخْلِفَ يَزِيدُ قَالَ لِفَاطِمَةَ:إِنْ شِئْتِ يَرُدُّونَهُ عَلَيْكِ،قَالَتْ:فَإِنِّي لَا أَشَاؤُهُ،طِبْتُ عَنْهُ نَفْسًا فِي حَيَاةِ عُمَرَ،وَأَرْجِعُ فِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ؟ لَا وَاللهِ أَبَدًا،فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَسَمَهُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ"[499]

فالحقوق لا تسقط بالتقادم،فعنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً،فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقِ ظَالِمٍ حَقٌّ»[500]

وعَنْ عُرْوَةَ،أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ اخْتَصَمَا فِي أَرْضٍ غَرَسَ أَحَدُهُمَا فِيهَا نَخْلًا وَالْأَرْضُ لِلْآخَرِ،فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَرْضِ لِصَاحِبِهَا،وَأَمَرَ صَاحِبَ النَّخْلِ أَنْ يُخْرِجَ نَخْلَهُ،وَقَالَ:«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لِمَنْ أَحْيَاهَا،وَلَيْسَ لِعَرَقِ ظَالِمٍ حَقٌّ». قَالَ:فَلَقَدْ أَخْبَرَنِي الَّذِي حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَأَى النَّخْلَ وَهِيَ عَمٌّ،تُقْلَعُ أُصُولُهَا بِالْفُؤُوسِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:الْعَمُّ:الشَّبَابُ،«وَلَيْسَ لِعَرَقِ ظَالِمٍ حَقٌّ» قَالَ:«أَنْ تَأْتِيَ أَرْضَ غَيْرِكَ فَتَزْرَعَ فِيهَا»[501]

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ وَالْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ فَمَنْ أَحْيَا مِنْ مَوَاتِ الْأَرْضِ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقِ ظَالِمٍ حَقٌّ»[502]

ولهذا كان إعفاء الرئيس اليمني عما سلف منه من جرائم خاصة ما نهبه من مال الشعب جريمة لا تغتفر بحق من وقعوا المصالحة لفقدهم الشرعية للتنازل عن حقوق الشعب!

وليست الدماء كالأموال فإن الدم حق خاص لأولياء المقتول فإذا عفوا عنه فلهم ذلك بخلاف المال العام للأمة لا يصلح التنازل عنه بل يجب رده للأمة.

---

499 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٨٣)

500 – السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٣٢٥)(٥٧٢٩) صحيح

501 – سنن الدارقطني (٣/ ٤٤٤)(٢٩٣٨) صحيح

502 – مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٥٥)(١٥٤٣) صحيح

٣- توجيه الطاقات لتطوير الاقتصاد وفتح أبواب الاستثمار لنقل وتوطين الصناعة،وتدارك ما فات الدول العربية خلال نصف قرن من فرص تاريخية للنهضة الصناعية والتكنولوجية،التي وصلت إليها دول إسلامية أخرى كتركيا وماليزيا واندونيسيا،فضلا عن دول العالم المتقدم صناعيا.

٤- تطوير البنية التحتية،وتأمين الطرق والمواصلات والطاقة،وتوفير الرعاية السكنية والصحية والخدمات للجميع.

٥- تأمين فرص العمل ومعالجة مشكلة البطالة،واستثمار الإنسان وتنمية قدراته ومهاراته وتوفير فرص التعليم والتدريب والإعداد لسوق العمل.

وقد حدد الخطاب الإسلامي السياسي النبوي والراشدي أهم مسئوليات السلطة والدولة تجاه مواطنيها،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ،وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَإِلَيْنَا»[٥٠٣]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ الْمُسْتَوْرِدُ وَعَمْرُو بْنُ غَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ،فَقَالَ الْمُسْتَوْرِدُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَّخِذْ زَوْجَةً،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَتَّخِذْ مَسْكَنًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً»،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَكْثَرْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَمَنْ أَصَابَ سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ سَارِقٌ»[٥٠٤]

وعَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ الْفِهْرِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:مَنْ وَلِيَ لَنَا شَيْئًا،فَلَمْ تَكُنْ لَهُ امْرَأَةٌ فَلْيَتَزَوَّجِ امْرَأَةً،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَتَّخِذْ مَسْكَنًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَرْكَبٌ فَلْيَتَّخِذْ

---

503 - صحيح البخاري (٣/ ١١٨)(٢٣٩٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٣٨)١٧ - (١٦١٩)

[ش (كلا) عيالا لا نفقة لهم أو دينا لا وفاء له. (فإلينا) يرجع أمره والقيام به]

504 - أمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص:٧٧)(١٤٠) ومسند ابن أبي شيبة (٢/ ٢٨١)(٧٧٨) والمعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٣٠٤) (٧٢٥) صحيح

مَرْكَبًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا،فَمَنِ اتَّخَذَ سِوَى ذَلِكَ:كَنْزًا،أَوْ إِبِلًا،جَاءَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَالًّا أَوْ سَارِقًا.[505]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ،آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ،فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا». [506]

فدلَّ كل ذلك على الحد الأدنى الذي يجب على السلطة توفيره للإنسان،لتحقيق الحياة الإنسانية الكريمة له،ابتداء من توفير فرص العمل له،وتيسير الحياة الزوجية والأسرية لكل شاب وأعزب،وتأمين السكن لكل أسرة،وتأمين الغذاء والدواء والرعاية الصحية،وتوفير وسائل النقل،وتحقيق الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي والأسري لكل فرد في المجتمع.

الرابع- تحقيق حالة السلم والأمن الاجتماعي لجميع مكونات المجتمع:

على اختلاف فئاته،دينية كانت أو قومية،وقد أججت الأنظمة العربية الفتن الداخلية في كل مجتمع عربي،لحماية نفسها على حساب استقرار شعوبها،وقد كان نظام حسني مبارك وراء الفتن بين المصريين مسلميهم وأقباطهم،وكان النظام اليمني وراء الفتن بين جنوب اليمن وشماله،وكان النظام العراقي العميل للاحتلال وراء تفجير الداخل العراقي وإثارة الفتن الطائفية بين مكونات الشعب العراقي الذي لم يعرف طوال تاريخ العراق الحديث فتنة بين السنة والشيعة،وتقوم دول الخليج اليوم بإثارة الفتن الطائفية لقطع الطريق على الإصلاحات الداخلية..الخ

فأصبحت المجتمعات العربية في ظل الأنظمة الفاسدة في حالة استنفار دائم وافتقاد للسلم الأهلي،حيث تم تلغيم المجتمعات بألغام تقضي حين تفجيرها على الأخضر واليابس،مما يؤكد خطورة بقاء الاستبداد وسياساته الفرعونية التي تقوم على تمزيق المجتمع من الداخل:{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [القصص:٤]،وعلى ادعاء استحقاق

---

505 - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٣٨)(٦٥٣ - ٦٥٥) صحيح لغيره

506 - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٤٤٥)(٦٧١) صحيح لغيره

الحكم {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف:٥١]،وعلى استبداده وطغيانه { يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩]،وعلى إرهابه للمجتمع {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } [الشعراء:٢٩]،وعلى مصادرة حرية الرأي وحرية الاعتقاد {قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) } [الأعراف:١٢٣ - ١٢٦]؟! {قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى} [طه:٧١]{ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } [الشعراء:٤٩]

بينما تقوم سياسة الحكم الراشد على تعزيز وحدة المجتمع واستقراره {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات:١٣] {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء:١]،وعلى احترام كرامة الإنسان {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } [الإسراء:٧٠]،وعلى أساس حرية الاعتقاد والرأي { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦]،وعلى أساس الشورى في الحكم {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [الشورى:٣٨]،وعلى أساس العدل بين الجميع {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ

اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:٥٨]،وعلى أساس توزيع الثروة العادل{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر:٧]..الخ

وهذا موقف عظيم من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه،فعَنِ الْأَحْنَفِ،أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا فِي رَهْطٍ عَلَى بَابِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَخَرَجَتْ عَلَيْهِمْ جَارِيَةٌ،فَقَالُوا:سَرِيَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ:إِنَّهَا لَيْسَتْ سَرِيَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ؛ إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللَّهِ قَالَ:فَتَذَاكَرْنَا مَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ،فَبَلَغَهُ ذَلِكَ،فَدَعَانَا فَقَالَ:مَا قُلْتُمْ؟ فَقُلْنَا:خَيْرًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،خَرَجَتْ عَلَيْنَا جَارِيَةٌ،فَقُلْنَا:سَرِيَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ:لَيْسَتْ سَرِيَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ،إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللَّهِ،فَتَذَاكَرْنَا مَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ قَالَ:وَقُلْنَا:أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ قَالَ:فَرَدَّدَهَا عَلَيْنَا ثَلَاثَ مِرَارٍ،فَقُلْنَا:أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ:أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا أَسْتَحِلُّ مِنْ هَذَا الْمَالِ:حُلَّةٌ لِلشِّتَاءِ وَحُلَّةٌ لِلْقَيْظِ،وَمَا أَحُجُّ عَلَيْهِ وَأَعْتَمِرُ مِنَ الظَّهْرِ،وَقُوتُ أَهْلِي مِثْلُ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ،لَيْسَ بِأَغْنَاهُمْ وَلَا أَفْقَرِهِمْ،ثُمَّ أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ "[٥٠٧]

وقد تجلَّى مفهوم حماية السلم الأهلي والاستقرار الداخلي في أوضح صوره في موقف الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه حين رفض رفضا قاطعا قمع الخارجين على سلطته،وأمر من حاولوا الدفاع عنه كف أيديهم

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:كُنْتُ مَعَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الدَّارِ فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ طَابٌ أَمْ ضَرْبٌ؟ – قَالَ:يَعْنِي طَابَ الْقِتَالُ – فَقَالَ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَيَسُرُّكَ أَنْ قَتَلْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَأَنَا مَعَهُمْ؟ فَقَالَ:لَا،فَقَالَ:«إِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَ إِنْسَانًا وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قَتَلْتَ النَّاسَ جَمِيعًا»[٥٠٨]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ لَنَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«أَقْسَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا أَلْقَيْتُمُ السِّلَاحَ،فَأَلْقَيْتُ سَيْفِي فَمَا تَقَلَّدْتُهُ بَعْدُ»[٥٠٩]

---

507 – تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٦٩٨) صحيح

508 – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٦) صحيح

509 – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٧) صحيح

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:كُنْتُ مَعَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الدَّارِ فَجَاءَ سَهْمٌ عَائِرٌ فَأَصَابَ إِنْسَانًا فَقَتَلَهُ،فَقُلْتُ:طَابٌ أَمْ ضِرَابٌ؟ فَقَالَ:«أَعْزِمُ عَلَيْكَ،فَإِنَّمَا يُرَادُ نَفْسِي وَسَأَقِي الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِي»[510]

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ:انْتَضَى أَبُو هُرَيْرَةَ سَيْفَهُ،فَقَالَ:الْآنَ طَابٌ أَمْ ضِرَابٌ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لِيَ عَلَيْكَ حَقًّا؟» قَالَ:بَلَى،قَالَ:«فَأَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لَمَا أَغْمَدْتَ سَيْفَكَ وَكَفَفْتَ يَدَكَ؟» قَالَ:فَقَامَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَامَ تَمْنَعُ النَّاسَ مِنْ قِتَالِهِمْ؟ فَقَالَ:«أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ أَخِي لَمَا كَفَفْتَ يَدَيْكَ،وَلَحِقْتَ بِأَهْلِكَ فَلَا حَاجَةَ لِي فِي هِرَاقَةِ الدِّمَاءِ». فَقَامَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَامَ تَمْنَعُ النَّاسَ مِنْ قِتَالِهِمْ،فَقَدْ وَاللَّهِ حَلَّ قِتَالُهُمْ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعَكَ فِي الدَّارِ إِلَّا مَنْ مَعَكَ مِنْ وَلَدِ أَبِيكَ - يَعْنِي بَنِي أُمَيَّةَ - لَامْتَنَعْتَ بِهِمْ،قَالَ:«أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا كَفَفْتَ يَدَكَ»[511]

وعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ بِالْبَابِ عِصَابَةً مُسْتَبْصِرَةً قَدْ يَنْصُرُ اللَّهُ بِأَقَلَّ مِنْهُمْ. فَقَالَ:«أَنْشُدُ اللَّهَ رَجُلًا يَرَى لِلَّهِ عَلَيْهِ حَقًّا،وَيَرَى لِي عَلَيْهِ حَقًّا أَنْ يُهْرِيقَ دَمِي،أَوْ يُهْرِيقَ لِي دَمًا»[512]

وعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ:حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مَحْصُورٌ،فَقَالَ:قَدْ نَزَلَ بِكَ مَا تَرَى وَإِنَّا مُخَيِّرُوكَ بَيْنَ خِصَالٍ ثَلَاثٍ،إِنْ شِئْتَ خَرَقْنَا لَكَ بَابًا فِي الدَّارِ سِوَى الْبَابِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ فَتَقْعُدُ عَلَى رَوَاحِلِكَ فَتَلْحَقُ بِمَكَّةَ،فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّوكَ وَأَنْتَ بِهَا،أَوْ تَلْحَقُ بِالشَّامِ،فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشَّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ،أَوْ تَخْرُجُ بِمَنْ مَعَكَ فَتُقَاتِلُهُمْ فَإِنَّ مَعَكَ عَدَدًا وَقُوَّةً،وَأَنْتَ عَلَى حَقٍّ،وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ. فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَمَّا قَوْلُكَ:نَخْرِقُ لَكَ بَابًا سِوَى الْبَابِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ فَأَقْعُدُ عَلَى رَوَاحِلِي وَأَلْحَقُ بِمَكَّةَ،فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّونِي وَأَنَا بِهَا،فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«يُلْحَدُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ عَلَيْهِ نِصْفُ عَذَابِ الْعَالَمِ» فَلَنْ أَكُونَ إِيَّاهُ،وَأَمَّا

---

510 - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٧) صحيح لغيره

511 - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٨) صحيح

512 - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٩) صحيح

قَوْلُكَ:الْحَقْ بِالشَّامِ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشَّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ،فَلَنْ أُفَارِقَ دَارَ هِجْرَتِي وَمُجَاوَرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا،وَأَمَّا قَوْلُكَ:أَخْرُجُ بِمَنْ مَعِي عَدَدًا وَقُوَّةً وَأَنَا عَلَى حَقٍّ،عَلَى بَاطِلٍ،فَلَنْ أَكُونَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِإِهْرَاقِ دَمِ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ "

وفي رواية قَالَ:فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ النَّبِيَّ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِإِهْرَاقِ مِحْجَمَةٍ مِنْ دَمٍ" [٥١٣]

كما سنَّ علي رضي الله عنه سنن الرحمة في الخوارج الذين كفروه،قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:بَلَغَنَا أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،بَيْنَمَا هُوَ يَخْطُبُ إِذْ سَمِعَ تَحْكِيمًا مِنْ نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ:لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ،لَكُمْ عَلَيْنَا ثَلَاثٌ:لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ تَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللهِ،وَلَا نَمْنَعُكُمُ الْفَيْءَ مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا،وَلَا نَبْدَؤُكُمْ بِقِتَالٍ "[٥١٤]

وعَنْ كَثِيرِ بْنِ نَمِرٍ،قَالَ:بَيْنَا أَنَا فِي الْجُمُعَةِ،وَعَلِيٌّ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ،إِذْ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ:لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ:لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،ثُمَّ قَامُوا مِنْ نَوَاحِي الْمَسْجِدِ،فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِيَدِهِ اجْلِسُوا:نَعَمْ،لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ،كَلِمَةٌ يُبْتَغَى بِهَا بَاطِلٌ،حُكْمُ اللهِ نَنْظُرُ فِيكُمْ،أَلَا إِنَّ لَكُمْ عِنْدِي ثَلَاثَ خِصَالٍ:مَا كُنْتُمْ مَعَنَا لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ تَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللهِ،وَلَا نَمْنَعُكُمْ فَيْئًا مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا،وَلَا نُقَاتِلُكُمْ حَتَّى تُقَاتِلُوا.."[٥١٥]

وعَنْ كَثِيرِ بْنِ نَمِرٍ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْخَوَارِجِ إِلَى عَلِيٍّ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنِّي وَجَدْتُ هَذَا يَسُبُّكَ،قَالَ:«فَسُبَّهُ كَمَا سَبَّنِي» قَالَ:وَيَتَوَاعَدُكَ،قَالَ:«لَا أَقْتُلُ مَنْ لَمْ يَقْتُلْنِي» قَالَ:ثُمَّ قَالَ عَلِيٌّ:" لَهُمْ عَلَيْنَا حَسِبْتُهُ قَالَ:ثَلَاثٌ لَا نَمْنَعُهُمُ الْمَسَاجِدَ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا،وَلَا نَمْنَعُهُمُ الْفَيْءَ مَا دَامَتْ أَيْدِيهِمْ مَعَ أَيْدِينَا،وَلَا نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُونَا ". [٥١٦]

---

513 – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢١٢) صحيح

514 – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣١٨) بلاغا

515 – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣١٩)(١٦٧٦٣) حسن

516 – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥١٧)(٨٢٩) حسن

وكل ذلك قائم على أساس احترام حرية الإنسان وكرامته وإنسانيته فرادا كان أو مجموعة كما قال عمر دفاعا عن القبطي المصري:(متى استعبدتم النـــاس وقـــد ولـــدتهم أمهـــاتهم أحرارا)![517]

الخامس – كيف تتحقق حالة السلم والأمن الأهلي ؟

إن حالة السلم والأمن الأهلي تتحقق من خلال:

١- إلغاء كافة قوانين الطوارئ والمحاكم الاستثنائية التي أشاعت حالة مـــن الخـــوف في المجتمعات العربية،حتى افتقد المواطن العربي الأمن والطمأنينة،وصار جهاز الأمن مصـــدر الرعب والخوف،والعدو الأول للشعب،وقد تجلى ذلك فيما جرى من مواجهـــات بـــين الشعب المصري والأمن المركزي،وحالة العداء الشديد التي تراكمت خلال ثلاثة عقود من طغيان السلطة وأجهزة أمنها،حتى أن الشعب المصري لم يعرف الأمن إلا حين انهار جهاز الأمن!

" وهذا في سائر الدول العربية أيضاً "

وهو خلل خطير يحتاج إلى إعادة تأسيس كل أجهزة الأمن وهيكلتها من جديد،وتحديـــد أهدافها ومسئولياتها،لتكون في خدمة الشعب لا في خدمة السلطة!

٢- تكريس مبدأ تكافؤ الفرص أمام الجميع،وإلغاء ما يتعارض مع مبدأ العدل والمســـاواة العامة.

٣- تقرير حق الأقليات الدينية والعرقية في المحافظة على هويتها ولغتها وثقافتـــها،وتعزيز روح المواطنة والانتماء للأمة لدى الأقليات،حتى لا يشعر إنسان ولا مكون اجتمـــاعي في الدول العربية في حالة من الاغتراب في وطنه،ففي المشتركات الدينية والقومية والإنســـانية بين مكونات المجتمع في العالم العربي ما يمكن أن يعزز ويحقق الانتماء للفرد مهما كانـــت قوميته أو دينه أو ثقافته.

---

517 – أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١/ ٣٠٥) ومحض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢/ ٤٧٣) وفيه مفصلا،لكن لم يرد من مصدر مسند

٤- احترام حق الأكثرية في المحافظة على قيمها وهويتها،وإنهاء حالة الاستلاب التي تعرضت لها المجتمعات العربية في ظل أنظمة حكم علمانية،تجاوزت على أحق حقوق الأمة في التحاكم إلى شريعتها،وفرضت عليها قوانين تصطدم مع دينها وقيمها وهويتها،وهو ما يقتضي استكمال العمل بالفقه الإسلامي في كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتشريعية،وأن يتصدى لذلك عباقرة القانون والفقه القادرون على الجمع بين معرفة مشكلات العصر ونوازله،وأحكام الإسلام ومقاصده،لحل الأزمة التاريخية والصراع الدائم في المجتمعات العربية منذ سقوطها تحت الاستعمار الغربي إلى اليوم بين النخب العلمانية من جهة والأمة من جهة أخرى،ولن تستقر هذه المجتمعات ولن يتحقق السلم الأهلي ما لم يتفهم الجميع ضرورة احترام إرادة الأكثرية والاعتراف بحقها في العيش وفق قيمها ودينها وهويتها الدينية والقومية،مع ضمان حق الأقلية في التمتع بحقوقها الدينية والثقافية،دون حرمانها من كافة حقوق المواطنة.

السادس- تعزيز الوحدة والاتحاد بين كل دولة قطرية،والدول العربية المحيطة بها:

وتعزيز التكامل السياسي والاقتصادي والعسكري بينها،للوصول إلى اتحاد بين دول العالم العربي،والاستفادة من تجربة الاتحاد الأوربي،للخروج من حالة الضعف والتشرذم التي وصلت لها الدول العربية في ظل الأنظمة الفاسدة،حيث فرطت بأهم ما كانت تطمح له شعوب العالم العربي من الوحدة والاتحاد والقوة،لاسترجاع حقوقها المسلوبة وعلى رأسها أرض فلسطين والمسجد الأقصى والقدس الشريف.

السابع- بلورة مشروع سياسي،ورسالة إنسانية يستعيد العالم العربي من خلالها دوره الحضاري على المسرح العالمي:

يزاوج بين الهويتين الرئيسيتين للعرب كأمة،وهم الإسلام كدين وحضارة وقيم إنسانية:{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:" لَمَّا قَدِمَ عُمَرُ الشَّامَ أُتِيَ بِبِرْذُونٍ فَرَكِبَهُ،فَهَزَّهُ فَنَزَلَ

عَنْهُ،فَعَرَضَتْ لَهُ مَخَاضَةٌ فَنَزَلَ عَنْ بَعِيرِهِ،وَأَخَذَ بِخِطَامِهِ وَنَزَعَ مَوْقَيْهِ فَأَخَذَهُمَا بِيَدَيْهِ وَخَاضَ الْمَاءَ،فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:صَنَعْتُ الْيَوْمَ صَنِيعًا عَظِيمًا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ،فَصَكَّ عُمَرُ فِي صَدْرِهِ فَقَالَ:إِنَّهُ لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُ هَذَا،إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَقَلَّ النَّاسِ وَأَذَلَّ النَّاسِ وَأَضْعَفَهُ،فَأَعَزَّكُمُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ،فَمَهْمَا تَطْلُبُوا الْعِزَّ بِغَيْرِهِ يُذِلُّكُمْ.[518]

وَقَالَ سَيْفٌ عَنْ شُيُوخِهِ:وَلَمَّا تَوَاجَهَ الْجَيْشَانِ بَعَثَ رُسْتُمُ إِلَى سَعْدٍ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ عَالِمٍ بِمَا أَسْأَلُهُ عَنْهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جَعَلَ رُسْتُمُ يَقُولُ لَهُ:إِنَّكُمْ جِيرَانُنَا وَكُنَّا نُحْسِنُ إِلَيْكُمْ وَنَكُفُّ الْأَذَى عَنْكُمْ،فَارْجِعُوا إِلَى بِلَادِكُمْ وَلَا نَمْنَعُ تُجَّارَكُمْ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى بِلَادِنَا. فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ:إِنَّا لَيْسَ طَلَبُنَا الدُّنْيَا،وَإِنَّمَا هَمُّنَا وَطَلَبُنَا الْآخِرَةُ،وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا قَالَ لَهُ:إِنِّي قَدْ سَلَّطْتُ هَذِهِ الطَّائِفَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَدِنْ بِدِينِي،فَأَنَا مُنْتَقِمٌ بِهِمْ مِنْهُمْ،وَأَجْعَلُ لَهُمُ الْغَلَبَةَ مَا دَامُوا مُقِرِّينَ بِهِ،وَهُوَ دِينُ الْحَقِّ لَا يَرْغَبُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا ذَلَّ،وَلَا يَعْتَصِمُ بِهِ إِلَّا عَزَّ. فَقَالَ لَهُ رُسْتُمُ:فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ:أَمَّا عَمُودُهُ الَّذِي لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَّا بِهِ،فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَقَالَ:مَا أَحْسَنَ هَذَا! وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ:وَإِخْرَاجُ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ. قَالَ:وَحَسَنٌ أَيْضًا،وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ:وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ،فَهُمْ إِخْوَةٌ لِأَبٍ وَأُمٍّ. قَالَ:وَحَسَنٌ أَيْضًا،ثُمَّ قَالَ رُسْتُمُ:أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلْنَا فِي دِينِكُمْ،أَتَرْجِعُونَ عَنْ بِلَادِنَا؟ قَالَ:إِي وَاللَّهِ،ثُمَّ لَا نَقْرَبُ بِلَادَكُمْ إِلَّا فِي تِجَارَةٍ أَوْ حَاجَةٍ. قَالَ:وَحَسَنٌ أَيْضًا. قَالَ:وَلَمَّا خَرَجَ الْمُغِيرَةُ مِنْ عِنْدِهِ ذَاكَرَ رُسْتُمُ رُؤَسَاءَ قَوْمِهِ فِي الْإِسْلَامِ،فَأَنِفُوا مِنْ ذَلِكَ وَأَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ،قَبَّحَهُمُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُمْ،وَقَدْ فَعَلَ.

قَالُوا:ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ سَعْدٌ رَسُولًا آخَرَ بِطَلَبِهِ،وَهُوَ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ،فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ زَيَّنُوا مَجْلِسَهُ بِالنَّمَارِقِ الْمُذَهَّبَةِ وَالزَّرَابِيِّ الْحَرِيرِ،وَأَظْهَرَ الْيَوَاقِيتَ وَاللَّآلِئَ الثَّمِينَةَ،وَالزِّينَةَ الْعَظِيمَةَ،وَعَلَيْهِ تَاجُهُ،وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْتِعَةِ الثَّمِينَةِ،وَقَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ،وَدَخَلَ رِبْعِيٌّ بِثِيَابٍ صَفِيقَةٍ وَسَيْفٍ وَتُرْسٍ وَفَرَسٍ قَصِيرَةٍ،وَلَمْ يَزَلْ رَاكِبَهَا حَتَّى دَاسَ بِهَا عَلَى طَرَفِ الْبِسَاطِ،ثُمَّ نَزَلَ وَرَبَطَهَا بِبَعْضِ تِلْكَ الْوَسَائِدِ،وَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ سِلَاحُهُ وَدِرْعُهُ وَبَيْضَةٌ

---

518 – الزهد لأبي داود (ص:٨٢)(٦٦) صحيح

عَلَى رَأْسِهِ،فَقَالُوا لَهُ:ضَعْ سِلَاحَكَ. فَقَالَ:إِنِّي لَمْ آتِكُمْ،وَإِنَّمَا جِئْتُكُمْ حِينَ دَعَوْتُمُونِي،فَإِنْ تَرَكْتُمُونِي هَكَذَا وَإِلَّا رَجَعْتُ. فَقَالَ رُسْتُمُ:ائْذَنُوا لَهُ. فَأَقْبَلَ يَتَوَكَّأُ عَلَى رُمْحِهِ فَوْقَ النَّمَارِقِ فَخَرَّقَ عَامَّتَهَا،فَقَالُوا لَهُ:مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَالَ:اللَّهُ ابْتَعَثْنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ،وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا،وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ،فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ،فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ،وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ. قَالُوا:وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟ قَالَ:الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى،وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ. فَقَالَ رُسْتُمُ:قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ،فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَتَنْظُرُوا؟ قَالَ:نَعَمْ،كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ أَيَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ؟ قَالَ:لَا،بَلْ حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا. فَقَالَ:مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُؤَخِّرَ الْأَعْدَاءَ عِنْدَ اللِّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ،فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ،وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ بَعْدَ الْأَجَلِ. فَقَالَ:أَسَيِّدُهُمْ أَنْتَ؟ قَالَ:لَا،وَلَكِنَّ الْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ عَلَى أَعْلَاهُمْ.[٥١٩]

والعروبة كثقافة ولغة وآداب وفنون ووعاء حاضن للإسلام ورسالته للعالمين..

إن العالم المادي اليوم يحتضر بماديته وانحلاله وجنونه،وهو في حاجة للعرب من جديد ليعيدوا للعالم روحه وقيمه الأخلاقية والروحية،وحين تنهض بذلك دولة عربية مركزية،يحكمها نظام حكم راشد،فسيكون لها أكبر الأثر في استعادة العرب لدورهم الحضاري،وإسهامهم في خدمة الإنسانية كما فعلوا من قبل مدة سبعة قرون،كان لهم الفضل على العالم كله وحضارته التي ولدت من رحم الحضارة العربية الإسلامية!

إن كل ما سبق بيانه هو من أهم ملامح وشروط قيام أنظمة حكم راشدة بديلة عن النظام العربي الحالي الذي تعصف به الثورة العربية المجيدة من المحيط إلى الخليج،ونجاح الثورة مرهون بقدرتها على إقامة بديل ناجح يحقق هذه الأهداف المرحلية في:

١- استعادة الإنسان العربي لحريته وكرامته وإنسانيته وهويته.

٢- واستعادة الدولة القطرية لسيادتها واستقلالها.

---

519 - البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٦٢١) وهو حديث مشهور

٣- واستعادة الشعوب لحقها في اختيار من يمثلها ويعبر عن إرادتها.

٤- واستعادة مؤسسات السلطة لهيبتها ومسئولياتها ودورها.

٥- واستعادة الأمة لوحدتها وقوتها.

٦- واستعادة العرب لشهودهم السياسي والإنساني والحضاري.

وتحتاج الأمة لتحقيق ذلك إلى عقد أو عقدين،لتبدأ بعد ذلك المرحلة الثانية لتحقيق هدفها الاستراتيجي الذي تتطلع إليه الأمة من عقود وهو أن تعود (أمة واحدة وخلافة راشدة)،لتستأنف دورها على المسرح العالمي من جديد ولتكون {رحمة للعالمين} {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران:١١٠]}،وكما بشر بذلك النبي ﷺ بعد سقوط الملك الجبري الذي يتهاوى اليوم،فعن حَبِيبَ بْنِ سَالِمٍ قَالَ:سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ فِي حَدِيثٍ ذَكَرَهُ قَالَ:فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ:يا بشير ابن سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ. وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ فَقَالَ حُذَيْفَةُ،أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ! إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ تَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً تَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ "[520]

ثانيا- من الحكومات الراشدة إلى الخلافة الراشدة:

١-مقدمة تاريخية

تمثل التجربة الديمقراطية اليونانية في أثينا النموذج الذي يراود خيال دعاة الليبرالية منذ بداية عصر النهضة في أوربا إلى اليوم،وما زالت سهام النقد توجه للديمقراطية

---

[520] - دلائل النبوة للبيهقي محققا (٦/ ٤٩١) صحيح

وانظر:-http://www.dr-hakem.com/Portals/Content/?info=TnpJekpsTjFZbEJoWjJVbURPT1rdQ==.jsp

الحديثة،لكونها لم تصل إلى ذلك النموذج الذي كان قبل ألفي سنة،و لم يتجاوز حدود (الدولة المدينة) في اليونان،ومع كون حقوق المواطنة وحقوق المشاركة السياسية تقتصر على الرجال الأحرار،و لم تتجاوز مدتها في أفضل عصورها نصف قرن!

وتعد تلك التجربة هي النموذج،حيث كان الشعب في أثينا يمارس الحكم من خلال الديمقراطية المباشرة،لا الديمقراطية البرلمانية،فكان جميع الشعب في (الدولة المدينة) كأثينا،يجتمعون في الساحة العامة ليناقشوا قضاياهم ويتخذوا قراراتهم بالأغلبية،وقد نعى روجيه جارودي على الديمقراطية المعاصرة،التي لا تمثل إلا أصحاب رؤوس الأموال الذين يستطيعون بأموالهم خوض الانتخابات،وشراء الأصوات،فقال:(كل نيابة هي تضليل فالديمقراطية تكون مباشرة أو لا تكون)!

فلم يمنع دعاة الديمقراطية والليبرالية من جعل الديمقراطية اليونانية نموذجا ومعيارا – يحتذى به،ويتطلع إليه — قصر مدتها التي لا تتجاوز نصف قرن،ولا قدم عهدها إذ لم تشهد أوربا منذ ألفي سنة إلا تلك التجربة،التي جاءت بعدها الدولة الرومانية العسكرية،فقضت عليها،ولا صغر مساحتها الجغرافية،حيث لم تتجاوز تلك التجربة حدود بعض المدن اليونانية،التي كان يسهل فيها جمع السكان في مكان واحد للتشاور والتصويت على القرارات فيها!

فقد ظلت التجربة اليونانية الديمقراطية مع كل هذه العيوب النموذج والمعيار الذي تقاس عليه التجارب الديمقراطية المعاصرة في أوربا،مع تطورها بما يتناسب وظروف العصر!

كما حاولت الشيوعية أن تجعل من المجتمع الإنساني الأول حيث المشاعية والمساواة هو النموذج التي كانت تطمح إلى عودته حيث تزول الملكية والطبقية والصراع بين الإنسان والإنسان!

و لم يمنع الإشكاليات التي تتعرض لها الديمقراطية والليبرالية والنقد الذي يوجه لهما من أن تصبحا واقعا سياسيا،وما زال مفكرو أوربا إلى اليوم لم يجيبوا عن أشد إشكال يواجه الديمقراطية والليبرالية،وهو كيف يكون النظام السياسي ديمقراطيا تتجلى فيه إرادة الأكثرية،ويحكم فيه الشعب نفسه بنفسه،وليبراليا في الوقت ذاته تتجلى فيه حرية

الفرد،دون أي قيود نفرضها عليه الأكثرية،حتى قيل بأن دكتاتورية الجماعة أشد خطرا من دكتاتورية الفرد!

وما زالت أوربا إلى اليوم تتأرجح بين حكم الشعب واحترام إرادة الأكثرية كما تقتضيه الديمقراطية،ومحاولة احترام حرية الفرد وخصوصيتها كما تقتضيه الليبرالية،ولهذا تم مصادرة حق الطالبة المسلمة في ارتداء حجابها في فرنسا وبقرار من الأكثرية في البرلمان،دون احترام لليبرالية التي تحمي خصوصية الفرد الشخصية،فضلا عن حريته الدينية!

كما تم محاكمة روجيه جارودي وغيره من مفكري أوربا في باريس ولندن،لكونهم أثاروا الشك في الأرقام المبالغ فيها عن محارق اليهود في عصر هتلر،وخالفوا قوانين منع العداء للسامية،ولم تشفع حرية الرأي وحرية البحث العلمي،لهؤلاء المؤرخين والمفكرين في بلدان الحرية والليبرالية،من تطبيق القوانين التي تسنها الأكثرية في البرلمان!

إنها الأزمة الأشد تعقيدا في حل الجدلية بين حرية الفرد وحقوقه،وحرية الجماعة وحقوقها،وأيهما يقدم على الآخر عند التعارض،فكلما كان النظام أكثر ليبرالية كان أشد حماية ونزوعا لتعزيز حرية الفرد وحقوقه،وكلما كان ديمقراطيا كان أشد نزوعا لاحترام إرادة الأكثرية،ولا يمكن أن يكون النظام السياسي ديمقراطيا ليبراليا في آن واحد،إلا عند من لا يعرف الديمقراطية،ولا يعرف الليبرالية!

فإذا ما تم إضافة الإشكالات الأخرى ازداد الأمر تعقيدا،كتحديد طبيعة النظام السياسي الديمقراطي،وهل الملكية الدستورية في بريطانيا والنرويج وهولندا وأسبانيا وغيرها من الملكيات في أوربا تمثل أنظمة حكم ديمقراطية؟ حيث لا دستور في بريطانيا،وحيث تملك الملكة دون وجه حق أرض إنجلترا وتوابعها،وتمتاز الأسرة الملكية وأفرادها بحقوق مالية وأدبية وامتيازات دون وجه حق بما لا يتمتع به غيرهم من أفراد الشعب البريطاني،وهو ما يتصادم مع مبدأ العدل والمساواة بين أفراد الشعب!

ولماذا يكون ملك بريطانيا وحسب النظام السياسي فيها هو حامي وراعي الكنيسة البروتستانتية؟ وأين هي القيم الليبرالية التي تساوي بين جميع الأديان والمذاهب لكونها كلها تدخل في إطار الحرية الدينية للأفراد؟!

وكيف يعقل أن تعيش بريطانيا وأيرلندا صراعا دينيا وإلى اليوم بين الكاثوليك والبروتستانت!

ولماذا يتم تصنيف فرنسا وهي أول جمهورية ديمقراطية كدولة كاثوليكية تربطها علاقات خاصة بألمانيا وإيطاليا وأسبانيا،دون بريطانيا والولايات المتحدة البروتستانتيتين،ودون روسيا وصربيا والدول السلافية الأرثوذكسية!

إن كل هذه الإشكالات لم تمنع من قيام أنظمة حكم في أوربا تتمتع شعوبها بالحرية والعدل واحترام القانون،ولم ينتظر السياسيون حتى يحل المفكرون والمتفلسفون هذه الإشكاليات والتناقضات الفكرية بين الديمقراطية والليبرالية من جهة،والعلمانية والدينية من جهة أخرى،لأنه أصلا لا يمكن حلها،وما تزال أوربا منذ نهضتها تتأرجح بين توجهات الرأي العام من جهة،والقوى السياسية والاجتماعية المؤثرة من جهة أخرى،والأزمات الداخلية والأخطار الدولية من جهة ثالثة،فقد اضطرت الحرب العالمية أوربا وشعوبها للنزوع نحو النظم العسكرية،كما أدت الظروف الاقتصادية إلى الثورات الشيوعية،والنزوع نحو النظم الاشتراكية الاجتماعية،كما أدت أحداث ١١ سبتمبر إلى نزوع حكومة الولايات المتحدة نحو الاستبداد وتقليص هامش الحرية الفردية لتحقيق الأمن الداخلي...الخ

٢-عدم الاكتراث بالمشككين بالمشروع الإصلاحي الإسلامي

هذه مقدمة ضرورية لتدرك القوى الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي عدم الوقوف عند المشاغبات التي يثيروها أعداء الإصلاح وأعداء المشروع الإصلاحي،والأسئلة السفسطائية التي يريدون من القوى الإصلاحية الإجابة عنها قبل أن تصل إلى السلطة في عالمنا العربي،فلا يشترط أن يكون للقوى الإصلاحية برامج عمل سياسية في ظل أنظمة غير شرعية! إذ برامج العمل السياسي إنما تقدمها قوى المعارضة في ظل نظام سياسي تعددي يفتح الطريق للمعارضة أن تطرح برامجها وتصل من خلال الشعب وإرادته للوصول إلى السلطة،أما في ظل أنظمة غير دستورية أو غير شرعية فالمعارضة عادة تطرح تصورا عاما للإصلاح،لا برنامجا تفصيليا!

كما لا ينشغل الإصلاحيون الراشدون بالشبه الذي يثيرها المنهزمون والموسوسون الذين يظنون أن التاريخ توقف،فإن وعد الله حق،قال تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥]

وسيعود الإسلام كما بدأ حتى يحكم الأرض فعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَبْلَغَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ،أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ،يُعِزُّ بِعِزِّ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ،وَيُذِلُّ بِهِ فِي الْكُفْرِ» وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:«قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَفَ وَالْعِزَّ،وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ كَافِرًا الذُّلَّ وَالصَّغَارَ وَالْجِزْيَةَ»[٥٢١]

وتفتح روما كما فتحت القسطنطينية،فعن أبي قَبِيلٍ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي،وَسُئِلَ:أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا:الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَدَعَا عَبْدُ اللهِ بِصُنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ،قَالَ:فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا،قَالَ:فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَكْتُبُ،إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا:قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا " يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ "[٥٢٢]

وسيعود المسجد الأقصى،قال تعالى:{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) } [الإسراء:٤ - ٧]

---

521 - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٧٧)(٨٣٢٦) صحيح

522 - مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٢٢٤)(٦٦٤٥) صحيح لغيره

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ،فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ،فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ:يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي،فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ،إِلَّا الْغَرْقَدَ،فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ "[٥٢٣]

وكل ذلك على يد الأمة نفسها بأبطالها ورجالها،

فهم من صنع التاريخ منذ أبي بكر وعمر وصلاح الدين ومحمد الفاتح،وما زالوا يصنعونه إلى اليوم،والأمة هي المخاطبة بذلك،ولن تنتظر الأمة حتى يأتي المهدي قبل قيام الساعة في عهد نزول المسيح!،عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»،قَالَ:" فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ،فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ:تَعَالَ صَلِّ لَنَا،فَيَقُولُ:لَا،إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ "[٥٢٤]

كما لا ينبغي الاشتغال بالهوس الذي يثيره الفارغون للجدل حول الخلافة وكيف يتم اختيار الخليفة؟ وهل تشترط له القرشية؟..الخ فإن الأمة التي سادت العالم ألف وثلاثمائة سنة بالخلافة ونظامها السياسي،وواكبت كل التطورات والتغيرات والتحديات،حتى عرفت كل أشكال النظم الدستورية كالخلافة المركزية العربية في العهد الأموي،والخلافة والسلطنة غير المركزية في العهد العباسي،والخلافة والوزارة،والخلافة غير العربية والصدارة والبرلمان في العهد العثماني،لن تعجز حين تتحرر إرادتها من الاحتلال الأجنبي،وعميله الاستبداد الداخلي،أن تعيد النظام السياسي الإسلامي من جديد بحسب ما يناسب العصر وتطوره!

٣- أهم الأمور التي يجب الاهتما بها:

إن على القوى الإصلاحية الراشدة في عالمنا العربي أن تولي أهمية قصوى لما يلي:

---

[523] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٩)٨٢ - (٢٩٢٢)

[524] - صحيح مسلم (١/ ١٣٧)٢٤٧ - (١٥٦)

١- تحديد الهوية والمرجعية السياسية للمشروع السياسي الإصلاحي:

فإن قوة أي مشروع سياسي تكمن في وضوح هويته السياسية،وقوة أساسه العقائدي من جهة،ومدى حاجة الأمة له من جهة أخرى،ولا شك بأن الأمة ومنذ سقوط الخلافة العثمانية،وهي تعيش أزمة هوية ومرجعية سياسية،إذ قام الاستعمار والاحتلال الأجنبي بتشكيل هذا الواقع السياسي،وخلق هوية وطنية مصطنعة،وقد وصلت الأمة بعد عقود من التيه إلى طريق مسدود في كل بلد،بعد أن جربت الأمة كل الأنظمة السياسية المستوردة الليبرالية والقومية والشيوعية والاشتراكية،ومن هنا كان لا بد من استدعاء الخطاب السياسي الإسلامي الراشدي لتمتعه بكل أسباب القوة والصلاحية وذلك للتالي:

١- كونه النموذج والمعيار الشرعي للحكم الإسلامي،كما في قوله تعالى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران:١١٠]،والمخاطب به ابتداء وأصلا هم أصحاب النبي ﷺ.

وقوله تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥]،وقد تحقق الاستخلاف للصحابة رضي الله عنهم كما وعدهم الله،.

وقوله تعالى:{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [يوسف:١٠٨]،والمقصود بهم أصحابه ابتداء.

وكما في الحديث الصحيح عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ،قَالَ:صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا،قَالَ:أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ" [525]

[525] - الاعتقاد للبيهقي (ص:٢٢٩) صحيح

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ:وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ بَعْدَ صَلَاة الْغَدَاة مَوْعظَةً بَلِيغَةً،ذَرَفَتْ منْهَا الْعُيُونُ،وَوَجلَتْ منْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ رَجُلٌ منْ أَصْحَابه:يَا رَسُولَ اللَّه،إنَّ هَذه مَوْعظَةُ مُوَدِّعٍ،فَمَا تَعْهَدُ إلَيْنَا؟ قَالَ:«أُوصيكُمْ بتَقْوَى اللَّه،وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَة،وَإنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشيًّا؛ فَإنَّهُ مَنْ يَعشْ بَعْدي يَرَى اخْتلَافًا كَثيرًا،فَإيَّاكُمْ وَمُحْدَثَات الْأُمُور؛ فَإنَّهَا ضَلَالَةٌ،وَمَنْ أَدْرَكَتْهُ منْكُمْ فَعَلَيْه بسُنَّتي وَسُنَّة الْخُلَفَاء الرَّاشدينَ الْمَهْدِيِّينَ،عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجذ»[٥٢٦]

وعَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«اقْتَدُوا بالَّذَيْنِ منْ بَعْدي». يُشيرُ إلَى أَبي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهماُ وَأَرْضَاهُمَا.

وَرَوَاهُ إبْرَاهيمُ بْنُ سَعيد،عَنْ سُفْيَانَ،عَنْ عَبْد الْمَلك،عَنْ هلَال مَوْلَى الرَّبْعيِّ،عَنْ حُذَيْفَةَ،عَنِ النَّبيِّ ﷺ نَحْوَهُ،ثَنَا عَبْدُ اللَّه،ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إسْمَاعيلَ،حَدَّثَنَا ابْنُ كَاسب،حَدَّثَنَا إبْرَاهيمُ بـه. وَمنْهَا قَوْلُهُ ﷺ:«إنْ يُطعِ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَرْشُدُوا»[٥٢٧]

وعَنْ أَبي قَتَادَةَ،قَالَ:كنا مَعَ رَسُول اللَّه ﷺ في سَفَرٍ،فَقَالَ:«إنَّكُمْ إنْ لَا تُدْرِكُوا الْمَاءَ غَدًا تَعْطَشُوا». فَانْطَلَقَ سَرَعَانُ النَّاس يُريدُونَ الْمَاءَ وَلَزمْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ تلْكَ اللَّيْلَةَ،فَمَالَتْ برَسُول اللَّه ﷺ رَاحلَتُهُ فَنَعَسَ. فَنمْنَا فَمَا أَيْقَظَنَا إلَّا حَرُّ الشَّمْس،فَقَالَ:أَصْبَحَ النَّاس وَقَدْ فَقَدُوا نَبيَّهُمْ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:إنَّ نَبيَّ اللَّه ﷺ بالْمَاء،وَفي الْقَوْم أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَقَالَا:«أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ،لَمْ يَكُنْ ليَسْبقَكُمْ إلَى الْمَاء وَيُخَلِّفَكُمْ،وَإنْ يُطعِ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا» قَالَهَا ثَلَاثًا"[٥٢٨]

وعن سَعيدَ بْنِ جُمْهَانَ قالَ:سَمعْتُ سَفينَةَ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«الْخلَافَةُ بَعْدي ثَلَاثُونَ سَنَةً» [٥٢٩]

---

526 – البدع لابن وضاح (١/ ٦٥)(٧٣) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٤)(٢٦٧٦) صحيح

527 – تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة لأبي نعيم الأصبهاني (ص:٢٥٣)(٤٨) صحيح

528 – تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة لأبي نعيم الأصبهاني (ص:٢٥٤)(٤٩) صحيح

529 – السنة لأبي بكر بن الخلال (٢/ ٤٢٧)(٦٤٧) صحيح

وعَنْ سَفِينَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا» ثُمَّ قَالَ:أَمْسِكْ،خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ سَنَتَانِ،وَعُمَرُ عَشْرٌ،وَعُثْمَانُ اثْنَتَا عَشْرَةَ،وَعَلِيٌّ سِتٌّ " قَالَ أَبُو عُمَرَ:" قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:حَدِيثُ سَفِينَةَ فِي الْخِلَافَةِ صَحِيحٌ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ فِي الْخُلَفَاءِ"[٥٣٠]

وعَنْ سَفِينَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً،ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُلْكَ أَوْ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ» قَالَ سَعِيدٌ قَالَ لِي سَفِينَةُ:«أَمْسِكْ عَلَيْكَ أَبَا بَكْرٍ سَنَتَيْنِ،وَعُمَرُ عَشْرًا،وَعُثْمَانُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ،وَعَلِيٌّ كَذَا»[٥٣١]

وعن حَبِيبَ بْنِ سَالِمٍ قَالَ:سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ فِي حَدِيثٍ ذَكَرَهُ قَالَ:فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ:يا بشير ابن سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ. وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ فَقَالَ حُذَيْفَةُ،أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ! إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ تَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً تَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ "[٥٣٢]

ولوضوح هذا الأصل العقائدي السياسي – وهو وجوب لزوم سنن الخلفاء الراشدين في الحكم وسياسة شئون الأمة إذ هي التطبيق البشري المحض للخطاب السياسي القرآني والنبوي – اشترط الصحابة رضي الله عنهم على عثمان وعلي حين تنافسا في الخلافة الالتزام بسنن الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر في سياسة شئون الأمة،فبايع الصحابة عثمان،عَنْ أَبِي وَائِلٍ،قَالَ:قُلْتُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ:كَيْفَ بَايَعْتُمْ عُثْمَانَ وَتَرَكْتُمْ عَلِيًّا؟ قَالَ:مَا ذَنْبِي؟ قَدْ بَدَأْتُ بِعَلِيٍّ،فَقُلْتُ:أُبَايِعُكَ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،وَسِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. قَالَ:فَقَالَ:فِيمَا اسْتَطَعْتُ. قَالَ:ثُمَّ عَرَضْتُهَا عَلَى عُثْمَانَ،فَقَبِلَهَا "[٥٣٣]

---

530 – جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٩)(٢٣١٣) صحيح

531 – سنن أبي داود (٤/ ٢١١)(٤٦٤٦) صحيح

532 – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٦/ ٤٩١) صحيح

533 – مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٥٦٠)(٥٥٧) حسن

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«اقْضُوا كَمَا كُنْتُمْ تَقْضُونَ،فَإِنِّي أَكْرَهُ الِاخْتِلَافَ،حَتَّى يَكُونَ لِلنَّاسِ جَمَاعَةٌ،أَوْ أَمُوتَ كَمَا مَاتَ أَصْحَابِي» [٥٣٤]

٢- كما إن هذا النموذج محل إجماع الفقهاء والمصلحين على اختلاف عصورهم،فلا خلاف بين طوائف الأمة ومذاهبها وأئمتها في كون الخلافة الراشدة هي النموذج الأكمل الذي يجب الاقتداء به،بخلاف المحدثات السياسية سواء القديمة التي رفضها الصحابة أنفسهم،ثم رفضها من جاء بعدهم من الأئمة وعلماء الأمة،أو الجديدة سواء كانت بثوب إسلامي كولاية الفقيه،أو مستوردة كالديمقراطية والليبرالية والاشتراكية..الخ.

٣- أن النموذج الراشدي له بريق وصدى في المخيال الشعبي عند عامة الأمة،فما يزال العدل يذكر إلا ويذكر عمر الفاروق! وما زالت الأمة تتوق لعدل الخلفاء الراشدين وسيرتهم وسننهم في سياسة الأمة،وهو ما يجعل النموذج الراشدي أقرب لمخاطبة وجدان الرأي العام الإسلامي من أي نموذج آخر،هذا في الوقت الذي لم يجد النموذج الديمقراطي الأثيني أي صدى في المخيال الشعبي الأوربي،بل ظل محصورا في دائرة المفكرين والسياسيين في عصر النهضة الأوربية!

٤- كما إن النموذج السياسي الراشدي قام كنظام حكم على دولة قارية - امتدت في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان،من جزيرة العرب إلى حدود الهند في آسيا شرقا،ومنها إلى حدود المغرب الأقصى في أفريقيا غربا - ليسوس أمما وحضارات وشعوبا على اختلاف قومياتها وأديانها وثقافاتها ولغاتها،بينما لم تتجاوز ديمقراطية أثينا حدود أسوارها!

٥- ثم إن النموذج الراشدي ظل هو المعيار طوال عصور الخلافة الإسلامية،الأموية والعباسية والعثمانية،ولم يستطع أحد أن يتجاوزه كأنموذج للحكم الإسلامي،ولهذا تكرر في كثير من العصور،كما في عهد عمر بن عبد العزيز،وعهد المعتضد العباسي الذي كان يعد من الخلفاء الراشدين،وعهد المستضيء العباسي وابنه الناصر،وكانوا خلفاء صالحين،وكان صلاح الدين الأيوبي هو السلطان في عصرهما،وكما في عهد نور الدين

---

534 - صحيح البخاري (٥/ ١٩)(٣٧٠٧)

زنكي،وكما في عهد يوسف بن تاشفين المرابطي،ومحمد الفاتح العثماني،وغيرهم من الخلفاء والأمراء،ممن حاولوا الاقتداء بالخلفاء الراشدين وسننهم في سياسة الأمة،واشتهروا بالعدل والشورى،بينما لم تعرف أوربا في تاريخها منذ سقوط أثينا،وقيام الإمبراطورية الرومانية إلا الطغيان السياسي مدة ألفي عام تقريبا!

٦- كما إن الانحراف السياسي في عصور الخلافة الإسلامية العامة، لم يتجاوز كل الأصول القطعية للخطاب الراشدي،وإن تراجع عن بعضها كالشورى ورقابة الأمة على الأموال،إذ ظل عامة الخلفاء والأمراء يلتزمون بالمرجعية القضائية والتشريعية للنظام السياسي الإسلامي،وهو أحد أسباب شيوع العدل في عامة العصور،حيث حد القضاء من طغيان السلطة،التي كانت تحرص على شرعيتها من خلال احترام القضاء،كما لم يفرط الخلفاء في سيادة الأمة واستقلالها وحماية بيضتها،ووحدتها،وحافظوا على (الرسالة) والمهمة للأمة والدولة والخلافة وهو إعلاء كلمة الله والدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيله،حتى في أضعف عصور الخلافة!

٧- أن حاجة الأمة إلى بعث الخطاب الراشدي وأصوله أشد ما تكون في هذا العصر،حيث تعيش الأمة أزمات سياسية أدت إلى ضعفها وسقوطها على نحو غير مسبوق،وقد استطاعت شعوب العالم من حولها أن تستلهم تجاربها التاريخية لتعيد بناء نفسها من جديد،حتى أعادت أوربا اليوم تشكيل واقعها السياسي على أساس (الديمقراطية اليونانية)،و(القوة والوحدة الرومانية)،و(القيم الدينية المسيحية)،فجاء الاتحاد الأوربي اليوم ليستعيد وحدة أوربا التي وحدها الإمبراطورية الرومانية،واشترط لوحدته أن يقوم على أسس الديمقراطية اليونانية،وأن تظل أوربا ناديا مسيحيا! بينما لا تزال الأمة الإسلامية اليوم تبحث عن هويتها وذاتها،مما يجعل الخطاب الراشدي هو الحل (الأمثل) لمشروع سياسي جديد!

فالمشروع السياسي الإسلامي العقائدي يجب أن يقوم على هذا الأصل الشرعي،وهو الإيمان بضرورة سنن الخلفاء الراشدين - التي كانت التطبيق البشري المحض للخطاب السياسي القرآني والنبوي - واتخاذها النموذج والمعيار للحكم الإسلامي الراشد،ونبذ كل

ما خالفها من سنن القياصرة والأكاسرة،والمحدثات السياسية على اختلاف ألوانها وأشكالها،سواء كانت دخيلة على الأمة،أو مما أحدثته الأمة نفسها وابتليت به من محدثات وانحرافات في عصورها المختلفة.

ب- هل المقصود بسنن الخلفاء الراشدين اجتهاداتهم ؟

وليس المقصود بسنن الخلفاء الراشدين هنا اجتهاداتهم،بل المقصود الأصول والمبادئ والأحكام التي أجمعوا عليها،وأجمع الصحابة معهم عليها،فيما يخص سياسة شئون الأمة والدولة،ومن ذلك إجماعهم على:

١- أن نظام الحكم في الإسلام خلافة راشدة،وإمارة للمؤمنين واحدة،نيابة عن النبي ﷺ في أمته،فلا توارث فيها،ولا ملك ولا ملوك،ولا جبروت،ولا كسروية ولا قيصرية.

٢- وأن دار الإسلام واحدة،والأمة واحدة،والإمارة والخلافة واحدة،كما قال تعالى:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } [الحجرات:١٠]،{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [آل عمران:١٠٣]،

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ،فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»[٥٣٥]

٣- وأن الخلافة والإمارة شورى بين المسلمين،وأنه لا تنازع فيها ولا اغتصاب،كما قال تعالى:{ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨] وفي حديث البيعة المتواتر عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ،وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ،وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا،لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ» [٥٣٦]

---

[535] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠)٦١ - (١٨٥٣)

[536] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠) ٤١ - (١٧٠٩)

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ فَقَالَ:" قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ:إِنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً،وَلَكِنْ وَقَى اللهُ شَرَّهَا وَإِنَّهُ لَا خِلَافَةَ إِلَّا عَنْ مَشُورَةٍ،وَأَيُّمَا رَجُلٍ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ،لَا يُؤَمَّرُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا " قَالَ شُعْبَةُ:قُلْتُ لِسَعْدٍ:مَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا؟ قَالَ:عُقُوبَتُهُمَا أَنْ لَا يُؤْمَرَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا "[537]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عم عمر رضي الله عنه،قَالَ:إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ:وَاللَّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلَانًا،فَلَا يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ:إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وَتَمَّتْ،أَلَا وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ،وَلَكِنَّ اللَّهَ وَقَى شَرَّهَا،وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ،مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُبَايَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا.."[538]

فلا شرعية لكل بيعة صورية،أو بيعة على الإكراه والخوف،أو بيعة بالقوة والسيف!

٤- وأن الأمة رقيب على الإمام بعد اختياره بالرضا والشورى،فلا يقطع أمرا في شئونها دون إذنها،ولا يتصرف في أموالها ومصالحها دون رضاها،كما قال ﷺ في الصحيح عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ،وَالمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،أَخْبَرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ حِينَ أَذِنَ لَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي عِتْقِ سَبْيِ هَوَازِنَ:«إِنِّي لاَ أَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ،فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ»،فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ،فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا"[539]

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحُنَيْنٍ،فَلَمَّا أَصَابَ مِنْ هَوَازِنَ مَا أَصَابَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَسَبَايَاهُمْ أَدْرَكَ وَفْدُ هَوَازِنَ بِالْجِعْرَانَةِ وَقَدْ أَسْلَمُوا،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،لَنَا أَصْلٌ وَعَشِيرَةٌ،وَقَدْ أَصَابَنَا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ،فَمُنَّ عَلَيْنَا مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" نِسَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ؟ " فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،خَيَّرْتَنَا بَيْنَ أَحْسَابِنَا وَبَيْنَ أَمْوَالِنَا،أَبْنَاؤُنَا وَنِسَاؤُنَا أَحَبُّ إِلَيْنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ،وَإِذَا أَنَا

---

537 - السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٤٠٨)(٧١١٣) صحيح

538 - صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)(٦٨٣٠)

539 - صحيح البخاري (٩/ ٧١)(٧١٧٦)

صَلَّيْتُ بِالنَّاسِ فَقُومُوا وَقُولُوا:إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُسْلِمِينَ،وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فِي أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا،فَسَأُعْطِيكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَأَسْأَلُ لَكُمْ ". فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ الظُّهْرَ قَامُوا فَقَالُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ "،فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ:فَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ،وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ:وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ:أَمَّا أَنَا وَبَنُو تَمِيمٍ فَلَا،وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ:أَمَّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا،فَقَالَتْ بَنُو سُلَيْمٍ:بَلْ مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ،وَقَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ:أَمَّا أَنَا وَبَنُو فَزَارَةَ فَلَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَنْ أَمْسَكَ مِنْكُمْ بِحَقِّهِ فَلَهُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ سِتَّةُ فَرَائِضَ مِنْ أَوَّلِ فَيْءٍ نُصِيبُهُ "،فَرَدُّوا إِلَى النَّاسِ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ،ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاتَّبَعَهُ النَّاسُ يَقُولُونَ:يَا رَسُولَ اللهِ،اقْسِمْ عَلَيْنَا فَيْئَنَا،حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى شَجَرَةٍ فَانْتُزِعَتْ عَنْهُ رِدَاءُهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ،رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي،فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لَكُمْ عَدَدُ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ،ثُمَّ مَا أَلْفَيْتُمُونِي بَخِيلًا وَلَا جَبَانًا وَلَا كَذَّابًا "،ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى جَنْبِ بَعِيرٍ وَأَخَذَ مِنْ سَنَامِهِ وَبَرَةً فَجَعَلَهَا بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ فَقَالَ:" أَيُّهَا النَّاسُ،وَاللهِ مَا لِي مِنْ فَيْئِكُمْ وَلَا هَذِهِ الْوَبَرَةِ إِلَّا الْخُمُسَ،وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ؛ فَأَدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ؛ فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ وَشَنَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "،فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِكُبَّةٍ مِنْ خُيُوطِ شَعَرٍ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَخَذْتُ هَذَا لِأَخِيطَ بِهِ بَرْذَعَةَ بَعِيرٍ لِي دَبَرَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَمَّا حَقِّي مِنْهَا لَكَ "،فَقَالَ الرَّجُلُ:أَمَّا إِذَا بَلَغَ الْأَمْرُ هَذَا فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا،فَرَمَى بِهَا مِنْ يَدِهِ"[٥٤٠]

فالأمة فوق الإمام تراقبه وتحاسبه،كما في حديث البيعة المتواتر عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا،لاَ نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ»[٥٤١]

٥- وأن للأمة الاشتراط على الإمام وتقييد صلاحياته بما شاءت من الشروط الصحيحة،كما اشترطوا على عثمان عند البيعة فرضي بذلك،وكما اشترط من أنكر عليه

---

540 - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٤٨)(١٢٩٣٣) صحيح

541 - صحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧١٩٩)

من أهل العراق ومصر وكتبوا بينهم وبينه عقدا،وشرطوا عليه شروطا فرضي،وكان ذلك بمحضر كبار الصحابة.

٦- وأن الأمة هي التي تفرض للإمام من بيت المال قدر حاجته،وأنه ليس له أن يشتغل بالتجارة،ولا أن يستخدم السلطة للإثراء له أو لأهل بيته.

عَنِ الْحَسَنِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:" إِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التَّقْوَى،وَأَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ،أَلَا وَإِنَّ الصِّدْقَ عِنْدِي الْأَمَانَةُ،وَالْكَذِبَ الْخِيَانَةُ،أَلَا وَإِنَّ الْقَوِيَّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ،وَالضَّعِيفَ عِنْدِي قَوِيٌّ حَتَّى آخُذَ لَهُ الْحَقَّ،أَلَا وَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِأَخْيَرِكُمْ " قَالَ الْحَسَنُ:هُوَ وَاللهِ خَيْرُهُمْ غَيْرُ مُدَافَعٍ،وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَهْضِمُ نَفْسَهُ. ثُمَّ قَالَ:" وَلَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَفَانِي هَذَا الْأَمْرَ أَحَدُكُمْ " - قَالَ الْحَسَنُ:صَدَقَ وَاللهِ - وَإِنْ أَنْتُمْ أَرَدْتُمُونِي عَلَى مَا كَانَ اللهُ يُقِيمُ نَبِيَّهُ مِنَ الْوَحْيِ مَا ذَلِكَ عِنْدِي،إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ،فَرَاعُونِي. فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى السُّوقِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" أَيْنَ تُرِيدُ؟ " قَالَ:السُّوقَ. قَالَ:" قَدْ جَاءَكَ مَا يَشْغَلُكَ عَنِ السُّوقِ "،قَالَ:سُبْحَانَ اللهِ يَشْغَلُنِي عَنْ عِيَالِي. قَالَ:تُعْرِضُ بِالْمَعْرُوفِ،قَالَ:" وَيْحَ عُمَرَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا يَسَعُنِي أَنْ آكُلَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْئًا " قَالَ:فَأَنْفِقْ فِي سَنَتَيْنِ وَبَعْضِ أُخْرَى ثَمَانِيَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ. فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ:قَدْ كُنْتُ قُلْتُ لِعُمَرَ:إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا يَسَعَنِي أَنْ آكُلَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْئًا،فَغَلَبَنِي فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَخُذُوا مِنْ مَالِي ثَمَانِيَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَرُدُّوهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ. قَالَ:فَلَمَّا أُتِيَ بِهَا عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:" رَحِمَ اللهُ أَبَا بَكْرٍ،لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ تَعَبًا شَدِيدًا "[٥٤٢]

وعَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ،أَنَّ عُمَرَ قِيلَ لَهُ فِي أَمَةٍ مَرَّتْ،فَقَالَ:" إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِي،إِنَّهَا مِنْ مَالِ اللَّهِ،وَقَالَ:أُخْبِرُكُمْ بِمَا أَسْتَحِلُّ مِنْ مَالِ اللَّهِ،أَوْ قَالَ:بِمَا تَحِلُّ لِي،اسْتَحَلَّتْ مِنْهُ حُلِيَّائِي،حُلَّةُ الشِّتَاءِ،وَحُلَّةُ الْقَيْظِ،وَمَا أَحْجُجُ عَلَيْهِ وَأَعْتَمِرُ،وَقُوتِي وَقُوتُ عِيَالِي كَقُوتِ رَجُلٍ مِنْ

[542] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٧٥)(١٣٠٠٩) حسن لغيره

قُرَيْشٍ،لَا مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ،وَلَا مِنْ فُقَرَائِهِمْ،ثُمَّ أَنَا بَعْدُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،يُصِيبَنِي مَا أَصَابَهُمْ "[543].

٧- وأن أهم واجبات السلطة وأعظمها إقامة الدين وأحكامه،والحكم بين الناس بما أنزل الله من العدل والقسط،وأن تكون كلمة الله هي العليا،فيقضي القضاة بحكم الله بالعدل لا سلطان لأحد عليهم،إلا سلطان الله وكتابه { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨].

٨- وحفظ البيضة وحماية الدولة ووحدتها الداخلية،والدفاع عنها وحمايتها من الأخطار الخارجية،وأن تكون الشوكة في دار الإسلام للأمة ظاهرة عزيزة منيعة { وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء:١٤١].

٩- وأن تقسم الأموال بالسوية،وتؤخذ الزكاة من الأغنياء وترد إلى الفقراء { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة:١٠٣] { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } [الحشر:٧]،

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى اليَمَنِ،فَقَالَ:«ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»[544]

وتوفر الدولة للجميع على حد سواء الفرص للاستثمار،وإحياء الموات،واستخراج المعادن..الخ.

---

543 - معرفة السنن والآثار (٩/ ٢٨٧)(١٣١٩٢) صحيح

544 - صحيح البخاري (٢/ ١٠٤)(١٣٩٥) وصحيح مسلم (١/ ٥٠) ٢٩ - (١٩)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ،فَقَالَ:«أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟» قَالَ:بَلَى،حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ،وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ،قَالَ:«ائْتِنِي بِهِمَا»،قَالَ:فَأَتَاهُ بِهِمَا،فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ،وَقَالَ:«مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟» قَالَ رَجُلٌ:أَنَا،آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ،قَالَ:«مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ،أَوْ ثَلَاثًا»،قَالَ رَجُلٌ:أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ،وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ،وَقَالَ:«اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ،وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ»،فَأَتَاهُ بِهِ،فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ،ثُمَّ قَالَ لَهُ:«اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ،وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا»،فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ،فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ،فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا،وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ:لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ،أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ،أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ "[545]

١٠- وأن تصان الحقوق والحريات الدينية والسياسية والفكرية والاقتصادية العامة والخاصة،للأفراد والجماعات،فلا إكراه في الدين،ولا إجبار في الرأي،ولا يؤخذ مال إلا عن طيب نفس من صاحبه..الخ.

فهذه الأصول والمبادئ للحكم وغيرها من الأصول والأحكام،مما في ذلك الأحكام التفصيلية الجزئية كمشروعية التصويت على الآراء عند الاختلاف،والترشح والترشيح للإمارة والخلافة،وحصر الترشيح بعدد،والترجيح بالأصوات،والأخذ برأي الأكثرية،وتحديد مدة فراغ السلطة بثلاثة أيام،وتحديد مدة الولاية على المناطق بأربع سنين،والاستفادة من النظم والوسائل لدى الأمم الأخرى..الخ كل ذلك مما ثبت عن الخلفاء الراشدين ثبوتا قطعيا كما فصلته في (الحرية أو الطوفان) و(تحرير الإنسان)،و(أهل السنة والجماعة والأزمة السياسية)،و(الفرقان)،فمنها ما هي أصول قطعية بإجماع الخلفاء والأمة معهم،فيجب لزومها ويحرم الخروج عنها،كحق الأمة في اختيار الإمام بلا إجبار

[545] - سنن أبي داود (٢/ ١٢٠)(١٦٤١) حسن

ولا إكراه،وتحريم التوريث في السلطة..الخ ومنها ما هو اجتهادات من بعضهم فجائز ومشروع الأخذ بها،وسننهم فيها خير من سنن من جاء بعدهم.

وما من سنة من هذه السنن السياسية إلا والأمة اليوم في حاجة إليها بعد فساد أحوالها فسادا لا حل له إلا بنبذ المحدثات،وتغيير هذا الواقع،وإقامة أنظمة حكم راشدة قائمة على هذه الأصول السياسية،والأحكام الشرعية!

وكل ما سبق ذكره هي حقوق سياسية للأمة،لها أحكامها الشرعية،التي يجب إقامتها والمحافظة عليها سواء وجدت الخلافة أم لم توجد،وسواء أمكن تحقيقها كلها أو بعضها،أما آليات تحقيق ذلك ووسائله،فهو بحسب كل عصر وتطوره،وبالإمكان الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى،كما استفاد عمر الدواوين والنظم الإدارية من فارس والروم عملا بحديث عَائِشَةَ،وأَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ،فَقَالَ:«لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ» قَالَ:فَخَرَجَ شِيصًا،فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ:«مَا لِنَخْلِكُمْ؟» قَالُوا:قُلْتَ كَذَا وَكَذَا،قَالَ:«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»[546]

ت- تحديد الرؤية السياسية لتحقيق المشروع الإصلاحي

وإذا كان تحديد الهوية والمرجعية السياسية والعقائدية لمشروع الحركة الإصلاحية أمرا في غاية الأهمية،لإقناع الأمة بالمشروعية الدينية والأخلاقية للمشروع الإصلاحي وضرورته،لتتفاعل وتتجاوب معه،من أجل تحقيق التغيير المنشود،فإن تحديد الرؤية السياسية التنفيذية لا تقل أهمية وخطورة،إذ لا بد من المواءمة بين المثالية والأهداف النهائية من جهة التي تتمثل في (إقامة أمة واحدة وخلافة راشدة)،والواقعية السياسية حيث الأمة اليوم تقع تحت نفوذ الاحتلال الأجنبي،الذي قسمها إلى خمسين دولة وشعب،مما يصبح معه تحقيق الشعار والهدف النهائي ضربا من الخيال،ما لم تحدد الحركة الإصلاحية أهدافا مرحلية للمشروع يمكن تحقيقها من جهة،وتحقق الهدف النهائي في آخر المطاف من جهة أخرى،فيجب تجزئة المشروع على أساس نظرية (من الحكومات الراشدة إلى الخلافة

---

546 - صحيح مسلم (٤/ ١٨٣٦)١٤١ - (٢٣٦٣)

الراشدة)،فالواجب قيام الحركة الإصلاحية في كل بلد بالعمل للوصول إلى السلطة من أجل إقامة الحكومة الراشدة فيها،ويكون المعيار للحكم عليها بأنها حكومة راشدة هو مدى التزامها بأصول الخطاب السياسي الراشدي،ومن ذلك:

١- أن تمثل الحكومة خيار الأمة في ذلك البلد،وأن تقيم نظامها السياسي على أساس حق الأمة في اختيار السلطة التي تحكمها وتسوس شئونها بالرضا والاختيار،بلا إكراه ولا إجبار،وأن تكون خيارا حقيقيا للأمة،لا خيارا صوريا.

٢- أن تكون المرجعية الدستورية والتشريعية للدولة هي الشريعة كتابا وسنة،وتطبيقها وفق أصول الخطاب الراشدي،فلا تعطل النصوص،ولا تهدر المقاصد،فالغاية تحقيق العدل والقسط الذي جاء به القرآن على أكمل وجه،ورعاية حقوق الإنسان،وصيانة حريته وكرامته.

٣- المحافظة في ذلك البلد على سيادة الأمة والدولة واستقلالها عن أي نفوذ أجنبي،وتعزيز قدراتها الاقتصادية والعسكرية لتتحمل مسئولياتها على مستوى الأمة حسب إمكاناتها.

٤- تعزيز التكامل والوحدة والاتحاد مع الدول الإسلامية المجاورة،للوصول إلى توحيد الأمة،وتحقيق الهدف النهائي (أمة واحدة وخلافة راشدة).

٥- تحقيق التنمية والنهضة الشاملة في جميع المجالات على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والدولة،وأن تثبت فاعلية سياسية متميزة،وأداء سياسيا ناجحا.

فكل حكومة تحقق هذه الشروط هي (حكومة راشدة)،والفرق بينها وبين (الخلافة الراشدة)،هو أن الحكومة الراشدة خاصة في القطر الذي تقوم فيه،بينما الخلافة الراشدة عامة تشترك الأمة كلها أو أكثر دولها في إقامتها،بعد أن تتحرر أقطارها،وتصل إلى السلطة فيها حكومات راشدة،أو إلى الدول الرئيسة المؤثرة فيها،بحيث تكون قادرة على توحيد الأمة وحمايتها،كما توحدت أوربا اليوم في الاتحاد الأوربي باختيار شعوبها وبإرادة حكوماتها المنتخبة،حتى استطاعت بعد حربين عالميتين بينها لم يمض عليها نصف قرن أن توحد عملتها وبرلمانها ودستورها!

وحين تقوم الحكومات الراشدة التي تمثل خيار الأمة في كل الأقطار،أو في أكثرهـــا،أو في الدول الرئيسة المركزية فيها،فستكون قادرة على الإعلان عن اتحادها ووحـــدتها،واختيار مجلس رئاسة لدولها،يختار رئيسه بشكل دائم أو دوري،بحسب ما يحقق حكـــم الشـــارع ومصلحة الأمة،ويكون هذا المجلس الرئاسي هو مؤسسة (الخلافة الراشدة)،الـــتي تشـــترك الأمة من خلال حكوماتها المنتخبة في اختيارها،لتستأنف الأمة حياتها السياسية من جديـــد في ظل (مؤسسة الخلافة الراشدة)،كما بشر بذلك النبي ﷺ

فعن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ،أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّـــهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَـــظُ خُطْبَتَـــهُ،فَجَلَسَ أَبُـــو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَـــاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَـــا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ»[٥٤٧]

حيث سيأتي بعد عصر الطواغيت – الذي تغيب فيه الخلافة وهو هذا العصـــر – عصـــر جديد تعود فيه الأمة من جديد لوحدتها وقوتها وشريعتها وخلافتها في الأرض!

إن هذه التجزئة للمشروع مع كونها متوائمة مع الواقعية السياسية التي تفرضها الظـــروف الموضوعية،فإنها متوافقة مع الأحكام الشرعية فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ،وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،مَـــا نَهَيْـــتُكُمْ عَنْهُ،فَانْتَهُوا،وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ،فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٥٤٨]

فعدم قدرة الأمة اليوم على إقامة الخلافة الراشدة،لا يسقط وجوب إقامة الحكومة الراشدة في كل بلد تستطيع الأمة فيه إقامتها،كما إن عدم قدرتها على إقامة حكومة راشدة هنا أو

---

547 – مسند أبي داود الطيالسي (١/ ٣٥٠)(٤٣٩) صحيح

548 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ١٩٨)(١٨) صحيح

هناك،لا يسقط وجوب إصلاح الأوضاع السياسية الحالية،وتقويم أود الحكومات القائمة الآن،إذ الواجب شرعا الإصلاح حسب الإمكان في كل حال،ولا تتعطل الواجبات الشرعية،والفروض الكفائية بدعوى عدم وجود الخلافة الراشدة،أو عدم وجود حكومة راشدة!

ث- معرفة مكامن القوة الأمة ومكامن الضعف

كما إن من الواقعية السياسية معرفة مكامن القوة في الأمة ومكامن الضعف،ويمثل العالم العربي الحلقة الأضعف في منظومة شعوب الأمة،حيث التشرذم بين دوله العشرين،وحيث النفوذ الاستعماري الذي يسيطر عليه ويتحكم في شئونه،وحيث الفساد والاستبداد الذي لا يوجد مثله في أي بلد إسلامي آخر،كما إن العالم العربي وفي الوقت ذاته يمثل الحلقة الأهم والأشد خطرا،فهو يمتاز بما يلي:

أولا:يمثل العرب أكبر قومية في العالم الإسلامي،حيث يقدر عددهم في العالم العربي وفي أطرافه المحيطة به كما في تركيا وإيران وإرتيريا وتشاد ومالي والنيجر ونيجيريا..الخ نحو أربعمائة وخمسين مليون نسمة تقريبا،وهو ما يعادل ثلث العالم الإسلامي تقريبا.

ثانيا:كما يمتد جغرافيا على مساحة عشرة ملايين ميل مربع،أو أربعة عشر مليون كيلو متر مربع تقريبا،تمتد من الخليج العربي شرقا،إلى المحيط الأطلسي غربا،ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا،إلى المحيط الهندي والمحيط الهادي جنوبا حيث جزر القمر،كما يقع البحر الأحمر،والبحر الميت ضمن حدوده الجغرافية،ويسيطر على مضيق هرمز،وباب المندب،وقناة السويس.

ثالثا:يمثل العالم العربي حلقة الوصل بين العالم الإسلامي،فهو الرابط بين دول مسلمي آسيا،ودول مسلمي أفريقيا،كما إنه نقطة عبور بين الشرق والغرب،فلا يمكن تحقق وحدة أو اتحاد إسلامي عام دون العالم العربي.

رابعا:كما يمثل العالم العربي روح العالم الإسلامي،حيث مكة والمدينة والقدس،وحيث أماكن الحج والزيارة،وحيث تمثل لغة القرآن وهي اللغة العربية وعلومها وآدابها،الرابط

الثقافي المشترك بين شعوب العالم الإسلامي،كما يكن المسلمون على اختلاف قومياتهم تقديرا للعرب لمكانتهم في الإسلام،كما يمثل تاريخ العرب الإسلامي تاريخا لكل المسلمين.

خامسا:يعدُّ العالم العربي الأكثر ثراء بموارده الطبيعية ومعادنه ونفطه،وهو ما يؤهله لدور عالمي في حال حدوث التغيير السياسي فيه.

إن كل هذه الظروف تجعل من التركيز على العالم العربي أولى الأولويات للحركة الإصلاحية الراشدة،كما إن في العالم العربي دولا رئيسة مركزية في المشرق والمغرب،هي أكثر أهمية،ثم تأتي الدول الثانوية،ثم الدول الهامشية،وكلها يجب العمل على تحقيق الإصلاح السياسي فيها،إلا أن المشروع الإصلاحي بالنسبة للدول الرئيسة يجب أن يكون (مشروع أمة)،بينما المشروع الإصلاحي للدول الثانوية هو (مشروع دولة) فقط،حتى لا تحمل هذه الدول وشعوبها الصغيرة ما لا تطيق حمله من أعباء لا يستطيع القيام بها وتحقيقها إلا دول مركزية رئيسية،كما يمكن الاقتصار في الدول الهامشية على (مشروع سلطة)،بحيث تكون الحركة الإصلاحية فيها مشاركة أو مؤثرة في السلطة وتوجهاتها بما يخدم مشروع الأمة النهائي.

وقد كان النبي ﷺ يراعي هذه السياسة في دعوته قبل فتح مكة،حيث كان يقبل من بعض القبائل الدخول في الإسلام،دون أي تكليف آخر،بينما كان يحمّل أهل المدينة ومن حولها من المسئوليات ويقيم لهم من الشرائع والأحكام ما هم له أهل،مراعاة لقدرة كل قبيلة وبلد،إلى أن تم الفتح ودخل العرب في دين الله أفواجا!

ومن هنا يجب على الحركة الإصلاحية أن تعمل من خلال تنظيم سياسي أممي راشد،يكرس وجوده في كل قطر عربي وإسلامي،من أجل الوصول للسلطة وفق رؤية راشدة،ليقيم حكومات راشدة،تعيدها من جديد كما أمر وكما بشر ﷺ (أمة واحدة وخلافة راشدة)! [٥٤٩]

---

[549] http://www.dr-hakem.com/Portals/Content/?info=TmpVekpsTjFZbEJoWjJVbURPT1rdQ==.jsp

المبحث التاسع عشر
التنظيم الراشدي وشروط النصر

إذا كان من شرط استعادة الخلافة الراشدة قيام حكومات راشدة،تحمل على عاتقها تحقيق هذا المهمة التاريخية على مستوى الأمة،فإن إقامة حكومات راشدة في كل قطر يشترط أن يسبقه وجود تنظيمات سياسية راشدة،تسعى لتحقيق هذه المهمة في كل بلد إسلامي،وهو ما يقتضي أن يتنادى المصلحون الراشدون إليها،وأن يتداعوا عليها،ليكملوا النقص،ويسدوا الخلل،ويتداركوا ما فات الحركات الإصلاحية الأخرى،على أساس التكامل والتعاون معها في تحقيق مشروع نهضة الأمة.

وهنا لا بد أن يتوفر لهذه التنظيمات السياسية الراشدة شروط ومواصفات في قياداتها وأنصارها وأحزابها ومشروعها السياسي لتحقيق النصر المنشود.

وقد صف القرآن الجيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم بالرشد،فقال تعالى عنهم:{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات:٧]،وجعل الرشد غاية الإيمان وثمرة الاستجابة فقال تعالى:{ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة:١٨٦]،وأمر النبي ﷺ من جاء بعدهم بلزوم هديهم ليرشدوا مثلهم،فقال كما في الحديث الصحيح «إِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ،وَعُمَرَ يَرْشُدُوا»[550]

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» [551]

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ،وَحُجْرِ بْنِ حُجْرٍ،قَالَا:أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ،وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة:٩٢] فَسَلَّمْنَا،وَقُلْنَا:أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ،فَقَالَ الْعِرْبَاضُ:صَلَّى بِنَا

---

550 – مستخرج أبي عوانة (١/ ٥٦٥)(٢١٠١) صحيح

551 – السنة للمروزي (ص:٢٧)(٧٢) صحيح

رَسُولُ اللَّه ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّه كَأَنَّ هَذِه مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ،تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ،فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ،وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[552]

فكان الرشد أشرف صفات أهل الإيمان،وهو غاية طاعتهم وعبادتهم واستجابتهم لله ولرسوله،وذلك بأن يتحقق لهم الرشد وهو الاهتداء والاستقامة،وبلوغهم درجة الكمال روحا وعقلا،وصلاح أحوالهم قولا وفعلا،فلا يتحرون إلا الحق،ولا يفعلون إلا الصواب،ولا يريدون إلا الخير،ولا يحبون إلا العدل.

ولهذا كان على الجيل الراشدي الجديد الذي يحمل على عاتقه مهمة إعادتها من جديد (**أمة واحدة وخلافة راشدة**)[553]،أن يترسم خطاهم فيما هو بسبيله،إذ لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[554]،وهذا معنى الاقتداء بهم كما في الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«اقْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ»[555]

فالاقتداء يشمل حتى التشبه بهم وبأحوالهم وأفعالهم وهديهم،وهو أعم من اتباع سننهم!

إن معرفة ذلك كله،ومعرفة أسباب النصر وشروطه التي تحقق لهم بها التمكين والاستخلاف في الأرض،كل ذلك شرط لتحقق النصر للراشدين والمصلحين الجدد،فقد أخبر النبي ﷺ عن غربة ثانية،وعودة للإسلام ثانية فعن عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيِّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الدِّينَ لَيَأْزِرُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْزِرُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا،وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ

---

552 – سنن أبي داود (٤/ ٢٠١)(٤٦٠٧) صحيح – زيادة مني

553 – قال تعالى:{ إِنَّ هَذِه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٩٢]

554 – قَالَ مَالِكٌ:كَانَ وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ يَقْعُدُ إِلَيْنَا،ثُمَّ لا يَقُومُ أَبَدًا حَتَّى يَقُولَ لَنَا:إِنَّهُ لا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِه الأُمَّةِ إِلا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا،قُلْتُ لَهُ:يُرِيدُ مَاذَا؟ قَالَ يُرِيدُ التُّقَى" مسند الموطأ للجوهري (ص:٥٨٤)(٧٨٣) صحيح

555 – فضائل الخلفاء الراشدين لأبي نعيم الأصبهاني (ص:٩٤)(٩٤) صحيح

الْحِجَازِ مَعْقِلَ الْأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ،إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»[٥٥٦]

وهناك شروط وصفات يجب أن تتوفر لقيادات العمل الراشدي اليوم لتكون أهلا للنصر،كما يجب أن تتوفر في أنصارهم وأشياعهم صفات الرشد التي تجعلهم أهلا للقيام بالمهمة:

أولا–صفات القيادة الراشدة:

ليس المقصود هنا الصفات العامة التي تحققت في أهل الإيمان كما فصَّل فيها القرآن كالإيمان والتقوى والصلاح،وإنما المراد الصفات الخاصة التي توفرت في الخلفاء الراشدين قبل أن يصبحوا خلفاء،والتي أهلتهم للاستخلاف في الأرض،تلك الصفات التي تحلوا بها قبل أن يكونوا خلفاء،والتي اشتهروا بها منذ آمنوا وأسلموا،إذ كانوا جميعا قادة الدعوة مع النبي ﷺ في مكة،إلى أن أقاموا الدولة في المدينة،ثم أقاموا الخلافة بعد وفاته ﷺ،ومن ينظر في أبرز صفات الخلفاء الراشدين يجدها تتمثل في:

١– صديقية أبي بكر وعقائديته:

التي لا يطرأ عليها شك،ولا يخالطها ريب،ولا يعيقها تردد،وهو إيمانه المطلق بأن الله حق،والرسول حق،وأن ما جاء عنهما هو الحق،ووعدهما الحق،وهي الصفة التي شهرت أبا بكر حتى لقب بالصديق،كما وصفه القرآن { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [الزمر:٣٣]

ومترلة الصديقية هي التالية لمترلة النبوة من حيث تحقق الإيمان واليقين كما قال تعالى:{ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } [النساء:٦٩]

لقد كان أبو بكر قبل خلافته وبعدها النموذج في عقائديته،فكان أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال،وأول من صدَّق حادثة الإسراء والمعراج،حين كذَّب بها من كذب،وشك من شك،حتى إذا هرعت قريش لأبي بكر تسأله فإذا جوابه جواب الصديقين فعَنْ عَائِشَةَ

556 – المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ١٦)(١١) حسن لغيره

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:" لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ،فَارْتَدَّ نَاسٌ فَمَنْ كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ،وَسَمِعُوا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ،فَقَالُوا:هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ،قَالَ:أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ،قَالُوا:أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ:نَعَمْ،إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ،فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ »[557]

وقَالَ ابْنُ شِهَابٍ:قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ:فَتَجَهَّزَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا لَهُ:هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ،ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا:نَعَمْ. قَالَ:فَأَشْهَدُ،لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ. قَالُوا:فَتُصَدِّقُهُ بِأَنْ يَأْتِيَ الشَّامَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ،ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ:نَعَمْ،إِنِّي أُصَدِّقُهُ بِأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ،أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ"[558]

إنه الإيمان المطلق بالغيب والتصديق بأخبار الوحي عما مضى من الأحداث،وعما يستقبل منها كأنه يراها رأي العين!

لقد ضعفت عرى الإيمان لدى أكثر المسلمين ودعاتهم وعلمائهم اليوم حتى أصبح كثير منهم على (دين بلا يقين) فهم في شك من دينهم،وفي شك من كمال شريعتهم،وفي شك من سنن النبي ﷺ وخلفائه في سياسة الأمة،وفي شك من وجوب اتباعها،وفي شك من صلاحيتها لعصرهم،وفي شك من بطلان هذه الجاهلية التي تحكمهم وتسوس شئونهم،وفي شك من وعد الله لهم بالنصر إن هم نصروه،وفي شك من عودتها خلافة راشدة كما أخبر بذلك ﷺ[559]،{ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } [يونس:٣٩]

---

557 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٦٥)(٤٤٠٧) صحيح

558 – دلائل النبوة للبيهقي مخرجا (٢/ ٣٦٠) صحيح مرسل – زيادة

559 – عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ،أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الأُمَرَاءِ ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا

ففقدوا بهذه الشكوك المتراكمة – التي ثبطتهم عن القيام لله بالقسط والحق – درجة الصديقية!

لقد تجلى إيمان أبي بكر العميق الراسخ رسوخ الجبال في مواقف تاريخية كبرى،وكان أولها حين دخل على النبي ﷺ بعد وفاته عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ،- قَالَ:إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي بِالعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ:وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَتْ:وَقَالَ عُمَرُ:وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ،وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ،فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ،فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ " فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ،قَالَ:بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي،طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ اللَّهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا"

وخرج على الناس وهم في المسجد وقد أصابهم هول المصيبة حتى طاشت عقولهم،وعمر يهذي ويقول:والله ما مات رسول الله وإنما ذهب يناجي ربه كما ذهب موسى!

فخَرَجَ(أبو بكر) فَقَالَ:أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ،فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ،فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،وَقَالَ:أَلاَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ،وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ،وَقَالَ:{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر:٣٠]،وَقَالَ:{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران:١٤٤]،قَالَ:فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ"[٥٦٠]

لقد وقف أبو بكر موقف الصديقين الموقنين،فثاب المسلمون إلى رشدهم،وأدركوا أن الواجب عليهم في هذه اللحظة ليس البكاء بل نصر رسول الله ﷺ بعد وفاته كنصره في حياته،وذلك بنصر دينه،وحمل رسالته،وحماية دولته،وإكمال مهمته،فبادروا إلى السقيفة في اليوم ذاته ليتشاوروا في أمر الخلافة واختيار السلطة،ومن يسوس شئون الأمة بعد رسول الله ﷺ،فلما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة،اختلفوا واضطربوا حتى كادوا أن يقتتلوا،فإذا الصديقية تتجلى من جديد في أعظم حادثة تمر على الأمة وفي أشد أيامها،فانبرى لهم أبو

شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،ثُمَّ سَكَتَ "مسند أبي الطيالسي – طبعة دار هجر – مصر (١/ ٢٤٩)(٤٣٩) صحيح

560 – صحيح البخاري (٥/ ٦)(٣٦٦٧ -٣٦٦٨)

بكر بثباته وإيمانه وخاطبهم بقوله للأنصار(فَقَالَ:مَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ،وَلَنْ يُعْرَفَ هَذَا الأَمْرُ إِلَّا لِهَذَا الحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ،هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا،وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ،فَبَايِعُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ،فَأَخَذَ بِيَدِي وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ،وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَنَا،فَلَمْ أَكْرَهْ مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا،كَانَ وَاللَّهِ أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي،لاَ يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ،أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُسَوِّلَ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ المَوْتِ شَيْئًا لاَ أَجِدُهُ الآنَ. فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الأَنْصَارِ:أَنَا جُذَيْلُهَا المُحَكَّكُ،وَعُذَيْقُهَا المُرَجَّبُ،مِنَّا أَمِيرٌ،وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ،يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ. فَكَثُرَ اللَّغَطُ،وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ،حَتَّى فَرِقْتُ مِنَ الاخْتِلاَفِ،فَقُلْتُ:ابْسُطْ يَدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ،فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْتُهُ،وَبَايَعَهُ المُهَاجِرُونَ ثُمَّ بَايَعَتْهُ الأَنْصَارُ.[٥٦١]

كأن لم يختلفوا فيها قبل قليل حتى كادوا أن يتفرقوا!

ثم خطب فيهم من الغد خطبته التاريخية ليبين لهم سنن الإمامة والخلافة الراشدة فعَنْ قَيْسٍ،قَالَ:خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ:وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فَسَدِّدُونِي،فَإِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِيلَا أَذَا رَأَيْتُمُونِي غَضِبْتُ فَاجْتَنِبُونِي،لَا أُؤْثِرُ فِي أَجْسَادِكُمْ وَلَا أَبْشَارِكُمْ"[٥٦٢]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَمِلْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى» أَوْ قَالَ:«التُّقَى»،شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ،قَالَ:وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ:التُّقَى - «وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[٥٦٣]

---

561 - صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)(٦٨٣٠)

562 - الزهد لأبي داود (ص:٥٦)(٣١) صحيح

563 - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(٨و٩) صحيح لغيره

ثم كانت أول قضية واجهها الصديق بصديقيته وإيمانه المطلق قضية أهل الردة،فقد اضطرب الصحابة في حكم من بقوا منهم على إسلامهم ومنعوا أداء الزكاة للدولة والخليفة بعد رسول الله فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ،وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ،قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ،إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "،فَقَالَ:وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ،فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ،وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ،فَقَالَ عُمَرُ:«فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[٥٦٤]

إنه التسليم من عمر لا عن تقليد لأبي بكر،بل عن اعتراف له بالصديقية التي ثبتت له بنص القرآن وبشهادة رسول الله ﷺ له،وبالأمر النبوي بلزوم هدي أبي بكر،فكان عمر مع رفضه لقتال مانعي الزكاة ومجادلته أبا بكر فيهم،أول من رجع عن رأيه لرأي أبي بكر،حتى أجمع الصحابة على قتالهم،عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:لَمَّا جَمَعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَهْلَ الرِّدَّةِ قَالَ:«اخْتَارُوا مِنِّي حَرْبًا مُجْلِيَةً أَوْ سِلْمًا مُخْزِيَةً» قَالُوا:أَمَّا الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ فَقَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ،قَالَ:«تَدُونَ قَتْلَانَا وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ» فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ:قَتْلَانَا قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يُودَوْنَ،وَنَنْزِعُ عَنْكُمُ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ،يَعْنِي السِّلَاحَ وَالْخَيْلَ،قَالَ ابْنُ مَاهَانَ قَالَ:وَتَلْزَمُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَا شَاءَ "[٥٦٥]

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ،قَالَ:لَمَّا ارْتَدَّ مَنِ ارْتَدَّ عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ،أَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يُجَاهِدَهُمْ،فَقَالَ عُمَرُ:أَتُقَاتِلُهُمْ وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ،حَرُمَ مَالُهُ إِلاَّ بِحَقٍّ،وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَنَّى لاَ أُقَاتِلُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ،وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا حَتَّى

564 - صحيح البخاري (٩/ ٩٣)(٧٢٨٤) وصحيح مسلم (١/ ٥١)٣٢ - (٢٠)

565 - جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٦٠)(١٨٢٩ و١٨٣٠) صحيح

أَجْمَعَهُمَا،قَالَ عُمَرُ:فَقَاتَلْنَا مَعَهُ فَكَانَ رَشْدًا،فَلَمَّا ظَفِرَ بِمَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ،قَالَ:اخْتَارُوا مِنِّي خَصْلَتَيْنِ؛إِمَّا حَرْبٌ مُجْلِيَةٌ،وَإِمَّا الْخطَّةُ الْمُخْزِيَةُ. قَالُوا:هَذِهِ الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا،فَمَا الْخطَّةُ الْمُخْزِيَةُ ؟ قَالَ:تَشْهَدُونَ عَلَى قَتْلاَنَا أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ،وَعَلَى قَتْلاَكُمْ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ،فَفَعَلُوا.[٥٦٦]

لقد كان أبو بكر رجلا عقائديا إيمانيا لا يقبل أن يطرأ على دين الحق شك وريب،ولا أن يخالط الإيمان شبهة رأي،فأراد منهم قبل كل شيء،وقبل أن يعودوا إلى صفوف المؤمنين،أن يجددوا إيمانهم بالله ورسوله وبدينه،حتى لا تتكرر ردة باسم الإسلام،ولا يختلط الحق بالباطل،وحتى لا يزعم زاعم أنه قاتلهم اجتهاداً!

ثم كانت الحادثة الثالثة في الأيام الأولى من وفاة النبي ﷺ،والتي واجهها أبو بكر بإيمان وطمأنينة،إنفاذ جيش أسامة بن زيد،وكان النبي ﷺ قد أمر الجيش بالاستعداد للتوجه للشام،فتوفي ﷺ قبل أن يخرج الجيش،فأشار بعض الصحابة على أبي بكر أن يؤجل خروج الجيش،حتى يحمي المدينة من أهل الردة الذين يحاصرونها،فما كان من الصديق إلا أن وقف الموقف الذي يقتضيه مقام الصديقية فَلَمّا بَلَغَ الْعَرَبَ وَفَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَارْتَدّ مَنْ ارْتَدّ عَنْ الْإِسْلَامِ،قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِأُسَامَةَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ:انْفُذْ فِي وَجْهِك الّذِي وَجّهَك فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ. وَأَخَذَ النّاسُ بِالْخُرُوجِ وَعَسْكَرُوا فِي مَوْضِعِهِمْ الْأَوّلِ،وَخَرَجَ بُرَيْدَةُ بِاللّوَاءِ حَتّى انْتَهَى إلَى مُعَسْكَرِهِمْ الْأَوّلِ،فَشَقّ عَلَى كِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوّلِينَ،وَدَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ عُمَرَ،وَعُثْمَانَ،وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقّاصٍ،وأبو عبيدة بن الجرّاح،وسعيد ابن زَيْدٍ،فَقَالُوا:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ،إنّ الْعَرَبَ قَدْ انْتَقَضَتْ عَلَيْك مِنْ كُلّ جَانِبٍ،وَإِنّك لَا تَصْنَعُ بِتَفْرِيقِ هَذَا الْجَيْشِ الْمُنْتَشِرِ شَيْئًا،اجْعَلْهُمْ عِدّةً لِأَهْلِ الرّدّةِ،تَرْمِي بِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ! وَأُخْرَى،لَا نَأْمَنُ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ يُغَارَ عَلَيْهَا وَفِيهَا الذّرَارِيّ وَالنّسَاءُ،فَلَوْ اسْتَأْنَيْت لِغَزْوِ الرّومِ حَتّى يَضْرِبَ الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ،وَتَعُودَ الرّدّةُ إلَى مَا خَرَجُوا مِنْهُ أَوْ يُفْنِيَهُمْ السّيْفُ،ثُمّ تَبْعَثُ أُسَامَةَ حِينَئِذٍ فَنَحْنُ نَأْمَنُ الرّومَ أَنْ تَزْحَفَ إلَيْنَا! فَلَمّا اسْتَوْعَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْهُمْ كَلَامَهُمْ قَالَ:هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا؟

---

566 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٤/ ٥٨٤)(٢٩٥٤٨) صحيح مرسل

قَالُوا:لَا،قَدْ سَمِعْت مَقَالَتَنَا. فَقَالَ:وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِه،لَوْ ظَنَنْت أَنّ السّبَاعَ تَأْكُلُنِي بِالْمَدِينَةِ لَأَنْفَذْت هَذَا الْبَعْثَ،وَلَا بَدَأْت بِأَوّلَ مِنْهُ،وَرَسُولُ اللّهِ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ مِنْ السّمَاءِ يَقُولُ:أَنْفِذُوا جَيْشَ أُسَامَةَ!

وَلَكِنْ خَصْلَةً،أُكَلّمُ أُسَامَةَ فِي عُمَرَ يَخْلُفُهُ يُقِيمُ عِنْدَنَا،فَإِنّهُ لَا غَنَاءَ بِنَا عَنْهُ. وَاَللّهِ،مَا أَدْرِي يَفْعَلُ أُسَامَةُ أَمْ لَا،وَاَللّهِ إنْ رَأَى لَا أُكْرِهُهُ! فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنّ أَبَا بَكْرٍ قَدْ عَزَمَ عَلَى إنْفَاذِ بَعْثِ أُسَامَةَ. وَمَشَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ إلَى أُسَامَةَ فِي بَيْتِه،وَكَلّمَهُ أَنْ يترك عمر،ففعل أُسَامَةُ،وَجَعَلَ يَقُولُ لَهُ:أَذِنْت وَنَفْسَك طَيّبَةٌ؟ فَقَالَ أُسَامَةُ:نَعَمْ! وَخَرَجَ وَأَمَرَ مُنَادِيَهُ يُنَادِي:عَزْمَةٌ مِنّي أَلّا يَتَخَلّفَ عَنْ أُسَامَةَ مِنْ بَعْثِه مَنْ كَانَ انْتُدِبَ مَعَهُ فِي حَيَاةِ رسول الله ﷺ،فإني لَنْ أُوتَى بِأَحَدٍ أَبْطَأَ عَنْ الْخُرُوجِ مَعَهُ إلّا أَلْحَقْته بِهِ مَاشِيًا. وَأَرْسَلَ إلَى النّفَرِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ الّذِينَ كَانُوا تَكَلّمُوا فِي إمَارَةِ أُسَامَةَ،فَغَلّظَ عَلَيْهِمْ وَأَخَذَهُمْ بِالْخُرُوجِ،فَلَمْ يَتَخَلّفْ عَنْ الْبَعْثِ إنْسَانٌ وَاحِدٌ.

وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يُشَيّعُ أُسَامَةَ وَالْمُسْلِمِينَ،فَلَمّا رَكِبَ أُسَامَةُ مِنْ الْجُرْفِ فِي أَصْحَابِه- وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافِ رَجُلٍ وَفِيهِمْ أَلْفُ فَرَسٍ- فَسَارَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ إلَى جَنْبِ أُسَامَةَ سَاعَةً،ثُمّ قَالَ:أَسْتَوْدِعُ اللّهَ دِينَك وَأَمَانَتَك وَخَوَاتِيمَ عَمَلِك،إنّي سَمِعْت رَسُولَ اللّهِ ﷺ يُوصِيك،فَانْفُذْ لِأَمْرِ رسول الله ﷺ،فإني لَسْت آمُرُك وَلَا أَنْهَاك عَنْهُ،وَإِنّمَا أَنَا مُنْفِذٌ لِأَمْرٍ أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ. فَخَرَجَ سَرِيعًا فَوَطِئَ بِلَادًا هَادِئَةً لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ الْإِسْلَامِ- جُهَيْنَةَ وَغَيْرَهَا مِنْ قُضَاعَةَ- فَلَمّا نَزَلَ وَادِي الْقُرَى قَدِمَ عَيْنًا لَهُ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ يُقَالُ لَهُ حُرَيْثٌ،فَخَرَجَ عَلَى صَدْرِ رَاحِلَتِه أَمَامَهُ مُغِذّا حتى انتهى إلى أبنى،فنظر إلَى مَا هُنَاكَ وَارْتَادَ الطّرِيقَ،ثُمّ رَجَعَ سَرِيعًا حَتّى لَقِيَ أُسَامَةَ عَلَى مَسِيرَةِ لَيْلَتَيْنِ مِنْ أُبْنَى،فَأَخْبَرَهُ أَنّ النّاسَ غَارُونَ وَلَا جُمُوعَ لَهُمْ،وَأَمَرَهُ أَنْ يُسْرِعَ السّيْرَ قَبْلَ أَنْ تَجْتَمِعَ الْجُمُوعُ،وَأَنْ يُشَنّهَا غَارَةً ٥٦٧"

567 - حياة الصحابة (٢/ ٢٠) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٦/ ٢٤٩) والروض الأنف ت الوكيل (٧/ ٥٨٣) ومغازي الواقدي (٣/ ١١٢١)

وأمضى الجيش إلى وجهته للشام،وترك المدينة بلا حماية،إيمانا منه بأن أمر رسول الله نافذ على الجميع في حياته وبعد موته ﷺ،وأن طاعته هي سبب النصر والتوفيق والهداية {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [النور:٥٤]!

وعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:أَمَّرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ عَلَى جَيْشٍ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَالزُّبَيْرُ،فَقُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ،قَبْلَ أَنْ يَمْضِيَ ذَلِكَ الْجَيْشُ،فَقَالَ أُسَامَةُ لِأَبِي بَكْرٍ حِينَ بُوِيعَ لَهُ – وَلَمْ يَبْرَحْ أُسَامَةُ حَتَّى بُوِيعَ لِأَبِي بَكْرٍ فَقَامَ فَقَالَ:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَّهَنِي لِمَا وَجَّهَنِي لَهُ،وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَرْتَدَّ الْعَرَبُ،فَإِنْ شِئْتَ كُنْتُ قَرِيبًا مِنْكَ حَتَّى تَنْظُرَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:«مَا كُنْتُ لَأَرُدَّ أَمْرًا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّه ﷺ،وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لِعُمَرَ فَافْعَلْ» فَأَذِنَ لَهُ،فَانْطَلَقَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حَتَّى أَتَى الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ قَالَ:فَأَخَذَتْهُمُ الضَّبَابَةُ،حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَا يَكَادُ يُبْصِرُ صَاحِبَهُ قَالَ:فَوَجَدُوا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ قَالَ:فَأَخَذُوهُ يَدُلُّهُمُ الطَّرِيقَ حَيْثُ أَرَادُوا،وَأَغَارُوا عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي أُمِرُوا قَالَ:فَسَمِعَ بِذَلِكَ النَّاسُ فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ:تَزْعُمُونَ أَنَّ الْعَرَبَ قَدِ اخْتَلَفَتْ،وَخَيْلُهُمْ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ:فَرَدَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذَلِكَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ،فَكَانَ يُدْعَى بِالْإِمَارَةِ حَتَّى مَاتَ،يَقُولُونَ:بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَلَمْ يَنْزِعْهُ حَتَّى مَاتَ"[568]

فكانت طاعته لرسول الله ﷺ بعد وفاته،كما هي في حياته،إنها تسليم مطلق،وانقياد تام،فهو النبي والإمام والقائد العام،حيا وميتا ﷺ!

ثم كان الموقف التاريخي الآخر للصديق حين رجع العرب إلى الإسلام،بعد حرب داخلية استمرت سنة كاملة،جيّش لها الصديق أحد عشر جيشا لمواجهة الردة وأهلها،وأخذ يشاور الصحابة في جهاد هرقل الروم أو كسرى الفرس وبأيهما يبدأ،وكان كلا الفريقين يتربص بالمسلمين ودولتهم الفتية الدوائر،فقال بعضهم دع الناس حتى يستجموا ويستعيدوا عافيتهم بعد حروب الردة،وقال آخرون بل نبدأ بالفرس،وقال بعضهم بل نبدأ

568 – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٨٢)(٩٧٧٧) صحيح مرسل

بالروم،فأجابهم أبو بكر بكل ثقة بالله ووعده ونصره (بل نبدأ بالطائفتين معا)[٥٦٩] استجابة للأمر الإلهي:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:١٢٣]![٥٧٠]

ليبدأ الصديق عصر الفتوح التي غيرت وجه التاريخ الإنساني إلى اليوم،وليتحقق موعود الله لعباده المؤمنين الراشدين{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥]

---

569 – لم أجد هذه الجملة فيما بين يدي من مصادر،ولكن النبي ﷺ قد أخبرهم أنهم سوف يفتحون فارس والروم،وقد راسلهم النبي ﷺ قبل موته فرفضوا دعوة الإسلام وهذه بعضها:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَالْخَنْدَقِ،فَخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِينَةِ،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا وَجَدْنَا صَفَاةً،لَا نَسْتَطِيعُ حَفْرَهَا،فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ،وَقُمْنَا مَعَهُ،فَلَمَّا أَتَى أَخَذَ الْمِعْوَلَ،فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً وَكَبَّرَ،فَسَمِعْتُ هَدَّةً لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا قَطُّ،فَقَالَ:«فُتِحَتْ فَارِسُ» ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَكَبَّرَ،فَسَمِعْتُ هَدَّةً،لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا قَطُّ،فَقَالَ:«فُتِحَتِ الرُّومُ» ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَكَبَّرَ،فَسَمِعْتُ هَدَّةً لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا قَطُّ،فَقَالَ:«جَاءَ اللهُ بِحِمْيَرَ،أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا» المعجم الكبير للطبراني (١٣/ ٢٧)(٥٤) حسن

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ،وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»صحيح البخاري (٤/ ٨٥)(٣١٢٠) وصحيح مسلم (٤/ ٧٥(٢٢٣٦ – (٢٩١٨)

وعَنِ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:فَارِسُ نَطْحَةٌ،أَوْ نَطْحَتَانِ،ثُمَّ لاَ فَارِسَ بَعْدَهَا أَبَدًا وَالرُّومُ ذَاتُ الْقُرُونِ أَصْحَابُ بَحْرٍ وَصَخْرٍ كُلَّمَا ذَهَبَ قَرْنٌ خَلَفَه قَرْنٌ مَكَانَهُ،هَيْهَاتَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ،هُمْ أَصْحَابُكُمْ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ. مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٠/ ٢٥٦)(١٩٦٨٨) صحيح مرسل

570 – يُبيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الطَّرِيقَ الأَمْثَلَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ،وَذَلِكَ بِأَنْ يَبْدَؤُوا بِقِتَالِ الأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ مِنْهُمْ إِلى أَرْضِ الإِسْلاَمِ،وَبِذلِكَ لاَ يَبْقَى مَجَالٌ لأَنْ يُؤْخَذَ المُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ مِنْ قِبَلِ أَعْدَائِهِمْ،إِذَا تَرَكُوا مَنْ هُمْ قُرْبَهُمْ وَذَهَبُوا لِيُقَاتِلُوا مَنْ خَلْفَ أَعْدَائِهِمْ،وَلِهَذَا بَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ بِقِتَالِ المُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ،وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ العَرَبِ شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الكِتَابِ فَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّومِ،لأَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ. وَهَكَذَا كَانَ المُسْلِمُونَ كُلَّمَا عَلَوْا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ هُمْ بَعْدَهُمْ،ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ العُتَاةِ الفُجَّارِ وَهَكَذَا.

وَيَأْمُرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَشِدّاءَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ،وَأَنْ يُظْهِرُوا لَهُمْ غِلْظَةً وَشِدَّةً وَخُشُونَةً فِي القِتَالِ،لِيُدْخِلُوا الوَهَنَ إِلَى نُفُوسِهِمْ،وَنُفُوسِ مَنْ خَلْفَهُمْ. وَمِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفَّارِ،رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ. وَيُخْبِرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ مَعَهُمْ يُثَبِّتُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ إِذَا اتَّقَوْهُ وَأَطَاعُوهُ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٥٩،بترقيم الشاملة آليا)

فبدأ أبو بكر رضي الله عنه مهمة الفتح التاريخي،ورحل بعد سنتين ونيف من استخلافه،ليصنع في تينك السنتين تاريخ الإسلام وخلافته ووحدته وفتوحاته كلها،فإذا كل الملايين من المسلمين على اختلاف قومياتهم منذ ذلك التاريخ إلى اليوم هم من حسنات أبي بكر وفي ميزان أعماله يوم القيامة،كما جاء في الحديث عَنِ الْهُزَيْلِ بْنِ شُرَحْبِيلَ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ:«لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ بِهِ»[٥٧١]

وعَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ ﷺ:«وَدِدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ فِي صَدْرِ أَبَى بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -»[٥٧٢]

وعن جَعْفَرَ قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا عِمْرَانَ الْجَوْنِيَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ:«وَدِدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ فِي جَنْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ»[٥٧٣]

كل ذلك بسبب صديقيته وإيمانه ويقينه،وفي الحديث مرفوعا«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَفْضُلْكُمْ بِصَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ»[٥٧٤]

٢- العبقرية العمرية:

التي اشتهر بها الفاروق عمر كما وصفه النبي ﷺ في الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،عَنْ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ قَالَ:«رَأَيْتُ النَّاسَ اجْتَمَعُوا فَنَزَعَ أَبُو بَكْرٍ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ فِيهِ ضَعْفٌ وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ،ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَنَزَعَ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرْيَهُ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ»[٥٧٥].

---

571 - السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٣٧٨)(٨٢١) صحيح

572 - المتمنين لابن أبي الدنيا (ص:٥٨) فيه انقطاع

573 - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٩٠)(٥٦٠) فيه انقطاع

574 - بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص:٢٧٨) ضعيف

575 - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٤١)(٢٢٨٩) صحيح

(يفري فريه) أَيْ:يَعْمَلُ عَمَلَهُ،وَيُقْوَى قُوَّتَهُ،وَيَقْطَعُ قَطْعَهُ،يُقَالُ:تَرَكْتُهُ يَفْرِي الْفَرِيَّ:إِذَا عَمِلَ عَمَلا فَأَجَادَ وَهَذَا كُلُّهُ إِشَارَةٌ إِلَى مَا أَكْرَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،مِنَ امْتِدَادِ مُدَّةِ خِلافَتِهِ،ثُمَّ الْقِيَامُ فِيهَا بِإِعْزَازِ الإِسْلامِ،وَحِفْظِ حُدُودِهِ،وَتَقْوِيَةِ أَهْلِهِ،شرح السنة للبغوي (١٤/ ٩٢)

والإلهام والتحديث كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ،فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ،فَإِنَّهُ عُمَرُ» وفي رواية «لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ،يُكَلَّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ،فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمَرُ»[٥٧٦]

فإذا كانت إقامة الخلافة،ومواجهة الردة بعد وفاة النبي ﷺ،وبدأ الفتوحات،مواقف تاريخية تحتاج إلى قائد عقائدي لا يتزعزع كأبي بكر الصديق،فإن اتساع دولة الإسلام لتضم إمبراطورية كسرى في الشرق،وقيصر في الغرب،وما كانتا عليه من حضارة ونظم،وما تعانيه شعوبهما من قهر وظلم،تحتاج إلى قائد عبقري فذ كعمر رضي الله عنه،ليسوس شئونها بكل ذكاء وحنكة وكفاءة،ليبسط الأمن ويحقق العدل للجميع،فكانت نتيجة تلك العبقرية فهم غايات ومقاصد الإسلام في إقامة الأحكام،فأوقف الأرض المغنومة ورفض أن تقسم على الفاتحين،وجعلها وقفا على الدولة والأمة كلها،ليمنع أن تكون الأموال والأرض،عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيه أَسْلَمَ قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:" اجْتَمِعُوا لِهَذَا الْمَالِ،فَانْظُرُوا لِمَنْ تَرَوْنَهُ "،ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:" إِنِّي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَجْتَمِعُوا لِهَذَا الْمَالِ فَتَنْظُرُوا لِمَنْ تَرَوْنَهُ،وَإِنِّي قَدْ قَرَأْتُ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر:٨]،وَاللهِ مَا هُوَ لِهَؤُلَاءِ وَحْدَهُمْ،{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا} الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ الْآيَةَ،وَاللهِ مَا هُوَ لِهَؤُلَاءِ

---

576 – صحيح البخاري (٥/ ١٢)(٣٦٨٩) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٦٤)٢٣ – (٢٣٩٨)

[ش (محدثون) اختلف تفسير العلماء للمراد بمحدثون فقال ابن وهب ملهمون وقيل مصيبون إذا ظنوا فكأنهم حدثوا بشيء فظنوه وقيل تكلمهم الملائكة وقال البخاري يجري الصواب على ألسنتهم]

وَحْدَهُمْ،{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ} الْآيَةَ،وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَلَهُ حَقٌّ فِي هَذَا الْمَالِ،أُعْطِيَ مِنْهُ أَوْ مُنِعَ،حَتَّى رَاعٍ بِعَدَنَ "[577]

ودون الدواوين واستفادها من فارس والروم عملا بحديث «إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ،وَإِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ»[578].

وحين رفض نصارى تغلب أن يدفعوا الجزية وقالوا نحن عرب ندفع كما يدفع العرب،قال افرضوا عليهم الصدقة،فعنْ عُبَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ التَّغْلِبِيِّ،أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّ بَنِي تَغْلِبَ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ شَوْكَتَهُمْ،وَإِنَّهُمْ بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ،فَإِنْ ظَاهَرُوا عَلَيْكَ الْعَدُوَّ اشْتَدَّتْ مُؤْنَتُهُمْ،فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعْطِيَهُمْ شَيْئًا. قَالَ:فَافْعَلْ. قَالَ:فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَغْمِسُوا أَحَدًا مِنْ أَوْلَادِهِمْ فِي النَّصْرَانِيَّةِ،وَتُضَاعَفَ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ. قَالَ:وَكَانَ عُبَادَةُ يَقُولُ:قَدْ فَعَلُوا وَلَا عَهْدَ لَهُمْ"[579]

وأمر أن يفرض من بيت مال المسلمين للمحتاجين،من المسلمين وغير المسلمين،وأن يفرض للأطفال الرضع وأمهاتهم ما يغنيهم،وسن للأمة سنن الهدى في باب سياسة الأمة،حتى ضرب به المثل في العدل،كل ذلك بذكاء وعبقرية هي أهم ما تحتاجه سياسة الأمم بعد الإيمان والصلاح والتقوى،فكان عمر إمام الراشدين في هذا الباب!

٣-القديسية بحلمها وحيائها ورحمتها وسخائها(عثمان رضي الله عنه)

والتي تجلت في أوضح صورها بالخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه،فكان منذ أن آمن وهو يحوط الدعوة بماله ونفسه وأهله،فهاجر الهجرتين،عَنْ يُونُسَ،قَالَ ابْنُ شِهَابٍ:أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ،أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَدِيِّ بْنِ الخِيَارِ،أَخْبَرَهُ أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ،وفيه قال عثمان رضي الله عنه:" إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ

---

577 – السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٧١)(١٣٠٠٢) صحيح

578 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ٢٠١)(٢٢) صحيح

قلت:ومثله حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ،فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا» سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥١)(٢٦٨٧) ضعيف جدا والصواب وقفه

579 – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٦٣)(١٨٧٩٦) ضعيف،والصواب أنه مثلهم مثل غيرهم يدفعون الجزية

مُحَمَّدًا ﷺ بِالحَقِّ،وَأَنْزَلَ عَلَيْه الكِتَابَ،وَكُنْتَ ممَّنِ اسْتَجَابَ لِلَّه وَلِرَسُوله ﷺ،فَهَاجَرْتَ الهِجْرَتَيْنِ،وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّه ﷺ،وَرَأَيْتَ هَدْيَهُ وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي شَأْنِ الوَلِيد،قَالَ:أَدْرَكْتَ رَسُولَ اللَّه ﷺ؟ قُلْتُ:لاَ،وَلَكِنْ خَلَصَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِه مَا يَخْلُصُ إِلَى العَذْرَاءِ فِي سِتْرِهَا،قَالَ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالحَقِّ،فَكُنْتُ ممَّنِ اسْتَجَابَ لِلَّه وَلِرَسُولِه،وَآمَنْتُ بِمَا بُعِثَ بِه،وَهَاجَرْتُ الهِجْرَتَيْنِ،كَمَا قُلْتَ،وَصَحِبْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ وَبَايَعْتُهُ،فَوَاللَّه مَا عَصَيْتُهُ وَلاَ غَشَشْتُهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ مِثْلُهُ،ثُمَّ عُمَرُ مِثْلُهُ،ثُمَّ اسْتُخْلِفْتُ،أَفَلَيْسَ لِي مِنَ الحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ؟ قُلْتُ:بَلَى،..." [580]

وبذل ماله في سبيل الله والإسلام أحوج ما يكون للبذل والإنفاق،حتى اشترى الجنة بماله مرتين،حين اشترى بئر رومة وأوقفها على المسلمين،بعد أن سمع النبي ﷺ يقول من يشتريها وله الجنة،وحين جهز جيش العسرة في غزوة تبوك وهو أكبر جيش خرج فيه النبي ﷺ،وبلغ عدده نحو أربعين ألف،فعَنْ عُمَرَ بْنِ جَاوَانَ،رَجُلٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ - وَذَاكَ أَنِّي قُلْتُ لَهُ:أَرَأَيْتَ اعْتِزَالَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ مَا كَانَ؟ - قَالَ:سَمِعْتُ الْأَحْنَفَ،يَقُولُ:أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ وَأَنَا حَاجٌّ،فَبَيْنَا نَحْنُ فِي مَنَازِلِنَا،نَضَعُ رِحَالَنَا إِذْ أَتَى آتٍ فَقَالَ:قَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ،فَاطَّلَعْتُ فَإِذَا - يَعْنِي - النَّاسَ مُجْتَمِعُونَ،وَإِذَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ نَفَرٌ قُعُودٌ،فَإِذَا هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ،وَالزُّبَيْرُ،وَطَلْحَةُ،وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَحْمَةُ اللَّه عَلَيْهِمْ،فَلَمَّا قُمْتُ عَلَيْهِمْ قِيلَ:هَذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ،قَدْ جَاءَ،قَالَ:فَجَاءَ وَعَلَيْه مُلَيَّةٌ صَفْرَاءُ،فَقُلْتُ لِصَاحِبِي:كَمَا أَنْتَ حَتَّى أَنْظُرَ مَا جَاءَ بِه؟ فَقَالَ عُثْمَانُ:أَهَاهُنَا عَلِيٌّ؟ أَهَاهُنَا الزُّبَيْرُ؟ أَهَاهُنَا طَلْحَةُ؟ أَهَاهُنَا سَعْدٌ؟ قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّه الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:«مَنْ يَبْتَاعُ مِرْبَدَ بَنِي فُلَانٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ؟» فَابْتَعْتُهُ،فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ،فَقُلْتُ:إِنِّي ابْتَعْتُ مِرْبَدَ بَنِي فُلَانٍ،قَالَ:«فَاجْعَلْهُ فِي مَسْجِدِنَا وَأَجْرُهُ لَكَ»،قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّه الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ،قَالَ:«مَنْ يَبْتَاعُ بِئْرَ رُومَةَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ؟» فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقُلْتُ:قَدِ ابْتَعْتُ بِئْرَ رُومَةَ،قَالَ:«فَاجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُهَا لَكَ»،قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّه الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه

---

[580] - صحيح البخاري (٥/ ١٤)(٣٦٩٦)

ﷺ قَالَ:«مَنْ يُجَهِّزُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ؟» فَجَهَّزْتُهُمْ حَتَّى مَا يَفْقِدُونَ عِقَالًا وَلَا خِطَامًا،قَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:اللَّهُمَّ اشْهَدْ،اللَّهُمَّ اشْهَدْ،اللَّهُمَّ اشْهَدْ "[581]

وكان المسلمون في حال عسرة وحاجة وشدة،فجاء بالأموال فصبها بين يدي رسول الله صبا طاعة لله ولرسوله ونصرة لدينه،فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ،قَالَ:جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ – قَالَ الحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ:وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي،فِي كُمِّهِ – حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ:«مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ»[582]

كما اشتهر عثمان بالحياء،فكان أشد حياء من البكر في خدرها،فعَنْ عَطَاءٍ،وَسُلَيْمَانَ،ابْنَيْ يَسَارٍ،وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ عَائِشَةَ،قَالَتْ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي،كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ،أَوْ سَاقَيْهِ،فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ،وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ،فَتَحَدَّثَ،ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ،فَأَذِنَ لَهُ،وَهُوَ كَذَلِكَ،فَتَحَدَّثَ،ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ،فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَسَوَّى ثِيَابَهُ – قَالَ مُحَمَّدٌ:وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ – فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ،فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ:دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِه،ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِه،ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ فَقَالَ:«أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»[583]

فجمع هذا القديس الطاهر بين السخاء والحياء،كما اشتهر بالرحمة وهي صفة لا تنفك عن صفة السخاء والحياء،حتى بلغ به الحال أن آثر أن يضحي بنفسه ولا يسفك بسببه قطرة دم،فعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ:حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ:لَمَّا حُصِرَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ

---

581 – سنن النسائي (٦/ ٢٣٣)(٣٦٠٦) صحيح

582 – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٦٢٦)(٣٧٠١) صحيح

583 – صحيح مسلم (٤/ ١٨٦٦)٣٦ – (٢٤٠١)

[ش (فلم تهتش) هكذا هو في جميع نسخ بلادنا تهتش وفي بعض النسخ الطارئة تهش وكذا ذكره القاضي وعلى هذا فالهاء مفتوحة قال هش يهش كشم يشم وأما الهش الذي هو خبط الورق من الشجر فيقال منه هش يهش بضمها قال الله تعالى وأهش بها على غنمي قال أهل اللغة الهشاشة والبشاشة بمعنى طلاقة الوجه وحسن اللقاء (لم تباله) لم تكترث به وتحتفل لدخوله (ألا أستحي من رجل تستحي) هكذا هو في الرواية أستحي بياء واحدة في كل واحدة منهما قال أهل اللغة يقال استحيا يستحي بياء واحدة لغتان الأولى أفصح وأشهر وبها جاء القرآن]

عَنْهُ؛ دَخَلَ عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ،فَقَالَ:إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِكَ مَا تَرَى،وَأَنَا أَعْرِضُ عَلَيْكَ خِصَالًا ثَلَاثًا:إِنْ شِئْتَ خَرَقْنَا لَكَ بَابًا مِنَ الدَّارِ سِوَى الْبَابِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ،فَنُقْعِدُكَ عَلَى رَوَاحِلِكَ؛ فَتَلْحَقُ بِمَكَّةَ،فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّوكَ وَأَنْتَ بِهَا،أَوْ تَلْحَقُ بِالشَّامِ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشَّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ،وَإِنْ شِئْتَ خَرَجْتَ بِمَنْ مَعَكَ فَقَاتَلْتَهُمْ،فَإِنَّ مَعَكَ عُدَّةً وَقُوَّةً،وَإِنَّكَ عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ،فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَمَّا قَوْلُكَ:أَنْ نَخْرِقَ لَكَ مِنَ الدَّارِ بَابًا،فَأَقْعُدُ عَلَى رَوَاحِلِي فَأَلْحَقُ بِمَكَّةَ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّونِي وَأَنَا بِهَا،فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«يُلْحِدُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ عَلَيْهِ نِصْفُ عَذَابِ الْعَالَمِ» فَلَنْ أَكُونَ إِيَّاهُ وَأَمَّا قَوْلُكَ أَنْ أَلْحَقَ بِالشَّامِ فَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ،قُلْتُ:أُفَارِقُ دَارَ هِجْرَتِي وَمُجَاوَرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا،وَأَمَّا قَوْلُكَ:إِنَّ مَعِي عِدَّةً وَقُوَّةً فَأَخْرُجُ فَأُقَاتِلَهُمْ؛ فَإِنِّي عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ،فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِإِهْرَاقِهِ مِلْءِ مِحْجَمٍ مِنْ دَمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ"[584]

فأبى أن يجابه المعارضة بالقوة حين جاءته تنكر على بعض ولاته تجاوزاتهم،ورفض أن يضربهم أو يؤذيهم بل أكرمهم وفاوضهم وصالحهم والتزم لهم بما شرطوا عليه،فلما رجعوا وحاصروه أقسم على كل من كان يحرس داره أن يتركوه ولا يقاتلوا دونه،ولزم داره يقرأ القرآن الذي حفظه صدرا وسطرا،حتى قتل شهيدا،وهو خليفة المسلمين الذي كانت جيوشه قد وصلت أطراف الهند،وكان باستطاعته بكلمة واحدة أن يقضي على مخالفيه ومعارضيه،إلا أن قديسيته وسخاء نفسه وخلقه وحيائه وشمائله الكريمة أبت عليه إلا أن يكف يده عن رعيته حتى لو ذهبت نفسه!

فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ،قَالَ:كُنَّا مَعَ عُثْمَانَ ﷺ وَهُوَ مَحْصُورٌ فِي الدَّارِ،وَكَانَ مَدْخَلٌ فِي الدَّارِ مَنْ دَخَلَهُ سَمِعَ كَلَامَ مَنْ عَلَى الْبَلَاطِ،فَدَخَلَهُ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَخَرَجَ وَهُوَ مُتَغَيِّرٌ لَوْنُهُ وَقَالَ:إِنَّهُمْ لَيَتَوَعَّدُونَنِي بِالْقَتْلِ آنِفًا. قُلْنَا:يَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ:لِمَ يَقْتُلُونِي؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ:رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ أَوْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ،أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقٍّ "،فَوَاللَّهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ

[584] – الشريعة للآجري (٤/ ١٩٥٤)(١٤٢٧) فيه انقطاع

وَلَا فِي إِسْلَامٍ قَطُّ،وَلَا أَحْبَبْتُ أَنَّ لِي بِدِينِي بَدَلًا مُذْ هَدَانِي اللَّهُ بِهِ،وَلَا قَتَلْتُ نَفْسًا،فَبِمَ يَقْتُلُونَنِي؟"[٥٨٥]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَشْرَفَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ:عَلَامَ تَقْتُلُونَنِي؟ وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ:رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ فَيُرْجَمُ،وَرَجُلٌ ارْتَدَّ بَعْدَ إِسْلَامِهِ فَعَلَيْهِ الْقَتْلُ،وَرَجُلٌ قَتَلَ مُتَعَمِّدًا فَعَلَيْهِ الْقَوَدُ "،وَاللَّهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ،وَلَا قَتَلْتُ مُتَعَمِّدًا،وَلَا ارْتَدَدْتُ مُذْ أَسْلَمْتُ،إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ "[٥٨٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:كُنْتُ مَعَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الدَّارِ فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ طَابٌ أَمْ ضَرْبٌ؟ – قَالَ:يَعْنِي طَابَ الْقِتَالُ – فَقَالَ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَيَسُرُّكَ أَنْ قَتَلْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَأَنَا مَعَهُمْ؟ فَقَالَ:لَا،فَقَالَ:«إِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَ إِنْسَانًا وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قَتَلْتَ النَّاسَ جَمِيعًا»[٥٨٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ لَنَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«أَقْسَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا أَلْقَيْتُمُ السِّلَاحَ،فَأَلْقَيْتُ سَيْفِي فَمَا تَقَلَّدْتُهُ بَعْدُ»[٥٨٨]

وعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ بِالْبَابِ عِصَابَةً مُسْتَبْصِرَةً قَدْ يَنْصُرُ اللَّهُ بِأَقَلَّ مِنْهُمْ. فَقَالَ:«أَنْشُدُ اللَّهَ رَجُلًا يَرَى لِلَّهِ عَلَيْهِ حَقًّا،وَيَرَى لِي عَلَيْهِ حَقًّا أَنْ يُهْرِيقَ دَمِي،أَوْ يُهْرِيقَ لِي دَمًا»[٥٨٩]

وعن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ:كُنْتُ مَعَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مَحْصُورٌ فِي الدَّارِ،فَقَالَ:«أَعْزِمُ عَلَى مَنْ كَانَ لَنَا عَلَيْهِ سَمْعٌ وَطَاعَةٌ لَمَا كَفَّ يَدَهُ وَسِلَاحَهُ،فَإِنَّ أَعْظَمَكُمْ عِنْدِي غَنَاءً الْيَوْمَ مَنْ كَفَّ يَدَهُ وَسِلَاحَهُ»[٥٩٠]

---

585 – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١١٨٧) صحيح

586 – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١١٨٧) صحيح

587 – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٧) صحيح

588 – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٧) صحيح

589 – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٩) صحيح

590 – تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٨) صحيح

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ:قَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنِّي هَوَيْتُ آنِفًا فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ:«أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ». فَعَلِمْتُ أَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي أُقْتَلُ فِيهِ. قَالَ:فَدَخَلُوا فَقَتَلُوهُ "[591]

٤- الفدائية والطهورية:

وكان النموذج فيها الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه،فكان فدائي الإسلام الأول،حين نام في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة،وقد أحاط المشركون بالدار،وقد عزموا على قتل النبي ﷺ على فراشه[592]،وحين خرج يوم الخندق لعمرو بن ود وهو فارس العرب،حين دعا رسول الله لمبارزته فخرج له الليث الغالب وقد باع نفسه لله ولرسوله[593]،وحين حمل الراية يوم خيبر وهو مريض يوعك طاعة لله ورسوله،فلا يدعوه رسول الله ﷺ لنائبة إلا أتاه،ولا لملحمة إلا كفاه،فكان الجندي الفدائي،عَنْ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ:«لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ،يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»،قَالَ:فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا،فَقَالَ:«أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ». فَقِيلَ:هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ،قَالَ:«فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ». فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ،فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ،فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ،فَقَالَ عَلِيٌّ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ:«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى

---

591 - تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٢٧) صحيح من طرق

592 - الهجرة النبوية - دراسة وتحليل- (ص:١٧٦) والسيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص:٢٧٠) والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٤)

593 - المقتفى من سيرة المصطفى (ص:١٥٩) وحياة محمد ورسالته (ص:١٦٨) والروض الأنف ت السلامي (٦/ ٢١٠)

الإِسْلاَمِ،وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ،فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا،خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٥٩٤]

حتى إذا وقعت الفتنة واحتاجته الأمة لسياسة شئونها،فإذا الطهورية تتجلى في أبهى صورها فإذا هو الخليفة الزاهد العادل الذي بلغ من طهوريته وورعه ونزاهته أن قسم الأبزار بين الناس بالسوية،فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،قَالَ:" جَاءَهُ ابْنُ النَّبَّاجِ فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ امْتَلَأَ بَيْتُ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ،فَقَالَ:اللهُ أَكْبَرُ فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى ابْنِ النَّبَّاجِ حَتَّى قَامَ عَلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ:" هَذَا جَنَايَ وَخِيَارُهُ فِيهِ وَكُلُّ جَانٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ يَا ابْنَ النَّبَّاجِ:عَلَيَّ بِأَشْبَاعِ الْكُوفَةِ " قَالَ:فَنُودِيَ فِي النَّاسِ،فَأَعْطَى جَمِيعَ مَا فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَقُولُ:«يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غُرِّي غَيْرِي،هَا وَهَا» حَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ،ثُمَّ أَمَرَهُ بِنَضْحِهِ،وَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ "[٥٩٥]

وعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ،وَمَيْسَرَةَ،قَالَا:إِنَّ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَسَمَ مَا فِي بَيْتِ الْمَالِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا أَرْبَعَةُ آلَافٍ،فَأَمَرَ بِهَا فَقُسِمَتْ،فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ،فَقَالَ:«لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَبْعَرَ فِيهِ الْغَنَمُ»[٥٩٦]

ورفض أن يداهن أحدا على شيء في أمور الإمامة والسلطة وكان أحوج ما يكون إلى تأليفهم،فحملته طهوريته على رفض كل مساومة حتى وإن كان على حساب سلطانه ونفوذ أمره وطاعته!

لقد كانت هذه الصفات توفرت في الخلفاء الأربعة جميعا،إلا أن كل واحد منهم كان أشهر ببعضها من بعض،كما كان أبو عبيدة بن الجراح وهو من قيادة الدعوة في مكة،ومن قيادة الدولة في المدينة،ومن العشرة المبشرين،قد اشتهر بصفة الأمانة،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[٥٩٧]

---

594 – صحيح البخاري (٥/ ١٣٤)(٤٢١٠)

595 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٨١) حسن

596 – الزهد لابن أبي الدنيا (ص:١٦٦)(٣٦٠) حسن

597 – الشريعة للآجري (٥/ ٢٣٠٨)(١٧٩٣) صحيح

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ،وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ،وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ،وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ،وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ،وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ،أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا،أَلَا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[٥٩٨]

وعَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ،قَالَ:قِيلَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ عَهِدْتَ؟ قَالَ:" لَوْ أَدْرَكْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ لَوَلَّيْتُهُ،فَإِنْ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَقَالَ لِي:مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قُلْتُ:سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ:«لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ،وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» وَلَوْ أَدْرَكْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ،ثُمَّ وَلَّيْتُهُ ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَقَالَ لِي:مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قُلْتُ:إِنِّي سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ:«يَأْتِي بَيْنَ الْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَتْوَةٍ»،وَلَوْ أَدْرَكْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ثُمَّ وَلَّيْتُهُ،ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَسَأَلَنِي مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ لَقُلْتُ:سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ:«سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ سَلَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ»[٥٩٩]

إن هذه الصفات التي اشتهر بها الخلفاء الراشدون ومن معهم من قيادات الصحابة رضي الله عنهم – العقائدية والعبقرية والقديسية والفدائية والطهورية والأمانة – هي أهم صفات القيادة الراشدة الجديدة،فإذا اجتمع للقيادات الراشدة:

١– إيمان القلوب وصفاؤها.

٢– وعبقرية العقول وذكاؤها.

٣– وطهورية الأرواح وزكاؤها.

٤– وكرم النفوس وشجاعتها ورحمتها وسخاؤها وحياؤها.

فقد استجمعت كل ما تحتاجه من شروط النجاح وتحقق النصر والاستخلاف في الأرض!

فالأمة اليوم أحوج ما تكون إلى قيادات راشدة،تجمع بين العلم والفهم،والحلم والحزم،والأمانة والزهد،حتى إذا ما مكن الله لها في الأرض كانت رحمة للعالمين،تنصر

---

598 – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٣٤٥)(٨١٨٥) صحيح

599 – تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٨٨٦) حسن

الحق،وترحم الخلق،وتسوسهم بإيمان أبي بكر وصديقيته،وكفاءة عمر وعبقريته،ورحمة عثمان وقديسيته،وزهادة علي وطهوريته،وصيانة أبي عبيدة وأمانته!

إن الأمة اليوم تتطلع إلى قيادات سياسية تعفُّ عن أموالها،وتكفُّ عن دمائها،وتلمُّ شعثها،وتوحد كلمتها،وتحسن سياستها،وتحررها من عبوديتها،بعد أن أترعت الدماء على أيدي الطغاة،وأهدرت الأموال،وانتهكت الأعراض،وامتلأت السجون بالمظلومين،ببغي المجرمين،فإذا كانت قيادات الحركاتِ السياسيةَ الإصلاحيةَ لم تعدَّ نفسها إعدادا روحيا وأخلاقيا للتصدي لمهمة الإصلاح،فإن تأخر النصر خير لها وللأمة من فجر كاذب،وبرق خالب!

ثانيا– صفات الأعضاء والأنصار:

فكما للقيادة الراشدة صفاتها التي يجب أن تتمتع بها،ولو بالحد الأدنى منها،فإن للأنصار وأعضاء التنظيم الإصلاحي الراشدي صفاتهم التي يجب أن يتصفوا بها ليكونوا أهلا للنصر،ومن أهمها:

١– الإيمان بالله،علما وعملا:

كما قال تعالى:{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم:٤٧]،وكما قال تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [المؤمنون:١]،والفلاح هو الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة،والمراد بالإيمان هو الإيمان الذي يورث العمل الصالح { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ } [العنكبوت:٩]،ويدخل في الصالحات القيام بالواجبات والمندوبات،وترك المحرمات..الخ.

وقد جعل الله الإيمان به،واليقين بآياته ووعده،والصبر عليه،سببا من أسباب الاستخلاف في الأرض فقال:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة:٢٤]..

٢– الاستقامة على الحق والإصلاح في الأرض:

والصبر عليه،وتجنب الطغيان،وعدم الركون للظالمين،أو الميل للمجـــرمين والمترفين،وقـــد أوصى النبي ﷺ بالإيمان والاستقامة على الحق،ففي صحيح مسلم عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْـــدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْـــدَكَ قَـــالَ:" قُلْ:آمَنْتُ بِاللهِ،فَاسْتَقِمْ "[600]

وكما قال تعالى:{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـــيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـــيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِـــنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِـــكَ الْقُـــرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) } [هود:١١٢ - ١١٧].

فأمر الله نبيه والمؤمنين معه بالاستقامة ولزوم سبيل الرشاد والإصلاح في الأرض،والثبـــات والصبر عليه مهما لقوا من الشدة،وحذرهم من الطغيان وتجاوز العدل والقسط،ونهاهم عن الركون للذين ظلموا،إذ هو من أعظم موانع النصر والفلاح في الدنيا والآخرة {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَـــاءَ ثُـــمَّ لَـــا تُنْصَـــرُونَ } [هود:١١٣]،وأمرهم في مقابل ذلك بالإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض إذ هو سبيل النجاة،وهو خلاف سبيل الذين ظلموا،وخلاف سبيل الذين يركنون إليهم،وخلاف سبيل المترفين منهم،وخلاف سبيل المجرمين!

فمتى ركن المؤمنون أو مالوا للظالمين أو المترفين أو المجرمين فقد أصابهم شؤم الظلم والترف والإجرام،فحرموا النصر والفلاح،إذ للمظلومين من ضحايا الملأ المجرمين دعوات تضج بها السماء،قد وعدها الله بالانتقام والعقوبة ممن ظلمها وأجرم بحقها،فإذا نزلـــت إلى الأرض سهامها أصابت الظالمين وكل من ركن إليهم {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَـــا مُتْرَفِيهَـــا

---

600 - صحيح مسلم (١/ ٦٥)٦٢ - (٣٨)

[ش (قل آمنت بالله فاستقم) قال القاضي عياض رحمه الله هذا من جوامع كلمه ﷺ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا أي وحدوا الله وآمنوا به ثم استقاموا فلم يحيدوا عن التوحيد والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن توفوا على ذلك]

فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء:١٦]،وأول ما يصيب الصالحين من شؤم الركون إلى الظالمين مخالطتهم لهم،فيهون في نظرهم ما هم فيه أو عليه من الفساد أو الطغيان أو الترف،فيطمس الله على قلوبهم،فتستحسن القبيح،وتستقبح الحسن،وتشمئز ممن يأمرهم بمعروف،أو ينهاهم عن منكر!

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنِ اقْلِبْ مَدِينَةَ كَذَا وَكَذَا عَلَى أَهْلِهَا قَالَ:فَقَالَ:يَا رَبِّ إِنَّ فِيهَا عَبْدَكَ لَمْ يَعْصِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ،فَقَالَ:اقْلِبْهَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ،فَإِنَّ وَجْهَهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ"[601]

ولهذا كان الإصلاح والاستقامة تتنافى مع الظلم والإفساد في الأرض { إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ } [يونس:٨١]،{ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف:١٤٢]،{وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)} [الشعراء:١٥١،١٥٢]..

فالاستقامة هي السير على الهدى،والثبات على الحق،والصبر عليه،وعدم الطغيان في حال القوة،وعدم تجاوز العدل والقسط،وعدم الميل عنه أو الركون للظالمين في حال الضعف،مهما اشتدت الملمات،أو تراكمت المدلهمات،أو تعاظمت الشهوات،فإن المصلحين يرضيهم في هذه الحياة أن تتحقق لهم السعادة والحياة الطيبة التي يجدونها بالإيمان وصلاح نفوسهم ورضاهم عن ذواتهم،{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:٩٧] في الدنيا والآخرة،والحياة الطيبة الراضية هو ما يجده الصالحون من رضا نفوسهم،وسعادة أرواحهم،وطيب عيشهم،وهذا يغنيهم عن متاع الدنيا وغرورها،وأكدارها وأوزارها!

وقد أخبر النبي ﷺ عن حقيقة الغنى فقال – كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ،وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[602].

---

601 – معجم ابن الأعرابي (٣/ ٩٤٨)(١٩٦٣) ضعيف وصح وقفه من قول مالك بن دينار شعب الإيمان (١٠/ ٧٤)(٧١٨٨) وهو زيادة مني

602 – صحيح البخاري (٨/ ٩٥)(٦٤٤٦) وصحيح مسلم (٢/ ٧٢٦)١٢٠ – (١٠٥١)

وعَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّه ﷺ،فَأَعْطَاهُمْ،ثُمَّ سَأَلُوهُ،فَأَعْطَاهُمْ،ثُمَّ سَأَلُوهُ،فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ،فَقَالَ:«مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ،وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ،وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِه اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ،وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[٦٠٣]

فإذا استغنت النفوس بما كتب الله لها من الدنيا عظمت همتها،وشرفت غايتها،وعرفت حقيقة وجودها،وغاية انتهائها،وأقبلت على معالي الأمور وتركت سفاسفها،فعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّه بْنِ كَرِيزٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ،وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ،وَيُبْغِضُ سَفْسَافَهَا،وَإِنَّ مِنْ إِكْرَامِ جَلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ثَلَاثَةٍ ذِي الشَّيْبَةِ فِي الْإِسْلَامِ،وَالْحَامِلِ لِلْقُرْآنِ غَيْرِ الْجَافِي عَنْهُ وَلَا الْغَالِي،وَالْإِمَامِ الْمُقْسِطِ»[٦٠٤] وإنما يصنع المجد من يبذل المال لا من يجمعه،ومن يركب الخطر لا من يحاذره!

وكما قال الشاعر:

ومن ينفق الأوقات في جمع ماله مخافة فقر فالذي يفعل الفقر !

وإن فتنة هذه الأمة هو في المال وعبادته كما جاء عَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ،يَقُولُ:«لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ،وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ»[٦٠٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ،وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ،وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ،إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ،تَعِسَ وَانْتَكَسَ،وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ،طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّه،أَشْعَثَ رَأْسُهُ،مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ،إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ،إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ،وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»[٦٠٦]

[ش(الغنى) الحقيقي الذي يملأ نفس الإنسان ويكفه عن حاجة غيره. (كثرة العرض) حطام الدنيا من الأمتعة ونحوها أو ما يصيبه الإنسان من حظوظ الدنيا]

603 – صحيح البخاري (٢/ ١٢٣)(١٤٦٩) وصحيح مسلم (٢/ ٧٢٩)١٢٤ – (١٠٥٣)

[ش(فلن أدخره عنكم) لن أحبسه وأمنعكم منه. (يستعفف) يظهر العفة ويكف عن السؤال] زيادة مني

604 – الزهد لهناد بن السري (٢/ ٤٢٣) حسن لغيره

605 – صحيح ابن حبان – مخرجا (٨/ ١٧)(٣٢٢٣) صحيح

606 – صحيح البخاري (٤/ ٣٤)(٢٨٨٦ –٢٨٨٧)

فكم فتن المال من عالم وداعية،وكم ألهى من حركات وأحزاب،فدخلوا الأسواق لنصر الدعوة،فنصروا الأسواق وتركوا الدعوة!

وقد حذر الله نبيه ﷺ من فتنة الدنيا وزينتها فقال له:{ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [طه:١٣١]!

وإنما تتعطل الدعوات عن سيرها في طريق التغيير والإصلاح بالانشغال في المال وجمعه،والاستمتاع بفتنة الدنيا وزخرفها،وإنما يقود حركة التغيير المؤمنون المخلصون،وينصرها المعدمون المستضعفون،فهم أتباع الرسل وأنصارهم!

٣- الجهاد في سبيل الله بمفهومه الشامل:

ابتداء بجهاد النفس على الطاعة وفعل الخير وترك الشر،{ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت:٦]،

وعَنِ الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادٍ،قَالَ:سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ:أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ إِسْلَامًا؟ قَالَ:«مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»،قَالَ:فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ»،قَالَ:فَأَيُّ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«مَنْ جَاهَدَ لِنَفْسِهِ وَهَوَاهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ»،قَالَ:أَنْتَ قُلْتَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو أَوْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ:قَالَ:«بَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَهُ»[٦٠٧]

أو جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

[ش (تعس) سقط على وجهه أو شقي وهلك. (عبد الدينار) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له. (القطيفة) دثار مخمل والدثار ما يلبس فوق الشعار والشعار ما لامس الجسد من الثياب. (الخميصة) كساء أسود مربع له خطوط. (أعطي) من المال. (رضي) عن الله تعالى وعمل العمل الصالح. (انتكس) انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران. (شيك) أصابته شوكة. (فلا انتقش) فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ولا خرجت والمراد إذا أصيب بأقل أذى فلا وجد معينا على الخلاص منه. (طوبى) من الطيب أي كانت له حياة طيبة وجزاء طيب. (بعنان) لجام. (أشعث) متفرق الشعر غير مسرح. (إن كان في الحراسة) جعل في مقدمة الجيش ليحرسه من العدو. (كان في الحراسة) قام بها راضيا. (الساقة) مؤخرة الجيش. (تعسا) اللفظ من / محمد ٨ /. (طوبى) اللفظ من / الرعد ٢٩ /. وقيل هو اسم للجنة]

607 - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٦٠٠)(٦٣٩) صحيح

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة:٥٤]

أو جهاد الكلمة أمام أئمة الجور – كما في سنن النسائي عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٦٠٨]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْمِي الْجَمْرَةَ الْأُولَى فَأَعْرَضَ عَنْهُ،ثُمَّ قَالَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى فَأَعْرَضَ عَنْهُ،فَلَمَّا رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ،وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ قَالَ:«أَيْنَ السَّائِلُ؟» قَالَ:أَنَا ذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:«أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ قَالَ كَلِمَةَ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٦٠٩]

أو الجهاد بالأموال والأنفس لنصر دين الله وإعلاء كلمته في الأرض،وجهاد أعدائه قال تعالى:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة:٤١]

فكل ما سبق من صور الجهاد تدخل في عموم قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت:٦٩][٦١٠]

وقد وعد الله المؤمنين ووعده الحق وقوله الصدق أن ينصر من نصره منهم،فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد:٧]،وقال تعالى:{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ

---

608 – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣)(٧٧٨٦) صحيح

609 – مسند ابن الجعد (ص:٤٨٠)(٣٣٢٦) حسن

610 – أَمَّا الذينَ قَاتَلُوا في سَبيلِ اللهِ،وَجَاهَدُوا الكُفَّارَ،وَبَذَلُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ في سَبيلِ نُصْرَةِ دين الله،فإنَّ الله يَعِدُهُم بأَنْ يَزِيدَهُمْ هِدَايةً إلى سَبيلِ الخَيْرِ،وَتَوفيقاً لسُلُوكِها. واللهُ تَعَالى مَعَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ مِنْ عِبَادِه،يُعِينُه وَيَنْصُرُهُ "أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٩١،بترقيم الشاملة آليا)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ مُوجِبًا لِلْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ مُحِيطَةٌ بِأَبْوَابِ الْعِلْمِ. كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} فَجَعَلَ لِمَنْ جَاهَدَ فِيهِ هِدَايَةَ جَمِيعِ سُبُلِهِ تَعَالَى؛ وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامَانِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا:إذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانْظُرُوا مَاذَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثَّغْرِ فَإِنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}. مجموع الفتاوى [٢٨/ ٤٤٢]

كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج:٤٠]،وقال تعالى:{ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٦٠]..

" إن التصور الإسلامي يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله – سبحانه – وتحقق هذا القدر في الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله.. إن سنة الله تجري بترتيب النتائج على الأسباب.

ولكن الأسباب ليست هي التي «تنشئ» النتائج. فالفاعل المؤثر هو الله. والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته.. ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه،وأن يبذل جهده،وأن يفي بالتزام اته. وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها.. وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره. هو وحده الذي يأذن لها بالوجود حين يشاء،وكيفما يشاء.. وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله. فهو يعمل ويبذل ما في طوقه وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته. ولا حتمية في تصوره بين النتائج والأسباب. فهو لا يحتم أمرا بعينه على الله! وهنا في قضية النصر والخذلان،بوصفهما نتيجتين للمعركة – أية معركة – يرد المسلمين إلى قدر الله ومشيئته ويعلقهم بإرادة الله وقدرته:إن ينصرهم الله فلا غالب لهم. وإن يخذلهم فلا ناصر لهم من بعده.. وهي الحقيقة الكلية المطلقة في هذا الوجود. حيث لا قوة إلا قوة الله،ولا قدرة إلا قدرته،ولا مشيئة إلا مشيئته.

وعنها تصدر الأشياء والأحداث.. ولكن هذه الحقيقة الكلية المطلقة لا تعفي المسلمين من اتباع المنهج،وطاعة التوجيه،والنهوض بالتكاليف،وبذل الجهد،والتوكل بعد هذا كله على الله:«وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».. وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عند غير الله ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود فينفض يده من كل الأشباح الزائفة والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء ويتوكل على الله وحده في

إحداث النتائج،وتحقيق المصاير،وتدبير الأمر بحكمته،وتقبل ما يجيء به قدر الله في اطمئنان أيا كان. إنه التوازن العجيب،الذي لا يعرفه القلب البشري إلا في الإسلام."[611]

٤-الأخوة بين المؤمنين من الأعضاء والأنصار:

التي تقوم على الحب والتعاطف والتراحم كما قال تعالى:{وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) } [الأنفال:٦٢ - ٦٣]،فالنصر كما تؤكد هذه الآية إنما تحقق بالمؤمنين بالأمرين معا كونهم مؤمنين،وكونهم متحابين متآلفين،وكما في صحيح مسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ،وَتَرَاحُمِهِمْ،وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[612]

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[613]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَحَاسَدُوا،وَلَا تَنَاجَشُوا،وَلَا تَبَاغَضُوا،وَلَا تَدَابَرُوا،وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ،وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ،لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ،وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ،كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ،دَمُهُ،وَمَالُهُ،وَعِرْضُهُ»[614]

---

611 - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٠٩)

612 - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٦ - (٢٥٨٦)

[ش (تداعى له سائر الجسد) أي دعا بعضه بعضا إلى المشاركة في ذلك ومنه قوله تداعت الحيطان أي تساقطت أو قربت من التساقط]

613 - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٥ - (٢٥٨٥)

[ش (المؤمن كالبنيان) وفي الحديث الآخر مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم الخ هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه]

614 - صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦)٣٢ - (٢٥٦٤)

[ش (ولا يخذله) قال العلماء الخذل ترك الإعانة والنصر ومعناه إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي (ولا يحقره) أي لا يحتقره فلا ينكر عليه ولا يستصغره ويستقله (التقوى ههنا) معناه أن الأعمال الظاهرة لا تحصل بها التقوى وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته]

فالأخوة والمحبة هي سرُّ النصر ومفتاحه،فإذا تحققتا بين المؤمنين والمصلحين الراشدين فقد انتصروا،إذ حاجة النفوس الكريمة الشريفة إلى المحبة أشد من حاجتها إلى ما سواها من حظوظ النفس وشهواتها،فهي تحيا بالحب،وتقاتل بالحب،وتموت بالحب،ولهذا كانت أشرف مراتب العبودية لله المحبة كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة:٥٤]،

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ".[٦١٥]

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:أَتَدْرُونَ أَيُّ عُرَى الإِيمَانِ أَوْثَقُ ؟ قُلْنَا:الصَّلاَةُ قَالَ:الصَّلاَةُ حَسَنَةٌ وَلَيْسَ بِذَاكَ قُلْنَا:الصِّيَامُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى ذَكَرْنَا الْجِهَادَ،فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْحَبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ.[٦١٦]

ولهذا أمر النبي ﷺ بإشاعة الحب،ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا،أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[٦١٧]

وعَنْ يَعِيشَ بْنِ الوَلِيدِ،أَنَّ مَوْلًى لِلزُّبَيْرِ،حَدَّثَهُ أَنَّ الزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ،حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ:الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ،هِيَ الحَالِقَةُ،لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ

---

615 – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٥/ ٦٣١)(٣١٠٨٣) صحيح لغيره

616 – مسند أبي الطيالسي –طبعة دار هجر – مصر (٢/ ١٣)(٧٨٣) صحيح لغيره – زيادة مني

617 – صحيح مسلم (١/ ٧٤)٩٣ – (٥٤)

[ش (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره وهي لغة معروفة صحيحة وأما معنى الحديث فقوله ﷺ ولا تؤمنوا حتى تحابوا معناه لا يكمل ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب (أفشوا السلام بينكم) فيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف]

الدِّينَ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا،أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ "[618]

وكذا أمر النبي ﷺ بالتعبير عن مشاعر الحب تجاه الآخرين،فعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ،وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَهُ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعْلِمْهُ أَنَّهُ أَحَبَّهُ»[619]،لما في إشاعة الحب من تأليف القلوب،وتهذيب النفوس،وسعادة الأرواح،ولحاجة الجماعة لروح التضحية من أجل الدعوة التي تؤمن بها،ولا تتحقق التضحية إلا حين تتآلف القلوب،وتتحاب الأرواح قبل الأشباح،فيرى العضو سعادته في سعادة الجماعة،وحياته في حياتها،وفوزه في فوزها،فتبذل الأرواح والأموال رخيصة من أجلها،أخوة ومحبة ومودة وتضحية وإيثارا!

وليس المقصود بالأخوة ما يتظاهر به المظاهرون من ترابط وقلوبهم متنافرة،ومن تعانق وأرواحهم متباغضة،بل الأخوة خلة شريفة كريمة نبيلة أساسها الحب والود والإخلاص،وعنوانها الاحترام والتكريم والتوقير،وسقفها التضحية والإيثار والفداء!

عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ،حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[620]

٥-الرحمة بالعالمين والإحسان إلى الخلق أجمعين:

كما قال تعالى عن سبب إرسال رسوله محمد ﷺ:{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:١٠٧] عامة،{وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [التوبة:٦١] خاصة،وكذلك يجب أن يكون أتباعه رحمة للعالمين،وقد وصف القرآن أهل الإيمان بأخص صفاتهم وأشرفها كما بشر بها في التوراة والإنجيل {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ **رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا

---

618 – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٦٤)(٢٥١٠) حسن

619 – الأدب المفرد مخرجا (ص:١٩١)(٥٤٢) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٩٩)(٢٣٩٢) وصحيح ابن حبان – مخرجا (٢/ ٣٣٠)(٥٧٠) ومسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ٤٠٨)(١٧١٧١) صحيح

620 – صحيح البخاري (١/ ١٢)(١٣) وصحيح مسلم (١/ ٦٧)٧١ – (٤٥)

[ش (لا يؤمن أحدكم) الإيمان الكامل. (ما يحب لنفسه) من فعال الخير]

يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح:٢٩].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ،«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» "[621]

وفي الصحيحين عَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا،فَقَالَ الأَقْرَعُ:إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا،فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ:«مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ» [622]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ،وَأَنَا أَرْحَمُهَا – أَوْ قَالَ:إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا – فَقَالَ:" وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ " وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ "[623]

وقد أوصى الله بالأرحام التي يتراحم به العالمون فقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء:١].

وجعل قطعها كالإفساد في الأرض { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)} [محمد:٢٢،٢٣].

---

621 – سنن أبي داود (٤/ ٢٨٥)(٤٩٤١) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٢٣)(١٩٢٤) ومسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٣٣)(٦٤٩٤) صحيح

622 – صحيح البخاري (٨/ ٧)(٥٩٩٧) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٠٨)٦٥ – (٢٣١٨)

623 – مسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٣٥٩)(١٥٥٩٢) صحيح

وقد أوصى النبي ﷺ بأهل مصر خيرا،فعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ،فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا،فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا» أَوْ قَالَ «ذِمَّةً وَصِهْرًا"[٦٢٤]

وعلل ذلك بقوله (فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا)،أي لكون هاجر أم إسماعيل جد العرب منهم؟

فدل على أن الأرحام مهما بعدت يجب تعظيمها،كما قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات:١٣]..

ولهذا أمر القرآن بالإحسان إلى الخلق كافة { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ **بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ** وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل:٩٠] {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ } [البقرة:٨٣] {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى **التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } [البقرة:١٩٥]،{ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا } [الإسراء:٥٣]،{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)} [فصلت:٣٤،٣٥]..

وقال عن رحمة أهل الإيمان:{ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) } [الإنسان:٨ - ١٠]..

---

624 - صحيح مسلم (٤/ ١٩٧٠)٢٢٧ - (٢٥٤٣)

[ش (القيراط) قال العلماء القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به (ذمة) الذمة هي الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام (ورحما) الرحم لكون هاجر أم إسماعيل منهم (وصهرا) الصهر لكون مارية أم إبراهيم منهم]

بل إن حسن الخلق وإكمال مكارمه من أسباب بعثته ﷺ،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ "[٦٢٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[٦٢٦]

وإنما يتحقق حسن الخلق بهاتين الخلتين الرحمة والإحسان إلى بني الإنسان،على اختلاف أجناسهم وأديانهم،وقد جعل القرآن حقيقة الدين الإحسان إلى الخلق كما قال تعالى أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)(سورة الماعون).

فجعل حقيقة التكذيب بالدين،وبالحساب والجزاء يوم القيامة،طرد اليتيم،وحرمان المساكين،ومنع العون للمحتاجين،إذ لا يتصور أن تصدر هذه الأفعال ممن يؤمن بيوم الدين والجزاء،ويخشى الحساب والعقاب!

إن هذه الصفات والخلال – الإيمان بالله،والجهاد في سبيل الله،والاستقامة على دين الله،والأخوة بين المؤمنين في الله،والرحمة والإحسان إلى الخلق لوجه الله – هي أهم ما يجب على المصلحين الراشدين التحلي بها،ومجاهدة النفس عليها،ليتأهلوا للاستخلاف في الأرض كما وعدهم الله { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥].

وليس المقصود مما ذكر في صفات القيادة والأعضاء أنه لا يقع منهم خطأ وقصور،أو ذنب أو فجور،بل كل ذلك يقع منهم،عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[٦٢٧]

---

625 – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٢٣)(٢٠٧٨٢) صحيح

626 – الأدب المفرد مخرجا (ص:١٠٤)(٢٧٣) صحيح

627 – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٥٩)(٢٤٩٩) حسن

وإنما الواجب توافر الحد الأدنى من هذه الصفات في الجميع والمجموع،لتحقيق الهدف ونجاح المشروع،فليس مشروع استعادة الخلافة الراشدة،وإقامة الحكومات الراشدة مشروعا سياسيا فقط،بل هو أيضا حركة إحياء روحية وأخلاقية واجتماعية وفكرية تعيد للإنسان المؤمن شهوده الحضاري من جديد،وتبعث الحياة في المجتمع الإسلامي من جديد،بعد أن فسدت التصورات والسلوكيات حتى بين كثير من دعاة الإصلاح،فانغمسوا في الدنيا،وركنوا للظالمين،وداهنوا المجرمين،وخالطوا المسرفين والمترفين،وعبدوا الدينار والدرهم،وافتتنوا فيها وفتنوا الآخرين،حتى يئس المسلمون من إصلاح الأحوال إذا كان هذا حال كثير من علمائهم ودعاتهم وحركاتهم الدينية!

الثالث– شروط نجاح التنظيم الراشدي:

إذا كان للقيادات الراشدة مواصفاتهم،وللأعضاء والأنصار صفاتهم،فإن للتنظيم شروطا ضرورية لنجاحه ومن أهم ما يجب مراعاته:

١– أن يعرف التنظيم الراشدي حق المعرفة ماذا يريد،وكيف يصل إلى ما يريد،فيعرف عقيدته السياسية بأدلتها الشرعية،ومشروعه السياسي،وما يحتاجه من زمن وجهد،وما يعترضه من عوائق،وما لديه من إمكانات،ويعرف أهدافه النهائية والمرحلية،والفرص القريبة والبعيدة،وكيف يتم تحضير المشهد السياسي لها.

٢– وأن يعلم بأن مهمته هي من الأمة وبالأمة وإلى الأمة،فليس الهدف أن يصل التنظيم للسلطة،بل أن تصل الأمة إلى السلطة،وأن يتحقق الإصلاح الشامل،لتتحرر من كل عبودية (إلا عبودية الله تعالى وحده)،ولتسوس شئونها بنفسها،كما أراد الله لها،وإنما سيشاركها التنظيم في المضي معها نحو تحقيق هذا الهدف،ومن هنا يجب عليه أن يدرك بأنه سيكون جزءا من مشروع النهضة يتكامل مع كل القوى الإصلاحية التي تسعى إلى الإصلاح التعليمي والتربوي والأخلاقي والخيري والجهادي والسياسي،وهو ما يقتضي أن

يكون التنظيم مفتوحا لكل من يريد الإصلاح،وقادرا على التعاون مع الجميع بلا استثناء..[٦٢٨]

٣- وأن يكون التنظيم النموذج في إدارة شئونه بالشورى،وهو ما يقتضي أن يكون تنظيما أفقيا يتساوى فيه الجميع،وتتجلى فيه الشورى عند اتخاذ القرار،وتتحقق فيه قبل الحزم والعزم،الأخوة والمحبة،فلا أغلبية تفرض رأيها على أقلية،ولا كبير يفرض وجهة نظره على صغير،عَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ،قَالَ:«بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا،وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»[٦٢٩]

وعَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا،وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ:" بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا،وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا،وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا " قَالَ:فَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فُسْطَاطًا يَكُونُ فِيهِ يَزُورُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ "[٦٣٠]

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يختلفون في الرأي،فما يزالون يتحاورون حتى يتفقوا على رأي واحد،ويتطاوعوا عليه،ويترك بعضهم رأيه لبعض،ليخرج الرأي باتفاق منهم جميعا،ويلين بعضهم لبعض،كما في الحديث وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«أَقِيمُوا الصُّفُوفَ وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ وَسُدُّوا الْخَلَلَ وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ،وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللَّهُ،وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللَّهُ»[٦٣١]..

---

628 – على قاعدة (نتعاون مع بعضنا في ما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا عليه من أمور قابلة للاجتهاد،وكانت أدلتها ظنية) انظر فتاوى الشبكة الإسلامية (٧/ ٥٣٨)معنى:"نتعاون فيما اتفقنا عليه.."

629 – صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٨)٦ - (١٧٣٢)

[ش (بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا) إنما جمع في هذه الألفاظ بين الشيء وضده لأنه قد يفعلهما في وقتين فلو اقتصر على يسروا لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات وعسر في معظم الحالات فإذا قال ولا تعسروا انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه وهذا هو المطلوب وكذا يقال في بشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا لأنهما قد يتطاوعان في وقت ويختلفان في وقت وقد يتطاوعان في شيء ويختلفان في شيءوفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير]

630 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٢/ ٤٧٢)(١٩٦٩٩) صحيح

631 – سنن أبي داود (١/ ١٧٨)(٦٦٦) صحيح

لقد كان من أسباب نجاح الدعوة النبوية تحقق الأخوة بين الجيل الأول بتعزيز أواصرها بالمحبة من جهة،وتحقق المساواة بينهم من جهة أخرى،حتى أن القادم إليهم لا يعرف من هو رسول الله ﷺ من بينهم،فعَنْ جَابِرِ بْنِ سُلَيْمٍ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَحْتَبِي بِشَمْلَةٍ قَدْ وَقَعَ هُدْبُهَا عَلَى قَدَمِهِ فَقُلْتُ:أَيُّكُمْ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى نَفْسِهِ ﷺ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَفِيَّ جَفَاؤُهُمْ فَأَوْصِنِي قَالَ:«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ،وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي،وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تَشْتُمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ،فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وِزْرُهُ،وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ،وَلَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا» فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ أَحَدًا وَلَا شَاةً وَلَا بَعِيرًا"[٦٣٢]

وكذا كان الخلفاء من بعده،فلا شارات،ولا ترتيبات،تميز بين أعضاء التنظيم،إلا ما كان من توقير وتقدير ورحمة،فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا،وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا»[٦٣٣]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا،وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا،وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»[٦٣٤]

فلا يتحدث صغير في السِّنِّ بحضور كبير إلا بإذنه،كما في الصحيحين عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ،قَالَ:انْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ،وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ زَيْدٍ،إِلَى خَيْبَرَ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صُلْحٌ،فَتَفَرَّقَا فَأَتَى مُحَيِّصَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ وَهُوَ يَتَشَمَّطُ فِي دَمِهِ قَتِيلًا،فَدَفَنَهُ ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ،فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ،وَمُحَيِّصَةُ،وَحُوَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ،فَقَالَ:«كَبِّرْ كَبِّرْ» وَهُوَ أَحْدَثُ الْقَوْمِ،فَسَكَتَ فَتَكَلَّمَا،فَقَالَ:«تَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ،أَوْ صَاحِبَكُمْ»،قَالُوا:وَكَيْفَ نَحْلِفُ وَلَمْ نَشْهَدْ وَلَمْ نَرَ؟ قَالَ:«فَتُبْرِيكُمْ

---

632 – الدعاء للطبراني (ص:٥٧٠)(٢٠٥٩) حسن

633 – الأدب المفرد مخرجا (ص:١٣٣)(٣٦٣) صحيح

634 – مكارم الأخلاق للطبراني (ص:٣٦٧)(١٤٧) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٤١٦)(٢٢٧٥٥) حسن

يَهُودُ بِخَمْسِينَ»،فَقَالُوا:كَيْفَ نَأْخُذُ أَيْمَانَ قَوْمٍ كُفَّارٍ،فَعَقَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِهِ "[635]أي اترك الحديث للأكبر منك سنا.

ولا يتحدث غير مختص في العلم أو الفن بحضور المختصين والعلماء فيه.

٤- وأن يتألف التنظيم الأمة على مشروعه،ويبث فيها دعاته،ويستقطب رجاله من أبطالها وأفذاذها وأذكيائها،ويستميل قلوبهم وعقولهم،وأن يسع دعاته الناس بأخلاقهم،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَلْيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وَجْهٍ،وَحُسْنُ خُلُقٍ.[636]

فلن تنجح دعوة اتخذت من الجدل سبيلا،ولا من الطعن في الآخرين دليلا،وإنما تنجح الدعوة حين تجعل المحبة حبلها الممدود بينها وبين الآخرين،وحين تتخذ من الدليل حجة لها على المخالفين،قال تعالى:{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [النحل:١٢٥].

وحين تعرف الأمة منها صدق الدعوة،وإخلاص القصد،وأنها إنما تناضل من أجلها،وفي سبيل دينها وحريتها وكرامتها،لا للعلو في الأرض للوصول إلى السلطة،والفساد فيها،أو الاستئثار بها عليها!(تستجيب لها)،قال تعالى:{ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص:٨٣]

٥- وأن يكون الدعاة في التنظيم الراشدي في تغلغلهم في المجتمع وبين فئاته كالماء الذي ينزل من السماء،ويجري في الأرض،وينبع منها،فيصل لكل أرض،ويشرب منه كل ظمآن،لا يستطيع أن يوقفه أحد،ولا أن يحول بينه وبين الأمة أحد،فلا تصده السدود،ولا

---

635 - صحيح البخاري (٤/ ١٠١)(٣١٧٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٩٤)٦ - (١٦٦٩)

[ش (يتشحط) يتخبط ويتمرغ ويضطرب. (تستحقون) يثبت حقكم عليه. (فتبرئكم) أي تبرأ إليكم من دعواكم. (بخمسين) يمينا يحلفونها. (فعقله) أدى ديته. (من عنده) من خالص ماله أو من بيت مال المسلمين المعد لمصالحهم العامة]

636 - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٣٨)(٢٥٨٤٢) والجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٥٩٨)(٤٩٩) وشعب الإيمان (١٠/ ٤٠٢)(٧٦٩٦) والتواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص:٢٣٩)(١٩٠) حسن لغيره

تحدُّ من حركته الحدود،حتى يروي كل سهل وجبل،ثم يبارك الله نباته وزرعه حيث شاء الله ظهوره!

٦- وعلى التنظيم في كل قطر أن يختار ما يناسبه من الأساليب،فقد يكون التنظيم الحزبي أوالتنظيم الافتراضي أنسب لبلد دون بلد،وقد يكون العمل السري أفضل في وقت دون آخر،وقد عرفت الدعوة النبوية في مكة التنظيم الافتراضي،حيث لا رابط بين الأعضاء إلا إيمانهم بالدين،والأخوة فيما بينهم،فكان كل من يسلم يكون جزءا من الدعوة وأهلها،وربما أسلم الرجل فيخرج إلى قبيلته وبلده يدعو إلى الإسلام واتباع النبي ﷺ،فتنتشر الدعوة،دون أي ارتباط تنظيمي بين من كانوا يسلمون في كل مكان قبل أن يروا النبي ﷺ أو يبايعوه،كما عرفت الدعوة النبوية التنظيم الحزبي حيث البيعة ودار ابن الأرقم والجماعة،ثم لما بايع الأنصار النبي ﷺ اختار منهم اثني عشر نقيبا عليهم،يمثلون من وراءهم من قومهم من الأوس والخزرج،فالتنظيم الحزبي هم العصابة الذين ورد الحديث بها،فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ،وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:«اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»،فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ،مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ،حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ،فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،وَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ،كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ"[٦٣٧]

وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى:{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

---

637 - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣)٥٨ - (١٧٦٣)

[المجادلة:٢٢]. وقوله تعالى:{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)} [المائدة:٥٥،٥٦].

وقد فرق القرآن في الأحكام بين المؤمنين المهاجرين والأنصار ومن يجاهد معهم في سبيل الإسلام،والمسلمين الذين لم يهاجروا و لم يجاهدوا،فليسوا سواء في الجهاد ولا في الإنفاق،فلم يكونوا سواء في الولاية وفي الاستحقاق {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [الحديد:١٠]!

كما دعا النبي ﷺ ثلاث سنين سرا[٦٣٨] حتى قويت الدعوة،واشتد عودها،وعرف المؤمنون فيها حقيقة رسالتهم ودعوتهم التي سيحملونها للعالمين،قبل أن يخرجوا للدعوة ومواجهة الجاهلية العالمية وطواغيتها!

٧- وأن يدرك التنظيم في كل بلد أنه قد يتعرض لفتنة وشدة،وأنه قد يضيق عليه ويحارب،وقد يحال بينه وبين الوصول للأمة في مساجدها ومحافلها،وهو ما فرضه العدو المحتل على الأمة من خلال حكوماته التي أقامها منذ سيطرته على شئونها قبل قرن،إلا إن ذلك كله هو سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل مع كل دعوة للإصلاح والتغيير،كما قال تعالى { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)} [العنكبوت:٢،٣].

بل إن الدعوات أحوج إلى الشدة لتمحيص صفوفها منها إلى الرخاء حيث يكثر الطامعون والمتسلقون والوصوليون { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [آل عمران:١٧٩]!

---

638 - انظر:السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص:٨٤)

" مَا كَانَ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبَادِهِ أَنْ يَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ امْتِحَانٍ وَتَمْحِيصٍ،لِيَظْهَرَ لَهُ الْمُؤْمِنُ الصَابِرُ،وَيَنْكَشِفَ الْمُنَافِقُ الفَاجِرُ،وَيَبِينَ وَلِيُّ اللهِ،وَيَفْتَضِحَ عَدُوُّهُ،فَامْتَحَنَهُمُ اللهُ يَوْمَ أُحُدٍ،فَظَهَرَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ،وَهَتَكَ أَسْتَارَ الْمُنَافِقِينَ،بِإِظْهَارِ مُخَالَفَتِهِمْ،وَنُكُولِهِمْ عَنِ الجِهَادِ،وَخِيَانَتِهِمْ لِلرَّسُولِ،فَعَرَفَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ،وَأَخَذُوا يَحْذَرُونَهُمْ. وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لاَ تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللهِ فِي خَلْقِهِ،وَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُطْلِعَ عَامَّةَ خَلْقِهِ عَلَى غَيْبِهِ. وَلِذَلِكَ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ وَسِيلَةٌ تُمَيِّزُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ،وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ،وَهَذِهِ الوَسِيلَةُ تَبْتَدِئُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ،فَيُؤْمِنُ مَنْ يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ،وَيَكْفُرُ مَنْ يَكْفُرُ،ثُمَ يَقُومُ الرُّسُلِ بِالجِهَادِ فَيَبْتَلِي الرُسُلُ أَصْحَابَهُمْ بِهِ،وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَتِمُّ أَمْرُ اللهِ وَيَتَمَيَّزُ الخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ،وَتَطْهَرُ القُلُوبُ وَالنُّفُوسُ. ثُمَّ يَدْعُو اللهُ تَعَالَى النَّاسَ إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرُسُلِهِ – وَمِنْهُمْ مُحَمَّدُ ﷺ – وَمَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ فَقَدْ آمَنَ بِالرُّسُلِ السَّابِقِينَ جَمِيعاً،لأَنَّهُ جَاءَ مُصَدِّقاً الرُّسُلَ السَّابِقِينَ."[٦٣٩]

" ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله – سبحانه – وليس من مقتضى ألوهيته،وليس من فعل سنته،أن يدع الصف المسلم مختلطا غير مميز يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان،ومظهر الإسلام،بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان،ومن روح الإسلام. فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدي دورا كونيا كبيرا،ولتحمل منهجا إلهيا عظيما،ولتنشئ في الأرض واقعا فريدا،ونظاما جديدا.. وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك،ويقتضي ألا يكون في الصف خلل،ولا في بنائه دخل.. وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الأرض وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة..

وكل هذا يقتضي أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث. وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة. وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر.. ومن ثم كان شأن الله – سبحانه – أن يميز الخبيث من الطيب،و لم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة! كذلك ما كان من شأن الله – سبحانه – أن يطلع البشر على

639 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٧٢،بترقيم الشاملة آليا)

الغيب،الذي استأثر به،فهم ليسوا مهيئين بطبيعتهم التي فطرهم عليها للاطلاع على الغيب،وجهازهم البشري الذي أعطاه الله لهم ليس «مصمما» على أساس استقبال هذا الغيب إلا بمقدار. وهو مصمم هكذا بحكمة. مصمم لأداء وظيفة الخلافة في الأرض.

وهي لا تحتاج للاطلاع على الغيب. ولو فتح الجهاز الإنساني على الغيب لتحطم. لأنه ليس معدا لاستقباله إلا بالمقدار الذي يصل روحه بخالقه،ويصل كيانه بكيان هذا الكون. وأبسط ما يقع له حين يعلم مصائره كلها،ألا يحرك يدا ولا رجلا في عمارة الأرض،أو أن يظل قلقا مشغولا بهذه المصائر،بحيث لا تبقى فيه بقية لعمارة الأرض! من أجل ذلك لم يكن من شأن الله سبحانه،ولا من مقتضى حكمته،ولا من مجرى سنته أن يطلع الناس على الغيب.

إذن كيف يميز الله الخبيث من الطيب؟ وكيف يحقق شأنه وسنته في تطهير الصف المسلم،وتجريده من الغبش،وتمحيصه من النفاق،وإعداده للدور الكوني العظيم،الذي أخرج الأمة المسلمة لتنهض به؟

«وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ».. وعن طريق الرسالة،وعن طريق الإيمان بها أو الكفر،وعن طريق جهاد الرسل في تحقيق مقتضى الرسالة،وعن طريق الابتلاء لأصحابهم في طريق الجهاد.. عن طريق هذا كله يتم شأن الله،وتتحقق سنته،ويميز الله الخبيث من الطيب،ويمحص القلوب،ويطهر النفوس.. ويكون من قدر الله ما يكون..وهكذا يرفع الستار عن جانب من حكمة الله،وهي تتحقق في الحياة وهكذا تستقر هذه الحقيقة على أرض صلبة مكشوفة منيرة.."[٦٤٠]

وقد كان النبي ﷺ يثبت أصحابه بقصص الأولين وتضحياتهم وصبرهم،كما فعل حين جاءه الصحابة في مكة يشتكون شدة ما يلقون من العذاب – كما في الصحيح عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ،قَالَ:شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ،قُلْنَا لَهُ:أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا،أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ:«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ،فَيُجْعَلُ فِيهِ،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَيُمْشَطُ

---

640 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٨٣٨) زيادة مني

بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ،حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ،أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[٦٤١]

كما قد تتعرض الدعوة لفتن الترغيب أشد من فتن الترهيب،فتتعرض لفتنة المشاركة في السلطة والثروة على حساب أهدافها الرئيسة،كما عرضت قريش على النبي ﷺ أن يسودوه حتى لا يقطعوا أمرا دونه على أن يتركهم وشأنهم وظلمهم وطواغيتهم!

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:قَالَ أَبُو جَهْلٍ وَالْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ لَقَدِ انْتَشَرَ عَلَيْنَا أَمْرُ مُحَمَّدٍ،فَلَوِ الْتَمَسْتُمْ رَجُلًا عَالِمًا بِالسِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَالشِّعْرِ،فَكَلَّمَهُ،ثُمَّ أَتَانَا بِبَيَانٍ مِنْ أَمْرِهِ،فَقَالَ عُتْبَةُ:لَقَدْ سَمِعْتُ بِقَوْلِ السَّحَرَةِ وَالْكِهَانَةِ وَالشِّعْرِ وَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ عِلْمًا،وَمَا يَخْفَى عَلَيَّ إِنْ كَانَ كَذَلِكَ،فَأَتَاهُ فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ لَهُ عُتْبَةُ:يَا مُحَمَّدُ،أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ هَاشِمٌ؟ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللَّهِ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ قَالَ:فِيمَ تَشْتُمُ آلِهَتَنَا،وَتُضَلِّلُ آبَاءَنَا،فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بِكَ الرِّئَاسَةُ عَقَدْنَا أَلْوِيَتَنَا لَكَ،فَكُنْتَ رَأْسَنَا مَا بَقِيتَ،وَإِنْ كَانَ بِكَ الْبَاءَةُ زَوَّجْنَاكَ عَشْرَ نِسْوَةٍ تَخْتَارُ مِنْ أَيِّ أَبْيَاتِ قُرَيْشٍ شِئْتَ،وَإِنْ كَانَ بِكَ الْمَالُ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا تَسْتَغْنِي بِهَا أَنْتَ وَعَقِبُكَ مِنْ بَعْدِكَ،وَرَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - سَاكِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ،فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ - فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ - أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ فَأَمْسَكَ عُتْبَةُ عَلَى فِيهِ وَنَاشَدَهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكُفَّ عَنْهُ،وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى أَهْلِهِ وَاحْتَبَسَ عَنْهُمْ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،وَاللَّهِ مَا نَرَى عُتْبَةَ إِلَّا قَدْ صَبَا إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَعْجَبَهُ طَعَامُهُ،وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ أَصَابَتْهُ،انْطَلِقُوا بِنَا إِلَيْهِ فَأَتَوْهُ،فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ:وَاللَّهِ يَا عُتْبَةُ،مَا حَسِبْنَا إِلَّا أَنَّكَ صَبَوْتَ إِلَى مُحَمَّدٍ،وَأَعْجَبَكَ أَمْرُهُ،فَإِنْ كَانَتْ بِكَ حَاجَةٌ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا يُغْنِيكَ عَنْ طَعَامِ مُحَمَّدٍ،فَغَضِبَ وَأَقْسَمَ بِاللَّهِ لَا يُكَلِّمُ مُحَمَّدًا أَبَدًا. قَالَ:وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا،وَلَكِنِّي أَتَيْتُهُ فَقَصَّ عَلَيْهِمُ

641 - صحيح البخاري (٤/ ٢٠١)(٣٦١٢)

[ش (متوسد بردة) جعلها وسادة له. (تستنصر) تطلب النصرة من الله تعالى. (ليتمن) من الإتمام والكمال. (هذا الأمر) وهو الإسلام. (تستعجلون) النتائج والثمرات]

الْقِصَّةَ:فَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ وَاللَّهِ مَا هُوَ بِسِحْرٍ وَلَا شِعْرٍ وَلَا كَهَانَةٍ قَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قَالَ يَحْيَى:كَذَا قَالَ يَعْقُلُونَ حَتَّى بَلَغَ،فَقَالَ:أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ فَأَمْسَكْتُ بِفِيهِ وَنَاشَدْتُهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكُفَّ،وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ،فَخِفْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَابُ "[642]

وقد سقطت كثير من الدعوات في هذه الفتنة حتى تخلت عن دينها ودعوتها وقضيتها،فصارت عونا للظالمين،بل ونصيرا للمحتلين،وظهيرا للمجرمين!

وقد حذر القرآن النبي ﷺ من أن يستخفه الذين لا يوقنون،أو يستفزه الذين لا يؤمنون،فقال تعالى:{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } [الروم:٦٠]

إنه الصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو أحيانا بلا نهاية! والثقة بوعد الله الحق،والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك.. الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين،ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد الله. ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين. فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين. مهما يطل هذا الطريق،ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم![643]

وقال تعالى:{وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) } [الإسراء]

---

642 – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٢/ ٢٠٣)حسن

643 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٣١) زيادة مني

" يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ تَأْييده لِرَسُوله الكَرِيم،وَعَنْ تَثْبيته إيَّاهُ،وَعصْمَته لَهُ مِنْ شَرِّ الأَشْرَار،وَكَيْد الفُجَّار،وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ المُتَوَلِّي أَمْرَهُ وَنَصْرَهُ،فَقَدْ حَاوَلَ المُشْرِكُونَ فِتْنَتَهُ عَمَّا أَوْحَى اللهُ إلَيْه،لِيَفْتَرِيَ عَلَى اللهِ غَيْرَهُ،وَهُوَ الصَّادقُ الأَمِينُ،فَقَدْ سَاوَمُوهُ عَلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ رَبَّهُ،مُقَابِلَ أَنْ يَتْرُكَ التَّنْديدَ بِآلِهَتِهِمْ،وَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ. وَسَاوَمُوهُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لِبَعْضِ كُبَرَائِهِمْ مَجْلساً غَيْرَ مَجْلسِ الفُقَرَاءِ،وَلَوْ أَنَّهُ رَضِيَ مُسَايَرَتِهِمْ فِيمَا أَرَادُوا لاتَّخَذُوهُ خَليلاً،وَلَكَفُّوا عَنْ إيذَائِه وَتَكْذِيبِه.

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى ثَبَّتَ رَسُولَهُ ﷺ،وَعَصَمَهُ عَنِ الانْحِرَافِ عَنِ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ. وَلَوْلاَ عِصْمَةُ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِه لَرَكَنَ إِلَى الكُفَّارِ بَعْضَ الشَّيءِ. وَالانْحِرَافُ الطَّفِيفُ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ يَنْتَهِي إِلَى الانْحِرَافِ الكَامِلِ فِي نِهَايَتِه.

وَلَوْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَكَنَ إِلى الكُفَّارِ،وَلَوْ قَليلاً،لَعَاقَبَهُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ الرُّكُونِ بِإِذَاقَتِه عَذَابَ الدُّنْيا،وَعَذَابَ الآخِرَةِ مُضَاعَفَيْنِ،وَبِإِفْقَادِه المُعِينَ وَالنَّصِيرَ. وَلأَنَّ الرَّسُولَ العَظِيمَ قُدْوَةٌ للمُؤْمِنِينَ يَقْتَدُونَ بِه،فَأَيُّ تَصَرُّفٍ مِنْهُ يُتَابِعُهُ المُؤْمِنُونَ عَلَيْه،وَيَتَّخِذُونَهُ سُنَّةً.

وَلَمَّا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ إِمْكَانِ اسْتِدْرَاجِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الانْحِرَافِ بِالدَّعْوَةِ عَمَّا أَوْحَى اللهُ بِه إِلَيْه،أَرَادُوا أَنْ يُزْعِجُوهُ،وَيَسْتَخِفُّوهُ (يَسْتَفِزُّونَكَ)،لِيُخْرِجُوهُ مِنْ مَكَّةَ (مِنَ الأَرْضِ)،فَضَيَّقُوا عَلَيْه،وَعَلَى بَنِي هَاشِمَ،وَأَلْجَؤُهُمْ إِلَى الشِّعَبِ ثَلاَثَ سِنِينَ. وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيْه أَنْ يَخْرُجَ مُهَاجِراً،لِمَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِه تَعَالَى أَنَّهُ لَنْ يُهْلِكَ قُرَيْشاً بِالإِبَادَة. وَلَوْ أَنَّ قُرَيْشاً أَخْرَجَتْ رَسُولَ اللهِ عَنْوَةً وَقَسْراً،لَحَلَّ بِهِمُ الهَلاَكُ (وَإِذَا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَ قَلِيلاً)."[٦٤٤]

فثبات الدعوة على عقيدتها وقضيتها،وعدم استعجالها للوصول إلى أهدافها،على حساب مبادئها،وعدم سهولة استفزازها من قبل أعدائها لقطع الطريق عليها،كل ذلك من أهم أسباب قوتها ونصرها.

644 – أيسر التفاسير – زيادة مني

وربما ارتد عن الدعوة من يرتد،وقد يبيع بعضهم دينه بعرض من الدنيا قليل،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ،يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا،أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا،يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[٦٤٥]

وقد ارتد عن الدعوة في مكة والمدينة وبعد وفاة النبي ﷺ أكثر ممن ثبت على الإيمان،فما زاد الإسلام إلا قوة،ولا زاد المؤمنين إلا عزيمة!

ولا يخش الدعاة إلى هذا المشروع الراشدي عدوهم وبأسه،فقد وعدهم الله بالنصر عليه،بل عليهم أن يخشوا من فساد ذات بينهم،وحظوظ نفوسهم،وتنافسهم على الدنيا وزخرفها،وقد حذر النبي ﷺ أمته – كما في عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ،وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ،وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ:بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ إِلَى البَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ البَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ العَلاَءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ،فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ،فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ،فَوَافَوْا صَلاَةَ الفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ،فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ،ثُمَّ قَالَ:«أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ» قَالُوا:أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ،فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ،وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا،وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[٦٤٦]

٨- كما على التنظيم الراشدي ألا يبخس المصلحين الآخرين حقهم،ولا يجحد سابقة جهادهم،وأن يتعاون معهم،فإن في الأمة طوائف لا تزال على الحق حتى في حال الاستضعاف والاغتراب وشيوع الجاهلية العالمية وهم:

---

645 – صحيح مسلم (١/ ١١٠)١٨٦ – (١١٨)

[ش (بادروا بالأعمال فتنا) معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر]

646 – صحيح البخاري (٥/ ٨٥)(٤٠١٥) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣)٦ – (٢٩٦١)

أولا:المجاهدون في سبيل الله – فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ،حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَّالَ»[٦٤٧]

ثانيا:المجددون لدين الله – كما في سنن أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[٦٤٨] ويدخل في ذلك كل من أسهم في تجديد الدين من العلماء المجددين،والدعاة المصلحين،أفرادا كانوا أو جماعات..

ثالثا:المصلحون – كما في صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ،وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ،كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»[٦٤٩]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا،وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»،قِيلَ:مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»[٦٥٠]

وقال أَبُو الدَّرْدَاءِ،وَأَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ،وَوَاثِلَةُ بْنُ الْأَسْقَعِ –:خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا،وَسَيَعُودُ غَرِيبًا،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ:«الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ،وَلَا يُمَارُونَ فِي دِينِ اللَّهِ،وَلَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ»[٦٥١]

وعن كَثِيرَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الدِّينَ لَيَأْزِرُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْزِرُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا،وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الْأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ

---

647 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٩٧)(٨٣٩١) صحيح

648 – سنن أبي داود (٣/ ٤)(٤٢٩١) صحيح

649 – صحيح مسلم (١/ ١٣١)(١٤٦) [ش (يأرز) أي ينضم ويجتمع]

650 – السنن الواردة في الفتن للداني (٣/ ٦٣٣)(٢٨٨) حسن

651 – الزهد الكبير للبيهقي (ص:١١٤)(١٩٩) ضعيف

الْجَبَلِ،إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا،فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»[٦٥٢]

فيدخل في عمومهم كل مصلح سياسي،أو زعيم إصلاحي يعمل من أجل إصلاح حال الأمة وعودتها لقوتها وعزتها ودينها.

رابعا:العابدون والزاهدون والأبدال الصالحون وأهل الطاعة والخير الذين يذكرون الأمة بربها ودينها -كما في صحيح ابن عن بَكْرَ بْنِ زُرْعَةَ الْخَوْلَانِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيَّ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،مِمَّنْ صَلَّى لِلْقِبْلَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا وَأَكَلَ الدَّمَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«لَا يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ بِغَرْسٍ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ».[٦٥٣]

فالواجب على التنظيم الراشدي أن يكون لهؤلاء جميعا ردءا وظهيرا،ومؤيدا لهم ونصيرا،كما قال تعالى:{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [آل عمران:١٠٣]،{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢]..

٩- أن يجعل التنظيم من مشروع «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[٦٥٤] عقيدة ودينا ومنهجا ودعوة يؤمن بها كل عضو فيه،ويتثقف فيها،ويدعو إليها،ويحيا عليها،وأن توضع له المقررات والدورات لتدارس سيرة النبي ﷺ،في إقامة الدولة،وسيرة خلفائه الراشدين،ودراسة سننهم في إقامة الخلافة،وباب سياسة الأمة،ومعرفة هديهم وسمتهم للاقتداء بهم،وتدارس أحكام الخلافة الشرعية،وتاريخ الخلافة ومراحلها،وما طرأ عليها من تراجعات،وما جرى لها من تطورات،وما أصاب الأمة بعد سقوطها،حتى يتحول مشروع نحو (**أمة واحدة وخلافة راشدة**) مشروعا للأحرار في الأمة

652 - المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ١٦)(١١) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٨)(٢٦٣٠) حسن لغيره

653 - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٣٢)(٣٢٦) حسن

654 - السنة للمروزي (ص:٢٧)(٧٢) صحيح

كلها،تحشد له الطاقات،وتوظف له الخبرات،وتوقف عليه الأموال،وينظم له الرجال،حتى لا يمضي عقد أو عقدين من السنين إلا وقد قامت (حكومة أو حكومات راشدة)،تكون قاعدة لمشروع (**الخلافة الراشدة**)..

عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ،أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ» [655]

١٠- أن يكون التنظيم على مستوى المسئولية التاريخية التي تصدى لها،فيجمع ولا يفرق،ويبشر ولا ينفر،وييسر ولا يعسر،وأن يحيط علما بالعصر وتطوره،وكيفية مواكبته،واستيعاب حضارته وتقدمه سياسيا واقتصاديا ومعرفيا،وأن يختار للقيادة أفذاذ الرجال،علما وخلقا وعزما وذكاء،وأن ينتقيهم كما ينتقى التمر،ويختبرهم كما يختبر الذهب،فإنما أوتي العمل الإسلامي من بعض قياداته،فسقطت وسقط معها مشروعها،وإن أشد ما في الإصلاح السياسي خطورة تداخل العامل الاجتماعي بالسياسي،فللمجتمعات ونظمها الاجتماعية قواعدها وأصولها التي تستعصي على من أراد تجاهلها،فليس كل فئة تستطيع قيادة المجتمع،أو يتقبل المجتمع قيادتها مهما اجتمع لها من الصفات،فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة،ففي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ،فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا،وَتَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ

655 - مسند أبي داود الطيالسي (١/ ٣٤٩)(٤٣٩) صحيح

فِي هَذَا الْأَمْرِ،أَكْرَهُهُمْ لَهُ،قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ،وَتَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ،الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ»[٦٥٦]

وأكرم معادن العرب آل البيت النبوي الشريف وبنو هاشم وقريش،ثم العرب على معادنهم ففي كل قبيلة معادنها من الذهب والفضة،وفي كل الأمم من غير العرب معادنها من الذهب والفضة،ولبعض الفئات من القبول ما ليس لغيرهم،وفي بعضهم من القوة والحمية والأنفة ما ليس في غيرهم،وربما وجد هذا التفاوت في القبيلة الواحدة،وفي الأسرة الواحدة،وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء،كما فاضل الله بينهم في الأرزاق فاضل بينهم في الأخلاق والأعراق،فيجب مراعاة ذلك كله،فإن الإنسان يرجع إلى معدنه وطبعه،وربما ثبت الإنسان على موقفه مروءة وحفاظا على شرفه أكثر مما يقفه طاعة وحفاظا على دينه،فقد يجد في الدين رخصة عند الإكراه رحمة وتخفيفا وتيسيرا،ولا يجدها في قاموس الشرف وناموس المجد![٦٥٧]

656 – صحيح البخاري (٤/ ١٤٠)(٣٣٥٣) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٥٨)١٩٩ – (٢٥٢٦) واللفظ له

[ش (معادن) المعادن الأصول وإذا كانت الأصول شريفة كانت الفروع كذلك غالبا والفضيلة في الإسلام بالتقوى لكن إذا انضم إليها شرف النسب ازدادت فضلا (وتجدون من خير الناس في هذا الأمر الخ) قال القاضي يحتمل أن المراد به الإسلام كما كان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وغيرهم من مسلمة الفتح وغيرهم ممن كان يكره الإسلام كراهية شديدة ثم دخل فيه أخلص وأحبه وجاهد فيه حق جهاده قال ويحتمل أن المراد بالأمر هنا الولايات لأنه إذا أعطيها من غير مسألة أعين عليها (من شرار الناس) سببه ظاهر لأنه نفاق محض وكذب وخداع وتحيل على اطلاعه على أسرار الطائفتين وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها ويظهر لها أنه منها في خير أو شر وهي مداهنة محرمة]

657 – http://www.dr-hakem.com/

http://www.dr-hakem.com/Portals/Content/?info=TmpVNUpsTjFZbEJoWjJVbURPT١٠rdQ==.jsp

المبحث العشرون

الأجوبة الفقهية الدستورية عن الأسئلة الليبية والسورية

فهذه رسائل وأسئلة وردت إلي مؤخرا من بعض شباب الثورة الليبية والسورية رأيت جمعها في رسالة واحدة،والإجابة عنها على سبيل الإيجاز:

الرسالة الليبية وجوابها:السلام عليكم فضيلة الدكتور..

١- مع وجود التعددية إلى أي حد تكون الحريات للأحزاب مثل العلمانية ونحوها في ظل دولة مصدر دستورها الوحيد الكتاب والسنة ؟

٢- ما حكم التداول على السلطة؟

أخوكم من ليبيا بارك الله فيكم...

المطلب الأول

هل يجوز السماح بأحزاب مخالفة للإسلام في بلاد الإسلام ؟

وعليكم السلام ورحمة الله..

وحياكم الله وسددكم ونصركم...

تجد الجواب مفصلا في كتابي (نحو وعي سياسي راشد) ومقالتي عن (الثورة ونظام الحكم الراشد)،والتعددية تعني فتح الطريق للتنافس بين عدد من المرشحين أو بين الأحزاب السياسية ببرامجها للوصول إلى السلطة،ولا يمكن قيام حكم راشد في الدولة المعاصرة يقيم الشورى بلا تعددية،إذ المقابل للتعددية هي الأنظمة الشمولية والاستبداد – أسرية كانت هذه الأنظمة أو عسكرية أو نظام الحزب الواحد - وإنما التعددية هنا هي تعددية سياسية في إطار النظام العام للدولة ودستورها الذي يجب أن يعبر عن إرادة الأمة وخيارها،فدين الدولة وهو الإسلام يمنع من قيام حزب سياسي يريد تقويض النظام العام للدولة،كما في كل الأنظمة السياسية،فلا بد أن يلتزم أي حزب سياسي بالنظام العام الذي ارتضته الأمة،وهو أمر بدهي،هذا إذا كانت الشوكة للأمة،وإرادتها نافذة،أما في ظل عجزها عن

فرض إرادتها وخيارها،فالأمر يختلف،ويعمل المصلحون وفق الممكن للمستقبل لهم وللأمة معهم،فان بقاء الشعب ووحدته ودولته أصل يجب المحافظة عليه،فإذا زالا لم يبق مكان يقام فيه الدين وأحكامه أصلا،فالمحافظة على ذلك مقصود للشارع،مع العمل من أجل الإصلاح حتى تكون القوة للأمة..

الرسالة السورية وجوابها:

الدكتور حاكم المطيري...

حفظكم الله...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

كما تعلم فإن الوقت الآن وقت هدم للباطل في دول طالما عاشت في كنف الاستبداد،ومرحلة بناء دولة طالما انتظرها العرب،ولكن نحن كمسلمين،وكأصحاب توجه إسلامي،أحيانا كثيرة نستشكل عدة أمور في شكل الدولة والإشكالات الشرعية حولها..

هل يسمح لنا استأذنا الدكتور حاكم المطيري لو طرحنا بضع أسئلة مفصلة حول ذلك؟ وإن أحب الشيخ نتمنى أن تكون كمقابلة مكتوبة لتنشر ويستفيد منها عدد أكبر..

الأسئلة هي:

١- نحن كمسلمين ما هي النية التي نعمل من خلالها في هدم أركان الظلم والاستبداد وبناء دولة جديدة؟ هل يعد سعينا لإزالة الظلم والوصول للحرية والكرامة مطلباً دنيوياً فقط؟ أم إننا يجب أن نسعى في هذا لإعلاء كلمة الله والمساهمة في إزالة نظام طالما حارب الدعوة في بلاد الشام لنحصل على الأجر والمثوبة؟

٢- ما هي الدولة المدنية الديمقراطية التعددية؟

٣- ما هي الدولة التي نطالب فيها نحن كمسلمين بالسعي لها والتي تطبق شرع الله؟

٤- كيف نساوي بين المواطنة والتي تساوي بين المواطنين وأن أي مواطن مهما كان دينه له الحق في أن يصبح رئيسا للبلاد،وبين منع تولي غير المسلم للمسلم؟ وكنت قد قرأت

مقالا سابقا للدكتور..... يقول بأن هذا لا يضر لأن الحاكم في الدول الديمقراطية البرلمانية هو البرلمان والذي في أغلبه سيكون مسلمين بناء على اختيار الشعب؟

٥- هل سعينا لدولة مدنية ديمقراطية تعددية يعد محرم شرعا؟

المطلب الثاني

يشترط في أفعال المكلف حالة الاختيار عدم مخالفتها للشرع وما سوى ذلك فجائز

الإجابة..

ج١:يشترط في أفعال المكلف كلها في حال السعة والاختيار عدم مخالفتها لحكم الله ورسوله لقوله تعالى {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [البقرة:٢٢٩]،{وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } [النساء:١٤].

وجاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ،وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٦٥٨]

فكل ما ليس ممنوعا شرعا فلا حرج على المكلف فيه،فيدخل في ذلك المباح بكل صوره سواء كانت إباحة عادية أو عقلية أو شرعية،ويدخل فيه أيضا المشروع سواء كان واجبا أو مستحبا،وأما في حال الاضطرار فلا حرج على المضطر في فعل المحظور سواء كان مكروها عند الحاجة،أو محرما عند الضرورة لقوله تعالى:{وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ } [الأنعام:١١٩].

وأما النيات فأثرها محصور في ترتب الثواب على الفعل لا في إثبات مشروعيته ذاتها،فقد يكون الفعل مباحا فيثاب الفاعل له على نيته إذا قصد الاستعانة بالمباح على الطاعة،وقد يكون الفعل عبادة واجبة فيفعلها المكلف لا طاعة لله بل رياء وسمعة،فلا يؤجر على فعله،بل قد يعاقب،لحديث عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ،وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى،فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا،أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا،فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[٦٥٩]

---

658 – صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٨) وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٥)٤١٢ – (١٣٣٧)

659 – صحيح البخاري (١/ ٦)(١)

فالواجب النظر إلى الفعل نفسه هل هو مشرع في حد ذاته أم غير مشروع،ولا شك بأن دفع الظلم بكل صوره مما أمر الله عز وجل وأذن به كما قال تعالى:{ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)} [الشورى:٣٩ - ٤٢].

وجاء في الصحيح عنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:" أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺبِسَبْعٍ،وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ:أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ الجَنَائِزِ،وَعِيَادَةِ المَرِيضِ،وَإِجَابَةِ الدَّاعِي،وَنَصْرِ المَظْلُومِ،وَإِبْرَارِ القَسَمِ،وَرَدِّ السَّلاَمِ،وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ.."[٦٦٠]

فدفع الظلم عن النفس وعن الغير لا يخرج عن كونه واجبا أو مستحبا أو مباحا بحسب نوع الظلم وحجم ضرره على النفس،ولهذا تواتر تواترا معنويا حديث عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِه فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِه،فَهُوَ شَهِيدٌ»[٦٦١]

والمال والحق والعرض والدم كلها أمور دنيوية ومع ذلك هي من الضرورات الخمس التي جاء الشريعة لحفظها ورعايتها،فمن قاتل دونها فقد فعل ما وجب عليه،أو ما استحب له بلا خلاف،ولا يحرم عليه الدفاع عن حقه بدعوى أنه يقاتل للدنيا لا للدين،فهذا من الباطل الذي لا يشك عاقل فضلا عن عالم ببطلانه،وقد فصلت القول في ذلك في مقال (أحكام الشهداء)،ومقال (شهداء الثورة العربية بين جرائم الطغاة وفتنة الدعاة)[٦٦٢]..

ولا يشترط لدفع الظلم عن النفس وعن الغير استحضار النية،إذ ليس هو من العبادات التي يشترط لها النية لتمييزها عن العادات،ولا لاستحضار معنى العبودية الخالصة لله أثناء أدائها،بل المطلوب هنا دفع الضرر عن النفس وهو أمر جبلي غريزي،فمجرد القيام بدفع الظلم وإزالة الضرر يتحقق المقصود شرعا،فإن قتل المظلوم حينها فهو شهيد – كما

660 – صحيح البخاري (٢/ ٧١)(١٢٣٩)

661 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٤)(٣٥٤٣) صحيح

662 – هي في المنتدى بتحقيقي

فصلناه في مقال أحكام الشهداء – فإن استحضر أثناء قيامه بدفع الظلم نية إعلاء كلمة الله فقتل،فهو في سبيل الله،وهي أعلى صور الشهادة وأشرفها،عَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ الرَّجُلُ:يُقَاتِلُ حَمِيَّةً،وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً،وَيُقَاتِلُ رِيَاءً،فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[٦٦٣]

فكل مسلم جاهد لدفع الظلم عن نفسه أو عن غيره من المستضعفين والمظلومين من المسلمين أو غير المسلمين فقتل فهو شهيد وفي سبيل الله {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } [النساء:٧٥]،.

وقد جاء في الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلَا تَظَالَمُوا.."[٦٦٤]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ مُعَاذًا،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[٦٦٥]

وهذا عام سواء كان المظلوم مسلما أو غير المسلم،ويزداد الأمر وجوبا في الدفع عن المظلوم إذا كانت بين المدافع والمظلوم رابطة دم ورحم،أو رابطة مجاورة ووطن،كما في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء:١].

---

663 – صحيح البخاري (٩/ ١٣٦)(٧٤٥٨)

664 – صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)٥٥ – (٢٥٧٧)

665 – صحيح مسلم (١/ ٥٠)٢٩ – (١٩)

وقال:{ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } [النساء:٣٦].

فأمر الله بالإحسان إلى الخلق جميعا،وخص هؤلاء للقرابة والحاجة،دون نظر إلى جنسهم ودينهم..

والمقصود أن كل من قام بالدفاع عن حقه ورفع الظلم عن نفسه أو عن غيره فقد قام بالواجب والمشروع،وهو مأجور على ذلك إن قام استجابة للأمر الشرعي بدفع الظلم،خاصة ظلم السلطة،ويكون بذلك مجاهدا،فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺوَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٦٦٦]

فإن قتل فهو شهيد،عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[٦٦٧]

فإن نوى ما هو أبعد من دفع الظلم وتحقيق العدل،وقصد أن تكون كلمة الله هي العليا،وأن يظهر الإسلام ويحكم في الأرض،فهذا أعلى أنواع الجهاد،وأشرف صور الشهادة!

---

666 – سنن النسائي (٧/ ١٦١)(٤٢٠٩) صحيح

667 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

المطلب الثالث

تحرير المصطلحات مطلوب شرعا وجوهر الديمقراطية لا يخالف الإسلام

ج٢:هذه الألفاظ (الدولة المدنية والديمقراطية والتعددية) ألفاظ مجملة لا يترتب عليها حكم قبل البيان،وإنما يترتب الحكم الشرعي على حقائقها بعد تحديد المراد منها،حتى لا يرد ما فيها من الحق،ولا يقبل ما فيها من الباطل!

فالدولة المدنية تقابل في ثقافة الغرب المسيحي الدولة الدينية (الثيوقراطية) وهو حكم رجال الدين،التي عاشته أوربا قرونا طويلة،ويتم الحكم فيها من قبل الملوك بمباركة البابا وتفويضه لهم باسم الله،حيث تحالفت الكنيسة مع السلطة وشاع الطغيان الديني والسياسي،وكانت الضحية هي الشعوب الأوربية،حتى جاءت الثورة الفرنسية وفصلت الدين عن الدولة،بنظام الدولة المدنية التي لا تخضع لسلطة رجال الدين!

وهذا المعنى غير معروف في تاريخ الإسلام،بل الإسلام جاء لهدم هذه الدولة التي يكون رجال الدين فيها أربابا من دون الله {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [التوبة:٣١].

وأبطل الإسلام كل صور الإكراه { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦].

وجاء بالحكم المدني السياسي { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨]،{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩]،.

وكان أول دستور مدني عرفه العالم هو صحيفة المدينة التي كتبها النبي ﷺ حين دخل يثرب فصارت (المدينة) للإعلان عن قيام دولة المدينة والمدنية،ودولة العلم والحضارة الإنسانية،على أنقاض يثرب وجاهليتها وعصبيتها،وعلى أنقاض مكة الجاهلية وطبقيتها وكهنوتها الديني!

فقد جاء الإسلام بنظام سياسي راشد واضح المعالم،راسخ الأصول،قطعي الأحكام،وجعل وجود الدولة للإسلام إحدى ضروراته التي لا ظهور له إلا بها،عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:تَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبِنَاءِ فِي زَمَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ عُمَرُ:«يَا مَعْشَرَ الْعُرَيْبِ،الْأَرْضَ الْأَرْضَ،إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ،وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ،وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ،فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الْفِقْهِ،كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ،وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ،كَانَ هَلَاكًا لَهُ وَلَهُمْ»[٦٦٨]

وهو ما يفسر بداية التاريخ الإسلامي بالهجرة النبوية وقيام دولة الإسلام في المدينة،على أساس علاقة تعاقدية بين السلطة السياسية والمجتمع كما في بيعة العقبة الثانية،ثم على أساس الوثيقة السياسية التي كتبها النبي ﷺ بعد الهجرة مباشرة في صحيفة المدينة،فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّهُ قَالَ:بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺكَتَبَ بِهَذَا الْكِتَابِ:«هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَهْلِ يَثْرِبَ،وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ،فَحَلَّ مَعَهُمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ،أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ. الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ [ص:٤٦٧] عَلَى رِبَاعَتِهِمْ،يَتَعَاقَلُونَ بَيْنَهُمْ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَهُمْ يَفْدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رِبْعَاتِهِمْ،يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو الْخَزْرَجِ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو سَاعِدَةَ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو جُشَمٍ وَالنَّجَا عَلَى رِبَاعَتِهِمْ،يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو النَّجَّارِ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو النَّبِيتِ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو أَوْسٍ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ

668 – سنن الدارمي (١/ ٣١٥)(٢٥٧) (جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٦٣) (٣٢٦) فيه ضعف

يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ [ص:٤٦٨] مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا مِنْهُمْ،أَنْ يُعِينُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ،وَلَا يُحَالِفُ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ،وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ،أَوِ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعِهِمْ وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ لَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ،وَلَا يُنْصَرُ كَافِرٌ عَلَى مُؤْمِنٍ،وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ،وَأَنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنَ الْيَهُودِ،فَإِنَّ لَهُ الْمَعْرُوفَ وَالْأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرٍ عَلَيْهِمْ،وَأَنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدٌ،وَلَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدَلٍ بَيْنَهُمْ،وَأَنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ،وَأَنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ،وَلَا يُعِينُهَا عَلَى مُؤْمِنٍ،وَأَنَّهُ مَنِ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ قَوَدٌ،إِلَّا أَنْ يُرْضِيَ وَلِيَّ الْمَقْتُولِ بِالْعَقْلِ،وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةً،وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،أَوْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيَهُ،فَمَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ [ص:٤٦٩] اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ،وَأَنَّكُمْ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ حُكْمَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ،وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ،وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ دِينُهُمْ،وَمَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ،إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ الْأَوْسِ مِثْلَ ذَلِكَ،إِلَّا مَنْ ظَلَمَ،فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ،وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ،عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتُهُمْ،وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتُهُمْ،وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،وَأَنَّ بَيْنَكُمُ النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالنَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ،وَأَنَّ الْمَدِينَةَ جَوْفُهَا حَرَمٌ لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوِ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ،فَإِنَّ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ،وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ،وَأَنَّهُمْ إِذَا دَعَوُا الْيَهُودَ إِلَى صُلْحٍ حَلِيفٍ لَهُمْ بِالْأُسْوَةِ فَأَنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ [ص:٤٧٠] وَإِنْ دَعَوْنَا إِلَى

مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،إِلَّا مَنْ حَارَبَ الدِّينَ،وَعَلَى كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتَهُمْ مِنَ النَّفَقَةِ،وَأَنَّ يَهُودَ الْأَوْسِ وَمَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ مَعَ الْبِرِّ الْمُحْسِنِ مِنْهُمْ،مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَنَّ بَنِي الشُّطْبَةِ بَطْنٌ مِنْ جَفْنَةَ،وَأَنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ،وَلَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ،وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ،لَا يُحَوَّلُ الْكِتَابُ عَنْ ظَالِمٍ وَلَا آثِمٍ،وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ،وَمَنْ قَعَدَ بِالْمَدِينَةِ أُمِّنَ أَبَرَّ الْأَمْنِ،إِلَّا ظَالِمًا وَآثِمًا،وَأَنَّ أَوْلَاهُمُ بِهَذِهِ الصَّحِيفَةِ الْبَرُّ الْمُحْسِنُ»[669]

وقد تضمنت كل المبادئ الدستورية التي تنظم علاقة السلطة بالمجتمع ومن ذلك:

١- التأكيد على الطبيعة التعاقدية بين كل مكونات المجتمع الجديد على اختلاف فئاتهم وأديانهم،قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،وَادَعَ فِيهِ يَهُودَ وَعَاهَدَهُمْ،وأقرَّهم عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،وَشَرَطَ لَهُمْ،وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ.."[670]

٢- وقيام العلاقة على أساس مفهوم الأمة الواحدة والشعب الواحد،لا فرق بين مواطن ومهاجر،في حقوق المواطنة (هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ -ﷺ- بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ،وَمَنْ تَبِعَهُمْ،فَلَحِقَ بِهِمْ،وَجَاهَدَ مَعَهُمْ،إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ.

٣- وتقرير مبدأ حقوق المواطنة للجميع،فلا فرق بين مسلم وغير مسلم،بل الجميع أسوة وسواء بالمعروف والعدل (وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسْوَةَ،غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ... وَإِنَّ يهودَ بَنِي عَوْف أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ،وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ،إِلَّا مَنْ ظَلَم وأثم،فَإِنَّهُ لَا يُوتغِلًّا نفسَه،وأهلَ بَيْتِه.. وَإِنَّ بَيْنَهُمْ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. وَإِنَّ بَيْنَهُمْ النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ،وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ،وَإِنَّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ،وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ،وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ،)،وفي رواية أبي عبيد في كتاب الأموال عن مغازي الزهري (وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ دِينُهُمْ،وَمَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ،إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يَوْتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ،)،قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام (إِنَّمَا أَرَادَ نَصْرَهُمُ

669 - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٦٩)(٧٥٠) صحيح لغيره وهذا صحيح مرسل

670 - سيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد (٢/ ١٠٦)

الْمُؤْمِنِينَ،وَمُعَاوَنَتَهُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ،بِالنَّفَقَةِ الَّتِي شَرَطَهَا عَلَيْهِمْ،فَأَمَّا الدَّيْنُ فَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ،أَلَا تَرَاهُ قَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ فَقَالَ:«لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ،وَلِلْمُؤْمِنِينَ دِينُهُمْ»).

فالمراد هنا إثبات أن يهود المدينة أمة مع المؤمنين،وأمة من المؤمنين في المواطنة في الدولة،وفي الحقوق والواجبات السياسية العامة،لا في الدين حيث لكل أمة دينها،ولا إكراه في الدين،وقد قامت هذه الضريبة والالتزامات المالية والقتالية الطوعية من اليهود بناء على هذا التعاقد السياسي تجاه دولة المدينة في تقرير حقوق المواطنة لهم،ولهذا لم تفرض عليهم الجزية،وكان يسهم لهم في المغانم،كما قال أبو عبيد في كتاب الأموال (وَنَرَى أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يُسْهِمُ لِلْيَهُودِ إِذَا غَزَوْا مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِهَذَا الشَّرْطِ الَّذِي شَرَطَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّفَقَةِ)..

٤- وإقرار الحرية الدينية للجميع (لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ،).

٥- وقيام مكونات المجتمع بمسئولياتها بالتعاون فيما بينها بالمعروف على أساس العدل والقسط (كُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،)،وعلى الالتزام المالي تجاه الدولة (وَعَلَى كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنَ النَّفَقَةِ)...

٦- وتحقيق التكافل المالي والعدالة الاجتماعية بين الجميع (وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا مِنْهُمْ أَنْ يُعِينُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ).

٧- وقيام المجتمع بدوره السياسي في المحافظة على النظام العام،وصيانة وحدة المجتمع،والتصدي للظلم والفساد والعدوان (وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوِ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعِهِمْ،وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ،).

٨- وحق الجميع في العدل والأمن (وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصِيحَةَ وَالنَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ.. وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ).

٩- وحق المساواة في الذمة والمسئولية (وَإِنّ ذِمّةَ اللهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ).

١٠- وتنفيذ النظام والأحكام على الجميع (وَإِنّهُ لَا يَحِلّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرّ بِمَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَآمَنَ بِاَللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا،وَلَا يُؤْوِيه وَأَنّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ) قال أبو عبيد (الْمُحْدِثُ:كُلُّ مَنْ أَتَى

حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ،فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مَنْعُهُ مِنْ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ،وَهَذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ الْآخَرِ «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ،فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ»).

١١- وأن المرجعية التشريعية للحكم هو الشريعة (وَأَنَّكُمْ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ حُكْمَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ..).

١٢- وأن المرجعية السياسية للفصل بين الخلافات والتراعات هي السلطة السياسية (وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوِ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ،فَإِنَّ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ،)..

فهذه بعض المبادئ الدستورية التي نظمت شئون المجتمع والدولة في المدينة،وهي قائمة على أساس العقد والشرط بين مكونات المجتمع الجديد،وهو عقد سياسي مدني،لا سلطة فيه لرجال الدين،ولا كهنوت فيه،ولا انتهاك لحق ديني أو إنساني أو مالي،فالعدل للجميع،والأمن للجميع،والحرية الدينية للجميع،وحقوق المواطنة للجميع.

وهذا غاية البر والقسط والعدل لقول الله تعالى { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الممتحنة:٨]..

الدولة الإسلامية ليست دولة دينية بالمفهوم الغربي

وعليه لا يمكن وصف الدولة في الإسلام بأنها دولة دينية (ثيوقراطية) بالمفهوم الغربي المسيحي،التي يحكمها رجال الدين،ولا دولة (مدنية) بالمفهوم الغربي العلماني الفرنسي،الذي يفصل الدين عن الحياة السياسية،بل هي دولة مدنية،فالمرجعية السياسية فيها للأمة،حيث تنتخب الأمة فيها السلطة بالشورى والاختيار،لا بالتفويض الإلهي،ولا بواسطة رجال الدين،وهي كذلك دولة قائمة على مرجعية الإسلام الدستورية والتشريعية،فهي دولة مدنية سياسيا،وإسلامية تشريعيا،فالأمة مصدر السلطات الثلاث (السلطة السياسية التنفيذية،والسلطة الرقابية والتنظيمية،والسلطة القضائية)،والإسلام هو مصدر التشريع الأعلى،والمرجع القانوني الأسمى.

والسبب الذي جعل النبي ﷺ يضع دستور المدينة أول دخوله إليها،هو كونه كما وصفه الله ليس بجبار،ولا ملك،ولا مسيطر،{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ } [الغاشية:٢٢]،{وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ } [ق:٤٥]،والجبار هو الملك،وقد بايعه أهل المدينة المؤمنون به في العقبة الثانية على عقد سياسي،عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺعَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ،وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ،وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا،لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»[٦٧١]

وعَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،وَهُوَ مَرِيضٌ،قُلْنَا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ،حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ،سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺفَبَايَعْنَاهُ،فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا،عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٦٧٢]

فكانت العلاقة السياسية التي قامت بناء عليها دولة المدينة،علاقة تعاقدية بين الأمة من المؤمنين من جهة،والسلطة والإمام من جهة أخرى،لا تنازع فيها للأمر والسلطة،بل هو شورى،كما لا يغيب دور الأمة ومسئوليتها بعد العقد للسلطة وبيعتها على السمع والطاعة،بل تظل الأمة قائمة بالحق لا تخاف في الله لومة لائم،وهذه العلاقة قائمة مع السلطة ما لم تخرج عن الشريعة والعدل والقسط الذي جاءت به،فإن خرجت فلا سمع لها ولا طاعة..

---

671 – اصحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧١٩٩) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤١ – (١٧٠٩)

672 – صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥،٧٠٥٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ – (١٧٠٩)

[ش (أصلحك الله) كلمة اعتادوا أن يقولوها عند الطلب أو المراد الدعاء له بإصلاح جسمه ليعافى من مرضه. (أخذ علينا) اشترط علينا. (على السمع والطاعة) لله تعالى ورسوله ﷺ. (منشطنا) حالة نشاطنا. (مكرهنا) في الأشياء التي نكرهها وتشق علينا. (أثرة علينا) استئثار الأمراء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم أي ولو منعنا حقوقنا. (الأمر) الملك والإمارة. (كفرا) منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فتكون المنازعة بالإنكار عليهم. أو كفرا ظاهرا فينازعون بالقتال والخروج عليهم وخلعهم. (بواحا) ظاهرا وباديا. (برهان) نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل]

فلما دخل النبي ﷺ المدينة وجد مكونات اجتماعية أخرى، لم تؤمن به و لم تبايعه بالرضا والاختيار على السمع والطاعة،وليس هو بجبار ولا مسيطر سياسيا،ولا إكراه في الدين عقائديا،فكان لا بد وفق هدايات القرآن الذي جاء بالعدل والقسط أن تقوم العلاقة مع هذه المكونات التي لا تؤمن به نبيا على أساس عقد تراض سياسي،تحدد بموجبه الحقوق والواجبات،والمرجعية السياسية والتشريعية في الدولة الجديدة،فكانت صحيفة المدينة ودستورها الذي نشأت العلاقة فيه على أساس المواطنة للدولة والالتزام بدستورها وعقدها السياسي،لا على أساس الإيمان بالنبي ﷺ،وهذا غاية العدل والقسط الذي أراده الله {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد:٢٥]..

فهذا بخصوص مفهوم (الدولة المدنية)،فلا حرج في استعماله بالمعنى الصحيح،وهو أن الأمة هي التي تختار السلطة بالشورى لا بالتفويض الإلهي.

وكذلك مصطلح (الديمقراطية)،ليس له مفهوم واحد محدد،بل له معان عدة،فأصل الكلمة تعني (حكم الشعب للشعب)،بمعنى أن الشعب هو الذي يختار السلطة،وهذا المعنى صحيح شرعا في الإسلام،فالأمة هي التي تختار السلطة،وعلى هذا أجمع الصحابة كما قرر ذلك عمر في آخر خطبة له في صحيح البخاري عن عمر قال:مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلاَ يُبَايَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ "[673]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،قَالَ:خَطَبَنَا عُمَرُ فَقَالَ:" إِنَّهُ لَا خِلَافَةَ إِلَّا عَنْ مَشُورَةٍ،وَأَيُّمَا رَجُلٍ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ،لَا يُؤَمَّرُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا " قَالَ شُعْبَةُ:قُلْتُ لِسَعْدٍ:مَا تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا؟ قَالَ:عُقُوبَتُهُمَا أَنْ لَا يُؤْمَرَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا.."[674]

كما للديمقراطية اليوم معنى أوسع من ذلك فالنظام الديمقراطي هو الذي توفرت فيه شروط عدة وهي حكم الشعب،والتداول السلمي للسلطة،والفصل بين السلطات،واستقلال القضاء،واحترام حقوق الإنسان،وسيادة القانون على الجميع..

---

673 – صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)(٦٨٣٠)

674 – السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٤٠٨)(٧١١٣) صحيح

وكل هذه المعاني صحيحة ولا حرج فيها من حيث المبدأ العام،وهي تتوافق مع ما جاء به الإسلام من العدل والقسط،كما فصلته في كتاب (**الحرية أو الطوفان**) وكتاب (**تحرير الإنسان**).

وهذا بخلاف الديمقراطية بمفهومها العقائدي وأصولها الفلسفية التي لا زالت محل جدال وخلاف كبير بين الديمقراطيين والليبراليين أنفسهم،حيث يترع بعضهم إلى جعل حرية الفرد وحقوقه الطبيعية هي الأساس،مع الاختلاف في تحديد تلك الحقوق الطبيعية،والخلاف في دائرة الحرية الفردية،والخوف عليها من حكم الأكثرية واستبدادها..الخ

ويترع آخرون إلى جعل الأساس حقوق الفرد كعضو في المجتمع،وضرورة المحافظة على الأفراد وحرياتهم وحقوقهم كمجموعة تتشابك مصالحها،وتحكمها قيم وأديان وفلسفات،يجب مراعاتها،فالديمقراطية تعني حكم الأكثرية واحترام إرادتها وحقوقها،مع حماية حقوق الأقلية..الخ

والديمقراطية بأصولها تلك،وبهذا المعنى غير مقصودة بلا شك في استخدام كثير من المسلمين وفقهائهم ومفكريهم وكتابهم في هذا العصر لمصطلح الديمقراطية،بل يقصدون المعنى الأول الذي يعني الشورى والعدل والحرية والمساواة وفق حكم الشريعة.

وأما التعددية فالمقصود بها ما يقابل الأنظمة الشمولية الشيوعية حيث الحزب الواحد،والأيديولوجيا العقائدية الواحدة،التي تفرضها الأحزاب الشيوعية اللادينية كما في روسيا وأوربا الشرقية سابقا،والفاشستية كما في إيطاليا،والنازية القومية كما في ألمانيا،حيث تنتهك حقوق أهل الأديان،وحقوق القوميات والأقليات،وحقوق الأفراد وحرياتهم،وحيث يطبع النظام السياسي المجتمع بطابعه دون احترام للإنسان وحريته وكرامته.

ولا شك بأن الإسلام هو أول من جاء بالتعددية الدينية حيث أرسى قاعدة:{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦].

وحمى أهل الأديان من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم كالمجوس الذين يعبدون النار،وقرر لهم حقوق المواطنة العامة،كما قرر ذلك الفقهاء بقاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)..[٦٧٥]

كما جاء الإسلام بالتعددية السياسية،وفق نظامه السياسي،ودون خروج عن نظامه العام الذي تحكمه المرجعية الدستورية والتشريعية،حيث جعل أمر السلطة بالشورى والاختيار،بلا إكراه ولا إجبار،ولهذا تنافس عليها ورشح لها يوم السقيفة سعد بن عبادة،ثم أبو عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب،ثم رشح لها أبو بكر،واختارته الأمة،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ عمر رضي الله عنه:إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ:وَاللَّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلَانًا،فَلاَ يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ:إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وَتَمَّتْ،أَلاَ وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ،وَلَكِنَّ اللَّهَ وَقَى شَرَّهَا،وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ،مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلاَ يُبَايَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ،وَإِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ خَبَرِنَا حِينَ تَوَفَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺأَنَّ الأَنْصَارَ خَالَفُونَا،وَاجْتَمَعُوا بِأَسْرِهِمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ،وَخَالَفَ عَنَّا عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ وَمَنْ مَعَهُمَا،وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ،فَقُلْتُ لأَبِي بَكْرٍ:يَا أَبَا بَكْرٍ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلاَءِ مِنَ الأَنْصَارِ،فَانْطَلَقْنَا نُرِيدُهُمْ،فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ،لَقِينَا مِنْهُمْ رَجُلاَنِ صَالِحَانِ،فَذَكَرَا مَا تَمَالَأَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ،فَقَالاَ:أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقُلْنَا:نُرِيدُ إِخْوَانَنَا هَؤُلاَءِ مِنَ الأَنْصَارِ،فَقَالاَ:لاَ عَلَيْكُمْ أَنْ لاَ تَقْرَبُوهُمْ،اقْضُوا أَمْرَكُمْ،فَقُلْتُ:وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّهُمْ،فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَاهُمْ فِي [ص:١٧٠] سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ،فَإِذَا رَجُلٌ مُزَمَّلٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ،فَقُلْتُ:مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا:هَذَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ،فَقُلْتُ:مَا لَهُ؟ قَالُوا:يُوعَكُ،فَلَمَّا جَلَسْنَا قَلِيلًا تَشَهَّدَ خَطِيبُهُمْ،فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا

675 – الْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ فِي حُقُوقِ أَهْلِ الذِّمَّةِ:أَنَّ لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا،وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ جَرَتْ عَلَى لِسَانِ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ،وَتَدُلُّ عَلَيْهَا عِبَارَاتُ فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ،وَالشَّافِعِيَّةِ،وَالْحَنَابِلَةِ. وَيُؤَيِّدُهَا بَعْضُ الآْثَارِ عَنِ السَّلَفِ،فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ:إِنَّمَا قَبِلُوا الْجِزْيَةَ لِتَكُونَ أَمْوَالُهُمْ كَأَمْوَالِنَا،وَدِمَاؤُهُمْ كَدِمَائِنَا.
لَكِنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ غَيْرُ مُطَبَّقَةٍ عَلَى إِطْلاَقِهَا،فَالذِّمِّيُّونَ لَيْسُوا كَالْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ،وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعَدَمِ الْتِزَامِهِمْ أَحْكَامَ الإِْسْلاَمِ.الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١٢٧) و البدائع للكاساني ٥ / ٢٨١،وشرح السير الكبير ١ / ١٤٠،والمغني ٥ / ٥٦٦.

بَعْدُ،فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَكَتِيبَةُ الإِسْلاَمِ،وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ رَهْطٌ،وَقَدْ دَفَّتْ دَافَّةٌ مِنْ قَوْمِكُمْ،فَإِذَا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَزِلُونَا مِنْ أَصْلِنَا،وَأَنْ يَحْضُنُونَا مِنَ الأَمْرِ. فَلَمَّا سَكَتَ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ،وَكُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ مَقَالَةً أَعْجَبَتْنِي أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ،وَكُنْتُ أُدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الحَدِّ،فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ،قَالَ أَبُو بَكْرٍ:عَلَى رِسْلِكَ،فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ،فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَكَانَ هُوَ أَحْلَمَ مِنِّي وَأَوْقَرَ،وَاللَّهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي فِي تَزْوِيرِي،إِلَّا قَالَ فِي بَدِيهَتِهِ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا حَتَّى سَكَتَ،فَقَالَ:مَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ،وَلَنْ يُعْرَفَ هَذَا الأَمْرُ إِلَّا لِهَذَا الحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ،هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا،وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ،فَبَايِعُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ،فَأَخَذَ بِيَدِي وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ،وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَنَا،فَلَمْ أَكْرَهْ مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا،كَانَ وَاللَّهِ أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي،لاَ يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ،أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُسَوِّلَ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ المَوْتِ شَيْئًا لاَ أَجِدُهُ الآنَ. فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الأَنْصَارِ:أَنَا جُذَيْلُهَا المُحَكَّكُ،وَعُذَيْقُهَا المُرَجَّبُ،مِنَّا أَمِيرٌ،وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ،يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ. فَكَثُرَ اللَّغَطُ،وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ،حَتَّى فَرِقْتُ مِنَ الاخْتِلاَفِ،فَقُلْتُ:ابْسُطْ يَدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ،فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْتُهُ،وَبَايَعَهُ المُهَاجِرُونَ ثُمَّ بَايَعَتْهُ الأَنْصَارُ.قَالَ عُمَرُ:وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا فِيمَا حَضَرْنَا مِنْ أَمْرٍ أَقْوَى مِنْ مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ،خَشِينَا إِنْ فَارَقْنَا القَوْمَ وَلَمْ تَكُنْ بَيْعَةٌ:أَنْ يُبَايِعُوا رَجُلًا مِنْهُمْ بَعْدَنَا،فَإِمَّا بَايَعْنَاهُمْ عَلَى مَا لاَ نَرْضَى،وَإِمَّا نُخَالِفُهُمْ فَيَكُونُ فَسَادٌ،فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ،فَلاَ يُتَابَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ"[٦٧٦]

وكذا رشح لها حين طعن عمر ستة،وتنافسوا فيها،ثم انحصرت المنافسة بين عثمان وعلي،ثم تم الاستفتاء العام بين أهل المدينة فاختار الأكثر عثمان رضي الله عنه،عَنِ الزُّهْرِيِّ،أَنَّ حُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَخْبَرَهُ أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ،أَنَّ الرَّهْطَ الَّذِينَ وَلَّاهُمْ عُمَرُ اجْتَمَعُوا فَتَشَاوَرُوا،فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:«لَسْتُ بِالَّذِي أُنَافِسُكُمْ عَلَى هَذَا الأَمْرِ،وَلَكِنَّكُمْ إِنْ شِئْتُمُ اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنْكُمْ»،فَجَعَلُوا ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ،فَلَمَّا وَلَّوْا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَمْرَهُمْ،فَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ،حَتَّى مَا أَرَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَتْبَعُ أُولَئِكَ

676 – صحيح البخاري (٨/ ١٦٩)(٦٨٣٠)

الرَّهْطَ وَلاَ يَطَأُ عَقِبَهُ،وَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُشَاوِرُونَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي،حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَصْبَحْنَا مِنْهَا فَبَايَعْنَا عُثْمَانَ،قَالَ المِسْوَرُ:طَرَقَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَعْدَ هَجْعٍ مِنَ اللَّيْلِ،فَضَرَبَ البَابَ حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ،فَقَالَ:«أَرَاكَ نَائِمًا فَوَاللَّهِ مَا اكْتَحَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِكَبِيرِ نَوْمٍ،انْطَلِقْ فَادْعُ الزُّبَيْرَ وَسَعْدًا»،فَدَعَوْتُهُمَا لَهُ،فَشَاوَرَهُمَا،ثُمَّ دَعَانِي،فَقَالَ:«ادْعُ لِي عَلِيًّا»،فَدَعَوْتُهُ،فَنَاجَاهُ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ،ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ،وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَيْئًا،ثُمَّ قَالَ:«ادْعُ لِي عُثْمَانَ»،فَدَعَوْتُهُ،فَنَاجَاهُ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا المُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ،فَلَمَّا صَلَّى لِلنَّاسِ الصُّبْحَ،وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ عِنْدَ المِنْبَرِ،فَأَرْسَلَ إِلَى مَنْ كَانَ حَاضِرًا مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ،وَأَرْسَلَ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ،وَكَانُوا وَافَوْا تِلْكَ الحَجَّةَ مَعَ عُمَرَ،فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَشَهَّدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،يَا عَلِيُّ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ،فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ،فَلاَ تَجْعَلَنَّ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا»،فَقَالَ:أُبَايِعُكَ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَالخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ،فَبَايَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ،وَبَايَعَهُ النَّاسُ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ،وَأُمَرَاءُ الأَجْنَادِ وَالمُسْلِمُونَ "[677]

وكذا أقر الإسلام التعددية المذهبية والطائفية،وأجمع الصحابة على سنة علي رضي الله عنه في الخوارج حين خرجوا عليه وكفروه،عَنْ كَثِيرِ بْنِ نَمِرٍ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْخَوَارِجِ إِلَى عَلِيٍّ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنِّي وَجَدْتُ هَذَا يَسُبُّكَ،قَالَ:«فَسُبَّهُ كَمَا سَبَّنِي»

---

677 – صحيح البخاري (٩/ ٧٨)(٧٢٠٧)

[ش (الرهط) ما دون العشرة من الرجال. (ولاهم) جعل أمر اختيار الخليفة إليهم وهم عثمان وعلي وطلحة بن عبيد الله والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم. قال الطبري فلم يكن أحد من أهل الإسلام يومئذ له مثلتهم من الدين والهجرة والسابقة والفضل والعلم بسياسة الأمر [عيني]. (أنافسكم) أنازعكم. (الأمر) تولي الخلافة. (فمال الناس على عبد الرحمن) قصدوه كلهم بعضا بعد بعض. (يطأ عقبه) يمشي خلفه وهو كناية عن الإعراض. (طرقني) أتاني ليلا. (هجع) قطعة من الليل من الهجوع وأصله النوم في الليل خاصة. (ما اكتحلت) كناية عن النوم أي ما دخل النوم جفن عيني كما يدخلها الكحل (فناجاه) تكلم معه على انفراد سرا. (ابهار الليل) انتصف وبهرة كل شيء وسطه وقيل معظمه. (على طمع) أي أن يوليه. (شيئا) من المخالفة. (صلى للناس) صلى بهم إماما. (أمراء الأجناد) هم معاوية أمير الشام وعمير بن سعد أمير حمص والمغيرة بن شعبة أمير الكوفة وأبو موسى الأشعري أمير البصرة وعمرو ابن العاص أمير مصر رضي الله عنهم. (وافوا تلك الحجة) قدموا إلى مكة فحجوا مع عمر رضي الله عنه ورافقوه إلى المدينة. (يعدلون بعثمان) يجعلون غيره مساويا له ويرضون به. (فلا تجعلن على نفسك سبيلا) أي شيئا من الملامة إذا لم توافق الجماعة.]

قَالَ:وَيَتَوَاعَدُكَ،قَالَ:«لَا أَقْتُلُ مَنْ لَمْ يَقْتُلْنِي» قَالَ:ثُمَّ قَالَ عَلِيٌّ:" لَهُمْ عَلَيْنَا حَسْبُتُهُ قَالَ:ثَلَاثٌ لَا نَمْنَعُهُمُ الْمَسَاجِدَ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا،وَلَا نَمْنَعُهُمُ الْفَيْءَ مَا دَامَتْ أَيْدِيهِمْ مَعَ أَيْدِينَا،وَلَا نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُونَا "[٦٧٨]...

والمقصود بإقرار الإسلام للتعددية هنا ليس الموافقة لهم،بل تركهم وعدم التعرض لهم.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال (أَفَلَا تَرَى عَلِيًّا رَأَى لِلْخَوَارِجِ فِي الْفَيْءِ حَقًّا،مَا لَمْ يُظْهِرُوا الْخُرُوجَ عَلَى النَّاسِ،وَهُوَ مَعَ هَذَا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسُبُّونَهُ وَيَبْلُغُونَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ السَّبِّ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي أُمُورِهِمْ وَمَحَاضِرِهِمْ،حَتَّى صَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ بَعْدُ).[٦٧٩]

وقد خرجت في الأمة بعد ذلك فرق وأقليات كثيرة تأولت القرآن على غير وجهه،فلم يتعرض لهم الصحابة،ولا من بعدهم،وحكموا لهم بالإسلام العام،وأنهم من أهل القبلة،ما لم يخرجوا على الأمة بالسيف ويستحلوا دماءها،فعصم الله بهذا الفقه الراشدي الأمة من الاقتتال الداخلي،ومن حروب الاضطهاد الديني التي كان يعيشها العالم كله وإلى وقت قريب،بينما ينعم أهل الأديان على اختلاف مللهم ونحلهم بعدل الإسلام ورحمته حتى أخذت أوربا في عصور نهضتها تنحو نحو الخلافة العثمانية في قانون الأقليات وحماية حقوقها وحرياتها،بعد أن كانت حروب الاضطهاد الديني بين الكاثوليك والبرتستانت على أوجها تقضى على الملايين،وتهجر الملايين من أوربا ظلما وعدونا وبغيا!

وهذه من الرحمة العامة التي بعث بها النبي ﷺ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧]

فسعدت به البشرية والإنسانية كلها وعمتها رحمة الله ببعثته من آمن به ومن لم يؤمن به.

---

678 – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥١٧)(٨٢٩) والسنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣١٩) (١٦٧٦٣) حسن

679 – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥١٧)

المطلب الرابع
الدولة التي يجب على المسلمين العمل لإقامتها

ج٣:الدولة التي يجب أن يعمل المسلمون جميعا على إقامتها هي الخلافة الراشدة والأمة الواحدة،وهي النظام السياسي الإسلامي الوحيد الذي عرفه المسلمون وأجمعوا عليه،مدة ثلاثة عشر قرنا،وبه ساد المسلمون العالم حتى إذا سقط في الحرب العالمية الأولى فإذا هم يتوارون عن المسرح العالمي كله،ليتحولوا إلى دويلات طوائف وظيفية،لا وزن لها ولا أثر في ميزان القوى الدولية،وسقط بسقوط الخلافة الإسلام الدولة الواحدة،والإسلام الأمة الواحدة،والإسلام المرجعية التشريعية،والإسلام النظام السياسي،والإسلام الهوية والدين!

وقد حدد النبي ﷺ طبيعة النظام السياسي في الإسلام بعد النبوة وهو الخلافة الراشدة،وقد قيدها الشارع بالرشد وصفا،كما جاء في الحديث الصحيح عن الْعِرْبَاضَ قالَ:صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّه ﷺالصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً،ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّه،كَأَنَّ هَذِه مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ،فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ:«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه،وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا،فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ،فَتَمَسَّكُوا بِهَا،وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ،وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٦٨٠]..

كما حددها زمنا عَنْ سَفِينَةَ،قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«الْخِلَافَةُ ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكًا»[٦٨١]

فجعلها المعيار الموضوعي لمعرفة نظام الحكم الراشد في الإسلام..

وحددها بالحديث الآخر عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ

---

680 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ١٧٨)(٥) صحيح

681 – الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (١/ ١١٦)(١١٣) صحيح

سَعْد،أَتَحْفَظُ حَديثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الأُمَرَاءِ ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،ثُمَّ سَكَتَ"[٦٨٢]

وأمر برد كل ما عدا سنن الخلافة الراشدة من المحدثات،كما في الصحيح عَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[٦٨٣]

فأبطل شرعا كل ما كان من المحدثات التي تخالف نظام الحكم الراشد،من الملك العضوض والجبري الملكي والجمهوري..الخ

وقد تواترت النصوص عن طبيعة نظام الحكم في الإسلام بعد النبوة وأنه خلافة راشدة،فلا ملك،ولا جبر،ولا وراثة،ولا قهر،كما في الصحيح عَنْ فُرَاتٍ القَزَّازِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ،قَالَ:قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ،فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ،كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ،وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي،وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ» قَالُوا:فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:«فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ،أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»[٦٨٤]

---

682 – مسند أبي الطيالسي –طبعة دار هجر – مصر (١/ ٢٤٩)(٤٣٩) صحيح

683 – صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣)١٧ – (١٧١٨)

[ش (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) قال أهل العربية الرد هنا بمعنى المردود ومعناه فهو باطل غير معتد به وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات]

684 – صحيح البخاري (٤/ ١٦٩)(٣٤٥٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٤ – (١٨٤٢)

[ش (تسوسهم) تتولى أمورهم والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه. (فيكثرون) أي يكون أكثر من حاكم واحد للمسلمين في زمن واحد. (فوا) من الوفاء. (ببيعة الأول فالأول) أي إن الذي تولى الأمر وبويع قبل غيره هو صاحب البيعة الصحيحة التي يجب الوفاء بها وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها مطلقا. (أعطوهم حقهم) أطيعوهم في غير معصية. (سائلهم) محاسبهم بالخير والشر عن حال رعيتهم]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ،فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»[٦٨٥]

فأبطل كل صور الفرقة السياسية والتشرذم،فليس في الإسلام إلا الخلافة كنظام سياسي،ولا تكون إلا خلافة واحدة ودولة واحدة وأمة واحدة،كما في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا،وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا،فَيَرْضَى لَكُمْ:أَنْ تَعْبُدُوهُ،وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا.. "[٦٨٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:" إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا،وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا،يَرْضَى لَكُمْ:أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا،وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ.."[٦٨٧]

فجمع بين أصل توحيد الله ووحدة الأمة السياسية وعدم افتراقها،وجاء في الصحيح عن أَبِي إِدْرِيسَ الخَوْلَانِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ يَقُولُ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺعَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[٦٨٨]

---

685 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠)٦١ – (١٨٥٣)

686 – صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٠)١٠ – (١٧١٥)

687 – الأدب المفرد مخرجا (ص:١٥٨)(٤٤٢) صحيح

688 – صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ – (١٨٤٧)

[ش (أسأله عن الشر) أستوضحه عنه. (مخافة أن يدركني) خوفا من أن أقع فيه أو أدرك زمنه. (دخن) من الدخان أي ليس خيرا خالصا بل فيه ما يشوبه ويكدره وقيل الدخن الأمور المكروهة. (تعرف منهم وتنكر) أي ترى منهم أشياء موافقة للشرع وأشياء مخالفة له. (جلدتنا) من أنفسنا وقومنا وقيل هم في الظاهر مثلنا ومعنا وفي الباطن مخالفون لنا في

عَنْ سُبَيْعِ بْنِ خَالِد،أَوْ خَالِد بْنِ سُبَيْعٍ قَالَ:غَلَتِ الدَّوَابُّ فَأَتَيْنَا الْكُوفَةَ نَجْلِبُ مِنْهَا دَوَابَّ فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَجُلٌ صَدَعٌ مِنَ الرِّجَالِ حَسَنُ الثَّغْرِ يُعْرَفُ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الْحِجَازِ وَإِذَا نَاسٌ مُشْرَئِبُّونَ عَلَيْهِ فَقَالَ:لاَ تَعْجَلُوا عَلَيَّ أُحَدِّثْكُمْ،فَإِنَّا كُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ فَإِذَا أَمْرٌ لَمْ أَرَ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَكَانَ اللَّهُ رَزَقَنِي فَهْمًا فِي الْقُرْآنِ وَكَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ شَرٌّ ؟ قَالَ:نَعَمْ،قُلْتُ:فَمَا الْعِصْمَةُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ:السَّيْفُ،قُلْتُ:فَهَلْ لِلسَّيْفِ مِنْ بَقِيَّةٍ ؟ فَمَا يَكُونُ بَعْدَهُ ؟ قَالَ:تَكُونُ هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ،قَالَ:قُلْتُ:فَمَا يَكُونُ بَعْدَ الْهُدْنَةِ ؟ قَالَ:دُعَاةُ الضَّلاَلَةِ فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً فَالْزَمْهُ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ وَإِنْ لَمْ تَرَ خَلِيفَةً فَاهْرُبْ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ:الدَّجَّالُ."[٦٨٩]

وجاء في الصحيح عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:«لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً»،ثُمَّ قَالَ كَلِمَةً لَمْ أَفْهَمْهَا،فَقُلْتُ لِأَبِي:مَا قَالَ؟ فَقَالَ:«كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»[٦٩٠]

فأجمع المسلمون في الصدر الأول،ومنذ اليوم الذي توفي فيه النبي ﷺ،على طبيعة هذا النظام السياسي الفريد،لوضوح أصوله عندهم،فأقاموه خلافة على نهج النبوة في الحكم وسياسة الأمة،فما زال المسلمون يسودون العالم تحت ظل نظام سياسي مدة ألف وثلاثمائة سنة، لم يواجهوا خلالها مشكلة في قدرة هذا النظام على مواكبة تطور العصر وظروفه،مع ما وقع فيه من محدثات وتراجعات وضعف،إلا أنه ظل نظاما سياسيا فريدا من نوعه، لم يعرف العالم له مثيلا،وهو أطول النظم السياسية التي عرفها العالم عمرا،فعرف نظام الدولة المركزية في عهد الخلافة الراشدة وعهد الخلافة الأموية ثم صدر الخلافة العباسية،ثم الدولة

أمورهم وشؤونهم وجلدة الشيء ظاهره. (جماعة المسلمين) عامتهم التي تلتزم بالكتاب والسنة. (إمامهم) أميرهم العادل الذي اختاروه ونصبوه عليهم. (تعض بأصل شجرة) أي حتى ولو كان الاعتزال بالعض على أصل شجرة والعض هو الأخذ بالأسنان والشد عليها والمراد المبالغة في الاعتزال]

689 – مسند أبي الطيالسي –طبعة دار هجر – مصر (١/ ٢٥٢)(٤٤٤) صحيح

690 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٣)٧ – (١٨٢١)

اللامركزية في العصر العباسي الثاني والمملوكي،ثم عادت خلافة مركزية في العهد العثماني مدة أربعة قرون،وعرفت الأمة في أواخره المشروطية وهو الدستور،والمبعوثان وهو البرلمان،ومنصب الصدر وهو رئيس الوزراء..الخ حتى تم القضاء عليه في حرب استعمارية كبرى،كان أحد أهم أهدافها هو القضاء على هذا النظام بالذات،فسقط بسقوط الخلافة كنظام سياسي الإسلام كأمة واحدة على اختلاف قومياتها وطوائفها،والإسلام كدولة عالمية تسود المسرح الدولي منذ جاء الإسلام،والإسلام كنظام تشريعي وقانوني،والإسلام كهوية وثقافة وحضارة،وقام على أنقاض ذلك دويلات وظيفية،لا تعبر عن دين الأمة وإرادتها،ولا ضميرها وهويتها،ولا نظامها التشريعي والقانوني،ولا ثقافتها وحضارتها،فكانت تلك الدول مسخا مشوها،هي أشبه شيء بالاستعمار الذي اشتقت منه،منها بالإسلام الذي انسلخت عنه!

وقد واجه المسلمون هذا الواقع وهم أعجز ما يكونون وأضعف ما كانوا،فاتسعت الهوة مع الزمن بين ما كانوا عليه،وما صاروا إليه،وتعطل الفقه الذي لا يمكن أن يعيش إلا في ظل النظام السياسي الإسلامي،إذ هو تعبير عن طبيعة الأصول التي تحكم المجتمع والدولة في الإسلام،وكان تطور المجتمعات من جهة،وتخلف الفقه من جهة أخرى إحدى المشكلات التي تعاظمت،ورأى المصلحون أن الخلافة كوحدة سياسية جامعة أمر متعذر في هذا العصر،فاستروحوا إلى الواقع الممكن عن المثال الواجب،كما أمر به النبي ﷺ الأمة بخطاب عام لكل زمان ومكان،عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[٦٩١]

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَاقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[٦٩٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنِّي قَدْ خَلَّفْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا،أَوْ عَمِلْتُمْ بِهِمَا،كِتَابُ اللهِ،وَسُنَّتِي،وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ "[٦٩٣]

---

691 – السنة للمروزي (ص:٢٧)(٧٢) صحيح

692 – فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٢٣٨)(٢٩٣) صحيح

693 – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٩٥)(٢٠٣٣٧) صحيح لغيره

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا:كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي،وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ "[٦٩٤]

موقف العلماء اليوم من الخلافة الإسلامية

صار المسلمون المخلصون اليوم فريقين فريق يرى بأن الإسلام جاء بمبادئ عامة للحكم كالحرية والعدل،وليس له نظام محدد للحكم،وترك للعقل الاجتهاد في هذا الباب،ففرغوا النظام السياسي الإسلامي من عقيدته السياسية،فلا فرق بين ما يدعون إليه وبين أي نظام سياسي غربي أو شرقي إذ كلها تنشد المبادئ ذاتها،وإنما تتمايز فيما بينها بالنظم التي تعبر عن نظرتها لتلك المبادئ العامة!

وتجاهل هذا الفريق واقعا سياسيا ظل يحكم العالم الإسلامي منذ خلافة أبي بكر الصديق إلى خلافة السلطان عبد الحميد،وكأن هذه الأمة جاءت من فراغ،أو انتظمت حضارتها مدة ألف سنة ويزيد بلا نظام سياسي،ولا أصول للحكم!

وفريق آخر يريدونها خلافة راشدة دون أن يحيطوا علما بأصولها وأحكامها،وكيفية بلورتها إلى مشروع سياسي يمكن تطبيقه في كل قطر،بعد أن تعذر في هذا العصر جمع الأمة عليه،فعاشوا حالة انتظار للمهدي ليعيدها خلافة راشدة،وأصبحوا يعيشون عالما افتراضيا خياليا بعيدا عن الواقع وسنن التدافع فيه!

الفرق بين الحكومة الراشدة والخلافة الراشدة

لقد عرف الفقهاء الخلافة بأنها رئاسة عامة على الأمة،وإذا كانت هذه الرئاسة العامة غير ممكنة اليوم،وإذا تأكد عدم إمكان إقامة الخلافة الجامعة،وكذا لا يمكن الافتئات على الأمة بشأنها حتى تجتمع أو يجتمع أكثرها على ذلك،فإن الممكن اليوم هو (**الحكومة الراشدة**)،في كل قطر تتحرر فيه إرادة الأمة من الاستبداد والاستعمار،والفرق بينهما أن الحكومة الراشدة،ليست رئاسة عامة على الأمة،بل رئاسة عامة على قطر من الأقطار،إلا

694 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ١٧٢)(٣١٩) صحيح لغيره

أنها تقوم بكل مسئوليات وواجباتها الشرعية السياسية في ذلك القطر على وفق ما جاء في الخطاب السياسي القرآني والنبوي والراشدي،ومن أهم تلك الأصول التي يتحقق بها الرشد لهذه الحكومات ما يلي:

١- أن تمثل الحكومة في ذلك القطر خيار الأمة وإرادتها،وأن تقيم نظامها السياسي على أساس حق الأمة في اختيار السلطة التي تحكمها وتسوس شئونها بالشورى والرضا والاختيار،بلا إكراه ولا إجبار،وأن تكون خيارا حقيقيا للأمة،لا خيارا صوريا.

٢- أن تكون المرجعية الدستورية والتشريعية للدولة هي الشريعة كتابا وسنة،وتطبيقها وفق أصول الخطاب الراشدي،فلا تعطل النصوص،ولا تهدر المقاصد،فالغاية تحقيق العدل والقسط الذي جاء به القرآن على أكمل وجه،ورعاية حقوق الإنسان،وصيانة حريته وكرامته.

٣- المحافظة في ذلك البلد على سيادة الأمة والدولة واستقلالها عن أي نفوذ أجنبي،وتعزيز قدراتها الاقتصادية والعسكرية لتتحمل مسئولياتها على مستوى الأمة حسب إمكاناتها.

٤- تعزيز التكامل والوحدة والاتحاد مع الدول الإسلامية المجاورة،للوصول إلى توحيد الأمة،وتحقيق الهدف النهائي (**أمة واحدة وخلافة راشدة**).

٥- تحقيق التنمية والنهضة الشاملة في جميع المجالات على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والدولة،وأن تثبت فاعلية وكفاءة سياسية متميزة،وأداء سياسيا ناجحا.

فكل حكومة تحققت فيها هذه الشروط هي (حكومة راشدة)،والفرق بينها وبين (الخلافة الراشدة)،هو أن الحكومة الراشدة خاصة في القطر الذي تقوم فيه،بينما الخلافة الراشدة عامة تشترك الأمة كلها أو أكثر دولها في إقامتها،بعد أن تتحرر أقطارها،وتصل إلى السلطة فيها حكومات راشدة،أو إلى الدول الرئيسة المؤثرة فيها،بحيث تكون قادرة على توحيد الأمة وحمايتها،كما توحدت أوربا اليوم في الاتحاد الأوربي باختيار شعوبها وبإرادة حكوماتها المنتخبة،حتى استطاعت بعد حربين عالميتين بينها لم يمض عليها نصف قرن أن توحد عملتها وبرلمانها ودستورها!

وحين تقوم الحكومات الراشدة التي تمثل خيار الأمة في كل الأقطار،أو في أكثرها،أو في الدول الرئيسة المركزية فيها،فستكون قادرة على الإعلان عن اتحادها ووحدتها،واختيار مجلس رئاسة لدولها،يختار رئيسه بشكل دائم أو دوري،بحسب ما يحقق حكم الشارع ومصلحة الأمة،ويكون هذا المجلس الرئاسي هو مؤسسة (الخلافة الراشدة)،التي تشترك الأمة من خلال حكوماتها المنتخبة في اختيارها،لتستأنف الأمة حياتها السياسية من جديد في ظل (الخلافة الراشدة)،كما بشر بذلك النبي ﷺ،فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ "[٦٩٥]

حيث سيأتي بعد عصر الطواغيت – الذي تغيب فيه الخلافة وهو هذا العصر – عصر جديد تعود فيه الأمة من جديد لوحدتها وقوتها وشريعتها وخلافتها في الأرض!

البدء بقطر من الأقطار بالحكومة الراشدة هو المناسب للظروف الراهنة

إن هذه التجزئة للمشروع مع كونها متوائمة مع الواقعية السياسية التي تفرضها الظروف الموضوعية،فإنها متوافقة مع الأحكام الشرعية،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ،وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٦٩٦]

695 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٣٥٥)(١٨٤٠٦) صحيح لغيره

696 – صحيح البخاري (٩/ ٩٥)(٧٢٨٨) وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٥)٤١٢ - (١٣٣٧)

وكما قال النبي شعيب عليه السلام:{ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٨].

فعدم قدرة الأمة اليوم على إقامة الخلافة الراشدة،لا يسقط وجوب إقامة الحكومة الراشدة في كل بلد تستطيع الأمة فيه إقامتها،كما إن عدم قدرتها على إقامة حكومة راشدة هنا أو هناك،لا يسقط وجوب إصلاح الأوضاع السياسية الحالية،وتقويم أود الحكومات القائمة الآن،إذ الواجب شرعا الإصلاح حسب الإمكان في كل حال،ولا تتعطل الواجبات الشرعية،والفروض الكفائية بدعوى عدم وجود الخلافة الراشدة،أو عدم وجود حكومة راشدة!

والمقصود بأن الواجب على الأفراد والجماعات في كل قطر العمل من أجل الوصول في دولهم إلى إقامة (حكومة راشدة) و(نظام حكم راشد)،ثم الواجب على تلك الحكومات الراشدة أن تعمل على تعزيز الوحدة بين دولها وشعوبها من أجل إقامة (خلافة راشدة).

[ش(دعوني) اتركوني ولا تسألوني. (بسؤالهم) كثرة أسئلتهم. (ما استطعتم) قدر استطاعتكم بعد الإتيان بالقدر الواجب الذي لا بد منه. قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم هذا من قواعد الإسلام ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام]

المطلب الخامس

المساواة بين المواطنين مبدأ عام مع اختلاف بالتفاصيل

ج ٤:المساواة في حقوق المواطنة مبدأ عام،أما الأحكام التفصيلية،فتختلف باختلاف أحوال المواطنين،فيجب على الأغنياء ما لا يجب على الفقراء من ضرائب مالية،ولا يعد ذلك إخلالا بمبدأ المساواة،ويجب على الرجل ما لا يجب على المرأة،ويجب للمرأة من الحقوق ما لا يجب للرجل،مع ما جاء في الحديث من تقرير مبدأ المساواة بينهما،عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺعَنِ الرَّجُلِ يَجِدُ الْبَلَلَ وَلَا يَذْكُرُ احْتِلَامًا. قَالَ:«يَغْتَسِلُ»،وَعَنِ الرَّجُلِ يَرَى أَنَّهُ قَدْ احْتَلَمَ وَلَا يَجِدُ الْبَلَلَ. قَالَ:«لَا غُسْلَ عَلَيْهِ» فَقَالَتْ:أُمُّ سُلَيْمٍ الْمَرْأَةُ تَرَى ذَلِكَ أَعَلَيْهَا غُسْلٌ؟ قَالَ:«نَعَمْ. إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»[٦٩٧]

ويشترط للمناصب السياسية العامة شروط لا تتوفر في كل أحد،ولا يعد ذلك إخلالا بمبدأ المساواة العام..الخ

وقد تضمنت دساتير الدول الأوربية – مع تأكيدها على مبدأ المساواة – شرط أن يكون رأس الدولة على دين أهلها (فحسب المادة الثالثة من قانون التسوية البريطاني ينبغي على كل شخص يتولى المُلك أن يكون من رعايا كنيسة إنجلترا،أما الدستور اليوناني فينص في المادة ٤٧ على أن كل من يعتلي حكم اليونان يجب أن يكون من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية،أما في إسبانيا فتنص المادة السابعة من الدستور الإسباني على أنه يجب أن يكون رئيس الدولة من رعايا الكنيسة الكاثوليكية،باعتبارها المذهب الرسمي للبلاد،وفي الدنمارك،ينص الدستور الدنماركي في المادة الأولى على أن يكون الملك من أتباع كنيسة البروتستانت اللوثرية،وفي السويد،ينص الدستور في المادة الرابعة على أنه يجب أن يكون الملك من أتباع المذهب البروتستانتي الخالص)..[٦٩٨]

---

697 – سنن أبي داود (١/ ٦١)(٢٣٦) ومستخرج أبي عوانة (١/ ٢٤٤)(٨٣٢) صحيح لغيره

698 – انظر مقال د. فيصل القاسم (أيتها الأقليات لا تقفوا في وجه الثورات).

وكذلك يشترط في الرئاسة العامة للدولة في الإسلام أن يكون رئيسها مسلما،فشرط السمع والطاعة هو للإمام المسلم،الذي تختاره الأمة وكيلا عنها في سياسة شئون الدولة وفق أحكام الإسلام،وهذا الأصل الذي يتحقق به وصف الدولة بأنها دار إسلام،وهو أن تكون الشوكة فيها للأمة،والكلمة فيها للإسلام،وهذه قضية إجماعية قطعية،وأما ما دون ذلك من المناصب السياسية فقد لا يشترط فيها ذلك،كما في الأحكام السلطانية من عدم اشتراط الإسلام لوزارة التنفيذ،كما في مآثر الإنافة في معالم الخلافة:(" الضَّرْب الأول وزارة التَّفْوِيض وَهِي أَن يستوزر الإِمَام من يُفَوض إِلَيْهِ تَدْبِير الْأُمُور برَأْيه وإمضائه على اجْتِهَاده وَهِي أجل الولايات بعد الْخلَافَة قَالَ الْمَاوَرْدِيّ فَهُوَ ينظر فِي كل ماينظر فِيهِ الْخَلِيفَة الضَّرْب الثَّانِي وزارة التَّنْفِيذ وَالنَّظَر فِيهَا مَقْصُور على رَأْي الإِمَام وتدبيره والوزير فِيهَا وَاسِطَة بَينه وَبَين الرعايا والولاة يُؤدى عَنهُ مَا أَمر وَينفذ مَا ذكر ويمضى مَا حكم ويجيز تَقْلِيد الْوُلَاة وتجهيز الجيوش وَنَحْو ذَلِك وَرُبمَا عبر عَن هَذَا الْوَزِير بالوساطة وَقد أجَاز الْمَاوَرْدِيّ فِي هَذَا الْوَزِير أَن يكون ذمِّيا وَأنْكرهُ عليهإمام الْحَرَمَيْنِ إنكارا شَدِيدا")[٦٩٩].

وقال الماوردي في الأحكام السلطانية:(وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَزِيرُ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،وَإِنْ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ وَزِيرُ التَّفْوِيضِ مِنْهُمْ،)[٧٠٠].

وقال الفراء:" وقد قيل:إنه يجوز أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَزِيرُ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،وإن لم يكن وزير التفويض منهم،إلَّا أَنْ يَسْتَطِيلُوا فَيَكُونُوا مَمْنُوعِينَ مِنْ الِاسْتِطَالَةِ."[٧٠١]

وقد اشترط فيه الأمانة والكفاءة والنصيحة للأمة..الخ

ووزير التفويض هو أشبه برئيس الوزراء في النظام البرلماني،بينما وزير التنفيذ هو أشبه برئيس الوزراء في النظام الرئاسي،وقد أجاز الماوردي في وزير التنفيذ أن يكون غير مسلم،وهذا الرأي وإن كان قولا مرجوحا في الفقه،إلا إنه عند الحاجة يعمل به،كما إذا كان غير المسلمين في الدولة يمثلون نسبة كبيرة كالنصف أو الثلث مثلا،ولا يتم تأليفهم

---

699 – مآثر الإنافة في معالم الخلافة (١/ ٧٤)

700 – الأحكام السلطانية للماوردي (ص:٥٨)

701 – الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص:٣٢)

إلا بمثل ذلك،لحماية الدولة من الحروب والفتن،وتحقيق الاستقرار،وهذا أصل من أصـــول السياسة الشرعية.

وكذا ما دون ذلك من المناصب خاصة التي في مدن غير المســـلمين وقراهم،كالمحافظـــات والبلديات والوظائف فيها،فلهم الحق بتوليها،وقد عقد النبي ﷺ عهد الذمة ليوحنـــا بـــن رؤبة وهو أمير أيلة،وكانوا نصارى،وتركهم على وظائفهم و لم يغير لهم شيئا.

وَانْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– إِلَى تَبُوكَ،فَأَتَى يُوحَنَّا بْنَ رُؤْبَةَ صَاحِبَ أَيْلَةَ،فَصَـــالَحَهُ عَلَـــى الْجِزْيَةِ،وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا،فَبَلَغَتْ جِزْيَتُهُمْ ثَلَاثَمِائَةِ دِينَارٍ[٧٠٢]

ومثلها المناصب الدينية التي تعنى بشئونهم الخاصة،كما جاء في عهد النبي ﷺ مع نصـــارى نجران (وَلِنَجْرَانَ وَحَسَبِهَا جِوَارُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّـــتِهِمْ وَأَرْضِـــهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَتَبَعِهِمْ،وَأَلَّا يُغَيَّرُوا مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ،وَلَا يُغَيَّرَ حَـــقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مِلَّتِهِمْ،وَلَا يُغَيَّرَ أَسْقُفٌ مِنْ أَسْقُفِيَّتِهِ،وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ،وَلَا وَاقِهٌ مِـــنْ وَقْهِيَّتِهِ وَكُلُّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ،وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ رُبِّيَّةٌ وَلَـــا دَمُ جَاهِلِيَّـــةٍ،وَلَا يُحْشَرُونَ وَلَا يُعْشَرُونَ،وَلَا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ،وَمَنْ سَأَلَ مِنْهُمْ حَقًّا فَبَيْنَهُمُ النَّصَـــفُ غَيْـــرُ ظَالِمِينَ وَلَا مَظْلُومِينَ،وَمَنْ أَكَلَ رِبًا مِنْ ذِي قَبْلُ فَذِمَّتِي مِنْهُ بَرِيئَةٌ،وَلَا يُؤْخَذُ رَجُلٌ مِـــنْهُمْ بِظُلْمِ آخَرَ،وَعَلَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ جِوَارُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فِيمَا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُنْقَلِبِينَ بِظُلْمٍ،وَلَا مَعْنُوفٍ عَلَيْهِمْ ")[٧٠٣].

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال:(وَقَوْلُهُ «مَنْ أَكَلَ مِنْهُمُ الرِّبَا مِنْ ذِي قَبْلٍ،فَذِمَّتِي مِنْهُ بَرِيئَةٌ»:لَا نَرَاهُ غَلَّظَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الرِّبَا خَاصَّةً مِنْ بَيْنَ الْمَعَاصِي كُلِّهَا بِمِثْـــلِ حَـــالِهِمْ – وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ،مِنَ الشِّرْكِ،وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَغَيْـــرِهِ – إِلَّـــا دَفْعًا عَنِ الْمُسْلِمِينَ،أَنْ لَا يُبَايِعُوهُمْ بِهِ،فَيَأْكُلُ الْمُسْلِمُونَ الرِّبَا،وَلَوْلَا الْمُسْلِمُونَ مَا كَانَ أَكْلُ أُولَئِكَ الرِّبَا إِلَّا كَسَائِرِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي،بَلِ الشِّرْكُ أَعْظَمُ وَإِنَّمَا أَجْلَاهُمْ عُمَرُ عَـــنْ

---

[702] – الكامل في التاريخ (٢/ ١٤٨) والمفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (٧/ ٢٤٩) وتاريخ ابـــن خلـــدون (٢/ ٢٦٧) وتاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية (ص:١٢١)

[703] – تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٥٨٤) وزاد المعاد – موافق للمطبوع (٣/ ٥٤٩) ودلائل النبوة للبيهقي محققا (٥/ ٣٨٩) والأموال للقاسم بن سلام (ص:٢٤٤)(٥٠٣) وسنده واه لكنه مشهور في كتب السيرة

بِلَادِهِمْ،وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ لَهُمُ عَهْدًا مُؤَكَّدًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،لِتَرْكِهِمْ مَا شَرَطَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا ")[٧٠٤].

والصحيح أنه منعهم من الربا خاصة لكونه محرما في شريعتهم من جهة {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [النساء:١٦١]،ولأنه ظلم للفقراء والمحتاجين منهم من جهة أخرى،ولخطر الربا على الاقتصاد ودورة المال في المجتمع كله من جهة ثالثة.

وقد فتح المسلمون مصر وتركوا شئون القبط كما هي إلى المقوقس يسوسها كما كان قبل الفتح،وهو أشبه بالحكم الذاتي والمحلي.

السياسة الشرعية هي كل فعل يكون الناس معه أقرب للصلاح والعدل

والمقصود أن السياسة الشرعية كما عرفها الفقهاء هي كل فعل يكون الناس معه أقرب للصلاح والعدل وإن لم يأت به نص شرعي،فالسياسيون إنما يراعون الواقع ويجتهدون في تنزيل الأحكام الشرعية حسب الإمكان بما يحقق العدل والقسط،وقد قال تعالى:{وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } [الزمر:٥٥]،{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)} [الزمر:١٧،١٨]،{وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف:١٤٥]...الخ

والأحسن هنا يختلف بحسب أحوال المكلفين وظروفهم والممكن لهم فربما كان أحسن ما يستطيعه قوم في زمان أو مكان،هو حسن عند آخرين وليس بالأحسن،وقد جاء في الأثر

---

704 – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٥٢)

وما حدث من النبي وخليفته هو غاية العدل والإحسان والتسامح مع النصارى،ولولا أنهم تعاملوا بالربا،وأصبحوا يكونون خطرا اجتماعيا واقتصاديا في بلاد اليمن لما أجلاهم الفاروق،ولكنهم هم الذين أساؤوا لأنفسهم بنقض العهد الذي عاهداهم عليه رسول الله ﷺ.السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (٢/ ٥٤٨)

ما يوضح ذلك في آخر الزمان،عَنْ أَبِي ذَرٍّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:"إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ عُلَمَاؤُهُ كَثِيرٌ،خُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ،مَنْ تَرَكَ فِيهِ عُشَيْرَ مَا يَعْلَمُ هَوَى،أَوْ قَالَ:هَلَكَ،وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَقِلُّ عُلَمَاؤُهُ وَيَكْثُرُ خُطَبَاؤُهُ،مَنْ تَمَسَّكَ فِيهِ بِعُشَيْرِ مَا يَعْلَمُ نَجَا "[٧٠٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مَنْ تَرَكَ مِنْكُمْ عُشْرَ مَا أُمِرَ بِهِ هَلَكَ ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعُشْرِ مَا أُمِرَ بِهِ نَجَا»[٧٠٦]

---

705 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٢٩٩)(٢١٣٧٢) حسن لغيره

706 – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٣٠)(٢٢٦٧) حسن لغيره

المطلب السادس

وجوب الإصلاح والعدل حسب الإمكان

ج ٥:إن كانت الأمة في حال من الضعف لا تستطيع معه إقامة (الخلافة الراشدة) على مستوى الأمة،ولا (الحكومة الراشدة) على مستوى الأقطار،فالواجب حينئذ الإصلاح بحسب الإمكان،بإقامة ما يمكن إقامته من العدل الجزئي،وتخفيف ما يمكن من الظلم والفساد،كما دعا إليه الشيخ المحدث الفقيه أحمد شاكر رحمه الله،في رسالته (الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر التشريع في مصر) حيث يقول عن العمل السياسي والإصلاح الجزئي:(**سيكون السبيل إلى ما نبغي من نصر الشريعة السبيل الدستوري السلمي،أن نبث في الأمة دعوتنا،ونجاهد فيها ونجاهر بها،ثم نصاولكم عليها في الانتخاب،ونحتكم فيها إلى الأمة،فإذا وثقت الأمة بنا،ورضيت عن دعوتنا،واختارت أن تحكم بشريعتها،طاعة لربها،وأرسلت منا نوابها للبرلمان،فسيكون سبيلنا وإياكم أن ترضوا بما يقضي به الدستور،فتلقوا إلينا مقاليد الحكم كما تفعل كل الأحزاب،ثم نفي لقومنا بما وعدناهم به من جعل القوانين كلها مستمدة من الكتاب والسنة..**).[٧٠٧]

وكما قال العلامة عبد الرحمن السعدي في تفسيره بشأن النظام الجمهوري وأنه أفضل من النظام الدكتاتوري إذا لم يمكن للأمة إقامة النظام الإسلامي (ومنها أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئا منها وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم أو أهل وطنهم الكفار كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها بل ربما تعين ذلك لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية وتحرص على إبادتها وجعلهم عمَلَةً وخَدَمًا لهم

---

[707] – ص ٢٨ – ٣٥

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المتعين ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة والله أعلم). [٧٠٨].

فالواجب الإصلاح بحسب الإمكان كما قال النبي شعيب عليه السلام:{ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود:٨٨].

وكل من اجتهد وأراد الإصلاح سواء الإصلاح العام الكلي(الخلافة الراشدة)،أو الخاص الكلي(الحكومة الراشدة)،أو الخاص الجزئي (الإصلاح السياسي المحدود)،فهو مأجور على اجتهاده،وقد فعل الواجب بحقه والمقدور له،ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

تطبيق الشريعة لا ينعي تطبيق الحدود فقط

وتطبيق الشريعة ليس كما يتوهمه كثيرون بأنه هو تنفيذ الحدود في الجرائم،فهذا جزء يسير من الشريعة،بل هو آخر أحكامها،إذ قبل ذلك جاءت أحكام كثيرة لحفظ الحقوق وإقامة العدل ورفع الظلم،السياسي والاقتصادي والاجتماعي،وهو المقصود الرئيسي للأحكام،فكل من اجتهد من الحكومات الراشدة التي تختارها الأمة في تحقيق الإصلاح في شئون المجتمع والدولة لتحقيق الشوكة والقوة للأمة،وتعزيز قدرتها،سياسيا واقتصاديا وعلميا وعسكريا،فقد قام بتطبيق الشريعة..

والإسلام لا يظهر في الأرض إلا بعد تحقق التمكين له:{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [الحج:٤١].

وقال تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥]

---

708 -تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٨٩)

ولا يتحقق التمكين إلا بالقوة والشوكة،ولهذا عرف الفقهاء دار الإسلام بأنها التي تكون فيها الشوكة للمسلمين،إذ لا يتصور أن تكون لهم الشوكة والكلمة ولا يحكمون بالإسلام وشرائعه،فوجب تحصيل الشوكة وتحقيق القوة للأمة والدولة بالعلوم والصناعة والتطـــوير وتعزيز القوة الاقتصادية والعسكرية كما قال تعالى:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُـــوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُـــونَهُمُ اللَّـــهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠].

إذ في ظل حال الضعف وعدم تحقق الشوكة للأمة وشعوبها في الـــداخل بتحررهـــا مـــن الاستبداد الذي فرضه الأجنبي،وعدم تحقق الشوكة لدولهم بتحررها من النفوذ الخارجي،لا يمكن أن تقيم الأمة أحكام الإسلام في الأرض،فوجب العمل بكل وسيلة لتحقيق نهضـــة الأمة ودولها في كل المجالات السياسية والاقتصادية والصناعية والعلمية والعسكرية،إذ قوة الأمة قوة للإسلام،وضعفها ضعف للإسلام،وليس العكس،فكانت العناية بهذه الأصـــول والكليات من تطبيق الشريعة،وتحقيق غاياتها ومقاصدها.[٧٠٩]

[709] -http://www.dr-hakem.com/

المبحث الحادي والعشرون

(التجربة الإنسانية والثورة العربية نموذجا)[710]

استكمال جلسات التويتر والفيس بوك حول التجربة كمصدر للمعرفة الإنسانية والثورة العربية نموذجا...

• وإذا أردت أن تشاهد آية الآيات في الثورة المصرية فانظر يوتيوب (أشجع فتاة مصرية) واستمع لدعوات تلك الفتاة وأمانيها كيف تفتحت لها أبواب السماء

• وهذه آية من آيات الله التي تؤكد بأن الله هو الملك الحق وأن ما يرهبون من دونه ويعظمونهم ويطيعونهم هم الباطل

• هذا هو رابط الفتاة المصرية وتأملوا دعاءها هل فيه شيء من أمانيها لم يتحقق؟ http://t.co/Po1nBXl

• انظر حرقة تلك الفتاة المصرية وهي تضرب برجلها الأرض وتصرخ بالشعب المصري وتستغيث بالله هل كانت تعلم بأنه بعد ثلاثة أسابيع فقط سترى كل أمانيها تتحقق؟

• لقد تمنت أن يسقط حسني مبارك وولده جمال وحبيب العادلي وأحمد نظيف وحديد والحزب الوطني وأمن الدولة ورجال الداخلية فلم يغادر الله منهم أحدا؟

• استمع لكل دعائها وكل أمانيها التي صرخت بها تلك الفتاة المصرية ألم تتحقق كلها وخلال أقل من شهر؟ أليست آية على أن الله ملك عدل يستجيب للمظلوم؟

• لقد كانت تلك الفتاة المصرية تصرخ مع مجموعة من الشبان لا يتجاوز عددهم عشرين شابا أمام مبنى أمن الدولة في أول الأيام و لم يأبه لها الطاغية فسقط

• إنها تجارب تتكرر نتائجها بتكرر وجود أسبابها فالظلم له عاقبة مما يؤكد بأن هذا الوجود له نواميس وسنن غير مادية لا يلاحظها إلا أولوا الألباب

---

[710] – المقال للدكتور حاكم المطيري بتحقيقي

• وتدبروا قوله تعالى:{وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ } [الشعراء:٢٢٧] إنه أسوء منقلب وحال في الدنيا لم يتصوروه ولا تخيلوه والآخرة أشد وأنكى إلا من تداركه رحمة من ربه

• نحن نتحدث عن استغاثة المظلوم وكيف يستجيب الله له فهذا هو المقصود فقط ولا فرق في ذلك بين إنسان وآخر،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ:«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ،فَإِذَا جِئْتَهُمْ،فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[٧١١]

• وتدبروا قوله تعالى:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]

وكيف لحق شؤم الظلم وناره كل من ركنوا إلى الظالم في مصر وستستقصيهم وتمسهم جميعا؟

• وتدبروا قوله تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)} [الأنعام:٤٢ - ٤٥]

وانظروا قطع دابرهم في الدنيا وكيف يتبرأ بعضهم من بعض؟ وكيف تلهج ألسن المستضعفين من المصريين على اختلاف أديانهم بالحمد لله رب العالمين!

---

711 - صحيح البخاري (٢/ ١٢٨)(١٤٩٦)

• أتظنون بأنه لو كان لا إله والحياة مادة أو أن ما يجري صدفة أن تتكرر مصارع الظالمين على يد المستضعفين حين ينتصرون لقضيتهم وحقهم؟ أين هي نظرية الماديين البقاء للأقوى؟

• وبعد ذلك تدبروا قوله تعالى:{ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [الأنعام:٢١] { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } [إبراهيم:٤٢] {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)} [إبراهيم:١٣،١٤]..الخ

• قال لي أحد الدعاة المصريين بعد الثورة:أليست آية أن أكون ممنوعا من السفر ١٥ سنة ظلما وعدوانا والآن يمنع من منعني حتى من الذهاب لبيته وأهله؟

• تأملوا هذا الحديث الصحيح:عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ،فَقَالُوا:وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا:وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ،ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ،أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ،وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "[712]

فقصر سبب الهلاك بالظلم

• تفسير عناد الطغاة هو قوله تعالى:{ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة:٢٥٨] و{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف:١٨٣] فالله يعمي أبصارهم حتى يبطش بهم

• هل يعقل أن تمتلئ سجون دول الخليج ومحاكمها من آلاف القضايا بحق علماء ودعاة ومفكرين وكتاب وسياسيين! ولا نرى أحدا من الملأ المفسدين يحاكم؟

• هل رأيتم في دول الجزيرة والخليج العربي قط مسئولا وقف يحاكم أمام القضاء؟ فإما أنه لا يوجد مسئول فاسد ولا مسئول مجرم أو لا يوجد قضاء عادل؟

---

712 - صحيح البخاري (٤/ ١٧٥)(٣٤٧٥)

• لقد استحسن عمرو بن العاص خصلة في الروم،فعن مُوسَى بْنِ عُلَيٍّ،عَنْ أَبِيه،قَالَ:قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ،عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو:أَبْصِرْ مَا تَقُولُ،قَالَ:أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ،إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا:إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ،وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ،وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ،وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ:وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ"[٧١٣]

وهي من أسباب قوة المجتمعات ونهوضها وقوتها واستقرارها بخلاف الأمم المستعبدة

• وقد جاء في الحديث عَنْ يُونُسَ بْنِ مَيْسَرَةَ بْنِ حَلْبَسٍ،قَالَ:كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ وَهُوَ بِمِصْرَ أَنْ سَلْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ هَلْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُقْضَى فِيهَا بِالْحَقِّ وَيَأْخُذُ الضَّعِيفُ حَقَّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ» فَإِنْ أَخْبَرَكَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَابْعَثْهُ عَلَى مَرْكَبِهِ مِنَ الْبَرِيدِ. فَسَأَلَهُ فَقَالَ:«نَعَمْ» فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْكِتَابَ فَقَدِمَ عَلَى مَرْكَبِهِ مِنَ الْبَرِيدِ وَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُهُ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:وَأَنَا سَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتَ"[٧١٤]

وعدم التقديس يعني نفي الطهر والزكاة عنها بسبب رجس الظلم والطغيان

• ولهذا فسر المحققون قوله تعالى:{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود:١١٧] بإقامة العدل فيما بينهم فالله يديم العدل حتى مع الشرك بخلاف الظلم

لَيْسَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى،وَلاَ مِنْ عَدْلِهِ فِي خَلْقِهِ،أَنْ يُهْلِكَ القُرَى بِشِرْكِ أَهْلِهَا،مَا دَامُوا مُصْلِحِينَ فِي أَعْمَالِهِم الاجْتِمَاعِيَّةِ،وَالعُمْرَانِيَّةِ وَالمَدَنِيَّةِ،فَلاَ يَبْخَسُونَ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ،وَلاَ يَبْطِشُونَ بِالنَّاسِ،وَلاَ يُذِلُّونَ لِمُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ كَقَوْمِ فِرْعَوْنَ،وَلاَ يَرْتَكِبُونَ الفَوَاحِشَ وَلاَ يَقْطَعُونَ السَّبِيلَ،وَلاَ يَأْتُونَ فِي نَادِيهِمُ المُنْكَرَ،بَلْ لاَ بُدَّ لَهُمْ،لِيَحِقَّ عَلَيْهِمُ العَذَابَ وَالهَلاَكَ،مِنْ أَنْ يَجْمَعُوا إِلى الشِّرْكِ الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَالاسَاءَةِ فِي الأَعْمَالِ وَالأَحْكَامِ،وَأَنْ يَفْعَلُوا الظُّلْمَ المُدَمِّرَ لِلْعُمْرَانِ.

---

713 – صحيح مسلم (٤/ ٢٢٢٢)٣٥ – (٢٨٩٨)

714 – مسند الشاميين للطبراني (١/ ١٨٢)(٣١٥) صحيح لغيره

فَالأُمَّةُ التي يَقَعُ فِيهَا الفَسَادُ بتَعْبيد النَّاسِ لِغَيْرِ اللهِ بِصُورةٍ مِنْ صُوَرِهِ فَيَكُونُ فيهَا مَنْ يَنْهَضُ لِدَفْعِهِ هِيَ أُمَمٌ نَاجِيَةٌ لاَ يَأْخُذُهَا اللهُ بالعَذَابِ وَالتَّدْمِيرِ. أَمَّا الأُمَمُ التي لاَ يَجِدُ فِيهَا الظَّالِمُونَ مَنْ يَرْدَعُهُم وَيَنْهَاهُم عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ فَإِنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعَالَى تُحِقُّ عَلَيْهَا إِمَّا بِهَلاَكِ الاسْتِئْصَالِ،وَإِمَّا بِهَلاَكِ الانْحِلاَلِ وَالاخْتِلاَلِ؟[٧١٥]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"وَأُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي فِيهِ الاشْتِرَاكُ فِي أَنْوَاعِ الْإِثْمِ:أَكْثَرُ مِمَّا تَسْتَقِيمُ مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحُقُوقِ وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِكْ فِي إثْمٍ؛وَلِهَذَا قِيلَ:إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ:الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ.[٧١٦]

• وسنن الله لا تحابي أحدا { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } [النساء:١٢٣] فالجزاء من جنس العمل وهذه نواميس تعرف بالتجربة والملاحظة

• وما تعيشه الأمة اليوم هي سنة مطردة،فحين تركت الظالم يعبث بها عمها العقاب بشيوع الظلم وضعف المجتمع وتسلط العدو الخارجي عليها وهو نتيجة طبيعية { وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]

• من السنن المجتمعية أن الظلم مؤذن بالسقوط وأن السكوت عن الظلم يفضي إلى عذاب عام،فعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥] وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا عُمِلَ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي فَلَمْ يُغَيِّرُوا أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابٍ»[٧١٧]

وانظر الشقاء والبؤس الذي عاشته الشعوب العربية!

---

715 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٥٩١،بترقيم الشاملة آليا)

716 – مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية– دار الوفاء (٢٨/ ١٤٦)

717 – السنن الواردة في الفتن للداني (٣/ ٧٠١)(٣٣٥) صحيح لغيره

• س / أحيانا نرى ظلم ولا نرى نصرا للمظلوم؟ كما جرى في حماة على يد حافظ الأسد؟

• هناك فرق بين ثورة الشعب كله على بشار وثورة حماة على والده فإذا تخلفت بعض شروط النصر يتخلف النصر ويوم القيامة الحكم لله الملك العدل فمن لم ينتقم الله منه في الدنيا انتقم منه في الآخرة

• فالواجب النظر في تجارب الأمم الأخرى والاستفادة منها كتجارب إنسانية مشاع تثبت التجربة صحتها أو خطئها وقد استفاد عمر الدواوين من فارس والروم

• ولم يمزق مجتمع المدينة النبوية وجود المهاجرين والأنصار وتنافسهم يوم السقيفة،فعَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ:لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،قَالَتِ الْأَنْصَارُ:مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ،فَأَتَاهُمْ عُمَرُ فَقَالَ:" أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَدْ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ،أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ؟ فَأَيُّكُمْ تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ؟ قَالُوا:نَعُوذُ بِاللهِ أَنْ نَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ " [718]

بل هذا التنوع هو سر قوة المجتمع

• وكذا وجود الأحزاب السياسية لم يؤد إلى تفرق الشعب الأمريكي وشعوب أوربا،بل هي أكثر وحدة وتماسكا من مجتمعاتنا التي تعيش كل صور التمزق الفئوي

• لهذا رأينا بالتجربة المشاهدة في أمم الغرب والشرق ارتباط العدل بالاستقرار والقوة مع أن تلك الأمم تؤمن بحقها الطبيعي في الثورة ومع ذلك فهي لا تحتاجها فأصبح إيمانها بهذا الحق قوة ردع تمنع الظالم من الاستبداد بهم {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:١٧٩]

• بينما مجتمعاتنا التي لا تؤمن بحقها في الثورة سواء باسم الدين أو الوطنية.. ألخ ومع ذلك هي أقل المجتمعات استقرارا بل تتخطفها الفتن والاضطرابات

• فإيمان تلك الشعوب في حقها في الثورة قائم على أساس أن السلطة وكيل عنها تعبر عن إرادتها فحين تستبد فللشعوب الحق في الثورة عليها وتغييرها وهذا وحده كاف في منع الاستبداد عندهم فلا تحدث ثورات واضطرابات

---

[718] – السنن الكبرى للنسائي (١/ ٤١٧)(٨٥٥) صحيح وهو في الصحيحين مطولا

• بينما عدم إيمان شعوبنا في حقها في الثورة لأنها أصلا لا ترى حقا لها في الوطن والأرض فضلا عن السلطة فهي تعيش أزمة هوية عميقة مما جعلها سلبية وقد أدى ذلك إلا طغيان الطغاة حين اطمأنوا أن الأمة لن تثور عليهم فأفضى ذلك إلى عدم الاستقرار

• فلا إيمان الشعوب الغربية بالثورة أفضى إلى فتن واضطرابات بل هي أكثر استقرارا وقوة ولا إيمان شعوبنا بعدم حقها في الثورة أدى لاستقرارها وقوتها

• وأخطر ما تكون السلبية حين تفلسف باسم الدين وهنا تتعطل قدرات العقول عن الاستفادة من التجارب والسنن والنواميس فضلا عن العجز عن فهم الدين نفسه

• والتجارب الإنسانية المعاصرة أولى من التجارب التاريخية التي تختلف ظروفنا عن ظروفها فإذا ثبت أن التجربة مصدر معرفي صحيح فلا حرج من الاستفادة منها كالتعددية السياسية والتداول السلمي للسلطة والتنافس بين أحزاب منظمة وفق برامج عمل تحقق مصالح الشعب

• والبديل عن التعددية هو الاستبداد والاستفراد بالسلطة من فرد أو فئة ولا طريق ثالث بينهما وتجربة لبنان ليست نموذجا بل طائفية وفساد وليست تعددية

• وهناك شروط كثيرة لتحقيق العدل فالحرية السياسية والتعددية والتداول السلمي للسلطة أحدها فقد توجد حرية وتعددية ولا يوجد عدل لتخلف الشروط الأخرى

• فلا حرية للمواطن في ظل وطن تحت احتلال ونفوذ أجنبي مهما سمح الاحتلال بحرية الصحافة والانتخابات كما هو حال مصر تحت الانتداب والعراق اليوم

• وجاء في الحديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف:٥٨][٧١٩]

فترك العمل والانشغال بالجدل سمة بارزة قبل الثورة التي قادها شباب لم يشغلهم جدل كما هو حال كثير من الدعاة

• إن الثورة في أي بلد هي هزة سياسية ينتقل بها المجتمع والدولة بالقوة من حال سلبية إلى حال إيجابية ومن حال الركود والموت إلى حال الحياة والتجدد

---

719 – سنن ابن ماجه (١/ ١٩)(٤٨) حسن

• فكل ثورة لم تنتقل بالمجتمع انتقالا جذريا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا فهي ثورة قاصرة بل لا يصدق عليها أنها ثورة حتى لو أسقطت نظاما وأقامت نظاماً آخر

• والفرق بين الثورة والفتنة أن الثورة صراع بين مشروعين سياسيين لإعادة تشكيل واقع المجتمع نحو الأفضل والفتنة صراع بين عصابتين للسيطرة على السلطة(وقد تكون العصابتان على حق أو على باطل أو على الدنيا)

• فجاءت الثورة اليوم لتنتقل بالعالم العربي وبالقوة الشعبية السلمية من حال التخلف والظلم والعبودية إلى التقدم والعدل والحرية واستعادة الكرامة

• وهي ثورة واحدة من شعوب تعيش مشكلة واحدة وتواجه تحديات واحدة وفي زمن واحد وبأسلوب واحد ولأسباب واحدة ولتحقيق أهداف واحدة لأنها أمة واحدة

• وإن لكل ثورة ثقافتها وقيمها وفلسفتها وأخلاقها وروحها وأثرها الاجتماعي السياسي والاقتصادي والفكري وقد بدت الثورة العربية كذلك وستطبع الواقع به

• فهي ثورة وصراع بين مشروعين مشروع التخلف والعبودية والطبقية والتجزئة والاحتلال الذي كان وراءه الاستعمار منذ كامب ديفد إلى سقوط بغداد وحصار غزة

• ومشروع المستقبل الذي يتطلع إلى التقدم والتحرر والحرية والمساواة والاستقلال والوحدة والنهضة ولهذا تمالئ عليها الجميع كل بأسلوبه للتحكم بها

• إن محاكمة حسني مبارك اليوم هي محاكمة لحقبة من تاريخ الأمة صنعه مؤتمر كامب ديفيد تم فيه تدجين الأمة كلها لمشروع الهيمنة للاحتلال وحلفائه

• وإن الثورة العربية المعاصرة هي ولادة جديدة للعالم العربي وقد جاءت بعد مخاض عسير عاشت الأمة فيه أحلك الظروف باحتلال العراق وحرب غزة

• لقد جاءت هذه الثورة العربية الواحدة بطبيعتها لا لتحرير العرب وحدهم بل لتلهم شعوب العالم كله وتلهب مشاعرهم نحو الحرية والعدل والمساواة

• إن أبرز ملامح هذه الثورة العربية التاريخية أنها بلا زعامة ولا قيادة ولا سيادة فهي ثورة أمة تجلت فيها أبلغ صور المساواة الإنسانية بين أفرادها

• فالمساواة أحد أهم أهداف الثورة العربية كما كان غيابها أحد أهم أسبابها تفجرها ولهذا جاءت ثورة شعبية عامة لا قيادة لها ولا زعامة فالكل سواء

• وكذا كان من أهم ملامحها سموها الإنساني فقد كان شعارها (سلمية سلمية) وكان سلوكها وممارساتها سلمية فلم تكن فسادا ولا انتقاما بل إصلاح وسلام

• فقد كان من أهم أهداف الثورة العربية استعادة إنسانية الإنسان وكرامته ورحمته ببني الإنسان إذ كان غياب هذه المعاني أحد أهم أسباب الثورة

• كما تجلت في الثورة العربية أجمل معاني الوحدة بين فئات المجتمع على اختلاف مكوناته فلا طائفية ولا عرقية ولا فئوية ولا مناطقية ولهذا فشلت في البحرين حين نحت منحى طائفيا وتخلى نصف الشعب عنها فكانت ثورة طائفة لا ثورة شعب مع عدالة القضية نفسها

• فقد كان غياب الوحدة أحد أهم أسباب الثورة وكان استعادتها أحد أهم أهدافها بعد عقود من تكريس الطاغوت للفرقة واستغلاله لها وضربه لنسيج المجتمع

• كما تجلى في هذه الثورة أوضح صور العدل وتجلت بشرف الخصومة فقد كانت ثورة ومع ذلك تحرت العدل مع خصومها وطالبت بمحاكمتهم و لم تنتقم أو تتعد عليهم،قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]

• فقد كان غياب العدل وفقد سلطة القضاء واستقلاله من أهم أسباب الثورة وكان استعادته من أهم أهدافها ولهذا تعاملت الثورة بانسجام تام مع مبادئها

• بل لقد كادت الثورة من نبلها أن تقول للطغاة كما قال رسول الله ﷺ " يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ " قَالُوا:خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ قَالَ " فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ { لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ } اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ [720]. لولا أنهم أبوا إلا مواجهتها بسفك الدماء وقتل الأبرياء وإهلاك الحرث والنسل

---

[720] – الأموال لابن زنجويه (١/ ٢٠١)(٢٤٠) وزاد المعاد – موافق للمطبوع (٣/ ٣٥٦) وسيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٤١٢) ونضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم – ﷺ–دار الوسيلة للنشر والتوزيع،جدة (١/ ٣٦٩) حسن

• لقد حاول العالم كله فهم هذه الروح التي سرت في العالم العربي ورياح النصر التي هبت فجأة فتساقط أمامها الطغاة كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف

• لقد كان سبب النصر واضحا جليا فقد كفر الشعب العربي بالطاغوت ونظام حكمه وكفر بالعبودية التي يعيشها وكفر بالملأ وسيطرتهم على أسباب الرزق {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٥٦]

وقال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) } [الذاريات:٥٦ – ٥٨]

• كما كفر الشعب العربي بالواقع السياسي الذي بلغ أقصى درجات الانحطاط والانحلال الأخلاقي والسياسي لقد كفروا بالطاغوت فوهب الله لهم وللأمة معهم الحياة من جديد

• لقد انتصر الحق لنفسه وحق له أن ينتصر وأن يظهر فأزهق الله الباطل وحق له الزهوق والسقوط {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } [الإسراء:٨١]

• س / ألا تراه خطرا على الثورة عدم وجود قيادة لها؟

• ج/ عدم وجود قائد للثورة أمر إيجابي حيث يحميها في البداية من الوأد كما لو قتل قائدها كما يحميها من الانحراف أما بعد نجاحها فالقيادات كثيرة

• والثورات بطبيعتها تفرز قيادات وزعامات جديدة فلا خوف على الثورة فالثوار كلهم قادة والشعوب من ورائهم

• والثورة العربية جاءت متوافقة مع الثقافة العربية التي تترع إلى الفردية والاستقلال وكل بلد فيه من القوى السياسية من يملأ الفراغ

• هناك فرق بين الثورة الشعبية التي يقوم بها المجتمع حتى يسقط النظام ثم يبدأ دور القوى السياسية المنظمة التي تعبر عن توجهاته

• وقد حاول قراصنة الثورات وما زالوا سرقة الثورة العربية في الداخل والخـــارج وقـــد فشلوا وسيفشلون فالثورة قدَرٌ وقد وقع وسينفذ سهم الثورة في كل شبر

• لقد قامت الثورة احتجاجا على واقع سياسي ظالم فاسد متخلف ولن تخمـــد حـــرارة الثورة حتى يرى الثوار أن ثورتهم انعكست على واقعهم عدلا وصلاحا وتطورا

• كما تصور الواهمون أن الثورة ستهدأ بسقوط الطاغوت وتفاجأ الجميع بأن البركان لم يهدأ بعد ومازال يرمي بالحمم وسيستمر حتى تحقق الثورة أهدافها

• وبلا شك فالثورات التاريخية تستغرق عقدا أو عقدين حتى تحقـــق أهـــدافها المرحليـــة والنهائية

المبحث الثاني والعشرون

(الثورة الأخلاقية شرط النهضة الحضارية)

أيها العرب الأحرار،والثوار الأبرار،في العالم العربي من الخليج إلى المحيط..

إنكم اليوم وأنتم تصنعون المجد،وتحيون الأمل،وتبعثون الحرية في نفوس شعوبكم من جديد،وتخطون طريق المستقبل بعزيمتكم الصابرة،وبمداد دمائكم الطاهرة،من أجل واقع سياسي عربي أفضل،بثورتكم العربية التي ضربت أروع المثل في سلميتها وإنسانيتها وتحضرها،في مقابل طغيان الطغاة وفجورهم وشدة بطشهم وإجرامهم وتخلفهم..

أيها الثوار الأحرار..

إنكم وأنتم تصنعون ذلك وتستقبلون عهدا جديدا لفي أشد الحاجة إلى مراجعة النفس والصدق معها ومحاسبتها،لمعرفة كيف بلغ الطغيان في أمتنا إلى هذا الحد حتى سالت دماء الأبرياء أنهارا،وانتهك الطغاة أعراض الحرائر مرارا وتكرارا،وتحول العالم العربي إلى إقطاع لعصابات إجرامية،ما كان لها أن تحكم أو تسود لولا أن الأمة قد أصيبت في أخلاقها بمقتل!

(وإذا أصيب القوم في أخلاقهم.... فأقم عليهم مأتما وعويلا)!

أيها العرب الأحرار..

إذا كانت الثورة العربية اليوم ضرورة فرضها الواقع السياسي بعد انحطاط دام ثلاثين سنة،فإن الثورة الأخلاقية التي يجب أن تواكب الثورة السياسية ضرورة يفرضها الواقع الاجتماعي،وشرط للنهضة الحضارية المنشودة،فالعرب اليوم أحوج إلى ثورة أخلاقية منهم إلى ثورة سياسية – قد تعود بعدها أوضاعهم إلى سابق عهدها ما لم يواكبها ثورة إحيائية روحية وأخلاقية – يرتقي بها الإنسان العربي إلى مقام الشهود الحضاري الذي عبر عنه قوله تعالى:{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران:١١٠]!

إن للقيم الروحية والأخلاقية مكانتها في كل الرسالات السماوية والفلسفات الوضعية،وكما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ " [721]

ولهذا كانت القيم الإنسانية النبيلة في كل الأمم هي من آثار النبوة كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ،حَدَّثَنَا أَبُو مَسْعُودٍ عُقْبَةُ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ،إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ»[722]

وعَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ،حَدَّثَنَا أَبُو مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى:إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ "[723]

إن خطورة القيم الأخلاقية تكمن في كونها هي الحد الفارق بين الطبيعة الإنسانية والطبيعة الحيوانية! فالإنسان بلا خلق ولا دين إما وحش كاسر أو ذئب غادر أو ثعلب ماكر أو قرد عاهر! وهو ما تجلّى في أوضح صوره في سلوكيات أكثر الرؤساء العرب مع شعوبهم قبل الثورة وبعدها!

أيها العرب الأحرار..

لقد كان للانحطاط السياسي الذي عاشه العرب في عصورهم الأخيرة،أسبابٌ اجتماعية خطيرة،تحللت فيها القيم الأخلاقية حتى ساد المجتمعَ العربي في عامة دوله أراذُله،وساسه سفهاؤه،كنتيجة طبيعية لشيوع سلوكيات تتنافى مع كل معاني الصدق والشجاعة والحرية والمجد والمروءة والشرف،التي لا يمكن للمجتمعات الإنسانية أن تنهض من كبوتها دون أن يتحقق لها قدر من تلك القيم الكريمة!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه،لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ،وَالْبُخْلُ،وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ،وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ،وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ،وَتَظْهَرَ التُّحُوتُ»

---

721 – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٢٣)(٢٠٧٨٢) صحيح

722 – صحيح البخاري (٤/ ١٧٧)(٣٤٨٣)

723 – صحيح البخاري (٨/ ٢٩)(٦١٢٠)

قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّه،وَمَا الْوُعُولُ وَالتَّحُوتُ؟ قَالَ:«الْوُعُولُ:وجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ،وَالتَّحُوتُ:الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ».[٧٢٤]

ولقد حذر النبي ﷺ كعب بن عجرة من إمارة السفهاء وأبرز صفاتهم كذبهم على الله وعلى الناس،وظلمهم للعباد،فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ،أُعِيذُكَ بِاللَّهِ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ،إِنَّهَا سَتَكُونُ أُمَرَاءُ،مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي،وَلَسْتُ مِنْهُ،وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ،وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ،وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ،وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ،فَهُوَ مِنِّي،وَأَنَا مِنْهُ،وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ،يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ،الصَّلَاةُ قُرْبَانٌ،وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ،وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيَّةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ،وَالنَّاسُ غَادِيَانِ،فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ،فَمُعْتِقٌ رَقَبَتَهُ،وَمُوبِقُهَا،يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ،إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ».[٧٢٥]

لقد كان لكل الأمم والشعوب التي نهضت في سلّم الحضارة من القيم الأخلاقية ما حفزها على بلوغ ما تصبو إليه،بل إن أساس الحضارة الإنسانية الأول هو القيم الأخلاقية،فالإنساني مدني بطبعه ولا يتحقق له العيش في الجماعة إلا على أساس سلوك يحقق الألفة والتعاون والاجتماع الإنساني،كالمحبة والإخلاص والصدق،لتستقيم به حياتهم،وكل الحضارات الإنسانية القديمة والمعاصرة لم تحقق نهضتها إلا بشيء من ذلك،وقد أدرك عمرو بن العاص رضي الله عنه داهية العرب وأمير مصر سر قوة الروم وظهورهم فقال عنهم كما في صحيح مسلم قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ،عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو:أَبْصِرْ مَا تَقُولُ،قَالَ:أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ،إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا:إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ،وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ،وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ،وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ:وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ"[٧٢٦]

---

724 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٥/ ٢٥٨)(٦٨٤٤) صحيح

725 – صحيح ابن حبان – مخرجا (٥/ ٩)(١٧٢٣) صحيح

726 – صحيح مسلم (٤/ ٢٢٢٢)٣٥ – (٢٨٩٨)

وقَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ،يَقُـولُ:«تَقُـومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو:أَبْصِرْ مَا تَقُولُ،قَالَ:أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:" لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا:إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ،وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ،وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ،وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِـيمٍ وَضَعِيفٍ،وَخَامِسَـةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ:وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ "[٧٢٧]

فالحلم والصبر والرحمة والإحسان إلى الضعيف واليتيم والامتناع من ظلم الملـوك كلـها صفات إنسانية نبيلة،وهذه حضارة أوربا واليابان اليوم يحلُّ فيها الصدق في سـلَّم القـيم الحضارية لدى شعوبها،فالصدق في المعاملة فيما بينهم من أبرز صفات تلك الأمم،وقد بلغ بهم الحال أن تسقط الحكومات ويستقيل الوزراء حين يقع منـهم مـا يخـل في تلـك القيم،وكم من حكومة أو رئيس سقط لعثرة سقطها،أو كذبة كذبها،أو فضيحة أخلاقيـة اقترفها كتحرش جنسي ونحوه،في الوقت الذي تظهر الجرائم الأخلاقية التي يندى لها الجبين لرؤساء ولملوك عرب وبالصوت والصورة دون أن يحدث ذلك أدنى هزة سياسـية لـدى شعوبنا!

(وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت.. فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا)

لماذا تهتز أوربا وأمريكا لوقوع المسئول السياسي في فعل يخلُّ بالشرف كأخذ رشـوة أو تحرش جنسي أو استغلال للمنصب..الخ بينما يقع من المسئولين العرب أبشـع الجـرائم الإنسانية والأخلاقية،كهتك الأعراض،وسفك الدماء،ونهب الأموال،دون أن يعـرق لهـا جبينهم أو يخشوا من حساب أو عقاب! أو يتصدى لهم عالم أو مفكر؟!

لقد جاء في الحديث – والواقع أصدق شاهد – ما يؤكد التلازم بين شـيوع الفاحشـة والظلم وانهيار المجتمعات،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:" مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ قَطُّ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ،وَلَا فَشَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا أَخَذَهُمُ اللهُ بِالْمَوْتِ،وَمَا طَفَّفَ قَوْمٌ الْمِيـزَانَ إِلَّـا

---

[727] – السنن الواردة في الفتن للداني (٦/ ١١١٧)(٦٠١) صحيح

أَخَذَهُمُ اللهُ بِالسِّنِينَ،وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا مَنَعَهُمُ اللهُ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ،وَمَا جَارَ قَوْمٌ فِي حُكْمٍ إِلَّا كَانَ الْبَأْسُ بَيْنَهُمْ،أَظُنُّهُ قَالَ:وَالْقَتْلُ "[٧٢٨]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ،وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ،حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا،إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ،وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا،وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ،إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ،وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ،وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ،وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ،إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ،وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا،وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ،وَعَهْدَ رَسُولِهِ،إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ،فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ،وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ،وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ،إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ "[٧٢٩]

وجاء في الحديث الصحيح عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«اتَّقُوا الظُّلْمَ،فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَاتَّقُوا الشُّحَّ،فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[٧٣٠]

أيها الأحرار الأبرار..

إن العالم العربي ظل يعيش منذ عقود أزمة أخلاقية تشكلت في ظل أنظمة حكم فاسدة،مارست ورعت الفساد بكل صوره،حتى ساد الأمة أشرارُها وسفهاؤها كما في الحديث عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِنُونَ خَوَادِعُ،يُتَّهَمُ فِيهَا الْأَمِينُ،وَيُؤْتَمَنُ الْخَائِنُ،وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ،وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ،وَيَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ النَّاسِ الرُّوَيْبِضَةُ» قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ:«السَّفِيهُ يَنْطِقُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»[٧٣١]

---

728 – السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٤٨٣)(٦٣٩٨) صحيح موقوف وحكمه حكم المرفوع

729 – سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٢)(٤٠١٩) حسن

730 – صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٦)٥٦ - (٢٥٧٨)

731 – مسند الشاميين للطبراني (١/ ٥٠)(٤٧) صحيح

لقد كشفت الثورة المصرية والتونسية وما جرى من محاكمات ابتدائية مدى الفساد والانحطاط الذي استشرى في العالم العربي،فرئيس يتاجر بالمخدرات،وآخر يرتشي من الصفقات،ورئيس مجلس شورى يتهم باختلاسات،ووزراء متورطون في الفساد المالي والأخلاقي..الخ

فكيف وصل هؤلاء للحكم؟ وكيف بقوا كل هذه المدة؟ وكيف طبل لهم الإعلام والكتاب والمثقفون والشعراء والخطباء؟

إن من يقرأ ما ينشر،ويطالع ما يذكر،عن الفساد في قصور الحكم ومؤسسات الدول في العالم العربي كله يدرك أن الانحطاط والتخلف والضعف كان نتيجة طبيعية في ظل حكم هذه العصابات الإجرامية!

إن وجود مثل هؤلاء في الحكم مؤذن بفساد المجتمع وانحطاطه (فالناس على دين ملوكهم)،وكما في الأثر عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَهَا زَيْنَبُ،فَرَآهَا لاَ تَكَلَّمُ،فَقَالَ:«مَا لَهَا لاَ تَكَلَّمُ؟» قَالُوا:حَجَّتْ مُصْمِتَةً،قَالَ لَهَا:«تَكَلَّمِي،فَإِنَّ هَذَا لاَ يَحِلُّ،هَذَا مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ»،فَتَكَلَّمَتْ،فَقَالَتْ:مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:«امْرُؤٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ»،قَالَتْ:أَيُّ المُهَاجِرِينَ؟ قَالَ:«مِنْ قُرَيْشٍ»،قَالَتْ:مِنْ أَيِّ قُرَيْشٍ أَنْتَ؟ قَالَ:«إِنَّكِ لَسَئُولٌ،أَنَا أَبُو بَكْرٍ»،قَالَتْ:مَا بَقَاؤُنَا عَلَى هَذَا الأَمْرِ الصَّالِحِ الَّذِي جَاءَ اللَّهُ بِهِ بَعْدَ الجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ:«بَقَاؤُكُمْ عَلَيْهِ مَا اسْتَقَامَتْ بِكُمْ أَئِمَّتُكُمْ»،قَالَتْ:وَمَا الأَئِمَّةُ؟ قَالَ:«أَمَا كَانَ لِقَوْمِكِ رُءُوسٌ وَأَشْرَافٌ،يَأْمُرُونَهُمْ فَيُطِيعُونَهُمْ؟» قَالَتْ:بَلَى،قَالَ:«فَهُمْ أُولَئِكِ عَلَى النَّاسِ»[٧٣٢]

إن صلاح السلطة سبب في صلاح المجتمع،وفسادها سبب في إفساده،عَنْ مَخْلَدِ بْنِ قَيْسٍ الْعِجْلِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:لَمَّا قُدِمَ بِسَيْفِ كِسْرَى وَمَنْطِقَتِهِ وَزَبَرْجَدِهِ عَلَى عُمَرَ قَالَ:إِنَّ أَقْوَامًا أَدُّوا هَذَا لَذُوُو،فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ:إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتِ الرَّعِيَّةُ"[٧٣٣]

---

732 – صحيح البخاري (٥/ ٤٢)(٣٨٣٤)

733 – فضائل الصحابة للدارقطني (ص:٤٥)(١٩) وتهذيب الرياسة وترتيب السياسة (ص:١٠٠) وسراج الملوك (ص:١٢٥)حسن لغيره

وعَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ قَالَ:لَمَّا أُتِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِتَاجِ كِسْرَى وَسِوَارَيْهِ؛ جَعَلَ يُقَلِّبُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ،وَيَقُولُ وَاللهِ! إِنَّ هَذَا الَّذِي أَدَّى هَذَا لَأَمِينٌ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أَنْتَ أَمِينُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،يُؤَدُّونَ:إِلَيْكَ مَا أَدَّيْتَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،فَإِذَا خُنْتَ؛ خَانُوا"[٧٣٤]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:" إِنَّ النَّاسَ يُؤَدُّونَ إِلَى الْإِمَامِ مَا أَدَّى الْإِمَامُ إِلَى اللهِ،وَإِنَّ الْإِمَامَ إِذَا رَتَعَ رَتَعَتِ الرَّعِيَّةُ،وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ نُفْرَةٌ عَنْ سُلْطَانِهِمْ،وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ يُدْرِكَنِي وَإِيَّاكُمْ ضَغَائِنُ مَحْمُولَةٌ،وَأَهْوَاءٌ مُتَّبَعَةٌ،وَدُنْيَا مُؤْثَرَةٌ،فَأَقِيمُوا الْحَقَّ،وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ "[٧٣٥]

أيها الأحرار الثوار..

لقد سادت في العالم العربي خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة طبقة سياسية حاكمة – تحت سمع وبصر ورعاية الاستعمار – هي الأسوأ أخلاقيا وسلوكيا في تاريخ العرب الحديث،فمقارنة بين الرؤساء والأمراء العرب قبل وبعد حقبة (كامب ديفيد) نجد البون شاسعا بين الفريقين،فلم يشتهر أحد من الرؤساء قبلها بالسرقة أو الإثراء غير المشروع،بل كانت نظافة اليد ونزاهتها أبرز ما في تلك الحقبة،حيث كان للرؤساء آنذاك هموم وطنية فكانوا يكابدون لتحقيقها لشعوبهم،ومع استبدادهم في السلطة، لم يعرف عنهم وعن أسرهم أنهم أثروا،بينما لا يكاد يوجد أحد ممن حكم منذ كامب ديفيد إلى اليوم إلا وقد اشتهر بالفساد الأخلاقي والثراء غير المشروع،وبتعزيز نفوذ أسرته وحاشيته وبطانته وزوجاته وأبنائه،كحال قطاع الطرق وعصابات المافيا،حتى صار هم كل رئيس وملك وأمير توريث ابنه الحكم والثروة!

---

734 – المجالسة وجواهر العلم (٢/ ٢٤٣)(٣٧٤) صحيح مرسل

735 – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٢٩)(٢٠٤٦١) صحيح مرسل

وإذا كان (الناس على دين ملوكهم)[٧٣٦] فقد أدى سيطرة هذه الطبقة الفاسدة على المجتمعات العربية إلى شيوع مساوئ الأخلاق في كل فئات المجتمع من كذب ونفاق وجبن وطمع ودناءة نفس وخسة طبع كما هي أخلاق هذه الطبقة وحاشيتها!

وقد جاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ،وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ - وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ:شَيْخٌ زَانٍ،وَمَلِكٌ كَذَّابٌ،وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ "[٧٣٧]

وتكاد هذه الصفة تكون الأبرز في عامة الملوك والأمراء والرؤساء العرب خاصة في ظل حقبة عصر (كامب ديفيد) فأصبح كذب الرؤساء على شعوبهم،وكذبهم فيما بينهم،وكذبهم على العالم ظاهرة تحدث عنها المسئولون الأجانب أنفسهم وأن الرؤساء العرب يقولون لهم شيئا ولشعوبهم شيئا آخر!

إن خطورة شيوع مثل هذا الخلق يكمن في كونه رأس كل خلق ذميم فمن كذب واستمرأ ذلك لا يمتنع عن النفاق الذي هو نقيض الإيمان الذي أساسه الصدق،ولا يمتنع عن الخيانة التي تنافي الأمانة التي تقوم على الصدق،ولا يمتنع عن الغدر الذي ينافي الوفاء الذي يقوم على الصدق،ولا يمتنع عن إخلاف الوعد الذي يقوم على الصدق،ولا يمتنع عن الحنث باليمين الذي ينافي الصدق! وهذا معنى حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا،وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا:إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ،وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ،وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " [٧٣٨]

بل وأخطر الغدر غدر الأمير (الرئيس،الحاكم) نفسه،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ،أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ»[٧٣٩]

---

736 – التبر المسبوك في نصيحة الملوك (ص:٥٢) والفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (ص:٣٢)

737 – صحيح مسلم (١/ ١٠٢)١٧٢ - (١٠٧)

738 – صحيح البخاري (١/ ١٦)(٣٤) وصحيح مسلم (١/ ٧٨)١٠٦ - (٥٨)

739 – صحيح مسلم (٣/ ١٣٦١) ١٦ - (١٧٣٨)

ولخطورة هذا الخلق الذميم جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ،فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ،وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ،وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا،وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ،فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ،وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ،وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[٧٤٠]

وعن ابْنِ شِهَابٍ،وَأَبِي الْحُوَيْرِثِ،وَمُحَمَّدِ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ،أَنَّهُ بَلَغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ،عَلَيْهِ السَّلَامُ،أَنَّهُ قِيلَ لَهُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ " هَلْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ شَحِيحًا،فَقَالَ:«نَعَمْ»،فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهَلْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ سَيِّئَ الْخُلُقِ؟،قَالَ:«نَعَمْ»،فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهَلْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟،قَالَ:«نَعَمْ»،فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهَلْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ قَالَ:«لَا»[٧٤١]

وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ،سُئِلَ،فَقِيلَ لَهُ:" يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ:«نَعَمْ»،فَقِيلَ:أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟،فَقَالَ:«نَعَمْ»،فَقِيلَ:أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟،فَقَالَ:«لَا»[٧٤٢]

أيها العرب الأحرار..

إنه لا يمكن للثورة العربية أن تؤتي أكلها وتحقق غايتها ما لم تنجح في خلق ثقافة جديدة تعاد فيها للقيم الأخلاقية مكانها في سلّم أولويات الثورة،فقد كانت هذه المنطقة وما تزال مهد الحضارة الروحية والأخلاقية فمنها خرجت للعالم كله الرسالات السماوية الثلاث،وقيمها الأخلاقية،وستظل كذلك مهما وقع من ضعف طارئ،وهو ما يؤكد ضرورة استعادة المنطقة لهويتها ودورها الأخلاقي والإنساني من جديد،في عالم يعيش اليوم أزمة روحية وأخلاقية كبرى!

---

740 – صحيح مسلم (٤/ ٢٠١٣)١٠٥ – (٢٦٠٧)

741 – الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٦١٧)(٥٢٠) صحيح مرسل

742 – الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص:٦١٨)(٥٢١) صحيح مرسل

إن على كل عربي حر يؤمن بالثورة العربية ومشروعها،ويطمح لتغيير واقع العالم العربي نحو مستقبل أفضل،أن يشارك في الثورة الأخلاقية الروحية وأن يبدأ بنفسه:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد:١١]،فيجب أن تتغير الشخصية العربية في ظل الثورة،فقد ولّى عصر الجبن والخوف،فالسعادة محرمة على الجبناء،والحياة كرامة لا يستحقها إلا الأحرار،وقد ولّى زمن الأنانية والأثرة وحب الذات والفردية التي طغت حتى استفرد الطغاة بالأحرار واحدا واحدا،فكم ذهب بالسجون من أبرياء،وكم قتل من شهداء،وكم هجّر من أتقياء،في ظل سلبية المجتمع العربي تجاههم،وهو ما جاءت الثورة العربية لتغييره،فالثورة أحيت قيم العمل المجتمعي الجماعي الذي افتقدته الأمة طوال العقود الثلاثين الأخيرة!

إن الثورة العربية في حاجة اليوم لـ (ميثاق أخلاقي) يلتزم به كل عربي حر خاصة الثوار والسياسيون والكتاب والمفكرون والمعلمون في خاصة أنفسهم وأسرهم ومجتمعهم يقوم على:

١- الصدق مع النفس ومع الله ومع المجتمع في القول والعمل،فلا كذب ولا نفاق،وكما في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ،وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ،وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ،وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ،وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»[٧٤٣]

٢- العفاف وسمو النفس عن الدناءة والعفة عن أموال الأمة وعن حقوق الآخرين،وكما في الحديث عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَمَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ،وَيُبْغِضُ سَفْسَافَهَا "[٧٤٤]

---

743 - صحيح البخاري (٨/ ٢٥)(٦٠٩٤) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠١٢) ١٠٣ - (٢٦٠٧)

744 - شعب الإيمان (١٠/ ٣٧٢)(٧٦٤٦) صحيح

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ،وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[٧٤٥]

٣- السماحة والتسامح والرحمة،كما قال تعالى:{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)} [محمد:٢٢،٢٣]،وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء:١]،وفي الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ،فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا،فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا»[٧٤٦]

أي لهم حق ولهم رحم حيث منهم هاجر أم العرب؟

وقد أدى التقاتل بين فئات المجتمع العربي السياسية،والصراعات الفكرية بين التيارات المختلفة،إلى استهلاك طاقة الأمة لصالح العدو الخارجي،حتى تورط الجميع في الدماء فما إن تصل فئة للحكم حتى تستحل القضاء على الأخرى باسم القومية تارة،وباسم الإسلام تارة،وباسم الوطنية تارة،والإسلام وقيم العروبة براء من ذلك كله! وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ،قَالَ:لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ أَتَاهُ عَبْدُ اللهِ بن عبد الله ابن أُبَيٍّ،قَالَ لَهُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ،فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا فَأْمُرْنِي بِهِ،فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ فو الله لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ بِهَا رَجُلٌ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي،وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ رَجُلًا مُسْلِمًا فَيَقْتُلَهُ فلا تدعني نَفْسِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللهِ يَمْشِي فِي الْأَرْضِ حَيًّا حَتَّى أَقْتُلَهُ،فَأَقْتُلَ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ فَأَدْخُلَ النَّارَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:بَلْ نُحْسِنُ صُحْبَتَهُ وَنَتَرَفَّقُ بِهِ مَا صَحِبَنَا" [٧٤٧]

٤- العفو والصفح بعد النصر والظفر،كما قال تعالى:{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا } [البقرة:١٠٩]،وقال النبي ﷺ للمشركين الذين حاربوه وأخرجوه يوم فتح مكة،بعد أن

745 - صحيح البخاري (٨/ ٩٥)(٦٤٤٦) وصحيح مسلم (٢/ ٧٢٦)١٢٠ - (١٠٥١)

746 - صحيح مسلم (٤/ ١٩٧٠) ٢٢٧ - (٢٥٤٣)

747 - دلائل النبوة للبيهقي محققا (٤/ ٦٢) صحيح مرسل

ظفر بهم:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِـيكُمْ؟ قَـالُوا:خَيْـرًا،أَخٌ كَـرِيمٌ،وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ،قَالَ:اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»[٧٤٨]

قلت:

لكن هذا لا ينطبق على مجرمي الحرب،ولا على الذين نهبوا وسلبوا وروعـوا،والله تعـالى يقول لنا:{ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَـاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)} [المائدة:٣٣،٣٤]

وهؤلاء لم يتوبوا أصلاً،فلا بد من عقوبتهم وهي مشروعة من السماء،قال تعـالى:{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } [النحل:١٢٦]

فلا نستطيع إلزام الناس بشيء ما ألزمهم به الله تعالى ورسوله ﷺ،فأما الاية القرآنية فهذه كاملة:{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِـنْ عِنْـدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة:١٠٩]

وواضح أن الله تعالى جاء بأمره وهو قتالهم،قال تعالى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَـا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩]

وأما رسول الله ﷺ فقد كان قائد الأمة الإسلامية والعالم فهو يملـك العفـو وأمـا في الثورات العربية فلا أحد يملك العفو إلا من تضرروا.... وهذا هو العـدل في شـرع الله تعالى،حتى تهدأ التفوس،ويقضى على الأحقاد والكراهية والبغضاء من خـلال القصـاص العادل،قال تعالى:{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَـاةٌ يَـا أُولِـي الْأَلْبَـابِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُـونَ } [البقرة:١٧٩] "

---

748 – سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٤١٢) حسن لغيره

٥- الرحمة والإحسان لكل إنسان مهما كان دينه ومذهبه كما قال تعالى:{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} [البقرة:٨٣]،وقال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل:٩٠]..

٦- الوفاء بالعهد والعدل،كما قال تعالى:{وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } [الإسراء:٣٤]،ومن ذلك العهود السياسية وهي أشدها خطر كما قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]..

٧- حفظ المعروف،فإن الثورة شارك فيها الجميع ويجب أن يتفيأ ظلالها الجميع،وكل تهميش وإقصاء لمن شاركوا فيها مهما كانوا أقلية،هو جحود وكفر بالمعروف،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ،عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ:«لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا،ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[٧٤٩]،حفظا لمعروفه حين أجار النبي ﷺ من قريش بعد رجوعه من الطائف!

٨- الحرص على قيم المواطنة وتعزيزها وتكافؤ الفرص للجميع بلا تمييز على أساس:{إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } [القصص:٢٦]،فقد انتهت عهود الشلل والمحاباة التي أدت إلى سقوط الأنظمة العربية.

لقد قامت الثورة التي شارك فيها الجميع من أجل الإنسان في العالم العربي ورفع الظلم عنه وتحريره من الخوف والذل والفقر،فالواجب الوفاء للأمة وللإنسان في كل بلد عربي بذلك،وكل غدر يقع من أي طرف هو انتكاسة للثورة وسقوط أخلاقي!

إن الثورة الأخلاقية اليوم وإحياء القيم الروحية والإنسانية (التي جاء بها الإسلام) هو حجر الأساس في بناء الإنسان في العالم العربي في ظل الثورة ومشروعها الإصلاحي،وحين يتحقق ذلك سيعود للأمة بإذن الله تعالى شهودها الحضاري من جديد،لتكون كما أمرها

---

749 - صحيح البخاري (٤/ ٩١)(٣١٣٩)

الله وكما يريد:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران:١١٠]..

المبحث الثالث والعشرون

الفرق بين الخطاب القرآني والخطاب السلطاني[750]

كيف صار دين التوحيد – الذي وحد العرب وحررهم من كل أشكال العبودية لغير الله،وأخرجهم من الظلمات والجور إلى العدل والنور – دينا يقرُّ الافتراق،ويبرر الاستبداد،ويدعو إلى الاستسلام للاستعمار،ويغض الطرف عن كل أنواع انتهاكات "حقوق الإنسان"؟!

وكيف صار العرب – الذين حملوا هذا الدين للعالمين ينشرون العدل والحرية والمساواة بين أمم الأرض حتى قال الله فيهم:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران:١١٠]،وقال فيهم المؤرخ الفرنسي "جوستاف لوبون" في كتابه "حضارة العرب":(إن العالم لم يعرف فاتحين أعدل ولا أرحم من العرب) –

أسوء أهل الأرض مآلا،وأضعفهم حالا،لتخلفهم وتشرذمهم وتظالمهم،يرسفون اليوم في أغلال العبودية،ويفتقدون أدنى معاني الحرية،تتصرف بأوطانهم وثرواتهم يد الاستبداد،ومن ورائها أيدي الاستعمار،ويباعون في أسواق النخاسة الدولية كقطعان الغنم السائمة والإبل الهائمة،فلا يبدون حراكا ولا يحاولون عراكا... ليقف المصلحون من علمائها وأبنائها حائرين في معرفة علتها وأسباب عثرتها،فهي من أكثر شعوب الأرض قابلية للخضوع للاستبداد الداخلي والاحتلال الأجنبي،هذا حالها منذ احتلالها،وهو حالها بعد استقلالها؟!

إن وراء ذلك بلا شك أسبابا اجتماعية وسننا إلهية لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها،كما قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد:١١]،وكما قال سبحانه:{ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا } [فاطر:٤٣] وهي تحتاج إلى تدبر ونظر.

---

[750] http://www.tawhed.ws/r?i=o-٧٨٠sn٧

وأول ما يجب البحث فيه وكشف خوافيه؛ ما طرأ على دينها من تحريف وتبديل،وقد أخبر النبي ﷺ عن ذلك فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ،سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[751]

مما يؤكد أن دين المسلمين اليوم ليس هو الدين الحق الذي جاء به النبي ﷺ وكان سببا لظهورهم على الأمم،بل هو دين اختلط فيه الحق بالباطل،بل طمست فيه معالم الخطاب القرآني بتأويلات الخطاب السلطاني،الذي قام علماء السوء باختراعه،من أجل إضفاء الشرعية على كل انحراف تقوم به السلطة،حتى نجح الاستعمار نفسه في توظيف هذا الخطاب السلطاني في خدمة مخططاته الاستعمارية في أرض الإسلام باسم الإسلام.

فإذا الأمة تتقرب إلى الله بالاستسلام لعدوها،وترى ذلك من طاعة الله ورسوله،وهو ما لم يخطر على بال أعداء الأمة؛ أن يجدوا الطريق أمامهم مفتوحا باسم الدين والإسلام والقرآن؟!

لقد تولى كبر هذه الجريمة الأحبار والرهبان وعلماء السلطان الذين قال فيهم الإمام عبدالله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها؟!

لقد ظهر البون شاسعا والفرق واضحا،بين الخطاب القرآني،والخطاب السلطاني،في مضامينهما وغاية كل منهما وثمرتهما...

فقد جاء الخطاب القرآني؛ ليحرر الخلق كافة من كل أشكال العبودية لغير الله تحت شعار "لا إله إلا الله" وليخرجهم من الظلمات إلى النور،كما في قوله تعالى:{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [إبراهيم:١].

---

751 – سنن أبي داود (٣/ ٢٧٤)(٣٤٦٢) صحيح

وجاء الخطاب السلطاني؛ اليوم ليعيد المسلمين إلى حظيرة العبودية بكل أشكالها،لخدمة الآلهة البشرية – الملوك والرؤساء – في الخضوع لهم وعدم الاعتراض عليهم،والتذلل بين يديهم،لكون طاعتهم من طاعة الله ورسوله،مهما حاربوا الله ورسوله أو صادروا أحكام القرآن و "حقوق الإنسان"؟!

وبلغ تأله الأصنام البشرية أن نازعوا الله في أخص خصائص الربوبية،كما في قوله تعالى:{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء:٢٣]،{وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [القصص:٧٠]،كما تنازعه الآلهة الحجرية – القبور والأضرحة – بأخص خصائص ألوهيته { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ } [العنكبوت:٥٦]!

جاء الخطاب القرآني؛ بالتوحيد الخالص،فلا إله إلا الله،ولا ملك إلا الله،ولا مالك إلا الله،ولا خالق إلا الله،ولا حاكم إلا الله،ولا رب إلا الله،كما قال تعالى:{وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ } [النمل:٩١]،{ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة:١٠٧]،{ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف:٥٤]،{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [يوسف:٤٠]،فهو سبحانه {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)} [الناس:١ – ٣].

وجاء الخطاب السلطاني؛ ليجعل مع الله آلهة أخرى من الأصنام البشرية – الرؤساء والعلماء – يخضع الجميع لحكمهم ويسلموا لقولهم،مهما بدا بطلانه واضحا وتناقضه فاضحا،فتحالف الفريقان – السلطان والرهبان – ليعطلوا هدايات القرآن من أجل أهواء السلطان،فإذا هم أرباب من دون الله،كما في قوله تعالى:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } [التوبة:٣١]،يحلون الحرام ويحرمون الحلال ويشايعون أهواء الملوك،فإن شاءوا صار القتال جهادا،وإن شاءوا صار إرهابا،فطاعتهم من طاعة الله!

جاء الخطاب القرآني؛ بالعدل والقسط،{ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ } [الأعراف:٢٩]،وجعل الغاية من أحكامه وتشريعاته أن يقوم الناس بالقسط،{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد:٢٥]،فالجميع تحت حكم الله

سواء،لا فضل فيه لعربي على أعجمي،ولا لأبيض على أسود،إلا بالتقوى،وجعل سبب سقوط الأمم الظلم،فعَنْ عَائِشَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمُ المَرْأَةُ المَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ،فَقَالُوا:مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ» ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ،قَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ،أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ،وَايْمُ اللَّهِ،لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ،سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا»[٧٥٢]

فجاء الخطاب السلطاني؛ ليرسخ أسوأ أنواع الطبقية والتظالم،فالأمراء طبقات،والعلماء طبقات،والناس طبقات،ولكل طبقة حقوقها ومخصصاتها ومميزاتها وامتيازاتها،طبقات وظلمات بعضها فوق بعض!

جاء الخطاب القرآني؛ ليقرر {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } [الحجرات:١٠]،وكلكم من آدم،وآدم من تراب،فعبر عن المساواة بأوضح معانيها وصورها باستعمال لفظ الأخوة التي تدل على المساواة المطلقة بين المؤمنين.

وجاء الخطاب السلطاني؛ ليرسخ مبادئ الجاهلية،فإذا في كل مجتمع إسلامي مسلمون بلا هوية،ومواطنون بلا جنسية،يمارس المجتمع ضدهم أبشع أنواع الظلم والاضطهاد،ثم لا يجد أحبار السوء غضاضة من تبرير ذلك باسم "المصلحة الوطنية"!

جاء الخطاب القرآني؛ ليقرر حرية إبداء الرأي وحق نقد السلطة،كما قال تعالى في وصف المؤمنين:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة:٥٤]،وكما في حديث البيعة الصحيح عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ

---

752 – صحيح البخاري (٨/ ١٦٠)(٦٧٨٨)

عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ،وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ،وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا،لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»[٧٥٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَقٌّ،فَأَغْلَظَ لَهُ،فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا»،فَقَالَ لَهُمْ:«اشْتَرُوا لَهُ سِنًّا،فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ»،فَقَالُوا:إِنَّا لَا نَجِدُ إِلَّا سِنًّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ سِنِّهِ،قَالَ:«فَاشْتَرُوهُ،فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ،فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ،أَوْ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»[٧٥٤]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٧٥٥]

وجاء الخطاب السلطاني؛ ليقرر مبدأ تحريم نقد السلطة،تحت شعار "أول الخروج الكلمة"!

جاء الخطاب القرآني؛ بمبدأ {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨]،وأكد مبدأ "الإمارة شورى بين المسلمين"،وحرم اغتصاب السلطة فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:«مَنْ دَعَا إِلَى إِمَارَةِ نَفْسِهِ،أَوْ غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَقْتُلُوهُ»[٧٥٦]

وعَنِ الْمَعْرُورِ،قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ،يَقُولُ:«مَنْ دَعَا إِلَى أَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ»[٧٥٧]

فلا توارث فيها ولا استبداد ولا إكراه،بل شورى وحرية ورضا واختيار.

وجاء الخطاب السلطاني؛ ليقرر مبدأ استلاب حق الأمة في اختيار السلطة،وليرسخ سنن كسرى وقيصر،وليضفي الشرعية على مبدأ توارثها،"فمن غلبنا بالسيف فنحن معه"!

جاء الخطاب القرآني؛ بمبدأ {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران:١٠٤]،وأوجب نصرة المظلوم

---

753 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤١ – (١٧٠٩)

754 – صحيح مسلم (٣/ ١٢٢٥)١٢٠ – (١٦٠١)

755 – سنن النسائي (٧/ ١٣٧)(٤٢٠٩) صحيح

756 – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٤٥)(٩٧٥٩) فيه ضعف

757 – السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٤٣)(١٠٦) فيه ضعف

والأخذ على يد الظالم،كما في الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا رَأَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ نَهَاهُ عَنْهُ تَعْذِيرًا،فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ،وَخَلِيطَهُ،وَشَرِيبَهُ،فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ،وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ {ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة:٦١] "،قَالَ:ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الْمُسِيءِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ،وَلَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»[٧٥٨]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِهِ،فَهُوَ شَهِيدٌ»[٧٥٩]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ،فَنَهَاهُ وَأَمَرَهُ،فَقَتَلَهُ» [٧٦٠]

وجاء الخطاب السلطاني؛ ليقرر مبدأ "اسمع وأطع،وإن أخذ مالك وضرب ظهرك"،وإن كان السلطان ظالما جائرا في الأخذ والضرب!

قلت:جاءت أحاديث عامة وأحاديث خاصة،عَنْ أَبِي سَلَّامٍ،قَالَ:قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ،فَجَاءَ اللهُ بِخَيْرٍ،فَنَحْنُ فِيهِ،فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قُلْتُ:هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قُلْتُ:فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قُلْتُ:كَيْفَ؟ قَالَ:«يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ،وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي،وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»،قَالَ:قُلْتُ:كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ،إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ:«تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ،وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ،وَأُخِذَ مَالُكَ،فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[٧٦١]

---

758 – سنن أبي داود (٤/ ١٢١)(٤٣٣٦) والبدع لابن وضاح (٢/ ١٧٨)(٦٧) حسن

759 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٤)(٣٥٤٣) صحيح

760 – المعجم الأوسط (٤/ ٢٣٨)(٤٠٧٩) صحيح لغيره

761 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٦)٥٢ - (١٨٤٧)

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«اسْمَعْ وَأَطِعْ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ،وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ،وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ،وَإِنْ أَكَلُوا مَالَكَ وَضَرَبُوا ظَهْرَكَ،إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً»[٧٦٢]

قال القرطبي:" فهذا أمر للمفعول به ذلك للاستسلام،والانقياد،وترك الخروج عليه مخافة أن يتفاقم الأمر إلى ما هو أعظم من ذلك.ويحتمل أن يكون ذلك خطابًا لمن يُفعل به ذلك بتأويل يسوّغ للأمير بوجهٍ يظهر له،ولا يظهر ذلك للمفعول به. وعلى هذا يرتفع التعارض بين الأحاديث،ويصحّ الجمع،والله أعلم."[٧٦٣]

قلت:وهذا هو الصواب،وقد أبعد الشيخ صالح بن عثيمين رحمه الله النجعة عندما قال معلقا على الحديث:" وكذلك الأمراء،إذا قيل لواحد مثلاً:أمر الولي بكذا وكذا،قال:لا طاعة له؛ لأنه مخل بكذا ومخل بكذا،وأقول:إنه إذا أخل بكذا وكذا،فذنبه عليه،وأنت مأمور بالسمع والطاعة،حتى وإن شربوا الخمور وغير ذلك ما لم نر كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان،وإلا فطاعتهم واجبة؛ ولو فسقوا،ولو عتو،ولو ظلموا.وقد قال النبي ﷺ:((اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك))[٧٦٤].

فهذا كلام بعيد عن الصواب قطعاً....

ومثله في البعد والغرابة قول الشوكاني رحمه الله في النيل حيث قال معلقا:"فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ وَإِنْ بَلَغُوا فِي الْعَسْفِ وَالْجَوْرِ إلَى ضَرْبِ الرَّعِيَّةِ وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ فَيَكُونُ هَذَا مُخَصِّصًا لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة:١٩٤] وَقَوْلِهِ:{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}[الشورى:٤٠] "[٧٦٥]

قلت:لا يصح هذا التخصيص أصلاً،وقد جاءت أحاديث تناقض هذا التفسير منها عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٧٦٦]

وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٧٦٧]

---

762 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٠/ ٤٢٦) (٤٥٦٢) صحيح

763 – المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٢/ ٨٩)

764 – شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٣٢)

765 – نيل الأوطار (٧/ ٢٠٧)

766 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٤)(٣٥٤١) وهو حديث صحيح مشهور

وعَنْ سَعِيد بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِهِ،فَهُوَ شَهِيدٌ»[٧٦٨]

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ،قَالَ:حَدَّثَتْنَا أُمُّ سَلَمَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَا هُوَ فِي بَيْتِهَا وَعِنْدَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ صَدَقَةُ كَذَا وَكَذَا مِنَ التَّمْرِ؟ قَالَ:«كَذَا وَكَذَا» قَالَ الرَّجُلُ:فَإِنَّ فُلَانًا تَعَدَّى عَلَيَّ،وَأَخَذَ مِنِّي كَذَا وَكَذَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«فَكَيْفَ إِذَا سَعَى عَلَيْكُمْ مَنْ يَتَعَدَّى عَلَيْكُمْ أَشَدَّ مِنْ هَذَا التَّعَدِّي»،فَخَاضَ الْقَوْمُ فِي ذَلِكَ،فَقَالَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ:فَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا غَائِبًا فِي إِبِلِهِ وَمَاشِيَتِهِ وَزَرْعِهِ وَنَخْلِهِ،فَأَدَّى زَكَاةَ مَالِهِ،فَتَعَدَّى عَلَيْهِ الْحَقَّ،فَكَيْفَ يَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ أَدَّى زَكَاةَ مَالِهِ طَيْبَةً بِهَا نَفْسُهُ يُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ،ثُمَّ لَمْ يُعَيِّبْ مِنْهَا شَيْئًا،وَأَقَامَ الصَّلَاةَ،وَآتَى الزَّكَاةَ فَتَعَدَّى عَلَيْهِ الْحَقَّ،فَأَخَذَ سِلَاحَهُ،فَقَاتَلَ فَقُتِلَ،فَهُوَ شَهِيدٌ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«مَعْنَى هَذَا الْخَبَرِ إِذَا تَعَدَّى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَخْذِ صَدَقَتِهِ،أَوْ مَا يُشْبِهُ هَذِهِ الْحَالَةَ،وَكَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي يُوَاطِؤُونَهُ عَلَى ذَلِكَ،وَفِيهِمْ كِفَايَةٌ بَعْدَ أَنْ لَا يَكُونَ قَصْدُهُمُ الدُّنْيَا،وَلَا شَيْئًا مِنْهَا دُونَ إِلْقَاءِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ إِلَى التَّهْلُكَةِ» إِذِ الْمُصْطَفَى ﷺ قَالَ لِأَبِي ذَرٍ:«اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا» وَقَالَ ﷺ:«مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»[٧٦٩]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ أُرِيدَ مَالُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ،فَقَاتَلَ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٧٧٠]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُقَاتِلُ الرَّجُلُ دُونَ أَهْلِهِ وَمَالِهِ،يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ وَبِالْإِسْلَامِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،فَمَنْ قَتَلَهُ كَانَ فِي النَّارِ،وَإِنْ قُتِلَ كَانَ شَهِيدًا»[٧٧١]

---

767 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٤)(٣٥٤٢) صحيح لغيره

768 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٤)(٣٥٤٣) صحيح

769 – صحيح ابن حبان – مخرجا (٧/ ٤٦٥)(٣١٩٣) صحيح

770 – السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٦٩)(١٦٠) صحيح

771 – السنن الواردة في الفتن للداني (١/ ٣٤٨)(١١٠) حسن

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ أَتَى بَيْتَهُ فَغُشِيَ بِمَظْلَمَةٍ،فَقَاتَلَ فَقُتِلَ،قُتِلَ شَهِيدًا،وَمَنْ سُئِلَ الصَّدَقَةَ فَأَعْطَى فَعُدِيَ عَلَيْهِ،فَقَاتَلَ فَقُتِلَ،قُتِلَ شَهِيدًا»[٧٧٢]

وعن ثَابِت مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّهُ لَمَّا كَانَ بَيْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو وَبَيْنَ عَنْبَسَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ مَا كَانَ تَيَسَّرُوا لِلْقِتَالِ،فَرَكِبَ خَالِدُ بْنُ الْعَاصِ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو فَوَعَظَهُ خَالِدٌ،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو:أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٧٧٣].

ومن خلال هذه الأحاديث الصحيحة يتبين المعنى الحقيقي للحديث وهو أنه يكون الحاكم متأولاً في الضرب أو أخذ المال،وأما إذا كان المعتدى عليه يعلم يقينا أنه مظلوم فله أن يدافع نفسه وماله حتى لو قتل،فالإسلام دين لا يقر الظلم بأي شكل كان سواء قام به الحاكم أو المحكوم،ولكن الخروج المسلح على الحاكم الظالم الفاجر له شروط لا بد من مراعاتها،وقد بين ذلك ابن حبان رحمه الله في تعليقه على الحديث ذلك.

وقد جاء الخطاب القرآني؛ بالقتال في سبيل الله:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣]،وأوجب قتال من اعتدى على المسلمين فقال:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠]،وأوجب الجهاد دفاعا عن المستضعفين:{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } [النساء:٧٥].

---

772 – المعجم الأوسط (٦/ ١٩٠)(٦١٥٤) صحيح

773 – صحيح مسلم (١/ ١٢٤)٢٢٦ – (١٤١)

فَفِيهِ جَوَازُ قَتْلِ الْقَاصِدِ لِأَخْذِ الْمَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ سَوَاءٌ كَانَ الْمَالُ قَلِيلًا أو كثيرا لعموم الحديث وهذا قول الجماهير من الْعُلَمَاءِ وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ مَالِكٍ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُ إِذَا طَلَبَ شَيْئًا يَسِيرًا كَالثَّوْبِ وَالطَّعَامِ وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ وَالصَّوَابُ مَا قَالَهُ الْجَمَاهِيرُ وَأَمَّا الْمُدَافَعَةُ عَنِ الْحَرِيمِ فَوَاجِبَةٌ بِلَا خِلَافٍ وَفِي الْمُدَافَعَةِ عَنِ النَّفْسِ بِالْقَتْلِ خِلَافٌ فِي مَذْهَبِنَا وَمَذْهَبِ غَيْرِنَا وَالْمُدَافَعَةُ عَنِ الْمَالِ جَائِزَةٌ غَيْرُ وَاجِبَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. شرح النووي على مسلم (٢/ ١٦٥)

وجاء الخطاب السلطاني؛ ليصادر على الأمة حتى حقها في الدفاع عن نفسها،فلا قتال إلا بإذن الإمام،وبما أنه لا يوجد إمام فلا قتال[٧٧٤]،وإن احتل العدو الكافر الأرض وانتهك العرض،فإذا الخطاب السلطاني صورة للخطاب القادياني؟![٧٧٥]

جاء الخطاب القرآني؛ بوجوب جهاد الكفار والمنافقين:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [التوبة:٧٣]،{وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٤٠]،وجعل شعاره {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [المنافقون:٨] {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء:١٤١].

وجاء الخطاب السلطاني؛ ليوجب على المسلمين الخضوع للمنافقين والملحدين،وجعل طاعتهم من طاعة الله رب العالمين!

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ:سَيِّدٌ،فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ "[٧٧٦]

جاء الخطاب القرآني؛ بالوحدة،وأوجب على المسلمين الاجتماع،وحرم عليهم الافتراق،{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ

---

774 – قلت:هذا الكلام في جهاد الطلب وهو أن يغزو المسلمون الكفار في عقر دارهم فلا بد من إذن الإمام هنا،وأما في جهاد الدفع،فلا إذن لأحد لا لإمام ولا لغيره لوالد ولا لزوج بالإجماع.

قلت:حتى في جهاد الطلب ووجود الإمام الشرعي فلا يحرم القتال دون إذنه،فقد صَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ بِأَنَّهُ يُكْرَهُ الْغَزْوُ مِنْ غَيْرِ إِذْنِ الإِمَامِ أَوِ الأَمِيرِ الْمُوَلَّى مِنْ قِبَلِهِ ؛ لأَنَّ الْغَزْوَ عَلَى حَسَبِ حَالِ الْحَاجَةِ،وَالإِمَامُ أَوِ الأَمِيرُ أَعْرَفُ بِذَلِكَ،وَلاَ يَحْرُمُ ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ التَّغْرِيرِ بِالنَّفْسِ،وَالتَّغْرِيرُ بِالنَّفْسِ يَجُوزُ فِي الْجِهَادِ.وَلأَنَّ أَمْرَ الْحَرْبِ مَوْكُولٌ إِلَى الأَمِيرِ،وَهُوَ أَعْلَمُ بِكَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَقِلَّتِهِمْ،وَمَكَامِنِ الْعَدُوِّ وَكَيْدِهِمْ،فَيَنْبَغِي أَنْ يُرْجَعَ إِلَى رَأْيِهِ ؛ لأَنَّهُ أَحْوَطُ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ وَلأَنَّهُ إِذَا لَمْ تَجُزِ الْمُبَارَزَةُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَالْغَزْوُ أَوْلَى،إِلاَّ أَنْ يَفْجَأَهُمْ عَدُوٌّ يَخَافُونَ تَمَكُّنَهُ،فَلاَ يُمْكِنُهُمُ الاسْتِئْذَانُ،فَيَسْقُطُ الإِذْنُ بِاقْتِضَاءِ قِتَالِهِمْ،وَالْخُرُوجُ إِلَيْهِمْ لِحُصُولِ الْفَسَادِ بِتَرْكِهِمُ انْتِظَارًا لِلإِذْنِ.الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٦)

775 – نادوا بإلغاء عقيدة الجهاد كما طالبوا بالطاعة العمياء للحكومة الإنجليزية لأنها حسب زعمهم ولي الأمر بنص القرآن!!!الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (١/ ٤١٨)

776 – الأدب المفرد مخرجا (ص:٢٦٧)(٧٦٠)

مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [آل عمران:١٠٣]،وحرم السمع والطاعة لخليفتين،عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ،فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»[٧٧٧]

وجاء الخطاب السلطاني؛ بترسيخ الفرقة،وتجويز تقسيم دار الإسلام إلى خمسين دويلة،كما أراده أعداء الأمة،ولكل حاكم فيها بيعة وطاعة!

وجاء الخطاب القرآني؛ ليحفظ على الأمة ثروتها،فحرم الاستئثار بأموالها،ومنع من العبث بها،{ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا } [النساء:٥]،{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الأنعام:١٥٢]،{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } [النساء:١٠]،وأمر بتقسيمها تقسيما عادلا وفق مبدأ {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } [الحشر:٧].

قال الشهيد سيد قطب رحمه الله:" والقاعدة الأولى،قاعدة التنظيم الاقتصادي،تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الاقتصادية في الإسلام. فالملكية الفردية معترف بها في هذه النظرية. ولكنها محددة بهذه القاعدة. قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء،ممنوعا من التداول بين الفقراء. فكل وضع ينتهي إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعي كله. وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامي يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تبقي عليه إن وجد.

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة. ففرض الزكاة. وجعل حصيلتها في العام اثنين ونصفا في المائة من أصل رؤوس الأموال النقدية،وعشرة أو خمسة في المائة من جميع الحاصلات. وما يعادل ذلك في الأنعام. وجعل الحصيلة في الركاز وهو كنوز الأرض مثلها في المال النقدي. وهي نسب كبيرة.

---

[777] – صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠)٦١ – (١٨٥٣)

ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء بينما جعل الفيء كله للفقراء. وجعل نظامه المختار في إيجار الأرض هو المزارعة – أي المشاركة في المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها. وجعل للإمام الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء. وأن يوظف في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال.

وحرم الاحتكار. وحظر الربا. وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء.

وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التي تعد قيدا أصيلا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى.

ومن ثم فالنظام الإسلامي نظام يبيح الملكية الفردية،ولكنه ليس هو النظام الرأسمالي،كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولا عنه،فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقا بدون ربا وبدون احتكار،إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير. نشأ وحده. وسار وحده،وبقي حتى اليوم وحده. نظاما فريدا متوازن الجوانب،متعادل الحقوق والواجبات،متناسقا تناسق الكون كله. مذ كان صدوره عن خالق الكون. والكون متناسق موزون! فأما القاعدة الثانية – قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد:«وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا».. فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية. فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول – ﷺ – قرآنا أو سنة. والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول. فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان،لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان.. وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية،بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات،بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء،وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان. فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول – ﷺ – والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها – والإمام نائب عن الأمة في هذا – وفي هذا تنحصر حقوق الأمة. فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول في أي تشريع.

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ما جاء به الرسول. وهذا لا ينقض تلك

النظرية،إنما هو فرع عنها. فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص. وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لا نص فيه. وتنحصر سلطة الأمة – والإمام النائب عنها – في هذه الحدود. وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية. وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله. وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله. كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون،فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح!"[٧٧٨]

وجاء الخطاب السلطاني؛ بتفويض السفهاء في ثروات الأمة،فإذا ميزانيات دولها وأموال شعوبها التي تموت جوعا وتعيش فقرا تحت تصرف سفهائها وبيد أعدائها،فلا يجد علماء السوء من أحكام الله ورسوله في شأن الأموال إلا جواز الأخذ من هدايا السلطان وأعطياته،عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَعْطَانِي،ثُمَّ سَأَلْتُهُ،فَأَعْطَانِي،ثُمَّ سَأَلْتُهُ،فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ:«يَا حَكِيمُ،إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ،فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ،وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ،كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ،الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»،قَالَ حَكِيمٌ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا،فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ،فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ،ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا،فَقَالَ عُمَرُ:إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ،أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ،فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ[٧٧٩]

---

778 في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٠٢)

779 – صحيح البخاري (٢/ ١٢٣)(١٤٧٢)

[ش(خضرة حلوة) كالفاكهة الخضرة في المنظر الحلوة في المذاق ولذلك ترغبه النفوس وتميل إليه وتحرص عليه. (بسخاوة نفس) بغير إلحاح في السؤال ولا طمع ولا حرص ولا إكراه أو إحراج للمعطي. (بورك له فيه) كثر ونما وكان رزقا حلالا يشعر بلذته. (بإشراف نفس) بإلحاح في السؤال وتطلع لما في أيدي غيره وشدة حرصه على تحصيله مع إكراه المعطي وإحراجه. (كالذي يأكل ولا يشبع) لا يقنع بما يأتيه وأصبح كمن أصيب بمرض الجوع الكاذب الذي كلما ازداد أكلا ازداد جوعا فكلما جمع من المال شيئا ازداد رغبة في غيره وازداد شحا وبخلا بما في يده وحرصا عليه. (لا أرزأ) لاأنقص ماله بالطلب والمعنى لا آخذ. (الفيء) ما أخذ من الكفار من غير قتال]

فإذا هم شركاء للسفهاء في استباحة أموال الأمة،ليصدق فيهم قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة:٣٤]

وعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"..وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةُ الْمُضِلِّينَ"[780]

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ،قَالَ:قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ حُذَيْفَةَ هَذِهِ الْآيَةَ {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤] فَقَالَ رَجُلٌ:إِنَّمَا هَذِهِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:نِعْمَ الْإِخْوَةُ لَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ كَانَ لَكُمُ الْحُلْوُ وَلَهُمُ الْمُرُّ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَتَتَّخِذُنَّ السُّنَّةَ بِالسُّنَّةِ حِذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ "[781]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ القُرُونِ قَبْلَهَا،شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»،فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ:«وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ»[782]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَتَتَّبِعُونَ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بَاعًا بِبَاعٍ،وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ،وَشِبْرًا بِشِبْرٍ،حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ فِيهِ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ:«فَمَنْ إِذًا؟»[783]

أين هم من تصرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ولده،فعَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:أَرْسَلَ إِلَيَّ عُمَرُ فَجِئْتُهُ ظُهْرًا فَقَالَ:«أَيْ بُنَيَّ،إِنِّي وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أُحَرِّمُ مِنْ هَذَا

---

780 – سنن أبي داود (٤/ ٩٧)(٤٢٥٢) والآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (١/ ٣٣٢)(٤٥٦) صحيح

781 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ١٧٩) صحيح

782 – صحيح البخاري (٩/ ١٠٢)(٧٣١٩)

[ش (بأخذ القرون) تسير بسيرة الأمم قبلها. (شبرا بشبر) الشبر ما بين رأس الإبهام ورأس الخنصر والكف مفتوحة مفرقة الأصابع والمراد بيان شدة اتباعهم والمبالغة في تقليدهم. وذكر فارس والروم لأنهم كانوا أكبر ممالك الأرض حينئذ وأكثرهم رعية وأوسعهم بلادا والناس إنما يقلدون من كان هذا حاله وليس المراد الحصر. وكذلك ذكره لليهود والنصارى في الحديث الآتي لأنهم كانوا المشهورين بالديانات السماوية]

783 – السنة لابن أبي عاصم (١/ ٣٦)(٧٢) صحيح

الْمَالِ شَيْئًا أَسْتَحِلُّهُ مِنْكَ،وُلِّيتُهُ،كَانَ مَالَ اللَّهِ فَعَادَ أَمَانَتِي فَلَمْ يَزْدَدْ عَلَيَّ إِلَّا حَرَامًا،وَإِنِّي أَنْفَقْتُ عَلَيْكَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ شَهْرًا،وَلَسْتُ بِزَائِدِكَ،وَلَكِنِّي مُعِينُكَ بِتَمَرِ أَرْضِي مِنْ مَكَانِ كَذَا وَكَذَا،فَخُذْهُ ثُمَّ بِعْهُ ثُمَّ قُمْ إِلَى جَنْبِ رَجُلٍ،فَإِذَا اشْتَرَى شَيْئًا فَاسْتَشْرِكْهُ ثُمَّ بِعْ وَأَنْفِقْ عَلَى عِيَالِكَ»[٧٨٤]

لقد كانت ثمرة الخطاب القرآني؛ ظهور هذه الأمة – التي كانت من أضعف الأمم حالا – على أهل الأرض قاطبة لتنشر العدل والحرية والرحمة،وتقيم حضارة علمية وإنسانية،استظلت البشرية تحت ظلها ألف عام.

وكانت ثمرة الخطاب السلطاني – الذي يحمل في طياته بذور فناء الحضارة –؛ ما نراه اليوم من تخلف تلك الأمة وانحطاطها على نحو خطير – كما تؤكده التقارير والدراسات الدولية – مما يوجب على المصلحين المخلصين من أبنائها وعلمائها إحياء الخطاب القرآني وإعادته من جديد،والتصدي للخطاب السلطاني الذي وظف الإسلام في خدمته عقودا طويلة،حتى ضعف حالها،وازداد اضمحلالها.

وصدق الله؛ { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد:١١].

وَإِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ،مِنْ خَيْرٍ إِلَى سُوءٍ،إِلاَّ إِذَا غَيَّرُوا مَا هُمْ عَلَيهِ،وَلا يُغَيِّرُ اللهُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ سُوءٍ إِلَى خَيْرٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأَنْفُسِهِمْ.[٧٨٥]

784 – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥١٦)(٨٢٢) صحيح

785 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧١٩،بترقيم الشاملة آليا)

المبحث الرابع والعشرون
(الحرية روح الثورة العربية)

لا تعجب من حال من إذا ذكرت عندهم الحرية نفروا،وإذا دعوا إليها أعرضوا وأدبروا،وعجبوا أن تثور الأمة من أجل حريتها المسلوبة،وإنسانيتها المنكوبة،فليس الشك في الحرية وأهميتها مما ينقص قدرها،أو يوهن أمرها،أو يغض من مكانها الأسمى في الحقيقة الإنسانية،كيف؟ ولا وجود للإنسان إلا بها،ولا قيمة له من دونها،بل ولا وجود للإسلام والتوحيد والإخلاص إلا بتحقيقها،أفي الحرية وقيمتها ومكانتها في الإسلام والإيمان والإحسان شك؟

وهل الحرية عند تحققها إلا الإنسانية في حقيقتها،وهل التوحيد في حقيقته إلا الحرية عند تحققها؟

وإذا أردت أن تعرف حال هؤلاء الذين أكبروا على الأحرار أن يموتوا من أجل الحرية؟ ومن أين أتوا فانظر إلى ما هو أجل من قضية الحرية ألا وهي قضية توحيد الإلهية،فقد أنكرها أكثر أهل الأرض فلم يضرها ذلك شيئا،وأعرض عنها أكثرهم فما ازدادوا إلا بؤسا وشقاء،وبلغ الحال بهم من عمى بصائرهم أن قال الله فيهم:{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الزمر:٤٥]!

فمن يبلغ به عماه حد الاشمئزاز من ذكر أشرف موجود وتوحيده وهو الله جل جلاله،ويبلغ به الحال أن يشك في أوضح الحقائق على الإطلاق حتى قال تعالى { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [إبراهيم:١٠]

فما العجب حين يُشك في قضية الحرية،وتنفر منها قلوب،وتشمئز منها نفوس،ممن استمرءوا العبودية لطواغيتهم حتى فقدوا الإحساس بكرامتهم الإنسانية بفقدهم روحها

وهي الحرية؟! كما اشمأزت قلوب المشركين حين دعوا إلى التوحيد بعد أن استمرءوا العبودية الوثنية؟

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل!

وقبل الحديث عن الحرية لا بد من تحديد معناها في لغة العرب حتى يمكن الحكم عليها أولها،فالحكم على الشيء فرع من تصوره!

فالحرية في لغة العرب كلمة كريمة عظيمة جامعة للفضيلة الإنسانية،ولعله لا يوجد في قاموس لغتهم كلمة تدل على كل معاني الإنسانية وكمال تحققها في الإنسان كمثل كلمة الحرية!

فهي تعني في لغة العرب:

١- ملك الإنسان لحرية نفسه وتصرفه،في مقابل العبودية والرق،فالحر من ليس رقيقا ولا مملوكا لغيره.

كما قال الشاعر:

العبد يقرع بالعصا.. والحرُّ تكفيه الإشارة

٢- والحر هو الطليق غير المقيد بحبس أو أسر.

٣- وتأتي بمعنى إباء الضيم والظلم،فالحر من لا يضام ولا يقبل الضيم.

كما قال المازني:

فلا توعدنا يا بلال فإننا وإن نحن لم نشقق عصى الدين أحرار

وكما قال حسان يوم فتح مكة:

فإن سيوفنا تركتك عبدا وعبد الدار سادتها الإماء

٤- وتأتي بمعنى الشرف والخلق الكريم فالحر كل كريم شريف وضده الوضيع اللئيم.

كما قال الشاعر:

ولو لم أكن حر الخلائق ماجدا لما كان دهري ينطوي لي على ضغن

٥- وتأتي بمعنى العفيف،فالحرة العفيفة الطاهرة،والعفيف طاهر الثوب والعرض.

كما قال الشاعر:

فهذه معانيها في لغة العرب،كلها معان شريفة كريمة نبيلة،فلما جاء الإسلام جعل لها أشرف منازل الدين وأسماها،وجعل حقيقة كلمة التوحيد وشعار الإسلام يدور على معاني الحرية بمفهوم أشمل وأعمق،فكان دعوة لتحرير الإنسان والإنسانية من كل أشكال العبودية لغير الله!

فحين نتحدث عن الحرية فإننا نتحدث عن إنسانية الإنسان،وبقدر نقص حريته بالاسترقاق والاستعباد،أو نقص كرامته بالظلم والاضطهاد،تنقص إنسانيته شيئا فشيئا حتى يخرج عن حد التكليف!

ومن هنا كان للحرية في الإسلام مكانها الأسمى حيث ستكون قطب الرحى في مراتب الدين الثلاث (الإسلام – الإيمان – الإحسان)!

فالحرية لها مفهومها الشمولي في الإسلام يمتد بامتداد مفهوم الإنسانية – من الإنسان الفرد،إلى الإنسان المجتمع،حتى يصل إلى الإنسان الأمة والدولة – حتى تبلغ درجة الكمال البشري الذي استحق بها الإنسان التكريم كفرد،والاستخلاف في الأرض كأمة.

أنواع الحرية في الإسلام:

وعليه فللحرية مستوياتها ولها مجالاتها وتجلياتها ومن ذلك:

المستوى الأول:الحرية الفردية:

وتعني حرية الفرد ما يلي:

١- أن لا يكون مملوكا لغيره في نفسه وتصرفه،فالحر هنا يقابل العبد المملوك بنفسه،والمكاتب المملوك بتصرفه،فهذا انتقاص من ملكية الإنسان لذاته وهو أصل الحرية،وهو ما يعبر عنه الفقهاء (الأصل في الإنسان الحرية) و(الشريعة تتشوف للحرية والعتق)،قال شيخ الإسلام ابن تيمية (إِنَّ الْأَصْلَ فِي النَّاسِ الْحُرِّيَّةُ)[٧٨٦].

٢- وأن لا يكون مجبورا على فعل شيء مكرها،فالإكراه عدوان على الإرادة الإنسانية،وهو انتقاص لحرية اختياره،وهو مناط التكليف،فالحر هنا يقابل المجبر،وبقدر

786 - مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٠٥)

نقص إرادته واختياره تنتقص إنسانيته كإنسان،وهو ما يعبر عنه الفقهاء (لا رأي ولا عقد لمكره) و(الإكراه يسقط التكليف)،وجاء في تبيين الحقائق شرح كنز الدقاق في فقه الحنفية (الْحُرِّيَّةُ أَصْلُ الْأَهْلِيَّةِ)[٧٨٧]،فالمجبور المكره فاقد لأهلية التصرف.

٣- ولا يكون كذلك ممنوعا من التصرف فيما هو حق له أو مباح له مما لا يضر به نفسه ولا يضر به غيره،فإن منع فقد انتقص من حريته ومن إنسانيته بقدر ذلك.

٤- وأن لا يكون مظلوما مقهورا،فالظلم عدوان على كرامة الإنسان،وبقدر هذا الظلم وحجمه ينتقص من إنسانية الإنسان وحريته،كما في قول الملأ من قوم فرعون:{فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } [المؤمنون:٤٧]،بمعنى خاضعين مقهورين لسلطاننا،وكما عبر عن ذلك عمر الفاروق:(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)[٧٨٨]،فعد الظلم والعدوان الذي قام به ابن أمير مصر على القبطي استعبادا،فمن ذل لغيره فقد صار عبدا له.

٥- وأن يكون مصون العرض محفوظ الشرف.

فهذه هي الحرية الصورية للإنسان تتجلى في (ملك النفس والتصرف – والإرادة الحرة – وصيانة الكرامة،وحفظ الشرف)..

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ أَنَّ نِسْوَةً أَتَيْنَ النَّبِيَّ – ﷺ – فِيهِنَّ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَهِيَ أُمُّ مُعَاوِيَةَ يُبَايِعْنَهُ. فَلَمَّا أَنْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ:لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ. قَالَتْ هِنْدٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُصِيبَ مِنْ طَعَامِهِ مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِ؟ قَالَ:فَرَخَّصَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ فِي الرُّطَبِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لها فِي الْيَابِسِ. قَالَ:وَلا يَزْنِينَ. قَالَتْ:وَهَلْ تَزْنِي الْحُرَّةُ؟ قَالَ:وَلا يُقْتَلْنَ أَوْلادَهُنَّ. قَالَتْ:وَهَلْ تَرَكْتَ لَنَا وَلَدًا إِلا قَتَلْتَهُ يَوْمَ بَدْرٍ؟

---

787 – تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي (٣/ ١٠)

788 – أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١/ ١٢٤) ومحض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢/ ٤٧٣) وجامع الأحاديث (٢٥/ ٤٧١)(٢٨٣٩٢)

قَالَ:وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوف. وَقَالَ مَيْمُونٌ:فَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِنَّ الطَّاعَةَ إِلا فِي الْمَعْرُوفِ وَالْمَعْرُوفُ طَاعَةُ اللَّهِ.[٧٨٩]

فحرية الإنسان تعني أن لا يكون لإنسان مملوكا لغيره في نفسه وتصرفه،وأن لا يكون مجبورا على فعل لا يريده،ولا ممنوعا من فعل أو تصرف يحق له،وأن لا يكون مظلوما مهضوما،ولا يدنس عرضه وشرفه،فأي هذه المعاني كلها لا يستحق أن يموت الإنسان من أجلها؟

الثاني:الحرية الشعبية والمجتمعية:

وتتجلى في ملك الشعب لنفسه،وحقه في تصريف شئونه بنفسه،فكل شعب يصرف شئونه بإرادته الحرة،وتصان فيه كرامته وحقوقه،هو شعب حر،وكل شعب يستبد به مستبد فردا كان المستبد أو أسرة أو حزبا أو فئة فهو شعب مستعبد،يفتقد من قيمته كمجتمع إنساني بقدر ما فقد من حريته وحقوقه وكرامته.

فالحرية هنا تقابل الاستبداد والطغيان.

الثالث:الحرية الوطنية:

وهي تعني الاستقلال والسيادة،وتقابل الاستعمار والاحتلال،فكل وطن وشعب يقع تحت احتلال دولة أخرى ونفوذها وسيطرتها هو وطن فاقد للحرية والكرامة،وبقدر هذا النفوذ تنتقص سيادته وحريته وكرامته.

فهذه المستويات الثلاث للحرية (الفردية والشعبية والوطنية) وتكاد تكون مجال تجلي الحرية الإنسانية عند كل الشعوب على اختلاف ثقافاتها.

وقد عرف العرب كل تلك المعاني للحرية وكانوا أشد الأمم محافظة على حريتهم وكرامتهم حد الفوضى،حتى أنه لا يعرف لهم دولة ولا ملك في جزيرتهم،وظلت مكة أم

---

789 – الروض الأنف ت الوكيل (٧/ ١٣٩) والسيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص:٧٦٥) والسيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٩٤) والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٦٠٣) والمصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي (١/ ١٢٣) وزاد المعاد – موافق للمطبوع (٥/ ٦٨٦) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٥/ ٢٤٨) وأسد الغابة ط العلمية (٧/ ٢٨١) والإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ٣٤٦) زلطبقات الكبرى ط العلمية (٨/ ١٨٨و١٨٩) صحيح لغيره

القرى تدار شئونها بدار الندوة بالشورى،ويثرب تدار شئونها في السقيفة،وهي ظاهرة فريدة في تاريخ الأمم!

ومما يؤكد معرفتهم بالحرية بمفهومها السياسي قول الشاعر المازني يتهدد أمير البصرة:

فلا توعدنا يا بلال فإننا وإن نحن لم نشقق عصى الدين أحرار

فلا تحملنا بعد سمع وطاعة على خطة فيها الشنار أو العار

وقال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فينا

وحين نأتي للإسلام نجد بأنه صار للحرية فيه معنى أشمل وأكمل فهي أصل الدين والتوحيد،كما أنها مناط التكليف والتشريع،وهي قطب رحى (الإسلام) وما جاء فيه من الشرائع والأحكام،والتي يدرسها (علم الفقه) وهي الأفعال الظاهرة والأحكام العملية من عبادات ومعاملات..

والحرية كذلك قطب رحى (الإيمان)،الذي يدرسه (علم التوحيد) وهو الأحكام العلمية العقائدية الفكرية..

وكذا الحرية هي قطب رحى (الإحسان)،الذي يدرسه (علم السلوك والتصوف) وهو الأحكام النفسية التي تهذب النفس حتى تصل بها أشرف درجات العبودية لله،وهو أكمل مراتب الدين في الإسلام!

وللحرية تعريفها في كل علم من هذه العلوم كما سيأتي عند كل دائرة من هذه الدوائر.

وقد جاء في حديث جبريل المشهور المتفق عليه في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ،إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ:«الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّه وَمَلاَئِكَتِه،وَكُتُبِه،وَرُسُلِه،وَلِقَائِه،وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ» قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ:«الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا،وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ،وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ،وَتَصُومَ رَمَضَانَ»،قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ:الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ،فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ،قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ:" مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ،وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا:إِذَا وَلَدَتِ

المَرْأَةُ رَبَّتَهَا،فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا،وَإِذَا كَانَ الحُفَاةُ العُرَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ،فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا،فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ:(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ) ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ،فَقَالَ:«رُدُّوا عَلَيَّ» فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوا فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا،فَقَالَ:«هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ»[٧٩٠]

وهذه الدوائر الثلاث في الدين تبدأ بدائرة الإسلام وهي أوسع دائرة وأدناها،ثم دائرة الإيمان وهي أعلى منها،ثم دائرة الإحسان وهي أضيقها وأكملها،وأعلاها وأشملها.

فالحرية في دائرة الإسلام شرط للدخول في الإسلام وقبول الأعمال:{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦] { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس:٩٩] وقال {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } [هود:٢٨]؟

فعقد الإسلام والدخول فيه قائم على حرية الإرادة والاختيار،وهي مناط التكليف كله،ومن أجلها شرع القتال في الإسلام لرفع الإكراه عن المستضعفين وتحريرهم من طغيان الملأ المجرمين. {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء:٧٥]

وأول فرائض الإسلام هي الشهادة لله بالتوحيد،وتقوم على تحقيق الحرية الإنسانية ونفي عبودية الإنسان لغير الله جل جلاله فكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بمعنى لا معبود ولا مطاع إلا الله،فهي نفي لكل عبودية لغير الله،وفي المقابل إثبات لحرية الإنسان وكرامته وعدم خضوعه وطاعته وخوفه مما سواه.

فلا معبود إلا الله تعني حرية الإنسان من عبودية كل من سواه!

---

790 – صحيح البخاري (٦/ ١١٥)(٤٧٧٧) وصحيح مسلم (١/ ٣٦)١ – (٨)

فحين تدور كلمة التوحيد على معنى العبودية لله،فالمقصود تحقيق الحرية وتحرير الإنسان من عبودية ما سواه،وكلما ارتقى الإنسان في سلم العبودية لله ازداد تحررا من عبودية من سواه!

والحرية أيضا شرط وجوب أو صحة في العبادات (سواء حرية النفس من الرق،أو حرية الإرادة من الإكراه) فيشترط للجمعة والجماعة الحرية للمكلف،ويشترط في الحج والزكاة الحرية،فلا يجب على الرقيق ولا المكاتب شيء من هذه الفرائض التي هي أركان الإسلام،ولهذا جاء الإسلام بأحكام تحرير العبيد،فأوجب العتق وحث عليه في الكفارات والقربات،{لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [المائدة:٨٩]،وأوجب المكاتبة على من أراد منه عبده مكاتبته وأوجب عليه إعانته:{وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} [النور:٣٣]،وأوجب لهم سهما في الزكاة من بيت مال المسلمين:{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٦٠]،{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [البقرة:١٧٧].

وقد قام عمر رضي الله عنه سنة ١٧ هـ بإعلان تحرير كل عربي من الرق،فلم يبق في العرب رقيق منذ ذلك التاريخ،وكانت أول أمة تتحرر من الرق بكل صوره.

وكذلك يشترط لصحة العبادات كلها حرية الإرادة،فلا تقبل عبادة مع الإكراه،ولا يترتب عليها أثرها.

وكذلك الحرية شرط في صحة المعاملات كلها،فيشترط في كل عقد أن يكون المكلف حرا مختارا،فلا عقد لمكره { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء:٢٩].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ يَهُودِيًّا قَدِمَ زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ بِثَلَاثِينَ حِمْلِ شَعِيرٍ،وَتَمْرٍ،فَسَعَّرَ مُدًّا،بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ،وَلَيْسَ فِي النَّاسِ يَوْمَئِذٍ طَعَامٌ غَيْرُهُ،وَكَانَ قَدْ أَصَابَ النَّاسَ قَبْلَ ذَلِكَ جُوعٌ،لَا يَجِدُونَ فِيهِ طَعَامًا،فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ،النَّاسُ يَشْكُونَ إِلَيْهِ،غَلَاءَ السِّعْرِ،فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ،فَحَمِدَ اللَّهَ،وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«لَا أَلْقَيَنَّ اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُعْطِيَ أَحَدًا مِنْ مَالِ أَحَدٍ،مِنْ غَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ،إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ،وَلَكِنَّ فِي بُيُوعِكُمْ خِصَالًا،أَذْكُرُهَا لَكُمْ،لَا تُضَاغِنُوا،وَلَا تَنَاجَشُوا،وَلَا تَحَاسَدُوا،وَلَا يَسُومُ الرَّجُلُ،عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ،[ص:٣٤١] وَلَا يَبِيعَنَّ حَاضِرٌ لِبَادٍ،وَالْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ،وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»[٧٩١]

وعَنْ أَبِي حُرَّةَ الرَّقَاشِيِّ،عَنْ عَمِّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ "[٧٩٢]

وقال في الزواج عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«الثَّيِّبُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا،فَإِنْ سَكَتَتْ فَهُوَ إِذْنُهَا،وَإِنْ أَبَتْ فَلَا جَوَازَ عَلَيْهَا»[٧٩٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" الثَّيِّبُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا،وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ " قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،كَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ:" أَنْ تَسْكُتَ "[٧٩٤]

وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } [النساء:١٩]

---

791 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١١/ ٣٤٠)(٤٩٦٧) صحيح

792 – السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٦٦)(١١٥٤٥) صحيح لغيره

793 – المعجم الأوسط (٣/ ٢٦٩)(٣١١١) حسن

794 – مسند أحمد ط الرسالة (١٢/ ٣٦٧)(٧٤٠٤)

وقال تعالى:{وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا } [النساء:٤]

ولا يترتب على العقود آثارها مع الإكراه،ولا عقوبة على مكره،ولا اعتبار لاعترافه وإقراره على نفسه حال الإكراه،وفي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ،وَالنِّسْيَانَ،وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[٧٩٥]

حتى لو قال الإنسان كلمة الكفر فلا إثم عليه تحت الإكراه:{مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل:١٠٦]!

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ،وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ،فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ:شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ،وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ:«كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ:مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ:«إِنْ عَادُوا فَعُدْ»[٧٩٦]

فصارت شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بها مشروطة بحرية الاختيار دون إكراه ولا إجبار،وكذا كل العقود والمعاملات والعبادات يشترط فيها حرية الإرادة وتبطل مع الإكراه.

فهذه الحرية الفردية بمعناها الأول (ملك نفس والتصرف بها)،ومعناها الثاني (حرية الإرادة والاختيار)..

وأما المعنى الثالث وهو صيانة الكرامة الإنسانية من الاعتداء والظلم فهو غاية الدين حيث جاء كما قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } [الحديد:٢٥] وقال:{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف:٢٩].

---

795 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٦/ ٢٠٢)(٧٢١٩) صحيح

796 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٨٩)(٣٣٦٢) صحبح

وجاء في الحديث القدسي الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا،فَلَا تَظَالَمُوا "[٧٩٧].

الأحكام العملية التي تحفظ الحرية والكرامة الإنسانية

ولهذا أوجب الإسلام في الأحكام العملية ما يحفظ الحرية والكرامة الإنسانية ومن ذلك:

١- حرم الظلم والعدوان على النفس البشرية مهما كان دينها وجنسها وجعل قتل النفس كالشرك بالله،وأوجب تكريم النفس البشرية والإحسان إليها كما قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } [الإسراء:٧٠]،وقال:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل:٩٠]،وقال:{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢].

وبلغ من تكريم النبي ﷺ للنفس البشرية كما أمره الله،وقد كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ،وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالقَادِسِيَّةِ،فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ،فَقَامَا،فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،فَقَالاَ:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ،فَقِيلَ لَهُ:إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ،فَقَالَ:«أَلَيْسَتْ نَفْسًا»[٧٩٨]

٢- وأوجب القتال لرفع الظلم والعدوان على الإنسان {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } [النساء:٧٥]،وقال تعالى:{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [الحج:٣٩]،وعَنِ

---

[797] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)٥٥ - (٢٥٧٧)

[798] - صحيح البخاري (٢/ ٨٥)(١٣١٢) وصحيح مسلم (٢/ ٦٦١)٨١ - (٩٦١)

[ش (من أهل الأرض) معناه جنازة كافر من أهل تلك الأرض وقال القاضي عياض أي من أهل الذمة المقرين بأرضهم على أداء الجزية]

الْبَرَاءِ،قَالَ:«أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ،وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى،وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ،وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ،وَنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ،وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ،وَإِجَابَةِ الدَّاعِي»[٧٩٩].

٣- **وأوجب العدل والإحسان مع كل أحد مهما كان دينه وجنسه** { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } [البقرة:٨٣]،و { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)} [الممتحنة:٨،٩].

وهذا من الرحمة العامة التي بعث النبي ﷺ بها للعالمين {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:١٠٧]

لقد كانت رسالة محمد - ﷺ - رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادئ التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على ضمير البشرية،لبعد ما كان بينها وبين واقع الحياة الواقعية والروحية من مسافة. ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئا فشيئا من آفاق هذه المبادئ. فتزول غرابتها في حسها،وتتبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات أخرى.

لقد جاء الإسلام لينادي بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية. لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد.. وكان هذا غريبا على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك. والأشراف يعدون أنفسهم من طينة غير طينة العبيد.. ولكن ها هي ذي البشرية في خلال نيف وثلاثة عشر قرنا تحاول أن تقفو خطى الإسلام،فتتعثر في الطريق،لأنها لا تهتدي بنور الإسلام الكامل. ولكنها تصل إلى شيء من ذلك المنهج - ولو في الدعاوى والأقوال - وإن كانت ما تزال أمم في أوربا وأمريكا تتمسك بالعنصرية البغيضة التي حاربها الإسلام منذ نيف وثلاث مائة وألف عام.

ولقد جاء الإسلام ليسوي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون. في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات،وتجعل لكل طبقة قانونا. بل تجعل إرادة السيد هي القانون في عهدي الرق والإقطاع.. فكان غريبا على ضمير البشرية يومذاك أن ينادي ذلك المنهج

---

799 - صحيح ابن حبان - مخرجا (٧/ ٣١٢)(٣٠٤٠) صحيح

السابق المتقدم بمبدأ المساواة المطلقة أمام القضاء.. ولكن ها هي ذي شيئا فشيئا تحاول أن تصل – ولو نظريا – إلى شيء مما طبقة الإسلام عمليا منذ نيف وثلاث مائة وألف عام. وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمدا – ﷺ – إنما أرسل رحمة للعالمين. من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء. فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة،شاعرة أو غير شاعرة وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة،لمن يريد أن يستظل بها،ويستروح فيها نسائم السماء الرخية،في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام.

وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة وندائها. وهي قلقة حائرة،شاردة في متاهات المادية،وجحيم الحروب،وجفاف الأرواح والقلوب..[800]

فكلهم مشمول بالرحمة ببعثته من آمن به ومن لم يؤمن به ﷺ،وهو ما شهد به غير المسلمين كما قال جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) (إن العالم لم يشهد فاتحين أرحم ولا أعدل من العرب)!

وكذلك الحرية بمعنى العفاف وحفظ العرض،فقد حرم الإسلام الفواحش كلها ما ظهر منها وما بطن،وحرم الزنا والخنا،والفجور والسفور،وكل معنى ينافي العفاف والطهر،وينافي تكريم الله للإنسان بالاستخلاف في الأرض،وتحمل أمانة التكليف.

وهذا على مستوى الحرية الفردية في دائرة الإسلام.

الأحكام العملية لصيانة حرية المجتمع وحقوقه الجماعية

أما على مستوى الحرية المجتمعية فقد جاءت الأحكام العملية لصيانة حرية المجتمع وحقوقه الجماعية ومن ذلك:

١– قررت مبدأ المساواة بين الجميع حتى لا يظلم أحد أحدا،ولا يبغي أحد على أحد،{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الحجرات:١٠]

عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ،وَالْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ،وَطَاوُسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ الْبَيْتَ،فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ،وَقَدْ لُبِطَ بِالنَّاسِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ،فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيِ

[800] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣١٠٨)

الْبَاب،فَقَالَ:«الْحَمْدُ لِلَّه الَّذي صَدَقَ وَعْدَهُ،وَنَصرَ عَبْـدَهُ،وَهَزَمَ الْـأَحْزَابَ وَحْـدَهُ،مَاذَا تَقُولُونَ وَمَاذَا تَظُنُّونَ» ؟ قَالُوا:نَقُولُ خَيْرًا وَنَظُنُّ خَيْرًا،أَخٌ كَرِيمٌ،وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ،وَقَدْ قَدَرْتَ فَأَسْجِحْ قَالَ:" فَإِنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ:{لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُـمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف:٩٢]،أَلَا إِنَّ كُلَّ رِبًا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلَّا سِدَانَةَ الْكَعْبَةِ،وَسِقَايَةَ الْحَاجِّ،فَإِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُهُمَا لِأَهْلِهِمَا عَلَى مَـا كَانَتَا عَلَيْهِ،أَلَا إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَذْهَـبَ عَـنْكُمْ نَخْـوَةَ الْجَاهِلِيَّـةِ وَتَكَبُّرَهَـا بِآبَائِهَا،كُلُّكُمْ لِآدَمَ،وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ،وَأَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ "[٨٠١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه،ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّـةَ أَهْـلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ،مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ،وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ،النَّاسُ بَنُو آدَمَ،وَآدَمُ مِـنْ تُرَابٍ،لَيَـدَعَنَّ أَقْوَامٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ،إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ،أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ النَّتَنَ بِأَنْفِهَا»[٨٠٢]

وعَنْ جَابِرٍ،رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ:" خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فِي حَجَّـةِ الْوَدَاعِ،فَقَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ،أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ،أَلَا لَا فَضْـلَ لِعَجَمِـيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ،وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ،وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى،إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ،أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا:بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:«فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[٨٠٣]

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْـنَانِ الْمِشْـطِ وَإِنَّمَـا يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَةِ،وَالْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ،وَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِنَ الْحَقِّ مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ»[٨٠٤]

---

801 – أخبار مكة للأزرقي (٢/ ١٢١) صحيح مرسل

802 – التوحيد لابن منده (١/ ٢٦١)(١١٠) صحيح

803 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ١٠٠) صحيح

804 – جزء ما رواه الزبير عن غير جابر لأبي الشيخ الأصـبهاني (ص:٦٤)(٢٣) والكـنى والأسمـاء للـدولابي (٢/ ٥٢٤)(٩٥٠) وأمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني (ص:٢٠٤)(١٦٨) و أمثال الحديث لأبي الشـيخ الأصـبهاني (ص:٢٠٣)(١٦٦) عن أنس وأمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني (ص:٢٠٣)(١٦٧)عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،عَنْ أَبِيهِ حسن لغيره

ونفت السيادة عن غير الله،عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ:قَالَ أَبِي:انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالُوا:أَنْتَ سَيِّدُنَا،قَالَ:«السَّيِّدُ اللَّهُ»،قَالُوا:وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا،وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا،قَالَ:فَقَالَ:«قُولُوا بِقَوْلِكُمْ،وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[٨٠٥]

وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ،قَالَ:قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا،فَقَالَ:«إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي» وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِمِثْلِ حَدِيثِ هِشَامٍ،عَنْ قَتَادَةَ،وَزَادَ فِيهِ «وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ،وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» وَقَالَ فِي حَدِيثِهِ «وَهُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا»،فَقُلْتُ:فَيَكُونُ ذَلِكَ؟ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ قَالَ:نَعَمْ،وَاللهِ لَقَدْ أَدْرَكْتُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْعَى عَلَى الْحَيِّ،مَا بِهِ إِلَّا وَلِيدَتُهُمْ يَطَؤُهَا "[٨٠٦]

٢- وجعلت الأمر المجتمعي وسياسة شئونهم قائمة على الشورى بناء على تقرر الأخوة والمساواة بينهم { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [الشورى:٣٨]،و {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } [آل عمران:١٥٩].

فحرم الإسلام كل صور الطغيان والاستبداد،وقد أجمع على ذلك الصحابة كما قال عمر في خطبته في صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قال عمر:إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وَتَمَّتْ،أَلاَ وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ،وَلَكِنَّ اللَّهَ وَقَى شَرَّهَا،وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ،مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلاَ يُبَايَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ،تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ.."[٨٠٧]

---

805 - الأدب المفرد مخرجا (ص:٨٣)(٢١١) صحيح

(فَقَالَ السَّيِّدُ اللَّهُ) أَيْ هُوَ الحقيق بهذا الاسم،قال القارىء أَيِ الَّذِي يَمْلِكُ نَوَاصِيَ الْخَلْقِ وَيَتَوَلَّاهُمْ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَهَذَا لَا يُنَافِي سِيَادَتَهُ الْمَجَازِيَّةَ الْإِضَافِيَّةَ الْمَخْصُوصَةَ بِالْأَفْرَادِ الْإِنْسَانِيَّةِ حَيْثُ قَالَ أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ أَيْ لَا أَقُولُ افْتِخَارًا بَلْ تَحَدُّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَإِلَّا فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا يَعْنِي بِلَالًا انْتَهَى وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى بِلَالٍ تواضع انتهى كلام القارىء عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٣/ ١١١)

806 - صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٨)٦٤ - (٢٨٦٥)

807 - صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)(٦٨٣٠)

،وفي رواية أخرى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ لِي عُمَرُ عِنْدَ مَوْتِهِ اعْقِلْ عَنِّي ثَلَاثًا:«الْإِمَارَةُ شُورَى،وَفِي فِدَاءِ الْعَرَبِيِّ عَبْدٌ،وَفِي ابْنِ الْأَمَةِ بَعِيرَانِ»،قَالَ:وَكَتَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ الثَّالِثَةَ "[808]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:«مَنْ دَعَا إِلَى إِمَارَةِ نَفْسِهِ،أَوْ غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَقْتُلُوهُ»[809]

وكل ذلك صيانة لحرية الأمة وحقوقها من الاستبداد والطغيان

٣- وأوجب الإسلام على الأمة تقويم السلطة بعد اختيارها بالشورى وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر،وجعل حقيقة الدين العناية بشئون الأمة العامة وشئون السلطة كما في الصحيح عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا:لِمَنْ؟ قَالَ:«لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[810]

وكما صح عَنْ قَيْسٍ،قَالَ:خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ:وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فَسَدِّدُونِي،فَإِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِيلَا أَذَا رَأَيْتُمُونِي غَضِبْتُ فَاجْتَنِبُونِي،لَا أُؤْثِرُ فِي أَجْسَادِكُمْ وَلَا أَبْشَارِكُمْ"[811]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَمِلْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى» أَوْ قَالَ:«التُّقَى»،شَكَّ أَبُو

---

808 - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٧٨)(٣٦١) صحيح

809 - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٤٤٥)(٩٧٥٩) والسنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٤٣)(١٠٦) حسن

810 - صحيح مسلم (١/ ٧٤)٩٥ - (٥٥)

[ش (الدين النصيحة) قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ومعنى الحديث عماد الدين وقوامه النصيحة كقوله الحج عرفة أي عماده ومعظمه عرفة (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) أما النصيحة لله تعالى فمعناها منصرف إلى الإيمان به ونفي الشريك عنه وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصح نفسه فالله سبحانه وتعالى غنى عن نصح الناصح وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابه وأما النصيحة لرسول الله ﷺ فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به والمراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمور فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم]

811 - الزهد لأبي داود (ص:٥٦)(٣١) صحيح

عُبَيْد،قَالَ:وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ:التُّقَى - «وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[٨١٢]

٤- وأوجب الخروج على السلطة حين تخرج عن العدل والحكم بالكتاب،فجاء في الصحيحين عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،وَهُوَ مَرِيضٌ،قُلْنَا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ،حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ،سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا،عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٨١٣]

كما في صحيح مسلم عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَدَّتِي،تُحَدِّثُ،أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ،وَهُوَ يَقُولُ:«وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[٨١٤]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ الْحُصَيْنِ،عَنْ أُمِّهِ قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ،اتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا،وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "[٨١٥]

فقرر المساواة بين الجميع وأنه لا فرق بين قرشي وحبشي في تولي المسئولية العامة،ما دام يحكم بالعدل والقسط الذي جاء به كتاب الله،عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ،وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ،فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ،وَقَالَ:أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا:بَلَى،قَالَ:قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا،وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا،ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا،فَأَوْقَدُوا نَارًا،فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ،فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى

---

812 - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(٨) صحيح لغيره

813 - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥ و٧٠٥٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠) ٤٢ - (١٧٠٩)

814 - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٨)٣٧ - (١٨٣٨)

815 - مسند أحمد ط الرسالة (٢٧/ ٢٠٩)(١٦٦٤٩) والمعجم الكبير للطبراني (٢٥/ ١٥٦)(٣٧٧) صحيح

بَعْضٍ،قَالَ بَعْضُهُمْ:إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ،إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ،وَسَكَنَ غَضَبُهُ،فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:«لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا،إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[٨١٦]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»[٨١٧]

وقال عن أمراء السوء كما في صحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[٨١٨]

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[٨١٩]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٨٢٠]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ [ص:١٢٢] عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسِقُونَ} [المائدة:٨١]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّهِ

---

816 - صحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٩ - (١٨٤٠)

[ش (عزمت عليكم) آمركم وأؤكد أمري لكم وأجد فيه. (ما خرجوا..) لأن الدخول فيها معصية فإذا استحلوها كفروا واستحقوا الخلود فيها وهذا جزاء من جنس العمل. (الطاعة) للأمر واجبة. (المعروف) هو ما لا يتنافى مع الشرع]

817 - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ١٧٠)(٣٨١) صحيح

818 - صحيح مسلم (١/ ٦٩)٨٠ - (٥٠)

819 - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) صحيح لغيره

820 - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣)(٧٧٨٦) صحيح

لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[821]

٥- وقرر حرية الكلمة لكل إنسان وأن يقول كلمة الحق،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ،فَأَغْلَظَ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«دَعُوهُ،فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا»،ثُمَّ قَالَ:«أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِلَّا أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ،فَقَالَ:«أَعْطُوهُ،فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً»[822]

وكل هذه الأحكام العملية الفقهية التفصيلية جاءت لحماية حرية الأمة وكرامتها وحقوقها المجتمعية العامة والخاصة ولمنع كل أشكال وصور استبداد السلطة.

حماية الحرية بمفهومها الوطني

وأما الحرية بمفهومها الوطني وهي التي تعني سيادة دار الإسلام ودولته،والاستقلال من الاحتلال الأجنبي ونفوذه،فقد شرع الإسلام أوجب الواجبات بعد الأركان الخمسة وهو الجهاد في سبيل الله،وجعله فرض عين حتى على العبد المملوك دون إذن مولاه،وعلى المرأة دون إذن زوجها[823]،فقال تعالى:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [البقرة:١٩٠].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«ذِرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،لَا يَنَالُهُ إِلَّا أَفْضَلُهُمْ»[824]

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ "[825]

وذلك لحماية حرية الأمة وسيادتها من سلطان الأجنبي ونفوذه،إذ لا حرية وكرامة للفرد ولا للمجتمع في ظل وطن مسلوب الحرية والسيادة،وكما قال شيخ الإسلام ابن

---

821 – سنن أبي داود (٤/ ١٢١) (٤٣٣٦) حسن

822 – صحيح البخاري (٣/ ٩٩)(٢٣٠٦)

[ش (فأغلظ) شدد في المطالبة وأثقل بالقول. (فهم به) قصدوه ليؤذوه باللسان أو باليد. (مقالا) صولة الطلب وقوة الحجة. (أمثل) أفضل]

823 – هذا في حالة جهاد الدفع

824 – الجهاد لابن أبي عاصم (١/ ١٥٣)(١٥) صحيح لغيره

825 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٣٧٥)(٢٢٠٥١) صحيح لغيره

تيمية:(وَأَمَّا قِتَالُ الدَّفْعِ فَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ دَفْعِ الصَّائِلِ عَنِ الْحُرْمَةِ وَالدِّينِ فَوَاجِبٌ إجْمَاعًا فَالْعَدُوُّ الصَّائِلُ الَّذِي يُفْسِدُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَا شَيْءَ أَوْجَبَ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ دَفْعِهِ فَلَا يُشْتَرَطُ لَهُ شَرْطٌ بَلْ يُدْفَعُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ)[826]

فكل ما سبق بعض أحكام الحرية في دائرة الإسلام وأحكامه العملية..

مكانة الحرية في الدائرة الثانية من دوائر الدين،وهي دائرة (الإيمان)

وأما مكانة الحرية في الدائرة الثانية من دوائر الدين،وهي دائرة (الإيمان) والأحكام العقائدية العلمية،فتتجلى في أول أركان الإيمان هو الإيمان بالله (أن تؤمن بالله) وهذا الإيمان بالله هو بتوحيده وإفراده اعتقادا وعملا بكل ما أوجب على الإنسان إفراده به،وإخلاص العمل كله له وحده لا شريك له ومن ذلك:

١- الإيمان بأنه وحده الملك فهو ملك السموات والأرض

قال تعالى:{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:١٨٩]،وأن الله هو الملك {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } [المؤمنون:١١٦]،وأنه ملك الناس {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) } [الناس:١ - ٤]،فليس للناس ملك دونه أو سواه،وأنه لا شريك له في الملك {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا } [الإسراء:١١١]،فأبطل كل دعاوى ملوك الأرض:{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [غافر:١٦]،ويوم القيامة ينادي كما في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:" يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ،ثُمَّ يَقُولُ:أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ"[827]

فحرر الإنسان من كل عبودية للملوك وأبطل ملكهم وسلطانهم الجائر على عباده،وجاء الإعلان السماوي { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ

826 - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٨) والمستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٥)

827 - صحيح البخاري (٩/ ١١٦)(٧٣٨٢) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٤٨) ٢٣ - (٢٧٨٧)

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف:١٥٨]..

٢- والإيمان بأنه وحده الرب الذي له السيادة والطاعة وحده لا شريك له:

فهو { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢] وهو { إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)} [الصافات:٤،٥]،وهو {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس:١]،ونفى أن يكون له شريك في ربوبيته وسيادته على خلقه { اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا } [الكهف:٣٨]،وأبطل ربوبية الملوك والأحبار والرهبان وعدها شركا به { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [التوبة:٣١]،وذلك بطاعتهم واتباعهم لهم { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام:١٢١]..

٣- والإيمان بأنه وحده الحَكم،وله وحده الحُكم،وله وحده الأمر:

{ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:٥٤]،{ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ } [الأنعام:٦٢]،{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [يوسف:٤٠].

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله:" إن الحكم لا يكون إلا لله. فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته. إذ الحاكمية من خصائص الألوهية.

من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته سواء ادعى هذا الحق فرد،أو طبقة،أو حزب. أو هيئة،أو أمة،أو الناس جميعا في صورة منظمة عالمية. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرا بواحا،يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة،حتى بحكم هذا النص وحده! وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم،وتجعله منازعا لله في أولى خصائص ألوهيته - سبحانه - فليس من الضروري أن يقول:ما علمت لكم من إله غيري أو يقول:أنا ربكم الأعلى،كما قالها فرعون جهرة. ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه

بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية ويستمد القوانين من مصدر آخر. وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية،أي التي تكون هي مصدر السلطات،جهة أخرى غير الله سبحانه.. ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية.

والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته. إنما مصدر الحاكمية هو الله. وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة. فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده.والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه،أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية،وما أنزل الله به من سلطان.."[٨٢٨]

فجعل عبادته وحده لا شريك له فرع الإيمان بحاكميته وحده لا شريك له،إذ لا يعرف شرعه ودينه وطاعته وعبادته التي يرتضيها إلا بالحكم والأمر والنهي،وحرم الإشراك به في حكمه فقال {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } [الكهف:٢٦] وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَامِرٍ مِنَ السَّبْعَةِ وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا بِصِيغَةِ النَّهْيِ[٨٢٩]

وجعل الحكم المطلق بين عباده له وحده لا شريك له {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [الشورى:١٠]،{ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} [المائدة:٤٩]..

٤- والإيمان بأن الله هو الإله وحده لا شريك له:

فالعبادة له وحده،والخشية والخوف منه وحده لا شريك له {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } [طه:١٤]،وحرم الإشراك به في عبادته { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا

828 - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٦٣٧)

829 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٨)

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف:١١٠]،فأبطل كل عبودية وخضوع للبشر كما قال موسى لفرعون:{ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء:٢٢] وقال الملأ من قوم فرعون:{ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [المؤمنون:٤٧] بخضوعهم وطاعتهم للملأ!

فأبطل الإسلام بالتوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له الطاغوت بكل صوره،وهو كل مطاع أو متبوع أو معبود من دون الله،فقال في طاغوت الحكم:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠]،وقال في طاغوت الطاعة والاتباع {للَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢٥٧]،وقال في طاغوت العبادة:{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ } [الزمر:١٧]،وجعل دعوة جميع الرسل:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [النحل:٣٦] كله سواء كان طاغوت الحكم أو الطاعة والاتباع أو العبادة،وأمر بالكفر بالطاغوت:{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٥٦]،وأوجب جهاد الطاغوت كله:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦]..الخ

فصار قطب رحى (الإيمان) هو توحيد الله وتحرير الإنسان اعتقادا وتصديقا وعملا من كل أشكال العبودية لغير الله سواء من العبودية الجبرية القهرية للملوك والسادة والرؤساء،أو العبودية الاختيارية للأحبار والرهبان والعلماء!

وهذه الحرية المقصودة بقول أم مريم:{إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [آل عمران:٣٥] أي مخلصا موحدا لا يشرك في خدمتك وطاعتك وعبادتك أحدا،فساوت بين الحرية والتوحيد!

الثالثة من دوائر الدين في الإسلام دائرة (الإحسان)

وأما الدائرة الثالثة من دوائر الدين في الإسلام فهي دائرة (الإحسان) وهي كما عرفها النبي ﷺ،فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ الْإِيمَانِ،قَالَ:يَا مُحَمَّدُ،مَا الْإِحْسَانُ؟،قَالَ:" أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ،فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ،فَإِنَّهُ يَرَاكَ".[٨٣٠]

وهي موضوع (علم السوك والتصوف) وقد عرف علماء هذا الفن التوحيد بقولهم (هو تحرر العبد وانعتاقه من رق الأكوان ومن نفسه وحظوظها وهواه وكل ما سواه وإخلاص التوجه والعمل لله)

فالاستحضار الدائم لمقام العبودية لله وحده،يعني استحضار الإنسان لحريته وتحرره من كل عبودية لغيره،بما في ذلك حظوظ نفسه وشهواته وهواه!

وفي شرح الحكم العطائية:" فلا تتحقق عبوديته لله حتى يتحرر من رق الأكوان ويتحقق بمقام الأحرار من أهل العرفان فحينئذ يكون سالماً لله حراً مما سواه "[٨٣١]

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في فتوح الغيب:(ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب بل هو متابعتك هواك)!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:(فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ،وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ،كَمَا أَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ)[٨٣٢] وقال:(فَإِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ،وَاسْتِعْبَادَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ اسْتِعْبَادِ الْبَدَنِ،فَإِنَّ مَنْ اسْتَعْبَدَ بَدَنَهُ وَاسْتَرَقَّ لَا يُبَالِي إذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحًا مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنًّا،بَلْ يُمْكِنُهُ الِاحْتِيَالُ فِي الْخَلَاصِ،وَأَمَّا إذَا كَانَ الْقَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ رَقِيقًا مُسْتَعْبَدًا مُتَيَّمًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالْأَسْرُ الْمَحْضُ،وَالْعُبُودِيَّةُ لِمَا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبُ. وَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ،فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ أَسَرَهُ كَافِرٌ؛

---

830 – الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤٦٦)(٣٩٥) وهو في الصحيحين مطولا

831 – إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص:٩٥،بترقيم الشاملة آليا) والفتوحات المكية (٢/ ١٩٨،بترقيم الشاملة آليا)

832 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٨٣) ومجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٦)

أَوْ اسْتَرَقَّهُ فَاجِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ قَائِمًا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ،وَمَنْ اسْتَعْبَدَ بِحَقٍّ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ لَهُ أَجْرَانِ،وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكُفْرِ فَتَكَلَّمَ بِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ وَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ،وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ.فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ،وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ) [٨٣٣]

وقال ابن تيمية في شرح كلام الجيلاني:(فَإِن حَقِيقَة التَّوْحِيد أَن لَا يعبد إِلَّا الله.و" الْعِبَادَة " تَتَضَمَّن كَمَال الْحبّ وَكَمَال التَّعْظِيم،وَكَمَال الرَّجَاء والخشية والإجلال وَالْإِكْرَام. و " الفناء " فِي هَذَا التَّوْحِيد هُوَ فنَاء الْمُرْسلين وأتباعهم وَهُوَ أَن تفنى بِعِبَادَتِهِ عَن عبَادَة مَا سواهُ وبطاعته عَن طَاعَة مَا سواهُ وبسؤاله عَن سُؤال مَا سواهُ وبخوفه عَن خوف مَا سواهُ وبرجائه عَن رَجَاء مَا سواهُ،وبحبه وَالْحب فِيهِ عَن محبَّة مَا سواهُ وَالْحب فِيهِ.)![٨٣٤]

وقال:(وَكَذَلِكَ طَالِبُ الرِّئَاسَةِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ قَلْبُهُ رَقِيقٌ لِمَنْ يُعِينُهُ عَلَيْهَا وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مُقَدَّمَهُمْ وَالْمُطَاعَ فِيهِمْ.

فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ يَرْجُوهُمْ وَيَخَافُهُمْ،فَيَبْذُلُ لَهُمْ الْأَمْوَالَ وَالْوِلَايَاتِ،وَيَعْفُو عَنْهُمْ لِيُطِيعُوهُ،وَيُعِينُوهُ،فَهُوَ فِي الظَّاهِرِ رَئِيسٌ مُطَاعٌ،وَفِي الْحَقِيقَةِ عَبْدٌ مُطِيعٌ لَهُمْ،وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ كِلَيْهِمَا فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِلْآخَرِ،وَكِلَاهُمَا تَارِكٌ لِحَقِيقَةِ عِبَادَةِ اللَّهِ،وَإِذَا كَانَ تَعَاوُنُهُمَا عَلَى الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ كَانَا بِمَنْزِلَةِ الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْفَاحِشَةِ أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ،فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الشَّخْصَيْنِ لِهَوَاهُ الَّذِي اسْتَعْبَدَهُ وَاسْتَرَقَّهُ يَسْتَعْبِدُهُ الْآخَرُ.

وَهَكَذَا أَيْضًا طَالِبُ الْمَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَعْبِدُهُ وَيَسْتَرِقُّهُ،وَهَذِهِ الْأُمُورُ نَوْعَانِ:مِنْهَا:مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ طَعَامِهِ،وَشَرَابِهِ،وَمَسْكَنِهِ،وَمُنْكَحِهِ،وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَهَذَا يَطْلُبُهُ مِنْ اللَّهِ وَيَرْغَبُ إلَيْهِ فِيهِ،فَيَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ يَسْتَعْمِلُهُ فِي حَاجَتِهِ بِمَنْزِلَةِ حِمَارِهِ الَّذِي يَرْكَبُهُ،وَبِسَاطِهِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ؛ بَلْ بِمَنْزِلَةِ الْكَنِيفِ الَّذِي يَقْضِي فِيهِ حَاجَتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ،فَيَكُونَ هَلُوعًا إنْ مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا؛ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا.)![٨٣٥]

---

833 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٨٣) والعبودية (ص:٨٧)

834 – جامع الرسائل لابن تيمية – رشاد سالم (٢/ ١١١)

835 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٨٥)

فصارت الحرية هي غاية التوحيد وروحه،فمن لم يتحرر من كل عبودية لغير الله صورية أو معنوية،ففيه من نقص التوحيد بقدر نقص هذه الحرية!

وقد جاء الإسلام من أجل ألا يخاف الإنسان ولا يخشى ولا يرهب أحدا إلا الله،كما قال تعالى:{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران:١٧٥]،وقال:{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } [البقرة:٤٠]،{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [التوبة:١٨]،فحرر الإنسان من كل مشاعر الخوف ونوازع النفس،ليكمل توحيده بكمال تحريره!

فدين يجعل الحرية هي باب الدخول إليه { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٥٦]،ويجعلها غاية الوصول إليه { وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ }،كيف لا يوجب القتال من أجلها،ولا يصون جنابها؟

وكيف تكون دولة في الإسلام ولا تتحقق فيها الحرية والعدل والإحسان؟ وكيف تكون دولة في الإسلام يخشى الإنسان فيها غير الله ويرهبه ويرغبه؟

إن الإسلام والإيمان والإحسان والتوحيد هو الحرية في أكمل صورها ومعانيها،وفي أشرف مضامينها ومراميها،وليس وراءها إلا العبودية للإنسان،أو العبودية للمادة،أو العبودية للشهوات والأهواء،وليست هذه من الحرية في شيء إلا في صورتها البهيمية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ،وَالدِّرْهَمِ،وَالقَطِيفَةِ،وَالخَمِيصَةِ،إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»[836]

836 - صحيح البخاري (٨/ ٩٢)(٦٤٣٥)

/http://www.dr-hakem.com

المبحث الخامس والعشرون

الإعلام ببطلان القول بوجوب الطاعة والاستسلام لمن نصبه العدو الكافر في أرض الإسلام

ما صحة الفتوى بوجوب السمع والطاعة للحاكم الذي نصبه العدو الكافر في بلد إسلامي،بدعوى أن النبي يوسف كان وزيرا لملك مصر،وهو الذي ولى يوسف أمر خزائن الأرض كما جاء في القرآن؟ وما حكم من يفتي بذلك؟ وهل يسوغ تقليده؟ وما الذي يجب على المسلمين إذا استقر الأمر لمثل هذا الحاكم على القول ببطلان ولايته؟

الجواب:

الحمد لله ولي المؤمنين،وصلى الله وسلم على إمام الموحدين،محمد بن عبد الله وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد كثر السؤال عما أثاره بعض الشيوخ في وسائل الإعلام من شبه هدمت من الدين الفرع والأصل،وصادمت من الأدلة الشرع والعقل،ومنها هذه القضية التي طرحها ذلك الشيخ على الناس و لم يسبقه إليها أحد من الأئمة،ولا سلف الأمة،بل صادم بها قطعيات النصوص الشرعية،وأحكامها القطعية،وهذا بيان وجه بطلان هذا القول أصلا وفرعا:

أولا:وجه بطلان هذا القول أصلا:

فمن المعلوم بالأدلة القطعية أن السمع والطاعة إنما هما فرع من فروع أصل الموالاة،وهي – أي الموالاة – أصل من أصول الإسلام،وركن من أركان الإيمان،وقد نص القرآن على هذا الأصل العظيم في آيات كثيرة،ورتب عليه أحكام خطيرة،ومن ذلك:

١) أن الله جعل نفسه ولي المؤمنين،وجعل الطاغوت ولي الكافرين،كما قال تعالى:{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢٥٧] والولي هو النصير والظهير.

٢) **وحصر الولاية وقيدها** فقال سبحانه:{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)} [المائدة:٥٥،٥٦].

٣) وحرم مولاة غير المؤمنين تحريما قاطعا فقال سبحانه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [الممتحنة:١]،وقال:{ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [آل عمران:٢٨]،وقال أيضا:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } [الممتحنة:١٣]

٤) وقطع كل أشكال وصور المولاة معهم فقال:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [التوبة:٢٣].

٥) وجعل حكم من تولاهم كحكمهم،فقال في شأنهم:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١].

٦) وشرط لتحقق الإيمان عدم المولاة لهم فقال سبحانه:{ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)} [المائدة:٨٠،٨١]،فدل على أن من اتخذهم أولياء لم يتحقق له الإيمان بالله والرسول والكتاب.

٧) وأوجب المولاة بين المؤمنين،كما جعل الظالمين والمشركين أولياء للظالمين والشياطين،فقال جلا وعلا:{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٧١]،وقال في شأن الظالمين:{وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ } [الجاثية:١٩]،وقال أيضا:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال:٧٣]،وقال:{إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:٢٧].

٨) وحرم على المؤمنين طاعتهم واتباعهم وجعل طاعتهم من الشرك به فقال:{ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام:١٢١]،وقال أيضا:{ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف:٣].

٩) وأوجب على المؤمنين جهاد المشركين أولياء الشياطين فقال سبحانه:{ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦]،وقال أيضا:{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) } [النساء:٨٨ - ٨٩]،وجعل الغاية من قتالهم أن لا تكون فتنة وأن يكون الدين والطاعة كلها لله،فقال:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [البقرة:١٩٣].

١٠) وأوجب على المؤمنين البراءة منهم وعداوتهم حتى يؤمنوا بالله وحده،فقال سبحانه:{ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا

رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) } [الممتحنة].

١١) وجعل الله سلطان الشياطين والكافرين على أوليائهم ولم يجعل لهم على المؤمنين سلطانا ولا سبيلا،فقال سبحانه:{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) } [النحل:٩٨ - ١٠١]،وقال أيضا:{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } [النساء:١٤١]،بل وأوجب على المسلمين الهجرة من أرض الكفر - قبل الفتح - و لم يجعل لهم ولاية مع المؤمنين حتى يهاجروا إلى أرض الإسلام،كما قال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الأنفال:٧٢].

١٢) وكتب الله العزة والنصر في الدنيا والآخرة له ولأنبيائه ولأوليائه المؤمنين فقال سبحانه:{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)} [يونس:٦٢ - ٦٤]،وقال:{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) } [المائدة:٥٥ - ٥٦]،وقال أيضا:{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) } [النساء:١٣٨ - ١٣٩].

فإذا كان أمر الولاية على النحو المذكور - من كون الله سبحانه وتعالى هو ولي المؤمنين،كما أن الطاغوت هو ولي الظالمين،ومن كون الولاية هي لله ولرسوله وللمؤمنين،وأنه يحرم على المسلم أن يوالي غير المؤمنين ولو كان أبا أو أخا،وأن من تولاهم كان منهم ومثلهم في كفرهم،وأن دعوى الإيمان بالله ورسوله وكتابه لا تتحقق مع اتخاذ

غير المؤمنين أولياء،وأنه يحرم طاعتهم واتباعهم،بل يجب عداوتهم وجهادهم حتى يكون الدين كله لله،وأن طاعتهم وتوليهم واتباعهم هو من الشرك بالله والكفر به.... الخ – فكيف يسوغ في دين الله القول بمشروعية السمع والطاعة لهم التي تقتضي النصرة مع أن الولاية – التي تعني النصرة – محرمة بينهم وبين المسلمين،بل وتقتضي الردة عن الدين،والخروج عن سبيل المؤمنين؟!

وكيف يستقيم القول بوجوب السمع والطاعة لمن هو عدو لله ورسوله ممن أوجب الله على المؤمنين جهاده من الكفار والمنافقين كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التوبة:٧٣]؟!

وكيف يسعى المؤمن في نصرة من يريدون أن يطفئوا نور الله،ويعطلوا شريعته،يبطلوا أحكامه،في الوقت الذي أوجب الله عليه الجهاد في سبيله حتى يكون الدين كله لله؟!

وكيف يبرأ المؤمن من المشركين والكافرين ويعاديهم ويبغضهم ولو كانوا عشيرته وفي الوقت نفسه يجب عليه طاعتهم وتوليهم ونصرتهم؟!

والمقصود أن أصل الولاية لله ولرسوله وللمؤمنين،وأصل البراءة من المشركين والظالمين،يتناقضان كلية مع القول بوجوب السمع والطاعة للمشركين وأولياء المشركين أو لمن يوليه العدو على المؤمنين،إذ الولاية – التي تعني النصرة والتي هي خاصة لله ولرسوله وللمؤمنين – تتناقض مع الطاعة – التي تقتضي النصرة – التي يوجبها صاحب هذه الفتوى!!

ثانيا:وجه بطلان هذا القول فرعا:

وإذا كان ما سبق بيانه قاض ببطلان هذا القول أصلا،لمناقضته لأصول الإيمان،وقطعيات القرآن،فإنه باطل أيضا فرعا،لمصادمته لأحكام فقهية فرعية قطعية أيضا،ومن ذلك:

١) أن السمع والطاعة لولي الأمر من الأحكام الشرعية:

وقد جعل الله السمع والطاعة له،ولرسوله،ولأولي الأمر من المسلمين،كما قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩].

فجعل الطاعة لله ورسوله مطلقة،وجعل الطاعة لولي الأمر (منا) أي من المسلمين،فليس لغير الإمام المسلم سمع ولا طاعة بالإجماع،كما جعل طاعة ولي الأمر المسلم مقيدة بطاعة الله ورسوله،فإذا اختلف المسلمون مع ولي أمرهم وجب عليهم جميعا التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ،ولهذا جاء في الحديث عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ»[٨٣٧]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»[٨٣٨]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ،وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ،فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ،وَقَالَ:أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا:بَلَى،قَالَ:قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا،وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا،ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا،فَأَوْقَدُوا نَارًا،فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ،فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ،قَالَ بَعْضُهُمْ:إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ،إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ،وَسَكَنَ غَضَبُهُ،فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:«لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا،إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[٨٣٩]

وقد نص على ذلك الصديق بعد البيعة له مباشرة في خطبته عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ؛ قَالَ:لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صَعَدَ الْمِنْبَرَ،فَنَزَلَ مِرْقَاةً مِنْ مَقْعَدِ النَّبِيِّ ﷺ،فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:اعْلَمُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التُّقَى،وأن أَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ،وَإِنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَإِنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَحْسَنْتُ؛ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ زِغْتُ؛

---

837 – المعجم الأوسط (٤/ ٣٢١)(٤٣٢٢) صحيح

838 – المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ١٧٠)(٣٨١) صحيح

839 – صحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٩ – (١٨٤٠)

[ش(عزمت عليكم) آمركم وأؤكد أمري لكم وأجد فيه. (ما خرجوا..) لأن الدخول فيها معصية فإذا استحلوها كفروا واستحقوا الخلود فيها وهذا جزاء من جنس العمل. (الطاعة) للأمر واجبة. (المعروف) هو ما لا يتنافى مع الشرع]

فَقَوِّمُونِي،وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا،وَلا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللهُ بِالْفَقْرِ،وَلا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ؛ إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْبَلاءِ؛ فَأَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ،فَإِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ؛ فَلا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ،أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ "[٨٤٠]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ الْحُصَيْنِ،عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ الْحُصَيْنِ،قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا،مَا قَادَكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ»[٨٤١]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ،عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ الْحُصَيْنِ،قَالَ:سَمِعْتُهَا تَقُولُ:حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ،فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ،وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ،وَالْآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الشَّمْسِ،قَالَتْ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا،ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ:«إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - حَسِبْتُهَا قَالَتْ - أَسْوَدُ،يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[٨٤٢]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَدَّتِي،تُحَدِّثُ،أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ،وَهُوَ يَقُولُ:«وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[٨٤٣]

وقد أجمع المسلمون على أنه يشترط في الإمام الذي يجب له السمع والطاعة:الإسلام والعدالة،كما أجمعوا على وجوب طاعة الإمام العدل - وهو من تولى الأمر بالرضى والشورى - فيما كان من طاعة الله ورسوله كما إذا أمر بالجهاد،وإقامة الحدود،والفصل بين الناس.... الخ.

فإن طرأ عليه فسق أو ظلم يخرجه من حد العدالة،فقد اختلف السلف في وجوب طاعته.

---

840 - المجالسة وجواهر العلم (٤/ ١١٣)(١٢٩٠) صحيح لغيره

841 - سنن ابن ماجه (٢/ ٩٥٥)(٢٨٦١) صحيح

842 - صحيح مسلم (٢/ ٩٤٤)٣١١ - (١٢٩٨)

[ش (عبد مجدع) أي مقطع الأعضاء والتشديد للتكثير وإلا فالجدع قطع الأنف والأذن والشفة والذي قطع منه ذلك أجدع والأنثى جدعاء والمقصود التنبيه على نهاية خسته فإن العبد خسيس في العادة ثم سواده نقص آخر وجدعه نقص آخر ومن هذه الصفات مجموعة فيه فهو في نهاية الخسة والعادة أن يكون ممتهنا في أرذل الأعمال]

843 - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٨)٣٧ - (١٨٣٨)

فمنهم من لا يرى إمامته أصلا،ولا يرى له طاعة،ويوجب الخروج عليه؛ كالحسين بن علي،وعبد الله بن الزبير،وكل من خرج على الحجاج من علماء العراق كسعيد بن جبير،وحجتهم في ذلك قوله تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٢٤]،فقالوا الظالم لا يكون إماما أبدا.

ومنهم من لا يرى إمامته،ولا يرى طاعته،ولا يوجب الخروج عليه،ولا يمنع منه؛ كمالك بن أنس،وأبي حنيفة،وسفيان الثوري،وحجته قوله تعالى:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]،فحرموا الركون والميل إليهم،وإن لم يوجبوا الخروج عليهم،ولم يحرموه أيضا،وكان الإمام مالك إذا سئل عن القتال مع الخلفاء في عصره ضد من خرج عليهم يقول:(إن كان الخليفة كعمر بن عبد العزيز فقاتل معه،وإن كان كمثل هؤلاء الظلمة،فلا تقاتل معهم).[٨٤٤]

لأنه لا يرى لهم ولاية شرعية تقتضي وجوب السمع والطاعة لهم والقتال معهم ضد من خرج عليهم!

وقد سئل عن خروج محمد ذو النفس الزكية على أبي جعفر المنصور مع أنه أخذ البيعة من أهل المدينة،فقال الإمام مالك:(إِنَّ فِي أَعْنَاقِنَا بَيْعَةً لِلْمَنْصُورِ،فَقَالَ:إِنَّمَا بَايَعْتُمْ مُكْرَهِينَ وَلَيْسَ عَلَى مُكْرَهٍ يَمِينٌ،فَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَى مُحَمَّدٍ وَلَزِمَ مَالِكٌ بَيْتَهُ.)[٨٤٥]

ومنهم من يرى إمامته،وطاعته في طاعة الله ورسوله فقط،ويرى الصبر،ويحرم الخروج عليه؛ كأحمد،كما هو مفصل في كتب الفقه،وهؤلاء إنما راعوا المصالح الكلية التي قد تتعطل بالخروج عليه كوحدة الأمة،وإقامة أمر الجهاد،وحماية البيضة من العدو،وإقامة مصالح الناس.... الخ.

---

844 – انظر تبصرة الحكام ٢/٩٦.

845 – السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي (ص:٣٥٨) والكامل في التاريخ (٥/ ١١١) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٨/ ٦٤) وتاريخ ابن خلدون (٣/ ٢٤٠) وتاريخ الإسلام ت بشار (٣/ ٧٨٣) وتاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٧/ ٥٦٠)

فإذا اختلف الناس على إمامين – كما حدث في عهد ابن الزبير – فهو زمن فتنة،ولم يروا البيعة لواحد منهما،ولا السمع والطاعة لهما،حتى يكون الناس جماعة على إمام واحد،وهو مذهب الإمام أحمد،فعن إِسْحَاقَ،أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ سُئِلَ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ:«مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»،مَا مَعْنَاهُ؟ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:" تَدْرِي مَا الْإِمَامُ؟ الْإِمَامُ الَّذِي يُجْمِعُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ،كُلُّهُمْ يَقُولُ:هَذَا إِمَامٌ،فَهَذَا مَعْنَاهُ "[٨٤٦].

وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَدُ فِي رِسَالَةِ عُبْدُوسِ بْنِ مَالِكٍ الْعَطَّارِ:" أُصُولُ السُّنَّةِ عِنْدَنَا:التَّمَسُّكُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَالِاقْتِدَاءُ بِهِمْ،وَتَرْكُ الْبِدَعِ،وَكُلُّ بِدْعَةٍ فَهِيَ ضَلَالَةٌ،وَتَرْكُ الْخُصُومَاتِ وَالْجُلُوسِ مَعَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ،وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ وَالْخُصُومَاتِ فِي الدِّينِ.... إلى أن قال:وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِلْأَئِمَّةِ وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ،وَمَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَرَضُوا بِهِ. وَمَنْ غَلَبَهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى صَارَ خَلِيفَةً وَسُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. "[٨٤٧]

أما إذا كفر الإمام،وارتد عن الإسلام،فقد أجمعوا على سقوط إمامته وطاعته،بل ووجوب الخروج عليه وخلعه،إذ المقصود من الإمامة أصلا إقامة الدين،وسياسة الأمة،وإقامة الجهاد في سبيل الله،وتحكيم شرعه... الخ.

وقد نقل هذا الإجماع كثير من العلماء كالقاضي عياض قَالَ الْقَاضِي فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَتَغْيِيرٌ لِلشَّرْعِ أَوْ بِدْعَةٌ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ الْوِلَايَةِ وَسَقَطَتْ طَاعَتُهُ وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقِيَامُ عَلَيْهِ وَخَلْعُهُ وَنَصْبُ إِمَامٍ عَادِلٍ إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ فَإِنْ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ إِلَّا لِطَائِفَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ بِخَلْعِ الْكَافِرِ وَلَا يَجِبُ فِي الْمُبْتَدِعِ إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ فَإِنْ تَحَقَّقُوا الْعَجْزَ لَمْ يَجِبِ الْقِيَامُ وَلْيُهَاجِرِ الْمُسْلِمُ عَنْ أَرْضِهِ إِلَى غَيْرِهَا وَيَفِرَّ بِدِينِهِ قَالَ وَلَا تَنْعَقِدُ لِفَاسِقٍ ابْتِدَاءً فَلَوْ طَرَأَ عَلَى الْخَلِيفَةِ فِسْقٌ قَالَ بَعْضُهُمْ يَجِبُ خَلْعُهُ إِلَّا أَنْ تَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ فِتْنَةٌ وَحَرْبٌ "[٨٤٨]

---

846 – السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ٨١)(١٠) صحيح

847 – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٨٠) صحيح

848 – شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٩)

وقال الحافظ ابن حجر:" إِنَّهُ - أي الإمام - يَنْعَزِلُ بِالْكُفْرِ إِجْمَاعًا فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ الْقِيَامُ فِي ذَلِكَ فَمَنْ قَوِيَ عَلَى ذَلِكَ فَلَهُ الثَّوَابُ وَمَنْ دَاهَنَ فَعَلَيْهِ الْإِثْمُ وَمَنْ عَجَزَ وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ من تِلْكَ الأَرْض "[٨٤٩]

وقال أيضاً:"وَقَدْ أَجْمَعُوا أَنَّهُ أَيِ الْخَلِيفَةُ إِذَا دَعَا إِلَى كُفْرٍ أَوْ بِدْعَةٍ أَنَّهُ يُقَامُ عَلَيْهِ وَاخْتَلَفُوا إِذَا غَصَبَ الْأَمْوَالَ وَسَفَكَ الدِّمَاءَ وَانْتَهَكَ هَلْ يُقَامُ عَلَيْهِ أَوْ لَا.."[٨٥٠]

وقال العيني:" وَقد أَجمعُوا على أَنه إِذا دَعَا إِلَى كفر أَو بِدعَة يُقَام عَلَيْهِ،وَإِن غصب الْأَمْوَال وانتهك الْحرم فَاخْتلف فِيهِ:هَل يُقَام عَلَيْهِ؟ فَقَالَ الْأَشْعَرِيّ مرّة:نعم،وَمرَّة:لَا."[٨٥١]

وقال السفاقسي:(أجمعوا أن الخليفة إذا دعا إلى كفر أو بدعة يقام عليه)[٨٥٢] .

فالقول بوجوب السمع والطاعة لمن جاء به العدو الكافر ونصبه في دار الإسلام يصطدم بالنصوص القطعية،والإجماع القطعي على وجوب الخروج على الإمام إذا طرأ عليه كفر،أو كان كافرا أصليا،للحديث الصحيح عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،وَهُوَ مَرِيضٌ،قُلْنَا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ،حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ،سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا،عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٨٥٣]،أي فنابذوا الأمراء حينئذ بالسيف.

---

849 - فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٢٣)

850 - فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١١٦)

851 - عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦/ ٧٤)

852 - شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٢١٧)

853 - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥ و٧٠٥٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ - (١٧٠٩)

[ش (أصلحك الله) كلمة اعتادوا أن يقولوها عند الطلب أو المراد الدعاء له بإصلاح جسمه ليعافى من مرضه. (أخذ علينا) اشترط علينا. (على السمع والطاعة) لله تعالى ورسوله ﷺ. (منشطنا) حالة نشاطنا. (مكرهنا) في الأشياء التي نكرهها وتشق علينا. (أثرة علينا) استئثار الأمراء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم أي ولو منعنا حقوقنا. (الأمر) الملك والإمارة. (كفرا) منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فتكون المنازعة بالإنكار عليهم. أو كفرا ظاهرا فينازعون بالقتال والخروج عليهم وخلعهم. (بواحا) ظاهرا وباديا. (برهان) نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل]

والمقصود أن السمع والطاعة – المجمع عليها بين الأئمة وسلف الأمة – إنما تكون للإمام المسلم العدل،كما أنه مجمع على أنه لا سمع ولا طاعة للكافر،أو لمن طرأ عليه الكفر،ولا خلاف بين الأمة في ذلك،وأما الإمام الجائر أو الفاسق فقد اختلف الأئمة،وسلف الأمة في السمع والطاعة له اختلافا كبيرا،وهذا كله في الإمام الذي يصدق عليه أنه ولي أمر ليس فوقه من هو أعلى منه سلطة وسيادة،وهو من يطلق عليه في الفقه الإمام العام أو الإمام الأعظم وهو الخليفة.

أما من يأتي به العدو الكافر الغازي وينصبه على المسلمين فإنه خارج عن محل الخلاف بلا خلاف،إذ الحاكم في واقع الأمر هو العدو الكافر الذي نصبه إماما،وهو ولي أمره،فمن أوجب له السمع والطاعة فإنما يوجبها للعدو الغازي،ويرى أنه يدخل في عموم الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩]،ومن يرى مثل الرأي الباطل،إنما يرد على الله ورسوله حكمهما،وينقض إجماع الأمة على أن السمع والطاعة لا تكون إلا للإمام المسلم وليس لكل إمام،إذ الكافر أو المنافق الذي يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادا واجب على الأمة جهاده،لا طاعته أو السمع له.

وقد قال الله:{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء:١٤١]،وإذا كان الله سبحانه لم يجعل للكافر على ابنته إذا أسلمت ولاية ولا سبيلا،فلا يعقد نكاحها،ولا يحل له ميراثها،ولا يتصرف في مالها،فكيف يكون له ذلك على الأمة كلها يتصرف في دمائها وأرضها وشئونها؟!!

فهذا لا يقوله من يعلم عن الله كتابه،ولا من يفهم عن الشارع خطابه،ولا يصدر عمن يعرف الفقه،وأحكامه،ومقاصده،وهذا يدخل في القول على الله بلا علم،وهو كالشرك به،كما قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف:٣٣].

٢) أن العدو الكافر الذي نصب هذا الحاكم له أحول وهي:

الحال الأولى:أن يكون قد تدخل في تنصيب هذا الحاكم أو فرضه على بلد إسلامي دون أن يدهم أرضها،ودون أن يستحلها،أو يسفك دماء أهلها:

فهذا الحاكم ليس ولي أمر على فرض إسلامه،بل هو مولى من جهة العدو الكافر الذي هو ولي أمره في حقيقة الحال،فالسمع والطاعة في واقع الأمر ليست له،بل للعدو الذي نصبه واختاره،ولا يتصور حدوث مثل ذلك إلا في بلد لم تعد الكلمة والشوكة فيها للمسلمين،وحينئذ يكون حكم الدار حكم دار الكفر،لا حكم دار الإسلام،على قول عامة أهل الفقه،إذ إن دار الإسلام عندهم جميعا هي التي تكون الشوكة والكلمة فيها للمسلمين،والحكم فيها للشريعة الإسلامية،فإن تخلف شرط الشوكة والكلمة،وصار الأمان فيها للكفار بشوكتهم وقوتهم لا بأمان المسلمين لهم،فليست بدار إسلام بلا خلاف.

وهذا قول مالك [٨٥٤]وقول الحنفية[٨٥٥]،وقول الحنابلة[٨٥٦].

وفي الموسوعة الفقهية:" دَارُ الإِْسْلاَمِ هِيَ:كُل بُقْعَةٍ تَكُونُ فِيهَا أَحْكَامُ الإِْسْلاَمِ ظَاهِرَةً .

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:هِيَ كُل أَرْضٍ تَظْهَرُ فِيهَا أَحْكَامُ الإِْسْلاَمِ - وَيُرَادُ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الإِْسْلاَمِ:كُل حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِهِ غَيْرِ نَحْوِ الْعِبَادَاتِ كَتَحْرِيمِ الزِّنَى وَالسَّرِقَةِ -[٨٥٧]

وقال الشوكاني ":(الاعتبار بظهور الكلمة فإن كانت الأوامر والنواهي في الدار لأهل الإسلام بحيث لا يستطيع من فيها من الكفار أن يتظاهر بكفره إلا لكونه مأذونا له بذلك من أهل الإسلام فهذه دار إسلام ولا يضر ظهور الخصال الكفرية فيها لأنها لم تظهر بقوة الكفار ولا بصولتهم كما هو مشاهد في أهل الذمة من اليهود والنصارى والمعاهدين الساكنين في المدائن الإسلامية وإذا كان الأمر العكس فالدار بالعكس.)[٨٥٨]. أي تكون دار كفر لظهور شوكة الكفار وكلمتهم فيها.

---

854 - كما في "المدونة" [٢٢/٢]

855 - كما في "بدائع الصنائع" [١٣٠/٧]

856 - كما في "الإنصاف" [١٢١/٤]

857 - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٠/ ٢٠١) و بدائع الصنائع ٧ / ١٣٠ - ١٣١،ابن عابدين ٣ / ٢٥٣،المبسوط ١٠ / ١١٤،كشاف القناع ٣ / ٤٣،الإنصاف ٤ / ١٢١،المدونة ٢ / ٢٢،حاشية البجيرمي ٤ / ٢٢٠ وهو ما يفهم من نهاية المحتاج ٨ / ٨١ وما بعدها.

858 - السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص:٩٧٦)

وقال محمد بن الحسن:" إنَّ دَارَ الشِّرْكِ إنَّمَا تَصِيرُ دَارَ الْإِسْلَامِ بِإِجْرَاءِ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا،وَأَهْلُ الشِّرْكِ إنَّمَا يَصِيرُونَ أَهْلَ الذِّمَّةِ بِإِجْرَاءِ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ،وَقَدْ عَجَزَ الْأَمِيرُ عَنْ إجْرَاءِ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ،فَكَانُوا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِمَنْزِلَةِ الْمُوَادِعِينَ لِلْمُسْلِمِينَ،وَأَهْلُ الْحَرْبِ مَتَى طَلَبُوا مُوَادَعَتَهُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَجِبْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مُوَادَعَتُهُمْ،إلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهَا خَيْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ ظَاهِرًا،فَكَذَلِكَ هَاهُنَا لَا يَجِبُ قَبُولُ هَذِهِ الذِّمَّةِ مِنْهُمْ،بِخِلَافِ مَا إذَا أَسْلَمُوا؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَصِحُّ مِنْ غَيْرِ قَبُولٍ مِنْ الْإِمَامِ،فَإِذَا أَسْلَمُوا صَارُوا مُسْلِمِينَ،فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُمْ الْأَمِيرُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ،وَلَكِنْ يَخْلُفُ فِيهِمْ رَجُلًا يُجْرِي فِيهِمْ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ،إنْ قَدَرُوا وَإِلَّا يَتْرُكُهُمْ عَلَى ذَلِكَ "[٨٥٩]

أي بتنفيذ أحكام الشريعة عليهم لكون الشوكة والكلمة للمسلمين.

الدور في حياة النبي ﷺ ثلاث

وقد كانت الدور في حياة النبي ﷺ ثلاثة أقسام:

القسم الأول:دار الكفر والحرب؛ وهي مكة التي أوجب الله الهجرة منها مع كونها بيت الله الحرام،ومع وجود النبي ﷺ وخيرة أصحابه فيها،وذلك أن الشوكة والكلمة والسلطان فيها للمشركين الذين يحاربون الله ورسوله والمؤمنين.

القسم الثاني:دار كفر وسلم؛ كالحبشة،وهي التي تكون الشوكة فيها للكفار،غير أن المؤمنين فيها يأمنون على أنفسهم،ودينهم،وأعراضهم،فالهجرة إليها جائزة،ومع أن النجاشي وهو ملك الحبشة قد أسلم سرا،وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب – كما ثبت في الصحيح عن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«قَدْ تُوُفِّيَ اليَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنَ الحَبَشِ،فَهَلُمَّ،فَصَلُّوا عَلَيْهِ»،قَالَ:فَصَفَفْنَا،فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ وَنَحْنُ مَعَهُ صُفُوفٌ و«كُنْتُ فِي الصَّفِّ الثَّانِي»[٨٦٠]

---

[859] – شرح السير الكبير (ص:٢١٩٢)

[860] – صحيح البخاري (٢/ ٨٧)(١٣٢٠)

[ش (رجل صالح) المراد به النجاشي أصحمة رحمه الله تعالى. (الحبش) صنف مخصوص من السودان. (فهلم) تعالوا يستعمل للواحد والمثنى والجمع]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ:«إِنَّ أَخًا لَكُمْ قَدْ مَاتَ،فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَيْهِ» يَعْنِي النَّجَاشِيَ[٨٦١]

إلا إن الحبشة لم تصبح دار إسلام بذلك،إذ الشوكة فيها والكلمة للنصارى لا للمسلمين،ولم يؤثر في هذا الحكم كون الملك أسلم سرا.

القسم الثالث:دار إسلام؛ وهي المدينة النبوية التي وجبت الهجرة إليها،وإنما صارت دار إسلام لظهور شوكة المسلمين وظهور كلمتهم فيها،وإقامة شعائر الإسلام وشرائعه عليها.

وهذا حكم الدور ابتداء،أما الدار التي كانت دار إسلام ثم احتلها العدو الكافر،فإن بسط عليها سلطانه،ورضي بذلك أهلها،واستقر له بها الأمر،فهذه دار كفر كالأندلس،والهند في هذا العصر،وكالجمهوريات الإسلامية الروسية التي كانت تحت حكم الروس بالأمس،فلما تحررت من قبضتهم عاد لها حكم دار الإسلام.

وإن لم يستقر للعدو الكافر بها الأمر،ولم يرض أهلها به،بل دافعوه،واستمروا على حربه،وجهاده،ودفعه،فهي أرض جهاد،ورباط،وثغر من ثغور المسلمين.

ولا تظل دار إسلام بظهور العدو عليها،وإن كان أكثر أهلها مسلمين،إذ العبرة بالشوكة والظهور،والكلمة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه عن " بَلَد " مَارِدِينَ " هَلْ هِيَ بَلَدُ حَرْبٍ أَمْ بَلَدُ سِلْمٍ؟ وَهَلْ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْمُقِيمِ بِهَا الْهِجْرَةُ إلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ أَمْ لَا؟ وَإِذَا وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ وَلَمْ يُهَاجِرْ وَسَاعَدَ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ بِنَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ،هَلْ يَأْثَمُ فِي ذَلِكَ،وَهَلْ يَأْثَمُ مَنْ رَمَاهُ بِالنِّفَاقِ وَسَبَّهُ بِهِ أَمْ لَا؟

الْجَوَابُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالُهُمْ مُحَرَّمَةٌ حَيْثُ كَانُوا فِي مَارِدِينَ أَوْ غَيْرِهَا،وَإِعَانَةُ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ مُحَرَّمَةٌ،سَوَاءٌ كَانُوا أَهْلَ مَارِدِينَ أَوْ غَيْرَهُمْ،وَالْمُقِيمُ بِهَا إنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ إقَامَةِ دِينِهِ وَجَبَتْ الْهِجْرَةُ عَلَيْهِ،وَإِلَّا اُسْتُحِبَّتْ وَلَمْ تَجِبْ وَمُسَاعَدَتُهُمْ لِعَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ،مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ،وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ الِامْتِنَاعُ مِنْ ذَلِكَ بِأَيِّ طَرِيقٍ أَمْكَنَهُمْ مِنْ تَغَيُّبٍ،أَوْ تَعْرِيضٍ،أَوْ مُصَانَعَةٍ،فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْ إلَّا

---

861 - صحيح مسلم (٢/ ٦٥٧)٦٧ - (٩٥٣)

بِالْهِجْرَةِ تَعَيَّنَتْ،وَلَا يَحِلُّ سَبُّهُمْ عُمُومًا وَرَمْيُهُمْ بِالنِّفَاقِ،بَلْ السَّبُّ وَالرَّمْيُ بِالنِّفَاقِ يَقَعُ عَلَى الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،فَيَدْخُلُ فِيهَا بَعْضُ أَهْلِ مَارِدِينَ وَغَيْرُهُمْ.

وَأَمَّا كَوْنُهَا دَارَ حَرْبٍ أَوْ سِلْمٍ فَهِيَ مُرَكَّبَةٌ فِيهَا الْمَعْنَيَانِ لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ دَارِ السِّلْمِ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ،لِكَوْنِ جُنْدِهَا مُسْلِمِينَ،وَلَا بِمَنْزِلَةِ دَارِ الْحَرْبِ الَّتِي أَهْلُهَا كُفَّارٌ،بَلْ هِيَ قِسْمٌ ثَالِثٌ يُعَامَلُ الْمُسْلِمُ فِيهَا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ وَيُقَاتَلُ الْخَارِجُ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ."[٨٦٢]

وقال أيضاً:وَكَوْنُ الْبُقْعَةِ ثَغْرًا لِلْمُسْلِمِينَ أَوْ غَيْرَ ثَغْرٍ هُوَ مِنْ الصِّفَاتِ الْعَارِضَةِ لَهَا لَا اللَّازِمَةِ لَهَا؛ بِمَنْزِلَةِ كَوْنِهَا دَارَ إسْلَامٍ أَوْ دَارَ كُفْرٍ أَوْ دَارَ حَرْبٍ أَوْ دَارَ سِلْمٍ أَوْ دَارَ عِلْمٍ وَإِيمَانٍ أَوْ دَارَ جَهْلٍ وَنِفَاقٍ. فَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ سُكَّانِهَا وَصِفَاتِهِمْ"[٨٦٣]

فلم يحكم لها بأنها دار إسلام وسلم مع كون أهلها مسلمين،لأنه لا تجري فيها أحكام الإسلام،التي تقام عادة في الأرض التي جندها مسلمون والشوكة والظهور والكلمة فيها للمسلمين،وكذلك لم يحكم لها بأنها دار حرب من كل وجه،لكون أهلها مسلمين،وجعلها قسما ثالثا فيها شبه من دار الإسلام فيما يخص أهلها المسلمين،كعصمة دمائهم وأموالهم،وفيها شبه بدار الحرب من جهة جواز غزوها وفتحها،وتقسيم أرضها،أو وقفها على المسلمين.

والمقصود أن شيخ الإسلام – وإن خالف أكثر الفقهاء في هذا الرأي – فقد وافقهم في أنها ليست دار إسلام،بل هي نوع آخر له حكم خاص.

الحال الثانية:أن يكون العدو الكافر قد نصب ذلك الحاكم في البلد الإسلامي،بعد أن دهمها،واحتل أرضها،وجعل من هذا الحاكم درءا يدرأ به،ويقاتل معه،ومن ورائه:

فالحاكم والحال هذه محكوم بردته وكفره بالإجماع القطعي،لقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة:٥١].

---

862 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٣٢)

863 – مجموع الفتاوى (٢٧/ ٥٣)

قال ابن حزم في "المحلى":" وَصَحَّ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١] إنَّمَا هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ بِأَنَّهُ كَافِرٌ مِنْ جُمْلَةِ الْكُفَّارِ فَقَطْ - وَهَذَا حَقٌّ لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ."[٨٦٤]

وقال القرطبي:" الثَّانِيَةُ- قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ) أَيْ يَعْضُدْهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ (فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ حُكْمَهُ كَحُكْمِهِمْ،وَهُوَ يَمْنَعُ إِثْبَاتَ الْمِيرَاثِ لِلْمُسْلِمِ مِنَ الْمُرْتَدِّ،وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّاهُمِ ابْنُ أُبَيٍّ ثُمَّ هَذَا الْحُكْمُ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي قَطْعِ الْمُوَالَاةِ،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:" وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ"] هود:١١٣] وَقَالَ تَعَالَى فِي" آلِ عِمْرَانَ":" لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"] آل عمران:٢٨] وَقَالَ تَعَالَى:" لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ"] آل عمران:١١٨] وَقَدْ مَضَى الْقَوْلُ فِيهِ. وَقِيلَ:إِنَّ مَعْنَى" بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" أي في النصرة" وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ" شَرْطٌ وَجَوَابُهُ،أَيْ لِأَنَّهُ قَدْ خَالَفَ اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ كَمَا خَالَفُوا،وَوَجَبَتْ مُعَادَاتُهُ كَمَا وَجَبَتْ مُعَادَاتُهُمْ،وَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ كَمَا وَجَبَتْ لَهُمْ،فَصَارَ منهم أي من أصحابهم.[٨٦٥]

وقال ابن جرير الطبري " وَهَذَا نَهْيٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا الْكُفَّارَ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا وَظُهُورًا،وَلِذَلِكَ كَسَرَ «يَتَّخِذ» لِأَنَّهُ فِي مَوْضِعِ جَزْمٍ بِالنَّهْيِ،وَلَكِنَّهُ كَسَرَ الذَّالَ مِنْهُ لِلسَّاكِنِ الَّذِي لَقِيَهُ وَهِيَ سَاكِنَةٌ،وَمَعْنَى ذَلِكَ:لَا تَتَّخِذُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْكُفَّارَ ظَهْرًا وَأَنْصَارًا،تُوَالُونَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ،وَتُظَاهِرُونَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ،وَتَدُلُّونَهُمْ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ،فَإِنَّهُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ؛ يَعْنِي بِذَلِكَ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ،وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ بِارْتِدَادِهِ عَنْ دِينِهِ،وَدُخُولِهِ فِي الْكُفْرِ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً،إِلَّا أَنْ تَكُونُوا فِي سُلْطَانِهِمْ،فَتَخَافُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ،فَتُظْهِرُوا لَهُمُ الْوَلَايَةَ بِأَلْسِنَتِكُمْ،وَتُضْمِرُوا لَهُمُ الْعَدَاوَةَ،وَلَا تُشَايِعُوهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ،وَلَا تُعِينُوهُمْ عَلَى مُسْلِمٍ بِفِعْلٍ "[٨٦٦]

---

864 - المحلى بالآثار (١٢/ ٣٣)

865 - تفسير القرطبي (٦/ ٢١٧)

866 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٣١٥)

وقد نص شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب على أن نصرتهم ومظاهرتهم على المسلمين من نواقض الإسلام،قال:" الثامن:مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين،والدليل قوله تعالى:(ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين)"[٨٦٧]

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله:" وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم عليهم بأي نوع من المساعدة،فهو كافر مثلهم "[٨٦٨].

وقال العلامة الشيخ أحمد شاكر في فتوى له في بيان حكم التعاون مع الإنجليز والفرنسيين أثناء عدوانهم على مصر:[أما التعاون مع الإنجليز،بأي نوع من أنواع التعاون،قلّ أو كثر،فهو الردّة الجامحة،والكفر الصّراح،لا يقبل فيه اعتذار،ولا ينفع معه تأول،ولا ينجي من حكمه عصبية حمقاء،ولا سياسة خرقاء،ولا مجاملة هي النفاق،سواء أكان ذلك من أفرادٍ أو حكوماتٍ أو زعماء،كلهم في الكفر والردة سواء،إلا من جهل وأخطأ،ثم استدرك أمره فتاب وأخذ سبيل المؤمنين،فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم،إن أخلصوا لله،لا للسياسة ولا للناس][٨٦٩].

فمثل هذا الحاكم الذي يقاتل المسلمين،ويقف بصف عدوهم،ويستحل دماءهم،وأرضهم،ليتسلط عليهم عدوهم،كافرٌ خارج عن الملة بإجماع المسلمين يجب قتاله وقتله،وهو أشد كفرا من الكافر الأصلي،حتى وإن ادعى أنه يريد إرجاع حكمه،أو حماية بلده،فقد نص أئمة الدعوة النجدية كالشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ،وإبراهيم بن عبد اللطيف،وسليمان بن سحمان،على حرمة الدخول تحت حماية الكفار كالإنجليز حيث أفتوا بأن:" الدخول تحت حماية الكفار،فهي ردة عن الإسلام؛ وأخذ العلم منهم لا يجوز،إذا كانوا لم يدخلوا تحت حمايتهم،وولايتهم،وليس بمنْزلة أخذ الخفير لحماية المال،فإن هذا علم وعلامة على أنهم منقادون لأمرهم،داخلون في حمايتهم،وذلك موافقة لهم في الظاهر.. "[٨٧٠]

---

867 – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ٩٢)

868 – مجموع فتاوى ابن باز (١/ ٢٦٩)

869 – كلمة حق ١٢٦ – ١٣٧.

870 – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ٤٣٦)

وقال عبد الله بن عبد اللطيف في شأن أهل الخليج الذين دخلوا تحت الحماية البريطانية في القرن الماضي:" حتى آل الأمر بأكثر الخلق،إلى عدم النفرة من أهل ملل الكفر،وعدم جهادهم،وانتقل الحال حتى دخلوا في طاعتهم،واطمأنوا إليهم،وطلبوا صلاح دنياهم بذهاب دينهم،وتركوا أوامر القرآن ونواهيه،وهم يدرسونه آناء الليل والنهار.

وهذا لا شك أنه من أعظم أنواع الردة،والانحياز إلى ملة غير ملة الإسلام ودخول في ملة النصرانية،عياذاً بالله من ذلك،كأنكم في أزمان الفترات،أو أناس نشؤوا في محلة لم يبلغ شيء من نور الرسالة،أنسيتم قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة المائدة آية:٥١]،وقوله تعالى:{تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة المائدة آية:٨٠-٨١]. وقال تعالى:{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} [سورة البقرة آية:١٢٠]؛والدخول في طاعتهم،اتباع لملتهم،وانحياز عن ملة الإسلام،وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ} [سورة المائدة آية:٥٧-٥٨]. "[871].

ولا يعتذر عن مساعدتهم ومظاهرتهم على المسلمين بالضعف وعدم القدرة على الامتناع عن ذلك.

وقد سئل عن ذلك شيخ الإسلام فقال:" " الْحَمْدُ لِلَّهِ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالُهُمْ مُحَرَّمَةٌ حَيْثُ كَانُوا فِي مَارِدِينَ أَوْ غَيْرِهَا،وَإِعَانَةُ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ مُحَرَّمَةٌ،سَوَاءٌ كَانُوا أَهْلَ مَارِدِينَ أَوْ غَيْرَهُمْ،وَالْمُقِيمُ بِهَا إنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ إقَامَةِ دِينِهِ وَجَبَتْ الْهِجْرَةُ

871 – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ١٣)

عَلَيْه،وَإِلَّا اُسْتُحِبَّتْ وَلَمْ تَجِبْ وَمُسَاعَدَتُهُمْ لِعَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ،مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ،وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ الِامْتِنَاعُ مِنْ ذَلِكَ بِأَيِّ طَرِيقٍ أَمْكَنَهُمْ مِنْ تَغَيُّبٍ،أَوْ تَعْرِيضٍ،أَوْ مُصَانَعَةٍ،فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْ إلَّا بِالْهِجْرَةِ تَعَيَّنَتْ "[872].

أي صارت الهجرة فرض عين على من لم يستطع الامتناع عن مساعدة عدو المسلمين لضعفه،ولا يحل له مساعدتهم بدعوى الضعف أو الخوف منهم،فليس دمه أشد حرمة من دماء المسلمين الذين يظاهر الكفار عليهم،فتجب عليه الهجرة،فإن لم يفعل وأعانهم على المسلمين كان محكوما عليه بالردة.

فمن أوجب على المسلمين السمع والطاعة لمثل هذا الحاكم – الذي يحارب الله ورسوله والمسلمين،تحت شعار الكفر ولوائه – فقد نقض الإجماع القطعي ورد على الله ورسوله حكمهما الظاهر بردة من هذا حاله ووجوب قتاله.

ومن أفتى بمثل ذلك فقد اقتحم باب ردة،وخلع ربقة الإسلام من عنقه،فليس أشد مظاهرة للعدو الكافر وأوليائه من تحريف دين الله ورسوله مجاراة لأهواء الملوك والرؤساء،والافتراء على الله ورسوله بالفتوى مشايعة للمشركين وأوليائهم،وقد قال تعالى:{وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ } [النحل:١١٦]،وقال:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [الصف:٧].

الرد على استدلالهم بقصة النبي يوسف عليه السلام

أما الاستدلال على وجوب طاعة الحاكم الذي يوليه العدو الكافر أمر المسلمين بقصة يوسف وتوليه على خزائن الأرض تحت حكم فرعون:

فاستدلال باطل من كل وجه وهو من باب تحريف الكلم عن مواضعه وذلك للآتي:

أولا:أن شرع من كان قبلنا من الأنبياء ليس شرعا لنا إذا عارض شرعنا بإجماع الأمة

بل وأكثر الفقهاء على أنه ليس شرعا لنا حتى ولو لم يعارض شرعنا[873]،ومن احتج به شرط له شروط وهو أن يثبت في شرعنا،وألا يعارض شرعنا،فالاحتجاج بهذه القصة باطل

872 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٢٥) ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية– دار الوفاء (٢٨/ ٢٤٠)

بالإجماع لكونه يخالف المجمع عليه في شرعنا،من تحريم تولي العدو الكافر ومظاهرته على المسلمين،بل والحكم بردة من يفعل ذلك كما سبق بيانه.

ثانيا:أن هذه القصة حدثت في أرض مصر في عهد ملك كافر من ملوك مصر،فليست داره دار إسلام أصلا:

فقد يجوز للمسلم – قياسا عليها – أن يتولى ولاية في بلد غير إسلامي،بقصد إقامة العدل والحق والإنصاف بين الخلق كما فعل يوسف،ولا يقاس عليها بأي حال من الأحوال تولي الولاية للعدو الكافر الذي يحتل أرض المسلمين وديارهم،ويسفك دماءهم،ويسلب ثرواتهم،وينتهك أعراضهم،فمن جوز مثل هذه الولاية قياسا على ولاية يوسف على خزائن الأرض في مصر في ذلك العهد،فقد افترى بهتانا وإثما عظيما.

وحال هذا المفتي كحال من يجوز الربا في أرض الإسلام قياسا على قول من قال من الفقهاء بجواز الربا في دار الحرب! أو من يسقط إقامة الحدود في دار الإسلام قياسا على قول من قال من الفقهاء أنه لا تقام الحدود في أرض الحرب! ومثل هذه الأقيسة باطلة بالإجماع،إذ لدار الإسلام من الأحكام بالإجماع ما ليس لدار الكفر فلا يساوى بينهما فيها.

والمقصود أن هذا القياس على قصة يوسف هو من القياس فاسد الاعتبار على فرض جوازه لمعارضته النصوص القطعية على تحريم تولي الولاية للعدو الكافر في أرض الإسلام،إذ الواجب بالإجماع على المسلمين كافة دفعه عن أرض الإسلام وجهاده بكل وسيلة،وقد أجمعت الأمة على أن جهاده إذا دهم دار الإسلام يكون فرض عين،فكيف يسوغ موالاته،ونصرته،والدفع عنه،والقتال معه،والتمكين له؟!

---

873 – انظر:أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله (ص:١٨٩) وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (٢/ ١٧٧) والإحكام في أصول الأحكام للآمدي (٤/ ١٣٧) والبحر المحيط في أصول الفقه (٨/ ٣٩) والجامع لمسائل أصول الفقه وتطبيقاتها على المذهب الراجح (ص:٣٧٨)

ثالثا:أن هذه القصة استدل بها شيخ الإسلام ابن تيمية على جواز أن يتولى المسلم الصالح الولاية تحت حكم الإمام المسلم الجائر،إذا كان يستطيع الصالح دفع مفسدة أكبر،أو جلب مصلحة أكبر للمسلمين:

إذ كان أكثر الفقهاء قديما يرون تحريم تولي الولايات لأئمة الجور من المسلمين حتى لا يتلبسوا بظلمهم،ولا يشتركوا بإثمهم،فاستدل شيخ الإسلام بقصة يوسف في جملة ما استدل به من النصوص والقواعد الشرعية،لكون هذا الاستدلال بالقصة لا يتعارض مع شرعنا،بل في شرعنا ما يدل على مشروعية العمل للإمام الجائر بقصد الإصلاح ورفع الظلم أو تخفيفه.

قال رحمه الله:" وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ عَنْ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ وَعَمَلِهِ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ لِصَاحِبِ مِصْرَ لِقَوْمٍ كُفَّارٍ. وَذَلِكَ أَنَّ مُقَارَنَةَ الْفُجَّارِ إنَّمَا يَفْعَلُهَا الْمُؤْمِنُ فِي مَوْضِعَيْنِ:أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ مُكْرَهًا عَلَيْهَا وَالثَّانِي:أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي مَصْلَحَةٍ دِينِيَّةٍ رَاجِحَةٍ عَلَى مَفْسَدَةِ الْمُقَارَنَةِ أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي تَرْكِهَا مَفْسَدَةٌ رَاجِحَةٌ فِي دِينِهِ فَيَدْفَعُ أَعْظَمَ الْمَفْسَدَتَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا وَتَحْصُلُ الْمَصْلَحَةُ الرَّاجِحَةُ بِاحْتِمَالِ الْمَفْسَدَةِ الْمَرْجُوحَةِ"[874]

وقال أيضاً:" وَمِنْ هَذَا الْبَابِ تَوَلِّي يُوسُفَ الصِّدِّيقَ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ لِمَلِكِ مِصْرَ بَلْ وَمَسْأَلَتُهُ أَنْ يَجْعَلَهُ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ وَكَانَ هُوَ وَقَوْمُهُ كُفَّارًا كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ} الْآيَةَ وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ:{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} الْآيَةَ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ مَعَ كُفْرِهِمْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَادَةٌ وَسُنَّةٌ فِي قَبْضِ الْأَمْوَالِ وَصَرْفِهَا عَلَى حَاشِيَةِ الْمَلِكِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَجُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ وَلَا تَكُونُ تِلْكَ جَارِيَةً عَلَى سُنَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَعَدْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ يُوسُفُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ مَا يُرِيدُ وَهُوَ مَا يَرَاهُ مِنْ دِينِ اللَّهِ فَإِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَكِنْ فَعَلَ الْمُمْكِنَ مِنْ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَنَالَ بِالسُّلْطَانِ مِنْ إكْرَامِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ يُمْكِنُ أَنْ يَنَالَهُ بِدُونِ ذَلِكَ"[875]

---

874 – مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٢٥)

875 – مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٦)

ولهذا لم يتخلف الأئمة ولا سلف الأمة عن الجهاد مع أئمة الجور من المسلمين،وقد كان الصحابة،وآل البيت،والعلماء،يغزون،ويجاهدون معهم لما في ذلك من إعزاز الدين،وحماية المسلمين،بخلاف تولي الولاية للكافر الذي يحتل أرض المسلمين،ففيها مظاهرة له،وإعزاز لكلمته،وتقوية لشوكته،وكل ذلك مضادة لحكم الله ورسوله إذ مراد الله هو أن يكون الدين كله لله وأن تكون { كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٤٠]،ومن لم يفرق بين الأمرين كان كمن يجوِّز القتال مع العدو الكافر،ويجوِّز مظاهرته على المسلمين،قياسا على مشروعية الجهاد مع الإمام الجائر إذا غزا الكفار!

رابعا:أنه ليس في قصة يوسف أي مظاهرة لملك مصر على المسلمين:

إذ لم يكن فيها مسلم أصلا،بل وليس فيها مظاهرة له على أحد من الخلق،بل ولايته لخزائن مصر كانت رحمة بأهل مصر،حيث أقام بينهم العدل والقسط والإصلاح،كما كان يدعوهم إلى الإسلام والوحدانية.

فمن قاس حال من جاء مع جيوش العدو الكافر - يناصرهم على المسلمين،ويشايعهم،ويؤيد كفرهم،ويزين إلحادهم،ويفرض قوانينهم،ويبشر بفلسفتهم - على حال يوسف مع أهل مصر،فقد قال قولا عظيما،وقاس حال ابن العلقمي والطوسي اللذين شايعا التتار حين غزو بغداد في القرن الهجري السابع وتوليا لهم الولايات على حال النبي يوسف الصديق حين تولى الأمر لملك مصر!

تحريم تقليد المفتي فيما أخطأ فيه

أما السؤال عن جواز تقليد من يفتي بمثل هذا القول،فجوابه:

هذه الفتاوى - وما شابهها مما ثبت معارضتها للكتاب والسنة وإجماع الأمة - يحرم بالإجماع العمل بها،وقد جاء عن النبي ﷺ التحذير من الأئمة المضلين كما في الحديث الصحيح عَنْ ثَوْبَانَ،أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَأَعْطَانِي الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَإِنِّي

سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيُهْلِكَهُمْ،وَلَا يُلْبِسَهُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،إِنِّي إِذَا أَعْطَيْتُ عَطَاءً فَلَا مَرَدَّ لَهُ،إِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا يُهْلِكُوا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ،وَلَكِنْ أُلْبِسُهُمْ شِيَعًا،وَلَوِ اجْتُمِعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا،وَبَعْضُهُمْ يُفْنِي بَعْضًا،وَبَعْضُهُمْ يَسْبِي بَعْضًا،وَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي إِلَى التُّرْكِ،وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ **وَإِنَّ مِنْ أَخْوَفِ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**،وَإِنَّهُمْ إِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِيهِمْ لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي كَذَّابُونَ دَجَّالُونَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ،وَإِنِّي خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ،لَا نَبِيَّ بَعْدِي،وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»[٨٧٦].

وعن أبي إِدْرِيسَ الخَوْلَانِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ،يَقُولُ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ [ص:٥٢] وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا،قَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:«تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ:«فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[٨٧٧]

---

876 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٥/ ١٠٩)(٦٧١٤) صحيح

877 – صحيح البخاري (٩/ ٥١)(٧٠٨٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ – (١٨٤٧)

[ش (دعاة على أبواب جهنم) قال العلماء هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلى بدعة أو ضلال آخر كالخوارج والقرامطة وأصحاب المحنة وفي حديث حذيفة هذا لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي من أخذ الأموال وغير ذلك فتجب طاعته في غير معصية وفيه معجزات لرسول الله ﷺ وهي هذه الأمور التي أخبر بها وقد وقعت كلها]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ،يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا،أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا،يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[878]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ،يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا،وَيُمْسِي مُؤْمِنًا،وَيُصْبِحُ كَافِرًا،يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ"[879]

وكما ثبت في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ،وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ،حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا،فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ،فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[880]

ولهذا لم يوجب الله على المسلمين طاعة أحد مطلقا غير طاعته وطاعة رسوله،وقيد طاعة أولي الأمر فيما كان طاعة لله ولرسوله،ولم يأمر الله عز وجل قط عباده بطاعة العلماء بل أمرهم بسؤالهم فقط عما لا يعلمون {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل:٤٣]،من أجل معرفة العلم الذي هو قول الله ورسوله،لا من أجل تقليد العالم،إذ العلماء ليسوا معصومين عن الخطأ والهوى.

ولهذا لم يجعل الله وصف العلم سببا في دخول الجنة،بل قال تعالى:{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) } [النساء:٦٩ - ٧٠]،إذ من العلماء من هم علماء سوء كعلماء بني إسرائيل،يحرفون الكلم عن مواضعه،ويأكلون أموال الناس بالباطل،ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا،كما

878 - صحيح مسلم (١/ ١١٠)١٨٦ - (١١٨)

[ش (بادروا بالأعمال فتنا) معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر]

879 - مسند أحمد ط الرسالة (١٣/ ٤٠٠)(٨٠٣٠) صحيح

880 - صحيح البخاري (١/ ٣٢)(١٠٠) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٨)١٣ - (٢٦٧٣)

[ش(انتزاعا) محوا من صدور العلماء. (بقبض العلماء) بموتهم. (رؤوسا) جمع رأس وفي رواية (رؤوساء) جمع رئيس والمعنى واحد. (الفريري) هو أحد من سمع الصحيح عن البخاري ورواه عنه]

وصفهم القرآن في آيات كثيرة. { فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [المائدة:١٣]

وقد أخبر النبي ﷺ عن اتباع أمته سنن اليهود والنصارى،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ،وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ،حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»،قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ:اليَهُودَ،وَالنَّصَارَى قَالَ:«فَمَنْ»[٨٨١]

ومن أظهر سنن أهل الكتاب تحريفهم الكلم عن مواضعه،واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله بطاعتهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله،عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ،فَقَالَ:" يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ،فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} [التوبة:٣١] حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا،فَقُلْتُ:إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ،فَقَالَ:«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ،وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ:بَلَى،قَالَ:«فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[٨٨٢].

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ:«يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ»،وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة:٣١]،قَالَ:«أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ،وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ،وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[٨٨٣]

---

881 – صحيح البخاري (٤/ ١٦٩)(٣٤٥٦) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٤)٦ – (٢٦٦٩)

[ش (سنن) سبل ومناهج وعادات. (شبرا بشبر) كناية عن شدة الموافقة لهم في عاداتهم رغم ما فيها من سوء وشر ومعصية لله تعالى ومخالفة لشرعه. (جحر ضب) ثقبه وحفرته التي يعيش فيها والضب دويبة تشبه الحرذون تأكله العرب والتشبيه بجحر الضب لشدة ضيقه ورداءته ونتن ريحه وخبثه وما أروع هذا التشبيه الذي صدق معجزة لرسول الله ﷺ فنحن نشاهد تقليد أجيال الأمة لأمم الكفر في الأرض فيما هي عليه من أخلاق ذميمة وعادات فاسدة تفوح منها رائحة النتن وتمرغ أنف الإنسانية في مستنقع من وحل الرذيلة والإثم وتنذر بشر مستطير. (فمن) أي يكون غيرهم إذا لم يكونوا هم وهذا واضح أيضا فإنهم المخططون لكل شر والقدوة في كل رذيلة]

882 – المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ٩٢)(٢١٨) حسن

883 – سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٧٨)(٣٠٩٥) حسن

والمقصود أنه لا طاعة للعلماء ولا للأمراء،بل الطاعة لله ولرسوله،فإن أمروا بما هو طاعة لله ورسوله كالجهاد،وتحكيم الشرع،وإقامة العدل،ودفع الظلم... الخ،وجبت طاعتهم لكونهم أمروا بما أمر الله ورسوله به،فإن أمروا بما هو معصية أو بما فيه شبهة حرمت طاعتهم ووجبت معصيتهم،بل طاعتهم حينئذ كفر وشرك بالله،ومن اتخاذهم أربابا من دون الله.

وقد أفتى شيخ الإسلام بوجوب قتال التتار،لما غزو الشام،وأخذ يحرض المسلمين على جهادهم،ويرد على من أفتى بحرمة قتالهم بدعوى أنهم دخلوا الإسلام،فقد ورد عليه مَسْأَلَةٌ:فِي أَجْنَادٍ يَمْتَنِعُونَ عَنْ قِتَالِ التَّتَارِ،وَيَقُولُونَ:إنَّ فِيهِمْ مَنْ يَخْرُجُ مُكْرَهًا مَعَهُمْ وَإِذَا هَرَبَ أَحَدُهُمْ هَلْ يُتَّبَعُ أَمْ لَا؟

الْجَوَابُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. قِتَالُ التَّتَارِ الَّذِينَ قَدِمُوا إلَى بِلَادِ الشَّامِ وَاجِبٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩] وَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ،فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الدِّينِ لِلَّهِ وَبَعْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَجَبَ الْقِتَالُ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ،وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٧٨] {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩].

وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الطَّائِفِ لَمَّا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالْتَزَمُوا الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ،لَكِنْ امْتَنَعُوا مِنْ تَرْكِ الرِّبَا فَبَيَّنَ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لَهُ وَلِرَسُولِهِ إذَا لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ الرِّبَا،وَالرِّبَا هُوَ آخِرُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ،وَهُوَ مَالٌ يُؤْخَذُ بِرِضَا صَاحِبِهِ،فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ يَجِبُ جِهَادُهُمْ،فَكَيْفَ بِمَنْ يَتْرُكُ كَثِيرًا مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ أَوْ أَكْثَرَهَا كَالتَّتَارِ.

وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ إذَا امْتَنَعَتْ عَنْ بَعْضِ وَاجِبَاتِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ،فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا إذَا تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ،وَامْتَنَعُوا عَنْ الصَّلَاةِ،وَالزَّكَاةِ،أَوْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ،أَوْ حَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ،أَوْ عَنْ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،أَوْ عَنْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ،أَوْ الْخَمْرِ،أَوْ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ،أَوْ عَنْ اسْتِحْلَالِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ

بِغَيْرِ حَقٍّ،أَوْ الرِّبَا،أَوْ الْمَيْسِرِ،أَوْ الْجِهَادِ لِلْكُفَّارِ،أَوْ عَنْ ضَرْبِهِمْ الْجِزْيَةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،فَإِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ[٨٨٤].

وقال أيضاً:"الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،نَعَمْ يَجِبُ قِتَالُ هَؤُلَاءِ بِكِتَابِ اللَّهِ،وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،وَاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ،وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ:أَحَدُهُمَا:الْمَعْرِفَةُ بِحَالِهِمْ. وَالثَّانِي:مَعْرِفَةُ حُكْمِ اللَّهِ فِي مِثْلِهِمْ. فَأَمَّا الْأَوَّلُ:فَكُلُّ مَنْ بَاشَرَ الْقَوْمَ بِعِلْمِ حَالِهِمْ،وَمَنْ لَمْ يُبَاشِرْهُمْ يَعْلَمُ ذَلِكَ بِمَا بَلَغَهُ مِنْ الْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ،وَأَخْبَارِ الصَّادِقِينَ،وَنَحْنُ نَذْكُرُ جُلَّ أُمُورِهِمْ بَعْدَ أَنْ نُبَيِّنَ الْأَصْلَ الْآخَرَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِمَعْرِفَتِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَنَقُولُ:كُلُّ طَائِفَةٍ خَرَجَتْ عَنْ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ،وَإِنْ تَكَلَّمَتْ بِالشَّهَادَتَيْنِ،فَإِذَا أَقَرُّوا بِالشَّهَادَتَيْنِ وَامْتَنَعُوا عَنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ،وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يُصَلُّوا،وَإِنْ امْتَنَعُوا عَنْ الزَّكَاةِ،وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يُؤَدُّوا الزَّكَاةَ،وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ،أَوْ حَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ،وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ،أَوْ الزِّنَا،أَوْ الْمَيْسِرِ،أَوْ الْخَمْرِ،أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُحَرَّمَاتِ الشَّرِيعَةِ وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ الْحُكْمِ فِي الدِّمَاءِ،وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ،وَالْأَبْضَاعِ،وَنَحْوِهَا بِحُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ،وَجِهَادِ الْكُفَّارِ إلَى أَنْ يُسْلِمُوا وَيُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

وَكَذَلِكَ إنْ أَظْهَرُوا الْبِدَعَ الْمُخَالِفَةَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،وَاتِّبَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا مِثْلُ:أَنْ يُظْهِرُوا الْإِلْحَادَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ،أَوْ التَّكْذِيبَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ،أَوْ التَّكْذِيبَ بِقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ أَوْ التَّكْذِيبَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ،أَوْ الطَّعْنَ فِي السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانِ أَوْ مُقَاتَلَةَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي طَاعَتِهِمْ الَّتِي تُوجِبُ الْخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩] فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الدِّينِ لِلَّهِ وَبَعْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَجَبَ الْقِتَالُ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.

---

884 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٥٦) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٤٤)

وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٧٨] {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩] وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الطَّائِفِ،وَكَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا وَصَلَّوْا وَصَامُوا،لَكِنْ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِالرِّبَا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا بِتَرْكِ مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا،وَقَالَ:{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩] وَقَدْ قُرِئَ {فَأْذَنُوا} وَ {آذَنُوا} وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ،وَالرِّبَا آخِرُ الْمُحَرَّمَاتِ فِي الْقُرْآنِ،وَهُوَ مَا يُوجَدُ بِتَرَاضِي الْمُتَعَامِلِينَ،فَإِذَا كَانَ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْهُ مُحَارِبًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي هِيَ أَسْبَقُ تَحْرِيمًا وَأَعْظَمُ تَحْرِيمًا. "[٨٨٥]

وقال أيضاً:" وَيجوز بل يجب قتال هَؤُلَاءِ التتار الَّذين يقدمُونَ إِلَى الشَّام مرّة بعد مرّة وَإِن تكلمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ وانتسبوا إِلَى الْإِسْلَام وَجب قِتَالهمْ بِسنة رَسُول الله ﷺ واتفاق أَئِمَّة الْمُسلمين وَهَذَا مبْنى على أصلين

أَحدهمَا الْمعرفَة بحالهم وَالثَّانِي معرفَة حكم الله فيهم وَفِي أمثالهم

أما الأول فَكل من بَاشر الْقَوْم يعلم حَالهم وَهُوَ متواتر بأخبار الصَّادِقين وَنحن نتكلم على جملَة أُمُورهم بعد أَن تبين الأَصْل الآخر الَّذِي يخْتَص بمعرفته أهل الْعلم فَنَقُول

كل طَائِفَة خرجت عَن شرائع الْإِسْلَام الظَّاهِرَة المتواترة مثل أَن تركُوا الصَّلَاة أَو منعُوا الزَّكَاة أَو أعْلنُوا بالبدع المناقضة للاسلام فِي العقائد أَو الْعِبَادَات أَو تحاكموا إِلَى الطاغوت وَنَحْو ذَلِك فَالْوَاجِب على الْمُسلمين قِتَالهمْ بِاتِّفَاق أَئِمَّة الْمُسلمين وَإِن تكلمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ فَيجب قِتَالهمْ على نَحْو مَا فعل أَبُو بكر وَالصَّحَابَة بِأَهْل الرِّدَّة وبالخوارج حَتَّى يكون الدّين كُله لله "[٨٨٦]

حتى قال شيخ الإسلام لمن معه إن رأيتموني في صفهم فاقتلوني![٨٨٧] تأكيدا منه رحمه الله أن قتال التتار لا شبهة فيه البتة،وأن رجوعه عن رأيه فيما لو رجع لا يغير من حكم الله ورسوله شيئا في وجوب جهادهم،بل الواجب على المسلمين حينئذ لو رجع شيخ الإسلام

885 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٣٤)

886 – مختصر الفتاوى المصرية (ص:٥٠٥)

887 – لم أجده بهذا اللفظ

عن فتواه ووقف في صف التتار أن يقاتلوه معهم ولا يغتروا به،إذ الحي لا تؤمن عليه الفتنة،فعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ،قَالَ:سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ،يَقُولُ:إِنَّ الْأَمْرَ يُؤَوَّلُ إِلَى آخِرِهِ،وَإِنَّ أَمْلَكَ الْأَعْمَالِ بِهِ خَوَاتِمُهُ،وَإِنَّكُمْ فِي خَوَاتِمَ الْأَعْمَالِ،أَلَا فَلَا يُقَلِّدَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ دِينَهُ رَجُلًا إِنْ آمَنَ آمَنَ،وَإِنْ كَفَرَ كَفَرَ،فَإِنْ كُنْتُمْ لَابُدَّ فَاعِلِينَ فَبِبَعْضِ مَنْ قَدْ مَاتَ،فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ.[888]

ودين الله لا يعرف بالرجال،بل بالآيات البينات،فإذا دهم العدو أرض الإسلام فقد وجب بالإجماع دفعه،وصار الجهاد حينئذ فرض عين على أهل البلد التي دهمها العدو وفرض كفاية على من يليهم من المسلمين،فإن عجزوا عن دفعه صار فرض عين على من يليهم حتى يعم الحكم جميع المسلمين[889]

ومثل هذا الحكم الذي هو فرض عين بالإجماع لا يكون محلا للاجتهاد،ولا يحتاج المسلمون في معرفته إلى العلماء،ولا يستطيع العلماء أن ينسخوا الحكم المجمع عليه،ويحرم على المسلمين طاعتهم في ذلك،وإنما هذا الأمر من المعلوم من الدين بالضرورة القطعية،فمن قدر عليه من أهل الحرب والنجدة والبأس قام به،ومن لم يستطع وجب عليه أن يعد العدة حتى يقدر عليه،وإنما يجتهد المسلمون في فروض الأعيان وفروض الكفاية في كيفية أدائها على الوجه المطلوب.

وهذا يرجع فيه إلى أهل الخبرة والمعرفة والدراية في هذه الفروض لا إلى الفقهاء،فما كان من فروض الجهاد كان معرفة كيفية القيام به على الوجه المطلوب راجعا للعسكريين وأهل الحرب والمقاتلين.

وإنما يجب الرجوع إلى الفقهاء لمعرفة حكم الله في النوازل التي لا يعرف حكمها من حيث الحل والحرمة والوجوب،أما القضايا التي أجمع عليها المسلمون،ويشترك في معرفتها العامة والخاصة،مما هو معلوم من الدين بالضرورة القطعية،فلا يجب على المسلمين الرجوع فيها إلى أحد لمعرفة حكمها.

---

888 – الزهد لأبي داود (ص:١٤٠)(١٣٢) صحيح

889 – انظر تفصيله في " اشتراط إذن الإمام ووجود الراية في قتال الكفار "
http://almoslim.net/node/٨٢٤٦٩

وكذا القضايا الخلافية التي اشتهرت فيها أقوال الأئمة وسلف الأمة،فمن أخذ بقول بعضهم بدليله طاعة لله ورسوله، لم يجب عليه الرجوع إلى الفقهاء المعاصرين،إذ سؤالهم واجب على من لا يعرف الحكم أما من عرفه بدليله فلا يجب عليه السؤال.

واجب المسلمين إذا غلب على بلدهم الكفار وعجزوا عن دفعه الصبروإعداد العدة

أما ما الذي يجب على المسلمين إذا عجزوا عن دفع عدوهم عجزا كليا بالقوة والقتال،واستقر الأمر للعدو الكافر في أرضهم،أو لمن نصبه العدو الكافر من أوليائه وحزبه،فالواجب الصبر وإعداد العدة،إذ الخطاب الشرعي يظل متعلقا بحال القدرة،ولا يسقط عنهم فرض دفعه ومقاومته،بل يجب العمل بكل وسيلة أخرى غير القتال كالمقاومة السلمية،والعصيان المدني،والعمل السري،حتى تتحرر أرضهم،كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ،وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ،مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[٨٩٠]

ويكون الحاكم في هذا الحال سلطانا وحاكما بحكم الأمر الواقع لا بحكم الشارع،وحال المسلمين معه كحالهم تحت سلطان الكافر،فالخضوع لسلطانه ليس لكونه ولي أمر شرعي تجب موالاته ونصرته،بل هو ذو سلطان قهري يتقي المسلمون منه تقاة،حتى يفرج الله عنهم،فإن استطاعت طائفة منهم مقاومته فالواجب نصرتها،ومن لم يستطع نصرتها،فلا يقاتلها معه. هذا والله أعلم.[٨٩١]

---

[890] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧)١٥٨ - (١٩١٠)

[والمراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق]

[891] http://www.uae-ever.com/vb٤/thread٣/Emara١/١١٤٧٢٢.html

http://www.tawhed.ws/pr?i=٣٨٤٢

المبحث السادس والعشرون

الحرية وضوابطها في الإسلام[892]

جعل الإسلام "الحرية" حقاً من الحقوق الطبيعية للإنسان،فلا قيمة لحياة الإنسان بدون الحرية،وحين يفقد المرء حريته،يموت داخلياً،وإن كان في الظاهر يعيش ويأكل ويشرب،ويعمل ويسعى في الأرض. ولقد بلغ من تعظيم الإسلام لشأن "الحرية" أن جعل السبيل إلى إدراك وجود الله تعالى هو العقل الحر،الذي لا ينتظر الإيمان بوجوده بتأثير قوى خارجية،كالخوارق والمعجزات ونحوها قال تعالى:{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦].

فنفي الإكراه في الدين،الذي هو أعز شيء يملكه الإنسان،للدلالة على نفيه فيما سواه وأن الإنسان مستقل فيما يملكه ويقدر عليه لا يفرض عليه أحد سيطرته،بل يأتي هذه الأمور،راضياً غير مجبر،مختاراً غير مكره.

والحرية حق مكفول لجميع الناس،فالله- تبارك وتعالى- خلق الإنسان ومنحه حرية اختيار العقيدة والدين وحرية التعبير عن الرأي وحرية التصرف،قال - تعالى -:(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) (٢٩) سورة الكهف.

وقال مخاطباً نبيه محمداً - ﷺ -:(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (٩٩) سورة يونس.

عن أنس بن مالك:كنا عند عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - إذ جاءه رجل من أهل مصر،فَقَالَ:" يا أمير المؤمنين،هذا مقام العائذ بِكَ،قَالَ:وما لك؟ قَالَ:أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل فأقبلت فرسي،فلما رآها الناس قام مُحَمَّد بن عمرو فَقَالَ:فرسي ورب الكعبة،فلما دنا مني عرفته،فقلت:فرسي ورب الكعبة فَقَامَ إلي فضربني

---

892 - قد أفردت هذا الموضوع بكتاب خاص بعنوان " **مفهوم الحرية بين الإسلام والجاهلية** "

بالسوط،ويقول:خذها وأنا ابن الأكرمين،فوالله ما زاده عمر على أن قَالَ لـه:اجلـس،ثم كتب إلى عمرو إذا جاءك كتابي هذا فأقبل،وأقبل معك بابنك مُحَمَّد،فدعا عمـرو ابنـه فَقَالَ:أحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟ قَالَ:لا،قَالَ:فما بال عمر يكتب فيك؟ فقـدم علـى عمر،فو الله إنا عند عمر حتَّى إذا نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء،فجعل عمر يلتفـت هل يرى ابنه،فإذا هو خلف أبيه،فَقَالَ:أين المصري؟ فَقَالَ:ها أنا ذا،قَالَ:دونـك الـدرة فاضرب ابن الأكرمين،اضرب ابن الأكرمين،فضربه حتَّى أثخنه،ثم قَالَ:أحلها على صـلعة عمرو! فو الله ما ضربكَ إلا بفضل سلطانه فَقَالَ:يا أمير المـؤمنين قـد ضـربت مـن ضربني،قَالَ:أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتَّى تكون أنت الَّذي تدعه،أيا عمـرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحـراراً ثم التفـت إلى المصـري،فَقَالَ:أنصـرف راشداً،فإن رابكَ ريب فاكتب إلي".[٨٩٣]

فالحرية إذن مطلب لا يختلف فيه اثنان،ولا يتناطح عليه عمدان،إلا أن تلك الحرية لا تؤتي ثمارها الحقيقية إلا في ظلال الممارسة الصحيحة لها،بما لا يتعارض مع الدين،أو الأخلاق،أو قوانين الدولة،أو حقوق الآخرين وحرياتهم،وكما قيل:إن حريتك تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين،فلا تعني حرية الرأي ما يذهب إليه بعض الناس من أن يعلـن إلحاده،ويهـاجم العقيدة الإسلامية،بحجة تحرير الفكر من الجمود أو الخرافة أو الطغيان،وليس للكاتـب أو الأديب أن يفهم الحرية بأن يقول ما يقول؛ فالحرية تُمارس لكن في إطار النظـام العـام وميزان الشريعة.

مفهوم الحرية:

يقصد بالحرية قدرة الإنسان على فعل الشيء أوتركه بإرادته الذاتية وهي ملكة خاصـة يتمتع بها كل إنسان عاقل ويصدر بها أفعاله،بعيداً عن سيطرة الآخرين لأنه ليس مملوكـاً لأحد لا في نفسه ولا في بلده ولا في قومه ولا في أمته.

---

893 – محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢/ ٤٧٣) وابن الجوزي:مناقب ص ٩٨،٩٩،انظر:ابن عبد الحكم في:فتوح مصر (ص ٢٩٠).

هل "الحرية" تعني الإطلاق من كل قيد ؟

هل "الحرية" تعني الإطلاق من كل قيد ؟

لا يعني بطبيعة الحال إقرار الإسلام للحرية أنه أطلقها من كل قيد وضابط،لأن الحرية بهذا الشكل أقرب ما تكون إلى الفوضى،التي يثيرها الهوى والشهوة،ومن المعلوم أن الهوى يدمر الإنسان أكثر مما يبنيه،ولذلك منع من اتباعه،والإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه مدني بطبعه،يعيش بين كثير من بني جنسه،فلم يقر لأحد بحرية دون آخر،ولكنه أعطى كل واحد منهم حريته كيفما كان،سواء كان فرداً أو جماعة.

ولا تعني الحرية التعدي على ثوابت الدين ومسلمات الشريعة،قال الله – تعالى –:(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ) [القصص:٥٠].

ولذلك وضع قيوداً ضرورية،تضمن حرية الجميع،وتتمثل الضوابط التي وضعها الإسلام في الآتي:

أ- ألا تؤدي حرية الفرد أو الجماعة إلى تهديد سلامة النظام العام وتقويض أركانه.

ب- ألا تفوت حقوقاً أعظم منها،وذلك بالنظر إلى قيمتها في ذاتها ورتبتها ونتائجها.

ج – ألا تؤدي حريته إلى الإضرار بحرية الآخرين.

وبهذه القيود والضوابط ندرك أن الإسلام لم يقر الحرية لفرد على حساب الجماعة،كما لم يثبتها للجماعة على حساب الفرد،ولكنه وازن بينهما،فأعطى كلاً منهما حقه.

أنواع الحرية:

- الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المادية
- الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المعنوية

الصنف الأول:الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المادية:

وهذا الصنف يشمل الآتي:

أ – الحرية الشخصية:

والمقصود بها أن يكون الإنسان قادراً على التصرف في شئون نفسه،وفي كل ما يتعلق بذاته،آمناً من الاعتداء عليه،في نفسه وعرضه وماله،على ألا يكون في تصرفه عدوان على غيره. والحرية الشخصية تتضمن شيئين:

١) حرمة الذات:

وقد عنى الإسلام بتقرير كرامة الإنسان،وعلو منزلته. فأوصى باحترامه وعدم امتهانه واحتقاره،قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } [الإسراء:٧٠]،وقال تعالى {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة:٣٠].

وميزه بالعقل والتفكير تكريماً له وتعظيماً لشأنه،وتفضيلاً له على سائر مخلوقاته،عَنِ الْحَسَنِ،يَرْفَعُهُ قَالَ:" لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ،قَالَ لَهُ:أَقْبِلْ ثُمَّ قَالَ لَهُ:أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ قَالَ:مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ بِكَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي "[894]

وفي هذه النصوص ما يدعو إلى احترام الإنسان،وتكريم ذاته،والحرص على تقدير مشاعره،وبذلك يضع الإسلام الإنسان في أعلى منزلة،وأسمى مكان حتى أنه يعتبر الاعتداء عليه اعتداء على المجتمع كله،والرعاية له رعاية للمجتمع كله،،قال تعالى:(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) (٣٢) سورة المائدة.

وتقرير الكرامة الإنسانية للفرد،يتحقق أياً كان الشخص،رجلاً أو امراة،حاكماً أو محكوماً،فهو حق ثابت لكل إنسان،من غير نظر إلى لون أو جنس أو دين. حتى اللقيط في الطرقات ونحوها،يجب التقاطه احتراما لذاته وشخصيته،فإذا رآه أحد ملقى في

---

894 – الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٢٥٩)(١٨٦٨) وشعب الإيمان (٦/ ٣٤٨)(٤٣١٢) والمعجم الأوسط (٧/ ١٩٠)(٧٢٤١) والمعجم الأوسط (٢/ ٢٣٥)(١٨٤٥) مرفوعا ومقطوعا صحيح مقطوع

الطريق،وجب عليه أخذه،فإن تركوه دون التقاطه أثموا جميعاً أمام الله تعالى،وكان عليهم تبعة هلاكه. هذا وكما حرص الإسلام على احترام الإنسان حياً،فقد أمر بالمحافظة على كرامته ميتاً،فمنع التمثيل بجثته،وألزم تجهيزه ومواراته،ونهى عن الاختلاء والجلوس على القبور.

٢) تأمين الذات:بضمان سلامة الفرد و أمنة في نفسه و عرضه و ماله:

فلا يجوز التعرض له بقتل أو جرح،أو أي شكل من أشكال الاعتداء،سواء كان على البدن كالضرب والسجن ونحوه،أوعلى النفس والضمير كالسب أو الشتم والازدراء والانتقاص وسوء الظن ونحوه،ولهذا قرر الإسلام زواجر وعقوبات،تكفل حماية الإنسان ووقايته من كل ضرر أو اعتداء يقع عليه،ليتسنى له ممارسة حقه في الحرية الشخصية. وكلما كان الاعتداء قوياً كان الزجر أشد،فلا يجوز التعرض له بقتل أو جرح،أو أي شكل من أشكال الاعتداء،سواء كان على البدن كالضرب والسجن ونحوه،أوعلى النفس والضمير كالسب أو الشتم والازدراء والانتقاص وسوء الظن ونحوه،ولهذا قرر الإسلام زواجر وعقوبات،تكفل حماية الإنسان ووقايته من كل ضرر أو اعتداء يقع عليه،ليتسنى له ممارسة حقه في الحرية الشخصية. وكلما كان الاعتداء قوياً كان الزجر أشد،ففي الاعتداء على النفس بالقتل وجب القصاص،كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة:١٧٨]،أو كان الاعتداء على الجوارح بالقطع وجب القصاص أيضاً كما قال تعالى:({وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [المائدة:٤٥].

وعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ:" أَلَا إِنَّ أَحْرَمَ الْأَيَّامِ يَوْمُكُمْ هَذَا،وَإِنَّ أَحْرَمَ الشُّهُورِ شَهْرُكُمْ هَذَا،وَإِنَّ أَحْرَمَ الْبَلَادِ بَلَدُكُمْ هَذَا،أَلَا وَإِنَّ أَمْوَالَكُمْ

وَدِمَاءَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا،فِي بَلَدِكُمْ هَذَا،فِي شَهْرِكُمْ هَذَا،أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ " قَالُوا:نَعَمْ. قَالَ:" اللهُمَّ اشْهَدْ "[٨٩٥]

ومنع عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – الولاة من أن يضربوا أحداً إلا أن يكون بحكم قاض عادل،كما أمر بضرب الولاة الذين يخالفون ذلك بمقدار ما ضربوا رعاياهم بل إنه في سبيل ذلك منع الولاة من أن يسبوا أحداً من الرعية،ووضع عقوبة على من يخالف ذلك.

ومن هنا فقد شدد الإسلام على المجاهرة بالمعاصي،والعمل على إشاعة الفاحشة في المجتمع؛ لأن ذلك فيه لونا من ألوان التعدي على حرية الآخرين،قال – تعالى –:(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (١٩) سورة النور.

وعَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ،وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا،ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ،فَيَقُولَ:يَا فُلَانُ،عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا،وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ،وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ "[٨٩٦] .

ب–حرية التنقل (الغدو والرواح):

والمقصود بها أن يكون الإنسان حراً في السفر والتنقل داخل بلده وخارجه دون عوائق تمنعه. والتنقل بالغدو والرواح حق إنساني طبيعي،تقتضيه ظروف الحياة البشرية من الكسب والعمل وطلب الرزق والعلم ونحوه،ذلك أن الحركة شأن الأحياء كلها،بل تعتبر قوام الحياة وضرورتها وقد جاء تقرير ((حرية التنقل)) بالكتاب والسنة والإجماع،ففي

---

895 – مسند أحمد ط الرسالة (١٨/ ٢٨٥)(١١٧٦٢)

896 – صحيح البخاري (٨/ ٢٠)(٦٠٦٩) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩١)٥٢ – (٢٩٩٠)

[ش(معاف) يعفو الله تعالى عن زلته بفضله ورحمته. (المجاهرون) المعلنون بالمعاصي والفسوق. (المجاهرة) وفي رواية (المجانة) وهي الاستهتار بالأمور وعدم المبالاة بالقول أو الفعل. (البارحة) أقرب ليلة مضت من وقت القول]

وانظر:http://www.islamselect.net/mat/٨٩٤٦٣

الكتاب قوله تعالى:{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك:١٥].

ولا يمنع الإنسان من التنقل إلا لمصلحة راجحة،كما فعل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في طاعون عمواس،حين منع الناس من السفر إلى بلاد الشام الذي كان به هذا الوباء،و لم يفعل ذلك إلا تطبيقاً لقول رسول الله ﷺ،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ:أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ،حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ،أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ،فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَقَالَ عُمَرُ:ادْعُ لِي المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ،فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ،وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ،فَاخْتَلَفُوا،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ،وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ،فَقَالَ:ارْتَفِعُوا عَنِّي،ثُمَّ قَالَ:ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ،فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ،فَسَلَكُوا سَبِيلَ المُهَاجِرِينَ،وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ،فَقَالَ:ارْتَفِعُوا عَنِّي،ثُمَّ قَالَ:ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ،فَدَعَوْتُهُمْ،فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ،فَقَالُوا:نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ،فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ:إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ:أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ:لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ،أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ،إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ،وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ،أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ،وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟ قَالَ:فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ – وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ – فَقَالَ:إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ،وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ» قَالَ:فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ"[897]

---

[897] – صحيح البخاري (٧/ ١٣٠)(٥٧٢٩) وصحيح مسلم (٤/ ١٧٤٠)٩٨ – (٢٢١٩)

[ش(بسرغ) قرية في طريق الشام مما يلي الحجاز. (الأجناد) أي الجند(الوباء) المرض العام وهو الطاعون. (بقية الناس) أي بقية الصحابة وسماهم الناس تعظيما لهم. (ارتفعوا عني) قوموا واذهبوا عني. (فسلكوا سبيل المهاجرين) مشوا على طريقتهم فيما قالوه. (مشيخة قريش) شيوخهم أي كبارهم في السن. (مهاجرة الفتح) الذين هاجروا إلى المدينة عام

ولأجل تمكين الناس من التمتع بحرية التنقل حرم الإسلام الاعتداء على المسافرين،والتربص لهم في الطرقات،وأنزل عقوبة شديدة على الذين يقطعون الطرق ويروعون الناس بالقتل والنهب والسرقة،قال تعالى:{ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [المائدة:٣٣].

ولتأكيد حسن استعمال الطرق وتأمينها نهى النبي ﷺ صحابته عن الجلوس فيها،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ»،فَقَالُوا:مَا لَنَا بُدٌّ،إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا،قَالَ:«فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ،فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا»،قَالُوا:وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ:«غَضُّ البَصَرِ،وَكَفُّ الأَذَى،وَرَدُّ السَّلاَمِ،وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ،وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ»[٨٩٨]

فالطرق يجب أن تفسح لما هيئ لها من السفر والتنقل والمرور،وأي استعمال لغير هدفها محظور لاسيما إذا أدى إلى الاعتداء على الآمنين،ولأهمية التنقل في حياة المسلم وأنه مظنة للطوارئ،فقد جعل الله تعالى ابن السبيل- وهو المسافر- أحد مصارف الزكاة إذا ألم به ما يدعوه إلى الأخذ من مال الزكاة،ولو كان غنياً في موطنه،قال تعالى:{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٦٠]

ج-حرية المأوى والمسكن:

الفتح(مصبح على ظهر) مسافر في الصباح. (لو غيرك) ممن ليس في منزلتك(قالها) قال هذه المقالة أي لأدبته. أو لم أتعجب منه. (هبطت) نزلت(عدوتان) طرفان والعدوة طرف الوادي المرتفع منه. (خصبة) ذات عشب كثير. (جدبة) قليلة العشب والمرعى. (به) بوجود الطاعون. (فحمد الله) على موافقة اجتهاده واجتهاد كثير من الصحابة لحديث رسول الله ﷺ]

898 - صحيح البخاري (٣/ ١٣٢)(٢٤٦٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٧٥)١١٤ - (٢١٢١)

[ش (إياكم) أحذركم. (بد) غنى عنه. (المجالس) الجلوس في تلك المجالس. (حقها) ما يليق بها من آداب. (غض البصر) خفض النظر عمن يمر في الطريق من النساء وغيرهن مما يثير الفتنة. (كف الأذى) عدم التعرض لأحد بقول أو فعل يتأذى به]

فمتى قدر الإنسان على اقتناء مسكنه،فله حرية ذلك،كما أن العاجز عن ذلك ينبغي على الدولة أن تدبر له السكن المناسب،حتى تضمن له أدنى مستوى لمعيشته،فعنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ،قَالَ:فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ،وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»،قَالَ:فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ "[899]

وقد استدل الإمام ابن حزم بهذا الحديث وغيره على أن أغنياء المسلمين مطالبون بالقيام على حاجة فقرائهم إذا عجزت أموال الزكاة والفيئ عن القيام بحاجة الجميع من الطعام والشراب واللباس والمأوى الذي يقيهم حر الصيف وبرد الشتاء وعيون المارة،والدولة هي التي تجمع هذه الأموال وتوزعها على المحتاجين ولا فرق في هذا بين المسلمين وغيرهم لأن هذا الحق يشترك فيه جميع الناس كاشتراكهم في الماء والنار فيضمن ذلك لكل فرد من أفراد الدولة بغض النظر عن دينه.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَفُرِضَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ مِنْ أَهْلِ كُلِّ بَلَدٍ أَنْ يَقُومُوا بِفُقَرَائِهِمْ،وَيُجْبِرُهُمْ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ،إنْ لَمْ تَقُمْ الزَّكَوَاتُ بِهِمْ،وَلَا فِي سَائِرِ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ،فَيُقَامُ لَهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ مِنْ الْقُوتِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ،وَمِنْ اللِّبَاسِ لِلشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ بِمِثْلِ ذَلِكَ،وَبِمَسْكَنٍ يَكُنُّهُمْ مِنْ الْمَطَرِ،وَالصَّيْفِ وَالشَّمْسِ،وَعُيُونِ الْمَارَّةِ.

وَبُرْهَانُ ذَلِكَ:قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [الإسراء:٢٦]. وَقَالَ تَعَالَى:{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء:٣٦].

---

[899] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٤)١٨ - (١٧٢٨)

[ش (فجعل يصرف بصره) فهكذا وقع في بعض النسخ وفي بعضها يصرف فقط بحذف بصره وفي بعضها يضرب ومعنى قوله فجعل يصرف بصره أي متعرضا لشيء يدفع به حاجته (من كان معه فضل ظهر) أي زيادة ما يركب على ظهره من الدواب وخصه اللغويون بالإبل وهو التعين (فليعد به) قال في المقاييس عاد فلان بمعروفه وذلك إذا أحسن ثم زاد]

فَأَوْجَبَ تَعَالَى حَقَّ الْمَسَاكِينِ،وَابْنِ السَّبِيلِ،وَمَا مَلَكَتْ الْيَمِينُ مَعَ حَقِّ ذِي الْقُرْبَى وَافْتَرَضَ الْإِحْسَانَ إِلَى الْأَبَوَيْنِ،وَذِي الْقُرْبَى،وَالْمَسَاكِينِ،وَالْجَارِ،وَمَا مَلَكَتْ الْيَمِينُ،وَالْإِحْسَانُ يَقْتَضِي كُلَّ مَا ذَكَرْنَا،وَمَنْعُهُ إسَاءَةٌ بِلَا شَكٍّ؟ وَقَالَ تَعَالَى:{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [المدثر:٤٢] {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} [المدثر:٤٣] {وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} [المدثر:٤٤]. فَقَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى إطْعَامَ الْمِسْكِينِ بِوُجُوبِ الصَّلَاةِ.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ فِي غَايَةِ الصِّحَّةِ أَنَّهُ قَالَ:«مَنْ لَا يَرْحَمْ النَّاسَ لَا يَرْحَمْهُ اللَّهُ».

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَمَنْ كَانَ عَلَى فَضْلَةٍ وَرَأَى الْمُسْلِمَ أَخَاهُ جَائِعًا عُرْيَانَ ضَائِعًا فَلَمْ يُغِثْهُ - :فَمَا رَحِمَهُ بِلَا شَكٍّ.

وعن أبي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ حَدَّثَهُ «أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةَ كَانُوا نَاسًا فُقَرَاءَ،وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ،وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ» أَوْ كَمَا قَالَ فَهَذَا هُوَ نَفْسُ قَوْلِنَا.

وعَنْ الزُّهْرِيِّ أَنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ،لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ». قَالَ أَبُو مُحَمَّد:مَنْ تَرَكَهُ يَجُوعُ وَيَعْرَى - وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إطْعَامِهِ وَكِسْوَتِهِ - فَقَدْ أَسْلَمَهُ.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ،وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ،قَالَ:فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ،حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ».

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَهَذَا إجْمَاعُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - يُخْبِرُ بِذَلِكَ أَبُو سَعِيدٍ،وَبِكُلِّ مَا فِي هَذَا الْخَبَرِ نَقُولُ. وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ -:«أَطْعِمُوا الْجَائِعَ وَفُكُّوا الْعَانِيَ».

وَالنُّصُوصُ مِنْ الْقُرْآنِ،وَالْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ فِي هَذَا تَكْثُرُ جِدًّا.

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْت لَأَخَذْت فُضُولَ أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ فَقَسَّمْتُهَا عَلَى فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ هَذَا إسْنَادٌ فِي غَايَةِ الصِّحَّةِ وَالْجَلَالَةِ.

وعنْ مُحَمَّد بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِب يَقُولُ:إنَّ اللَّـهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ بِقَدْرِ مَا يَكْفِي فُقَرَاءَهُمْ،فَإِنْ جَاعُوا أَوْ عَرُوا وَجَهَدُوا فَمَنَعَ الْأَغْنِيَاءُ،وَحَقٌّ عَلَى اللَّه تَعَالَى أَنْ يُحَاسِبَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْه؟

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:فِي مَالِكَ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ. وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ،وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ،وَابْنِ عُمَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا كُلُّهُمْ لِمَنْ سَأَلَهُمْ:إنْ كُنْت تَسْأَلُ فِي دَمٍ مُوجِعٍ،أَوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ فَقَدْ وَجَبَ حَقُّكَ. وَصَحَّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَثَلَاثِمِائَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – أَنَّ زَادَهُمْ فَنِيَ فَأَمَرَهُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ فَجَمَعُوا أَزْوَادَهُمْ فِي مِزْوَدَيْنِ،وَجَعَلَ يَقُوتُهُمْ إيَّاهَا عَلَى السَّوَاءِ؟ فَهَذَا إجْمَاعٌ مَقْطُوعٌ بِهِ مِنْ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –،لَا مُخَالِفَ لَهُمْ مِنْهُمْ.وَصَحَّ عَنْ الشَّعْبِيِّ،وَمُجَاهِدٍ،وَطَاوُسٍ،وَغَيْرِهِمْ،كُلُّهُمْ يَقُولُ:فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ اُضْطُرَّ أَنْ يَأْكُلَ مَيْتَةً،أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ وَهُوَ يَجِدُ طَعَامًا فِيهِ فَضْلٌ عَنْ صَاحِبِهِ،لِمُسْلِمٍ أَوْ لِذِمِّيٍّ؛ لِأَنَّ فَرْضًا عَلَى صَاحِبِ الطَّعَامِ إطْعَامُ الْجَائِعِ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إلَى الْمَيْتَةِ وَلَا إلَى لَحْمِ الْخِنْزِيرِ – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

وَلَهُ أَنْ يُقَاتِلَ عَنْ ذَلِكَ،فَإِنْ قُتِلَ فَعَلَى قَاتِلِهِ الْقَوَدُ،وَإِنْ قَتَلَ الْمَانِعَ فَإِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ مَنَعَ حَقًّا،وَهُوَ طَائِفَةٌ بَاغِيَةٌ،قَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ} [الحجرات:٩] وَمَانِعُ الْحَقِّ بَاغٍ عَلَى أَخِيهِ الَّذِي لَهُ الْحَقُّ؛ وَبِهَذَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – مَانِعَ الزَّكَاةِ – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.[900]

ويؤيد كلام الإمام ابن حزم رحمه الله ما جاء عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ الْمُسْتَوْرِدَ بْنَ شَدَّادٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ

900 – المحلى بالآثار (٤/ ٢٨١)

مَنْزِلٌ،فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا،أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ،أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا،أَوْ لَيْسَتْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً،وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ "[901]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:كُنَّا فِي مَجْلِسٍ فِيهِ الْمُسْتَوْرِدُ،وَعَمْرُو بْنُ غَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ،فَقَالَ الْمُسْتَوْرِدُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَّخِذْ زَوْجَةً،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ لَهُ خَادِمًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَتَّخِذْ لَهُ مَسْكَنًا،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً» قَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَكْثَرْتَ يَا رَسُولَ اللهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ أَصَابَ سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ»[902]

فإذا ما ملك الإنسان مأوى ومسكن،فلا يجوز لأحد،أن يقتحم مأواه،أو يدخل مترله إلا بإذنه،حتى لو كان الداخل خليفة،أو حاكماً أعلى –رئيس دولة– ما لم تدع إليه ضرورة قصوى أو مصلحة بالغة،لأن الله تعالى يقول:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)} [النور].

وإذا نهى عن دخول البيوت بغير إذن أصحابها،فالاستيلاء عليها أو هدمها أو إحراقها من باب أولى،إلا إذا كان ذلك لمصلحة الجماعة،بعد ضمان البيت ضماناً عادلاً،وهذه المصلحة قد تكون بتوسعة مسجد،أو بناء شارع،أو إقامة مستشفى،أو نحو ذلك،وقد أجلى عمر بن الخطاب –رضي الله عنه –أهل نجران،وعوضهم بالكوفة. ولحفظ حرمة المنازل وعظمتها حرم الإسلام التجسس،فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } [الحجرات:١٢].

---

901 – مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٥٤٣)(١٨٠١٥) صحيح لغيره

902 – المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٣٠٤)(٧٢٥) صحيح

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ،فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ،وَلاَ تَحَسَّسُوا،وَلاَ تَجَسَّسُوا،وَلاَ تَنَاجَشُوا،وَلاَ تَحَاسَدُوا،وَلاَ تَبَاغَضُوا،وَلاَ تَدَابَرُوا،وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»[٩٠٣]

وذلك لأن في التجسس انتهاكا لحقوق الغير والتي منها:حفظ حرمة المسكن،وحرية صاحبه الشخصية بعدم الاطلاع على أسراره. بل وبالغ الإسلام في تقرير حرية المسكن بأن أسقط القصاص والدية عمن انتهك له حرمة بيته،بالنظر فيه ونحوه،فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ:أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ مِنْ جُحْرٍ فِي دَارِ النَّبِيِّ ﷺ،وَالنَّبِيُّ ﷺ يَحُكُّ رَأْسَهُ بِالْمِدْرَى فَقَالَ:«لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَنْظُرُ،لَطَعَنْتُ بِهَا فِي عَيْنِكَ،إِنَّمَا جُعِلَ الإِذْنُ مِنْ قِبَلِ الأَبْصَارِ»[٩٠٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ:«لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتَهُ بِعَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ،لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ»[٩٠٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ،فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ»[٩٠٦]

---

903 – صحيح البخاري (٨/ ١٩)(٦٠٦٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٨٥)٢٨ – (٢٥٦٣)

[ش (إياكم والظن) المراد النهي عن ظن السوء قال الخطابي هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس فإن ذلك لا يملك ومراد الخطابي أن المحرم في الظن ما يستمر صاحبه عليه ويستقر في قلبه دون ما يعرض في القلب ولا يستقر فإن هذا لا يكلف به (ولا تحسسوا ولا تجسسوا) قال العلماء التحسس الاستماع لحديث القوم والتجسس البحث عن العورات وقيل هو التفتيش عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر والجاسوس صاحب سر الشر والناموس صاحب سر الخير (ولا تنافسوا) المنافسة والتنافس معناهما الرغبة في الشيء وفي الانفراد به ونافسته منافسة إذا رغبت فيما رغب فيه وقيل معنى الحديث التباري في الرغبة في الدنيا وأسبابها وحظوظه(لا تناجشوا) من النجش وهو أن يزيد في ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ليوهم غيره بنفاستها]

904 – صحيح البخاري (٧/ ١٦٤)(٥٩٢٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٩٨)٤٠ – (٢١٥٦)

[ش (جحر) ثقب. (بالمدرى) بالمشط وقيل عود مثل المسلة يحك به الجسد والرأس. (لطعنت) لضربت ووخزت وأدخلت. (جعل الإذن) أمر بالاستئذان عند الدخول للبيوت. (من قبل الأبصار) من جهة الأبصار أي حتى لا يبصر المستأذن من في داخل البيت قبل أن ينتبه]

905 – صحيح البخاري (٩/ ١١)(٦٩٠٢)

906 – صحيح مسلم (٣/ ١٦٩٩)٤٣ – (٢١٥٨)

وهدرت:أي لاضمان على صاحب البيت. فعين الإنسان –رغم حرمتها وصيانتها من الاعتداء عليها وتغليظ الدية فيها –لكنها هنا أهدرت ديتها بسب سوء استعمالها واعتدائها على حقوق الغير.

د–حرية التملك:

ويقصد بالتملك حيازة الإنسان للشيء وامتلاكه له،وقدرته على التصرف فيه،وانتفاعه به عند انتقاء الموانع الشرعية،وله أنواع ووسائل نوجزها في الآتي:

١) أنواع الملكية:

للملكية أو التملك نوعان بارزان،هما:تملك فردي،وتملك جماعي.

فالتملك الفردي:هو أن يحرز الشخص شيئاً ما،وينتفع به على وجه الاختصاص والتعين.

وقد أعطى الإسلام للفرد حق التملك،وجعله قاعدة أساسية للاقتصاد الإسلامي،ورتب على هذا الحق نتائجه الطبيعية في حفظه لصاحبه،وصيانته له عن النهب والسرقة،والاختلاس ونحوه،ووضع عقوبات رادعة لمن اعتدى عليه،ضمانا له لهذا الحق،ودفعا لما يتهدد الفرد في حقه المشروع.كما أن الإسلام رتب على هذا الحق أيضا نتائجه الأخرى،وهي حرية التصرف فيه بالبيع أو الشراء والإجارة والرهن والهبة والوصية وغيرها من أنواع التصرف المباح.

غير أن الإسلام لم يترك (التملك الفردي) مطلقاً من غير قيد،ولكنه وضع له قيوداً كي لا يصطدم بحقوق الآخرين،كمنع الربا والغش والرشوة والاحتكار ونحو ذلك،مما يصطدم ويضيع مصلحة الجماعة.وهذه الحرية لا فرق فيها بين الرجل والمرأة قال الله تعالى:{ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [النساء:٣٢].

أما النوع الثاني:فهو التملك الجماعي:وهو الذي يستحوذ عليه المجتمع البشري الكبير،أو بعض جماعاته،ويكون الانتفاع بآثاره لكل أفراده،ولا يكون انتفاع الفرد به إلا لكونه عضواً في الجماعة،دون أن يكون له اختصاص معين بجزء منه،مثاله:المساجد والمستشفيات العامة والطرق والأنهار والبحار وبيت المال ونحو ذلك. وما ملك ملكاً عاماً يصرف في

المصالح العامة،وليس لحاكم أو نائبه أو أي أحد سواهما أن يستقل به أو يؤثر به أحد ليس له فيه استحقاق بسب مشروع وإنما هو مسؤول عن حسن إدارته وتوجيهه التوجيه الصحيح الذي يحقق مصالح الجماعة ويسد حاجاتها.

٢) وسائل الملكية:

و هي طرق اكتسابها التي حددها الإسلام وعينها وحرم ما سواها ويمكن تقسيمها أيضا إلى قسمين:وسائل الملكية الفردية والجماعية.

- وسائل الملكية الفردية،ولها مظهران:

المظهر الأول:الأموال المملوكة،أي المسبوقة بملك،وهذه الأموال لا تخرج من ملك صاحبها إلى غيره إلا بسب شرعي كالوراثة،أو الوصية،أو الشفعة،أو العقد،أو الهبة،أو نحوها.

المظهر الثاني:الأموال المباحة،أي غير المسبوقة بملك شخص معين،وهذه الأموال لا يتحقق للفرد تملكها إلا بفعل يؤدي إلى التملك ووضع اليد،كإحياء موات الأرض والصيد،واستخراج ما في الأرض من معادن،وإقطاع ولي الأمر جزءاً من المال لشخص معين،والعمل،ونحوه.

على أن ثمة قيوداً على الملكية الفردية،تجمل فيما يلي:

١/ مداومة الشخص على استثمار المال،لأن في تعطيله إضراراً بصاحبه،وبنماء ثروة المجتمع.

٢/ أداء زكاته إذا بلغ نصاباً،لأن الزكاة حق المال،وكذلك إنفاقه في سبيل الله.

٣/ اجتناب الطرق المحرمة للحصول عليه،كالربا،والغش والاحتكار ونحوه.

٤/ عدم الإسراف في بذله أو التقتير.

- وسائل الملكية الجماعية،ولها مظاهر كثيرة،نوجزها في الآتي:

المظهر الأول:الموارد الطبيعية العامة،وهي التي يتناولها جميع الناس في الدولة دون جهد أو عمل. كالماء،والكلأ،والنار،وملحقاتها.

عَنْ رَجُلٍ،مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثًا أَسْمَعُهُ،يَقُولُ:" الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ:فِي الْكَلَإِ،وَالْمَاءِ،وَالنَّارِ "[907]

المظهر الثاني:الموارد المحمية،أي التي تحميها الدولة لمنفعة المسلمين أو الناس كافة،مثل:المقابر،والمعسكرات،والدوائر الحكومية،والأوقاف،والزكوات ونحوها.

المظهر الثالث:الموارد التي لم تقع عليها يد أحد،أو وقعت عليها ثم أهملتها مدة طويلة كأرض الموات.

المظهر الرابع:الموارد التي تجنيها الدولة بسبب الجهاد كالغنائم والفيء ونحوها

هـ- حرية العمل:

العمل عنصر فعال في كل طرق الكسب التي أباحها الإسلام،وله شرف عظيم باعتباره قوام الحياة ولذلك فإن الإسلام أقر بحق الإنسان فيه في أي ميدان يشاؤه و لم يقيده إلا في نطاق تضاربه مع أهدافه أو تعارضه مع مصلحة الجماعة. ولأهمية العمل في الإسلام اعتبر نوعاً من الجهاد في سبيل الله،فعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ،قَالَ:مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ،فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ:لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ؟،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»[908]

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ،دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقِ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ»[909]

وهكذا نجد كثيراً من نصوص الكتاب والسنة،تتحدث عن العمل وتحث عليه وتنوه بأعمال متنوعة كصناعة الحديد ونجارة السفن،وفلاحة الأرض،ونحو ذلك،لأن العمل في ذاته وسيلة للبقاء،والبقاء –من حيث هو – هدف مرحلي للغاية الكبرى،وهي عبادة الله،وابتغاء رضوانه،وبقدر عظم الغاية تكون مترلة الوسيلة،فأعظم الغايات هو رضوان الله

---

907 – سنن أبي داود (٣/ ٢٧٨)(٣٤٧٧) صحيح

908 - المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ١٢٩)(٢٨٢) صحيح

909 – صحيح مسلم (٣/ ١١٥٧)٢٠ - (١٥٢٢)

تعالى،وبالتالي فإن أعظم وسيلة إليها هي العمل والتضحية،وإنما نـوه القـرآن بالعمـل والكسب للتنبيه على عظم فائدته وأهميته للوجود الإنساني،وأنه أكـبر نعمـة الله علـى الإنسان.

الصنف الثاني:الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المعنوية

وهذا الصنف يشمل الآتي:

أ-حرية الاعتقاد:

ويقصد بها اختيار الإنسان لدين يريده بيقين،وعقيدة يرتضيها عن قناعة،دون أن يكرهـه شخص آخر على ذلك.فإن الإكراه يفسد اختيـار الإنسـان،ويجعل المكـره مسـلوب الإرادة،فينتفي بذلك رضاه واقتناعه وإذا تأملنا قول الله تعالى:{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦] نجد أن الإسلام رفع الإكراه عن المرء في عقيدته،وأقر أن الفكر والاعتقاد لا بد أن يتسم بالحرية،وأن أي إجبار للإنسان،أو تخويفه،أو تهديده علـى اعتناق دين أو مذهب أو فكره باطل و مرفوض،لأنه لا يرسخ عقيدة في القلب،ولا يثبتها في الضمير. لذلك قال تعالى:{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًـا أَفَأَنْـتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [يونس:٩٩]،وقال أيضاً:{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْـتَ مُـذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)} [الغاشية:٢١،٢٢] كل هذه الآيات وغيرهـا،تنفي الإكراه في الدين،وتثبت حق الإنسان في اختيار دينه الذي يؤمن به.

وذلك حتى تظل العقيدة قائمة في القلب على الدوام،فإن فرضت بالإرغام والسطوة،سهل زوالها وضاعت الحكمة من قبولها،قال الله تعالى:{فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَـاء فَلْيَكْفُـرْ }(الكهف:٢٩).

يقول الإمام البنا:"قرر حرية العقيدة والتعبد وما يلحق بهما فقال القرآن الكريم:{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}(البقرة:٢٥٦)،كما كان شعار التعامل بين المواطنين في أرض الإسلام دائمـاً (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)،وليس وراء ذلك من التسامح زيادة لمستزيد".[٩١٠]

---

910 - (الرسائل:٢٨٧).

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق «الإنسان» التي يثبت له بها وصف «إنسان». فالـــذي يسلب إنسانا حرية الاعتقاد،إنما يسلبه إنسانيته ابتداء.. ومع حرية الاعتقاد حرية الـــدعوة للعقيدة،والأمن من الأذى والفتنة.. وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة.

والإسلام – وهو أرقى تصور للوجود وللحياة،وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء – هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين..فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المعتسفة وهي تفرض فرضا بسلطان الدولة ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة؟! والتعبير هنا يرد في صـــورة النفي المطلق:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ».. نفي الجنس كما يقول النحويون.. أي نفي جـــنس الإكراه. نفي كونه ابتداء. فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع. وليس مجرد نهي عـــن مزاولته. والنهي في صورة النفي – والنفي للجنس – أعمق إيقاعا وآكد دلالة.

ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشري لمسة توقظه،وتشوقه إلى الهدى،وتهديه إلى الطريق وتبين حقيقة الإيمان التي أعلن أنها أصبحت واضحة وهو يقول:«قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»..

فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه. والكفر هو الغي الـــذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به.

والأمر كذلك فعلا. فما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان،وما تمنحه للإدراك البشري من تصور ناصع واضح،،وما تمنحه للقلب البشري من طمأنينة وسلام،وما تثيره في النفس البشـــرية من اهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة،وما تحققه في المجتمع الإنساني من نظام سليم قويم دافع إلى تنمية الحياة وترقية الحياة.. ما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان على هذا النحو حتى يجد فيها الرشد الذي لا يرفضه إلا سفيه،يترك الرشد إلى الغي،ويدع الهـــدى إلى الضـــلال،ويؤثر التخبط والقلق والهبوط والضآلة على الطمأنينة والسلام والرفعة والاستعلاء![911]

ويقول الشيخ الغزالي:"إن الإكراه لا يكون في العقائد،إنه على العكس ينفر منها ويســـيء بها الظنون،وطبائع الأشياء ترسم للعقائد طريقا يبدأ حتماً من الحريـــة العقليـــة المطلقـــة.

---

[911] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٥٤٠)

تتزاحم الأفكار والمبادئ أمام الإنسان فيؤثر منها ما يراه أولى بالاعتناق وأجدر بالاتباع،فإذا اختار فكرة ما خلطها بشعوره،ورأى على توالي الأيام أنها أصبحت شطر نفسه،ثم تمتزج بعقله وعاطفته فيصدر عنها في تصرفاته ويحب ويكره على أساسها،وتزداد الفكرة تغلغلاً في وعي المرء،فبعد أن كان يدفع عنها كما يدفع عن نفسه،يفتديها بنفسه وأولاده وما يملك".[٩١٢]

كل هذه الآيات والآثار وغيرها،تنفي الإكراه في الدين،وتثبت حق الإنسان في اختيار دينه الذي يؤمن به.

هذا ويترتب على حرية الاعتقاد ما يلي:

١) إجراء الحوار والنقاش الديني،وذلك بتبادل الرأي والاستفسار في المسائل الملتبسة،التي لم تتضح للإنسان،وكانت داخلة تحت عقله وفهمه –أي ليست من مسائل الغيب – وذلك للاطمئنان القلبي بوصول المرء إلى الحقيقة التي قد تخفى عليه،وقد كان الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يحاورون أقوامهم ليسلموا عن قناعة ورضى وطواعية،بل إن إبراهيم –أبا الأنبياء عليه السلام –حاور ربه في قضية ((الإحياء والإماتة)) ليزداد قلبه قناعة ويقيناً وذلك فيما حكاه القرآن لنا في قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:٢٦٠].

بل إن في حديث جبريل عليه السلام،الذي استفسر فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم عن ((الإسلام))و((الإيمان))و((الإحسان)) و((علامات الساعة))[٩١٣] دليل واضح على تقرير الإسلام لحرية المناقشة الدينية،سواء كانت بين المسلمين أنفسهم،أو بينهم وبين أصحاب الأديان الأخرى،بهدف الوصول إلى الحقائق وتصديقها،لا بقصد إثارة الشبه

---

912 – الإسلام والاستبداد السياسي:محمد الغزالي-دار نهضة مصر-الطبعة:الأولى-ص:٩٥

913 – انظر الروايات في المسند الجامع (١٣/ ٤٨٤)(١٠٤٤١)

والشكوك والخلافات،فمثل تلك المناقشة ممنوعة،لأنها لا تكشف الحقائق التي يصل بها المرء إلى شاطئ اليقين.

٢) ممارسة الشعائر الدينية،وذلك بأن يقوم المرء بإقامة شعائره الدينيـــة،دون انتقـــاد أو استهزاء،أو تخويف أو تهديد،ولعل موقف الإسلام الذي حواه التاريخ تجاه أهل الذمـــة – أصحاب الديانات الأخرى –من دواعي فخره واعتزازه،وسماحته،فمنذ نزل الرسول صلى الله عليه و سلم يثرب –المدينة المنورة –أعطى اليهود عهد أمان،يقتضي فسح المجال لهـــم أمام دينهم وعقيدتهم،وإقامة شعائرهم في أماكن عبادتهم.ثم سار على هذا النهج الخلفـــاء الراشدون،وهذا نصه:"بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد اللّه عمر أمير المـــؤمنين أهل إيلياء من الأمان،أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم،ولكنائســـهم وصلبانهم،وســـقيمها وبريئها وسائر ملتها،أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم،ولا ينتقص منها ولا من حيزها،ولا من صليبهم،ولا من شيء من أموالهم،ولا يكرهون على دينهم،ولا يضار أحد منـــهم،ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود،وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطـــي أهـــل المدائن،وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت،فمن خرج منهم فإنه آمن علـــى نفســـه وماله حتى يبلغوا مأمنهم،ومن أقام منهم فهو آمن،وعليه مثل ما على أهـــل إيليـــاء مـــن الجزية،ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بِـــيَعهم وصـــلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم،حتى يبلغوا مأمنهم،ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان،فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية،ومن شاء سار مع الروم،ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منـــهم شـــيء حـــتى يحصـــد حصادهم،وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللّه وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المـــؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بْن الوليد،وعمرو بْن العاص،وعبـــد الرحمن بْن عوف،ومعاوية بْن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة.

فأما سائر كتبهم فعلى كتاب لد بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد اللّه عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين،أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم،أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا

ينتقص منها ولا من حيزها ولا مللها،ولا من صلبهم ولا من أموالهم،ولا يكرهون على دينهم،ولا يضار أحد منهم،وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام،وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره ثم سرح إليهم،وفرق فلسطين على رجلين،فجعل علقمة بْن حكيم على نصفها وأنزله الرملة،وعلقمة بْن مجزز على نصفها وأنزله إيلياء،فنزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه.[٩١٤]

وها هم علماء أوروبا اليوم،يشهدون لسماحة الإسلام،ويقرون له بذلك في كتبهم.قال ((ميشود)) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية):((إن الإسلام الذي أمر بالجهاد،متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب،وقد حرم قتل الرهبان –على الخصوص – لعكوفهم على العبادات،و لم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس،وقد ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود عندما دخلوها)) أي مدينة القدس.

وتتمثل حريتهم الدينية فيما يأتي:

١-عدم إكراه أحد منهم على ترك دينه أو إكراهه على عقيدة معينة:

يقول الله سبحانه وتعالى:{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ }(البقرة:٢٥٦).

٢- من حق أهل الكتاب أن يمارسوا شعائر دينهم:

فلا تهدم لهم كنيسة،ولا يكسر لهم صليب.بل من حق زوجة المسلم " اليهودية والنصرانية " أن تذهب إلى الكنيسة أو إلى المعبد،ولا حق لزوجها في منعها من ذلك.

٣- أباح لهم الإسلام ما أباحه لهم دينهم من الطعام وغيره:

فلا يقتل لهم خنزير،ولا تراق لهم خمر،مادام ذلك جائزاً عندهم،وهو بهذا وسع عليهم أكثر من توسعته على المسلمين الذين حرم عليهم الخمر والخنزير.

٤- لهم الحرية في قضايا الزواج،والطلاق،والنفقة:

---

914 - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٩) وتاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية (ص:٢٧٤) والأنس الجليل (١/ ٢٥٣) وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١/ ٤٨٠)

ولهم أن يتصرفوا كما يشاءون فيها،دون أن توضع لهم قيود أو حدود.

٥- حمى الإسلام وكرامتهم،وصان حقوقهم:

وجعل لهم الحرية في الجدل والمناقشة في حدود العقل والمنطق،مع التزام الأدب والبعد عن الخشونة والعنف.يقول الله تعالى:{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }(العنكبوت:٤٦).

٦- سوى بينهم وبين المسلمين في العقوبات،في رأي بعض المذاهب:

وفي الميراث سوَّى في الحرمان بين الذمي والمسلم،فلا يرث الذمي قريبه المسلم،ولا يرث المسلم قريبه الذمي.

٧- أحل الإسلام طعامهم،والأكل من ذبائحهم،والتزوج بنسائهم:

يقول الله سبحانه:{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }(المائدة:٥).

٨- أباح الإسلام زيارتهم وعيادة مرضاهم:

وتقديم الهدايا لهم،ومبادلتهم البيع والشراء ونحو ذلك من المعاملات،فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:«تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ،بِثَلاَثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ»[915]

وكان بعض الصحابة إذا ذبح شاة يقول لخادمه ابدأ بجارنا اليهودي.. فعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - وَغُلَامُهُ يَسْلُخُ شَاةً - فَقَالَ:يَا غُلَامُ،إِذَا فَرَغْتَ فَابْدَأْ بِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ،فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ:الْيَهُودِيُّ أَصْلَحَكَ اللَّهُ؟ قَالَ:إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُوصِي بِالْجَارِ،حَتَّى خَشِينَا أَوْ رُئِينَا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ[916]

---

915 - صحيح البخاري (٤/ ٤١)(٢٩١٦)

916 - الأدب المفرد مخرجا (ص:٥٨)(١٢٨) صحيح

قال صاحب البدائع:" وَكَذَا يَجِبُ أَنْ يَتَمَيَّزَ نِسَاؤُهُمْ عَنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي حَالِ الْمَشْيِ فِي الطَّرِيقِ،وَيَجِبُ التَّمْيِيزُ فِي الْحَمَّامَاتِ فِي الْأُزُرِ،فَيُخَالِفُ أُزُرُهُمْ أُزُرَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا قُلْنَا،وَكَذَا يَجِبُ أَنْ تُمَيَّزَ الدُّورُ بِعَلَامَاتٍ تُعْرَفُ بِهَا دُورُهُمْ مِنْ دُورِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيَعْرِفَ السَّائِلُ الْمُسْلِمُ أَنَّهَا دُورُ الْكَفَرَةِ،فَلَا يَدْعُو لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ،وَيُتْرَكُونَ أَنْ يَسْكُنُوا فِي أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ؛ لِأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ شُرِعَ لِيَكُونَ وَسِيلَةً لَهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ،وَتَمْكِينُهُمْ مِنْ الْمُقَامِ فِي أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَغُ إلَى هَذَا الْمَقْصُودِ.

وَفِيهِ أَيْضًا مَنْفَعَةُ الْمُسْلِمِينَ بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ،فَيُمَكَّنُونَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يُمَكَّنُونَ مِنْ بَيْعِ الْخُمُورِ وَالْخَنَازِيرِ فِيهَا ظَاهِرًا؛ لِأَنَّ حُرْمَةَ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ ثَابِتَةٌ فِي حَقِّهِمْ كَمَا هِيَ ثَابِتَةٌ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ مُخَاطَبُونَ بِالْحُرُمَاتِ وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَهْلِ الْأُصُولِ عَلَى مَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ،فَكَانَ إظْهَارُ بَيْعِ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ مِنْهُمْ إظْهَارًا لِلْفِسْقِ فَيُمْنَعُونَ مِنْ ذَلِكَ."[٩١٧]

ب- حرية الفكر والقول::

وتسمى أيضاً بحرية التفكير والتعبير،وقد رغب الإسلام في التفكير والنظر الطليق والتأمل في أسرار الكون للتوصل بالعقل والمنطق إلى إثبات الصانع وإثبات النبوة وفهم ما جاء به الأنبياء والرسل والإفادة من كنوز الأرض،وجعل التفكير فريضة إسلامية،والآيات القرآنية المطالبة باستخدام الفكر كثيرة،منها قوله سبحانه:{قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}(يونس:١٠١).وتختتم آيات كثيرة بعد بيان النظم الإسلامية في العقيدة وغيرها بأنها لقوم يعلمون،يعقلون،يتفكرون،يتدبرون،لأولي الألباب،ونحوها.

ومن أجل تثبيت الدعوة إلى الفكر وإقرار أحكام العقل السديد،ندَّد الله سبحانه بالتقليد في أصول العقائد والشرائع لتكون العقيدة عن وعي وإدراك وإذعان،فقال سبحانه:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }(البقرة:١٧٠).وقال أيضا:{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

---

[917] - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٧/ ١١٣)

(انظر: فقه السنة:السيد سابق –دار الفتح الطبعة الأولى(١٤٢١هـ=٢٠٠٠م):-(٢/٦٠٤)،الفقه الإسلامي وأدلته:٨/٣٣١)

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } (الحج:٤٦).

وحرية الفكر تستتبع حرية الرأي والنقد والقول،وذلك واضح من مبدأ الإسلام في تكوين الشخصية الذاتية،والحض على صراحة القول،والأمر بالمعروف،وعدم إقرار المنكر،والجهر بالحق دون خشية من أحد أو مخافة لومة لائم،فلا يكون النقد حقاً فقط،وإنما هو واجب ديني أحياناً في ضوء مفاهيم الإسلام،وضرورة الحفاظ على أحكامه.[٩١٨]

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:«الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا:لِمَنْ؟ قَالَ:«لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[٩١٩]

يقول صاحب الظلال:"ملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية. والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن،وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة. وميداناً للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك. وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع،وهو فساد أي فساد.[٩٢٠]

هذا ولإبداء الرأي عدة مجالات وغايات منها:

١) إظهار الحق وإخماد الباطل،قال تعالى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران:١٠٤].

---

[918] - (الفقه الإسلامي وأدلته:٨/٣٣٢).

[919] - صحيح مسلم (١/ ٧٤)٩٥ - (٥٥)

[ش (الدين النصيحة) قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ومعنى الحديث عماد الدين وقوامه النصيحة كقوله الحج عرفة أي عماده ومعظمه عرفة (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) أما النصيحة لله تعالى فمعناها منصرف إلى الإيمان به ونفي الشريك عنه وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصح نفسه فالله سبحانه وتعالى غنى عن نصح الناصح وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابه وأما النصيحة لرسول الله ﷺ فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به والمراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمور فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم]

[920] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٨٥٢)

فالمعروف هو سبيل الحق،ولذلك طلب من المؤمن أن يظهره،كما أن المنكر هو سبيل الباطل،ولذلك طلب من المؤمن أن يخمده.

٢) منع الظلم ونشر العدل،وهذا ما فعله الأنبياء والرسل إزاء الملوك والحكام ويفعله العلماء والمفكرون مع القضاة والسلاطين،عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٩٢١]

٣) وقد يكون إبداء الرأي،بتقديم الأمور حسب أهميتها وأولويتها،وهذا أكثر ما يقوم به أهل الشورى في أكثر من بلد،وأكثر من مجتمع وقد يكون بأي أسلوب آخر،إذ من الصعب حصرها،ولكنها لا تعني أن يخوض الإنسان فيما يضره،ويعود عليه بالفساد،بل لا بد أن تكون في إطار الخير والمصلحة إذ الإسلام بتقريره حرية الرأي،إنما أراد من الإنسان أن يفكر كيف يصعد،لا كيف يترل،كيف يبني نفسه وأمته،لا كيف يهدمها سعياً وراء شهوتها وهواها.

وباستعراض التاريخ الإسلامي،نجد أن ((حرية الرأي)) طبقت تطبيقاً رائعاً،منذ عصر النبوة،فهذا الصحابي الجليل،الحباب بن المنذر،أبدى رأيه الشخصي في موقف المسلمين في غزوة بدر،على غير ما كان قد رآه النبي صلى الله عليه و سلم،فأخذ النبي صلى الله علبه وسلم برأيه،ففي دلائل النبوة:"فَلَمَّا جَاءَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرٍ نَزَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ:يَا رَسُولَ اللهِ مَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَعَدَّاهُ وَلَا نُقَصِّرُ عَنْهُ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ،فَقَالَ الْحُبَابُ:يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ وَلَكِنِ انْهَضْ حَتَّى تَجْعَلَ الْقُلُبَ كُلَّهَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ ثُمَّ غَوِّرْ كُلَّ قَلِيبٍ بِهَا إِلَّا قَلِيبًا وَاحِدًا ثُمَّ احْفِرْ عَلَيْهِ حَوْضًا فَنُقَاتِلُ الْقَوْمَ فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَقَالَ قَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ،فَفَعَلَ ذَلِكَ"[٩٢٢]

وغير ذلك من المواقف الكثيرة التي كانوا يبدون فيها آراءهم في الحرب والسلم.

وأهم القيود على هذه الحرية:

---

921 – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣)(٧٧٨٦) صحيح

922 – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٣/ ٣٥)

١- أن لا يكون في القول عدوان:

وأن يكون طيباً بعيداً عن الفحش والقبح وبذاءة اللسان،يقول المولى عز وجل:{وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ }(الحج:٢٤).

٢- الدعوة إلى الرأي بالحكمة والموعظة الحسنة،والمجادلة بالتي هي أحسن:لقوله تعالى:{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }(النحل:١٢٥).

٣- أن يكون الكلام مطابقاً للحقيقة صادقاً مثبتاً:

بعيداً عن الظن،فإن الأصل في حرية القول هو الصدق في الأقوال؟ لأن الكذب قبيح مذموم،فقد حث الإسلام على توخي الصدق لقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }(التوبة:١١٩).

٤- أن لا يسمح بالمساس بالقواعد الخلقية:

ولا يسمح بتحسين الأقوال أو الأفعال القبيحة كالنفاق وتعاطي الرشوة،والتعامل بالربا،وفعل المنكرات.

٥- عدم السماح بتشكيك الناس بمعتقداتهم:

ونشر الإلحاد في المجتمع،والعمل على تفريق الأمة والشعوب،كي تصبح شيعاً يقاتل بعضها بعضا.

٦- عدم الاجتراء على الرسالات السماوية:

والإضرار بالإسلام وأهله عامة إذ تجب العقوبة حداً وتعزيرًا في هذه الحالة على المفسد المسيء لاستخدام الحرية.

٧- تحري الحق والعدل:

وترك المحاباة والمجاملة التي تعلي الباطل وتزهق الحق،هذه الحرية الحقة المقننة بكل دقة لها ثمراتها على الفرد والمجتمع إذ هي تنشر الثقة بين أفراد الأمة،وتؤدي إلى نمو الإخاء والحب والاحترام بين الأفراد والشعوب،كما تؤدي إلى قوة بناء الأمة وتماسكها وتضامنها فلا

يطمع فيها عدوها وتجعل من أمة الإسلام هي الأمة الداعية إلى الخير والسلام في العالم أجمع.

ج–حرية التعلم:

طلب العلم والمعرفة حق كفله الإسلام للفرد،ومنحه حرية السعي في تحصيله،و لم يقيد شيئاً منه،مما تعلقت به مصلحة المسلمين ديناً ودنياً،بل انتدبهم لتحصيل ذلك كله،وسلوك السبيل الموصل إليه،أما ما كان من العلوم بحيث لا يترتب على تحصيله مصلحة،وإنما تتحقق به مضرة ومفسدة،فهذا منهي عنه،ومحرم على المسلم طلبه،مثل علم السحر والكهانة،ونحو ذلك.

ولأهمية العلم والمعرفة في الحياة،نزلت آيات القرآن الأولى تأمر النبي– ﷺ– بالقراءة قال تعالى:{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{٥}(العلق).

والقراءة هي مفتاح العلم،ولذلك لما هاجر النبي– ﷺ–إلى المدينة،ونصب عليه الكفار الحرب،وانتصر المسلمون وأسروا مَن أسروا مِن المشركين،جعل فداء كل أسير من أسراهم،تعليم القراءة والكتابة لعشرة من صبيان المدينة،[923]

وهذا من فضائل الإسلام الكبرى،حيث فتح للناس أبواب المعرفة،وحثهم على ولوجها والتقدم فيها،وكره لهم القعود عن العلم والتخلف عن قافلة الحضارة والرفاهية والازدهار.

ومن أجل ذلك كان على الدولة الإسلامية،أن تيسر سبل التعليم للناس كافة،وتضمن لكل فرد حقه في ذلك لأن هذا الحق مضمون لكل فرد من رعاياها،كسائر الحقوق الأخرى.

د– الحرية السياسية:

ويقصد بها:حق الإنسان في اختيار سلطة الحكم،وانتخابها،ومراقبة أدائها،ومحاسبتها،ونقدها،وعزلها،إذا انحرفت عن منهج الله وشرعه،وحولت ظهرها عن جادة الحق والصلاح.

---

[923] – النور الخالد (٢/ ٤١٠) وحياة محمد ورسالته (ص:١٤٠)

كما أنه يحق له المشاركة في القيام بأعباء السلطة،ووظائفها الكثيرة،لأن السلطة حق مشترك بين رعايا الدولة،وليس حكراً على أحد،أو وقفاً على فئة دون أخرى واختيار الإنسان للسلطة،قد يتم بنفسه،أو مَن ينوب عنه من أهل الحل والعقد وهم أهل الشورى،الذين ينوبون عن الأمة كلها في كثير من الأمور منها:القيام بالاجتهاد فيما لا نص فيه،إذ الحاكم يرجع في ذلك،إلى أهل الخبرة والاختصاص من ذوي العلم والرأي،كما أنهم يوجهون الحاكم في التصرفات ذات الصفة العامة،أو الدولية،كإعلان الحرب،أو الهدنة،أو إبرام معاهدة،أو تجميد علاقات،أو وضع ميزانية أو تخصيص نفقات لجهة معينة أو غير ذلك من التصرفات العامة،التي لا يقطع فيها برأي الواحد. قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ }(النساء:٥٨).

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:«الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا:لِمَنْ؟ قَالَ:«لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[٩٢٤]

ومن هنا:

نستطيع أن نقول:إن شريعة الإسلام قد سبقت كل دعاة الحرية،ووضعت لها ضوابط حامية لها وراعية،فحرية الغرب لم تستطع أن تحمي المجتمع بمن يعيشون فيه من الاعتداء على الحقوق،ونهب وسلب الأموال،خير شاهد على ذلك،نسب الجريمة المرتفعة،والانهيار الاقتصادي الأخير،وسقوط النظام الشيوعي وانهياره وفشله في تحقيق السعادة المنشودة،واعتدائه على كلِّ القيم والحريات،والاعتداء على العفة والفضيلة،تحت مسمى الحرية المزعومة التي يروجون لها،هذا في كل دول الغرب والشرق الذين فهموا الحرية تحت مظلات بشرية.

---

924 - صحيح مسلم (١/ ٧٤)٩٥ - (٥٥)

وانظر:=http://www.manaratweb.com/news.php?newsid٣١١١

هذه الحرية التي ينشدها،اليوم،دعاة العلمانية والماركسية والشيوعية وغيرهم... للأسف الشديد في مجتمعنا الإسلامي والعربي يريدون أن ينقلوا لنا تجارب وتقاليد عفنة أثبتت التجارب فشلها وعجزها عن تحقيق قيمة الحرية بكلِّ ما تعنيه الكلمة من معنى.

آن الأوان لهؤلاء أن يفيقوا من غفلتهم وغفوتهم،إن كانوا يبغون الحق ويسعون للحصول عليه،ففي شريعة الإسلام بغيتهم وسعادتهم.

- ويبقى على أهل الإسلام ودعاته أن يُفَقِّهوا الناس بدينهم،ويحاوروا غيرهم ليدلوهم على خير الإسلام وهديه،وبيان قدرات الشريعة في كلِّ جوانبها،ومن ذلك الحرية.

- وعلى الدعاة والمصلحين:أن يبينوا حدود هذه الحرية،ويفرقوا بين الحرية المنضبطة،وبين الفوضى.

- هذا فهمنا للحرية.. وهذا نهج ديننا،وهذه ثقافتنا،فهل تجمعنا هذه المفاهيم،أم تفرقنا الأجندات.. وكل حزب بما لديه فرح ومتمسك؟!

وما أجمل ما قاله مطر في ذلك:

أخبرنا أستاذي يومًا عن شيء يُدعى الحرية
فسألت الأستاذ بلطف أن يتكلم بالعربية
ما هذا اللفظ وما تعني وأية شيء حرية
هل هي مصطلح يوناني عن بعض الحقب الزمنية
أم أشياء نستوردها أو مصنوعات وطنية
فأجاب معلمنا حزنًا وانساب الدمع بعفوية
قد أنسوكم كل التاريخ وكل القيم العلوية
أسفي أن تخرج أجيال لا تفهم معنى الحرية
لا تملك سيفًا أو قلمًا لا تحمل فكرًا وهوية
وعلمت بموت مدرسنا في الزنزانات الفردية
فنذرت لئن أحياني الله وكانت بالعمر بقية
لأجوب الأرض بأكملها بحثًا عن معنى الحرية

وقصدت نوادي أمتنا أسألهم أين الحرية
فتواروا عن بصري هلعًا وكأن قنابل ذرية
ستفجر فوق رءوسهم وتبيد جميع البشرية
وأتى رجل يسعى وجلاً وحكا همسًا وبسرية
لا تسأل عن هذا أبدا أحرف كلماتك شوكية
هذا رجس هذا شرك في دين دعاة الوطنية
ارحل فتراب مدينتنا يحوي أذانًا مخفية
تسمع ما لا يحكى أبدًا وترى قصصًا بوليسية
ويكون المجرم حضرتكم والخائن حامي الشرعية
ويلفق حولك تدبير لإطاحة نظم ثورية
وببيع روابي بلدتنا يوم الحرب التحريرية
وبأشياء لا تعرفها وخيانات للقومية
وتساق إلى ساحات الموت عميلاً للصهيونية
واختتم النصح بقولته وبلهجته التحذيرية
لم أسمع شيئًا لم أركم ما كنا نذكر حرية
هل تفهم؟ عندي أطفال كفراخ الطير البرية
وذهبت إلى شيخ الإفتاء لأسأله ما الحرية
فتنحنح يصلح جبته وأدار أداة مخفية
وتأمل في نظارته ورمى بلحاظ نارية
واعتدل الشيخ بجلسته وهذى باللغة الغجرية
اسمع يا ولدي معناها وافهم أشكال الحرية
ما يمنح مولانا يومًا بقرارات جمهورية
أو تأتي مكرمة عليا في خطب العرش الملكية
والسير بضوء فتاوانا والأحكام القانونية

ليست حقًا ليست ملكًا فأصول الأمر عبودية
وكلامك فيه مغالطة وبه رائحة كفرية
هل تحمل فكر أزارقة؟ أم تنحو نحو حرورية
يبدو لي أنك موتور لا تفهم معنى الشرعية
واحذر من أن تعمل عقلاً بالأفكار الشيطانية
واسمع إذ يلقي مولانا خطبًا كبرى تاريخية
هي نور الدرب ومنهجه وهي الأهداف الشعبية
ما عرف الباطل في القول أو في فعل أو نظرية
من خالف مولانا سفهًا فنهايته مأساوية
لو يأخذ مالك أجمعه أو يسبي كل الذرية
أو يجلد ظهرك تسلية وهوايات ترفيهية
أو يصلبنا ويقدمنا قربانا للماسونية
فله ما أبقى أو أعطى لا يسأل عن أي قضية
ذات السلطان مقدسة فيها نفحات علوية
قد قرر هذا يا ولدي في فقرات دستورية
لا تصغي يومًا يا ولدي لجماعات إرهابية
لا علم لديهم لا فهمًا لقضايا العصر الفقهية
يفتون كما أفتى قوم من سبع قرون زمنية
تبعوا أقوال أئمتهم من أحمد لابن الجوزية
أغرى فيهم بل ضللهم سيدهم وابن التيمية
ونسوا أن الدنيا تجري لا تبقى فيها الرجعية
والفقه يدور مع الأزمان كمجموعتنا الشمسية
وزمان القوم مليكهم فله منا ألف تحية
وكلامك معنا يا ولدي أسمى درجات الحرية

فخرجت وعندي غثيان وصداع الحمى التيفية
وسألت النفس أشيخ هو؟ أم من أتباع البوذية؟
أو سيخي أو وثني من بعض الملل الهندية
أو قس يلبس صلبانًا أم من أبناء يهودية
ونظرت ورائي كي أقرأ لافتة الدار المحمية
كتبت بحروف بارزة وبألوان فسفورية
هيئات الفتوى والعلما وشيوخ النظم الأرضية
من مملكة ودويلات وحكومات جمهورية
هل نحن نعيش زمان التيه وذل نكوص ودنية
تهنا لما ما جاهدنا ونسينا طعم الحرية
وتركنا طريق رسول الله لسنن الأمم السبأية
قلنا لما أن نادونا لجهاد النظم الكفرية
روحوا أنتم سنظل هنا مع كل المتع الأرضية
فأتانا عقاب تخلفنا وفقا للسنن الكونية
ووصلت إلى بلاد السكسون لأسألهم عن حرية
فأجابوني:"سوري سوري نو حرية نو حرية"
من أدراهم أني سوري ألأني أطلب حرية؟!
وسألت المغتربين وقد أفزعني فقد الحرية
هل منكم أحد يعرفها أو يعرف وصفًا ومزية
فأجاب القوم بآهات أيقظت همومًا منسية
لو رزقناها ما هاجرنا وتركنا الشمس الشرقية
بل طالعنا معلومات في المخطوطات الأثرية
أن الحرية أزهار ولها رائحة عطرية
كانت تنمو بمدينتنا وتفوح على الإنسانية

ترك الحراس رعايتها فرعتها الحمر الوحشية
وسألت أديبًا من بلدي هل تعرف معنى الحرية
فأجاب بآهات حرى لا تسألنا نحن رعية
وذهبت إلى صناع الرأي وأهل الصحف الدورية
ووكالات وإذاعات ومحطات تلفازية
وظننت بأني لن أعدم من يفهم معنى الحرية
فإذا بالهرج قد استعلى وأقيمت سوق الحرية
وخطيب طالب فيشمم أن تلغى القيم الدينية
ويمنع تداول أسماء ومفاهيم إسلامية
وإباحة فجر وقمار وفعال الأمم اللوطية
وتلاه امرأة مفزعة كسنام الإبل البختية
وبصوت يقصف هدار بقنابلها العنقودية
إن الحرية أن تشبع نار الرغبات الجنسية
الحرية فعل سحاق ترعاه النظم الدولية
هي حق الإجهاض عمومًا وإبادة قيم خلقية
كي لا ينمو الإسلام ولا تأتي قنبلة بشرية
هي خمر يجري وسفاح ونواد الرقص الليلية
وأتى سيدهم مختتمًا نادي أبطال الحرية
وتلي ما جاء الأمر به من دار الحكم المحمية
أمر السلطان ومجلسه بقرارات تشريعية
تقضي أن يقتل مليون وإبادة مدن الرجعية
فليحفظ ربي مولانا ويديم ظلال الحرية
فبمولانا وبحكمته ستصان حياض الحرية
وهنالك أمر ملكي وبضوء الفتوى الشرعية

يحمي الحرية من قوم راموا قتلا للحرية
ويوجه أن تبنى سجون في الصحراء الإقليمية
وبأن يستورد خبراء في ضبط خصوم الحرية
يلغى في الدين سياسته وسياستنا لا دينية
وليسجن من كان يعادي قيم الدنيا العلمانية
أو قتلا يقطع دابرهم ويبيد الزمر السلفية
حتى لا تبقى أطياف لجماعات إسلامية
وكلام السيد راعينا هو عمدتنا الدستورية
فوق القانون وفوق الحكم وفوق الفتوى الشرعية
لا حرية لا حرية لجميع دعاة الرجعية
لا حرية لا حرية أبدًا لعدو الحرية
ناديت أيا أهل الإعلام أهذا معنى الحرية؟
فأجابوني باستهزاء وبصيحات هستيرية
الظن بأنك رجعي أو من أعداء الحرية
وانشق الباب وداهمني رهط بثياب الجندية
هذا لكما هذا ركلا ذياك بأخمص روسية
اخرج خبر من تعرفهم من أعداء للحرية
وذهبت بحالة إسعاف للمستشفى التنصيرية
وأتت نحوي تمشي دلعًا كطير الحجل البرية
تسأل في صوت مغناج هل أنت جريح الحرية
أن تطلبها فالبس هذا واسعد بنعيم الحرية
الويل لك ما تعطيني أصليب يمنح حرية
يا وكر الشرك ومصنعه في أمتنا الإسلامية
فخرجت وجرحي مفتوح لأتابع أمر الحرية

وقصدت منظمة الأمم ولجان العمل الدولية
وسألت مجالس أمتهم والهيئات الإنسانية
ميثاقكم يعني شيئًا بحقوق البشر الفطرية
أو أن هناك قرارات عن حدٍّ وشكل الحرية
قالوا الحرية أشكال ولها أسس تفصيلية
حسب البلدان وحسب الدين وحسب أساس الجنسية
والتعديلات بأكملها والمعتقدات الحالية
ديني الإسلام وكذا وطني وولدت بأرض عربية
حريتكم حددناها بثلاث بنود أصلية
فوق الخازوق لكم علم والحفل بيوم الحرية
ونشيد يظهر أنكم أنهيتم شكل التبعية
ووقفت بمحراب التاريخ لأسأله ما الحرية
فأجاب بصوت مهدود يشكو أشكال الهمجية
إن الحرية أن تحيا عبدًا لله بكلية
وفق القرآن ووفق الشرع ووفق السنن النبوية
لا حسب قوانين طغاة أو تشريعات أرضية
وضعت كي تحمي ظلامًا وتعيد القيم الوثنية
الحرية ليست وثنًا يغسل في الذكرى المئوية
ليست فحشا ليست فجرًا أو أزياء باريسية
والحرية لا تعطيه هيئات الكفر الأممية
ومحافل شرك وخداع من تصميم الماسونية
هم سرقوها أفيعطوها؟ هذا جهل بالحرية
الحرية لا تستجدي من سوق النقد الدولية
والحرية لا تمنحها هيئات البر الخيرية

الحرية نبت ينمو بدماء حرة وزكية
تؤخذ قسرًا تبنى صرحًا يرعى بجهاد وحمية
يعلو بسهام ورماح ورجال عشقوا الحرية
اسمع ما أملي يا ولدي وارويه لكل البشرية
إن تغفل عن سيفك يومًا فانس موضوع الحرية
فغيابك عن يوم لقاء هو نصر للطاغوتية
والخوف لضيعة أموال أو أملاك أو ذرية
طعن يفري كبدا حرة ويمزق قلب الحرية
إلا إن خانوا أو لانوا وأحبوا المتع الأرضية
يرضون بمكس الذل و لم يعطوا مهرا للحرية
لن يرفع فرعون رأسا إن كانت بالشعب بقية
فجيوش الطاغوت الكبرى في وأد وقتل الحرية
من صنع شعوب غافلة سمحت ببروز الهمجية
حادت عن منهج خالقها لمناهج حكم وضعية
واتبعت شرعة إبليس فكساها ذلاً ودنية
فقوى الطاغوت يساويها وجل تحيا فيه رعية
لن يجمع فيقلب أبدًا إيمان مع جبن طوية[٩٢٥]

_ 925

http://www.mnfonline.com/index.php?option=com_content&view=article&i
٥٧&Itemid=٣٦-٢٧-٠٦-٢٥-٠٣-٣٧:٢٠١١&catid=٥١-٢٤-١٠-٠٢-٠٥-٢٧٣:٢٠١١d=

المبحث السابع والعشرون

قصة الثورة العربية الخلاقة إرهاصاتها فلسفتها غاياتها

بقلم د. حاكم المطيري

إهداء..

إلى روح الشهيد..

محمد البوعزيزي التونسي...

وإلى أرواح شهداء الثورة العربية الذين خطوا بدمائهم الزكية سفر هذه الأسطورة..

وإلى كل العرب الأحرار في سجون الطغاة والذين دفعوا حريتهم وسعادتهم ثمنا لكرامة أمتهم..

وإلى كل الشباب الثوار في الميادين والساحات الذين سطروا ملحمة الثورة وما يزالون..

أهدي هذا الكتاب تخليدا لذكراهم!

(الحياة كرامة..والكرامة محرمة على الجبناء..

فاعشقوا الموت توهب لكم الحياة....)

المؤلف

في البدء كانت الكلمة...

ومن هنا بدأت القصة..

فما بين الأذان للثورة في المشرق – بعد سقوط بغداد سنة ٢٠٠٣م حين صدر كتاب (الحرية أو الطوفان) – والإقامة لصلواتها في المغرب – سنة ٢٠١١م على يد محمد البوعزيزي – سبع سنوات امتزجت فيها دماء العرب بدموعهم،وأحلامهم بمأساتهم،وآمالهم بآلامهم،وعزيمتهم بهزيمتهم..

فكانت الثورة الأسطورة!

الحمد لله وحده،وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده،وعلى آله وصحبه،وبعد..

ما قصة الثورة العربية؟ وما سرها؟ ومن وراءها؟

وهل هي مشروع الفوضى الخلاقة التي خططت لها أمريكا؟

ما أسباب الثورة إذا؟

ما مشروعيتها في الإسلام؟

ما هي فلسفتها؟

وما أهدافها وغاياتها؟

أسئلة كثيرة،واستفسارات خطيرة،واكبت أحداث الثورة العربية المعاصرة منذ بدايتها وما تزال،تبحث عن أجوبة علمية بعيدة عن التضليل الإعلامي الرسمي العربي!

وبعيدا عن إعلام الثورة المضادة الذي يعزو الثورة لمراكز التغيير الديمقراطي الأمريكية،والورش التي عقدتها تلك المراكز لمجموعات من الشباب زعموا! ليستلبوا من الأمة المنكوبة على يد الطغاة حتى شرف الثورة التي دفع الملايين من العرب الأحرار أرواحهم وسعادتهم ثمنا لها طوال ثلاثين عاما في مواجهة الاحتلال وعملائه؟!

وهذا هو كتاب (الثورة العربية الخلاقة) يحاول الإجابة عن كل تلك الأسئلة،ويكشف بعض أسرار الثورة العربية الشعبية التاريخية،وهو مستمد من مجموعتين كتابيتين:

الأولى:مجموعة مقالات كنت كتبتها ونشرتها،بعضها قبل الثورة حيث تحدثت عن إرهاصات الثورة وقرب بزوغ فجرها،وبعضها بعد الثورة وفي أثنائها،تتحدث عن أحداثها ومشروعيتها وفلسفتها وأسبابها،ونظام الحكم الراشد البديل..الخ.

وقد رتبت المقالات لا بحسب الموضوع (الإرهاصات والفلسفة والمشروعية والغاية) بل بحسب التاريخ وتسلسل الأحداث،إلا إن القارئ سيجد المواضيع تلك كلها مبثوثة في زوايا التاريخ على نحو يربط بين الأحداث وتفسيرها،وبيان مشروعيتها وغاياتها..الخ.

المجموعة الثانية:تتمثل بالرسائل التي كانت بيني وبين كثير من المفكرين الكتاب،والحركيين الشباب – ممن شارك أكثرهم بعد ذلك في الثورة – حول الثورة وضرورتها ومشروعيتها،وذلك قبل حدوثها،وبعد حدوثها،وأثناء حدوثها!

وقد اخترت بعض تلك الرسائل من الأرشيف الخاص بي – وبعضها لقيادات كبيرة سياسية وفكرية وعلمية وثقافية وعسكرية،وأخرى حركية شبابية – لأكشف سرا من

أسرار الشعوب خفيا،لا يبدو عادة إلا لمن أوتي بصيرة في قراءة سكون الشعوب المقهـــورة وصمتها،وفهم أنينها وهمهمتها!

وتمتاز هذه الرسائل في كونها همسات أحرار مقهورين جرت فيما بينهم،بعيدا عن الإعلام وضجيجه،وعن الطاغوت وعيونه وسجونه،وفي سنوات اليأس والإحباط،حين لم يكـــن هناك بصيص أمل في التغيير،ففي تلك الرسائل من لوعة العبارة وصدقها،وثورة الفكـــرة وحرارتها،ما لا تجده عادة في غيرها مما ينشر منمقا مواربا!

وقد حرصت أن أرتب الرسائل حسب التاريخ ليكتشف القارئ بنفسه كيف تزداد وتيرة النفس الثوري تحت الأرض يوما بعد يوم في كل العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه،وكيف كثر الجدل في موضوع الثورة قبل حدوثها،كما حرصت على تنويع الرسائل فهي من كل بلد عربي،من الجزيرة والخليج العربي،واليمن،ومن الشام والعراق،ومن مصر وليبيـــا،ومن الجزائر والمغرب..الخ

واختصرت الأسماء حتى لا يُعرف أصحابها مع أن بعضهم مشاهير لا يخفون على القـــارئ الذكي،إلى حين موافقتهم على نشر الأسماء بالكامل،كما حرصت علـــى نشـــر بعـــض الرسائل كاملة لأهمية الموضوع وللفائدة العلمية التي فيها،وتركت كثيرا من الرسائل لوقته بإذن الله!

وقد حرصت على إيراد بعض الرسائل التي تكشف النفسية العربية كيف كانت تعـــاني في ظل هذه الفترة من الطغيان السياسي،وسيجد القارئ في هذه الرسائل النفســـية العربيـــة المأزومة،والنفسية المهزومة،والنفسية الثائرة،والنفسية الحائرة..الخ.

كما سيتجلى في هذه الرسائل بكل وضوح كيف كانت الثورة تختلج في صدور هـــؤلاء الثوار الأحرار في أحلام يقظتهم،كما في أحلام منامهم،وفي تطلعـــاتهم وآمالهم،كمـــا في تحركاتهم وأعمالهم،وفي كتاباتهم وأفكارهم،وفي خلجات نفوسهم،وزفرات صدورهم..

وكل ذلك لتعرف الأجيال القادمة كيف كانت الأجواء العربية قبل هذه الثورة،فإن الجيل القادم سيعيش حالا أفضل بلا شك،وربما لن يصدق هذه الأسطورة!

كما اقتصرت في مجموعة المقالات على ما كان منها قبل حدوث الثورة بأشهر تقريبا،وعلى الرسائل التي لا تتجاوز سنة ٢٠٠٦م،دون المقالات والرسائل القديمة لكثرتها من جهة،ولأن الأخيرة هي التي يصدق عليها أنها إرهاصات ومقدمات للثورة،كما هو عنوان الكتاب،حيث كان احتلال بغداد ثم حرب غزة وحصارها أحد أهم الصواعق الرئيسة للثورة العربية!

كما إن هذا الكتاب هو الجزء الأول من قصة الثورة العربية في موجتها الأولى،وأما الجزء الثاني والثالث،فبعد الموجة الثانية والثالثة التي نعيش إرهاصاتها حتى تستوي سفينة الثورة على جودي الحرية في المنطقة العربية كلها،ويتوج النصر بإذن الله بتحرير العراق وفلسطين..

إنني أروي في هذا الكتاب قصة هذه الأسطورة – التي هي أشبه بالخيال منها بالواقع،وبالأحلام منها بالحقائق – لا لأني من أبطالها،بل أبطالها هم كل العرب الأحرار،والشباب الثوار،ممن امتلأت بهم سجون الطغاة قبل الثورة،والملايين التي خرجت في كل المدن والميادين للإعلان عن كفرها بالطاغوت،ورفضها للطغيان،وتحديها للطغاة!

وإنما أروي هنا قصة الثورة كشاهد على هذا الواقع،وكعربي عاش بؤس أمته وشقاءها،مدة ثلاثين سنة،منذ اتفاقية كامب ديفيد إلى عصر الثورة البوعزيزية!

إن هذه الرواية قد لا تكون قصة الثورة فعلا بقدر ما هي نظرتي وروايتي لها،حيث الزاوية التي أنظر منها،والتلال التي أقف عليها،وأشرف منها على الأحداث حين شاهدتها،والوقائع كما عشتها،كملايين العرب الذي عاشوها وشاهدوها،وربما أكون أقدر على روايتها ممن صنعوها!

لقد كانت الأرض العربية من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر،تزفر بحرقة منذ احتلال العراق،فلا أحد ينتبه لزفراتها،ولا يحس أحد بحرقتها وحرارتها،وتئن و لم يفهم كثيرون معنى أنينها،وكنت ممن أرهفوا سمعهم لها،وفهموا لغتها،وعزفوا ألحان حزنها،وقد تنبأت بحدوث الثورة وأخبرت عنها،ودعوت لها،وبشرت بها،و لم تكن كتاباتي آنذاك أحلاما – كما قيل عني حينها – ولا أوهاما،بل هي القراءة الصحيحة للسنن والنواميس الإلهية {وَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)} [إبراهيم]..

لقد كانت قراءة لنفسيات الشعوب المكلومة من نظراتها وهمهماتها وهمساتها،وكنت ممن يفهم تلك اللغة جيدا،وقد سمعت تلك الزفرات في كل مدينة وقرية عربية زرتها،فسمعتها في صعدة في أعالي جبال اليمن،وفي كسلا في أقصى سهول السودان،وفي هضاب فاس المغرب،وفي كل بلد عربي زرته،فعرفت حينها أن العرب قد عقدوا العزم على أمر عظيم،ولم يبق إلا التنفيذ!

لقد كفر العرب عن بكرة أبيهم بواقعهم،وضاقوا به ذرعا،وأخذوا يتنادون همسا،ويتداعون خرسا،بالإشارة دون صريح العبارة،وبالتلويح دون التصريح،ففهم الجميع عن الجميع مرادهم بأن الثورة قد وجبت وأزفت وآن أوانها (فهن ووادي الرس كاليد للفم)!

إلا إنهم لم يتفقوا على موعد محدد لانطلاق شرارة الثورة،ولا مكان محدد لتفجيرها،ولا مشروع سياسي محدد بعد تغيير الواقع،فالمهم عندهم هو الثورة! والثورة فقط! بعد كفرهم بالواقع كله الذي صنعه الاستعمار الخارجي وكرسه حلفاؤه في الداخل،ليصبح العالم العربي أكبر سجن عرفه التاريخ الإنساني،يسجن فيه نحو أربعمائة مليون إنسان،ويقوم على سجنهم ويسومهم فيه سوء العذاب أكثر من عشرين عصابة،نيابة عن الاحتلال الأجنبي!

لقد عزم العرب على ضرورة الثورة دون مؤتمر جامع،ودون اتفاق قومي شامل،ودون خطة عمل،بل كانوا يتهامسون فيما بينهم في المشرق فتصل همساتهم إلى أقصى المغرب،وما زالت خواطرهم تتوارد على اختلاف توجهاتهم الفكرية،وطبقاتهم الاجتماعية،فالشاعر في حديقته،كالسياسي في مقر حزبه،والعامل في مشغله،كالمفكر في مكتبه،فكلهم كان يترنم بالثورة القادمة ويمجد بطلها المنتظر الذي يترقب الجميع خروجه على أحر من الجمر،فإذا القدر قد خبأ لهم لا زعيما عظيما كصلاح الدين الأيوبي يخلصهم كما كانوا يحلمون،بل شابا فقيرا سيكون هو الملهم لهم،والصاعق الذي سيفجر الثورة في قرية سيدي أبو زيد،وليخرج البوعزيزي محمد من بين الملايين في الشارع العربي العريض

وزحامه،ومن تحت ركام الواقع العربي البائس وحطامه،ليصرخ في العرب صرخة أبيهم إبراهيم حين أذن في الناس بالحج،فإذا العرب الموتى منذ عقود يبعثون من قبورهم من جديد،يلبون صرخته لبيك لبيك،وإذا الأرض تهتز من تحت أقدامهم،وإذا بركان الثورة يتفجر في كل أرض،وإذا الطوفان يكتسح عروش الظلم والطغيان!

لا تكن محتقرا شأن امرئ ربما كان من الشأن شئون

وإذا الأحداث تتسارع على نحو مدهش مذهل لم يكن يتوقعه أحد!

لكل طاغية طفل سيصرعه قد خبأ الله ذاك الطفل والأجلا

وقد كان كثير من الأخوة بعد ذلك يعجبون مني كيف تنبأت بالثورة على النحو الذي وقعت في آخرة عبارة من كتاب (الحرية أو الطوفان) حين قلت (فليس أمام الأمة للخروج من هذا التيه إلا الثورة أو الطوفان)،فكنت أجيبهم بأن المستقبل يستشرف بثلاثة أمور:

الأول:الرأي الثاقب كما عبر عنه شاعر العرب وفيلسوفهم أبو الطيب المتنبي حين قال:

ذكيٌّ تظنّيه طليعة عينه يرى قلبه في يومه ما ترى غدا

وقد رأيت أهل الرأي في كل بلد يتوقعون حدوث الثورة أو يتمنونها فعلمت أنها ستقع لا محالة،فالمستقبل هو أحلام الحاضر وأمانيه!

الثاني:الرواية وأنا من أهلها والمتخصصين فيها وقد بينت ذلك في كتابي (تحرير الإنسان) وكتابي (الفرقان)،فالروايات والنبواءات الصحيحة تؤكد أننا في الحقبة الثالثة بعد سقوط الخلافة وهي حقبة الدعاة على أبواب جهنم،وحقبة الطاغوت حيث تسفك الدماء وتستحل الموبقات،ثم يأت الله بالفرج والنصر على سنن جارية،ووفق نواميس لا تتخلف!

الثالث:الرؤى كما في الصحيح عَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ:أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ» قَالُوا:وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ:«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»[926]

---

926 - صحيح البخاري (٩/ ٣١)(٦٩٩٠)

[ش (لم يبق) أي بعد نبوته ﷺ. (المبشرات) جمع مبشرة من التبشير وهو إدخال السرور والفرح على المبشر والمراد أن الوحي ينقطع بموته ﷺ ولا يبقى ما يعلم منه ما سيكون إلا الرؤيا]

فإذا تواطأ واتفق الرأي بين أهل الرأي،أو تواطأت الرؤى بين أهل الصدق،أو تواطأت الرواية بين أهل العدالة،أفادت العلم واليقين!

فكيف إذا توافقت وتطابقت هذه المصادر الاستشرافية الثلاث كلها!

وقد رأى ملك مصر – كما في سورة يوسف – رؤيا استشرف بها يوسف عليه السلام المستقبل إحدى وعشرين سنة ووضع بناء عليها خطة استراتيجية أنقذت شعب مصر من المجاعة!

وقد حدثنا الشيخ حسن الأرتيري – حفظه الله وفك أسره – قبل الثورة العربية بأشهر أنه رأى رؤيا قبل سبع سنين أو يزيد — وهو وقت صدور كتاب الحرية أو الطوفان– بأنه عم أرض العرب طوفان حتى بلغ رؤوس الجبال،فلما انحسر الماء فإذا الناس يخرجون أحياء لم يغرقهم الطوفان،ورأى بأن الموتى يبعثون من قبورهم أحياء من جديد!

وأخبرنا الشيخ محمد القرشي حفظه الله في الحج الماضي ١٤٣١هـ ونحن بمكة برؤيا طويلة وفيها تقريبا تفاصيل مشهد الثورة العربية قبل حدوثها بستة أشهر!

فسأل عنها من يعبرها فقال له:سيحدث بعد الحج للأمة فتح عظيم لا يخطر لكم على بال!

وقد كان ما قال!

فلما تواترت الرؤى بين الصالحين،وتوافق الرأي بين المفكرين،وصحت الرواية عند المحدثين،علمت علما لا شك فيه أن الثورة قد قرب فجرها!

واعلم أنه لا يفهم هذه اللغة إلا أهلها وفوق كل ذي علم عليم!

أما الماديون الذي حبستهم ماديتهم عن عالم الروح وأسراره فلا سبيل لهم إلى فهم مثل هذه العلوم والمعارف حتى يعلموا بأن وراء علمهم المادي علوما أعمق وأدق وأوسع لا يحيط بها إلا الله وحده {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء:٨٥]!

وقد كنا في مؤتمر سياسي في اسطنبول قبل الثورة بأشهر،وفينا أساتذة عرب من كل التخصصات،وبعضهم منهم ممن درس في أوربا وما يزال يعيش فيها،فلما سمعوا تلك الأحاديث على هامش المؤتمر،وسمعوا بتلك التحليلات الغيبية والرؤى وتأويلها لم

يصدقوها! وظنوا أنها أماني المستضعفين تراودهم في أحلامهم { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [يونس:٣٩]!

فلم يمض على ذلك المؤتمر أقل من ستة أشهر إلا والثورة تعم العالم العربي كالطوفان،وما تزال تجري تفاصيلها على النحو الذي جاء في تلك الرؤى! ولم تكتمل المشاهد حتى الآن فالرؤى تنبئ بالمزيد!

بل إن الأحداث الكبرى فيها والملاحم العظمى لم تحدث بعد!

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ:

وهذا أنموذج لبعض الرسائل بيني وبين بعض قيادات الثورة ستجده في مكانه المناسب في هذا الكتاب:(رسالة بخصوص تفجير الثورة في سوريا)

التاريخ ٢٠١١/٢/١٥م

شكر الله لكم،وطيّب خاطركم كما طيّبتم خاطري،وجمعنا على طاعته ونصرة دينه،ونريد منكم مقالة مزلزلة لشباب سورية،تدعوهم للثورة على الظالمين بأسلوبكم الرائع...

وأرفق لكم طيّاً بعض ما عندي لتكون مادّة أولية لكم،لأن في فمي حصوة أنا في...

ولا أستطيع أن أكتب أو أقول كل ما أريد،ويسعدني أن ألقى منكم تعليقاً وردّاً...

وأنا متأكد من أن نباهتكم ستدلّكم على الكاتب!

محبكم د. فواز.....

رسالة الرد..

أكرمك الله وبارك فيكم وسدد خطاكم..

أما بخصوص سوريا فأقول (دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ) وهي تمضي إلى قدر! وحالما تظهر بوادرها سأكون من دعاتها،ولولا احتضانها للمقاومة الفلسطينية والعراقية لكانت العدوى إليها أسرع من الجرب!

وعلى كل حال فقد تواطأت الرؤى وكنا على يقين بأنه سيحدث بعد الحج الماضي فتح عظيم للأمة،وكنا نترقبه فكانت ثورة تونس ثم مصر،ولن تقف الثورة حتى تطهر أرض..... فضلا عن الشام!

محبك حاكم المطيري..) انتهت الرسالة!

وأدع هذا الموضوع إلى حينه في الحلقات القادمة وكما في الأثر عَنْ عَلِيٍّ قَالَ:«حَدِّثُوا النَّاسَ،بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ،اللَّهُ وَرَسُولُهُ»[927]

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ،أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ،قَالَ:«مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ،إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»[928]

ألم أقل لكم بأنها أسطورة أشبه بالخيال منها بالواقع!

بين يدي الموضوع:

حين أكتب هذه الأسطورة عن الثورة العربية المعاصرة،فإني أكتبه كمواطن عربي عاش كغيره من العرب في هذه الحقبة،التي هي الأسوأ من حيث شيوع الطغيان والاستبداد،واستشراء الظلم والفساد،على نحو غير مسبوق،في تاريخ العرب الحديث بعد الاستقلال الصوري لدولهم!

وقد تعرضت كما تعرض كثير من الأحرار والمفكرين والمصلحين في العالم العربي كله من خليجهم إلى محيطهم في هذه الحقبة لطغيان السلطة واستبدادها!

وعرفت كيف تقتلك السلطة باسم القانون!

وكيف تصادر حريتك باسم الديمقراطية!

وكيف تظلمك باسم العدل واستقلال القضاء!

وكيف تحكم العصابات باسم الدولة ومؤسساتها!

---

927 - صحيح البخاري (١/ ٣٧)(١٢٧)

[ش (أن يكذب..) أي إذا حدث الناس بما يشتبه عليهم ولا يعرفونه ربما كذبوا بما جاء عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ]

928 - صحيح مسلم (١/ ١١)

إنني أكتب هنا عن الثورة وإرهاصاتها كما عشتها أنا،وحلمت بها قبل حدوثها بعشر سنين،بل يزيد،فهذا الكتاب رؤيتي للأحداث،ووجهة نظري عن هذه الحقبة السوداء،كشاهد عليها وضحية من ضحاياها!

وقد قدر لي أن أكون ممن آمنوا بضرورة الثورة مبكرا،وبشر بها،ونظّر لها،ودعا إليها،بالقلم والعمل الحركي الدعوي والفكري والسياسي والحقوقي،من خلال مشاركتي في تأسيس التنظيمات السياسية،والمنظمات الحقوقية،المحلية والعربية،والتي من خلالها عرفت الواقع السياسي عن كثب،ومدى استشراء الظلم وانتهك حقوق الإنسان في العالم العربي،والجرائم التي تقع في السجون العربية لسجناء الرأي والسياسيين والمصلحين،حتى بلغ عددهم في بعض الدول العربية عشرات الآلاف – نحو ٩٠ ألفا في مصر،ونحو ٧٠ ألفا في تونس..الخ – وقد بلغ عددهم في حقبة بعض الرؤساء والملوك على مدى فترة حكمهم مئات الآلاف ممن تعرضوا للاعتقال التعسفي،والسجن بلا تهمة،والسجن بلا حكم قضائي،والسجن بحكم سياسي،والسجن بعد انتهاء المحكومية..الخ

ولعل تعداد من تعرضوا لذلك في العالم العربي كله في حقبة (كامب ديفيد) يتجاوز الملايين!

وقد أدركت عمق الأزمة وخطورتها فألفت كتابي (الحرية أو الطوفان) ثم كتابي (تحرير الإنسان) ثم رسالة (المقاومة السلمية رؤية شرعية)..الخ – تلك المؤلفات التي كان لها أثر ووقع كبير في وسط التيار الإسلامي،على اختلاف مدارسه،الذي يملك قوة شعبية واسعة في الشارع العربي،إلا إنه تعرض للتشوهات الفكرية التي شلت حركته،وقتلت روحه الثورية بخطاب ديني ممسوخ مشوه،مما حيد قطاعا شعبيا واسعا من الشباب العربي وأخرجه عن دائرة التأثير والفعل السياسي،وهو ما زاد في حدة طغيان السلطة،فكان للكتابين أثر إيجابي في معالجة تلك التشوهات،كما ستراه في بعض الرسائل التي بيني وبين كثير من الإسلاميين،والتي ضمنت بعضها في هذا الكتاب،وكما اعترف لي بذلك مشافهة كثير من الدعاة والمصلحين..

لقد كنت أتوقع الثورة،وكنت أبشر كل من دعوته إلى العمل السياسي،وأقول لهم بـــأن التغيير قادم ويجب علينا أن نسهم في صناعته،ومنذ صدور كتابي (الحرية أو الطوفـــان) – والذي شرعت في تأليفه سنة ٢٠٠١م،وطبع سنة ٢٠٠٣م – لم يكن لي قضية إلا قضـــية الحرية وتحرير الأمة من الاستبداد الداخلي،ومن الاستعمار الخارجي،وقد كتبـــت مئـــات المقالات في هذا الموضوع،وألقيت مئات المحاضرات والدروس التي تم تســـجيل بعضـــها ونشره،ولم يسجل أكثرها للدواعي الأمنية،وكان كل من يسألني آنذاك متى تتوقع حدوث التغيير؟ كنت أجيبهم من سبع إلى عشر سنوات!

وقد كنت أول من دعا في الخليج – بعد اختياري أمينا عاما للحركـــة الســـلفية ســـنة ٢٠٠٠م – إلى الحكومة المنتخبة وإلى التعددية والتداول السلمي للسلطة في الكويت ودول الخليج العربي،وأصدرت بيانات بذلك،وخطابات مفتوحة لحكومـــات مجلـــس التعـــاون الخليجي،فكان أول الرافضين لها هم أشد الناس حاجة إليها!

فثارت ثائرة الوسط الإسلامي بشقيه الحركي والتقليدي،وأخذ كثيرون يحذرون من هـــذا الفكر الجديد الذي يتعارض مع الإسلام بزعمهم! فكانوا عونا للسلطة الـــتي صـــادرت حرياتهم وحقوقهم على محاربتي ومحاصرتي وأنا أدعو إلى تحريرهم من أغلال عبوديتهم!

وبعد إعلان بوش حربه على أفغانستان سنة ٢٠٠١م كانت لي مداخلة مع قناة الجزيـــرة دعوت الأمة وشعوبها للثورة وتغيير الأنظمة التي باعتها،كما ثارت أوربا الشـــرقية علـــى أنظمتها الشيوعية،فاعترض علي بعض الدعاة المشهورين وقـــالوا لي:إن هـــذا خطـــاب تحريضي لا إصلاحي!

وتم بعدها اتخاذ إجراء أمريكي كويتي – ولم أكن أعلم عن خلفياته إلا بعد مدة من بعض الصحف الأمريكية – بتقديمي للمحاكمة بثلاث قضايا أمن دولة،وبتهمة الإخلال بالأمن زمن الحرب – بدعوى أن الكويت ما زالت في حال حرب مع العراق آنـــذاك – وكـــل ذلك على خلفية دعوتي لمجلس الأمة الكويتي بفتح التحقيق في ملـــف انتـــهاك حقـــوق الإنسان،واستجواب وزير الداخلية آنذاك على ما شاع من أخبار عن تعرض مجموعة من الشباب للتعذيب في أمن الدولة،وهو ما أثبت القضاء بعد ذلك حدوثـــه،وأثبت بـــراءتي

وبشهادة سرية أمام القضاء أدلى بها الشيخ الداعية محمد العوضي،والنائب الفاضل مبـــارك الدويلة،وقد ثبتت براءتي دون أن يستجوب الوزير أو يحاكم على انتهاك حقوق الإنسان!

ثم تبينت لي حقائق الأمور وخفاياها،بعد أن قابلني صحفي أمريكي أثنـــاء المحاكمـــات في مكتب المحامي الفاضل نواف ساري،وكان قد حضر بعض جلسات محاكمتي،وأكـــد لي بأنني أدفع ثمن موقفي ضد أمريكا وحربها في أفغانستان والعراق،وقد قلت له بأن تحليلـــه غير صحيح فقضيتي تختلف كما في التهم الموجهة لي! وهي في شأن كويتي محلـــي يتعلـــق بموقفي من وزير الداخلية وما وقع من انتهاك لحقوق الإنسان في وزارته،ودعوتي مجلـــس الأمة لاستجوابه!

فابتسم الصحفي الأمريكي وقال ستعرف الحقيقة يوما ما!

ثم تأكد لي صحة ما قاله الصحفي الأمريكي بعد اطلاعي على مقالة في صحيفة أمريكيـــة تتحدث عن تلك المحاكمة وأنها كانت من باب التعاون الكـــويتي الأمريكـــي لمكافحـــة الإرهاب!

فقد استخدمت حكومات المنطقة شماعة مكافحة الإرهاب لتصفية حساباتها مع خصومها ومعارضيها،فامتلأت السجون وقاعات المحاكمات في العالم العربي بآلاف المظلومين بتهمة مكافحة الإرهاب،الذي يعني لدى الأنظمة العربية مقاومـــة الاحـــتلال الأجـــنبي،ورفض الاستبداد السياسي؟!

وقد كنت وجهت حينها خطابا لكل أعضاء مجلس الأمة حول ما تعرضت له آنذاك مـــن تعسف،فانكشف لي مدى الفساد الذي وصل له ذلك الصالون السياسي المـــدعو كـــذبا وزورا مجلس الأمة الكويتي،الذي لم يسبق له قط أن قدم استجوابا لوزير الداخلية عن أي حادثة لانتهاك حقوق الإنسان،مع وقوع عشرات الضحايا،وبتقارير لمنظمات دولية،دون وجود أي محاسبة لأي مسئول!

فعرفت كيف يصنع الاســـتبداد النـــاعم معارضـــة شرســـة في الظاهر،تضـــفي عليـــه الشرعية،لتكتمل صورة الديمقراطيـــة في دســـتور يكـــرس الاســـتبداد،وبرلمان يجمـــل

صورته،ومؤسسات عدلية تجعل من الظلم عدلا في عيون الشعوب المنكوبة،واستقلال صوري تحت نفوذ أجنبي!

ضرورة الحرية والتحرر من الاستبداد والاستعمار:

وازداد إيماني بضرورة الحرية والتحرر من الاستبداد والاستعمار،وازددت يقينا أننا لسنا سوى عبيد بلا أغلال بل وعبيد بالأغلال،حيث نرسف في أبشع صور العبودية من حيث نظن أن هذه هي الحرية!

لقد شاعت أجواء الهزيمة والانهزامية في الوسط السياسي الإسلامي والقومي والليبرالي على حد سواء،وكان أقصى أماني تلك التيارات في العالم العربي كله — إلا في حالات استثنائية لبعض الفصائل هنا أو هناك أو بعض قياداتها العصية – أن يحالفوا الأنظمة ويركبوا القاطرة،وبدأ التنظير لمد الجسور مع الأنظمة،وسقط الرهان على الشعوب وقدرتها على التأثير والتغيير،وكان الليبراليون يتطلعون إلى ديمقراطية تفرضها أمريكا على حكوماتهم التي تقع فعلا تحت الاحتلال الأمريكي!

والإسلاميون يريدون من حكوماتهم التي تحالفوا معها أن تقيم الإسلام وإن كانت تحت الاحتلال الأمريكي!

فصار الليبراليون يطمعون في حرية وديمقراطية في أوطان هي أصلا بلا سيادة ولا استقلال ولا حرية!

والإسلاميون يريدون أن تحافظ حكوماتهم تحت الاحتلال الأمريكي على الإسلام الافتراضي وعالمهم الخيالي الخاص بهم الذي لا وجود له على أرض الواقع السياسي!

وقد كنت التقيت في مؤتمر الوحدة الإسلامي في الكويت قبل سنوات بسيف الإسلام حسن البنا،وكانت حركة كفاية قد بدأت نشاطها في الشارع المصري آنذاك،ولم يكن يعيقها سوى سلبية التيار الإسلامي العريض،فقلت لسيف الإسلام:كيف وصل الحال بكم أن تتراجعوا عن قيادة الشعب المصري في مواجهة هذا النظام حتى قادته حركة كفاية مع أنكم كإسلاميين وبكل فصائلكم الأكثر شعبية؟

فقال:نعم لقد تأخرنا كثيرا وكنت أنصح الإخوان بالمبادرة في قيادة المعارضة...

لقد جاء احتلال أمريكا للعراق سنة ٢٠٠٣م فكان الزلزال الذي هز ضمير شعوب العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه،وكشف آخر أوراق التوت عن سوءة النظام الرسمي العربي الذي تشكل بعد كامب ديفيد،وهزني سقوط بغداد كمواطن عربي مسلم من الأعماق،وظهر لي إلى أي مدى خطير بلغ فساد الخطاب الديني في العالم العربي!

وعبرت عن حزني بقصيدتي يوم سقوط بغداد:

بغداد عذرا ومثلي كيف يعتذر! والروم تحشد من أرضي وتأتمر!

وقد دعوت في آخرها إلى الثورة وتغيير هذا الواقع البائس!

يا أيها العرب الأحرار هبوا فما ينجي من الموت لا خوف ولا حذر

دكوا العروش التي أضحت بلا شرف وأشعلوا النار فيها إنها الخطر

وقد أصدرنا قبيل شن الحرب على العراق بيانا باسم الحركة السلفية ندين فيه هذه الحرب الاستعمارية الجديدة التي سيكون ضحيتها العراق وشعبه وليس النظام فقط،بل والعالم العربي كله،فإذا المستشار السياسي للسفير الأمريكي في الكويت ريتشارد بيل يطلب لقاء معنا من خلال الاتصال برئيس المكتب الإعلامي للحركة آنذاك الدكتور ساجد العبدلي،وزارنا وتم اللقاء بتاريخ ٣١/١٢/ ٢٠٠٢م وبحضور أعضاء المكتب السياسي في الحركة السلفية،وأخذ يتحدث بلهجة غاضبة كيف يصدر بيان ومن الكويت ضد الولايات المتحدة التي حررت الكويت!

وقلت له بأن الكويت لم تتحرر بعد وقد حولتم الخليج العربي كله إلى قواعد عسكرية لكم،تشنون حروبكم الاستعمارية منها على العالم العربي والإسلامي،ونحن من يدفع فاتورة هذه الحروب اقتصاديا وسياسيا وأمنيا!

ودار حديث طويل تم نشره حينها في صحيفة الرأي العام وغيرها من الصحف،وكتبت مقالا في صحيفة الرأي العام حول تلك الزيارة بتاريخ ٢١/٥/ ٢٠٠٣م بعنوان (أمريكا ونساء الخليج)!

حيث جاء فيه (لم كل هذا الاهتمام الأمريكي بحقوق المرأة السياسية في منطقة الخليج العربي؟ وهل يعقل أن يكون المدخل الصحيح للإصلاح السياسي الديمقراطي البدء بحقوق

المرأة قبل حقوق الشعوب ذاتها؟ أليس تناقضا فاضحا الحديث عن حقوق المرأة السياسية في دول لم تحصل الشعوب فيها بعد على حقها في اختيار حكوماتها ولا يوجد فيها حرية حقيقية ولا تعددية ولا أحزاب سياسية؟! ما هو السر وراء كل هذا الاهتمام الأمريكي بالمرأة في الخليج إلى حد الضغط على حكومات المنطقة لتبدأ الإصلاح السياسي بها،وعدم الاكتراث في المقابل بالأساس الأول للنظام الديمقراطي وهو حق الشعوب في اختيار حكوماتها؟! هذه الأسئلة وجهناها للمستشار السياسي للسفير الأمريكي في زيارته لنا بتاريخ ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٢ مع تأكيدنا له بأننا نرفض مبدأ التدخل في شؤوننا الداخلية وأننا نفضل تحقيق تطلعاتنا بجهدنا الذاتي ولو بعد عشر سنين على أن تتحقق بعد سنة بضغط خارجي فحار جوابا ثم قال:أرأيتم هذه الطاولة التي بين يدي وهذه الأكواب التي عليها إذا لم أستطع قلبها ماذا أفعل؟ ثم قال:بالطبع يمكن إعادة ترتيب الأكواب من جديد إذا لم نتمكن من قلب الطاولة بشكل كامل؟!

و لم يقنعنا جواب المستشار الأمريكي،لأننا أصلا لم نكن نجهل الإجابة عن ذلك السؤال بل ندرك أبعاد وأهداف كل هذا الاهتمام بالمرأة التي هي المدخل الطبيعي للتغيير الثقافي لفتح المنطقة على مصراعيها أمام الثقافة الغربية وقيمها الأخلاقية في مجتمعات محافظة لا تعاني المرأة فيها من مشكلة بقدر معاناة الشعوب نفسها من الاستبداد السياسي ومصادرة حقوقها وحرياتها السياسية مع كون حكوماتها حليفة منذ نصف قرن للولايات المتحدة التي اكتشفت فجأة أن الإصلاح السياسي في الخليج يبدأ بالمرأة لا بالشعوب؟!

بالطبع لا يمكن تصديق أمريكا بأنه يهمها موضوع الديمقراطية والحريات السياسية في المنطقة إلا إذا صدقنا أنها جاءت بجيوشها وأساطيلها من أجل تحرير الشعب العراقي لا من أجل احتلاله والسيطرة على ثرواته!!

هدف أمريكا الحقيقي من احتلال العراق:

لقد اكتشفت أمريكا أن العالم لن يصدق أن الهدف من الحرب على العراق هو إقامة نظام ديمقراطي ومن أجل تداول للسلطة سلمي،في الوقت الذي ما تزال حكومات المنطقة الحليفة لها تحكم شعوبها بشكل استبدادي فلا صحافة حرة ولا أحزاب معارضة ولا

تعددية سياسية ولا حرية حقيقية،بل هي المنطقة الوحيدة في العالم العربي كله التي تحظر قيام الأحزاب السياسية التي لا يتصور قيام تعددية وحرية من دونها؟!

لقد أدركت أمريكا أنه لا بد من حل هذه الإشكالية بشكل مقبول يثبت للعالم مدى اهتمامها بموضوع الحرية والديمقراطية في الخليج كله وليس فقط في العراق،وأن الدول الحليفة لها في المنطقة تسير هي أيضا في هذا الطريق بشكل سلمي دون حاجة لخوض حرب معها من أجل تحرير شعوبها منها كما حصل في العراق! فتفتق ذهن الساسة في أمريكا عن هذا الحل الذي يرفع عنها الحرج ولا يضر حلفاءها في المنطقة! فلتكن البداية بحقوق المرأة التي لا تمثل مشكلة بالنسبة لحكومات المنطقة،بل هي محل قبول لديها ما دامت ستؤجل طرح موضوع حقوق الشعوب في منطقة الخليج باختيار حكوماتها عن طريق الانتخاب المباشر،وهو ما لا تريده الحكومات ولا تريده أمريكا أيضا!

وإلا أليس غريبا أن تشارك دول المنطقة في حرب تحرير العراق من أجل إقامة نظام ديمقراطي هناك يقوم على التعددية والحرية السياسية والتداول السلمي للسلطة واحترام حقوق الإنسان بينما هذه الدول نفسها لم يتحقق لشعوبها شيء من ذلك؟!

كيف تشارك هذه الدول التي ما زالت تحكم شعوبها وفق مبدأ إقطاعي عشائري وراثي يقوم على تبعية الشعوب للحكومات لا العكس في حرب من أجل إقامة دولة ديمقراطية حديثة في العراق؟! وهل تحقيق هذا الهدف في العراق الذي يعيش كل التناقضات العرقية والطائفية والسياسية أسهل من تحقيقه في الدول الحليفة للولايات المتحدة في المنطقة والتي لا تتردد في تنفيذ ما تطلبه أمريكا منها ابتداء من الدخول في عملية السلام مع إسرائيل والعمل من أجل مكافحة الإرهاب بما في ذلك قطع المساعدات عن المقاومة الفلسطينية المشروعة وانتهاء بإقرار حقوق المرأة السياسية؟!

ما الذي يمنع أمريكا التي خاضت حربا مدمرة في العراق من أجل الديمقراطية أن تطلب من حلفائها في المنطقة احترام حقوق الإنسان والعمل من أجل إقرار مبدأ التعددية السياسية والسماح بإشهار الأحزاب ومشاركة الشعوب في اختيار حكوماتها بشكل مباشر في ظل ملكيات دستورية؟!

قطعا لا يوجد ما يمنع أمريكا من ذلك فشعوب المنطقة لا ترفض مثل هذه الإصلاحات السياسية بل تتوق إليها،كما لا تتعارض هذه الإصلاحات مع دين المجتمع وقيمه الحضارية،إذ الشورى السياسية وحق الأمة في اختيار السلطة ومشاركتها الرأي ومحاسبتها كل ذلك من مبادئ أصول الحكم في الإسلام وهي مبادئ مشتركة بين الإسلام والديمقراطية،فلم تغض الإدارة الأمريكية الطرف عنها مع أهميتها وخطورتها والتي هي الأساس لأي عملية إصلاح سياسي واقتصادي وتنموي وتشغلنا بدلا من ذلك بحقوق المرأة السياسية؟!

أعلم أنها أسئلة يصعب الإجابة عنها ولن يستطيع الليبراليون الخليجيون الإجابة عنها لأنهم هم أول من رفضوا دعوة الحركة السلفية إلى التعددية السياسية قبل ثلاث سنوات بدعوى أن الوقت لم يحن بعد فما زالت الشعوب في نظرهم قاصرة لتتمتع بحقوقها السياسية؟!

وسيجد سدنة العهد الأمريكي الجديد أن كل ما يبشروننا به من تهيئة المنطقة للعصر الديمقراطي ليس سوى خدعة كبرى وكذبة باردة في ليلة شاتية،لأنه كما جاء في الحكمة القديمة إنك لا تجني من الشوك العنب! فكل الأنظمة الحليفة للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة العربية منذ نصف قرن هي أنظمة دكتاتورية استبدادية عسكرية كانت أو ملكية،ولم نجد نظاما واحدا منها نجح في تطوير ممارساته السياسية طوال تلك المدة،ولا يهم أمريكا أن تتحول الحكومات الحليفة لها إلى أنظمة ديمقراطية بقدر اهتمامها بأن تظل مستعمرات أمريكية بشرط المبادرة إلى إقرار حقوق المرأة السياسية ولا عزاء للشعوب الخليجية؟!) انتهى المقال!

وقد قال ريتشارد بيل في ذلك اللقاء مع أعضاء المكتب السياسي للحركة السلفية:عليكم أن تحددوا موقفكم هل أنتم مع الإرهاب أم ضده؟

فقلت له:علينا أن نتفق على مفهوم الإرهاب أولا وهل تعدون ما يقوم به إيريل شارون من حرب على الشعب الفلسطيني إرهابا أم لا؟ وهل للشعوب الحق بمقاومة الاحتلال الأجنبي أم لا؟

وقد حذرته من خطورة تداعيات الحرب على العراق وأنها ستكون كارثية على العالم العربي وعلى أمريكا نفسها،وأنهم ستواجهون فيتنام الثانية هناك،وأننا مع حق الشعب العراقي في الثورة على النظام وتغييره بإرادة شعبية وطنية،وليس من خلال احتلال أجنبي للعراق بدعوى تحريره!

وقلت له أنتم لا تقرؤون التاريخ جيدا فالشعب العراقي لن يستقبلكم بالورود كما تزعمون،بل بالدماء والبارود،والمعارضة التي ستجيء على ظهر الدبابة معكم سترحل برحيلكم!

وقد كان ما حذرته منه فبعد احتلال العراق وتصاعد عمليات المقاومة العراقية طلب ريتشارد بيل لقاء ثانيا معنا،ودار حديث طويل سأدعه حتى يأتي في وقته!

لقد كان زلزال احتلال العراق أشد وقعا على الصعيد العقائدي والفكري،منه على الصعيد السياسي والعسكري،فقد بلغ الخطاب الديني السني والشيعي الرسميين في سقوطهما قعر الهاوية،حيث نجح الاستعمار الجديد في توظيف الجميع في خدمته،وكما استصدر بريمر الحاكم العسكري الأمريكي للعراق فتوى من المراجع الشيعية بعدم مقاومة الاحتلال والاعتراف بحكومته التي جاء بها – مقابل مائتي مليون دولار كما جاء في بعض المذكرات – تم في المقابل صدور الفتاوى باسم السنة بوجوب طاعة بريمر وحكومته،وأنه يحرم مقاومته،وأنه يجب طاعة ولي الأمر في كل بلد وعدم الخروج عليه،وأن له أن يعاهد من يشاء ليدخل قواته في بلده..الخ

وتتابعت الفتاوى المشبوهة من الفريقين حتى وصل الأمر إلى القول بأن القتال مع الجيش الأمريكي هو من الجهاد في سبيل الله،وأن من يقاومه مفسدون في الأرض،يجب الأخذ على أيديهم! حتى امتلأت السجون بآلاف المصلحين الأبرار والمجاهدين الأحرار!

فإذا الاحتلال الأجنبي العسكري يرسخ أقدامه أكثر فأكثر باسم الإسلام،وبفتاوى أتباع السلف وأتباع آل البيت! والسلف وآل البيت من الطائفتين براء!

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن!

الانتفاضة العفوية:

لقد انتفض الشارع العربي بفطرته وعفويته،وشارك في المقاومة،إلا إنه عاد إلى أدراجه هادئا طائعا بعد أن تم تدجينه مرة أخرى بخطاب ديني! تارة بالفتاوى ونظرية المصالح والمفاسد،التي تكون دائما لصالح الاحتلال والاستبداد،وتارة بالسجن والتعذيب لمن يرفض الفتوى وطاعة ولي الأمر!

وانسحبت الحركة الإسلامية هي أيضا واستروحت لخطاب التدجين،وخفت صوتها ضد احتلال العراق،ودخلت العملية السياسية،وصارت جزءا منه في العراق كما في أفغانستان،وتحالفت مع حلفائه في العالم العربي كله من المغرب والجزائر إلى الخليج واليمن والأردن..الخ

لقد كانت قوة أمريكا وحلف النيتو المذهلة في الحرب التي تم تغطيتها إعلاميا في أفغانستان والعراق – بقصد الكشف عن مدى قدرة أمريكا العسكرية الهائلة – كافية في خلق ثقافة جديدة وهزيمة نفسية عامة لدى قطاع إسلامي عريض،سقط عنده خيار المقاومة فكريا وعقائديا،قبل أن يسقط عسكريا وواقعيا!

فلم تعد تسمع قوله تعالى:{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة:٢٤٩] ولا قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد:٧] كما كانت تردد قبل ذلك في كل مسجد في العالم الإسلامي أثناء الحرب مع الروس في أفغانستان!

بل وصار خطاب الهزيمة يتهم كل من يقاوم الاحتلال بالهوس والجنون والمغامرة!

وتغير الخطاب الإسلامي نحو الأسوأ حيث تجاوز كل المحظورات باسم الواقعية والحكمة حتى صارت الخيانة دينا،والعمالة للمحتل فلسفة وخلقا!

سقوط بغداد نهاية عصر وبداية عصر:

وقد أدركت منذ سقوط بغداد بأن المنطقة ستشهد تغييرا جذريا وأن تداعياته ستظل إلى عقود من الزمن،كما هي تداعيات سقوط فلسطين تحت الاحتلال الإسرائيلي!

وكان قد سألني ليلة سقوط بغداد الأستاذ الفاضل سيف الهاجري وكثير من الأخوة ماذا تتوقع بعد سقوط بغداد؟

فقلت لهم:سقوط بغداد نهاية عصر وبداية عصر،وستظل تداعيات الحدث قائمة حتى يسقط النظام العربي كله،وستشهد المنطقة ثورة عارمة خلال عقد من الزمن!

وقد أقسمت في لقاءات كثيرة بأنه لا كفارة للأنظمة العميلة على خيانتها لبغداد والعراق إلا بسقوط هذه الأنظمة وقيام أنظمة تعبر عن الأمة وإرادتها!

لقد سقط الخطاب الديني المشوه،وسقط معه رجل الدين الممسوخ،سقوطا لن تقوم له بعده قائمة بعد تحالفه مع الاستبداد ثم الاستعمار،إلا أن المشكلة هي في الخطاب الإسلامي البديل كيف سيكون! وكيف سيتشكل! ومن الذي سيحمله! وكيف يمكن مواجهة هذا الواقع الذي فرضه الاحتلال وحلفاؤه؟

هذا ما وقف المخلصون أمامه كتحد جديد خارجي وداخلي،وكان التداعي بينهم لأول لقاء سري،في سنة ٢٠٠٤م في مدينة... للتدارس في الأزمة التي تعيشها المنطقة العربية بعد سقوط بغداد،حيث كان مشهد سقوط النظام العربي الرسمي مروعا،فلم تكن هناك حكومات حقيقية،بل دمى يحركها سفراء الولايات المتحدة الأمريكية،في كل المنطقة العربية!

عدم وجود فهم حقيقي للشرع وللواقع عند الحركات الإسلامية:

لقد تداعى الإسلاميون المصلحون بعد سقوط بغداد سنة ٢٠٠٣م،لتدارس المخرج بعد حدوث هذا الزلزال الذي كشف المنطقة عسكريا وسياسيا وفكريا!

وبدأت اجتماعاتهم السرية للتحضير للقاء يضم قيادات العمل الإسلامي في المنطقة،وكان ممن ساهم في التحضير له كل من:

الدكتور إبراهيم...

والدكتور عبد الرحمن...

وكان أول لقاء لتلك القوى على اختلاف توجهاتها الفكرية والتنظيمية في مدينة... سنة ٢٠٠٤م،وقد شاركت في الإعداد له،وكنت حينها الأمين العام للحركة السلفية في الكويت،وكان بصحبتي الدكتور...،كما حضر من الكويت المهندس محمد... والمحامي

محمد... ممثلين عن....!

وقد اجتمعوا على اختلاف توجهاتهم – وسأترك تفصيل ما جرى لكتاب آخر – يحدوهم الإخلاص والصدق،وتنقصهم الرؤية والمشروع والعزيمة!

وقد طلب مني أن أعد ورقة وتصورا للمخرج من الأزمة،فتحدثت في أول لقاء نحو نصف ساعة عن واقع المنطقة العربية،وعن تورط التيار الإسلامي بتحالفات مشبوهة شلت قدرته عن الحراك والتغيير،وعن فقدانه للرؤية والمشروع،وعن عجز قياداته عن العمل والمبادرة!

وقد تحدثت عن بداية التحالف الإسلامي مع النظام العربي الرسمي منذ مشروع الرئيس الأمريكي آيزنهاور سنة ١٩٥٧م (مبدأ آيزنهاور) الذي تعهد فيه بحماية دول الشرق الأوسط من الشيوعية وحلفائها،وتبع ذلك تقديم دعم مفتوح لبعض الجماعات إسلامية،التي كانت تتعرض للاضطهاد في بلدانها،وتم توظيفها من حيث لا تشعر لمواجهة المد القومي الناصري،وتم تأسيس نواة ذلك المشروع الأمريكي لمواجهة الأيديولوجيا الشيوعية بأيديولوجيا عقائدية،وهو ما تفتقده الحكومات العربية الحليفة للولايات المتحدة،فرأت أمريكا ضرورة الاستفادة من التيار الإسلامي ليقوم بالمهمة،دون أن يصل إلى السلطة،وكان ترتيب ذلك التزاوج المشبوه قد تم في دول الخليج العربي وباكستان والمغرب والأردن،ثم بعد وصول السادات للحكم صار فجأة (الرئيس المؤمن)! وتم ترتيب التحالف مع الحركة الإسلامية فيها،وفتح الطريق أمامها للقيام بدورها في مواجهة الشيوعية والقومية،بدعم مصري رسمي،وازدادت العلاقة تشابكا بين الأنظمة العربية الحليفة للولايات المتحدة من جهة،وبعض الحركات الإسلامية من جهة أخرى،من المغرب إلى الباكستان،حتى إذا توج هذا التحالف بحرب تحرير أفغانستان من الروس،وبإسقاط الحكومة الشيوعية في عدن،في العقد الأخير من القرن العشرين،فإذا الولايات المتحدة وحكومات المنطقة تقلب لهم ظهر المجن،فقد انتهى دورهم ومهمتهم،ويجب إعادتهم للقمقم من جديد،وبدأت المواجهة لكل من يخرج عن الخط المرسوم أمريكيا،وفتحت المعتقلات لعشرات الآلاف في مصر وتونس والجزائر والمغرب والسعودية الخ خاصة

الحركات الجديدة التي خرجت عن السيناريو المرسوم للجميع،والتي لم تدرك طبيعة التحالف الحركي الإسلامي التقليدي والنظام العربي الرسمي!

ووصل الحال ببعض الحركات الإسلامية التقليدية على اختلاف توجهاتها في الخليج والجزيرة العربية أن مضت في تحالفاتها مع الحكومات حتى في ظل الحرب الصليبية الجديدة على العراق،والتي سقطت بعدها دول الخليج والجزيرة العربية من جديد تحت احتلال عسكري مباشر،ليتم توظيف التيار الإسلامي الرسمي والشعبي فيها مرة أخرى لا لمواجهة التيار الشيوعي أو القومي،بل لمواجهة التيار الإسلامي الرديكالي الرافض للاحتلال الأمريكي والحكومات الحليفة له!

وعاد قطاع واسع من التيار الإسلامي التقليدي المتحالف مع الأنظمة يصارع طواحين الهواء لا لمشروع سياسي إسلامي بديل،بل لصالح الأنظمة الحاكمة وللاستعمار الذي فرضها وحماها،كما بدأ صراعه مع التيار الليبرالي الذي انتعش في ظل سيطرة أمريكا على المنطقة،وبدأ الاستنفار الدعوي لخوض حروب وهمية،لا من أجل المشروع الإسلامي،إذ ليس لديهم مشروع أصلا،بل من أجل تكريس الواقع نفسه،الذي يعترفون بمشروعيته،مع أن دهاقنته وسدنته ليبراليون علمانيون مستبدون مدعومون من الاستعمار الغربي!

وظل المستفيد من كل هذه الصراعات القديمة الجديدة هو النظام العربي الرسمي المستبد،وحليفه الغربي المحتل،وظلت الأمة تدفع ثمن هذا الصراع الذي يكرس الواقع أكثر فأكثر!

وقد قلت في الكلمة تلك لو وجدت الأمة في الخطاب الإسلامي دعوة إلى العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة بالعدل،لما اجتاحت الشيوعية والاشتراكية العالم العربي في الخمسينات والستينات من القرن العشرين!

ولو وجدت الأمة في الخطاب الإسلامي دعوة إلى الوحدة ونضالا من أجلها،لما اجتاحت القومية العربية العالم العربي من المحيط إلى الخليج!

وها نحن نقع في الخطأ نفسه فالشعوب تتطلع إلى الحرية والخروج من هذه الحال البائسة،وإذا لم يستطع التيار الإسلامي أن يقدم حلا ورؤية لموضوع الحرية،فستجتاح

الليبرالية العالم العربي،لا لأن الشعوب لا تريد الإسلام،وإنما لأن الإسلام الـذي يعـرض عليها منذ سبعين سنة إسلام مشوه مختزل،يريد ربطها بالآخرة دون حل لمشاكلها وواقـع حياتها،بل ويتحالف مع الطغيان والظلم على حسـاب حريتـها وكرامتـها واسـتقلال أوطانها،وبدعوى أن الإسلام يرفض الثورة!

لقد فشل قادة التيار السياسي الإسلامي أو أكثرهم في فهم الإسلام نفسه،كما فشـلوا في فهم واقع شعوبهم وحاجاتها،فهم يريدون من الشعوب أن تستنفر في كل مـرة للوقـوف معهم باسم الدين،دون أن يقفوا مع الشعوب من أجل دنياهم!

لقد تبنى الملايين في العالم العربي الاشتراكية لا كفرا بالإسـلام،وإنما لأنهـم لم يجـدوا في الخطاب الإسلامي الرسمي ومؤسساته،ولا الشعبي وحركاته،دعوة حقيقية ولا نضالا مـن أجل العدالة الاجتماعية والمساواة!

كما تبنى الملايين من العرب القومية العربية لا كفرا بالإسـلام،وإنما لأنهـم لم يجـدوا في الخطاب الإسلامي ما يحقق لهم الوحدة التي هي الحل لضعفهم وهـوانهم،ودون مراعـاة لشعورهم القومي الذي يترع للوحدة والاستقلال عن الاحتلال!

تحالف الإسلاميون مع الأنظمة القمعية والمستعمر:

بل صار الإسلاميون فريقين فريق وطني قطري يستخف بكل دعوة للوحدة التي هي مـن أصول الإسلام وقطعياته {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَـتَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْـرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَـذَلِكَ يُبَـيِّنُ اللَّـهُ لَكُـمْ آيَاتِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَهْتَـدُونَ} [آل عمران:١٠٣]،وفريق شعوبي يحتقر العرب ويزدريهم بدعوى المحافظـة علـى الوحـدة الإسلامية!

وقد أطلت في نقد أداء التيار الإسلامي السياسي وكشف تحالفاتـه مـع الأنظمـة،حتى وصلت إلى موضوع احتلال العراق،وكيف وقف قطاع كبير منه مع حكومات المنطقـة التي تم تحويلها كلها إلى قواعد عسكرية للحملة الاستعمارية الجديدة على الأمـة،دون أن يؤثر ذلك على تحالفات هذا التيار مع الأنظمة!

وكان أشد الحضور تأثرا أكبرهم سنا وهو الدكتور الفاضل محمد عمر... والذي حـــاول الاعتذار عن الحركة الإسلامية والظروف الصعبة التي كانت تحيط بها آنذاك،إلا أنه اعترف بعمق الأزمة التي تعيشها،وغياب المشروع السياسي لديها!

ثم بعد أشهر تم عقد لقاء ثان بين ممثلي تلك القوى والتيارات وتم صياغة رؤية مشـــتركة للتعاون بين الجميع بما يدفع باتجاه الإصلاح السياسي في المنطقة،وبما يمكن معه لشـــعوب المنطقة مواجهة حدوث أي فراغ سياسي،حتى لا يتكرر ما جرى في العراق،وقد أعددت مسودة ذلك المشروع بتكليف من اللقاء الأول،وبعد يومين من العمل ومشـــاركة جميـــع ممثلي تلك القوى،في مدينة.... تم الاتفاق على المشروع الذي لم ير النور!

وبعد تلك الاجتماعات وفي لقاء آخر في بيروت صارحني الشيخ الفاضل الدكتور محمـــد عمر.. وكان معه الشيخ الطبيب حسين... وقال لي:يا دكتور حاكم مشروع التغيير الذي تدعون إليه لن يستطيع الإسلاميون والدعاة والمشايخ حمله فتبعاتـــه كـــبيرة فامضـــوا في طريقكم ولن يقفوا عائقا أمامكم!

وقد أكبرت في الرجل صدقه وإخلاصه وغيرته وحميته،وازددت إيمانا بأن الخطاب الـــديني المشوه يطبع الإنسان بالسلبية السياسية تجاه الاستبداد،وتجاه الاستعمار،فهو لا ينشـــد إلا الآخرة والنجاة لنفسه!

وبقدر فرحي بتداعي الجميع على اختلاف توجهاتهم لتلك الاجتماعات،بقدر ما أحـــزنني عجزهم وضعفهم وتشرذمهم وغياب الرؤية لديهم!

ورأيت ضرورة تأليف (تحرير الإنسان) لمعالجة الخلل الفكري والعقائدي لدى قطاع واسع من الأمة،فلم تعد المشكلة هي فقط في غياب مفـــاهيم الحريـــة في الخطـــاب السياســـي الإسلامي،الذي جاء كتاب (الحرية أو الطوفان) ليبعثه من جديـــد،بل الأزمـــة أعمـــق وأعقد،فهي تصل إلى الإنسان المسلم العالم والفقيه والداعية نفسه وكيف يتم تحريره مـــن العبودية لغير الله التي وصل إليها من حيث يظن أنه يعبد الله ويوحده!

وقد أخذت أدعو كل من لقيت إلى الخطاب السياسي القرآني والنبـــوي والراشـــدي،ولم أترك أحدا من أهل العلم والفضل إلا وسافرت إليه – وبرفقتي في أكثر تلـــك الأســـفار

الأستاذ المفكر...،والدكتور الفاضل... و لم نترك بلدا نستطيع الوصول إليه إلا ذهبنا إليه ندعو إلى ضرورة الإصلاح وتهيئة الشعوب للتغيير السلمي أو الثوري عند الضرورة!

وهو ما عبرت عنه صراحة سنة ٢٠٠٣م في كتابي الحرية أو الطوفان (ص ٣٥٨) بقولي (وإن هذا الخطاب – الراشدي المتزل – لن يتحقق إلا بمواجهة الخطاب المؤول والمبدل فكريا،ثم بالعمل على نشره ودعوة الأمة وحكوماتها إلى تبنيه بالطرق السلمية؛ لتبادر الحكومات نفسها إلى إصلاح الأوضاع وتدارك ما فاتها،وإلا فالواجب العمل على تغييرها بكل وسيلة ممكنة،سواء بالعمل السياسي السلمي أو بالعمل الثوري؛ إذ بقاؤها بقاء للاستعمار،ولا سبيل إلى زواله إلا بزوالها)!

وأمضينا نحوا من ثمان سنين (٢٠٠٣ – ٢٠١٠م) قضيناها في الترحال لا يقر لنا قرار،نستنهض همم الرجال،في كل بلد عربي،وفي كل مؤتمر عام أو خاص،ندعوهم للنهضة والعمل من أجل التغيير،ومن أجل الحرية والتحرير،فكان أكثرهم يعجبه الرأي،ويستبعد إمكانية حدوثه!

وكان للشيخ العلامة سفر الحوالي – شفاه الله – موقف مشرف فقد كان من أكثر الدعاة اهتماما بالدعوة للإصلاح والتغيير،وقد دعاني للقاء حين قدومي للعمرة سنة ٢٠٠٤م،ولم يتيسر لي اللقاء به،فتجشم عناء الحضور للمطار في جدة قبل مغادرتي،وكان معه الدكتور الفاضل عبد الرحمن النعيمي من قطر،وكان برفقتي الشيخ محمد...،وقد أثنى الشيخ سفر على ما ندعو إليه وعلى كتاب الحرية أو الطوفان وقال لي (هذا الكتاب فتح،وقد وفقك الله في تأليفه،ولم يؤلف في هذا الباب كمثل هذا الكتاب....الخ)،وأخبرته عن قيامنا بالتحضير للإعلان عن (حزب الأمة) في الكويت،وأنه حزب سياسي سلمي وأنه...!

ففرح بهذه الخطوة فرحا شديدا،فكان من أبعد الشيوخ نظرا،وأسدهم رأيا،وأعظمهم همة وعزيمة!

كما اتصل بي أحد الدعاة المشاهير سنة ٢٠٠٥م وأخذ يثني على كتاب (الحرية أو الطوفان) ويصفه بأنه (كتاب العصر وأنه لم يؤلف مثله...الخ) وأخبرني بأن وزارة الداخلية في بلده كلفت لجنة من خمسة أساتذة للاطلاع على الكتاب وكتابة تقرير عنه!

وقد كان بعض الدعاة يستخف بما كنت أدعو إليه من الإعداد للتغيير،والتحضير للمرحلة القادمة،والاستعداد وتهيئة الشعوب العربية للثورة،فكانوا يقولون هذه أحلام وأوهام،ويجب أن يكون خطابنا وسطيا لا تخدير فيه ولا تثوير!

وكأن هذه العبارة (لا تخدير ولا تثوير) أعجبتهم لحسن السجع فيها فاتخذوها عقيدة ودينا ومنهجا! مع فراغ مضمونها وإفلاسه فكريا وحركيا وأخلاقيا!

وكان لي مئات الجلسات والمناقشات مع العلماء والمفكرين والدعاة والمجاهدين حيث كنت أخبرهم بأن التغيير قادم،وأدعوهم إلى ضرورة الإعداد لملأ الفراغ السياسي حين حدوثه،حتى لا تتكرر كارثة العراق في بلد عربي آخر!

فكانوا بقدر إعجابهم بما أقول،استغرابهم مما أقول!

ثم جاءت مقابلتي في قناة الجزيرة في يناير سنة ٢٠٠٥م في برنامج بلا حدود مع أحمد منصور حول كتاب (الحرية أو الطوفان) والخطاب السياسي الإسلامي،وقد قال لي الأستاذ أحمد قبل الحلقة – وكان برفقتي الشيخ سيف الهاجري – لقد قرأت الكتاب ودهشت مما فيه! فأنا في الحركة الإسلامية منذ ثلاثين سنة لم أعرف بأن النظام السياسي الإسلامي يمكن أن تكون فيه معارضة وتداول سلمي للسلطة!

وقال:لقد كنا نعرف كل الأحداث التي ذكرتها في الكتاب إلا إننا لم نفهمها على هذا النحو الذي تم عرضها فيه!

فكانت تلك المقابلة إعلانا عن الخطاب السياسي الإسلامي الراشدي الجديد!

وكانت أصداؤها كبيرة،وكان يشاهدها كبار الملأ،كما أخبرت من جلسائهم،وكاد يجن جنونهم خاصة عندما سأل أحمد منصور:هل تعني أنه في الخطاب الراشدي لا ملكيات في الإسلام!

فقلت:نعم لا ملكيات في الإسلام!

وقد اتصل بي بعد المقابلة مباشرة الشيخ الفاضل عبد المجيد المبارك من بريطانيا وقلت له:هذا تأويل رؤياك قد جعلها ربي حقا!

وهي رؤيا الشيخ التي أشرت إليها في حاشية مقدمة الكتاب دون أن أقصها،وكان قد حدثني بها حين زرت الأخوة في أمانة معاذ الخيرية بمدينة برمنغهام في بريطانيا سنة ٢٠٠٣م،قبل طباعة الكتاب،وصليت الجمعة هناك،فأخبرني الشيخ عبد المجيد أنه رأى رؤيا قبل صلاة الجمعة:بأنه جاء للمسجد فإذا أنا أصلي بالناس إماما،ثم قمت فخطبت فيهم،فقال رجل:ألا تخشى أولئك ويشير بيده نحو أهل الخليج والجزيرة العربية؟

فقلت له:"مَنْ أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَا اللَّهِ كَفَاهُ النَّاسَ،وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ "![929]

فقام آخر فقال:ما ذكرته هو الحق وقد سبقك إليه الإمام الغزالي صاحب كتاب (إحياء علوم الدين)...الخ!

فلما فرغ الشيخ عبد المجيد من قص الرؤيا قلت له:لعل الرؤيا بشرى خير! فأنا عاكف على مراجعة مسودات كتاب (الحرية أو الطوفان)،وقد يكون له من الشهرة والأثر في إحياء الخطاب السياسي الإسلامي ما كان لكتاب الغزالي من شهرة وأثر في إحياء علوم الدين،بعد حالة الانحطاط الروحي التي عاشها المسلمون في عصره!

كما استنبطت من الرؤيا من هم الذين سيتصدون للخطاب السياسي الإسلامي الراشدي الذي بشر به الكتاب،وأن أدعياء السنة هم أول من يحاربون الخطاب الراشدي ويذودون عن المحدثات وعن سنن الملك العضوض باسم السنة وسلف الأمة!

وبعد تلك المقابلة مباشرة قرر الملأ ضرورة محاصرة هذا الفكر!

وفي الرؤيا إشارات لم يقع تأويلها بعد!

لقد كانت دعوتي للثورة من منظور شرعي استجابة طبيعية للظروف التي جعلت من الثورة خيارا وحيدا،بعد أن فشلت كل المحاولات الإصلاحية في العالم العربي للخروج من هذا المأزق التاريخي،وآل أمر كل قيادات الإصلاح إلى السجون والمعتقلات،وسدت أمامهم كل الأبواب والطرقات،وقد أدرك عدد من نقاد كتابي (الحرية أو الطوفان) أبعاد الدعوة وأسبابها،كالكاتب الكبير فهمي هويدي،وغيره ممن تعرضوا للكتاب بالدراسة

---

[929] – الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٣٥)(٩١٠) صحيح مرفوعا وموقوفاً

والنقد بعد صدوره،ومن أبرز تلك الدراسات حول الكتاب مقال (قراءة في أوراق الإصلاح العربي) 'الحرية أو الطوفان' مواجهة مع ميراث الاستبداد والطغيان:بقلم محمد أبو رمان..

٢٠٠٥/٩/٢٩ مجلة العصر..

وجاء فيه (يمثل جزء كبير من التراث والفقه السياسي الإسلامي عقبة رئيسة أمام تقدم حركة الإصلاح العربي اليوم،وعلى الرغم من الجهود التي بذلت طيلة القرن الماضي للتغلب على ما في هذا التراث من قيم وأحكام وأدبيات – تختزل المفاهيم والممارسة السياسية في علاقة الطاعة والخضوع للحاكم وتكرس الاستبداد– إلاّ أنّ تأثير هذا التراث السلبي ما زال حاضرا بقوة في الحس الإسلامي العام،ولما تستطع بعد كل المحاولات المبذولة هدم هذا الجدار الثقافي والنفسي الذي بناه التراث والخبرة التاريخية الإسلامية ضد إقبال الناس على ممارسة سياسية سليمة،بل على النقيض من ذلك فإن السياسة لدى التيار الشعبي العريض من الناس بمثابة الشجرة الملعونة التي يحظر الاقتراب منها. وهذا الانطباع السائد لا يقف عند حدود الثقافة الشعبية ودلالاتها،لكن أيضا لدى النخب المثقفة التي تحمل وعيا حذرا اتجاه الموضوع السياسي.

من هنا يعتبر اتجاه عريض من الباحثين والمفكرين أنّ أحد أهم شروط مضي حركة الإصلاح السياسي العربي قدما،وضمان اكتسابها القاعدة الاجتماعية والشعبية المطلوبة يتمثل في التخلص من الظلال والعبء الذي يضعه هذا التراث أمام مسيرة هذه الحركة وتطورها،الأمر الذي يتطلب مجهودا فكريا ومعرفيا كبيرا يقوم على إعادة بناء أحكام الفقه السياسي الإسلامي التي عكست الخبرة التاريخية العربية،أكثر مما عكست منطق الوحي الرباني من ناحية،وغربلة التراث الإسلامي – من ناحية أخرى– بما يكفل نقده نقدا منهجيا موضوعيا ثم إعادة توظيفه بما يخدم حركة الإصلاح ويدفعها إلى الأمام.

في هذا المجال بذلت جهود كبيرة في القرن الماضي،خاصة مع جهود الإصلاحية العربية الأولى،وقد بدأ هذه الجهود جمال الدين الأفغاني ورفيقه محمد عبده وتلميذه رشيد رضا وخير الدين التونسي ومعهم عبد الرحمن الكواكبي،إلاّ أن هذه الجهود لم تصل إلى النفوذ

والتأثير الكبير داخل الحس الإسلامي العام نظرا للقطيعة الفكرية والسياسية الذي أحدثته معها فيما بعد الحركات الإسلامية،بذرائع مختلفة تتلخص باتهام الإصلاحيين الأوائل بالتواطؤ مع الاستعمار الغربي أو تهمة تطويع الدين لتبرير الحداثة،وربما أدت مقالة علي عبد الرازق (في نقد نظرية الخلافة) من خلال كتابه (الإسلام وأصول الحكم) دورا معاكسا تماما لما أريد لها،إذ أعطت دفعا وتبريرا للمخاوف من وجود محاولات داخل النسق الفقهي والفكري الإسلامي لإقصاء الإسلام عن المجال السياسي العام.

وعلى الرغم من رفض مرحلة الإحيائية الإسلامية للتراث السياسي القديم وتأسيسها لممارسة سياسية إسلامية تتجاوز مقولات الخضوع للسلطة والطاعة وتكفير المعارضة،إلاّ أنّ انصباب جهود الإحيائيين (الحركات السياسية الإسلامية) على الجانب العملي وإغفال الجانب الفكري والمعرفي وتغول مشروع الصراع السياسي مع السلطات العربية الحاكمة،أدى إلى استمرار الدور السلبي للتراث الإسلامي في الحس الشعبي العام،خاصة مع وجود بعض الاتجاهات الإسلامية التقليدية من ناحية والدينية الرسمية من ناحية أخرى التي تعيد الاعتبار لهذا التراث وتؤسس عليه مواقفها وممارستها السياسية السلبية لخدمة السلطة،من خلال التأكيد على لزوم طاعة السلطة وتحريم الأحزاب السياسية والمعارضة وتضييق مساحة الحريات السياسية ومصادرة مبادئ حقوق الإنسان بذريعة حداثتها وعدم وجود سند من التراث الإسلامي يرفدها.

في المقابل،استأنف عدد من المفكرين والباحثين في المجال الإسلامي مقولات الإصلاحيين الأوائل،وتزايدت في السنوات الأخيرة الجهود الفكرية والمعرفية في محاولة نقد التراث الإسلامي وغربلته والتأسيس لفقه سياسي جديد،ومن هذه المحاولات... والجهود الجديدة في غربلة التراث وإعادة بناء الفقه السياسي الإسلامي يجدر الوقوف أمام كتاب صدر مؤخرا للدكتور حاكم المطيري أحد القادة الإسلاميين في الكويت بعنوان "الحرية أو الطوفان:دراسة موضوعية للخطاب السياسي الشرعي ومراحله التاريخية" (دار الفارس،عمان،٤)،والكتاب أثار ضجة منذ صدوره،إذ جاء في بيئة سياسية وفكرية محافظة

ينتشر فيها الوعي السياسي السلبي،والاتجاه السلفي الإحيائي،الذي يعطي هالة كبيرة للتراث وما يتضمنه من إنتاج فكري وسياسي.

تبرز القيمة الحقيقية لـ"الحرية أو الطوفان"،أنه يعيد قراءة النصوص الشرعية السياسية بما يناهض قيم الطاعة والخضوع والاستسلام للسلطة السياسية ومصادرة حق المعارضة والحريات العامة،وبالإضافة إلى تأكيد الكتاب على مفهوم العقد السياسي المشروط ومفهوم السلطة المقيدة وسحب البساط من تحت نظرية تسويغ الاستبداد،والكتاب يقدم رؤية نقدية للتراث تربطه بمراحل تطوره وشروطه التاريخية وتترع عنه الهالة التي لبسها لدى العديد من الناس.

ويؤسس المطيري لشرعية مفهوم الثورة في الفقه السياسي الإسلامي لينقله من دائرة "الحرام" إلى دائرة "الواجب" إذا أخل الحاكم بعقده مع الشعب،وهي مقاربة على الرغم من ارتباطها،في كتاب المطيري،بالنسق الإسلامي العام،إلاّ أنها تذكرنا بوضوح برؤية جان لوك رائد الليبرالية السياسية ونظريته في العقد الاجتماعي... من ناحية أخرى تمثل مقالة المطيري استئنافا لجزء حيوي من مضمون الخطاب الإصلاحي الأول خاصة في مجال العقلانية والواقعية التي تسمح أكثر بالاقتراب من الإصلاح السياسي وإعلان الحرب على ميراث الاستبداد والطغيان المحشو في تراثنا الفكري وخبرتنا التاريخية) انتهى.

لقد كان كل ما يحتاجه الشباب الإسلامي- الذي يمثل أوسع التيارات الشعبية في العالم العربي - هو الخطاب الإسلامي الذي يبعث فيه الروح الثورية من جديد،تلك الروح التي طالما دعا لها سيد قطب في كتبه،وأطفأها الخطاب التقليدي الذي يفتقد لروح التجديد والمبادرة،وقد وجد الشباب في كتاب (الحرية أو الطوفان) بغيتهم،فصار دستور الحركة الثورية الشبابية الجديدة في أوساط التيار الإسلامي في كل بلد،كما ستكشفه عشرات الرسائل التي سيقف عليها القارئ لهذه الأسطورة!

لقد كان للتيار الإسلامي التقليدي دور رئيس في تكريس هذا الواقع السياسي بسبب تحالفاته مع السلطة في كثير من الدول العربية،وكان لا بد من بعث الروح في أجياله الجديدة دون مواجهة مباشرة مع قياداته!

حصار المطيري والحرب الإعلامية عليه وعلى فكره:

ثم بدأ الحصار والحرب الإعلامية لمواجهة ما ندعو إليه،وبدأت حرب الصحافة المأجورة ضدنا،حتى خرج كاتب ليبرالي كما يزعم،ومستشار لرئيس الوزراء سابقا،ووزير لاحقا،ليكتب عني في صحفية كويتية بلا حياء ولا مروءة بأني (مروج مخدرات،وصاحب سوابق،وغسيل أموال)،وذلك بعد أن رأى قصيدتي (بغداد عذرا) منشورة بالنت!

فأدركت أن الملأ لا يتورعون في سبيل المحافظة على مصالحهم من اقتحام كل أبواب الرذيلة والإجرام،والافتراء والبهتان،في مواجهة كل من يرفض هذا الواقع ويعمل على تغييره!

وكانت الصحف قد امتنعت منذ الحرب على بغداد من نشر مقالاتي وتم إيقاف صفحة المشكاة التابعة للحركة السلفية في صحيفة الوطن آنذاك،مع أن الموقف الرسمي للحكومة حينها أنها ضد الحرب على العراق،كموقف الجامعة العربية ولا دخل لها فيها!

وقد كنت أرسل الردود للصحافة الحرة فلا تنشر!

وقد اعترف بعض رؤساء التحرير لنا بعد ذلك بأن هناك تعليمات من أعلى السلطات بأن لا يتم نشر أي شيء لكم ولا أي خبر عنكم!

ثم تتابعت المقالات والردود المدفوعة،ثم الكتب (الغوغائية) المشبوهة المطبوعة،في مطابع الاستخبارات العربية والخليجية ترد على كتبي وتصفني بأني خارجي ولست من أهل السنة!

واشتغل المأجورون بمقالاتهم في الانترنت لصرف الشباب عن كتبي!

فتارة يتهمونني بأنني ليبرالي تغريبي!

وتارة بأني خارجي إرهابي!

فالمهم عندهم أن لا أعرف ولا أوصف بأني سني سلفي،مع كوني الأمين العام للحركة السلفية!

وصارت توزع تلك الكتب في كل مكان وبالمجان! في الوقت الذي تمنع كتبي في أكثر البلدان! مما اضطر الشباب في كل بلد لسحب كتبي ومقالاتي من الانترنت،وتصويرها وقد

أخبرني أحد الدعاة المشهورين – فك الله أسره – بأنه صور وحده مئات النسخ من كتاب (الحرية أو الطوفان) لنشرها في مدينته!

وكان بعض قيادات العمل الإسلامي في مصر يوصي الشباب بكتاب (الحرية أو الطوفان)،وكان يقوم بتدريس الكتاب،وكانت الروح الثورية تبعث شيئا فشيئا من جديد في أوساط الشباب الإسلامي،الذي يمثل قوة شعبية كبرى،لا ينقصها إلا هذه الروح الثورية!

وهذه رسالة بيني وبين بعض هذه القيادات الشبابية للثورة تكشف جانبا من هذه الأسطورة:(رسالة من ميدان التحرير)

التاريخ...٢٠١١/٤/٥م

شيخنا الحبيب أحييك من أرض الكنانة مصر..

وأقبل قدمك قبل يدك،لما قدمته للأمة من خلال مؤلفاتك القيمة،والتي أزعم أن لها دورا كبيرا في الثورات المباركة الحادثة في البلاد العربية..

شيخنا الحبيب كما أضأت لنا الطريق في كيفية التعامل مع الحكام عن طريق مؤلفات تأصيلية ممتعة تجمع بين التراث والمعاصرة والواقعية،أود من فضيلتك أن تؤصل لنا أبحاثا عن المواضيع التي تشغل الملايين منا مثل:

١- الدولة في الإسلام هل هي مدنية أم دينية أم مدنية ذات مرجعية إسلامية؟

٢- المواطنة ومفهومها؟

٣- ترشيح المرأة للبرلمانات وتكييفها الفقهي هل هي ولاية أم وكالة أم شهادة؟

٤- التحالفات السياسة؟

٥- الديمقراطية وموقف الإسلام منها بين القبول والرفض أو القبول المشروط؟

٦- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي وحدود الولايات التي يجوز أن يتولوها في الدولة المعاصرة؟

أرجوك أن تأخذ رسالتي بمحمل الجد..

ابنكم المحب لكم عبد المعطى....

من أرض الكنانة – أرض الثورة،وأحد شباب الثورة،وشقيق أحد شهدائها...

رسالة الرد:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

أخي الحبيب عبد المعطي.. أحبك الله الذي أحببتنا فيه..

وأكرمك الباري ورفع قدرك،وأنا الذي أقبل يديك التي شاركت في الثورة المصرية المباركة ورفعت رؤوسنا..

أخي الكريم يسعدني التواصل معك،وسيترل في موقعي قريبا كتابي (نحو وعي سياسي راشد)،وسأحاول الإجابة عن الأسئلة التي أرسلتها لي قريبا بإذن الله..

حاكم المطيري.....

لقد كانت روح الثورة تنفخ في روح الجيل الإسلامي الجديد – بخطاب إسلامي سني قائم على النص والدليل – من حيث لا تشعر الحكومات،ولا الشيوخ في الجماعات!

وأكملت مهمتي في الدعوة في وسط التيار الإسلامي بكل مدارسه في العالم العربي من خلال التواصل مع الشباب وتزويدهم بالكتب والمقالات عن الحرية في الإسلام،وعن مشروعية الثورة السلمية،وعن مشروعية الثورة المسلحة.. الخ

وكانت الرسائل تصلني بالمئات،من كل بلد ومن كل تيار،وكنت أعلم من شأن تلك الجماعات والتيارات وما يجري من تحولات بين شبابها ما لا يعلم عنه قياداتها!

وقد كان صدى تلك الكتب ثم المقالات والدراسات كبيرا خاصة في أوساط الشباب،كما عبر عن ذلك كثير من الكتاب،ومنهم الكاتب الإسلامي الشاب طارق نافع – أحد أبرز قيادات الحركة الشبابية للتغير في الكويت – في مقال بعنوان (كتاب تكرهه الملوك) سنة ٢٠٠٨م حيث يقول:(كان النبي ﷺ يعرض الإسلام على القبائل ويعرّفهم به وكان ممن التقى بهم النبي ﷺ بنو شيبان فأخبرهم عن الإسلام وأن عليهم شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى يكونوا مسلمين فأجابوه قائلين " إن هذا الأمر الذي تدعونا إليه هو مما تكرهه الملوك"

أقدم تلك المقدمة التي يستشهد بها الدكتور حاكم المطيري في كتابه الذي صدر مؤخراً «تحرير الإنسان وتجريد الطغيان» وهو موسوعة بحق في السياسة الشرعية،كما أنه يحمل فكرة قلّما تطرّق إليها في كتاب ممن كتبوا في السياسة الشرعية،وهي فكرة ربط السياسة الشرعية بالجانب العقائدي بدءاً بكلمة التوحيد وانتهاء بقيام دولة الإسلام كما أمر الله سبحانه وتعالى.

أهمية كتاب تحرير الإنسان وتجريد الطغيان:

أهمية هذا الكتاب تنبع من كونه خرج في مرحلة حساسة من تاريخ الأمة عموماً،والحركات الإسلامية خصوصاً،التي وصلت في مطالبها السياسية إلى سقف تجد أنه من الصعب عليها اختراقه في إطار خطابها التقليدي،ولا في خطابها البراغماتي الواقعي حيث سدت في وجهها جميع الأبواب المشروعة لتحقيق مشروعها التي تبشر فيه منذ مطلع ثمانينيات القرن الماضي.

كتاب الدكتور حاكم المطيري «تحرير الإنسان وتجريد الطغيان» ليس أول كتبه التي ألفها،بل يأتي بعد كتابه الذي ذاع صيته في العالم الإسلامي وتلقفه أبناء الحركة الإسلامية باهتمام وعناية بالغة وكان بعنوان «الحرية أو الطوفان» هذا الكتاب الذي طرح أسئلة جديدة في أوساط الحركات الإسلامية وراجعت على إثره ولا تزال مجموعة حساسة من الأسئلة.

يأت كتاب «تحرير الإنسان وتجريد الطغيان» ليطرح عدة أسئلة من أهمها حقيقة منازعة ملوك الأرض وأنظمتها السياسية لسلطان الله تعالى وملكه،كما يناقش معنى الحرية وعلاقتها بالعبودية وفق الخطاب القرآني،ثم يربط كل ذلك بالخطاب العقائدي للسياسة الشرعية،وكيف تم تطبيق ذلك الخطاب عمليا في العهد النبوي والراشدي وكيف انحرفت الأمة عنه بعد ذلك؟!

كتاب يتناول تلك المباحث وغيرها سيكون هدفاً مستفزاً لأجهزة الرقابة الأمنية الجاهلة حتماً ولذلك فأنا لا أعتمد أبداً على حرية كثير من الأنظمة العربية في إجازة مثل هذا الكتاب بقدر اعتمادي على غبائها في عدم إدراك قيمة محتواه الذي سيكون له الأثر الكبير

في الخطاب السياسي للأمة في الفترة القادمة،كما أعتمد على وسائل الاتصال والانترنت التي جعلت أنواع ووسائل الرقابة على الكتب والفكر ضرباً من العبث وتضييع الوقت ليس إلا.

يذكر لنا التاريخ العديد من الكتب التي كان لها الأثر البالغ في رسم المشهد الإنساني والتأثير به،مثل كتاب «أصل الأنواع» لداروين وكتاب «رأس المال» لكارل ماركس ومؤلفات جان جوك روسو وهوبز ولوك وغيرهم وما أحدثوه من أثر في العالم والتاريخ الإنساني،وكتاب الدكتور حاكم المطيري «تحرير الإنسان وتجريد الطغيان» هو من نوعية ومستوى تلك الكتب ولا أظنه إلا كتاب "مما تكرهه الملوك"). انتهى!

وما قاله الكاتب الفاضل هنا،قاله كثير من الكتاب والنقاد الذين اطلعوا على (الحرية أو الطوفان) وعلى (تحرير الإنسان)،كما صارحني به كثيرون كما سيأتي في الرسائل نماذج على ذلك من كل بلد عربي!

وقد بدأت بعض الحركات الإسلامية تتنبه لخطورة هذا الفكر على قواعدها الشبابية،وبدأت التعليمات تصل إليهم بعدم الاتصال بي،والتحذير مني ومن كتبي!

إلا أن التحذير جاء بعد أن فاتهم القطار،وطارت الفكرة الثورية كل مطار،وأشربتها العقول والأرواح،وبدأت الثورة في عالم الأفكار قبل عالم الأشباح،وصار لا حديث للشباب – حيثما لقيتهم في كل بلد – إلا عن الثورة والتغيير؟ ومشروعية ذلك؟ وكيف يبدأ به؟ فعلمت أن أوان فجر الثورة قد أزف والطغاة عنها لاهون وفي غيهم سادرون،بينما الشباب لها عاملون ومن أجلها يخططون ويفكرون![٩٣٠]

(الاحتلال الأمريكي والسجن العربي)

بقلم د. حاكم المطيري

الخميس ٢٠/١٠/٢٠١١م

---

[930] http://website.informer.com/visit?domain=dr-hakem.com-

ظلت الولايات المتحدة الداعم الرئيس للأنظمة العربية الدكتاتورية مدة ستين عاما – كما اعترف بذلك صراحة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن – فلم تكن أمريكا العدو الأول للمقاومة المشروعة ضد الاحتلال الأجنبي في العالم العربي – التي شنت أمريكا عليها الحرب باسم (مكافحة الإرهاب) – بل كانت العدو الأول لشعوب العالم العربي ولكل قوى الإصلاح السياسي السلمي،حيث وقفت الولايات المتحدة مع كل الأنظمة العربية الفاسدة والمستبدة من المحيط إلى الخليج،وكان الجميع يدفع ثمن هذا الدعم الأمريكي المطلق لتلك الأنظمة،حيث تحول العالم العربي إلى سجن كبير لكل معارض سياسي،بل سجن كبير لكل الشعوب العربية خاصة بعد اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨م،ثم بعد حرب ١٩٩٠م في الخليج العربي والتي أصبحت الولايات المتحدة بعدها القطب الأوحد في العالم،وما تبع ذلك من توقيع اتفاقية أوسلو وعقد مؤتمر مدريد بين العرب وإسرائيل،وكان من آثاره التعاون الأمني للقضاء على كل من يرفض الشرق الأوسط الجديد التي ستكون فيه إسرائيل حجر الزاوية،وجاء الرئيس الأمريكي بل كلينتون بمشروع (تجفيف منابع الأصولية) ليتحول العالم العربي كله إلى أكبر سجن في العالم من أجل تحقيق أمن إسرائيل!

وقد عبرت آنذاك عن تلك المؤامرة بمقالتي (رقص في مدريد) المنشورة في صفحة المشكاة في صحيفة الوطن سنة ١٩٩٧م حيث قلت فيها (جميل جدا ومضحك أيضا رفض إحدى المجلات الأسبوعية للتكفير،فقد صار للإسلام ـــ أخيرا ـــ مكان في هذه المجلة،التي بدأت ماركسية حمراء،ثم تحولت ـــ بالقوة ـــ إلى ليبرالية صفراء تميل حيثما مالت بها الأهواء! فشرقية إن كان الهوى شرقيا،وغربية إن كان الهوى غربيا،تتعامل مع المبادئ والأفكار كما يتعامل التجار في سوق الخضار،كل يوم تعرض بضاعة جديدة،أو لسنا في بلد تجاري؟!

ولم يكن بين دين (هذه المجلة) القديم،ودينها الجديد سوى حفل مدريد،وما أدراك ما حفل مدريد!!

ذلك الحفل الذي أصبح كصندوق الحاوي،ما أن يخرج منه شيء غريب فيدهشك،حتى يتبعه ما هو أكثر غرابة فيصعقك،فقد انقلب بعده الماركسيون العرب إلى باركليسيين ليبراليين؟!

وتحول الاشتراكيون إلى رأسماليين!

وتحالف الديمقراطيون مع أنظمة العسكر الديكتاتوريين!

ولبس الراديكاليون أقنعة الليبراليين!

وتكلم العلمانيون باسم الدين!

ودافع أدعياء الدين عن العلمانيين!

واجتمع العرب والإسرائيليون في خندق واحد لمواجهة الأصوليين!

وخرج علينا من الإسلاميين ـــ بعد مؤتمر مدريد ـــ من يبرر نظرية (دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر)!

ومن يرى الإسلاميين أشد خطرا على الأمة من العلمانيين!

ومن يرى توحيد الحكم لله من فروع الشريعة،وطاعة الرؤساء من أصول الدين!

ومن يتورع عن إطلاق وصف العلمانية على العلمانيين،ولا يتحرج من إطلاق وصف الخوارج المارقين على العلماء والمصلحين!

واختلطت الأوراق،والحابل بالنابل،والأحمر بالأصفر،وصار كل يحاكي الآخر في صوته وحركاته،ويرقصون طربا،في حفلة تنكرية،في ليلة صاخبة،أمسى فيها الهلال سداسيا،فما عدنا نعرف فيها الليبرالي من الراديكالي،والإسلامي من العلماني،والعربي من الإسرائيلي في حفل كانت قرابينه وضحاياه أرض الله المباركة فلسطين،وعباد الله المؤمنين؟!

كل ذلك حدث ـــ فقط ـــ بعد حفل مدريد،وما أدراك ما حفل مدريد !!

ومن كان يظن أن إسرائيل ـــ والغرب من ورائها ـــ لا تحمل عداوة للإسلام،ولا تضمر شرا لأهله ودعاته،بكل وسيلة،بدعوى مواجهة الأصولية في الشرق الأوسط،من ظن ذلك فإنما يظن كفراً وينكر واقعاً!

لقد أصحبنا بعد ذلك الحفل نعيش حالا مضطربة،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ،يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا،أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا،يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[931]

حال أحد مظاهر جنونها ما جاء في خطاب (هذه المجلة) الجديد الذي لم يكن سوى أثر من آثار تلك الليلة الليلاء،والحفلة التنكرية الحمراء،التي لبس فيها الجميع أقنعتهم وأخفوا وجوههم،فصارت (هذه المجلة) والطليعيون حمائم سلام،ودعاة إسلام،يرفضون تكفير المسلمين وإخراجهم من الدين،بعد أن كان الدين تخلفا،ورجعية،وأفيونا للشعوب،ولا إله والحياة مادة؟! .... فهل رأيتم أو سمعتم بمثل هذا الجنون؟! إنه أثر خمرة تلك الحفلة التنكرية،ونشوة حفلة مدريد،وما زالت الأقنعة على الوجوه،وما زال الحفل الصاخب مستمرا،وما زال في صندوق الحاوي غرائب وعجائب،ألا سحقا لحفل مدريد!)! انتهى المقال..

لقد جاء الرئيس الأمريكي بل كلينتون بعد مؤتمر مدريد بمشروع (تجفيف المنابع)،ثم جاء بوش الابن بمشروع (مكافحة الإرهاب)،كل ذلك لفرض الهيمنة والسيطرة على العالم العربي!

لقد سبق أن شهد العالم العربي الظاهرة نفسها قبل قرن تقريبا،حين بدأ احتلال بريطانيا للمنطقة مع فرنسا وإيطاليا ما بين ١٨٨٠م – ١٩٢٠م،فلم يسلم زعيم عربي آنذاك ولا عالم ولا شاعر من السجن أو النفي للجزر على يد الاحتلال الغربي الصليبي للعالم العربي!

فقد تم في مصر نفي الزعيم المصري أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي وعبد الله نديم – بعد الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م وبعد فشل الثورة العرابية – إلى سيلان وبقوا في المنفى نحو عشرين سنة،ولم يرجعوا إلا في آخر حياتهم وبعد مرضهم!

ثم بعد الحرب العالمية الأولى تم نفي سعد زغلول وإسماعيل صدقي ومحمد محمود وحمد الباسل سنة ١٩١٩ إلى جزيرة مالطا،ثم تم نفي سعد زغلول مرة ثانية إلى جزيرة

---

931 – صحيح مسلم (١/ ١١٠)١٨٦ – (١١٨)

[ش (بادروا بالأعمال فتنا) معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر]

سيشل،ونفي أحمد شوقي إلى أسبانيا من ١٩١٥ إلى ١٩٢٠ لدعوته الأمة للدفاع عن الخلافة العثمانية في الحرب العالمية الأولى!

وفي الجزائر تم نفي الزعيم المقاوم الأمير السيد عبد القادر الجزائري بعد مقاومته للاحتلال الفرنسي للجزائر في القرن التاسع عشر،حيث وضع تحت الإقامة الجبرية في باريس،ثم نفي في آخر حياته إلى دمشق..الخ

وتم نفي الأمير عبد الكريم الخطابي بعد مقاومته للاحتلال الأسباني وبعد ثورة الريف ١٩٢١م.

وتم إعدام الزعيم الليبي عمر المختار بيد الاحتلال الإيطالي وبتهمة الإرهاب!

وبعد احتلال بريطانيا للعراق في الحرب العالمية الأولى تم نفي السيد طالب النقيب إلى الهند بعد دخول بريطانيا للبصرة..الخ

كما تم نفي الشيخ الأمين الشنقيطي من الكويت بعد وقوفه ضد الاحتلال البريطاني وخرج إلى القصيم وفرض عليه هناك عدم الخوض في السياسة!

كما تم نفي الشريف حسين بن علي إلى قبرص بعد أن تحدى بريطانيا حليفته وأراد إعلان الخلافة العربية سنة ١٩٢٣م..الخ

فما انتهت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م إلا وقد كان العالم العربي من الخليج إلى المحيط تحت سيطرة الاستعمار الغربي الذي جاء بدعوى تحريره من الحكم العثماني،فإذا العرب جميعا قد أصبحوا في (سجن استعماري كبير)!

وما إن ظن الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي والأسباني أن الأمر قد استتب له،وأنه نجح في القضاء على زعماء الأمة وعلماء الملة بين نفي وسجن وإقامة جبرية،فإذا الثورة تتفجر في كل أرض ومصر!

فلم يفرح الاحتلال بالنصر حيث تفجر بركان الثورة العربية الحقيقية – لا ثورة الشريف حسين المشبوهة – فكانت ثورة الشعب المصري سنة ١٩١٩م،وثورة الشعب العراقي سنة ١٩٢٠م،وثورة الشعب المغربي والسوري واستشهاد بطل ميسلون يوسف العظمة على يد الفرنسيين الخ

وها هو المشهد يتكرر مرة أخرى فلم تفرح الولايات المتحدة وبريطانيا وحلف النيتو باحتلال العراق وأفغانستان،حتى تفجر بركان الثورة العربية في كل مكان وفي الفترة الزمنية نفسها التي احتاجتها الثورات العربية ضد الاستعمار البريطاني والفرنسي وهي ما بين خمس وسبع سنين تقريبا!

لقد شهد العالم العربي بعد حرب الخليج سنة ١٩٩٠م وتفرد الولايات المتحدة بالسيطرة على المنطقة موجة من الاعتقالات وانتهاك الحريات في كل الدول التي تعد حليفة للولايات المتحدة!

ففي مصر امتلأت السجون بآلاف الشباب من الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد وتم قتل الآلاف وتصفيتهم!

وفي تونس تم اعتقال الآلاف وسجنهم من حركة النهضة وغيرها من القوى السياسية،وخرج زعيم حركة النهضة الشيخ راشد الغنوشي للمنفى القسري ومعه آلاف الأحرار التونسيين،بينما ظلت الولايات المتحدة حليفة للنظام التونسي!

وفي الجزائر وبعد أن فازت جبهة الإنقاذ فوزا كاسحا بانتخابات البلديات ثم في الدورة الأولى للانتخابات التشريعية،تم التحريض الفرنسي الأمريكي على تلك التجربة الديمقراطية ووأدها!

وقام العسكر المدعومون فرنسيا وأمريكيا بالمهمة،وظلت الجزائر حليفا للولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب،ودخل السجون عشرات الآلاف وعلى رأسهم الشيخ علي بلحاج،وعباسي مدني،ثم بعد خروج مدني من السجن تم نفيه إلى قطر وما يزال!

وقد ذهب ضحية هذا الانقلاب العسكري المدعوم غربيا أكثر من مائة ألف جزائري كي لا يحصل الشعب على حريته في عصر الديمقراطية الغربية!

وعمت موجة الاعتقالات كل بلد عربي من المحيط إلى الخليج حيث امتلأت سجون المملكة العربية السعودية بآلاف المعتقلين سنة ١٩٩٤م وتم سجن الشيخ سفر الحوالي وسلمان العودة وكثير من الدعاة والمصلحين ..الخ

لقد كان حدوث كل تلك الاضطرابات والاعتقالات شيئا طبيعيا في ظل وجود احتلال أجنبي فرض سيطرته على المنطقة كلها ويجب عليه إخماد كل حركات التحرر والإصلاح والقضاء على من يريد التفصي من قبضته،إلا إن من سيقوم بتلك المهمة هي الحكومات الوطنية نفسها،ولن يحتاج الاحتلال الأمريكي إلى نفي الزعماء إلى الجزر كما فعلت بريطانيا سابقا!

فلم يستطع الاحتلال الأمريكي للمنطقة – والذي توج سيطرته باحتلال أفغانستان سنة ٢٠٠١م،ثم احتلال بغداد سنة ٢٠٠٣م وهو يرفع شعار الديمقراطية وحقوق الإنسان – أن يمارس ما مارسه الاحتلال البريطاني من نفي للجزر،فأوعز لحكومات العالم العربي بالقيام بهذه المهمة،فغصت السجون مرة أخرى من الخليج العربي إلى المحيط بالسجون السرية للتعذيب والتحقيق والتي كان يشرف عليها ضباط أمريكيون!

ثم اضطرت أمريكا لفتح معتقل غوانتنامو،كما أوعزت لحكومات المنطقة بمحاصرة كل من لا يمكن سجنه،فتم محاصرة كثير من العلماء والدعاة من السفر من بلدانهم،ففرض على الشيخ الزنداني عدم السفر من اليمن،كما تم اعتقال عدد من علماء اليمن وسجنهم في أمريكا،كما تم سجن الشيخ عمر عبد الرحمن المصري في أمريكا في صفقة بين النظام المصري الساقط والحكومة الأمريكية،كما تم سجن الشيخ حامد العلي في الكويت لمدة ستة أشهر بلا حكم قضائي،وتم منع الشيخ القرضاوي وطارق السويدان من دخول بعض الدول الخليجية،وبلغ السجناء السياسيون وسجناء الرأي عشرات الآلاف في مصر والسعودية والمغرب وسوريا وتونس والجزائر وليبيا والأردن واليمن..الخ

فلم يبق زعيم ولا عالم ولا مصلح إلا وتعرض لشيء من ذلك دون أن يدرك أكثرهم حقيقة ما يجري لهم،ومن وراءه،فقد كان بعضهم يظن أن حكومة بلده فعلا حكومة ذات سيادة،وليست دمية بيد الاحتلال الأمريكي!

فشهد العالم العربي في ظل الاحتلال الأمريكي للمنطقة منذ كامب ديفيد ثلاث موجات كبرى للاعتقالات:

الأولى بعد توقيع كامب ديفيد خاصة من سنة ١٩٨٠ إلى ١٩٩٠م.

ثم الموجة الثانية بعد حرب الخليج واستفراد الولايات المتحدة بالسيطرة على المنطقة سنة ١٩٩١ إلى ٢٠٠٠م.

ثم الثالثة بعد أحداث ١١ سبتمبر من سنة ٢٠٠١ إلى ٢٠١٠م!

لقد كان الاحتلال الأمريكي في هذه الحقبة يمارس من الجرائم وانتهاك حقوق الإنسان ما لا يخطر على بال أحد أن دولة متحضرة يبلغ بها الإجرام المنظم إلى هذا الحد!

وقد شاهد العالم فضائح سجن أبو غريب في العراق،وما جرى لمعتقلي غونتنامو وما خفي في السجون السرية أعظم!

ومن هنا يجب على القوى السياسية ودعاة الإصلاح أن يدركوا أنه لا يمكن إقامة أنظمة حكم حرة تختارها الشعوب في ظل أوطان مسلوبة الحرية والسيادة فإن (تحرير الإنسان يوجب تحرير الأوطان)!

وقد كنت وجهت خطابا مفتوحا لرئيس الوزراء البريطاني توني بلير – وكنت حينها الأمين العام للحركة السلفية – وتم نشره في صحيفة الرأي العام الكويتية بتاريخ ٢٠٠٣/٤/٢٤م جاء فيه : (سعادة رئيس الوزراء البريطاني توني بلير لقد استمعت إلى خطابك عن أسباب الحرب على العراق التي أكدت فيها أن الهدف منها هو تحرير الشعب العراقي،وإسقاط النظام الدكتاتوري هناك،وإقامة نظام ديمقراطي يشارك كل الشعب العراقي من خلاله باختيار حكومته التي تمثله دون أي تدخل خارجي ليقوم الشعب العراقي بعدها باستثمار خيرات بلاده واستخدام مواهبه في خدمة وطنه،وقد تذكرت بعد سماعي لخطابك نص البيان المشترك الصادر عن حكومتي إنجلترا وفرنسا في ٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ بعد دخول بريطانيا العراق ودخول فرنسا لسوريا بعد الحرب العالمية الأولى حيث جاء في ذلك البيان ما يلي (إن الغاية التي من أجلها خاضت فرنسا وإنجلترا غمار الحرب في الشرق هي تحرير الشعوب تحريراً نهائياً وإقامة حكومات قومية تستمد سلطتها من اختيار أهلها لها اختياراً حراً،ولتحقيق هذه الغاية أجمعت الدولتان فرنسا وإنجلترا أن تشجعا على إقامة حكومات وطنية في كل من سوريا والعراق البلدين اللذين حررهما الحلفاء،ولن تفرضا على أهلها نوعاً معيناً من الحكم بل حكومات يختارها أهلها من تلقاء

ذواتهم ليسهل عليهم تنمية الاقتصاد في البلاد وإحياء مواهب السكان وتشجيعهم على نشر العلم هذه هي الغاية التي تستهدفها الحكومتان المتحالفتان في المناطق المحررة) مجموعة الوثائق البريطانية تحت ١٩١٨ رقم. / FO٣٧١/٥٠ ٦٥/ م)!![٩٣٢]

فخامة الرئيس إن هذا البيان البريطاني الفرنسي المشترك الصادر قبل ثمانين سنة مطابق تماماً لنص البيان البريطاني الأمريكي سنة ٢٠٠٣م عن أهداف الحرب على العراق فالخطاب هو نفس الخطاب،والأسباب نفس الأسباب،والمفردات المستخدمة هي نفس المفردات،والأهداف المذكورة في كلا الخطابين هي نفس الأهداف،وكأن التاريخ يعيد نفسه غير أنكم كنتم في المرة الأولى بمعية فرنسا وهذه المرة بمعية أمريكا!

ولا أدري هل سبق لكم أن أطلعتم على ذلك البيان فاستفدتم منه؟ أم هي الصدف والموافقات؟ غير أنكم قطعاً تعلمون ما الذي حصل للشعبين العراقي والسوري بعد ذلك البيان حيث لم تخرج كل من فرنسا وبريطانيا إلا بعد ثورات أهلية دامية ضد الدولتين،وحروب دموية طاحنة،وعقود بائسة من الاستعمار لم تزدد شعوب المنطقة فيها إلا تخلفاً ولا الأوضاع إلا تدهورا،وهذا ما كنا نخشى وقوعه بعد الحرب على العراق كما صرحنا بذلك لمسئول الشؤون السياسية للسفارة البريطانية في الكويت (مارك إيلام) الذي زارنا في ديسمبر سنة ٢٠٠٢م وحاول جاهداً إقناعنا بضرورة الحرب من أجل تحرير الشعب العراقي،وذكرنا له خطورة مثل هذا المبدأ على العلاقات الدولية التي لا تعرف مصطلح تحرير الشعوب من حكوماتها مهما كانت دكتاتورية،وأن ذلك سيفتح الباب على مصراعيه أمام عودة الاستعمار من جديد تحت ذريعة تحرير الشعوب من أنظمتها،وأنه لا يمكن مقارنة مخاطر الاستبداد الذي يصادر حرية الإنسان بالاستعمار الذي يصادر استقلال الأوطان،وأنه لا يمكن أن يحصل الإنسان على حريته في ظل وطن مسلوب الحرية والسيادة،وأنه لا تتصور ديمقراطية تمثل الإرادة الوطنية الشعبية في ظل هيمنة قوى استعمارية أجنبية،وأن للحروب من الآثار والتداعيات والمخاطر على الدول

---

[932] – أنظر، الجزيرة العربية في الوثاق البريطانية، ج٣، نجدة فتحي صفوة، دار الساقي بيروت.

والشعوب والأفراد ما ليس للثورات الشعبية على الأنظمة الاستبدادية،التي هي الوسيلة الوحيدة المشروعة لإسقاط الأنظمة الدكتاتورية..)!

لقد كنت أعلم بحكم عملي السياسي والحقوقي الإنساني وأعرف من تلك الجرائم الاستعمارية ما لا يعرفه كثير ممن لا يعنى بالشأن السياسي العام!

ومن ذلك أننا كنا أصدرنا في الحركة السلفية بيانا بخصوص الشاب الكويتي خالد الدوسري حين تعرض للاعتقال التعسفي في المغرب بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م،وطلبنا من حكومة الكويت التدخل للإفراج عنه،وبعد عودته زارني في البيت وقص علي قصته التي طلبت منه كتابتها للمنظمات الحقوقية الإنسانية وقد نشرتها صحيفة القدس العربي بعد ذلك وكان مما قاله لي :

كنت في سفر للمغرب بقصد خطبة فتاة مغربية وبعد ترتيب الموعد مع أسرتها تفاجأت باعتقالي هناك،وبدأت رحلتي مع العذاب،حيث أصبحت ضحية للإرهاب الدولي،وقد بدأ التحقيق معي ضباط أمن مغربي وأمريكي وسعودي وكويتي،دون أن أعرف ما هي تهمتي!

قال : وبعد أسابيع من التحقيق والتعذيب بكل وسائل التعذيب بما فيه صعق الكهرباء قررت الاعتراف على نفسي بما لم أفعل!

فقلت لهم : لدي اعتراف!

فجاءوا وهم فرحين فقلت لهم اكتبوا كل ما تشاءون من اتهامات وسأوقع عليها!

يقول : كان إعدامي أهون علي من العذاب الوحشي على يد هذه العصابات!

ثم وضع المحققون الأمريكيون أمامي شيكا مفتوحا فقالوا لي : اكتب ما تشاء من الأرقام!

قال : فقلت لهم مقابل ماذا؟

فقالوا : مقابل خروجك أمام شاشة التلفاز دقيقة!

قال : وماذا أقول؟

قالوا : تعترف بأنك حلقة الوصل بين القاعدة وحماس وصدام حسين!

قال : فكان كلامهم كالصاعقة على رأسي فقد كان الهدف من تعذيبي طوال هذه المدة هو أن يحققوا هذا الهدف الدنيء!

قال : فرفضت رفضا قاطعا وقلت لهم أنا أعترف على نفسي بأي تهمة توجهونها لي وسأوقع على الاتهام أما أن أفتري على غيري فهذا مستحيل!

قال : فأعادوا تعذيبي بأشد مما سبق،فأضربت عن الطعام حتى فقدت الوعي ودخلت في غيبوبة!

وكنا نحن قد أثرنا قضيته وهو في المغرب،فاضطرت الحكومة أن تأتي به من هناك،وكان فاقدا للوعي،ثم تم اعتقاله في أمن الدولة الكويتي،ثم بعد مدة تم الإفراج عنه لعدم وجود ما يدينه!

وخرج بعدها خالد الدوسري يتحدث في كل وسائل الإعلام عن قصته كأحد ضحايا تلك الحقبة السوداء الذين كتب الله لهم النجاة منها بينما ذهب ضحيتها الآلاف الذين قتلوا أو سجنوا في كل بلد عربي وما يزالون في السجون والمعتقلات ظلما وعدوانا لفرض هيمنة الاحتلال الأمريكي على المنطقة العربية تحت شعار (مكافحة الإرهاب)!

وكان ممن تعرض للمحاصرة والاعتقال والتضييق أعضاء (حزب الأمة)،الذي تم الإعلان عنه في الكويت بتاريخ ٢٠٠٥/١/٢٩م،وقد اخترنا هذا التاريخ قصدا،وهو قبيل أول انتخابات في العراق بيوم واحد والتي جرت بتاريخ ٢٠٠٥/١/٣٠م،حيث كانت أمريكا ودول المنطقة تروج لقيام الديمقراطية المزعومة في العراق تحت الاحتلال الأمريكي،وقيام التعددية والتداول السلمي للسلطة،وكان الإعلام الكويتي والخليجي يروج لهذا الحدث العظيم!

وقد اتفق المؤسسون على الإعلان عن الحزب – الذي كان الإعداد والتحضير له قد سبق هذا التاريخ بنحو سنة تقريبا – في ذلك التاريخ ٢٠٠٥/١/٢٩م،وتم إرسال الخطابات صباح ذلك اليوم لرئيس مجلس الوزراء ولكل الوزراء وأعضاء مجلس الأمة،نحيطهم علما بأنه سيتم الإعلان عن (حزب الأمة) الساعة الواحدة ظهرا،وفي الخطاب مبادئ الحزب وأهدافه،وهو الإيمان بحق الشعب في الحكومة المنتخبة،وحقه في التعددية والتداول السلمي للسلطة..الخ

فأسقط في يد الملأ فإذا كانت الكويت تقف مع حق الشعب العراقي في اختيار حكومته وحقه في التداول السلمي للسلطة،فالشعب الكويتي أحق أن تعترف له حكومته بذلك وأولى!

وقد تم عقد المؤتمر الإعلامي للإعلان عن تأسيس الحزب وحضرت كل وسائل الإعلام العالمية والمحلية،وحضر وفد أمريكي استخباراتي بدعوى أنه وفد إعلامي،وكان معهم يوسف خليل الموظف في السفارة الأمريكية،والذي كان يعرف نفسه بأنه مترجم للسفارة!

وقد تم قراءة البيان التأسيسي والإعلان عن الحزب أمام وسائل الأعلام الدولية والعربية،وكانت المفاجأة للوفد الأمريكي هو تضمن البيان للدعوة إلى وحدة دول الجزيرة والخليج العربي،والاستغناء عن الوجود الأجنبي العسكري،وإقرار حق شعوب المنطقة باختيار حكوماتها وتحرير إرادتها!

وتناولت وسائل الإعلام العالمية الخبر تحت عنوان (الإعلان عن أول حزب سياسي في منطقة الخليج العربي)!

ولم نتفاجأ حين خرج السفير الأمريكي بعدها بأيام ليفتح النار على الحزب،ويحرض الحكومة عليه بأنه حزب ديني غير ديمقراطي وأن بيانه يتنافى مع قيم الحضارة الغربية!

وقد نشرت وثائق وكيليكس تقرير السفارة الأمريكية عن الإعلان عن الحزب،وما جرى منه،وكيف أنه عرض بإعلانه بالوجود الأجنبي والمقصود الولايات المتحدة!

وتم إحالة جميع أعضاء الحزب للنيابة وجرى التحقيق معهم،ثم تم استدعائي من قبل المباحث الجنائية في محافظة الجهراء،وكان المباشر للتحقيق معنا المدير مازن الجراح الصباح،وقد سألني عن السبب في اختيار هذا التاريخ؟

وقال : هل تريدون لي ذراع الحكومة؟

فأجبته بقولي : الشعب الكويتي أولى أن تعترف له الحكومة بالحرية والتعددية والتداول السلمي للسلطة،ما دامت تدعم الديمقراطية في العراق؟!

وبعد تحريض السفير الأمريكي على الحزب زاد الحصار والحرب الإعلامية في الكويت على الحزب ومشروعه (الحكومة المنتخبة)!

وتم إحالة مؤسسو الحزب للنيابة العامة بعد أن خرج السفير الأمريكي وفتح النار عليه بدعوى أن مشروع الحزب يتناقض مع قيم الديمقراطية الغربية!

هذا في الوقت الذي حاول الإعلام المشبوه الذي يدار من قبل أمن الدولة ترويج أكذوبته بأن الحزب وراءه أمريكا،وأنهم شاهدوا الدكتور حاكم المطيري في السفارة الأمريكية لمدة ثمان ساعات،وأن السفير الأمريكي كان حاضرا للمؤتمر الإعلامي للإعلان عن الحزب!

وشاعت الأكذوبة بين الإسلاميين كعادتهم في حرب منافسيهم وصارت فجأة حقيقة!

فعرفنا كيف تدار حروب الإعلام والإشاعات من قبل الأنظمة العربية،وكيف يتم محاصرة الخصم وتشويه صورته لصرف الناس عن دعوته،وكيف يتم توظيف التيار الإسلامي نفسه لمواجهة كل من يريد التغيير!

أقول هذا ليعرف القارئ العربي اليوم بطلان الأكاذيب – التي تروجها وسائل الإعلام العربي الرسمي المضاد للثورة – بأن اليهود وأمريكا هم من يقف خلف الثورة العربية!

ثم تصدى الحزب بعد أشهر من تأسيسه لمشروع حقول الشمال النفطية،والذي كان سيعيد سيطرة الشركات الأمريكية على النفط الكويتي كشريك فيه،كما فعلوا في النفط العراقي،وكاد مجلس الأمة يمرر المشروع إلا أنه كان يريد فقط معرفة تفاصيل المشروع وتكاليفه بشفافية!

فقام الحزب بإصدار بيان في الموضوع وأكد رفض المشروع وخطورته،ثم دعا إلى ندوات جماهيرية كانت الأولى بعنوان (سرقة نفط الكويت)،والثانية بعنوان (مشروع بيع الكويت)،وتم دعوة كافة القوى السياسية وشاركت في الندوة وفي مؤتمر صحفي في ديوان الحزب،وأدرك الجميع خطورة الأمر وعدم دستوريته،فتم إحالة الحزب بعدها إلى النيابة بتهمة (تغيير نظام الحكم)!

لقد تجاوز الحزب الخطوط الحمراء فموضوع النفط لدى أمريكا أشد خطرا من تأسيس حزب،وصارت التهمة تغيير نظام الحكم!

وقد اتصل صحفي ألماني وأخبر الأمين العام بأنه تعجب من إثارة الحزب لموضوع حقـــول الشمال،لأنه كان يعرف حساسيته وخطورته والقوى الدولية التي وراءه،حتى أنه تم طرده من الكويت قبل أشهر بسبب تقرير له عن هذا المشروع!

وبعد أن أدرك الملأ أن أساليب التهديد والوعيد لن تجدي نفعا معنا لجئوا إلى الجزرة،فزارنا سنة ٢٠٠٨م قبل الانتخابات البرلمانية وسيط حكومي يفاوضنا وبحضور كـــل أعضـــاء المكتب السياسي في الحزب،وعرض علينا ترخيص جمعية ومبرة خيرية وقناة فضائية وتوجيه التجار لدعمنا ماديا والمشاركة في الوزارة ..الخ!

فقلت له مقابل ماذا؟

فقال : أن تكونوا حلفاء للسلطة وتتركوا الدعوة إلى الحكومة المنتخبة!

لقد كان واضحا أن تأسيس الجمعيات والمبرات إنما يتم من خلال صفقات مشبوهة تكون على حساب حرية الشعب وحقوقه،فلا تتم الموافقة عليها إلا بعد التدجين أو التحييد!

وقد كان ريتشار بيل المستشار السياسي للسفير الأمريكي في الكويت قد طلب لقاءنا بعد احتلال العراق مباشرة سنة ٢٠٠٣م ليعرف سبب موقفنـــا الـــرافض للحـــرب علـــى العراق،وكان مما عرضه علينا لماذا لا يكون عملنا تحت مظلة جمعية رسمية؟

فقلت له بأننا نكون أكثر حرية عندما لا نكون تحت مظلة جمعية تحـــت ســـلطة وزيـــر الشئون!

فأمريكا تعرف كيف تدير الأمور في مناطق نفوذها!

ولو كانت أمريكا تدعم الحريات وتقف مع الثورات لكانت الكويت أول دولة تقوم فيها حكومة منتخبة وديمقراطية في الشرق الأوسط الجديد!

ولك أن تتخيل كل هذه الأحداث وهي تجري في بلد عربي صغير هامشي إذا ما قـــورن بالدول الرئيسية في المنطقة العربية،واستخدم القياس العقلـــي في قيـــاس الغائـــب علـــى الشاهد،لتدرك مدى الفساد الذي وصل له العالم العربي،وكيف يدير الاستعمار الخارجي أمور دويلات الطوائف ليحولها إلى سجن كبير؟!

وبعد أن أدرك الملأ أن (حزب الأمة) يرفض المساومة على مبادئه وأنه يفضل خيار الحصار الإعلامي على السقوط الأخلاقي،بدأت الخطة لمواجهته،وقرر الحزب نزول الانتخابات لا للوصول للبرلمان — كما اتفق على ذلك مرشحوه - بل لفرض واقع سياسي جديد بنزول الحزب بشكل رسمي،وكسر الحاجز النفسي لدى الشارع الكويتي الذي كان يعيش فوبيا الأحزاب الذي صنعته وسائل الإعلام الحكومي لتبقى السلطة الأسرية الشمولية!

وقد هال السلطة قرار الحزب نزول انتخابات ٢٠٠٨م،وهدد وزير الداخلية آنذاك بمنع نزوله ومشاركته في الانتخابات،وبأن الأحزاب محظورة في الكويت- وكل ذلك الاستبداد يجري بإيعاز أمريكي - وتفاجأت الحكومة بقدرة الحزب الذي لم يمض على تأسيسه ثلاث سنوات بالنزول في كل الدوائر الانتخابية من خلال ١٢ مرشحا،وهو ما لم يستطع أي تنظيم في الساحة القيام به،فتم اتخاذ القرار بمواجهة الحزب بكل وسيلة،بما في ذلك تزوير الانتخابات،والضغط على مرشحيه بكل الوسائل،وفي الوقت الذي كانت استطلاعات مركز الجاسم - وهو محايد إلى حد كبير - تؤكد تقدم بعض مرشحي الحزب في دوائرهم ودخولهم دائرة المنافسة والنجاح،جاءت النتائج على نحو مفضوح فج في العبث والتزوير،وكانت لدينا معلومات عن بعض موظفي وزارة العدل — كما أخبرني بذلك الدكتور نايف المطيري - بعملية التزوير قبل الانتخابات بأيام!

والتي أثارها بعد ذلك أحمد السعدون رئيس البرلمان سابقا،وهدد بكشف عملية التزوير إذا لم ينجح! وصرح عدد من النواب الذين فازوا في الانتخابات بأن هناك خمسة عشر مرشحا نالوا عضوية البرلمان بالتزوير،وبالمقابل تم حرمان خمسة عشر مرشحا فائزا من عضوية البرلمان!

ومع ذلك لم يتقدم أحد باستجواب وزير الداخلية آنذاك ولا في التحقيق فيما جرى! حتى تم الطعن في بعض الدوائر ووصل الأمر إلى المحكمة الدستورية التي وجدت بأن نسبة الخطأ في نتائج اثنين من المرشحين في دائرة واحدة وصلت نحو ٣٥% !

وقد صرح بعد ذلك أستاذ القانون عبيد الوسمي بأن العملية الانتخابية في الكويت يتم العبث بها وتزويرها من الألف إلى الياء!

لقد كشفت تلك الانتخابات لنا مدى فساد العملية السياسية،ومدى تورط الجميع فيها بمن فيهم من يطلق عليهم (نواب المعارضة)،وأن الفساد وصل إلى كل مؤسسات الدولة التنفيذية والتشريعية والقضائية!

فإذا كان التزوير في انتخابات البرلمان المصري قد وصل – كما في الانتخابات الأخيرة في عهد حسني مبارك – نسبة ٩٧ % مع وجود القضاء المصري العريق والصحافة المصرية الحرة،والأحزاب المعارضة في مصر،فكيف في الكويت التي لا يوجد فيها أي شيء من ذلك!

تذكروا بأن كل مظاهر الفساد السياسي هذه هي في بلد صغير يوصف في العالم العربي بأنه بلد ديمقراطي،ويقع تحت النفوذ الأمريكي وله علاقات متميزة مع واشنطن،فما بالكم في الدول العربية الأخرى الدكتاتورية!

فازددنا إيمانا بأن طريق الإصلاح يبدأ بتحرير الوعي الشعبي من وهم الديمقراطية وديمقراطية الوهم التي تمارس في ظل الاستبداد ونفوذ الاستعمار،ولا يمكن لدعاة الحرية أن يصلوا لهدفهم في ظل دول تقع تحت الاحتلال والنفوذ الأجنبي،فمن يسجن الأحرار في كل بلد عربي هو السفير الأمريكي وطاقمه،الذي يتولى في كل بلد متابعة كل حراك سياسي قد يكون على حساب نفوذ أمريكا وسيطرتها ومصالحها!

وقد نجحت الولايات المتحدة بإعلامها وقنواتها المدعومة من قبل الاستخبارات في العالم العربي في تشكيل ثقافة عامة لم تؤثر فقط في عامة الناس بل وصل تأثيرها للسياسيين والإسلاميين على اختلاف توجهاتهم – إلا من عصمهم الله منهم – وتحطمت على صخرة الواقع العقائد الإيمانية،والحقائق القرآنية،في نفوس قطاع كبير من المسلمين،وحدثت مراجعات كبرى طالت تيارات عريضة،حتى خرج من يقول (نحن وأمريكا في خندق واحد في مواجهة الإرهاب) ومن يقول (بريمر ولي أمر تجب طاعته)!

لقد حولت الولايات المتحدة العالم العربي إلى (سجن كبير)،والحكومات العربية العميلة إلى (سجان حقير)،فكان لا بد من حدوث الثورة وانفجار البركان الخطير!

وما زلنا مع (أسطورة الثورة العربية) فللقصة بقية![٩٣٣]

(اليمن ورياح الثورة)

الجزء الأول

بقلم د. حاكم المطيري

٢٠١١/١٠/٢٤م

كان لحرب غزة أواخر سنة ٢٠٠٨م وحصار نظام حسني مبارك لها – بتواطؤ مع الدول العربية الحليفة للولايات المتحدة – تداعيات كبرى على المنطقة العربية كلها، وكان الزلازل الثاني بعد احتلال العراق، حيث كشف المشهد بكل تجلياته، وكيف وصل الحد بالأنظمة أن صارت تقاتل الأمة بصف عدوها جهارا نهارا، وبعد عقد اللقاء الأول لـ(مؤتمر الأمة) في اسطنبول بتاريخ ٢٠٠٩/٤/١٧م – وسيأتي الحديث عنه لاحقا – تم تكليف المنسق العام بزيارة اليمن والاطلاع على أوضاعها، واستنهاض همم العلماء والزعماء والمصلحين، للعمل من أجل الإصلاح والتغيير، وكنت قد زرت في سبيل نشر هذا الفكر – الذي يدعو للحرية والإصلاح السياسي السلمي مع حق الأمة في الثورة حين لا تجد وسيلة غيرها سواء ثورة سلمية أو ثورة مسلحة – كل بلد عربي تيسر لي زيارته، من أقصى المشرق العربي إلى أقصى المغرب، والتقيت بمئات العلماء والدعاة والمصلحين، ولعل الظروف تتهيأ لنشر تفاصيل ذلك كله وما جرى في تلك اللقاءات!

فزرت اليمن سنة ٢٠٠٩م بعد حرب غزة، وتوالت زياراتي له سبع مرات خلال سنتين، حتى لم أترك محافظة من محافظاته إلا وزرتها، من صعدة إلى صنعاء والضالع وعدن وتعز والحديدة وأبين، والتقيت بزعمائها وعلمائها وقادتها ..

وقد أدركت أن اليمن قد باتت جاهزة للثورة وأنها تنتظر الفرصة السانحة!

---

[933] http://website.informer.com/visit?domain=dr-hakem.com-

وكانت أول بلدة زرناها حين دخلنا اليمن محافظة صعدة للاطلاع على حقيقة الأوضاع فيها بصفتي عضوا في (المنظمة العربية للحريات والحكم الراشد) و(المنسق العام لمؤتمر الأمة)، وقد استضافنا جماعة من علماء صعدة وأفاضل شيوخها فما إن طلبوا مني الحديث وبدأت به عن الأوضاع التي وصلت إليها الأمة، واحتلال العراق وحصار غزة وخيانة الأنظمة العربية الخاضعة للاستعمار الأمريكي، وكيف وصل الحال بالأمة كلها أن يتجاذبها المشروع الأمريكي الغربي الاستعماري وتصطف خلفه أكثر دول العالم العربي والإسلامي من جهة، والمشروع الإيراني الطائفي وتصطف خلفه سوريا وحزب الله وحماس والجهاد الإسلامي من جهة أخرى، بينما غاب مشروع الأمة الذي سادت به العالم مدة ١٣ قرنا بسبب ضعفها وتشرذمها وغياب المشروع السياسي الإسلامي!

ولم أنتصف بالحديث حتى وضع أحدهم وهو الشيخ هادي أبو .. يده على جنبيته (خنجره) وقال بكل شجاعة وشمم : أبشروا بالنصرة! وما جئتم به من الدعوة لوحدة الأمة وتحريرها والدعوة للخطاب الراشدي المتزل هو الحق الذي يجب على كل مسلم حر القيام به وقد وصلنا كتابك (الحرية أو الطوفان) وقرأناه ...الخ

وقد طلبنا منهم إعداد العدة وتنظيم أمورهم للإصلاح والتغيير، وأطلعناهم على مشروع (مؤتمر الأمة) وأهدافه، وطلبنا منهم بعد تأسيس العمل في اليمن المشاركة في المؤتمر القادم..الخ

وقد سألونا ما الموقف الشرعي والسياسي الصحيح من الحرب مع الحوثيين؟

فقلت لهم: كيف كنتم تتعايشون قبل هذه الحرب؟

قالوا : كنا أهل بلد واحدة وتربطنا علاقات القبيلة والرحم والمصاهرة، ولم يكن بيننا صراع؟

فقلت : وكيف كنتم تحلون مشاكلكم سابقا إذا حدثت بينكم كقبائل؟

قالوا : نحلها بالصلح وبعادات القبائل التي لا تتعارض مع الشرع..

فقلت : حلوا مشاكلكم معهم كما كنتم تفعلون سابقا، ولا تصبحوا أنتم وهم ضحية صراع سياسي داخلي من أجل بقاء النظام الذي يعلم أن حالة السلم تعني سقوطه، ولهذا

يشغل علي صالح اليمن في الحروب كتاجر حرب لا كرئيس دولة مسئول عن أمنها واستقرارها، وكذلك احذروا أن تكونوا حطب حرب لصراع إقليمي تستفيد منه حكومات المنطقة على حساب شعوبها..الخ

فأنتم جميعا ضحية لصراع المشروع الإيراني والمشروع الأمريكي وحلفاء كل طرف، حين غاب مشروع (الأمة الواحدة والخلافة الراشدة)!

فقالوا : صدقت ونحن نعلم أن الرئيس هو من يدعم الحوثيين ويسلحهم، وفي الوقت نفسه يحرك جيشه لقتالهم؟!

فقلت لهم: لكم الحق في الدفاع عن أنفسكم وحماية قراكم وأراضيكم من أي اعتداء من طرف الحوثيين، وحاولوا أن ترسلوا إليهم برسالة بأنكم لستم طرفا في الصراع وترفضون أي هيمنة للحوثيين على المنطقة، وإذا كانت لديهم مشكلة مع النظام فليحلوها دون سفك الدماء مع أهل بلدهم في محافظة صعدة..الخ

وبعد سفرنا أرسل لي الشيخ هادي أبو .. رسائل منها :

(رسالة بخصوص ....)

التاريخ..

٢٠٠٩/٥/٢٣م..

بسم الله الرحمن الرحيم..

الأخ العزيز الدكتور / حاكم المطيري الفاضل..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

كنا نتمنى أن نشرككم مؤتمركم الميمون لكن (أنت تريد والله يريد ولا يكون إلا ما يريد)، ولكن وإن لم تحضر أجسادنا فقلوبنا معكم، ومن أول وهلة سمعنا بهذا المشروع العظيم حتى استقر في قلوبنا، فلما شرحتموه لنا عملت الجوارح في نشره والتأسيس له مع قلة العدد والعدد، إلا أننا لن نعجز ولن نتوانى ولن نكسل، وزادنا نشاطاً عندما قرأنا كتابكم العظيم الذي يدل على علو همة صاحبه (الحرية أو الطوفان) ونحن ننتظر توجيهاتكم المباركة..

وتحياتنا لإخواننا جميعاً...
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
أخوكم هادي ....
...

لقد كشفت لنا زيارة صعدة أبعاد الأزمة اليمنية وتداعياتها ومدى الإحباط الذي وصل له الشارع اليمني من نظام علي صالح، وكذلك من التجمع للإصلاح، وقد انحسرت شعبية تجمع الإصلاح بين التيار الإسلامي نفسه، حيث رأوا – كما أخبرنا بعض قياداته المستقيلة – بأن بعض قيادات التجمع القبلية والسياسية متورطة في الفساد والمصالح، وهي الوجه الآخر للنظام، كما إن القطاع الأوسع من التجمع عاجز عن التغيير لعدم وجود رؤية ..الخ

وكذلك أثرت عليهم بعض المواقف السياسية حيث إن لجوءهم للسفير الأمريكي في صنعاء لحل المشكلة مع النظام ضمن اللقاء المشترك، قد أفقدهم ثقة قطاع واسع من الشباب الإسلامي.

لقد وجدنا عزوفا كبيرا عن التجمع للإصلاح باعتراف كثير من قياداته التي تخلت عنه في كل محافظات اليمن شمالا وجنوبا، وهي حالة تكاد تكون متشابهة في العالم العربي، حيث فقدت الحركة الإسلامية ثقة قطاع واسع من الشعوب، بسبب تحالفها مع الأنظمة الدكتاتورية من جهة، وقيامها أحيانا بدور المعارضة العقلانية التي لا تحقق تطويرا ولا تحدث تغييرا من جهة أخرى!

وهي حالة تكاد تتشابه في كثير من الدول العربية كالمغرب والجزائر والسودان وموريتانيا والأردن والعراق ودول الخليج واليمن!

كما وجدنا حالة من التعاطف الشعبي العام مع الفكر الجهادي، إلا أن هناك قناعة عامة بغياب مشروع سياسي لديهم يخرج اليمن مما هو فيه من أزمات ومشاكل سياسية واقتصادية كبرى، تحتاج حلولا سياسية وبرامج تنمية وليست حلولا عسكرية فقط..الخ

ثم خرجنا من صعدة إلى صنعاء واستغرقت الرحلة نحو خمس ساعات استوقفتنا في بدايتها نقطة تفتيش لجماعة الحوثي إلا أنها رأت الأسلحة مع الأخوة اليمنيين فلم تعترض طريقنا، وكانت الرحلة أشبه بآلة الزمن حيث تعيدك إلى العصر البدائي لولا وجود الطريق المعبد والسيارات التي عليه، إذ ما زالت بيوت الطين والحجر والزراعة البدائية كما هي منذ آلاف السنين، وكانت مظاهر الفقر والتخلف تعج في كل زاوية تقع عليها عين الناظر، وقد شعرت بحزن عميق طول الرحلة وكان الأخوة يعجبون مني! ويقولون هذه مناظر طبيعية في اليمن السعيد!

ثم وصلنا صنعاء التي ترى في بعض أحيائها اختلاط الماضي بالحاضر، والبداوة بالمدنية، وسكنا فندق شمر، وغمرنا أهلها بالحب والكرم العربي كما قلت فيهم سابقا :

وعلى الوجوه سماحةٌ عربيةٌ تنبي بأنهم بنو أجدادي !

وقد زارنا الأخ الفاضل الدكتور صالح السنباني عضو البرلمان عن كتلة التجمع للإصلاح، وهو صديق قديم منذ الدراسة في برمنغهام بانجلترا، حيث كان مديرا لأمانة معاذ، وكان يحضر الدكتوراه في التربية، وهو من أفضل من عرفتهم دينا وخلقا وعلما وعقلا، فأصر على دعوتنا للعشاء في مطعم يطل على صنعاء، فاستجبنا له ودار حوار عن الأوضاع في اليمن والطريق المسدود الذي وصلوا إليه، ثم أكملنا الحديث في الغد على الغداء في بيت الخطيب المصقع وعضو البرلمان عن التجمع للإصلاح الشيخ محمد الحزمي، وتحدثنا عن الأزمة التي تعيشها الأمة وعجز الحركة الإسلامية بجميع فصائلها عن تطوير أدائها بسبب شبكة المصالح والتحالفات مع الأنظمة على حساب الشعوب التي فقدت ثقتها بالأنظمة وبالإسلاميين الذين تحالفوا معها، أو من نجحت الأنظمة في توظيفهم في دور المعارضة الوهمية، لامتصاص غضب الشارع وتخفيف الاحتقان عنه، مع اطمئنانها بأنه لا خطر عليها منهم!

وتحدثنا عن عجز التيار الإسلامي وهو الأكثر شعبية بكل فصائله عن التعاون وتغيير الواقع، وفي الوقت الذي تتعاون كل فصائله مع الأنظمة بصورة أو بأخرى، يرفض بعضهم التعاون مع بعض!

وقلت لهم بأن الجماعات أصبحت تعيش في جزر معزولة لكل جماعة عالمها الخاص، والسبب هو أنهم يعتقدون بأن مهمتهم هو الدعوة إلى الله ولو كانوا وحدهم، وليس مهمتهم تغيير الواقع وإصلاحه، ولهذا يشعرون بالرضا عن النفس مهما كان الأداء سيئا، ومهما كان الواقع أسوأ، فهم يريدون الآخرة، أما الدنيا فإن صلحت وإلا فلا تستحق التضحية والثورة من أجل إصلاحها!

وهذا يفسر سبب فرحهم وتنافسهم في افتتاح فرع دعوي هنا، ومركز هناك، وكسب أتباع هنا وهناك، وإقامة ندوة هنا ومحاضرة هناك، في الوقت الذي دولهم وشعوبهم تئن من وطأة الاحتلال والنفوذ الأجنبي، والاستبداد والطغيان السياسي، دون أن يشكل لديهم أزمة تستحق المواجهة!

وهذا السبب أيضا يجعلهم لا يحتاجون لبعضهم ولا لغيرهم، بينما العمل السياسي الذي موضوعه الدولة والسلطة والمجتمع يقتضي ممن يريد تغييره وإصلاحه البحث عن كل من يتعاون ويشترك معه في تحقيق التغيير، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين دخل المدينة وحالف من حالف وسالم من سالم من أجل إصلاح الواقع السياسي وتغييره لصالح العدل والقسط الذي جاء به الإسلام..الخ

وقد كان الدكتور صالح السنباني يستمع والحزن يملأ قلبه، واعترف بوجود أزمة في الوعي وغياب للمشروع لدى قطاع واسع من التيار الإسلامي..الخ

وكان ممن التقيناهم أيضا في أول زيارة لصنعاء الشيخ الزنداني الذي استضافنا في بيته في جامعة الإيمان بتاريخ ٢٠٠٩/٥/٢م وكان بصحبتي الشيخ محمد بن .. ومحمد بن .. ودار حديث عن الأزمة التي تعيشها الأمة، واحتلال العدو لها وسيطرته عليها، وتشرذمها وضعفها، وغياب المشروع السياسي الذي يحررها ويوحدها كما جاء به الخطاب القرآني والنبوي والراشدي، وقد فرح فرحا عظيما بما عرضناه عليه وما وصلنا إليه!

ثم في زيارة ثانية لليمن وكان معنا الشيخ الدكتور أحمد ..، والشيخ محمد بن ...، زرنا الشيخ الزنداني في بيته، وأخبرنا عن بلوغ الأزمة السياسية حدا خانقا، وعجز السلطة عن حلها، وأخبرنا بقصة جرت أثناء لقاء لهم مع الرئيس علي صالح، وكيف أنه صارحهم بأن

الرؤساء العرب ليس لهم من الأمر شيء مع أمريكا بل هم موظفون لديها، وهو ليس سوى شاويش كبير!

فسأله الشيخ أحمد وماذا أنتم فاعلون في ظل هذا الوضع؟

فقال الزنداني : نحن قلنا للرئيس إما أن تعتدل أو ..؟

فقال الشيخ أحمد: أو ماذا؟

فصمت الشيخ الزنداني!

فقال الشيخ أحمد : أو الثورة والخروج عليه!

فغضب الشيخ الزنداني وقال كيف؟ البلد لا يحتمل ذلك! هناك حروب في الشمال والجنوب وفتن..الخ

و لم يدرك الشيخ الزنداني أنها كل الحروب من صناعة علي صالح وعصابته، كبقية الأنظمة العربية، التي لا تعيش إلا على الفتن والحروب بين مكونات الشعوب!

لقد كانت أجواء اليمن كلها تنذر بقرب فجر الثورة، وهبوب رياحها، ولا تحتاج شرارة الثورة إلا إلى حي على خير العمل!

وفي زيارة أخرى لليمن طلب مني الأخوة من شيوخ القبائل وأهل العلم والفضل الحضور معهم للقاء اللواء علي محسن الأحمر الرجل الثاني في الدولة، في مدينة الحديدة، وأكدوا حرصه على زيارتي له، فسافرنا من صنعاء إلى الحديدة حيث أخذ الطريق نحو خمس ساعات من الصباح إلى بعد الظهر، فاستقبلنا بكل بشاشة وكرم، وكان قد أعد وليمة الغداء وكان بصحبتنا مجموعة من شيوخ قبائل صعدة الذين جاءوا إليه لبحث موضوع الحرب هناك، وقد حدثته عن طبيعة زيارتي وأننا في (مؤتمر الأمة) و(المنظمة العربية للحريات والحكم الراشد) نرى ضرورة الإصلاح السياسي في العالم العربي، وأن الأمة اليوم تدفع ثمن الاستبداد، وأن الحرية والعدل والتنمية هي الحل لمشكلة اليمن في شماله وجنوبه، وأن ما يجري من حروب وفتن هي نتيجة طبيعية للظلم والتهميش وغياب العدل في توزيع الثروة!

وقلت له : لقد زرت صعدة للوقوف على حقيقة الحرب وأسبابها فلما وصلت المنطقة عرفت لأول وهلة أنها لا تبقى دون حروب، فالحرب هي الحياة بالنسبة لها، حيث هي مصدر الدخل لسكانها، وتحدثت عن مظاهر البؤس هناك..الخ

و لم يعجب حديثي بعض الحضور الذين ظنوا أني سأجامل الرجل الأقوى في اليمن!

وقد تقبل الرجل نقدي برحابة صدر أكبرته بسببها!

وأهديته كتاب (الحرية أو الطوفان) فقال لي هذا هو فعلا ما نحتاجه في اليمن، وإلا فنحن جميعا في عالمنا العربي في مهب الريح إن لم يحصل الإصلاح!

وكان يخشى من الاختراق الأجنبي للخليج والجزيرة العربية خاصة الخطر .... بسبب تشرذم دول المنطقة وفشلها في تحقيق التعاون والاتحاد فيما بينها!

وبعد رجوعي للكويت تفاجأت برسالة من الشيخ محمد بن ... يخبرني فيها بأن اللواء علي محسن الأحمر قد أرسل له خطابا يطلب منه الاتصال بي للسماح بطباعة كتاب (الحرية أو الطوفان) في اليمن!

وفي آخر زيارة لليمن كلفت الأخوة هناك بطباعة الكتاب لدى دار ... فجاء الرفض من وزارة الإعلام!

وفي زيارة أخرى لليمن سنة ٢٠١٠م وقبل الثورة بأشهر، زرنا في صنعاء الشيخ الفاضل فيصل المناع، وهو زعيم قبلي كبير، وكان معارضا وداعما للثورة على نظام الإمام في اليمن في ستينات القرن الماضي، وكان قد اعتقل في .. وتعرض للتعذيب آنذاك، وقد كان يتوقد همة وعزيمة وذكاء وبعد أن أكرمنا طلبت منه الاختصار معه للحديث!

وجلسنا في غرفة صغيرة وحين فاتحته وأخذت أتحدث عن الواجب الشرعي تجاه ما يجري في العالم العربي، وضرورة التغيير من أجل الحرية ووحدة الأمة وإعداد للعدة لذلك..الخ

وضع رأسه على يده يتأملني بصمت تعتريه دهشة وذهول!

ثم قال لي: إنني في أشد العجب من هذا الطرح! فلم أتصور أنه يوجد أحد اليوم يؤمن بمثل هذا المشروع الإصلاحي الكبير أو يدعو إليه فقد فترت الهمم!

وأخذ يتحدث عما جرى للعراق، وما يجري لغزة، وما وقع من تشرذم وضعف في العالم العربي..الخ

وكان يتحدث بحزن عميق فقد كان حسه الإسلامي والعربي يتوقد كأنما هو شاب في العشرين!

ثم وعد خيرا وقال أبشروا امضوا في مشروعكم ونحن معكم والأمة كلها معكم وأحسنوا ...الخ.

وقد أدركت كم فرط الإسلاميون حين راهنوا على جماعاتهم ومجموعاتهم بينما الرهان هو على الأمة وعلى شعوبها بكل فئاتها وأطيافها، ففي الأمة من الزعماء والرجال الأفذاذ، من يستطيعون التغيير وتحقيق ما لا تستطيعه جماعات كبرى بقضها وقضيضها!

لقد وجدت عند عامة الناس من الحمية للإسلام والغيرة على الأمة وعلى الأوطان ما لم أجده عند كثير من الدعاة وأتباع الجماعات الذين لا يمثل لهم احتلال العراق مشكلة تقض مضاجعهم! ولا يعد التعاون مع الاحتلال قضية تستحق المناقشة! ولا يرون التحالف مع الطغيان والاستبداد همًّا يشغل بالهم! ولا يرون أن وجود القواعد العسكرية للأجنبي وفقد السيادة والاستقلال يشكل هاجسا! فالمهم الفلاح في الآخرة، وأما الدنيا فظل زائل!

وفي زيارة أخرى لليمن زارني في الفندق الشيخان عبد الوهاب ... ومحمد ....، وعاتباني كيف أزور اليمن ولا أزورهم، واعتذرت إليهما بأني أبحث عمن يؤمن بالحرية والثورة، وأما أنتم فأهل دعوة وعمل خيري وليس لكم اهتمام فيما جئنا من أجله!

وقلت لهما: قد سبق أن دعوتكم حين زرتمونا في الكويت إلى مشروع الأمة فاعتذرتم بعملكم الخيري والخشية عليه من التوقف، فلم نرغب في إحراجكم!

فأصرا على دعوتي واستجبت لهما على الغداء فإذا كبار شيوخ الدعوة السلفية من (جمعية الحكمة) و(جمعية الإحسان) قد اجتمعوا، وعقدوا مجلسا لمناقشتي فيما أدعو إليه، وما جاء في كتاب (الحرية أو الطوفان)، وكتاب (تحرير الإنسان)، وأدار المجلس الشيخ عبد الوهاب..، ثم الدكتور أحمد... ، وكان في المجلس الدكتور ... المصباحي، والدكتور ... الشيباني، والشيخ ... الأهدل، والشيخ ... الريمي .. الخ

وكان من الأسئلة والإشكالات:

١- كيف ندعو إلى الخطاب الراشدي؟ والنصوص تؤكد وقوع الانحراف والفتن في آخر الزمن وهذا قدر الله..الخ

٢- كيف يمكن إصلاح أنظمة الحكم والشعوب تعيش حالة من الغثائية ...الخ

٣- كتاب الحرية اختزل القضية بالسياسة بينما الدين أشمل وأوسع ..الخ

٤- ما الفرق بين ما تدعو إليه وما يدعو له (حزب التحرير)..الخ

وبعد أن أوردوا كثيرا من الأسئلة أجبت عن بعضها، وكان مما قلته بأن كتبي تعالج موضوعا محددا وهو (الخطاب السياسي الإسلامي) تاريخه ومراحله، والمحدثات التي طرأت عليه، وأصوله من القرآن والسنة والخطاب الراشدي، ولست أدعو إلى الإسلام كي يقال قد اختزلت بدعوتك هذه الإسلام في السياسة، بل أنا أدعو الأمة المسلمة إلى تدارك الخلل السياسي، وما وقع من تفريط فيه حتى سادها الطغاة في كل بلد، وأما قضايا الإسلام الأخرى فلم أتعرض لها..الخ.

وقلت بأن شعوبنا تدين بالإسلام وتحب دينها وهي أشد غيرة عليه وعلى الأمة من كثير من الدعاة، وكانت القبيلة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم تسلم وتشهد أن لا إله إلا الله فإذا لها من الحقوق وعليها من الواجبات ما للمسلمين ساعة إسلامها، بينما الجماعات اليوم تريد من الأمة ما لم يشترطه النبي صلى الله عليه وسلم عليها لقيام الدولة وظهور الأحكام والقسط الذي جاء به الإسلام، وصارت الأجيال من الدعاة تتعاقب جيلا بعد جيل دون أن تحقق للأمة شيئا من العدل ودفع الظلم فضلا عن النصر والظفر!

فالمشكلة في عجز الجماعات عن تغيير واقع مجتمعاتها، لأنها خالفت السنن الشرعية والاجتماعية والسياسية في تغيير واقع الدول، ولن تنتظر الأمة وشعوبها الجماعات الدعوية، بل ستشق الأمة طريقها نحو الحرية والعدل، وستبحث عن حل مشاكلها بغير الإسلام إذا لم تجد فيه ما يحقق لها الحرية والعدل!

وطال المجلس إلى العصر، وقد تحدث الشيخ عبد المجيد.... وقال ما سمعته اليوم من الشيخ حاكم هو ما جاء به الإسلام و لم أجد فيه ما يخالف الكتاب والسنة، والواجب الالتزام بما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين..)..الخ

ورغب إلي الشيخ عبد الوهاب ... بعقد مجلس علمي لمدة ثلاثة أيام، يحضره المشايخ وطلبة العلم عندهم من كل المحافظات، ويقدر عددهم بالمئات لمناقشة الكتب وما ورد فيها، لتجد الدعوة قبولا عاما، فرحبت في الفكرة، ووعدتهم بتخصيص زيارة لهذا الموضوع!

ثم زرت بعد ذلك الضالع برفقة الشيخ عادل... والشيخ .... القادري، والشيخ جلال...، وكانت تعيش مظاهرات يومية وذلك قبل الثورة بنحو سنة تقريبا، وكان معي الشيخ محمد الحنين من الكويت، وقد جمع لنا الشيخ عادل... شيوخ الضالع ودعاتها، وكان موضوع الانفصال عن الشمال قد بات القضية الرئيسة التي تشغلهم، وطلبوا مني كلمة فتحدثت عن أصول الخطاب السياسي القرآني، وما دعا إليه من الوحدة والاعتصام بحبل الله جميعا، وأن الجماعة من أصول أهل السنة، فالدعوة للانفصال تتعارض مع أصول الإسلام والسنة، وليس حل المشاكل التي تعانون منها وتعاني الأمة كلها منها هو بالتفرق وتقسيم اليمن، بل الحل بالإصلاح، ويجب عليكم أن تدعوا إلى الثورة وتحرضوا عليها، لا من أجل انفصال الجنوب، بل من أجل إنقاذ اليمن وشعبه وتحريره من الظلم والطغيان، فهذا هو الواجب عليكم، وتكونون بذلك قد حافظتم على وحدة اليمن الذي يخطط الاستعمار لتقسيمه وإضعافه، وحررتم شعبه وانقذتموه من الطغيان والفساد، وإذا صلح النظام السياسي ستصلح أوضاع الشمال والجنوب..الخ

وقلت لهم إذا تم انفصال الجنوب بدعوى الظلم الواقع عليه، فقد يتم تقسيم الجنوب نفسه بالدعوى نفسها، فحضرموت مرشحة للانفصال وغيرها من المحافظات، وهذا لن يحقق لليمن إلا الانهيار والضعف، وليس هناك أي ضمان حين ينفصل الجنوب أن لا يأتي نظام مستبد فاسد فهل سترفعون شعار الانفصال أيضا؟!

وقلت بأن الدعوة للانفصال لن تجد مستندا شرعيا وإذا تم فتح هذا الباب وتسويغه جاز تقسيم كل قطر عربي اليوم بالشبهة نفسها، لتزداد تشرذما وجاهلية بينما الإسلام جاء بالوحدة والاتحاد، وجعله قرين التوحيد كما في الحديث (إن الله يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا..).

وقد أخبرتهم بأن الشعب في الجنوب يعيش حالة احتقان الآن ولن يسمع إليكم فدعوه وقفوا معه في الثورة على النظام دون أن تؤيدوا دعوة الانفصال، وإذا سقط النظام سيخف الاحتقان وتهدأ النفوس، ويدرك الجميع أن الظلم طال الجميع في الشمال والجنوب، كما بإمكانكم إن نجحت الثورة – ولم تكن الثورة اليمنية قد حدثت آنذاك – أن تشترطوا في المحافظات الجنوبية أن تكون الوحدة على أسس صحيحة تحفظ للجنوب حقوق سكانه إذا كانوا يشعرون بالظلم، وهناك وحدة اتحادية وكونفدرالية في كثير من دول العالم يمكن الاستفادة منها، وكل ذلك في ظل يمن واحد، يكون رصيدا للأمة كلها، التي يجب أن نعمل من أجل تعزيز الوحدة والاتحاد بين دولها لا تقسيمها وتجزئتها..الخ

ثم بعد الضالع ذهبنا إلى عدن حيث التقينا بالشيخ حسين...، والشيخ عبد الرب....، وهما من كبار الدعاة وأهل العلم والفضل، ودار بيني وبين كل واحد منهما حديث عن الأزمة اليمنية خاصة، وأزمة الأمة عامة، والمخرج منها بالدعوة إلى الخطاب السياسي القرآني والنبوي والراشدي، وتحرير الأمة وشعوبها من الظلم والطغيان السياسي الداخلي، والاحتلال والنفوذ الخارجي، والدعوة إلى الوحدة، ووجوب تنظيم الصفوف ونشر الوعي الشرعي والسياسي، والعمل من أجل التغيير ولو بالثورة الخ

ثم زرنا بعدها تعز ثم أب وهناك التقينا بالشيخ ....، من قيادات العمل الإسلامي، وكان على وعي تام ودراية بأوضاع المنطقة وبأحابيل السلطة في اليمن، وكان يتوقد ذكاء وهمة وعزيمة..الخ

لقد كان كتاب (الحرية أو الطوفان) وكتاب (تحرير الإنسان) وغيرهما من الكتب والدراسات والمقالات تجد رواجا بين الشباب، وكانت القناعة بوجوب الثورة تزداد يوما

بعد يوم، وهو ما عبر عنه الدكتور محمد السعيدي اليمني بمقال بعنوان (خارطة طريق سلفية للثورة) :

(كتاب'' الحرية أوالطوفان'' صدرت الطبعة الأولى منه عام٢٠٠٤م، وهو للدكتور حاكم عبيسان الحميدي المطيري الأمين العام الأسبق للحركة السلفية الكويتية، وأستاذ مساعد بقسم التفسير والحديث في كلية الشريعة في جامعة الكويت، ومن المؤسسين لحزب الأمة الكويتي.

تخرج الدكتور المطيري من جامعة الكويت ١٩٨٩م بتقدير ممتاز، وتحصل على الماجستير من جامعة أم القرى في تخصص الحديث الشريف بتقدير ممتاز أيضًا، وحاز على شهادة الدكتوراه فلسفة من قسم الدارسات الإسلامية من جامعة برمنجهام- بريطانيا سنة٢٠٠٠م، وحاصل على الدكتوراه أيضًا في الشريعة قسم فقه المعاملات من جامعة القرويين بفاس المغرب عام٢٠٠٦م بدرجة مشرف جدًا.

الدكتور حاكم المطيري له العديد من المؤلفات والتحقيقات والمقالات، وهو مثالٌ للباحث السلفي الحر، تميز في علوم الشريعة عمومًا وفي علم الحديث بشكل أخص وهو مجال تخصصه، كما أن له مشاركات أدبية ولغوية وله المنظومات الرائعة في العلوم الشرعية وآلاتها، وفي خلال هذا العقد المنصرم برزت له أطروحاته السياسية الجريئة المتميزة، والمتمردة على الخطاب السلفي التقليدي المعاصر.

فجَّر الدكتور السلفي حاكم المطيري قنبلة فكرية شديدة الانفجار، قوية الانشطار بكتابه هذا ''الحرية أو الطوفان''، وعلى إثره استضافه الأستاذ أحمد منصور في برنامجه ''بلا حدود'' مباشرة بعد صدور الكتاب، وقد مُنع هذا الكتاب في كثيرٍ من الدول العربية، وكان موجودًا يباع في مكتبة دار الساقي بلندن بعد أن طبع الطبعة الثانية ٢٠٠٨م، ولكن نفذت نسخه الآن، وهذه دعوة للدكتور إلى إعادة طبع كتابه من جديد.

يُعد هذا الكتاب في نظري قراءة عميقة للخطاب السياسي الشرعي وقد اعتمد في تأليفه لكتابه على الأدوات السلفية الصرفة في البحث والتحرير، من التزامٍ بالصحيح من الأحاديث، واعتماد المقبول من الأخبار والروايات التاريخية، وقد اجتهد وسعه في دراسة

أسانيد الروايات التاريخية والحكم عليها على قوانين القبول والرواية عند أهل الحديث، مع ما في هذا من مشقة كما يعرف هذا أهل الفن.

وقد تبين لي من خلال مطالعتي للكتاب أن هدف الدراسة الرئيس الذي ركز عليه المؤلف في الكتاب هو: إبراز الخطاب السياسي المتزل كما أطلق عليه، ونقض الخطاب السياسي المؤول والمبدل كما عبر بهذا، والذي هو في نظره سبب الانحطاط والتخلف للأمة، في وقت أنه محسوب على السلفية وأهل السنة ويوجد من يرسخه ويشرعنه ويبرر له، حتى صار هو الغالب على الخطاب السلفي اليوم.

وأبرز النقاط المهمة التي ممكن أن التقطها من محيط هذا الكتاب الخارطة:

١- قرر أن الإسلام دين يدعو إلى تحرير الإنسان من العبودية والخضوع لغير الله -عز وجل- إلى دين يوجب على أتباعه الخضوع للرؤساء والعلماء مهما انحرفوا وبدلوا؛ بدعوى طاعة أولي الأمر؟

٢- عاب فيه على العلماء وأنهم اليوم لم يعد يهتمون بحقوق الإنسان وحريته والعدالة الاجتماعية والمساواة.. إلخ، وهي المبادئ التي طالما دعا إليها النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في مكة، وأكدها في المدينة، وهي التي أدت إلى سرعة انتشار الإسلام في العالم كله؛ إذ رأت الأمم أنه دين العدل والمساواة والحرية والرحمة؛ كما قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]

٣- انتقد أطروحات الدعاة في الساحة الدعوية بشجاعة إلى درجة أنه قال عنهم يدعون الناس إلى دين لا قيمة فيه للإنسان وحريته وكرامته وحقوقه، إلى دين لا يدعو إلى العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية، بل يرفض تغيير الواقع ويدعو إلى ترسيخه بدعوى طاعة ولي الأمر؟!! حتى أنه يقول لهم بكل وضوح: "لقد أصبح الناس يدعون اليوم إلى دين إن لم يكن ممسوخًا مشوهًا فهو مختزل ناقص، لا تصلح عليه أمة ولا تستقيم عليه ملة، بل هو أغلال وآصار؛ الإسلام الحق منها براء أدى إلى هذا الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم: من تخلف، وانحطاط، وشيوع للظلم والفساد؛ فكان لابد من مراجعة الخطاب السياسي الإسلامي"

٤- أهم مضامين الكتاب إن لم يكن أهمها على الإطلاق أنه قسم المراحل التاريخية للخطاب السياسي الشرعي إلى مراحل ثلاثٍ: الخطاب السياسي الشرعي المنزل، والخطاب السياسي المؤول، والخطاب المبدل، وهو تقسيم استقرائي بديع لم يسبق إليه في حدود علمي واطلاعي.

المرحلة الأولى: وهي الخطاب السياسي الشرعي المنزل هذا هو الخطاب السياسي الذي يمثل تعاليم الإسلام كما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وأن مبادئ هذا الخطاب الذي يمثل الإسلام المنزل:

لا دين بلا دولة، ولا دولة بلا إمام، ولا إمامة بلا عقد، ولا عقد بيعة إلا برضا الأمة، ولا رضا إلا بشورى بين المسلمين، ولا شورى بلا حرية.

ويرى الدكتور حاكم: "أن ما تعيشه الأمة اليوم من انحطاط وتخلف هو نتيجة طبيعية للانحراف الذي طرأ على الخطاب السياسي الشرعي، الذي جرد الأمة باسم الدين والسنة من حقها في اختيار السلطة ومحاسبتها ومقاومة طغيانها وانحرافها، وإصلاحها عند فسادها، حتى شاع الظلم والاستبداد، وظهر الفساد، فكانت النتيجة الهلاك كما أخبر بذلك القرآن في قوله تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: ١١٧]، أي ما كان الله ليهلك الأمم بسبب الشرك وحده حتى يتجاوزوا ذلك إلى التظالم فيما بينهم"..

يُذِّكر الدكتور الأمة كثيرًا في كتابه بالخطاب السياسي المنزل، ووجوب التمسك بما كان عليه الخلفاء الراشدون في باب الإمامة وسياسة شؤون الأمة، كما جاء عن خَالِدَ بْنِ مَعْدَانَ، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ، وَحُجْرُ بْنُ حُجْرٍ الْكَلَاعِيُّ، قَالَا: أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ، وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة: ٩٢]، فَسَلَّمْنَا وَقُلْنَا: أَتَيْنَاكَ زَائِرَيْنَ وَمُقْتَبِسَيْنِ، فَقَالَ الْعِرْبَاضُ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ

وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، فَتَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٩٣٤]

وأن التمسك بهذا الخطاب هو السنة والسلفية، وما سواه هو من البدع التي أحدثها الملوك والأمراء، وتابعهم على أهوائهم العلماء والفقهاء، اتباعًا منهم لسنن القياصرة والأكاسرة كما أخبر بذلك النبي –صلى الله عليه وسلم–فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ» ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّه، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»[٩٣٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِمَآخِذِ الْأُمَمِ وَالْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ "، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمَا فَعَلَتْ فَارِسُ وَالرُّومُ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَهَلِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟ "[٩٣٦]

كما أنه ركز على إبراز المبادئ الأساسية في نظام الخطاب السياسي المترل، وهي كما ذكرها:

أ – حق الأمة في اختيار السلطة، ومشاركتها الرأي، ومحاسبتها، وخلعها، والاشتراط عليها، ومراقبتها، ونقدها.

ب – وحقها في حرية التفكير والتعبير دون مصادرة أو حجر.

ج – وحقها في مقاومة طغيان السلطة والتصدي له.

د – وحقها في الانتماء والتجمع السياسي والفكري.

ه – وضرورة احترام حقوق الإنسان وحريته التي جاءت بها الشريعة.

و– ووجوب تحقيق العدل والمساواة بين أفراد المجتمع أمام القضاء وفي تولي الوظائف العامة وفق مبدأ تكافؤ الفرص.

---

934 –صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ١٧٨)(٥) صحيح

935 – صحيح البخاري (٩/ ١٠٣) (٧٣٢٠)

936 – مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ٤٠٤)(٨٨٠٥) صحيح

ز – وحق الأمة في التحاكم إلى الشريعة وخلع السلطة عند خروجها على أصولها القطعية.

ح – وحق الأمة في الذود عن أوطانها وإخراج الاستعمار من أرضها وحماية مصالحها.

المرحلة الثانية: مرحلة الخطاب السياسي المؤول:

أما المرحلة الثانية: وهي مرحلة الخطاب السياسي الشرعي المؤول كما سماها، ويرى أنها بدأت بانتهاء الخلفاء الراشدين الأربعة وخلافة ابن الزبير التي كانت تشبه خلافة الراشدين عام٧٣هـ، وانتهت بسقوط الخلافة العثمانية في ١٩٢٤م، وملامحها كما رصدها تمثلت في فيما يلي :

أ- مصادرة حق الأمة في اختيار الإمام، الأمر الذي عد تراجعاً خطيراً للخطاب السياسي، حول الحكم الشورى إلى ملك عضوض، توارثه الأمويون والعباسيون ومن بعدهم بشتى أنواع التأويل لنصوص الكتاب والسنة التي ناقشها المؤلف ورد عليها بكل تفصيل، ومن ذلك ذكر أن مسألة التوريث في الحكم ليست سنة إسلامية فضلاً أن تكون سلفية، وإنما هي سنة هرقلية كسروية.

ب- مصادرة حق الأمة في المشاركة بالرأي والشورى.

ج- وغياب دور الأمة في الرقابة على بيت المال.

د- كما تراجع دور الأمة في مواجهة الظلم والانحراف، والاستسلام إلى الأمراء والانصياع للظلم بذريعة وجوب طاعة ولي الأمر حيناً وبسد ذريعة الفتن حيناً أخرى .

وبرغم سلبيات مرحلة الخطاب السياسي المؤول إلا أن المؤلف ارتأى في نهاية المطاف أنه حافظ على بعض مبادئ الخطاب السياسي المترل كإقامة الملة بتحكيم الشريعة وإقامة الجهاد، والذود عن الحياض، والمحافظة على الخلافة..

المرحلة الثالثة: مرحلة الخطاب السياسي الشرعي المبدل:

هكذا سماها الدكتور (الخطاب السياسي الشرعي المبدل) ويرى أنها بدأت بعد سقوط الخلافة العثمانية إلى عصرنا هذا، وقد تم في هذه المرحلة تبديل شرع الله بأنظمة مستوردة ثم وقوع الأمة كلها في أسر الاستعمار الغربي، وقد برز هذا الخطاب مغلفاً بغلاف الدين

في كتاب الدكتور علي عبد الرازق الذي نفى عن الإسلام فكرة الإسلام السياسي، الأمر الذي سوغ إلى إلغاء الخلافة الإسلامية مما أدى إلى قيام الدولة القطرية تحكمها أنظمة علمانية عميلة، لا ترى وجوب الجهاد ولا تطبيق الشريعة.

٥- ومن المسائل المهمة التي أشار إليها في الكتاب، أن النصوص الشريعة النبوية التي دعت إلى طاعة أولي الأمر من حكام وأمراء مقيدة بثلاثة قيود:

الأول: إقامة الصلاة، فإن ترك الحاكم الصلاة فلا طاعة له، ولا سمع له، بل لا شرعية له ستدلالًا بما في صحيح الإمام مسلم عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِك، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ» ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»[٩٣٧]

القيد الثاني: إقامة الكتاب، والحكم بما فيه، كما في صحيح مسلم عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ، عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ الْحُصَيْنِ، قَالَ: سَمِعْتُهَا تَقُولُ: حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ، وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ، وَالْآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الشَّمْسِ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلًا كَثِيرًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - حَسِبْتُهَا قَالَتْ - أَسْوَدُ، يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[٩٣٨]

---

937 - صحيح مسلم (٣/ ١٤٨١)٦٥ - (١٨٥٥)

938 - صحيح مسلم (٢/ ٩٤٤)٣١١ - (١٢٩٨)

[ش (عبد مجدع) أي مقطع الأعضاء والتشديد للتكثير وإلا فالجدع قطع الأنف والأذن والشفة والذي قطع منه ذلك أجدع والأنثى جدعاء والمقصود التنبيه على نهاية خسته فإن العبد خسيس في العادة ثم سواده نقص آخر وجدعه نقص آخر ومن هذه الصفات مجموعة فيه فهو في نهاية الخسة والعادة أن يكون ممتهنا في أرذل الأعمال]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ الحُصَيْنِ، عَنْ أُمِّهِ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "[٩٣٩]

فاشترط هنا إقامة كتاب الله، ومن لا يقيم كتاب الله لا يستحق طاعة، ولا يجب له سمع.

القيد الثالث: عدم ظهور الكفر البواح ، فعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَهُوَ مَرِيضٌ، قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ، سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ،فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٩٤٠]

أي فإن ظهر الكفر البواح فنازعوهم، فهذه الثلاثة القيود التي قيد بها وجوب السمع والطاعة.

٦- ومن أهم أفكار الكتاب ما أشار إليه في نتائج الدراسة – وهو بيت القصيد هنا – فقد هدد الحكومات عام ٢٠٠٤م بطوفان عارم واجب، وأعلن أن إزالة هذه الأنظمة بطوفان أو ثورة من الواجبات على الأمة، وكأنه وضع بهذا خارطة طريق سلفية قبل سبع سنين للطوفان الذي نراه اليوم على الحكومات العربية، قال: ''فالواجب العمل على تغييرها بكل وسيلة ممكنة، سواء بالعمل السياسي السلمي أو بالعمل الثوري؛ إذ بقاؤها بقاء للاستعمار ولا سبيل إلى زواله إلا بزوالها''.

---

939 – مسند أحمد ط الرسالة (٢٧/ ٢٠٩)(١٦٦٤٩) صحيح

940 – صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥ و٧٠٥٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ - (١٧٠٩)

[ش(أصلحك الله) كلمة اعتادوا أن يقولوها عند الطلب أو المراد الدعاء له بإصلاح جسمه ليعافى من مرضه. (أخذ علينا) اشترط علينا. (على السمع والطاعة) لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. (منشطنا) حالة نشاطنا. (مكرهنا) في الأشياء التي نكرهها وتشق علينا. (أثرة علينا) استئثار الأمراء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم أي ولو منعنا حقوقنا. (الأمر) الملك والإمارة. (كفرا) منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فتكون المنازعة بالإنكار عليهم. أو كفرا ظاهرا فينازعون بالقتال والخروج عليهم وخلعهم. (بواحا) ظاهرا وباديا. (برهان) نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل]

بل رأى أنه لا خيار للأمة إلا أن تأخذ بهذه الخارطة، وهي خيارها الوحيد، وهذه الجملة هي آخر جملة ختم بها الكتاب قال: ''وليس أمام الأمة للخروج من هذا التيه سوى الثورة أو الطوفان!''.

وهذا هو الخيار الذي أخيرًا لجئت إليه الأمة هذه الأيام، ومع أن هذا الطرح الذي تبناه الدكتور من فترة كنا نعتبره نوعًا ما غير واقعي، إلا أنه اليوم صار هو الخيار الشعبي الذي تكاد تكون الشعوب العربية اتفقت عليه وارتضته اليوم، وأصبح يتبناه العلماء والدعاة والمفكرون والسياسيون وأهل الحل والعقد وغالبية الأفراد، وبناء على ذلك قلت أن الدكتور وضع خارطة الطوفان على الحكام بكتابه هذا، وهو ينتسب إلى المدرسة السلفية، ولذا قلت عن الكتاب'' أنه خارطة طريق ٢٠٠٤م السلفية للثورات العربية على الحكام ..(انتهى مقال الدكتور محمد السعيدي كاتب وباحث يمني مقيم في بريطانيا ..

وما زلنا مع أسطورة الثورة العربية، ورياح الثورة اليمنية، فللحديث بقية ..[٩٤١]

[941] - http://www.dr-hakem.com/Portals/Content/?info=TnpZekpsTjFZbEJoWjJVbU1RPT0rdQ==.jsp

المبحث الثامن والعشرون

رسالة مفتوحة إلى حكام البلاد العربية وغيرها

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فالسلام على من اتبع الهدى،وترك طرق الردى.

أيها الحاكم

أيها الرئيس

أيها الأمير

أيها الملك

أيها المسؤول الكبير:

الوصول للسلطة بالقوة والعمالة:

اعلموا أنكم لم تصلوا إلى سدة الحكم إلا لأن الذي قبلكم قد مات أو قمتم عليه بانقلاب دموي أو....

وهذا الكرسي لن يدوم لكم طويلا،فسوف تزولون كما زال من قبلكم من الطغاة والمجرمين،قال تعالى:{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)} [الفجر:٦ - ١٤]

كَانَ قَوْمُ عَادٍ أَشِدَّاءَ،عِظَامَ الخَلَقِ،وَكَانُوا خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى،مُكَذِّبِينَ رُسُلَهُ،فَذَكَرَ تَعَالَى كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ،وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ لِيَتَّعِظَ مُشْرِكُو العَرَبِ،وَلاَ يَغْتَرُّوا بِقُوَّتِهِمْ وَمَالِهِمْ وَعَدَدِهِمْ .

وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى كَيْفَ دَمَّرَ مَدينتهُمْ (إِرَمَ) ذَاتَ الأَعْمَدَةِ الضَّخْمَةِ،(وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ المَقْصُودَ بالعَمَدِ هُوَ عَمَدُ الخِيَامِ لَمَا كَانَتْ لَهُمْ مَدِينَةٌ ثَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ يَذْكُرُهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ) .

التِي لَمْ يُخْلَقْ فِي البِلاَدِ كُلِّهَا نَظِيرٌ لَهَا . (وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ تَمْتَازُ بِأَبْنِيَةٍ لاَ مَثِيلَ لَهَا) .

أَوَ لَمْ تَعْلَمْ كَيْفَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عِقَابَهُ بِثَمُودَ،قَوْمِ صَالِحٍ،فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعاً،وَثَمُودُ هَؤُلاَءِ هُمُ الذِينَ قَطَعُوا الصَّخْرَ وَنَحَتُوهُ فِي الوَادِي،وَبَنَوْا بِهِ القُصُورَ وَالأَبْنِيَةَ العَظِيمَةَ . (وَثَمُودُ قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ مِنْ سَكّانِ وَادِي القُرَى،وَتُعْرَفُ مَدِينَتُهُم اليَومَ بِمَدَائِنِ صَالِحٍ) .

أَوَ لَمْ تَعْلَمْ كَيْفَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عِقَابَهُ بِفِرْعَوْنَ ذِي المَبَانِي العَظِيمَةِ التِي شَادَهَا هُوَ وَمَنْ قَبْلَهُ كَالأَهْرَامَاتِ وَالمسَلاَّت .

(وَلَفَتَ الأُسْتَاذ المَرَاغِي فِي تَفْسِيرِهِ النَّظَرَ إِلَى أَنَّ شَكْلَ المِسَلاَّتِ التِي بَنَاهَا الفَرَاعِنَةُ فِي مَصْرَ يُشْبِهُ شَكْلَ الوَتِدِ المَقْلُوبِ الذِي تُشَدُّ بِهِ الخِيَامُ) .

(وَقِيلَ إِنَّ فِرْعَوْنَ سُمِّيَ بِذِي الأَوْتَادِ لأَنَّهُ ضَرَبَ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي الأَرْضِ وَشَدَّ إِلَيهَا أَطْرَافَ زَوْجَةٍ لَهُ حَتَّى هَلَكَتْ) .

وَهَؤُلاَءِ الذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَفِرْعَوْنَ . . قَدِ اسْتَعْمَلُوا سُلْطَانَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ فِي الطُّغْيَانِ،وَالتَّجَاوزِ عَلَى حُقُوقِ العِبَادِ . فَانْتَشَرَ الفَسَادُ وَعَمَّ البِلاَدَ،وَضَجَّ النَّاسُ بِالشَّكْوَى مِنَ الظُّلْمِ . فَصَبَّ اللهُ عَلَيْهِمْ أَلْوَاناً مُلْهِبَةً مِنَ العَذَابِ وَالبَلاَءِ عِقَاباً لَهُمْ عَلَى مَا أَجْرَمُوا .

وَاللهُ سُبْحَانَهُ عَالِمُ بِمَا يَفْعَلُهُ الطُّغَاةُ،وَهُوَ يَرْصُدُ تَصَرُّفَاتِهِمْ وَيُرَاقِبُهَا،وَلاَ يَفُوتُهُ شَيءٌ مِنْهَا،فَأَخَذَ هَؤُلاَءِ العُتَاةَ الطُّغَاةَ الكَافِرِينَ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ .[٩٤٢]

هؤلاء هم «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ،فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ» .. وليس وراء الطغيان إلا الفساد. فالطغيان يفسد الطاغية،ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء. كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة. ويحول الحياة عن خطها السليم

---

[942] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٨٧٦، بترقيم الشاملة آليا)

النظيف،المعمر الباني،إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال .. إنه يجعل الطاغية أسير هواه،لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت،ولا يقف عند حد ظاهر،فيفسد هو أول من يفسد ويتخذ له مكانا في الأرض غير مكان العبد المستخلف وكذلك قال فرعون .. «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى» عندما أفسده طغيانه،فتجاوز به مكان العبد المخلوق،وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح،وهو فساد أي فساد.

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء،مع السخط الدفين والحقد الكظيم،فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية،وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية. والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن،وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة. وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك. وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع،وهو فساد أي فساد ..

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة،لأنها خطر على الطغاة والطغيان. فلا بد من تزييف للقيم،وتزوير في الموازين،وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة،وتراها مقبولة مستساغة .. وهو فساد أي فساد.

فلما أكثروا في الأرض الفساد،كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد: «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» .. فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم. فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب،وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط،وبفيضه وغمره حين يذكر الصب. حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية،على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد. ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان.

ومن قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» تفيض طمأنينة خاصة. فربك هناك. راصد لا يفوته شيء. مراقب لا يند عنه شيء. فليطمئن بال المؤمن،ولينم ملء جفونه. فإن ربه هناك! .. بالمرصاد .. للطغيان والشر والفساد! وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله في أمر الدعوة،غير النموذج الذي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود. وقد كان القرآن – ولا يزال – يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك. وفق الحالات والملابسات. ويعد نفوس

المؤمنين لهذا وذاك على السواء. لتطمئن على الحالين. وتتوقع الأمرين،وتكل كل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء.«إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» .. يرى ويحسب ويحاسب ويجازي،وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء ..[٩٤٣]

صفات الحاكم المسلم :

فالله تعالى قد أمر الحاكم أن يحكم بالعدل ولا يتبع الهوى،قال تعالى:{ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص:٢٦]

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِدَاوُدَ : إِنَّهُ جَعَلَهُ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ،نَافِذَ الكَلِمَةِ والحُكْمِ بَينَ الرَّعِيَّةِ،فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَالعَدْلِ،وَأَنْ لاَ يَتَّبِعَ الهَوَى لأَنَّ اتِّبَاعَ الهَوَى يَكُونُ سَبَباً لِلضَّلاَلَةِ وَالجَوْرِ عَنِ الطَّرِيقِ القَوِيمِ الذِي شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى .ثَمَّ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ الذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَهُدَاهُ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ (يَوْمَ الحِسَابِ) عَذَابٌ شَدِيدٌ لِنِسْيَانِهِمْ ذَلِكَ اليَومَ،وَإِنَّ اللهَ سَيُحَاسِبُ العِبَادَ فِيهِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ جَمِيعاً،صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا .[٩٤٤]

وقال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل:٩٠]

إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي كِتَابِهِ الذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم بِالعَدْلِ وَالإِنْصَافِ،وَيَنْدُبُ إِلَى الإِحْسَانِ وَالفَضْلِ،وَيَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحْمِ وَإِعْطَاءِ ذَوِي القُرْبَى مَا هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ،وَيَنْهَى عَنِ ارْتِكَابِ المُحَرَّمَاتِ وَالمُنْكَرَاتِ وَالفَوَاحِشِ،مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،مِمَّا يَأْتِيهِ العَبْدُ سِرّاً وَخِفْيَةً وَاللهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالخَيْرِ،وَيَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَالشَّرِّ،لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ فِي الفِطْرَةِ مِنْ وَحْيٍ قَوِيمٍ أَصِيلٍ،فَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ[٩٤٥].

---

943 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٤٨٥٢)

944 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٨٧٥، بترقيم الشاملة آليا)

945 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٩١، بترقيم الشاملة آليا)

وقد أمر بالعدل مع القريب والبعيد والعدو والصديق،قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة:٨]

يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لِيَكُنْ هَمَّكُمْ وَدَأْبُكُمُ التِزَامَ الحَقِّ فِي أَنْفُسِكُمْ (بِدُونِ اعْتِدَاءٍ عَلَى أَحَدٍ)،وَفِي غَيْرِكُمْ (بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَحْدَهُ،لاَ لأَجْلِ إِرْضَاءِ النَّاسِ،وَاكْتِسَابِ السُّمْعَةِ الحَسَنَةِ عِنْدَهُمْ)،وَكُونُوا شُهَدَاءَ بِالعَدْلِ (القِسْطِ)،دُونَ مُحَابَاةٍ لِمَشْهُودٍ لَهُ،وَلاَ لِمَشْهُودٍ عَلَيهِ،فَالعَدْلُ مِيزَانُ الحُقُوقِ،وَمَتَى وَقَعَ الجُورُ فِي أُمَّةٍ،زَالَتِ الثِّقَةُ مِنْ نُفُوسِ النَّاسِ،وَانْتَشَرَتِ المُفَاسِدُ،وَتَقَطَّعَتْ رَوَابِطُ المُجْتَمَعِ . وَلاَ تَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَتُكُمُ الشَّدِيدَةُ لِقَوْمٍ،وَبُغْضُكُمْ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ العَدْلِ فِي أَمْرِ الشَّهَادَةِ لَهُمْ بِحَقِّهِمْ إِذَا كَانُوا أَصْحَابَ حَقٍّ،أَوْ عَلَى عَدَمِ الحُكْمِ لَهُمْ بِذَلِكَ،فَالمُؤْمِنُ يُؤْثِرُ العَدْلَ عَلَى الجُورِ وَالمُحَابَاةِ . ثُمَّ يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى أَمْرَهُ السَّابِقَ بِضَرُورَةِ إِقَامَةِ العَدْلِ،وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالقِسْطِ فَيَقُولُ : اعْدِلُوا لأَنَّ العَدْلَ أَقْرَبُ لِتَقْوَى اللهِ،وَأَبْعَدُ عَنْ سَخَطِهِ،وَاتَّقُوا سَخَطَ اللهِ وَعِقَابَهُ لأَنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا،وَاحْذَرُوا أَنْ يُجَازِيَكُمْ بِالعَدْلِ عَلَى تَرْكِكُمُ القِيَامَ بِالعَدْلِ .[٩٤٦]

وأمر الإسلام بالمساواة في تطبيق الحدود وفي المعاملة،فعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ،أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ الفَتْحِ،فَفَزِعَ قَوْمُهَا إِلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَهُ،قَالَ عُرْوَةُ:فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيهَا،تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ»،قَالَ أُسَامَةُ:اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَلَمَّا كَانَ العَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ خَطِيبًا،فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:" أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ:أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "

---

946 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بتلْكَ المَرْأَة فَقُطعَتْ يَدُهَا،فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلكَ وَتَزَوَّجَتْ قَالَتْ عَائشَةُ:«فَكَانَتْ تَأْتي بَعْدَ ذَلكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إلَى رَسُول اللَّه ﷺ»[٩٤٧]

وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" مَا منْ أَميرِ عَشيرَةٍ إلَّا يُؤْتَى به يَوْمَ الْقيَامَة مَغْلُولًا حَتَّى يَفُكَّ عَنْهُ الْعَدْلُ أَوْ يُنْفقَهُ الْجَوْرُ ".قَالَ:فَقَالَ بَعْضُهُمْ:" يُوبقَهُ الْجَوْرُ "[٩٤٨]

وأمر بأداء الأمانة لأصحابها،قال تعالى:{ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَات إلَى أَهْلهَا وَإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بالْعَدْلِ إنَّ اللَّهَ نعمَّا يَعظُكُمْ به إنَّ اللَّهَ كَانَ سَميعًا بَصيرًا} [النساء:٥٨]

وأهم أمور الأمانة تولية الإنسان المناسب في المكان المناسب،قال تعالى:{وَقَالَ الْمَلكُ ائْتُوني به أَسْتَخْلصْهُ لنَفْسي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكينٌ أَمينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْني عَلَى خَزَائنِ الْأَرْضِ إنِّي حَفيظٌ عَليمٌ (٥٥) وَكَذَلكَ مَكَّنَّا ليُوسُفَ في الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ منْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصيبُ برَحْمَتنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسنينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخرَة خَيْرٌ للَّذينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)} [يوسف:٥٤ - ٥٧]

وإنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوّل بها رؤيا الملك،خيرا مما ينهض بها أحد في البلاد وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحا من الموت وبلادا من الخراب،ومجتمعا من الفتنة - فتنة الجوع - فكان قويا في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته،قوته في الاحتفاظ بكرامته وإبائه: «قالَ: اجْعَلْني عَلى خَزائنِ الْأَرْضِ. إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» ..

والأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها. وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجدب على السواء. ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرى أنه أقدر عليها،وأن وراءها خيرا كبيرا لشعب مصر وللشعوب المجاورة: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» ..

---

947 -[صحيح البخاري ٥/ ١٥٢](٤٣٠٤)

948 -[السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٨٤](٥٣٤٥) صحيح

ولم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض .. إنما كان حصيفا في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة وليكون مسؤولا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات،لا زرع فيها ولا ضرع. فليس هذا غنما يطلبه يوسف لنفسه. فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة. إنما هي تبعة يهرب منها الرجال،لأنها قد تكلفهم رؤوسهم،والجوع كافر،وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون.[٩٤٩]

وجودكم من علامات الساعة :

ومن علامات الساعة وضع الإنسان في غير ما يستحق حسب عمالته للنظام الحاكم،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ،جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ:مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ،فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ:سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ.وَقَالَ بَعْضُهُمْ:بَلْ لَمْ يَسْمَعْ،حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ:«أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ:هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»،قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ:«إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[٩٥٠]

ومن علامات الساعة تولية أراذل الناس،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ،وَالْبُخْلُ،وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ،وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ،وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ،وَتَظْهَرَ التُّحُوتُ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوُعُولُ

---

949 - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٢٦٤٨)

950 -[صحيح البخاري ١/ ٢١](٥٩)

[ش (فمضى) استمر.(قضى) انتهى منه.(أراه) أظنه قال هذا.قال في الفتح والشك من محمد بن فليح - أحد رجال السند - ورواه الحسن بن سفيان وغيره عن عثمان بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن فليح ولفظه (أين السائل) ولم يشك.(وسد) أسند.(غير أهله) من ليس كفأ له]

وَالتَّحُوتُ؟ قَالَ:«الْوُعُولُ:وجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ،وَالتَّحُوتُ:الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ».[٩٥١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ،يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ،وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ،وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ،وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ،وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»،قِيلَ:وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ:«الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»[٩٥٢]

صفات الحاكم الصالح:

أيها الحاكم

إن الحاكم الصالح هو الذي يثيب المحسنين ويعاقب المسيئين

قال تعالى:{قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)} [الكهف:٨٦ - ٨٨]

وَوَجَدَ فِي المَكَانِ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ فِي سَيْرِهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ كُفَّاراً،وَقَدْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ بِطَرِيقِ الإِلْهَامِ : إِمَّا أَنْ يَقْتُلَهُمْ،إِنْ هُمْ لَمْ يُقِرُّوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ،وَإِمَّا أَنْ يَأْمُرَ بِتَعْلِيمِهِمْ طَرِيقَ الهُدَى وَالرَّشَادِ،وَيُبَصِّرَهُمْ بِأَحْكَامِ الشَّرَائِعِ وَالقَوَانِينِ .

فَأَعْلَنَ ذُو القَرْنَيْنِ فِي أَفْرَادِ هَذِهِ الأُمَّةِ أَنَّهُ مَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ نَفْسَهُ،وَاسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ بِرَبِّهِ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ بِالْقَتْلِ فِي الدُّنْيا،وَحِينَ يَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَإِنَّهُ سَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً شَدِيداً مُؤْلِماً .

---

951 -[صحيح ابن حبان - مخرجا ١٥/ ٢٥٨](٦٨٤٤) صحيح لغيره

952 -[سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٣٩](٤٠٣٦) صحيح

[ش - (سنوات خداعات) الخداع المكر والحيلة.وإضافة الخداعات إلى السنوات مجازية.والمراد أهل السنوات.وقال في النهاية سنون خداعة أي تكثر فيها لأمطار ويقل الريع فذلك خداعها.لأنها تطمعهم في الخصب بالمطر ثم تخلف.وقيل الخداعة القليلة المطر من خدع الريق إذا جف.(الرويبضة) تضغير رابضة.وهو العاجز الذي ربض عن مغالي الأمور وقعد عن طلبها.وتاؤه للمبالغة.(في أمر العامة) متعلق به ينطق.]

وَأَمَّا مَنْ تَابَعَنَا عَلَى مَا نَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ،وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،فَلَهُ الْمَثُوبَةُ الْحُسْنَى فِي الدَّارِ الآخِرَةِ،جَزَاءً لَهُ عَلَى إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ،وَسَنُعَامِلُهُ بِرِفْقٍ فِي الدُّنْيَا،وَسَنُعَلِّمُهُ مَا يَتَيَسَّرُ لَنَا تَعْلِيمُهُ مِمَّا يُقَرِّبُهُ إِلَى رَبِّهِ،وَيَلِينُ لَهُ قَلْبُهُ،وَلاَ يَشُقُّ عَلَيْهِ فِعْلُهُ .[٩٥٣]

لقد أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه،وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذابا فظيعا «نُكْراً» لا نظير له فيما يعرفه البشر. أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن،والمعاملة الطيبة،والتكريم والمعونة والتيسير. وهذا هو دستور الحكم الصالح. فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم.

والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء .. وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسنا،ومكانا كريما وعونا وتيسيرا ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة .. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج. أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون. فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد. ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.[٩٥٤]

وهو الذي يخفض جناحه للمؤمنين،قال تعالى:{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء:٢١٥]

يَأْمُرُ اللهُ تَعالى رسُولَه محمداً صلى الله عليه وسلم،بأنْ يُلِينَ جَانِبَهُ لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ عِبادِ اللهِ المُؤمنينَ،وأَنْ يَتَرَفَّقَ بِهِمْ،فَذَلِكَ أَدْعَى لاِخْلاصِهِمْ للرّسُولِ،ولِزِيَادَةِ مَحَبَّتِه .[٩٥٥]

والحاكم الصالح لا يطلب الحكم بنفسه

بل الناس الأحرار العقلاء هم الذين يبحثون عنه ويختارونه،فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلاَنِ مِنْ قَوْمِي،فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ:أَمِّرْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَهُ،فَقَالَ:«إِنَّا لاَ نُوَلِّي هَذَا مَنْ سَأَلَهُ،وَلاَ مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ»[٩٥٦]

---

953 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٢٢٦، بترقيم الشاملة آليا)

954 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٩٨١)

955 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٠٢٩، بترقيم الشاملة آليا)

956 –[صحيح البخاري ٩/ ٦٤](٧١٤٩)

وعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ،وَسَتَصِيرُ حَسْرَةً،وَنَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ - نِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ،وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ "[957]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ:فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي،ثُمَّ قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ،إِنَّكَ ضَعِيفٌ،وَإِنَّهَا أَمَانَةُ،وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ،إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا،وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[958]

الحاكم المسلم الصالح هو الذي يحكم بمال أنزل الله تعالى:

قال تعالى:{ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ

---

957 -[مسند أحمد ط الرسالة ١٦/ ١٤٠](١٠١٦٢) صحيح

958 -[صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٧]١٦ - (١٨٢٥) [ش (إنك ضعيف وإنها أمانة) هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلا لها أو كان أهلا و لم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويقضحه ويندم على ما فرط وأما من كان أهلا للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة]

لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) } [المائدة:٤٤-٥٠]

والحاكم المسلم لا يتحاكم إلى الطاغوت:

قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)} [النساء:٦٠ - ٦٣]

يُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَدَّعِي الإِيمَانَ باللهِ،وَكُتُبِه وَرُسُلِه،وَهُوَ مَعْ ذَلِكَ يُرِيدُ أنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَصْلِ الخُصُومَاتِ إلى غَيْرِ كِتَابِ اللهِ،وَسُنَّةِ نَبِيِّه .

وَيَذُمُّ اللهُ تَعَالَى الذينَ يَعْدِلُونَ عَنْ شَرْعِ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّه،إلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ البَاطِلِ (وَهُوَ المُرَادُ هُنَا بالطَّاغُوتِ)،وَقَدْ أُمِرُوا بِأَنْ يَكْفُرُوا بِه،وَبِحُكْمِ الجَاهِلِيَّة،وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْعُوهُمْ الى اتِّبَاعِه لِيُضِلَّهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَشَرْعِهِمْ وَهُدَى رَبِّهِمْ،وَيُبْعِدَهُمْ عَنْهَا .

وَإِذَا دُعِيَ هَؤُلاءِ – الذينَ يَدَّعُونَ الإِيمَانَ،ثُمَّ يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إلى الطَّاغُوتِ – إلى رَسُولِ اللهِ لِلتَّحَاكُمِ لَدَيْه،وفْقاً لِمَا شَرَعَ اللهُ،اسْتَكْبَرُوا وَأَعْرَضُوا وَرَغِبُوا عَنْ حُكْمِ رَسُولِ اللهِ إعْرَاضاً مُتَعَمَّداً مِنْهُمْ .

فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ إذَا سَاقَتْهُمُ المَقَادِيرُ إلَيكَ فِي مَصَائِبَ تَحِلُّ بِهِمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ،وَاحْتَاجُوا إلَيْكَ فِي ذَلِكَ،ثُمَّ جَاؤُوكَ يَعْتَذِرُونَ إلَيْكَ،وَيَحْلِفُونَ باللهِ أَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا بِذَهَابِهِمْ إلى غَيْرِكَ،وَبِتَحَاكُمِهِمْ إلَى أَعْدَائِكَ،إلا المُدَارَاةَ وَالمُصَانَعَةَ (إحْسَاناً وَتَوْفِيقاً)،لاَ اعْتِقَاداً مِنْهُمْ بِصِحَّةِ تِلْكَ الحُكُومَةِ .[٩٥٩]

إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان،أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به،وإلى من آمن به. فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل،وبالرسول وما أنزل إليه. ثم دعي إلى هذا الذي آمن

[959] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٥٣، بترقيم الشاملة آليا)

به،ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية. فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية. ويكشف عن النفاق. وينبيء عن كذب الـزعم الذي زعمه من الإيمان! وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله - سبحانه - أولئك الـذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله. ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله. بل يصـدون عـن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودا! ثم يعرض مظهرا من مظاهر النفـاق في سـلوكهم حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت. ومعاذيرهم عند ذلك. وهي معـاذير النفـاق: «فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ - بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ - ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ: إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً» ..

وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة - يومـذاك - حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء في الوسط المسلم. فما يطيق المجتمـع المسلم أن يرى من بينه ناسا يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل،وبالرسول وما أنزل إليـه ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها .. إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان. وكل ما له من الإيمان زعم كزعم هؤلاء وكـل ما له من الإسلام دعوى وأسماء! أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم نتيجة التحـاكم إلى غير نظام الله العادل ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت في قضية من قضاياهم. أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم. لعلهم يتفكرون ويهتدون ..

وأياما كان سبب المصيبة فالنص القرآني،يسأل مستنكرا: فكيف يكون الحـال حينئـذ! كيف يعودون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً» ...

إنها حال مخزية .. حين يعودون شاعرين بما فعلوا ... غير قادرين على مواجهة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحقيقة دوافعهم. وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين: أنهم مـا أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت - وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية - إلا رغبـة في الإحسـان والتوفيق! وهي دائما دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته: أنهـم

يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب،التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة .. إنها حجة الذين يزعمون الإيمان – وهم غير مؤمنين – وحجة المنافقين الملتوين .. هي هي دائما وفي كل حين![960]

وقال ابن كثير:"ذَكَرَ الْجُوَيْنِيُّ شَيْئًا مِنَ الْيَاسَاقِ مِنْ ذَلِكَ،أَنَّهُ مَنْ زَنَا قُتِلَ،مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ،وَكَذَلِكَ مَنْ لَاطَ قُتِلَ،وَمَنْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ قُتِلَ،وَمَنْ سَحَرَ قُتِلَ،وَمَنْ تَجَسَّسَ قُتِلَ،وَمَنْ دَخَلَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فَأَعَانَ أَحَدَهُمَا قُتِلَ،وَمَنْ بَالَ فِي الْمَاءِ الْوَاقِفِ قُتِلَ،وَمَنِ انْغَمَسَ فِيهِ قُتِلَ،وَمَنْ أَطْعَمَ أَسِيرًا أَوْ سَقَاهُ أَوْ كَسَاهُ بِغَيْرِ إِذْنِ أَهْلِهِ قُتِلَ،وَمَنْ وَجَدَ هَارِبًا وَلَمْ يَرُدَّهُ قُتِلَ،وَمَنْ رَمَى إِلَى أَحَدٍ شَيْئًا مِنَ الْمَأْكُولِ قُتِلَ،بَلْ يُنَاوِلُهُ مِنْ يَدِهِ إِلَى يَدِهِ،وَمَنْ أَطْعَمَ أَحَدًا شَيْئًا فَلْيَأْكُلْ مِنْهُ أَوَّلًا،وَلَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ أَمِيرًا لِأَسِيرٍ،وَمَنْ أَكَلَ وَلَمْ يُطْعِمْ مَنْ عِنْدَهُ قُتِلَ،وَمَنْ ذَبَحَ حَيَوَانًا ذُبِحَ مِثْلَهُ،بَلْ يَشُقُّ جَوْفَهُ،وَيَتَنَاوَلُ قَلْبَهُ بِيَدِهِ يَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَوْفِهِ أَوَّلًا.

وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ مُخَالَفَةٌ لِشَرَائِعِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى عِبَادِهِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،فَمَنْ تَرَكَ الشَّرْعَ الْمُحْكَمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ،وَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَنْسُوخَةِ كَفَرَ،فَكَيْفَ بِمَنْ تَحَاكَمَ إِلَى " الْيَاسَاقِ " وَقَدَّمَهَا عَلَيْهِ؟ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَفَرَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة:٥٠] " ".وَقَالَ تَعَالَى:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]." [961]

قدوتكم فرعون :

أنتم قدوتكم فرعون وليس رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون،قال تعالى:{قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩]

---

960 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٣٨)

961 –[البداية والنهاية ط هجر ١٧/ ١٦٢]

إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابا،وأعتقده نافعا.وإنه لهو الصواب والرشد بلا شـــك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا؟! وإلا فلم كانوا طغاة؟![٩٦٢]

إن من المستغرب حقا أن يخشى أصحاب السلطان والقهر المعتمدين على الجند أو الجيش أو العسكر المدجج بأنواع الأسلحة الفتاكة،من الأنبياء والرسل والقادة المصلحين الـــذين ليس لهم إلا البيان القوي،والحجة الهادفة،والكلمة المؤثرة. وما ذاك إلا لأن الحق فوق القوة وأثبت منها وأنفذ،لذا تهتز العروش بصوت الحق،ولا يتأثر أصحابها ببأس الأقويـــاء،وقوة الشجعان.

فهذا فرعون الطاغية ملك مصر يحذر رجلا عاديا هو موسى عليه السلام لا سند له مـــن قوة مادية أو سلاح أو عسكر.[٩٦٣]

صفات الخلفاء الراشدين :

وأما الخلفاء الراشدون فقالوا :فعَنِ الْحَسَنِ ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْـــهُ خَطَـــبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التَّقْوَى،وَأَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ ، أَلَا وَإِنَّ الصِّدْقَ عِنْدِي الْأَمَانَةُ،وَالْكَذِبَ الْخِيَانَةُ ، أَلَا وَإِنَّ الْقَوِيَّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ،وَالضَّعِيفَ عِنْدِي قَوِيٌّ حَتَّى آخُذَ لَهُ الْحَقَّ ، أَلَا وَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْـــتُ بِأَخْيَرِكُمْ " قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ وَاللهِ خَيْرُهُمْ غَيْرُ مُدَافَعٍ ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَهْضِمُ نَفْسَـــهُ. ثُـــمَّ قَالَ: " وَلَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَفَانِي هَذَا الْأَمْرَ أَحَدُكُمْ " – قَالَ الْحَسَنُ: صَدَقَ وَاللهِ – وَإِنْ أَنْـــتُمْ أَرَدْتُمُونِي عَلَى مَا كَانَ اللهُ يُقِيمُ نَبِيَّهُ مِنَ الْوَحْيِ مَا ذَلِكَ عِنْدِي ، إِنَّمَا أَنَا بَشَـــرٌ،فَرَاعُونِي. فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى السُّوقِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: " أَيْنَ تُرِيدُ؟ " قَالَ: السُّوقَ. قَالَ: " قَدْ جَاءَكَ مَا يَشْغَلُكَ عَنِ السُّوقِ "،قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ يَشْغَلُنِي عَنْ عِيَالِي. قَالَ: تُعْـــرِضُ بِالْمَعْرُوفِ،قَالَ: " وَيْحَ عُمَرَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا يَسَعُنِي أَنْ آكُلَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْئًا " قَالَ:

---

962 -[في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٠]

963 - التفسير المنير للزحيلي (٢٤/ ١١٩)

فَأَنْفِقْ فِي سَنَتَيْنِ وَبَعْضِ أُخْرَى ثَمَانِيَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ. فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ: قَدْ كُنْتُ قُلْتُ لِعُمَرَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا يَسَعَنِي أَنْ آكُلَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْئًا،فَغَلَبَنِي فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَخُذُوا مِنْ مَالِي ثَمَانِيَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَرُدُّوهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ. قَالَ: فَلَمَّا أُتِيَ بِهَا عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: " رَحِمَ اللهُ أَبَا بَكْرٍ،لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ تَعَبًا شَدِيدًا "[964]

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَرَسِيِّ،مِنْ حَرَسِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: دَخَلَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ،فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَجِيرُ» فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ،الْأَمِيرُ يَا أَبَا مُسْلِمٍ،ثُمَّ قَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَجِيرُ» فَقَالَ النَّاسُ: الْأَمِيرُ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: دَعُوا أَبَا مُسْلِمٍ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ،فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: «إِنَّمَا مَثَلُكَ مَثَلُ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَوَلَّاهُ مَاشِيَتَهُ وَجَعَلَ لَهُ الْأَجْرَ عَلَى أَنْ يُحْسِنَ الرِّعْيَةَ،وَيُوَفِّرَ جِزَازَهَا وَأَلْبَانَهَا،فَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ رِعْيَتَهَا وَوَفَّرَ جِزَازَهَا حَتَّى تَلْحَقَ الصَّغِيرَةُ وَتَسْمَنَ الْعَجْفَاءُ أَعْطَاهُ أَجْرَهُ وَزَادَهُ زِيَادَةً،وَإِنْ هُوَ لَمْ يُحْسِنْ رِعْيَتَهَا وَأَضَاعَهَا حَتَّى تَهْلَكَ الْعَجْفَاءُ وَتَعْجَفَ السَّمِينَةُ وَلَمْ يُوَفِّرْ جِزَازَهَا وَأَلْبَانَهَا غَضِبَ عَلَيْهِ فَعَاقَبَهُ وَلَمْ يُعْطِهِ الْأَجْرَ» فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ"[965]

وعن شَبِيبَ بْنِ شَيْبَةَ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى الْمَهْدِي،فَقَالَ لِي : يَا أَبَا مَعْمَرٍ حَدِّثْنِي عَنْ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ،فَوَاللهِ لَرَأَيْتُهُ يَوْمًا،وَدَخَلَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ،فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَاكَ الدُّنْيَا بِكَمَالِهَا،فَاشْتَرِ نَفْسَكَ مِنْهُ بِبَعْضِهَا،وَاعْلَمْ أَنَّكَ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ،وَسَائِلُكَ عَنْ مَثَاقِيلِ الذَّرِّ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ،وَإِنَّهُ لا يَرْضَى مِنْكَ إِلا بِمَا لا تَرْضَى لِنَفْسِكَ إِلا بِهِ،وَأَنْتَ لا تَرْضَى إِلا بِأَنْ يَعْدِلَ عَلَيْكَ،وَاللهُ تَعَالَى لا يَرْضَى إِلا بِالْعَدْلِ عَلَى الرَّعِيَّةِ،يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّ وَرَاءَ بَابِكَ نَارًا،تَأَجَّجُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ،وَاللهِ مَا يُعْمَلُ خَلْفَ بَابِكَ بِكِتَابِ اللهِ وَلا سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ،قَالَ : فَبَكَى أَبُو جَعْفَرٍ بُكَاءً شَدِيدًا،فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ بْنُ مُجَالِدٍ : اكْفُفْ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،فَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيْهِ،فَقَالَ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَيِّتٌ غَدًا،وَكُلُّ مَا تَرَى هَاهُنَا أَمْرٌ مُفْظِعٌ،وَأَنْتَ جِيفَةٌ بِالْعَرَاءِ،فَلا يُغْنِي عَنْكَ إِلا عَمَلُكَ،وَلَهَذَا الْجِدَارُ خَيْرٌ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكَ إِذَا طَوَيْتَ عَنْهُ النَّصِيحَةَ،وَأَفَقْتَ مِنَ الْفَضِيحَةِ،ثُمَّ قَالَ : يَا

---

964 - [السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٥٧٤](١٣٠٠٩) صحيح لغيره

965 - [فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم ص: ١٦٦] (٤٦) حسن

أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّ هَؤُلاءِ اتَّخَذُوكَ سُلَّمًا لِشَهَوَاتِهِمْ،فَكُلُّهُمْ يُوقِدُ عَلَيْكَ نَارَهُ،ثُمَّ تَلا « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ »[الْفَجْرُ : ٦] إِلَى أَنْ بَلَغَ « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ »[الْفَجْرُ : ١٤]،يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِينَ،لِمَنْ عَمِلَ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ،وَفَعَلَ مِثْلَ فِعَالِهِمْ،يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِين،لَوْلا أَنَّهَا مَضَتْ عَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ،فَاعْلَمْ أَنَّكَ وَارِثُ مَنْ مضى وَمُورَثٌ غَدًا،وَقَادِمٌ عَلَى رَبِّكَ،وَمَجْزِيٌّ بِعَمَلِكَ،فَاتَّقِ لَيْلَةً تَمَخَّضُ عَنْ يَوْمٍ لا لَيْلَةَ بَعْدَهُ،وَهِي لَيْلَةُ الْقِيَامَةِ،قَالَ : فَخَلَعَ أَبُو جَعْفَرٍ خَاتَمَهُ،وَقَالَ : دُونَكَ مَا وَرَائِي يَا أَبَا عُثْمَانَ،فَادْعُ لِي أَصْحَابَكَ وَاسْتَعْمِلُهُمْ،فَوَاللهِ ؛ إِنِّي لآمُرُ عُمَالِي بِالْعَدْلِ،وَأَكْتُبُ ذَلِكَ فِي عُهُودِهِمْ،قَالَ : كَلاَّ،ادْعُ أَصْحَابِي لِعَدْلٍ تُظْهِرُهُ،وَاطْرُدْ هَؤُلاءِ الشَّيَاطِينَ عَنْ بَابِكَ،لأَنَّ أَهْلَ الدِّينِ لَنْ يَأْتُوكَ،وَهَؤُلاءِ بِبَابِكَ،لأَنَّهُمْ إِنْ عَمِلُوا بِمَا يُرْضِيكَ أَسْخَطُوا خَالِقَهُمْ،وَإِنْ عَمِلُوا بِمَا يُرْضِي خَالِقَهُمْ أَسْخَطُوكَ فَأَرْشَوْكَ،وَلَكِنْ اسْتَعْمِلْ عَلَى الْعَمَلِ الْوَاحِدِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةً،كُلُّمَا رَابَكَ وَاحِدٌ فَاعْزِلْهُ،وَوَلِّ غَيْرَهُ،فَوَاللهِ ؛ لَوْ عَلِمَ هَؤُلاءِ أَنَّكَ لا تَرْضَى مِنْهُمْ إِلا بِالْعَدْلِ،وَلا تُقَرِّبُهُمْ إِلا عَلَيْهِ،لَقَدْ تَقَرَّبَ إِلَيْكَ بِهِ مَنْ لا نِيَّةَ لَهُ فِيهِ،وَلا حِسْبَةَ،ثُمَّ قَامَ،فَخَرَجَ .[٩٦٦]

لا يقول لك أحد حولك أخطأت:

أنت أيها الحاكم لا يتجرأ أحد ممن حولك أن يقول لك : أخطأت أو أن الأمر على غير هذه الصفة فقدوتك المثلى فرعون وأمثاله من الطغاة

أيها الحاكم لقد قربت الفساق والفجار وأقصيت الأخيار الأبرار،فعَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَمَّتِي تَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ عَمَلًا فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا،إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ،وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ»[٩٦٧]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ: " مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ،وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ،إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ،وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ،فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى "[٩٦٨]

---

966 - [فضيلة العادلين من الولاةلأبي نعيم - الألفي ص: ٢٤][٤٣]

967 - [سنن النسائي ٧/ ١٥٩] (٤٢٠٤) صحيح

968 - [صحيح البخاري ٩/ ٧٧](٧١٩٨)

الحاكم الصالح يحبه شعبه ويحبهم:

والحاكم الصالح هو الذي يترضى عليه شعبه ويدعون له بالخير والرعاية،والفاسق يلعنونه ليل نهار،فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِك،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ،وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ،وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ،وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»،قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ،أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: «لَا،مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ،وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ،فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ،وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»[٩٦٩]

قلت : هم يعاقبون من يصلي،أو يقصونه من عمله أو يؤذونه أشد الأذى

مجاهدة الحكام الظالمين :

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[٩٧٠]

كيل التهم الجاهزة لمن خالفه :

أيها الحاكم أنت تكيل التهم لأي واحد يعارضك ولو بكلمة أو رأي كما فعل الكفار والفجار بالرسل،وكما فعل فرعون بقوم موسى :

---

969 - [صحيح مسلم ٣/ ١٤٨١]٦٥ - (١٨٥٥)

970 - [صحيح مسلم ١/ ٦٩]٨٠ - (٥٠)

[ش (ثم إنها تخلف) الضمير في إنها هو الذي يسميه النحويون ضمير القصة والشأن ومعنى تخلف تحدث وأما الخلوف فهو جمع خلف وهو الخالف بشر وأما بفتح اللام فهو الخالف بخير هذا هو الأشهر (فنزل بقناة) هكذا هو في بعض الأصول المحققة وهو غير مصروف للعلمية والتأنيث وقناة واد من أودية المدينة عليه مال من أموالها]

أولا قال عن السحرة لما أسلموا،قال تعالى :قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) [طه]

وقال تعالى :{ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)} [الشعراء: ٤٤ - ٥١]

فموسى عليه السلام لم ير السحرة إلا في هذا المكان،ومع هذا لما آمن السحرة بعدما عرفوا الحق قال فرعون عن السحرة وعن النبي موسى عليه السلام عليه السلام :" آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ" فهل هناك كذب وإفك أكثر من هذا .

وقال عن النبي موسى عليه السلام،{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [غافر: ٢٦]

فموسى عليه السلام الذي يدعو لعبادة الله وحده مفسد في الأرض وفرعون الذي يقول للناس{ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) } [النازعات: ٢٤ - ٢٧] مصلح في الأرض ويهدي قومه لسبيل الرشاد ؟؟؟!!!!

فأي واحد يعارض حكمكم الباطل الجائر تقولون عنه : عميل إرهابي مأجور،مفسد في الأرض،مجرم ....

أيها الحاكم لست إلها ولا تجوز طاعتك في المعصية أبدا مهما كنت:

فعَنْ عَلِيٍّ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ بَعَثَ جَيْشًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا،فَأَوْقَدَ نَارًا فَقَالَ: ادْخُلُوهَا،فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا،وَقَالَ الْآخَرُونَ: إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا،فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ،فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: «لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»،وَقَالَ لِلْآخَرِينَ خَيْرًا،وَقَالَ أَبُو مُوسَى فِي حَدِيثِهِ: قَوْلًا حَسَنًا،وَقَالَ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ،إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[971]

وقال تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء: ٥٩]

إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان .. هذا حق .. ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات،متأثرا بشتى المؤثرات .. ليس هناك ما يسمى «العقل البشري» كمدلول مطلق! إنما هناك عقلي وعقلك،وعقل فلان وعلان،وعقول هذه المجموعة من البشر،في مكان ما وفي زمان ما .. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى تميل بها من هنا،وتميل بها من هناك .. ولا بد من ميزان ثابت،ترجع إليه هذه العقول الكثيرة فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها. ومدى الشطط والغلو،أو التقصير والقصور في هذه الأحكام

---

971 - [سنن النسائي ٧/ ١٥٩](٤٢٠٥) صحيح

والتصورات. وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان،ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان .. الميزان الثابت،الذي لا يميل مع الهوى،ولا يتأثر بشتى المؤثرات .. ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين .. فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها. فتختل جميع القيم .. ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم.

والله يضع هذا الميزان للبشر،للأمانة والعدل،ولسائر القيم،وسائر الأحكام،وسائر أوجه النشاط،في كل حقل من حقول الحياة: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ،وَأُولِي الْأَمْرِ .. مِنْكُمْ .. فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شيء،فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ. إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» ..

وفي هذا النص القصير يبين الله – سبحانه – شرط الإيمان وحد الإسلام. في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة وقاعدة الحكم،ومصدر السلطان .. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصا،من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام .. ليكون هنالك الميزان الثابت،الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام!

إن «الحاكمية» لله وحده في حياة البشر – ما جل منها وما دق،وما كبر منها وما صغر – والله قد سن شريعة أودعها قرآنه. وأرسل بها رسولا يبينها للناس. ولا ينطق عن الهوى. فسنته – صلى الله عليه وسلم – من ثم شريعة من شريعة الله.والله واجب الطاعة. ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة. فشزيعته واجبة التنفيذ. وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله – ابتداء – وأن يطيعوا الرسول – بما له من هذه الصفة. صفة الرسالة من الله – فطاعته إذن من طاعة الله،الذي أرسله بهذه الشريعة،وببيانها للناس في سنته .. وسنته وقضاؤه – على هذا – جزء من الشريعة واجب النفاذ .. والإيمان يتعلق – وجودا وعدما – بهذه الطاعة وهذا التنفيذ – بنص القرآن: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» .. فأما أولو الأمر فالنص يعين من هم.

«وَأُولِي الْأَمْرِ .. مِنْكُمْ .. » أي من المؤمنين .. الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية .. من طاعة الله وطاعة الرسول وإفراد الله – سبحانه – بالحاكمية

وحق التشريع للناس ابتداء والتلقي منه وحده – فيما نص عليه – والرجوع إليه أيضا فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء،مما لم يرد فيه نص لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه. والنص يجعل طاعة الله أصلا وطاعة رسوله أصلا كذلك – بما أنه مرسل منه – ويجعل طاعة أولي الأمر .. منكم .. تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله. فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم،كما كررها عند ذكر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله – بعد أن قرر أنهم «منكم» بقيد الإيمان وشرطه .. وطاعة أولي الأمر .. منكم .. بعد هذه التقريرات كلها،في حدود المعروف المشروع من الله،والذي لم يرد نص بحرمته ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مبادئ شريعته،عند الاختلاف فيه .. والسنة تقرر حدود هذه الطاعة،على وجه الجزم واليقين:

في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ،فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ،مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ »[٩٧٢] .

وعَنْ عَلِىٍّ – رضى الله عنه – قَالَ بَعَثَ النَّبِىُّ – ﷺ – سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ،وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ،فَغَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ النَّبِىُّ – ﷺ – أَنْ تُطِيعُونِى . قَالُوا بَلَى . قَالَ فَاجْمَعُوا لِى حَطَبًا . فَجَمَعُوا،فَقَالَ أَوْقِدُوا نَارًا . فَأَوْقَدُوهَا،فَقَالَ ادْخُلُوهَا . فَهَمُّوا،وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا،وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِىِّ – ﷺ – مِنَ النَّارِ . فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ،فَسَكَنَ غَضَبُهُ،فَبَلَغَ النَّبِىَّ – ﷺ – فَقَالَ « لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،الطَّاعَةُ فِى الْمَعْرُوفِ »[٩٧٣] .

وأخرج عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ سَمِعْتُ جَدَّتِى تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِىَّ –ﷺ– يَخْطُبُ فِى حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ « وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا »[٩٧٤].

---

[972] – صحيح البخارى– المكتز [٢٣ /٣٦٣](٧١٤٤) وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٠ /١٢٥٩](٨١٥٩)

[973] – صحيح البخارى– المكتز [١٤ /٢٥٦](٤٣٤٠) وصحيح مسلم– المكتز [١٢ /٢٥٥](٤٨٧١)

[974] – صحيح مسلم– المكتز [١٢ /٢٤٨](٤٨٦٤)

وعن يَحْيَى بْنِ الْحُصَيْنِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّتَهُ قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَخْطُبُ بِعَرَفَاتٍ وَهُوَ يَقُولُ:وَلَوْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا،قَالَ عَبْدُ اللهِ:وسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:إِنِّي لأَرَى لَهُ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ[٩٧٥].

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينا على شريعة اللّه وسنة رسوله.أمينا على إيمانه هو ودينه.أمينا على نفسه وعقله.أمينا على مصيره في الدنيا والآخرة ..ولا يجعله بهيمة في القطيع تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع! فالمنهج واضح،وحدود الطاعة واضحة.والشريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد،ولا تتفرق،ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون! ذلك فيما ورد فيه نص صريح.فأما الذي لم يرد فيه نص.وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية،على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات – ولا يكون فيه نص قاطع،أو لا يكون فيه نص على الإطلاق ..مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام – فإنه لم يترك كذلك تيها.و لم يترك بلا ميزان.

و لم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع ..ووضع هذا النص القصير،منهج الاجتهاد كله،وحدده بحدوده وأقام «الأصل» الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضا.

«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» ..ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمنا.فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو،فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج اللّه وشريعته ..وهذه ليست عائمة،ولا فوضى،ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول.وهناك – في هذا الدين – مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح،تغطي كل جوانب الحياة الأساسية،وتضع لها سياجا خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين[٩٧٦].

---

975 – مسند أحمد (عالم الكتب) [٨ /٨٠٩](٢٧٢٦٩) ٢٧٨١٢ صحيح

فالعبرة هي الحكم بما أنزل الله ليس إلا،ولا قيمة لأي حاكم مهما علا كعبه إذا لم يحكم بما أنزل الله .

976 – يراجع بتوسع فصل:«الثبات» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ..تلك الطاعة للّه والطاعة للرسول،ولأولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة اللّه وسنة الرسول ..ورد ما يتنازع فيه إلى اللّه والرسول ..هذه وتلك شرط الإيمان باللّه واليوم الآخر.كما أنها مقتضى الإيمان باللّه واليوم الآخر ..فلا يوجد الإيمان ابتداء وهذا الشرط مفقود ..ولا يوجد الإيمان،ثم يتخلف عنه أثره الأكيد.

وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي،يقدمها مرة أخرى في صورة «العظة» والترغيب والتحبيب على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب:«ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» ..ذلك خير لكم وأحسن مآلا.خير في الدنيا وخير في الآخرة.وأحسن مآلا في الدنيا وأحسن مآلا في الآخرة كذلك ..فليست المسألة أن اتباع هذا المنهج يؤدي إلى رضاء اللّه وثواب الآخرة – وهو أمر هائل،عظيم – ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة.

إن هذا المنهج معناه:أن يستمتع «الإنسان» بمزايا منهج يضعه له اللّه ..اللّه الصانع الحكيم العليم البصير الخبير ..منهج بريء من جهل الإنسان،وهوى الإنسان،وضعف الإنسان.وشهوة الإنسان ..منهج لا محاباة فيه لفرد،ولا لطبقة،ولا لشعب،ولا لجنس،ولا لجيل من البشر على جيل ..لأن اللّه رب الجميع،ولا تخالجه – سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا – شهوة المحاباة لفرد،أو طبقة،أو شعب،أو جنس،أو جيل.

ومنهج من مزاياه،أن صانعه هو صانع هذا الإنسان ..الذي يعلم حقيقة فطرته،والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة،كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها ووسائل خطابها وإصلاحها،فلا يخبط – سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا – في تيه التجارب بحثا عن منهج يوافق.ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية،حين يخبطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم أن يجربوا في ميدان الإبداع المادي ما يشاءون.فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشري.وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول.

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون،الذي يعيش فيه الإنسان.فهو يضمن للإنسان منهجا تتلاءم قواعده مع نواميس الكون فلا يروح يعارك هذه النواميس.بل يروح يتعرف إليها،ويصادقها،وينتفع بها ..والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه.

ومنهج من مزاياه أنه – في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه – يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل في المنهج ..مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة.ثم الاجتهاد في رد مالم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادئ العامة للدين ..ذلك إلى المجال الأصيل،الذي يحكمه العقل البشري،ويعلن فيه سيادته الكاملة:ميدان البحث العلمي في الكون والإبداع المادي فيه [٩٧٧] ..

«ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» ..وصدق اللّه العظيم.

أيها الحاكم سوف تموت فإن كنت عادلا نجوت وإن كنت ظالما هلكت وأهلكت

قال تعالى :{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } [آل عمران: ١٨٥]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ سَتَذُوقُ طَعْمَ المَوْتِ،وَتُحِسُّ بِمُفَارَقَةِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ . وَاسْتَدَّلَ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الآيَةِ عَلَى أَنَّ الأَرْوَاحَ لاَ تَمُوتُ بِمَوتِ البَدَنِ،لأَنَّ الذَّوْقَ شُعُورٌ لاَ يُحِسُ بِهِ إِلاَّ الحَيُّ،وَهُوَ تَعَالَى وُحْدَهُ الحَيُّ الذِي لاَ يَمُوتُ . وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُحْشَرُ النَّاسُ إِلى اللهِ،وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ أَجُورَهَا عَمَّا اكْتَسَبَتْهُ مِنْ أَعْمَالٍ،فَمِنْ جُنِّبَ النَّارَ،وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ،فَقَدْ فَازَ كُلَّ الفَوْزِ .

وَالحَيَاةُ الدُّنْيَا لَيْسَتْ إِلاَّ مَتَاعاً تَافِهاً زَائِلاً،صَاحِبُهُ مَغْرُورٌ مَخْدُوعٌ،وَهُوَ مَتَاعٌ مَتْرُوكٌ يُوشِكُ أَنْ يَضْمَحِلَّ عَنْ أَهْلِهِ .[٩٧٨]

إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة،محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتما .. يموت الصالحون ويموت الطالحون. يموت

---

977 – [في ظلال القرآن ٢/ ٦٩١]

978 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

المجاهدون ويموت القاعدون. يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد. يموت الشجعان الذين يأبون الضيم،ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن .. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية،ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت .. «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ» .. كل نفس تذوق هذه الجرعة،وتفارق هذه الحياة .. لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع. إنما الفارق في شيء آخر. الفارق في قيمة أخرى. الفارق في المصير الأخير: «وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ. فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ» ..

هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق. وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان. القيمة الباقية التي تستحق السعي والكد. والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب: «فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ» ..

ولفظ «زُحْزِحَ» بذاته يصور معناه بجرسه،ويرسم هيئته،ويلقي ظله! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها،ويدخل في مجالها! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلا قليلا ليخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها،ويستنقذ من جاذبيتها،ويدخل الجنة .. فقد فاز ..

صورة قوية. بل مشهد حي. فيه حركة وشد وجذب! وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته. فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى! وهذه هي زحزحتها عن النار! أليس الإنسان – حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة – يظل أبدا مقصرا في العمل .. إلا أن يدركه فضل الله؟ بلى! وهذه هي الزحزحة عن النار حين يدرك الإنسان فضل الله،فيزحزحه عن النار! «وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ» ..

إنها متاع. ولكنه ليس متاع الحقيقة،ولا متاع الصحو واليقظة .. إنها متاع الغرور. المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعا. أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع! فأما المتاع الحق. المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله .. فهو ذاك .. هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة

عن النار.وعندما تكون هذه الحقيقة قد استقرت في النفس. عندما تكون النفس قد أخرجت من حسابها حكاية الحرص على الحياة – إذ كل نفس ذائقة الموت على كل حال – وأخرجت من حسابها حكاية متاع الغرور الزائل ..[٩٧٩]

وقال تعالى :{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) } [العنكبوت: ٥٧ – ٥٩]

أَيْنَمَا كُنْتُمْ يُدْرِككُمُ المَوْتُ،فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللهِ،وَحَيْثُ أَمَرَكُمْ اللهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ،فَالمَوْتُ آتٍ لا مَحَالَةَ،وَلا مَفَرَّ مِنْهُ وَلا مَهْرَبَ،ثُمّ تُرْجَعُونَ إِلى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعِنْدَهُ الحِسَابُ والجَزَاءُ .

وَالذينَ آمَنُوا باللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِه مِنْ عِنْدِ رَبِّه،وَعَمِلُوا بِمَ أَمَرهُمُ اللهُ فَأَطَاعُوهُ فِيه،وانْتَهَوا عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ،فإنّهُ تَعَالى يَعِدُهُمْ وَعْداً حَقّاً أَنَّهُ سَيُنْزِلُهُمْ فِي الجَنَّةِ قُصُوراً،وأَمَاكِنَ مُرتَفِعَةً (غُرَفاً) تَجْرِي فِي أَرْضِهَا الأَنْهَارُ وَسَيبْقَونَ فِيهَا خَالِدِين،أَبداً،جَزَاءً لَهُمْ عَلَى مَا عَمِلُوا .وَمَا حَصَلُوا عَلَيهِ مِنْ جَزاءٍ كَرِيمٍ هُوَ نِعْمَ الأَجْرُ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحاً . وَهؤُلاءِ العَامِلُون،الذينَ فَازُوا بِغُرفاتِ الجَنَّة،هُمُ الذينَ صَبَرُوا عَلَى أَذَى المُشْرِكِينَ،وَعَلَى شَدَائِدِ الهِجْرَةِ،وَعَلَى الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَتَوَكَّلُوا عَلَى رَبِّهِمُ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِم .[٩٨٠]

فالموت حتم في كل مكان،فلا داعي أن يحسبوا حسابه،وهم لا يعلمون أسبابه. وإلى الله المرجع والمآب. فهم مهاجرون إليه،في أرضه الواسعة،وهم عائدون إليه في نهاية المطاف. وهم عباده الذين يؤويهم إليه في الدنيا والآخرة. فمن ذا يساوره الخوف،أو يهجس في ضميره القلق،بعد هذه اللمسات؟

---

979 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٨٥٥)

980 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٢٧٩، بترقيم الشاملة آليا)

ومع هذا فإنه لا يدعهم إلى هذا الإيواء وحده بل يكشف عما أعده لهم هنـــاك. وإنهـــم ليفارقون وطنا فلهم في الأرض عنه سعة. ويفارقون بيوتا فلهم في الجنة منـــها عـــوض. عوض من نوعها وأعظم منها:

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِـــنَ الْجَنَّـــةِ غُرَفـــاً تَجْـــرِي مِـــنْ تَحْتِهَـــا الْأَنْهارُ،خالِدِينَ فِيها».

وهنا يهتف لهم بالعمل والصبر والتوكل على الله: «نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ،الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» .. وهي لمسة التثبيت والتشجيع لهذه القلوب،في موقف القلقلة والخوف والحاجة إلى التثبيت والتشجيع.[٩٨١]

أيها الحاكم الجائر لن يتركك الله تعالى بلا عقاب

قال تعالى :{ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيـــهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَـــكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَـــاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَـــرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَـــبَنَّ اللَّـــهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَـــوْمَ تُبَـــدَّلُ الْـــأَرْضُ غَيْـــرَ الْـــأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْـــفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـــهٌ وَاحِـــدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)} [إبراهيم: ٤٢-٥٢]

وإن هذا المثل ليتجدد في الحياة ويقع كل حين. فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغـــاة الذين هلكوا من قبلهم. وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم. ثم هم يطغون بعد ذلـــك

---

[981] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٣٤٩٨)

ويتجبرون ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها،والتي تتحدث عن تاريخ الهالكين،وتصور مصائرهم للناظرين. ثم يؤخذون إخذة الغابرين،ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار بعد حين! ثم يلتفت السياق بعد أن يسدل عليهم الستار هناك،إلى واقعهم الحاضر،وشدة مكرهم بالرسول والمؤمنين،وتدبيرهم الشر في كل نواحي الحياة. فيلقي في الروع أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير،مهما يكن مكرهم من العنف والتدبير: «وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ .. وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ» .. إن الله محيط بهم وبمكرهم،وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال،أثقل شيء وأصلب شيء،وأبعد شيء عن تصور التحرك والزوال. فإن مكرهم هذا ليس مجهولا وليس خافيا وليس بعيدا عن متناول القدرة. بل إنه لحاضر «عند الله» يفعل به كيفما يشاء.

«فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ. إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ» .. فما لهذا المكر من أثر،وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ» .. لا يدع الظالم يفلت،ولا يدع الماكر ينجو .. وكلمة الانتقام هنا تلقي الظل المناسب للظلم والمكر،فالظالم الماكر يستحق الانتقام،وهو بالقياس إلى الله تعالى،يعني تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم،تحقيقا لعدل الله في الجزاء. وسيكون ذلك لا محالة: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ» ..

ولا ندري نحن كيف يتم هذا،ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات،ولا مكانها ولكن النص يلقي ظلال القدرة القادرة التي تبدل الأرض وتبدل السماوات في مقابل ذلك المكر الذي مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير. وفجأة نرى ذلك قد تحقق: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» ..

وأحسوا أنهم مكشوفون لا يسترهم ساتر،ولا يقيهم واق. ليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم. إنما هم في العراء أمام الواحد القهار .. ولفظة «القهار» هنا تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجبابرة. وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال.

ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي المذل،يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت: «وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ»

فمشهد المجرمين: اثنين اثنين مقرونين في الوثاق،يمرون صفا وراء صف .. مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار. ويضاف إلى قرنهم في الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب،وهي في ذات الوقت قذرة سوداء .. «من قطران» .. ففيها الذل والتحقير،وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار! «وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ» .. فهو مشهد العذاب المذل المتلظي المشتعل جزاء المكر والاستكبار .. «لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ. إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ» .. ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل. إن الله سريع الحساب. فالسرعة في الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذي كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم،ويعوق انتصار أحد عليهم. فها هم أولاء يجزون ما كسبوا ذلا وألما وسرعة حساب! وفي النهاية تختم السورة بمثل ما بدأت،ولكن في إعلان عام جهير الصوت،عالي الصدى،لتبليغ البشرية كلها في كل مكان: «هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ،وَلِيُنْذَرُوا بِهِ،وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ،وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ».

إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار،هي أن يعلم الناس «أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ» .. فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة. وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم،إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم .. المقصود هو الدينونة لله وحده،ما دام أنه لا إله غيره. فالإله هو الذي يستحق أن يكون ربا - أي حاكما وسيدا ومتصرفا ومشرعا وموجها - وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافا جوهريا عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد - أي حاكمية العباد للعباد ودينونة العباد للعباد - وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور،ويتناول الشعائر والمناسك كما يتناول الأخلاق والسلوك،والقيم والموازين وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية،وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء.

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل وليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر. وحدود العقيدة أبعد كثيرا من مجرد الاعتقاد الساكن .. إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة .. وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة. كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة. فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء ..

ونحن لا ندرك مرامي هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة في هذا الدين،وقبل أن ندرك مدلولات: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» على هذا المستوى الواسع البعيد الآماد. وقبل أن نفهم مدلول: العبادة لله وحده ونحدده بأنه الدينونة لله وحده لا في لحظات الصلاة،ولكن في كل شأن من شؤون الحياة!

إن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم – عليه السلام – ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها،لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم،أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى،مجسمة في أحجار أو أشجار،أو حيوان أو طير،أو نجم أو نار،أو أرواح أو أشباح.

إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك بالله،ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله. والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة! ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام،وتمثل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة! إن الشرك بالله – المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله – يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده. ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته،بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله،حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته .. وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة .. والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك

في أعماق طبيعته .. إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر. بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله. ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله.

ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء – مخالفة لشرع الله وأمره – إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله في أخص حقيقتها .. وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع،وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان! والأصنام .. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة .. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت،يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها،وضمان دينونتهم له من خلالها ..

إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر .. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى .. ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها! فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان،ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال ... فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها! إذا رفعت «القومية» شعارا،أو رفع «الوطن» شعارا،أو رفع «الشعب» شعارا،أو رفعت «الطبقة» شعارا ... ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض. بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها،نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه،ونفذت إرادة تلك الشعارات – أو بالتعبير الصحيح الدقيق:

إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات – كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله .. فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة ولقد يكون الصنم مذهبا أو شعارا! إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية! و لم تبذل فيه تلك

الجهود الموصولة،من موكب الرسل الموصول و لم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام،لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب!

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة .. ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة،وتقرير ما إذا كانت توحيدا أم شركا؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام!

والذين يظنون أنفسهم في «دين الله» لأنهم يقولون بأفواههم «نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»،ويدينون لله فعلا في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث .. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله – وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله – ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم – أرادوا أم لم يريدوا – ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة. فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام،نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام ... الذين يظنون أنفسهم «مسلمين» وفي «دين الله» وهذا حالهم .. عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم!!!

إن دين الله ليس بهذا الهزل الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها!

إن دين الله منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها. والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها – فضلا على أصولها وكلياتها – هي دين الله،وهي الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه. وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه ولكنه يتمثل ابتداء في تحكيم أرباب غيره معه ..

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات! ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم؟ ولمن الدينونة الكاملة؟ ولمن الطاعة والاتباع والامتثال؟

فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله. وإن كان لغير الله – معه أو من دونه – فهم في دين الطواغيت والأصنام .. والعياذ بالله .. ![982]

وقال تعالى :{ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)} [الأعراف: ٩٠ – ٩٣]

قَالَ الكُبَرَاءُ الكَافِرُونَ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ،لِمَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيباً فِيمَا يَقُولُ،وَفِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ،وَأَقْرَرْتُمْ بِنُبُوَّتِهِ،وَآمَنْتُمْ بِمَا آمَنَ بِهِ،وَكَفَرْتُمْ بِأَصْنَامِكُمْ . . وَبِمَا كَانَ عَلَيهِ آبَاؤُكُمْ مِنْ دِينٍ وَعَادَاتٍ،كُنْتُمْ خَاسِرِينَ .

وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى : " وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ " فَاهْتَزَّتْ بِهِمُ الأَرْضَ بِفِعْلِ زَلْزَلَةٍ شَدِيدَةْ،فَأَصْبَحُوا هَالِكِينَ فِي دِيَارِهِمْ لاَ حَرَاكَ بِهِمْ،وَهُمْ مُكِبُّونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى العَاقِبَةَ التِي صَارَ إِلَيْهَا قَوْمُ شُعَيب،فَقَدْ هَلَكَ الذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً،فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُم أَحَداً وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُقِيمُوا فِي دِيَارِهِمْ،وَالذِينَ كَذَّبُوا شُعَيباً كَانُوا هُمُ الذِينَ خَسِرُوا الدُّنْيا وَالآخِرَةَ،أَمَّا الذِينَ اتَّبَعُوهُ فَكَانُوا هُمُ الفَائِزُونَ المُفْلِحِينَ .

وَبَعْدَ أَنْ نَزَلَ بِهِمْ عَذَابُ اللهِ وَدَمَارُهُ تَوَلَّى شُعَيْبٌ عَنْهُمْ،وَانْصَرَفَ عَنْ دِيَارِهِمْ،وَخَاطَبَهُمْ مُقَرِّعاً،فَقَالَ لَهُمْ : لَقَدْ نَصَحْتُ لَكُمْ يَا قَوْمِي،وَبَلَّغْتُكُمْ مَا أَرْسَلَنِي بِهِ رَبِّي إِلَيكُمْ،مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ،فَكَفَرْتُمْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ،فَدَمَّرَكُمُ اللهُ،وَلِذَلِكَ فَإِنَّنِي لاَ يُمْكِنُ أَنْ آسَفَ وَأَحْزَنَ عَلَى قَوْمٍ جَحَدُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ،وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ .[983]

إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير .. إن الطواغيت يتوجهون أولا إلى الداعية ليكف عن الدعوة. فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه،واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته،ولم يرهبه

---

[982] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٧٦٦)

[983] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٠٤٥، بترقيم الشاملة آليا)

التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل .. تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد،ثم بالبطش والعذاب .. إنهم لا يملكون حجة على باطلهم،ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم - وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل - ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان،الذي أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان.

ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل،ويقفان وجها لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة الله التي لا تتخلف .. وهكذا كان .. «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ،فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ» .. الرجفة والجثوم،جزاء التهديد والاستطالة،وبسط الأيدي بالأذى والفتنة ..

ويرد السياق على قولتهم: «لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ» .. وهي التي قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة! فيقرر - في تهكم واضح - أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا،إنما كان من نصيب قوم آخرين: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ» ..

ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين. لا حياة ولا حراك. كأن لم يعمروا هذه الدار،وكأن لم يكن لهم فيها آثار! ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال،والمفارقة والانفصال،من رسولهم الذي كان أخاهم،ثم افترق طريقه عن طريقهم،فافترق مصيره عن مصيرهم،حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم،وعلى ضيعتهم في الغابرين: «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ،وَقالَ: يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ،فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ؟ » ..

إنه من ملة وهم من ملة. فهو أمة وهم أمة. أما صلة الأنساب والأقوام،فلا اعتبار لها في هذا الدين،ولا وزن لها في ميزان الله .. فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين،والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل الله المتين ..[٩٨٤]

---

[984] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ١٧٨٤)

ونهايتك سوف تكون كنهاية فرعون

قال تعالى :{ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) } [الدخان: ٢٥ - ٢٩]

كَم تَرَكَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ قَبْلَ مَهلِكِهِمْ فِي أَرْضِهِمْ مِنْ بَسَاتِينَ نَضِرَةٍ،وَحَدَائِقَ غَنَّاءَ،وَعُيُونِ ماءٍ جَارِيةٍ وَأَنْهَارٍ .وَكَمْ تَرَكُوا مِنْ زُرُوعٍ نَاضِرَةٍ،وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةٍ .وَعَيْشٍ رَغِيدٍ كَانُوا يَتَفَكَّهُونَ فِيهِ فَيَأْكُلُونَ مَا شَاؤُوا،وَيَلْبَسُونَ مَا أَحَبُّوا . فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالى فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ،وَهكَذَا يَفْعَلُ اللهُ بِالذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ،وَيُخَالِفُونَ عَنْ أَمرِهِ فإِنَّهُ يُبِيدُهُمْ وَيُورِثُ أَرْضَهُمْ قَوْماً آخرِينَ لَيْسُوا مِنْهُمْ فِي شيءٍ قَرابةً ولا ديناً .

وَقَدْ كَانَ هؤلاءِ الطُّغَاةُ العُتَاةُ هَيِّنِينَ عَلَى اللهِ،وَعَلى عِبادِ اللهِ،إِذْ لَم يَكُنْ لَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ يُرَفَعُ إِلى السَّماءِ،وَلاَ عَمَلُ خَيرٍ مَعَ عِبَادِ اللهِ فِي الأَرضِ يُذكرُ لهم،فَلم تبكِ لفَقْدِهِم الأرضُ ولا السَّماءُ،وَلم يُمْهَلُوا لِتَوْبَةٍ،وَإِنَّما عَجَّلَ اللهُ لَهُمُ العَذَابَ دُونَ إِبْطَاءٍ . عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ تَبْكِي السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَلَى أَحَدٍ؟ فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ،إِنَّهُ لَيْسَ [مِنْ] عَبْدٍ إِلَّا لَهُ مُصَلًّى فِي الْأَرْضِ،وَمَصْعَدُ عَمَلِهِ مِنَ السَّمَاءِ. وَإِنَّ آلَ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي الْأَرْضِ،وَلَا عَمَلٌ يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ،ثُمَّ قَرَأَ عَلِيٌّ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}.[٩٨٥]

لقد ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس في هذه الأرض: ذهبوا فلم يأس على ذهابهم أحد،ولم تشعر بهم سماء ولا أرض ولم ينظروا أو يؤجلوا عندما حل الميعاد:«فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ» ..وهو تعبير يلقي ظلال الهوان،كما يلقي ظلال الجفاء .. فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء. ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء. وذهبوا ذهاب النمال،وهم كانوا جبارين في الأرض يطأون الناس بالنعال! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم

---

985 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٣١٨، بترقيم الشاملة آليا) وتفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٥٤) صحيح

عنه،وهو مؤمن بربه،وهم به كافرون! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه! ولو أحس الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله. ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه،مقطوعين عنه،لا تربطهم به آصرة،وقد قطعت آصرة الإيمان.[٩٨٦]

أيها الحاكم عندما تطبق القرآن وتحكم بالقرآن عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة فابق في كرسيك لا مطمع لنا بها

فنحن يمكن أن نتجاوز عن كل الشروط ما عدا الذكورة والإسلام والحكم بما أنزل الله تعالى،قال تعالى :{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]

إن المؤمن يقف أولا: أمام إكمال هذا الدين يستعرض موكب الإيمان،وموكب الرسالات،وموكب الرسل،منذ فجر البشرية،ومنذ أول رسول - آدم عليه السلام - إلى هذه الرسالة الأخيرة. رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين .. فماذا يرى؟ .. يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل. موكب الهدى والنور. ويرى معالم الطريق،على طول الطريق. ولكنه يجد كل رسول - قبل خاتم النبيين - إنما أرسل لقومه. ويرى كل رسالة - قبل الرسالة الأخيرة - إنما جاءت لمرحلة من الزمان .. رسالة خاصة،لمجموعة خاصة،في بيئة خاصة .. ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه متكيفة بهذه الظروف .. كلها تدعو إلى إله واحد - فهذا هو التوحيد - وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد - فهذا هو الدين - وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد - فهذا هو الإسلام - ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف ..

---

986 - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤٠٢٦)

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة،رسولا خاتم النبيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة،في زمان خاص،في ظروف خاصة .. رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» .. وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها،وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان .. وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات،لكي تستمر،وتنمو،وتتطور،وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار .. وقال الله – سبحانه – للذين آمنوا: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ. وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي. وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» ..

فأعلن لهم إكمال العقيدة،وإكمال الشريعة معا .. فهذا هو الدين .. ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين – بمعناه هذا – نقصا يستدعي الإكمال. ولا قصورا يستدعي الإضافة. ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير .. وإلا فما هو بمؤمن وما هو بمقر بصدق الله وما هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن،هي شريعة كل زمان،لأنها – بشهادة الله – شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان،في جيل من الأجيال،في مكان من الأمكنة،كما كانت تجيء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي. والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه،إلا أن تخرج من اطار الإيمان! والله الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة.

فلا يقول: إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم،إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان! ويقف المؤمن ثانيا: أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين،بإكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة،كما تمثل نشأته واكتماله. «فالإنسان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له. وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين. وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه،كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه.

و «الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هي بدء مولد «الإنسان» .. إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوي يمكن أن يكون «حيوانا» أو أن يكون «مشروع إنسان» في طريقه إلى التكوين! ولكنه لا يكون «الإنسان» في أكمل صورة للإنسان،إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن ..

والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة،وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان!

وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية،لهو الذي يحقق «للإنسان» «إنسانيته» كاملة .. يحققها له وهو يخرجه بالتصور الاعتقادي،في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوسات،إلى دائرة «التصور» الإنساني،الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات. عالم الشهادة وعالم الغيب .. عالم المادة وعالم ما وراء المادة .. وينقذه من ضيق الحس الحيواني المحدود! ويحققها له وهو يخرجه بتوحيد الله،من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده،والتساوي والتحرر والاستعلاء أمام كل من عداه. فإلى الله وحده يتجه بالعبادة،ومن الله وحده يتلقى المنهج والشريعة والنظام،وعلى الله وحده يتوكل ومنه وحده يخاف.. ويحققها له،بالمنهج الرباني،حين يرفع اهتماماته ويهذب نوازعه،ويجمع طاقته للخير والبناء والارتقاء،والاستعلاء على نوازع الحيوان،ولذائذ البهيمة وانطلاق الأنعام! ولا يدرك

حقيقة نعمة الله في هذا الدين،ولا يقدرها قدرها،من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها – والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشـــرعه الله – فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها .. ويلاتها في التصور والاعتقاد،وويلاتها في واقـــع الحياة .. هو الذي يحس ويشعر،ويرى ويعلم،ويدرك ويتذوق حقيقة نعمـــة الله في هـــذا الدين الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى،وويلات الحـــيرة والتمـــزق،وويلات الضياع والخواء،في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان .. هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان.

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى،وويلات التخـــبط والاضـــطراب،وويلات التفريط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية،هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام.

ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة،يعرفون ويـــدركون ويتـــذوقون هـــذه الكلمات. لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم،في ذات الجيل الذي خوطب بهذا القرآن ..

كانوا قد ذاقوا الجاهلية .. ذاقوا تصوراتها الاعتقادية. وذاقوا أوضـــاعها الاجتمـــاعي ة. وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية. وبلوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقـــة نعمـــة الله عليهم بهذا الدين وحقيقة فضل الله عليهم ومنته بالإسلام.كان الإسلام قد التقطهم مـــن سفح الجاهلية وساربهم في الطريق الصاعد،إلى القمة السامقة فإذا هم على القمة ينظـــرون من عل إلى سائر أمم الأرض من حولهم نظرتهم إلى ماضيهم في جاهليتهم كذلك.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصـــورات الاعتقاديـــة حـــول ربوبيـــة الأصنام،والملائكة،والجن،والكواكب،والأسلاف وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة لينقلهم إلى أفق التوحيد. إلى أفق الإيمان بإله واحد،قادر قاهر،رحيم ودود،سميـــع بصير،عليم خبير. عادل كامل. قريب مجيب. لا واسطة بينه وبـــين أحـــد والكـــل لـــه عباد،والكل له عبيد .. ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة،ومن ســـلطان الرياســـة،يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة ..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعية. من الفوارق الطبقية ومن العادات الزرية ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان (لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية!).

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصلات الاجتماعية .. كان قد التقطهم من سفح البنت الموءودة،والمرأة المنكودة،والخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضوية،والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها،والثارات والغارات والنهب والسلب،مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أي هجوم خارجي جدي،كالذي حدث في عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبة،وتخاذل وخذلان القبائل كلها،هذه القبائل التي كان بأسها بينها شديدا!

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة تطل من القمة السامقة على البشرية كلها في السفح،في كل جانب من جوانب الحياة. في جيل واحد. عرف السفح وعرف القمة. عرف الجاهلية وعرف الإسلام. ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول الله لهم: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ،وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي،وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» ..

ويقف المؤمن ثالثا: أمام ارتضاء الله الإسلام دينا للذين آمنوا .. يقف أمام رعاية الله – سبحانه – وعنايته بهذه الأمة،حتى ليختار لها دينها ويرتضيه .. وهو تعبير يشي بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها،حتى ليختار لها منهج حياتها ..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا،يكافىء هذه الرعاية الجليلة .. أستغفر الله .. فما يكافىء هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه .. وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة،ومعرفة المنعم .. وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه،وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه.

إن ارتضاء الله الإسلام دينا لهذه الأمة،ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار. ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار .. وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل – بله أن يرفض – ما رضيه الله له،ليختار لنفسه غير ما اختاره

الله! .. وإنها – إذن – لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء،ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدا وقد رفض ما ارتضاه له الله .. ولقد يترك الله الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم،يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين .. فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه .. واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم الله .. فلن يتركهم الله أبدا ولن يمهلهم أبدا،حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون![٩٨٧]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ الحُصَيْنِ،عَنْ أُمِّهِ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ،اتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا،وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "[٩٨٨]

أيها الحاكم مهما أخذت بأسباب البقاء سوف تموت رغما عنك فانظر إلى عاقبتك

قال تعالى :{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } [آل عمران: ١٨٥]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ سَتَذُوقُ طَعْمَ المَوْتِ،وَتُحِسُّ بِمُفَارَقَةِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ . وَاسْتَدَّلَ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الآيَةِ عَلَى أَنَّ الأَرْوَاحَ لاَ تَمُوتُ بِمَوتِ البَدَنِ،لأَنَّ الذَّوْقَ شُعُورٌ لاَ يُحِسُّ بِهِ إِلاَّ الحَيُّ،وَهُوَ تَعَالَى وُحْدَهُ الحَيُّ الذِي لاَ يَمُوتُ . وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُحْشَرُ النَّاسُ إِلى اللهِ،وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ أَجُورَهَا عَمَّا اكْتَسَبَتْهُ مِنْ أَعْمَالٍ،فَمِنْ جُنِّبَ النَّارَ،وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ،فَقَدْ فَازَ كُلَّ الفَوْزِ .

وَالحَيَاةُ الدُّنْيَا لَيْسَتْ إِلاَّ مَتَاعاً تَافِهاً زَائِلاً،صَاحِبُهُ مَغْرُورٌ مَخْدُوعٌ،وَهُوَ مَتَاعٌ مَتْرُوكٌ يُوشِكُ أَنْ يَضْمَحِلَّ عَنْ أَهْلِهِ .[٩٨٩]

وقال تعالى :{لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ } [الحشر: ٢٠]

---

987 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٢٢)

988 – [مسند أحمد ط الرسالة ٢٧/ ٢٠٩](١٦٦٤٩) صحيح

989 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

لا يستويان طبيعة وحالا،ولا طريقا ولا سلوكا،ولا وجهة ولا مصيرا. فهما على مفـــرق طريقين لا يلتقيان أبدا في طريق. ولا يلتقيان أبدا في سمة. ولا يلتقيان أبدا في خطـــة. ولا يلتقيان أبدا في سياسة. ولا يلتقيان أبدا في صف واحد في دنيا ولا آخرة ..

«أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ» .. يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النـــار مســـكوتا عنه. معروفا. وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير![٩٩٠]

وقال تعالى :{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَـــا أَحْقَابًـــا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًـــا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) } [النبأ: ٢١ - ٣٠]

وَفِي ذَلِكَ اليَوْمِ العَظِيمِ تَكُونُ جَهَنَّمُ مُعَدَّةً وَمُرْصَدَةً لِلطَّاغِينَ،وَخَزَنَتُهَـــا يَتَرَقَّبُـــونَ مَـــنْ يَسْتَحِقُّهَا بِسُوءِ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا . وَتَكُونُ النَّارُ مُعَدَّةً وَمُرْصَدَةً لِلطُّغَاةِ العَاتِينَ عَـــنْ أَمْـــرِ رَبِّهِمْ،وَتَكُونُ مَرْجِعَهُمْ وَمَصِيرَهُمْ .

وَسَيَمْكُثُونَ فِي النَّارِ دُهُوراً مُتَلاَحِقَةً،يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضاً . وَلاَ يَذُوقُ المُجْرِمُونَ فِي جَهَـــنَّمَ بَرْداً يُبَرِّدُ حَرَّ السَّعِيرِ،وَلاَ شَرَاباً يَرْوِيهِمْ مِنَ العَطَشِ .وَلاَ يَذُوقُونَ فِي النَّـــارِ إِلاَّ الحَمِـــيمَ (وَهُوَ المَاءُ المُتَناهِي فِي الحَرَارَةِ)،والغَسَّاقَ (وَهُوَ القَيْحُ والصَّدِيدُ المُنْتِنُ والعَرَقُ الذي يَسِيلُ مِنْ أَجْسَادِ أَهْلِ النَّارِ) . وَهَذَا الذي صَارُوا إِلَيهِ مِنَ العُقُوبَةِ وَالعَذَابِ،هُوَ جَـــزَاءٌ مُوَافِـــقٌ لأَعْمَالِهِم المُنْكَرَةِ،التي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا،فَكَأَنَّمَا وَافَقَ العَذَابُ الذَّنْبَ . وَقَد ارْتَكَبُوا المُنْكَرَاتِ،وَكَفَرُوا وَأَجْرَمُوا لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ سَـــيَرْجِعُونَ إِلَـــى اللهِ،وَأَنَّـــهُ سَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ .وَكَانُوا يُكَذِّبُونَ تَكْذِيباً شَدِيداً بِجَمِيعِ البَرَاهِينِ،وَالآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِ اللهِ تَعَالَى،وَوَحْدَانِيَّتِه،وَعَلَى صِدْقِ النُّبُوات،وَعَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ فِـــي القُـــرْآنِ المُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى .وَقَدْ أَحْصَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ جَمِيعَ أَعْمَالِهِمْ،وَأَثْبَتَهَـــا المَلاَئِكَـــةُ المُطَهَّرُونَ الحَفَظَةُ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِ هَؤُلاَءِ كِتَابَةً،وَلِـــذَلِكَ فَـــإِنَّهُمْ لاَ يَسْـــتَطِيعُونَ أَنْ

990 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤١١)

يَجْحَدُوا شَيْئاً ممَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَيُقَالُ لأَهْلِ النَّارِ ذُوقُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ،فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً مِنْ جِنْسِه .[991]

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ،قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ،لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ،فَيَنْظُرُ أَمَامَهُ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ،وَيَنْظُرُ عَنْ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا شَيْئًا قَدَّمَهُ،وَيَنْظُرُ عَنْ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا شَيْئًا قَدَّمَهُ،فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ»[992]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ: عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ،قَالَ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ،إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً،يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ،إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[993]

فكر بمصيرك يوم القيامة وجرائمك التي ستلقاها أمامك:

أيها الحاكم انظر إلى نفسك عندما يقال،{ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)} [الإسراء: ١٣ - ١٥]

وَالإِنْسَانُ مُلْتَزِمٌ بِعَمَلِه،وَمَسْؤُولٌ عَنْهُ . وَهَذا العَمَلُ مُلْتَصِقٌ بِالإِنْسَانِ،وَمُلاَزِمٌ لَهُ مُلاَزَمَةَ القِلاَدَةِ لِلعُنُقِ،لاَ يَنْفَكُّ عَنْهُ بِحَالٍ،وَسَيُؤَاخِذُهُ اللهُ عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ،فَيُخْرِجُ لَهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ صَحِيفَةَ أَعْمَالِهِ كُلِّهَا،لاَ يَغِيبُ عَنْهَا عَمَلٌ صَغِيرٌ وَلاَ كَبِيرٌ،لِيُحَاسَبَ عَلَى هَذِهِ الأَعْمَالِ جَمِيعِهَا .

---

991 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٥٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

992 - [سنن ابن ماجه ١/ ٥٩٠](١٨٤٣) صحيح

993 - [صحيح مسلم ١/ ١٢٥]٢٢٧ - (١٤٢)

[ش (عاد عبيد الله) أي زاره في مرض موته وكان عبيد الله إذ ذاك أمير البصرة لمعاوية (يسترعيه الله رعية) يعني يفوض إليه رعاية رعية وهي بمعنى المرعية وقوله يموت خبر ما وغش الراعي الرعية تضييعه ما يجب عليه في حقهم]

وَيُقَالُ لِكُلِّ وَاحِدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ : إِقْرَأْ كِتَابَكَ الـذي يَحْـوِي أَعْمَالَـكَ كُلَّهَا،صَـغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا،يَكْفِيكَ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ المُحَاسِبَ عَلَى نَفْسِكَ،وَقَدْ عَدَلَ مَعَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيباً عَلَى نَفْسِكَ .

مَنِ اسْتَقَامَ عَلَى طَرِيقِ الحَقِّ وَاتَّبَعَهُ،وَاتَّبَعَ النُّورَ الذي بُعِثَ به مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فإِنَّهُ يَكُونُ قَدِ اهْتَدَى،وَتَكُونُ عَاقِبَةُ هُدَاهُ عَلَى نَفْسِه،وَمَنْ ضَلَّ عَنِ الحَقِّ،وَزَاغَ عَنْ سَـبِيلِ الرَّشَادِ،فَإِنَّمَا يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ،وَيَعُودُ وَبَالُ سَعْيِهِ عَلَيْهِ هُوَ،وَلاَ يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ،وَلاَ يَجْنِي جَانٍ إِلاَّ عَلَى نَفْسِه .

وَيَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ لاَ يُعَذِّبُ أَحَداً إِلاَّ بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِ،يَدْعُونَهُ إِلَى الحَقِّ .[٩٩٤]

وانظر كيف تعرض على ربك {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَـا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)} [الكهف: ٤٨،٤٩]

وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَحْشُرُ اللهُ الخَلاَئِقَ،فَيَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صَفّاً وَاحِداً،وَيُقَرِّعُ اللهُ تَعَالَى الكُفَّـارَ المُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ وَالنُّشُورِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ،وَيَقُولُ لَهُمْ : لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ،وَكُنْتُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ هَذا لَنْ يَكُونَ،وَالآنَ اسْتَبَانَ لَكُمْ أَنَّهُ حَقٌّ .

وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْ كُلِّ فَرْدٍ كِتَابُ أَعْمَالِه،وَفِيهِ جَمِيعُ مَا عَمِلَهُ فِـي حَيَاتِـهِ،مِنْ حَسَـنٍ وَقَبِيحٍ،وَمِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ . وَيَرَى المُجْرِمُونَ أَعْمَالَهُمُ القَبِيحَةَ مُحْصَاةً بِتَمَامِهَا،لَمْ يَـنْقُصْ مِنْهَا شَيءٌ،وَيَعْلَمُونَ أَنَّ العَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ،فَيُشْفِقُونَ مِمَّا سَيَحُلُّ بِهِمْ،وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ : يَا وَيْلَتَنَا،وَيَا حَسْرَتَنَا،عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيا،مَا لِهَذا الكِتَابِ لاَ يَتْرُكُ صَغِيراً مِنْ أَعْمَالِنَا وَذُنُوبِنَا،وَلاَ كَبِيراً إِلاَّ أَحْصَاهُ وَوَعَاهُ؟ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَـرٍّ حَاضِـراً لِيُحَاسَبُوا عَلَيْهِ،وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ .[٩٩٥]

---

994 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٤٣، بترقيم الشاملة آليا)

995 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢١٨٨، بترقيم الشاملة آليا)

تذكر من ظلمت،من قتلت بغير حق،من أكلت ماله،أو انتهكت حرماته،أنت وأزلامك وأتباعك

تذكر أيها المفلس الحقيقي،{وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) } [الكهف]

وَأَحَاطَتِ الكَوَارِثُ بِثِمَارِ جَنَّتِهِ الَّتِي يَقُولُ إِنَّهُ لاَ يَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ أَبَداً،وَحَلَّ بِهَا مَا كَانَ يُحَذِّرُهُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ،مِنْ دَمَارٍ وَغَوْرِ مَاءٍ { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ }،فَأَصْبَحَتِ الجَنَّةُ بَلْقَعاً يَبَاباً خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا،فَأَخَذَ يَضْرِبُ كَفّاً بِكَفٍّ أَسَفاً وَنَدَماً وَحُزْناً عَلَى مَا حَلَّ بِهَا،وَعَلَى مَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا مِنْ مَالٍ،وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي ثُبْتُ لِرُشْدِي فَلَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً .

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ جَمَاعَةٌ (فِئَةٌ) مِنْ عَشِيرَةٍ،أَوْ أَهْلٍ،وَوَلَدٍ،مِمَّنْ كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِمْ،وَيَغْتَرُّ،يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُ،وَمَنْعَ مَا أَرَادَهُ اللهُ بِهِ . وَبِجَنَّتَيْهِ مِنْ خَرَابٍ وَدَمَارٍ،وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً بِقُوَّتِهِ عَنِ انْتِقَامِ اللهِ مِنْهُ .

وَفِي مِثْلِ هذِهِ الحَالِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالمِحَنِ،تَكُونُ المُوَالاَةُ،وَتَكُونُ النُّصْرَةُ للهِ وَحْدَهُ . وَفِي الشَّدَائِدِ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى اللهِ تَعَالَى،يُعْلِنُونَ خُضُوعَهُمْ وَاعْتِرَافَهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ،فَهُوَ خَيْرُ مَنْ أَنَابَ،وَخَيْرُ مَنْ جَازَى . وَالأَعْمَالُ التِي تَكُونُ خَالِصَةً للهِ عَزَّ وَجَلَّ،تَكُونُ عَاقِبَتُهَا خَيْراً وَرَشَداً لِفَاعِلِيهَا .[٩٩٦]

وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء. والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة. وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب. وهو نادم على إشراكه بالله،يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته. ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك،إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركا ينكره الآن،ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان. هنا يتفرد الله بالولاية

[996] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢١٨٢، بترقيم الشاملة آليا)

والقدرة: فلا قوة إلا قوته،ولا نصر إلا نصره. وثوابه هو خير الثواب،وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى"[٩٩٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ،فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ،وَصِيَامٍ،وَزَكَاةٍ،وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا،وَقَذَفَ هَذَا،وَأَكَلَ مَالَ هَذَا،وَسَفَكَ دَمَ هَذَا،وَضَرَبَ هَذَا،فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ،وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ،فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ،ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[٩٩٨]

وعَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ،قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ النَّهْدِيَّ،يُحَدِّثُ عَنْ سَلْمَانَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تُرْفَعُ لِلرَّجُلِ صَحِيفَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،حَتَّى يَرَى أَنَّهُ نَاجٍ،فَمَا تَزَالُ مَظَالِمُ بَنِي آدَمَ تَتْبَعُهُ حَتَّى مَا تَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ،وَيُزَادُ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ»[٩٩٩]

وَمَا أَوْعَدَهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} [النساء: ١٠]،وَفِي أَكْلِ الرِّبَا {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} [البقرة: ٢٧٥]،وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَانِعِ الزَّكَاةِ {الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة: ٣٤]،إِلَى قَوْلِهِ {فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ} [التوبة: ٣٥]،فَكَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِعُقُوبَاتِ هَذِهِ الْجِنَايَاتِ كَذَلِكَ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِعُقُوبَةِ الظَّالِمِ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ،وَضَرْبِ أَبْشَارِهِمْ،وَشَتْمِ أَعْرَاضِهِمْ،أَنَّهُمْ يُعَاقَبُونَ بِالْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَوْعَدَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَعَدَّهَا لِلْخَطَايَا الَّتِي اكْتَسَبَهَا الْمَظْلُومُ،فَعَاقَبَ الظَّالِمَ بِتِلْكَ الْعُقُوبَاتِ فَتَكُونُ تِلْكَ الْعُقُوبَاتُ بِمَا اكْتَسَبَ مِنَ الظُّلْمِ الَّذِي نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ،فَيَكُونُ ذَلِكَ عِقَابًا لِفِعْلٍ اكْتَسَبَهُ

---

997 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٩٦٣)

998 – [صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٧]٥٩ – (٢٥٨١) [ش (إن المفلس من أمتي) معناه أن هذا حقيقة المفلس أما من ليس له مال ومن قل ماله فالناس يسمونه مفلسا وليس هو حقيقة المفلس لأن هذا الأمر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث فهو الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقي في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه]

999 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٥)(٢٢٦٨) صحيح

كَانَ قَدْ نُهِيَ عَنْهُ فَلَمْ يَنْتَه،فَعَاقَبَهُ بِتِلْكَ الْعُقُوبَة،وَأَحْبَطَ حَسَنَاته،بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يُثِبْ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ ثَوَابَهَا اسْتُحِقَّتْ عَلَيْهِ فَيَكُونُ كَمَنِ اكْتَسَبَ مَالًا فِي الدُّنْيَا فَجَمَعَ مِنْهُ،وَكَانَتْ عَلَيْهِ دُيُونٌ فَأَخَذَ مَا جَمَعَ أَرْبَابُ الدُّيُونِ فَلَمْ يَبْقَ فِي يَدَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ،كَذَلِكَ مَا اكْتَسَبَ هَذَا الظَّالِمُ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَصَدَقَةٍ فَاسْتَحَقَّ ثَوَابَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَكَانَتْ تَحْصُلُ لَهُ ، لَوْلَا مَا جَنَى مِنْ تِلْكَ الْمَظَالِمِ،فَلَمَّا قُوبِلَتْ حَسَنَاتُهُ بِسَيِّئَاتِه بِتِلْكَ الْمَظَالِمِ،وَلَوْلَا حَسَنَاتُهُ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَصَدَقَةٍ لَكَانَ يُعَاقَبُ عَلَى مَظَالِمِه بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلظَّالِمِينَ،فَيَكُونُ هَذِهِ الْحَالُ وَهَذَا الْفِعْلُ مِنَ اللَّهِ بِهِ نَوْعًا مِنَ الْعُقُوبَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلظَّالِمِينَ عَلَى ظُلْمِهِمْ،وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَمَا زَعَمَ هَذَا الزَّاعِمُ أَنَّهُ يُعَاقَبُ بِمَا لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الذَّنْبِ بَلْ عُوقِبَ بِذَنْبٍ اكْتَسَبَهُ،وَمَعْصِيَةٍ عَمِلَهَا،وَكَانَ ثَوَابُ حَسَنَاتِ الظَّالِمِ جَزَاءً لِلْمَظْلُومِ فِيمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ،وَثَوَابًا عَلَى صَبْرِهِ عِنْدَمَا ظُلِمَ،كَمَا قَالَ اللَّهُ {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: ٤٣] فَيَكُونُ ذَلِكَ الثَّوَابُ ثَوَابًا عَلَى مَا اكْتَسَبَهُ مِنْ صَبْرِهِ وَفَضْلًا زَادَهُ اللَّهُ مِنْ عِنْدِه،فَهَذَا قَدْ أُثِيبَ عَلَى مَا عَمِلَهُ،وَالظَّالِمُ عُوقِبَ عَلَى فِعْلِه،وَمَعْنَى أَخْذِ الْحَسَنَاتِ وَطَرْحِ السَّيِّئَاتِ نَوْعٌ مِنَ الْعُقُوبَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلظَّالِمِينَ،فَقَدْ وَزِرَ هَذَا الْوَازِرُ وِزْرَهُ،وَلَا وِزْرَ غَيْرِه،وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ: «لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا»[1000]

فَإِذَا جَازَ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ سِنِينَ إِثْمُ مَنْ عَمِلَ بَعْدَهُ،كَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يُطْرَحَ سَيِّئَاتُ مَنْ عَمِلَهَا عَلَى مَنْ لَمْ يَعْمَلْهَا،فَابْنُ آدَمَ إِنَّمَا قَتَلَ نَفْسًا وَاحِدَةً وَيُطْرَحُ عَلَيْهِ آثَامُ كُلِّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَذَلِكَ جَزَاءُ فِعْلِه،كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ عُقُوبَةَ ابْنِ آدَمَ فِي النَّارِ إِثْمَهُ وَآثَامَ الْقَاتِلِينَ،لَا أَنْ يَكُونَ يُؤَاخَذُ بِذَنْبِ غَيْرِه،وَيُعَاقَبُ عَلَى مَعْصِيَةٍ لَمْ يَعْمَلْهَا،كَذَلِكَ الظَّالِمُ جَعَلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ أَنْ يُعَاقَبَ بِآثَامِ مَنْ ظَلَمَهُ،وَيَكُونُ ذَلِكَ عُقُوبَةً لَهُ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ،وَعَلَى مَا اكْتَسَبَهُ،لَا أَنْ يَكُونَ مُؤَاخَذًا بِذَنْبِ غَيْرِه،أَوْ مُعَاقَبًا بِمَا لَمْ

[1000] – صحيح البخاري (٩/ ٣)(٦٨٦٧)

يَجْنِه،فَحَصَلَ آخِرُ الْأَمْرِ أَنْ يُجَازَى الْمَظْلُومُ عَلَى ظُلْمِه ثَوَابَ حَسَنَاتِ ظَالِمِه،وَذَلِكَ جَزَاؤُهُ الَّذِي جَازَاهُ اللَّهُ بِه،وَعِوَضُ مَا أُخِذَ مِنْهُ أَوْ جُنِيَ عَلَيْه،وَثَوَابُ صَبْرِه عَلَى مَا أَصَابَهُ،فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠]،وَيُعَاقَبُ الظَّالِمُ بِذَهَابِ حَسَنَاتِه،وَعُقُوبَةِ مَا جَنَى الْمَظْلُومُ،وَذَلِكَ جَزَاءُ ظُلْمِه،وَعُقُوبَةُ مَا جَنَتْهُ يَدُهُ وَلِسَانُهُ،فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ ظُلْمٌ وَلَا جَوْرٌ،وَلَا الْقَوْلُ بِالْإِحْبَاطِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ،فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّ مَنْ أَتَى كَبِيرَةً وَمَاتَ عَلَيْهَا حَبِطَتْ حَسَنَاتُهُ الَّتِي اكْتَسَبَهَا مُدَّةَ عُمْرِه،وَلَمْ يَنْفَعْهُ إِيمَانُهُ بِاللَّه فِي مُدَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً،وَلَا طَاعَتُهُ الَّتِي اكْتَسَبَهَا،بَلْ هُوَ فِي النَّارِ خَالِدًا مُخَلَّدًا مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ. وَأَمَّا الَّذِي قُلْنَاهُ فَإِنَّ هَذَا الظَّالِمَ لَمْ تَحْبَطْ أَعْمَالُهُ ، بَلْ أُسْقِطَتْ حَسَنَاتُهُ عِنْدَ عُقُوبَاتٍ كَثِيرَةٍ،أَلَا يَرَى أَنَّهُ اقْتَصَّ مِنْهُ فَوَفَّتْ حَسَنَاتُهُ بِجِنَايَاتِه،أَوْ نَقَصَتْ جِنَايَاتُهُ وَزَادَتْ حَسَنَاتُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ،وَإِنْ زَادَتْ جِنَايَاتُهُ فَإِنَّمَا يُعَاقَبُ فِي النَّارِ بِقَدْرِ مَا زَادَ مِنْ جِنَايَتِه فَيَكُونُ عُقُوبَتُهُ أَخَفَّ،وَمُدَّةُ لُبْثِه فِي النَّارِ أَقَلَّ،وَلَوْلَا حَسَنَاتُهُ لَطَالَ لُبْثُهُ فِي النَّارِ،وَاشْتَدَّتْ عُقُوبَتُهُ فِيهَا {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٠][1001]

[1001] – بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص: ٣٨٥)

المبحث التاسع والعشرون

رسالة من القلب للشباب الثائر على الظلم في سورية

قال تعالى:{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)} [القصص]

أيها الأحبة الكرام:

لقد أثلجتم صدرنا بثباتكم ووقوفكم في وجه شارون سورية وفرعونها المجرم الكبير بشار الأسد وأزلامه

أيها الأحبة الكرام:

في بداية رسالتي هذه لابد من ذكر الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى- **اعلموا رحمكم الله تعالى أن الله تعالى سوف ينصركم على عدوكم وعدوه**،ذلك لأنه لا يحب الظلم،ويعاقب الظالمين،ولأنكم قد شعرتم بالظلم والذل والهوان في ظل هذا الحكم الإجرامي الذي فاق جميع المجرمين في التاريخ،وأردتم تغيير واقعكم والحصول على حصول حقوقكم،والله تعالى يقول:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد:١١]

وقال تعالى:{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)} [الحج:٣٩،٤٠]

وقال تعالى:{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)} [إبراهيم:١٣،١٤]

الحقيقة الثانية – اعلموا –رحمكم الله – أنكم على الحق وعدوكم على الباطل،ولن يقف الباطل في وجه الحق إلا قليلا،قال تعالى:{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } [الأنبياء:١٨]

وقال تعالى:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) } [آل عمران:١٢ – ١٤]

الحقيقة الثالثة – أنتم تقاتلون في سبيل الله وهم يقاتلون في سبيل الطاغوت،فمهما كانت قوتهم وكيدهم فإنها بإذن الله تعالى إلى زوال،وهم مدوحورن بيقين،قال تعالى:{ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦]

الحقيقة الرابعة – كما أنكم تتألمون وتصابون بالأذى فعدوكم يتألم ألماً شديدا ويصاب بالأذى،لكن الفارق كبير بينهما هم لا يرجون الله تعالى ولا اليوم الآخر فسوف تنهار معنوياتهم عما قريب،وأما أنتم فإنكم على الحق وتطمعون برحمة الله وبنصره وبجنته التي لا يعادلها أي شيء في الدنيا،قال تعالى:{ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء:١٠٤]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمنِينَ بِالجِدِّ فِي قِتَالِ الأَعْدَاءِ،وَفِي طَلَبِهِمْ وَيُنَبِّهُهُمْ إِلى أَنَّهُمْ إِنْ كَانَتْ تُصِيبُهُمْ جِرَاحٌ،وَيَأْلَمُونَ مِنْهَا،فَإِنَّ أَعْدَاءَهُمْ تُصِيبُهُمْ أَيْضاً جِرَاحٌ،وَيَأْلَمُونَ مِنْهَا.وَالفَارِقُ الوَحِيدُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالكَافِرِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ الْمَثُوبَةَ وَالأَجْرَ،وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ،وَإِعْلاَءَ

كَلِمَةَ اللهِ،التي وَعَدَهُ اللهُ بِهَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ،فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ،وَالكَافِرِ لا يَنْتَظِرُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ،وَاللهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ فِيمَا يَفْرِضُهُ وَيُقَدِّرُهُ.[1002]

وقال تعالى:{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ } [محمد:١٥]

الحقيقة الخامسة- عليكم أن تعلموا أن الأجل بيد الله تعالى وحده وليس بيد أحد من البشر،قال تعالى:{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ } [آل عمران:١٤٥]

وأن الإقدام والخروج في الجهاد في سبيل الله والتعرض للمهالك لا يقرِّبُ الآجال أبداً،وأنَّ الإحجام والنكوص على العقبين وترك الجهاد في سبيل الله لن يؤخر الأجل لحظة واحدة،قال تعالى:{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)} [التوبة:٥١،٥٢]

وقال تعالى:{وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [آل عمران:١٥٤]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:يَا غُلَّامُ أَوْ يَا بُنَيَّ أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ:بَلَى،فَقَالَ:«احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ،احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ

[1002] -[أيسر التفاسير لأسعد حومد ص:٥٩٧،بترقيم الشاملة آليا]

أَمَامَكَ،تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ،إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ،وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ،وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ فَاعْمَلْ لِلَّهِ بِالشُّكْرِ فِي الْيَقِينِ،وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ،وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ،وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ،وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[1003]

وعَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ حَنْطَبٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَلَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا نَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ، وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ قَدْ أَلْقَى فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[1004]

وعَنْ حَيْوَةَ،أَخْبَرَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ،حَدَّثَنَا أَسْلَمُ أَبُو عِمْرَانَ،قَالَ:" كُنَّا بِالْقُسْطَنْطِينَةِ،وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،وَعَلَى أَهْلِ الشَّامِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ،فَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ صَفٌّ عَظِيمٌ مِنَ الرُّومِ،وَصَفَفْنَا لَهُمْ صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ بِهِمْ،ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا مُقْبِلًا،فَصَاحَ النَّاسُ فَقَالُوا:سُبْحَانَ اللهِ،الْفَتَى أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ،فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ،وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ دِينَهُ وَكَثَّرَ نَاصِرِيهِ قُلْنَا بَيْنَنَا بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ،فَلَوْ أَنَّا أَقَمْنَا فِيهَا وَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا،فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا هَمَمْنَا بِهِ قَالَ:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةُ الَّتِي أَرَدْنَا أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا فَنُصْلِحَهَا،فَأُمِرْنَا بِالْغَزْوِ،فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى قُبِضَ "[1005]

[1003] -[الاعتقاد للبيهقي ص:١٤٠] صحيح لغيره

[1004] -[الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٤٩٩](٤٢٧) صحيح لغيره

[1005] -[السنن الكبرى للنسائي ١٠/ ٢٨](١٠٩٦٢) صحيح

الحقيقة السادسة – الصبر هو زادكم بعد طاعة الله تعالى،قال تعالى:{ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران:١٤٦ – ١٤٨]

الحقيقة السابعة – مهما مكر هؤلاء المجرمون وخططوا للفساد هم وكل من ينصرهم من أهل الباطل،فالله تعالى لهم بالمرصاد،سوف يحبط مكرهم ويرتدُّ عليهم بإذن الله تعالى / قال تعالى:{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [الأنفال:٣٠]

وقال تعالى:{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) } [الرعد:٤١،٤٢]

وقال تعالى:{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) } [فاطر:٤٢ – ٤٤]

وقال تعالى:{قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ } [النحل:٢٦]

وقال تعالى:{وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢) } [إبراهيم:٤٤ - ٥٢]

الحقيقة الثامنة – أنتم يا أهل الشام عدة أهل الإسلام،فصلاحكم صلاحهم وفسادكم فسادهم،

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ عَمُودَ الْكِتَابِ انْتُزِعَ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي،فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي فَإِذَا هُوَ نُورٌ سَاطِعٌ عُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ،أَلَا وَإِنَّ الْإِيمَانَ إِذَا وَقَعَتِ الْفِتَنُ بِالشَّامِ»[1006]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«صَفْوَةُ اللهِ مِنْ أَرْضِهِ الشَّامُ،وَفِيهَا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ،وَلَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي ثُلَّةٌ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ»[1007]

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ،أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ هَانِئٍ،حَدَّثَهُ ، قَالَ:سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ،عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ» قَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَمِعْتُ مُعَاذًا يَقُولُ:«وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ»[1008]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ،عَنْ أَبِيهِ.عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرَ فِيكُمْ،لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[1009].

==========

1006 - [المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤/ ٥٥٥](٨٥٥٤) صحيح

1007 -[المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٩٤](٧٧٩٦) صحيح

1008 -[مسند الشاميين للطبراني ١/ ٣١٥](٥٥٤) صحيح

1009 -[فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢/ ٩٠٣](١٧٢٢) صحيح

وأما الذين أريده منكم **أيها الأحبة الكرام:**

فأمور عديدة أطمع أن تأخذوها بعين الاعتبار من أخ لكم:

الأول- عليكم بتوحيد الصفوف للوقوف بوجه هؤلاء المجرمين الذين لا يعرفون الله تعالى أصلا ولا يرقبون في مؤمن ولا مؤمنة إلا ولا ذمة....قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف:٤]

ثانيا- يجب عليكم ترك الدعوة للمذهبية الآن،فهذا حنفي وذاك شافعي وهذا كذا انبذوها الآن في هذا الوقت العصيب فإنها تفرق ولا تجمع....(ولا أعني ترك المذهب)

قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [الأنعام:١٥٩]

ثالثا- يجب أن يجتمع كل أطياف المجتمع في سوريا الصوفية والسلفية والحركات الإسلامية وغيرها،من أجل القضاء على هذا النظام الإجرامي البغيض(الذي لا يعرف رحمة ولا شفقة)..

فالجميع مستهدفون،والنظام لا يبقي ولا يذر،وقد حصل لقاء خاص بيني وبين أستاذي العلامة المحدث الشيخ عبد القادر الأرناؤوط رحمه الله عام ١٩٨٩ م في بيته فسألته السؤال التالي:هل إذا مات الأسد الآن سوف يستلم المسلمون الحكم في سوريا ؟

فقال:لا،إلا إذا وقفوا جميعاً السلفي والصوفي والحركي وكل التيارات الإسلامية القديمة والحديثة حتى يكون لهم وزن وقدر " وقد صدق الشيخ رحمه الله تعالى.

عَنْ عَرْفَجَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ:" «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ،وَالشَّيْطَانُ مَعَ مَنْ خَالَفَهُمْ يَرْكُضُ» ".[1010]

[1010] - رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٥/ ٢٢١](٩١٢٣)

رابعا- كلما سقط شهيد منكم كلما زاد ذلك من عـزيمتكم وقـوتكم وثبـاتكم في الوصول للهدف المنشود وهو إسقاط النظام الفاشي ومحاكمة كل أركانه.....

وكلما ذهب عنكم الخوف إلا من الله تعالى،قال تعالى:{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) } [آل عمران:]

وقال تعالى:{قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) } [الأنعام:٨٠،٨١]

وانظروا - يا رعاكم الله - ما أعدَّ الله تعالى للشهيد يوم القيامة،عَنْ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" للشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ ستُّ خِصَالٍ:يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ،وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ،وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ،وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ،وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ،اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ،وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ "[1011]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَأَقَامَ الصَّلَاةَ،وَصَامَ رَمَضَانَ،كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَفَلاَ نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ:«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ،أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ،كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ،فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ،فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ،وَأَعْلَى الجَنَّةِ،وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ،وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[1012]

[1011] -[سنن الترمذي ت شاكر ٤/ ١٨٧](١٦٦٣) صحيح

[1012] -[صحيح البخاري ٩/ ١٢٥](٧٤٢٣)

فلا يمكن أن تحصلوا على حريتكم على طبق من ورد فلا بد من تقديم الشهداء والتضحيات الجسام،لأن هذا النظام منذ قيامه قام على البغي والفساد والفسوق والعصيان والتعدي على حدود الله تعالى.

قال تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة:٢١٤]

وقال تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [التوبة:١٦]

أَظَنَنْتُمْ أَنْ يَتْرُكَكُمُ اللهُ مُهْمَلِينَ،لاَ يَخْتَبِرُكُمْ بِأُمُورٍ تُظْهِرَ فِيكُمُ الصَّادِقَ مِنَ الكَاذِبَ،لِيَعْلَمَ الذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِه،وَيُخْلِصُونَ فِي جِهَادِهِمْ وَنُصْحِهِمْ،للهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلمُؤْمِنِينَ،وَيَكُونُ ظَاهِرُهُمْ كَبَاطِنِهِمْ،فِي الإِخْلاَصِ للهِ وَلِلرَّسُولِ،وَلَيْسَ لَهُمْ بِطَانَةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ،وَلاَ رَوَابِطُ مَعَ المُشْرِكِينَ،وَلاَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِأَسْرَارِ المُسْلِمِينَ وَخُطَطِهِمْ،وَاللهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً.

وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ أنَّ التَكْلِيفَ الذِّي يَشُقُّ عَلَى الأَنْفُسِ هُو الذِي يُمَحِّصُ مَا فِي القُلُوبِ،وَيُطَهِّرُ السَّرَائِرَ،وَيَكْشِفُ مَكْنُونَاتِ السَّرَائِرِ الخَبِيثَة.[1013]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ،فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي،وَغَيْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ،قَالَ:فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ،قَالَ:فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ،فَقَالَ:«إِنَّ لَنَا طَلِبَةً،فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»،فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ،فَقَالَ:«لَا،إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا»،فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ،وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ»،فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»،قَالَ:- يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ:- يَا رَسُولَ اللهِ،جَنَّةٌ عَرْضُهَا

[1013] -[أيسر التفاسير لأسعد حومد ص:١٢٥٢،بترقيم الشاملة آليا]

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:بَخٍ بَخٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ:لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ،إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا،قَالَ:«فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»،فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ،فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ،ثُمَّ قَالَ:لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ،قَالَ:فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ،ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ "[1014]

خامسا– أي شيخ من مشايخ الشام لا يقف معكم ولا يؤيدكم فلا خير فيه أبـــدا،والله مستغن عنه وعن أمثاله قال تعالى:{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد:٣٨]

فالشيخ الحق هو الذي يقف في أول الصفوف يستنهض الهمم ويحث علـــى الشـــهادة في سبيل الله،وعلى الثبات والصمود كما كان علماؤنا السابقين رحمهم الله تعالى....

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[1015]

وعَنْ أَنَسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[1016]

[1014] -[صحيح مسلم ٣/ ١٥٠٩]١٤٥ - (١٩٠١)

[ش (بسيسة) قال القاضي هكذا هو في جميع النسخ قال والمعروف في كتب السيرة بسبس بن عمرو ويقال ابن بشـــر من الأنصار من الخزرج ويقال حليف لهم قلت (أي الإمام النووي) يجوز أن يكون أحد اللفظين اسما له والآخـــر لقبـــا (عينا) أي متجسسا ورقيبا (عير أبي سفيان) هي الدواب التي تحمل الطعام وغيره قال في المشارق العـــير هـــي الإبـــل والدواب تحمل الطعام وغيره من التجارات قال ولا تسمى عيرا إلا إذا كانت كذلك وقال الجوهري في الصحاح العير الإبل تحمل الميرة جمعها عيرات (طلبة) أي شيئا نطلبه (ظهره) الظهر الدواب التي تركب (ظهرانهم) أي مركوباتهم (حتى أكون أنا دونه) أي قدامه متقدما في ذلك الشيء لئلا يفوت شيء من المصالح التي لا تعلمونها (بخ بخ) فيه لغتان إسكان الخاء وكسرها منونا وهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير (إلا رجاءة) هكذا هو في أكثر النسخ المعتمـــدة رجاءة بالمد زنصب التاء وفي بعضها رجاء بلا تنوين وفي بعضها بالتنوين وكله صحيح معروف في اللغة ومعناه والله ما فعلته لشيء إلا رجاء أن أكون من أهلها (قرنه) أي جعبة النشاب]

[1015] - [المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣/ ٢١٥](٤٨٨٤) صحيح لغيره

[1016] -[السنن الكبرى للنسائي ٤/ ٢٦٩](٤٢٨٩) صحيح

سادسا- يجب التظاهر في كل مكان حتى تفوَّت الفرصة على هـذا النظـام الفاشـي الإجرامي من تجميع صفوف المرتزقة وقطاع الطرق والشبيحة وعناصر الأمـن الـذي لا يعرفون الله تعالى والذين هم من حثالات الناس الفاشلون في كل شـيء إلا في الـبطش والقتل والنهب والسلب...

سابعا- أي دعوة تدعوكم لترك المظاهرات أو للتفاوض معكم فلا تثقـوا بها،فهـذا الجزار الأسد لا يعرف إلا الدم والقتل والكذب والمراوغة والنفاق والدجل.....قـال تعالى:{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَـأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّـةً وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُعْتَـدُونَ (١٠)} [التوبة:٨ - ١٠]

ثامنا- يجب أن تبذلوا كل ما في وسعكم من أجل مساعدة بعضـكم الـبعض بالمـال وبالدم وبكل ما تستطيعون،لأن أزلام هذا النظام الإجرامي هم كما قـال تعـالى عـن أمثالهم:{ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا } [الكهف:٢٠]

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ،أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْـنَهُمْ فِـي إِنَـاءٍ وَاحِـدٍ بِالسَّوِيَّةِ،فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»[1017]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَـةٍ لَهُ،قَالَ:فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ كَـانَ مَعَـهُ فَضْـلُ

[1017] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٨)(٢٤٨٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٤)١٦٧ - (٢٥٠٠)

[ش(أرملوا) من الإرمال وهو فناء الزاد وقلة الطعام أصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل من القلة. (في إناء واحد) أي اقتسموه بمكيال واحد حتى لا يتميز بعضهم عن بعض. (بالسوية) متساوين. (فهم مني وأنا منهم) طريقتي وطريقتـهم واحدة في التعاون على البر والتقوى وطاعة الله عز وجل ولذلك لا أتخلى عنهم]

ظَهْرٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ،وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»،قَالَ:فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ"[1018]

تاسعا- لا يجوز البقاء في البيوت للقادرين على المشاركة في المظاهرات إلا إذا كانوا سندا للمتظاهرين يقدمون لهم العون والمساعدة من طعام وشراب ونقل جرحى وتبرع بالدم.....قال تعالى:{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } [النساء:٧٥]

عاشرا- أيها الإخوة القاعدون في البيوت العاجزون عن الخروج في المظاهرات عليكم بالدعاء للمتظاهرين المطالبين بحقوقهم وحقوقكم السليبة،والدعاء ينفع مما نزل ومما لم يترل،فعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ،فَقَالَ:«إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا،وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا،إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ،حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»[1019]

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَقَدْ خَلَّفْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رِجَالًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا،وَلَا سَلَكْتُمْ طَرِيقًا إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ،حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»[1020]

وعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»[1021]

[1018] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٤)١٨ - (١٧٢٨)

[ش (فجعل يصرف بصره) فهكذا وقع في بعض النسخ وفي بعضها يصرف فقط بحذف بصره وفي بعضها يضرب ومعنى قوله فجعل يصرف بصره أي متعرضا لشيء يدفع به حاجته(من كان معه فضل ظهر) أي زيادة ما يركب عليه ظهره من الدواب وخصه اللغويون بالإبل وهو التعين(فليعد به) قال في المقاييس عاد فلان بمعروفه وذلك إذا أحسن ثم زاد]

[1019] - [صحيح مسلم ٣/ ١٥١٨]١٥٩ - (١٩١١)

[1020] -[مستخرج أبي عوانة ٤/ ٤٩٢](٧٤٥٣) صحيح

[1021] -[صحيح البخاري ٤/ ٣٧](٢٨٩٦)

الحادي عشر – كل من يخرج في المظاهرات من كل الأطياف – حتى لو كان من غير المسلمين السنة الذين يشكلون أكثر من ٨٥% من مجموع الشعب العربي السوري،فهؤلاء حقهم محفوظ ولن نظلمهم أبداً،لأننا نتبع شرع الله تعالى الذي لا يظلم أحدا من خلقه والذي يقول:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة:٨]

يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لِيَكُنْ هَمَّكُمْ وَدَأْبُكُمُ التِزَامَ الحَقِّ فِي أَنْفُسِكُمْ (بِدُونِ اعْتِدَاءٍ عَلَى أَحَدٍ)،وَفِي غَيْرِكُمْ (بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَحْدَهُ،لاَ لأَجْلِ إِرْضَاءِ النَّاسِ،وَاكْتِسَابِ السُّمْعَةِ الحَسَنَةِ عِنْدَهُمْ)،وَكُونُوا شُهَدَاءَ بِالعَدْلِ (القِسْطِ)،دُونَ مُحَابَاةٍ لِمَشْهُودٍ لَهُ،وَلاَ لِمَشْهُودٍ عَلَيهِ،فَالعَدْلُ مِيزَانُ الحُقُوقِ،وَمَتَى وَقَعَ الجُورُ فِي أُمَّةٍ،زَالَتِ الثِّقَةُ مِنْ نُفُوسِ النَّاسِ،وَانْتَشَرَتِ المُفَاسِدُ،وَتَقَطَّعَتْ رَوَابِطُ المُجْتَمَعِ.وَلاَ تَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَتُكُمُ الشَّدِيدَةُ لِقَوْمٍ،وَبُغْضُكُمْ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ العَدْلِ فِي أَمْرِ الشَّهَادَةِ لَهُمْ بِحَقِّهِمْ إِذَا كَانُوا أَصْحَابَ حَقٍّ،أَوْ عَلَى عَدَمِ الحُكْمِ لَهُمْ بِذَلِكَ،فَالمُؤْمِنُ يُؤْثِرُ العَدْلَ عَلَى الجُورِ وَالمُحَابَاةِ.ثُمَّ يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى أَمْرَهُ السَّابِقَ بِضَرُورَةِ إِقَامَةِ العَدْلِ،وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالقِسْطِ فَيَقُولُ:اعْدِلُوا لأَنَّ العَدْلَ أَقْرَبُ لِتَقْوَى اللهِ،وَأَبْعَدُ عَنْ سَخَطِهِ،وَاتَّقُوا سَخَطَ اللهِ وَعِقَابَهُ لأَنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا،وَاحْذَرُوا أَنْ يُجَازِيَكُمْ بِالعَدْلِ عَلَى تَرْكِكُمُ القِيَامَ بِالعَدْلِ.[١٠٢٢]

بل حتى حق الحيوانات حقها محفوظ في شريعة الإسلام،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ،لَمْ تُطْعِمْهَا،وَلَمْ تَسْقِهَا،وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»[١٠٢٣]

[ش (رأى) ظن.(فضلا) زيادة مترلة بسبب شجاعته وغناه ونحو ذلك.(بضعفائكم) ببركتهم ودعائهم لصفاء ضمائرهم وقلة تعلقهم بزخرف الدنيا فيغلب عليهم الإخلاص في العبادة ويستجاب دعاؤهم]

[1022] -[أيسر التفاسير لأسعد حومد ص:٦٧٨،بترقيم الشاملة آليا]

[1023] -[صحيح مسلم ٤/ ١٧٦٠]١٥٢ - (٢٢٤٣)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:" بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بطَرِيقٍ،اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ،فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا،فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ،فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ،يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ،فَقَالَ الرَّجُلُ:لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي،فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ،فَسَقَى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ " قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ:«نَعَمْ،فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[1024]

وأما الذين يقفون مع النظام حتى النهاية فسوف يعاقبون بما يستحقون وفق شرع الله تعالى،قال تعالى:{ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) } [المائدة:٣٣ - ٣٤]

وثال تعالى:{ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) } [المائدة]

اللهم مترل،ومسيَّر السحاب انصرنا على الأسد وأعوانه نصرا مؤزاً عاجلاً غير آجل

[1024] - [صحيح البخاري ٨/ ١٠](٦٠٠٩)

المبحث الثلاثون

أيها الإخوة في الشام إما الخوف من الله أو الخوف من الأسد وزبانيته

فالمسلم لا خيار له في هذا الأمر،فبما أن الأمر بيد الله وحده وليس بيد أحد من البشر كما قال تعالى:{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد:١٦]

وقال تعالى:{وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) } [العنكبوت:١٦ - ١٨]

وقال تعالى:{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ } [سبأ:٢٢]

وقد أمرنا الله تعالى أن نخاف منه وحده لا شريك له كما قال تعالى:{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } [الأحزاب:٣٩]

وقال تعالى:{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر:٢٣]

وقال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [الملك:١٢]

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا،فَقَالَ:«يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ،احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ،احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ،إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ،وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ،وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ

كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ،وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ،رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[1025]

وقد حرَّم الله تعالى علينا الخوف من غير الله تعالى،قال تعالى:{ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [التوبة:١٣]

وقال تعالى:{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) } [آل عمران]

إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه،ويلبسهم لباس القوة والقدرة،ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول،وأنهم يملكون النفع والضر..ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه،وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد،وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب،فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ولا يفكر أحد في الانتقاض عليهم،ودفعهم عن الشر والفساد.

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل،وأن يتضخم الشر،وأن يتبدى قوياً قادراً قاهراً بطاشاً جباراً،لا تقف في وجهه معارضة،ولا يصمد له مدافع،ولا يغلبه من المعارضين غالب..الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا.فتحت ستار الخوف والرهبة،وفي ظل الإرهاب والبطش،يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه! يقلبون المعروف منكراً،والمنكر معروفاً،وينشرون الفساد والباطل والضلال،ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل،ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير..دون أن يجرؤ أحد على

[1025] -[سنن الترمذي ت شاكر ٤/ ٦٦٧](٢٥١٦) صحيح

مناهضتهم والوقوف في وجههم،ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة.بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له،وجلاء الحق الذي يطمسونه..

والشيطان ماكر خادع غادر،يختفي وراء أوليائه،وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته..ومن هنا يكشفه الله،ويوقفه عارياً لا يستره ثوب من كيده ومكره.ويعرف المؤمنين الحقيقة:

حقيقة مكره ووسوسته،ليكونوا منها على حذر.فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم.فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه،ويستند إلى قوته..إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملك النفع والضر.هي قوة الله.وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله،وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء.فلا تقف لهم قوة في الأرض..لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان:«فَلا تَخافُوهُمْ.وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»..[1026]

أنت أخي المسلم إن قتلت فأنت شهيد في سبيل الله،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِه فَهُوَ شَهِيدٌ»[1027]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ:«فَلَا تُعْطِه مَالَكَ» قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ:«قَاتِلْهُ» قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ:«فَأَنْتَ شَهِيدٌ»،قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ:«هُوَ فِي النَّارِ»[1028]

وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[1029]

[1026] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٨٣٤)

[1027] –[صحيح البخاري ٣/ ١٣٦](٢٤٨٠)

[ش(دون ماله) مدافعا من يريد أخذ ماله ظلما.(شهيد) له أجر الشهيد عند الله تعالى ولكنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ولا يعامل معاملة الشهيد من هذه الناحية]

[1028] –[صحيح مسلم ١/ ١٢٤]٢٢٥ – (١٤٠)

[1029] – [سنن النسائي ٧/ ١١٦](٤٠٩٣) صحيح

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[1030]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[1031]

وأما إذا ركنتم إلى هؤلاء المجرمين فسوف تخسرون الدنيا والآخرة،قال تعالى:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]

لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا.إلى الجبارين الطغاة الظالمين،أصحاب القوة في الأرض،الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبّدونهم لغير الله من العبيد..لا تركنوا إليهم فإن ركونكم إليهم يعني إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه.ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير.«فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ»..جزاء هذا الانحراف.«وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ»..والاستقامة على الطريق في مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زاد يعين..والكافرون كما نعلم قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة،وأن يعبدوا هم الله سنة،ولكن الحق سبحانه قطع وفصل في هذا الأمر.ويأتي هنا توكيد هذا الأمر؛ فيقول سبحانه:{وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ} [هود:١١٣].

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة،وأنت إذا ركنت للظالم؛ أدخلت في نفسه أن لقوته شأناً في دعوتك.والركون أيضاً يعني:المجاملة،وإعانة هذا الظالم على ظلمه،وأن تزيِّن للناس ما فعله هذا الظالم.وآفة الدنيا هي الركون للظالمين؛ لأن الركون إليهم إنما يشجعهم على التمادي في الظلم،والاستشراء فيه.وأدنى مراتب الركون إلى الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره،وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن تزين له هذا الظلم؛ وأن تزين للناس هذا الظلم.

1030 -[سنن النسائي ٧/ ١١٦](٤٠٩٤) صحيح

1031 -[سنن النسائي ٧/ ١١٦](٤٠٩٥) صحيح

وأنت إذا استقرأت وضع الظلم في العالم كله لوجدت آن آفات المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركون إلى الظالم؛ لكنك حين تبتعد عن الظالم،وتقاطعه أنت ومن معك؛ فلسوف يظن أنك لم تُعرْض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر؛ فيتزلزل في نفسه؛ حاسباً حساب القوة التي تركن إليها؛ وفي هذا إضعاف لنفوذه؛ وفي هذا عزلة له وردع؛ لعله يرتدع عن ظلمه"[1032]

وقال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)} [النساء:٩٧ - ٩٩]

وقال تعالى:{وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)} [غافر:٤٧،٤٨]

إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا. لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولا وإمعات! و لم يخفف عنهم أنهم كانوا غنما تساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار! لقد منحهم الله الكرامة.كرامة الإنسانية.وكرامة التبعة الفردية.وكرامة الاختيار والحرية.ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعا.تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية. لم يقولوا لهم:لا.بل لم يفكروا أن يقولوها.بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال..«إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً»..

وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعا لهم عند الله.فهم في النار.ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة.سوق الشياه! ثم ها هم أولاء يسألون كبراءهم:«فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ؟»..كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد،وأنهم يحمونهم من الفساد،وأنهم يمنعونهم من الشر والضر

[1032] -.[تفسير الشعراوي ١١/ ٦٧١٥]

وكيد الأعداء! فأما الذين استكبروا فيضيقون صدرا بالذين استضعفوا،ويجيبونهم في ضيق وبرم وملالة.وفي إقرار بعد الاستكبار:«قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا:إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ»..

«إِنَّا كُلٌّ فِيها»..إنا كل ضعاف لا نجد ناصرا ولا معينا.إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء.فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء؟

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ»..فلا مجال لمراجعة في الحكم،ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل.وقد قضي الأمر،وما من أحد من العباد يخفف شيئا من حكم الله.[1033]

وقال تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)} [سبأ:]

ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا.فهم في البلاء سواء.وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا البلاء! وعندئذ يردون عليهم باستنكار،ويجبهونهم بالسب الغليظ:«قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا:أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ»! فهو التخلي عن التبعة،والإقرار بالهدى،وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزنا للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأيا،ولا يعتبرون لهم وجودا،ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة! أما اليوم - وأما العذاب - فهم يسألونهم في إنكار:«أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ؟ »..«بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ»..من ذات أنفسكم،لا تهتدون،لأنكم مجرمون! ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة.ولكنهم في الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم

[1033] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٧٩)

الزائفة وتتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة.ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون،بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهارا ولا ليلا للصد عن الهدى وللتمكين للباطل،ولتلبيس الحق،وللأمر بالمنكر،ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء:وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا:بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ،إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً»..

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء،ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين.فلكل جريمته وإثمه.المستكبرون عليهم وزرهم،وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم.والمستضعفون عليهم وزرهم،فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة،لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين.لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية،فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولا وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين.فاستحقوا العذاب جميعا وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضرا لهم مهيأ:«وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ»..

وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور،فلا تفوه بها الألسنة،ولا تتحرك بها الشفاه.ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد:«وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا»..ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأغلال،مهملا خطابهم إلى خطاب المتفرجين! «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ؟ »..

ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين.وكلاهما ظالم.هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله.وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان،وإدراك الإنسان،وحرية الإنسان،وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان..وكلهم في العذاب سواء.لا يجزون إلا ما كانوا يعملون..[1034]

[1034] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٨٧)

المبحث الحادي والثلاثون

نصر الله آت بإذن الله تعالى ولكن له ثمن باهظ

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة.فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر وهي تدفع وتدافع،وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة..عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ولتؤتي أقصى ما تملكه،وتبذل آخر ما تنطوي عليه وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها،واحتشاد كل قواها،وتوفز كل استعدادها،وتجمع كل طاقاتها،كي يتم نموها،ويكمل نضجها،وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء،والذي يتنزل هينا لينا على القاعدين المستريحين،يعطل تلك الطاقات عن الظهور،لأنه لا يحفزها ولا يدعوها.

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه.أولا لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة.وثانيا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به و لم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه.فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة،والكر والفر،والقوة والضعف والتقدم والتقهقر.ومن المشاعر المصاحبة لها..من الأمل والألم.ومن الفرح والغم،ومن الاطمئنان والقلق.

ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة..ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة،وتدبير الأمور في جميع الحالات..وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

من أجل هذا كله،ومن أجل غيره مما يعلمه الله..جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم و لم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء[1035]

فالنصر آت بإذن الله تعالى

ولكن هناك أناس لن يكون لهم أي شرف في هذا النصر إما لجبنهم وتخاذلهم أو لحبهم للدنيا وكراهية الآخرة....أو لنفاقهم

والذين يجب أن يديروا شؤون البلاد بعد زوال هذا الطاغية الصنم إن شائ الله هم الذين قدموا تضحيات جسام من أجل إزالته وليس أولئك المتفرجين أو المتخاذلين أو الخانعين فهؤلاء ليس لهم مكانة أبدا والمرء حيث يضع نفسه

قال تعالى:{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)} [المعارج:١ - ٧]

وقال المتنبي:

لا يَسلَمُ الشَرَفُ الرَفيعُ مِنَ الأَذى حَتّى يُراقَ عَلى جَوانِبِهِ الدَمُ

وهذه نقطة مهمة جدا فالنصر الذي يأتي بعد تضحيات جسام وبعد بذل أقصى جهد لتحقيقه سيبقى خالدا ولا تفرط به الأمة أبدا لكن النصر السريع لا قيمة له بتاتا فسوف يذهب بسرعة أيضا ويعقبه الهزائم

فهنا التمحيص واجب حتى لا يبقى في هذه الثورة إلا المخلصون ويسقط المتاجرون وطلاب الدنيا والملحدون

لذلك طالما أننا على الحق وعدونا على الباطل ونحن نسعى ضمن أمكاناتنا المحدودة في الحصول عليه فسوف ينصرنا الله تعالى على عدونا لا محالة بإذن الله تعالى

[1035] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٦٣)

وقال تعالى:{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)} [البقرة:٢٤٩ - ٢٥١]

وَلَمّا تَقَدَّمَ المُؤْمِنُون المُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللهِ مَعَ طَالُوتَ لِقتَالِ جَالُوتَ وَجُنُودِه،دَعَوا اللهَ وَرَجَوْهُ أنْ يُنْزِلَ عَلَيهِم الصَّبْرَ عَلَى الشِّدَّة،وَأنْ يُثَبِّتَ أقْدَامَهُم عِنْدَ لِقَاءِ أَعْدَائِهِمْ،وَأنْ يُجَنِّبَهُمُ العَجْزَ وَالفِرَارَ،وَأنْ يَمُنَّ عَلَيهِمْ بِالنَّصْرِ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ.

فأمام الهول الحي،أمام كثرة الأعداء وقوتهم،تهاوت العزائم وزلزلت القلوب:«فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا:لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِه»..وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة..اعتصمت بالله ووثقت،وقالت:«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»..[1036]

وهذه هي التي رجحت الكفة،وتلقت النصر،واستحقت العز والتمكين.

وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة..وكلها واضحة في قيادة طالوت.تبرز منها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة،وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى،ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة،وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه..ثم - وهذا هو الأهم - عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة و لم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة.فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص،ووعد الله الصادق للمؤمنين.

والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة..أن القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل،وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود.فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي

1036 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٥٧،بترقيم الشاملة آليا)

ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر،كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا:«لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِه»..ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف.إنما حكمت حكما آخر،فقالت:«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّه،وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»..ثم اتجهت لربها تدعوه:«رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..

وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين،إنما هو في يد الله وحده.فطلبت منه النصر،ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه..وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا،وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح.

وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون! ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة.فالنصوص القرآنية – كما علمتنا التجربة – تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن وبقدر حاجته الظاهرة فيه.ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب،في شتى المواقف،على قدر مقسوم..وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت – إلى حد – ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد:«فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا:لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِه»..

لقد صاروا قلة.وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته:بقيادة جالوت.إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم.ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته.إنها التجربة الحاسمة.تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور.وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم،فاتصلت بالله قلوبهم وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم،غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم! وهنا برزت الفئة المؤمنة.الفئة القليلة المختارة.والفئة ذات الموازين الربانية:«قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّه:كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ.وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»..هكذا..«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً»..بهذا التكثير.فهذه هي القاعدة

في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله.القاعدة:أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار.

ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ولأنها تمثل القوة الغالبة.قوة الله الغالب على أمره،القاهر فوق عباده،محطم الجبارين،ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله:«بِإِذْنِ اللَّهِ»..ويعللونه بعلته الحقيقية:«وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»..فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل..

ونمضي مع القصة.فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله،التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء،وتستمد قوتها كلها من إذن الله،وتستمد يقينها كله من الثقة في الله،وأنه مع الصابرين..

إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة،الثابتة،التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته،مع ضعفها وقلتها..إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة.بعد أن تجدد عهدها مع الله،وتتجه بقلوبها إليه،وتطلب النصر منه وحده،وهي تواجه الهول الرعيب:«وَلَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالُوا:رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً،وَثَبِّتْ أَقْدامَنا،وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ.فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ،وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ،وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ،وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ»..هكذا..«رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً»..وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم،وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة.

«وَثَبِّتْ أَقْدامَنا»..فهي في يده - سبحانه - يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد.«وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..فقد وضح الموقف..إيمان تجاه كفر.وحق إزاء باطل.ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين.فلا تلجلج في الضمير،ولا غبش في التصور،ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها:«فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ»..ويؤكد النص هذه الحقيقة:«بِإِذْنِ اللَّهِ»..ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما.وليتضح التصور الكامل لحقيقة

ما يجري في هذا الكون،ولطبيعة القوة التي تجريه..إن المؤمنين ستار القدرة يفعل الله بهم ما يريد،وينفذ بهم ما يختار..بإذنه..

ليس لهم من الأمر شيء،ولا حول لهم ولا قوة ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته،فيكون منهم ما يريده بإذنه..وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين..إنه عبد الله.اختاره الله لدوره.وهذه منة من الله وفضل.وهو يؤدي هذا الدور المختار،ويحقق قدر الله النافذ.ثم يكرمه الله – بعد كرامة الاختيار – بفضل الثواب..ولولا فضل الله ما فعل،ولولا فضل الله ما أثيب..ثم إنه مستيقن من نبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق..فليس له في شيء من هذا كله أرب ذاتي،إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة قائم بما يريد.استحق هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص.

ويبرز السياق دور داود:«وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ»..وداود كان فتى صغيرا من بني إسرائيل.وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا..ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها،إنما تجري بحقائقها.وحقائقها يعلمها هو.ومقاديرها في يده وحده.فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم،ويفوا الله بعهدهم.ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذي يريده.وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير،ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم..

وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله.فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت،ويرثه ابنه سليمان،فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود:«وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ»..وكان داود ملكا نبيا،وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن في مواضعه في سور أخرى..

أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعا..وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة،ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية،وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية..حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى..إنها ليست المغانم

والأسلاب،وليست الأمجاد والهالات..إنما هو الصلاح في الأرض،وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ.وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ»..

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار.وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس،في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات..ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا،وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق،إلى الخير والصلاح والنماء،في نهاية المطاف..

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض.ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة،لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع،فتنفض عنها الكسل والخمول،وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة،وتظل أبدا يقظة عاملة،مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة..وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء..يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة.تعرف الحق الذي بينه الله لها.وتعرف طريقها إليه واضحا.وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض.وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل،وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه..

وهنا يمضي الله أمره،وينفذ قدره،ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا،ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية،التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه.وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر.ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض،وتمكين الصلاح في الحياة.إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار.

فالقضية هكذا يجب أن ينظر لها وليس من أي ميزان مادي آخر،ذلك لأن الأمر أولاً وأخيراً بيد الله تعالى،وليس بيد أحد من الخلق،وكلما اشتدت الأزمة وكثرت الجراح والآلام كلما أيقن الناس أنه لا عاصم لهم ولا مفرج لهم ولا حامي لهم إلا الله وحده،وعندها يكون الفرج قريب والنصر أقرب[١٠٣٧]

وقال تعالى:{ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [يوسف:١١٠]

يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلاً قَبْلَهُ فَاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى أَنْ يَتَرَاخَى نَصْرُ اللهِ عَنِ الرُّسُلِ،وَأَنْ يَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ التَّكْذِيبِ مِنْ قَوْمِهِمْ،حَتَّى إِذَا زُلْزِلَتِ النُّفُوسُ،وَاسْتَشْعَرَتِ القُنُوطَ وَاليَأْسَ مِنَ النَّجَاةِ وَالنَّصْرِ،فَحِينَئِذٍ يَأْتِي نَصْرُ اللهِ،فَيُنَجِّي مَنْ يَشَاءُ اللهُ إِنْجَاءَهُ،وَيُهْلِكُ مَنْ يَشَاءُ إِهْلاَكَهُ،وَلاَ يَرُدُّ أَحَدٌ بَأْسَ اللهِ وَعِقَابَهُ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى (كُذِبُوا) قِرَاءَتَانِ:

الأُولَى – (كُذِّبُوا) – بِضَمِّ الكَافِ وَتَشْدِيدِ الذَّالِ – وَكَذَلِكَ كَانَتْ تَقْرَؤُهَا عَائِشَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهَا – وَمَعْنَاهَا:إِنَّ الرُّسُلَ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ،وَلَنْ يُؤْمِنُوا لَهُمْ،وَيَئِسُوا مِنْ قَوْمِهِمِ الكَافِرِينَ.

وَالثَّانِيَةُ – (كُذِبُوا) – بِضَمِ الكَافِ وَتَخْفِيفِ الذَّالِ – وَكَذَلِكَ كَانَ يَقْرَؤُهَا ابْنُ عَبَّاسٍ – وَمَعْنَاهَا:إِنَّهُ لَمَّا يَئِسَ الرُّسُلُ مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ،وَظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوهُمْ،جَاءَ نَصْرُ اللهِ فَأَيَّدَ الرُّسُلَ.

فَفِي القِرَاءَةِ الأُوْلَى:يَشْعُرُ الرُّسُلُ أَنَّهُمْ كُذِّبُوا مِنْ قِبَلِ أَقْوَامِهِمْ.

وَفِي القِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ:يُدْرِكُ القَوْمُ أَنَّ الرُّسُلَ كَذَبُوهُمْ بِمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ.[١٠٣٨]

1037 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٥١٢)

1038 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٠٧،بترقيم الشاملة آليا)

إنها صورة رهيبة،ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل،وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود.وتمرُّ الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل،وتكرُّ الأعوام والباطل في قوته،وكثرة أهله،والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة.

إنها ساعات حرجة،والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر.والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض.فتهجس في خواطرهم الهواجس..تراهم كذبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر.وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى:«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ:مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟...» ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ،ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس،والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة،وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات،وما يحس به من ألم لا يطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب،ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل،ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة..في هذه اللحظة يجيء النصر كاملا حاسما فاصلا:«جاءَهُمْ نَصْرُنا،فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ،وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»..

تلك سنة الله في الدعوات.لا بد من الشدائد،ولا بد من الكروب،حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة.ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس.يجيء النصر من عند الله،فينجو الذين يستحقون النجاة،ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين،وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون.ويحل بأس الله بالمجرمين،مدمرا ماحقا لا يقفون له،ولا يصده عنهم ولي ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصا فتكون الدعوات هزلا.فلو كان النصر رخيصا لقام في كل يوم دعيّ بدعوة لا تكلفه شيئا.أو تكلفه القليل.ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثا ولا لعبا.فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج،ينبغي صيانتها وحراستها من

الأدعياء.والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة،لذلك يشفقون أن يـــدّعوها،فإذا ادّعوهـــا عجزوا عن حملها وطرحوها،وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لهـــا إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة الله،ولو ظنوا أن النصـــر لا يجيـــئهم في هذه الحياة!

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل إما أن تربح ربحا معينـــا محـــددا في هـــذه الأرض،وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحا وأيسر حصيلة! والـــذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية – والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان – يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقـــوم برحلـــة مريحة،ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيـــت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الـــدعوة إلى الله،باســـتثارة شـــهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشـــهوات!..ويجـــب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف،وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهليـــة كثير التكاليف أيضا.وأنه من ثم لا تنضم إليها – في أول الأمر – الجماهير المستضـــعفة،إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله،التي تؤثر حقيقة هـــذا الـــدين علـــى الراحـــة والسلامة،وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا.وأن عدد هذه الصفوة يكون دائما قليلا جدا.

ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق،بعد جهاد يطول أو يقصر.وعندئذ فقط تـــدخل الجماهير في دين الله أفواجا.

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة وكان الكرب الـــذي واجهوه من الشدة وكان الفزع الذي لقوه من العنف،بحيث زلزلهم زلزالا شديدا،كما قال عنهم أصدق القائلين:«هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً»..

لقد كانوا ناسا من البشر.وللبشر طاقة.لا يكلفهم الله ما فوقها.وعلى الرغم مـــن ثقتـــهم بنصر الله في النهاية وبشارة الرسول – ﷺ – لهم،تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى

فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق..على الرغم من هذا كله،فإن الهول الـذي كـان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم.

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصـوير خـبر حذيفـة.والرسـول - ﷺ - يحـس حالـة أصحابه،ويرى نفوسهم من داخلها،فيقول:«من رجل يقوم فينظر لنا ما فعـل القـوم ثم يرجع.يشرط له رسول الله - ﷺ - الرجعة.أسـأل الله تعـالى أن يكـون رفيقـي في الجنة»..ومع هذا الشرط بالرجعة،ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله في الجنة،فإن أحدا لا يلبي النداء.فإذا عين بالاسم حذيفة قال:فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني!..ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة..

ولكن كان إلى جانب الزلزلة،وزوغان الأبصار،وكرب الأنفاس..كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله والإدراك الذي لا يضل عن سنن الله والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها.ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا في انتظار النصر.ذلك أنهم صدقوا قول الله سبحانه من قبل:«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ،مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُـولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ:مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ»..

وها هم أولاء يزلزلون.فنصر الله إذن منهم قريب! ومن ثم قالوا:«هذا مـا وَعَـدَنَا اللَّـهُ وَرَسُولُهُ.وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»..«وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً»..«هذا ما وَعَـدَنَا اللَّـهُ وَرَسُولُهُ»..هذا الهول،وهذا الكرب،وهذه الزلزلة،وهذا الضيق.وعدنا عليه النصر..فلا بد أن يجيء النصر:«وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»..صدق الله ورسوله في الأمارة وصدق الله ورسوله في دلالتها..ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله:«وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً»..

قد كانوا ناسا من البشر،لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر،وضعف البشر.ولـيس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري ولا أن يخرجوا من اطار هـذا الجـنس ويفقدوا خصائصه ومميزاته.فلهذا خلقهم الله.خلقهم ليبقوا بشـرا،ولا يتحولـوا جنسـا آخر.لا ملائكة ولا شياطين،ولا بهيمة ولا حجرا..

كانوا ناسا من البشر يفزعون،ويضيقون بالشدة،ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة.ولكنهم كانوا – مع هذا – مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله وتمنعهم من السقوط وتجدد فيهم الأمل،وتحرسهم من القنوط..وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير.

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور.علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا، لم يتخلوا عن طبيعة البشر،بما فيها من قوة وضعف.وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبني الإنسان،في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة أو زلزلنا مرة،أو فزعنا مرة،أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق..فعلينا ألا نيأس من أنفسنا،وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدا! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونصر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى.عروة السماء.وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة،ونسترد الثقة والطمأنينة،ونتخذ من الزلزال بشيرا بالنصر.فنثبت ونستقر،ونقوى ونطمئن،ونسير في الطريق..

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام.النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده،وثباته على عهده مع الله،فمنهم من لقيه،ومنهم من ينتظر أن يلقاه:«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ.وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»..[1039]

وقال تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة:٢١٤]

[1039] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٦٨١)

يُخَاطِبَ اللهُ تَعَالَى الذِينَ هَدَاهُمْ إِلى السِّلْمِ،وَإِلَى الخُرُوجِ مِنْ ظُلْمَةِ الاخْتِلاَفِ،إِلى نُورِ الوِفَاقِ،باتِّبَاعِهِمْ هُدَى الكِتَابِ زَمَنَ التَّنْزِيلِ،الذِينَ يَظُنُّونَ مِنْهُمْ أَنَّ انْتِسَابَهُمْ إِلى الإِسْلاَمِ فِيهِ الكِفَايَةُ لِدُخُولِ الجَنَّةِ دُونَ أَنْ يَتَحَمَّلُوا الشَّدَائِدَ وَالأَذَى فِي سَبِيلِ الحَقِّ،وَهِدَايَةِ الخَلْقِ،جَهْلاً مِنْهُمْ بِسُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي أَهْلِ الهُدَى مُنْذُ أَنْ خَلَقَهُمْ.فَيَقُولُ لَهُمْ:هَلْ تَحْسَبُونَ أَنَّكُمْ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ قَبْلَ أَنْ تُبْتَلَوا وَتُخْتَبَرُوا كَمَا فُعِلَ بِالذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الأُمَمِ الذِينَ ابْتُلُوا بِالفَقْرِ (البَأْسَاءُ)،وَبِالأَسْقَامِ وَالأَمْرَاضِ (الضَّرَّاءُ)،وَخُوِّفُوا وَهُدِّدُوا مِنَ الأَعْدَاءِ (زُلْزِلُوا)،وَامْتُحِنُوا امْتِحَاناً عَظِيماً،وَاشْتَدَّتِ الأُمُورُ بِهِمْ حَتَّى تَسَاءَلَ الرَّسُولُ وَالمُؤْمِنُونَ قَائِلِينَ:مَتَى يَأْتِي نَصْرُ اللهِ.

وَحِينَما تَثْبُتُ القُلُوبُ عَلَى مِثْلِ هذه المِحَنِ المُزَلْزِلَةِ،حِينَئِذٍ تَتِمُّ كَلِمَةُ اللهِ،وَيَجِيءُ نَصْرُهُ الذِي يَدَّخِرُهُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِبَادِهِ الذِينَ يَسْتَيْقِنُونَ أَنْ لاَ نَصْرَ إِلاَّ نَصْرُ اللهِ.[١٠٤٠]

وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة..إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه.من الرسول الموصول بالله،والمؤمنين الذين آمنوا بالله.إن سؤالهم:«مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟ » ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة.ولن تكون إلا محنة فوق الوصف،تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب،فتبعث منها ذلك السؤال المكروب:«مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟ ».

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة..عندئذ تتم كلمة الله،ويجيء النصر من الله:«أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ»..

إنه مدخر لمن يستحقونه.ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية.الذين يثبتون على البأساء والضراء.الذين يصمدون للزلزلة.الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة.الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله،وعندما يشاء الله.وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها،فهم يتطلعون فحسب إلى «نَصْرُ اللَّهِ»،لا إلى أي حل آخر،ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله.ولا نصر إلا من عند الله.بهذا يدخل المؤمنون الجنة،مستحقين لها،جديرين بها،بعد الجهاد والامتحان،والصبر والثبات،والتجرد لله وحده،والشعور به وحده،وإغفال كل ما سواه وكل من سواه.

1040 – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٢١،بترقيم الشاملة آليا)

إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة،ويرفعها على ذواتها،ويطهرها في بوتقة الألم،فيصفو عنصرها ويضيء،ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية،فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها.وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما وقع،وكما يقع في كل قضية حق،يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق،حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم،وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين..

على أنه – حتى إذا لم يقع هذا – يقع ما هو أعظم منه في حقيقته.يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها،وأن تنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة،والحرص على الحياة نفسها في النهاية..وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها،وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء.كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون،المؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته.وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف..وهذا هو الطريق..

هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى،وللجماعة المسلمة في كل جيل.

هذا هو الطريق:إيمان وجهاد..ومحنة وابتلاء.وصبر وثبات..وتوجه إلى الله وحده.ثم يجيء النصر.ثم يجيء النعيم...[1041]

[1041] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٤٥٥)

المبحث الثاني والثلاثون

لماذا يبطئ النصر؟

والنصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا:ربنا الله. فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله.

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها،و لم يتم بعد تمامها،و لم تحشد بعد طاقاتها،و لم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا!

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة،وآخر ما تملكه من رصيد،فلا تستبقي عزيزا ولا غاليا،لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله.

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها،فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله،وهي تعاني وتتألم وتبذل ولا تجد لها سندا إلا الله،ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه،أو تقاتل حمية لذاتها،أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها. والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله،بريئا من المشاعر الأخرى التي تلابسه. عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِىِّ - ﷺ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه،مَا الْقِتَالُ فِى سَبِيلِ اللَّه فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا،وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً. فَرَفَعَ إِلَيْه رَأْسَهُ - قَالَ وَمَا رَفَعَ إِلَيْه رَأْسَهُ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا - فَقَالَ «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّه هِىَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ»[1042]

[1042] -(صحيح البخارى- المكتر [١/ ٢٢١] (١٢٣)).

كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير،يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا،ويذهب وحده هالكا،لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار! وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس،ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار. فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر،ولاستبقائه!

من أجل هذا كله،ومن أجل غيره مما يعلمه الله،قد يبطئ النصر،فتتضاعف التضحيات،وتتضاعف الآلام. مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه،وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه:«وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ،وَآتَوُا الزَّكاةَ،وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ،وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ»..

فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره.. فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله،فيستحقون نصر الله،القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه؟ إنهم هؤلاء:«الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ».. فحققنا لهم النصر،وثبتنا لهم الأمر.. «أَقامُوا الصَّلاةَ».. فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به،واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين.. «وَآتَوُا الزَّكاةَ».. فأدوا حق المال،وانتصروا على شح النفس،وتطهروا من الحرص،وغلبوا وسوسة الشيطان،وسدوا خلة الجماعة،وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج،وحققوا لها صفة الجسم الحي – عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ

وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[١٠٤٣]...

«وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ».. فدعوا إلى الخير والصلاح،ودفعوا إليه الناس.. «وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ».. فقاوموا الشر والفساد،وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره،ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه..

هؤلاء هم الذين ينصرون الله،إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة،معتزين بالله وحده دون سواه. وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين.

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته. المشروط بتكاليفه وأعبائه.. والأمر بعد ذلك لله،يصرفه كيف يشاء،فيبدل الهزيمة نصرا،والنصر هزيمة،عندما تختل القوائم،أو تهمل التكاليف:«وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ»..

إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة. من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح. المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات،والمطامع والشهوات..

وهو نصر له سببه. وله ثمنه. وله تكاليفه. وله شروطه. فلا يعطى لأحد جزافا أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه..[١٠٤٤]

1043 -(صحيح مسلم- المكتز [١٦/ ٤٧١] ٦٧٥١ وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٥/ ٨٠٢] (١١٨٨٨))

1044 - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣١٣٧)

المبحث الثاث والثلاثون

الثورة العربية والشعار المبارك الشعب يريد إسقاط النظام

كتبهاد.حاكم المطيري،في ١١ يونيو ٢٠١١

نجحت كل الشعوب العربية التي رفعت شعار (الشعب يريد إسقاط النظام) في إسقاط الطاغوت وتحقيق أهم أهدافها وأولها،مع كون تلك الأنظمة تعد من الأنظمة الأشد استبداد وإجراما وقوة في العالم العربي كتونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا،بينما لم تنجح أي من الشعوب العربية الأخرى التي رفعت شعار (الشعب يريد إصلاح النظام) في تحقيق هدفها بالتغيير السلمي كما في الأردن والمغرب والعراق وعمان والكويت والمملكة العربية السعودية والجزائر الخ

ولا يحتاج الأمر إلى إثبات هذه الحقيقة التي هي كضوء الشمس في رائعة النهار،وإنما البحث هو في أسباب وأسرار هذه الظاهرة التي تجلت بكل وضوح في الثورة العربية على اختلاف تجلياته في كل بلد عربي!

فما هو السر في هذا الشعار والكلمة المباركة التي ما إن يرفعها الشعب حتى يتغير فجأة مسار الأمور رأسا على عقب،ويحدث التحول الجذري لصالح التغيير الذي يريده الشعب؟!

بل إن الشعوب العربية تلك التي أسقطت أنظمتها الطاغوتية،اختلف حالها بين أول أمرها حين كانت ترفع شعارات الخبز والعمل والإصلاح،وآخر أمرها حين هتفت (الشعب يريد إسقاط النظام)،وكان الفرق بين الحالين،كالفرق بين الطائفتين!

فقد كانت في أول أمرها أشبه بمن يستجدي ويتوسل النظام بأن يمن عليها بحقوقها،فكان زين العابدين يتهددها،وحسني لا يأبه لها،وعلي صالح يسخر بها،والقذافي يحتقرها،وبشار يتهمها،حتى إذا كفرت بهم،وآمنت بحقها في الحرية والعدل والكرامة،وأعلنت عصيانها،فإذا الأرض تهتز تحت أقدام الطاغوت،وإذا الرعب يملأ قلبه،وإذا السماء تفتح أبوابها بالنصر للمستضعفين،فيربط الله على قلوبهم،ويثبت أقدامهم،فإذا هم يستقبلون الموت بصدور

عارية،ليهب الله لهم الحياة وفق سننه الجارية،فالسعادة محرمة على الجبناء،واطلبوا الموت توهب لكم الحياة!

ولا شك بأن في الكلمة الأولى المباركة (الشعب يريد إسقاط النظام) من التأثير وإحداث التغيير ما يجب التوقف عنده ودراسته،ومعرفة الفروق بينها وبين الكلمة الثانية (الشعب يريد إصلاح النظام)،وهذه بعضها:

الفرق الأول:يتجلى في الكلمة المباركة والشعار الأول الكفر بالطاغوت بأوضح صوره،وهو الدعوة إلى إسقاطه،كما قال تعالى {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٥٦]،فقد أوجب الله تعالى قبل الإيمان به الكفر بالطاغوت والأنداد الذين ينازعونه الربوبية والملك والحكم والطاعة،كما في قوله تعالى {{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠]،قال ابن جرير الطبري في تفسيره:" وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدِي فِي الطَّاغُوتِ أَنَّهُ كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللَّهِ فَعُبِدَ مِنْ دُونِهِ،إِمَّا بِقَهْرٍ مِنْهُ لِمَنْ عَبَدَهُ،وَإِمَّا بِطَاعَةٍ مِمَّنْ عَبَدَهُ لَهُ،وَإِنْسَانًا كَانَ ذَلِكَ الْمَعْبُودُ،أَوْ شَيْطَانًا،أَوْ وَثَنا،أَوْ صَنَمًا،أَوْ كَائِنًا مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ. ".[١٠٤٥]

وفي لسان العرب " الطاغوتُ:مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،وكلُّ رأْسٍ فِي الضلالِ طاغوتٌ،وَقِيلَ:الطاغوتُ الأَصْنامُ،وَقِيلَ الشيطانُ،وَقِيلَ الكَهَنةُ،وَقِيلَ مَرَدةُ أَهل الْكِتَابِ."[١٠٤٦]

وقال:" فالطَّوَاغِي جَمْعُ طاغِيَة،وَهِيَ مَا كَانُوا يَعْبُدونه مِنَ الأَصْنامِ وغَيْرِها؛ وَمِنْهُ:هَذِه طَاغِيَةُ دَوْسٍ وخَثْعَمَ أَي صَنَمُهم ومَعْبودُهم،قَالَ:وَيَجُوزُ أَن يَكُونَ أَراد بالطَّواغِي مَنْ طَغَى فِي الكُفرِ وجاوَزَ الحَدَّ،وَهُمْ عُظَماؤهم وكُبَراؤهم،قَالَ:وأَما الطَّواغيتُ فَجَمْعُ طَاغُوتٍ وَهُوَ الشيطانُ أَو مَا يُزَيّن لَهُمْ أَن يَعْبُدوا مِنَ الأَصْنامِ. وَيُقَالُ:للصَّنَم:طاغوتٌ.

1045 – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٤/ ٥٥٨)

1046 – لسان العرب (٨/ ٤٤٤)

والطاغيةُ:مَلِكُ الرُّومِ. اللَّيْثُ:الطاغِيةُ الجَبَّارُ العَنيدُ. ابْنُ شُمَيْلٍ:الطاغِيةُ الأَحْمَقُ المسْتَكْبِرُ الظالِمُ."[1047]

وقد أمر الله عز وجل بإسقاط الطاغوت وحزبه وقتالهم في قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦]!

فهذه حقيقة قرآنية تؤكد بأن كيد الطاغوت وحزبه وأنصاره ضعيف! ولا يحتاج إسقاطه إلا إلى المفاصلة معه،والكفر به،والكفر باستحقاقه للطاعة والاتباع!

وليس حال من كفر بالطاغوت وقاومه ودعا إلى إسقاطه،كحال من دعا إلى إصلاحه ومداهنته ومحاباته!

الفرق الثاني:أن الكلمة الأولى والشعار المبارك فيه براءة صريحة من الظالم وظلمه،وهو ما أمر الله به كما في قوله تعالى:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]!

فحرم الله جل جلاله مجرد الركون والميل إلى الظالمين،دع عنك طاعتهم واتباعهم ونصرتهم! وجعل الله جزاء الركون إليهم النار والعذاب في الدنيا والآخرة،ففي الدنيا نار الطاغية الذين يسومهم سوء العذاب حيث يسلطه الله عليهم حين اتخذوه ندا من دون الله يطيعونه ويتولونهم وهو يحكم بينهم بغير ما أنزل الله،بل ويحبونه ويوالونه ويقاتلون دونه،ويرفضون إسقاطه والكفر به،فيكون الجزاء لهم ناره في الدنيا،وجزاؤهم في الآخرة نار جهنم!

وهذا حال من يرفعون الشعار الثاني ففيه قبول بحكم الظالم،وركون إلى بقائه في السلطة،واعتراف به وبحقه في الطاعة،ولهذا يسلطه الله عليهم،فلا يزيده ذلك إلا بغيا وعدونا واستكبارا،ولا يزيدهم إلا ضعفا وذلا وخسارا،كما قال تعالى:{ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام:١٢٩]!

[1047] – لسان العرب (١٥/ ٩)

فلما ظلم الطغاة شعوبهم،وداهنتهم شعوبهم على طغيانهم،ورضيت ببقائهم،واعترفت باستحقاقهم للطاعة والحكم،كان الجزاء العدل أن يولي الله بعضهم بعضا في الدنيا والآخرة،فيشقى بعضهم ببعض في الدارين!

الفرق الثالث:أن بالكلمة الأولى والشعار المبارك يتحقق التمايز بين الحق والباطل،فالطاغوت ونظامه واستبداده وطغيانه كل ذلك باطل،والدعوة إلى إسقاطه وإبطال جوره وظلمه عدل وحق،فإذا تصدى الحق للباطل،وقام أهل الحق بنصرته،وتصدوا للباطل وحزبه،ظهر الحق وزهق الباطل،كما قال تعالى:{وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء:٨١]!

وهذا بخلاف حال أصحاب الكلمة الثانية،فإنهم يخلطون حقهم في الدعوة للإصلاح بالباطل بإقرار نظام الطاغوت،والاعتراف بشرعيته،فلا يتحقق التمايز بين الحق والباطل،ولا بين أهل الحق وأهل الباطل،فلا يظهر الحق ولا يزهق الباطل!

فكان أصحاب الكلمة الأولى والشعار المبارك أحق بالنصر والظهور وفق سنن الله الاجتماعية التي لا تتخلف أبدا،ولا تحابي أحدا!

الفرق الرابع:أن أصحاب الكلمة الأولى أخذوا بسنن التغيير التي وعد الله بها:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد:١١]!

بخلاف أصحاب الكلمة الثانية فإنهم يريدون الإصلاح دون حدوث التغيير،فلا يتحقق التغيير مع بقاء الطاغوت ونظامه وحكمه،ومع بقاء الملأ المترفين على ما هم عليهم من ترف وبطر،بل يصدق فيهم قوله تعالى:{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء:١٦]!

الفرق الخامس:أن من يرفعون الشعار الأول (الشعب يريد إسقاط النظام)،أخذوا بأهم أسباب الظفر،وهو الانتصار ممن بغى عليهم،كما قال تعالى في صفات أهل الإيمان {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ

سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)} [الشورى:٣٩ - ٤٣]!

وقد وعد الله المظلوم بالنصر في الدنيا بشرط أن ينتصر لنفسه ممن بغى عليه،فإن رضي بالظلم وقبل به،و لم يأخذ بالأسباب،فقد تخلى عن حقه،وعن وعد الله بنصره!

فمن يرفعون شعار (الإصلاح) لا (الإسقاط) تخلوا عن حقهم في القصاص ممن سفك دماءهم،واستحل أخذ أموالهم،وحبس حرياتهم،وانتهك أعراضهم،وتركوا حقهم عجزا منهم وضعفا لا عفوا وصفحا،فكانوا أقل حظا بالنصر والظفر،إن لم يحدث لهم العكس،ويرتد النظام عليهم وينتكس!

فهذه بعض الأسباب لهذه الظاهرة السياسية الاجتماعية،أما ما وراء ذلك من الأسرار،التي تحول بين بعض الشعوب العربية ورفع شعار (الشعب يريد إسقاط النظام)،وسبب خوفهم الذي يأخذ بمجاميع قلوبهم،والأوهام التي تسيطر كالسحر في تأثيرها عليهم..![1048]

جزاكم الله خيرا

وجزى الله الدكتور حاكم المطيري عنا خير الجزاء

وهذه بعض الزيادات كتبتها على السريع وهي:

الفرق السادس:أن أصحاب(إصلاح النظام) ضعفاء أذلاء لا حول لهم ولا قوة،فلا يحترمهم الطاغية الصنم،ولا يعول على كلامهم،بل يدكهم في السجون،وقد يستعين بهم في الرد على خصومه أصحاب النظرية الأولى....

الفرق السابع:أن أصحاب إصلاح النظام جاهلون بحقيقة هذه الأنظمة وأنها لا تقبل الإصلاح أصلاً،ويجب قلبها من الجذور،فكل زعماء هذه الدول فراعنة يقولون للشعوب ما قال فرعون لقومه { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر:٢٩]

[1048] http://hakem-٩٩٩.maktoobblog.com/٣٦٣/٣٦٣/

الفرق الثامن:أصحاب إصلاح الأنظمة كلهم مرجئة،فلو فعل الطاغية الصنم كل المكفرات وسحق كل الشعب ونهب خيراته فلا يكفر عندهم حتى يستحل الكفر بقلبه...

وهذا أخطر فكر خبيث يواجه الفكر الإسلامي الصحيح،فقد أجمع العلماء على أن المكفرات قولية وفعلية واعتقادية....

الفرق التاسع:أن أصحاب النظرية الإصلاحية يستطيع الطاغية استقطابهم بسهولة والالتفاف على هذه الإصلاحات(التي لا تعدو أن تكون فتاتاً)،من خلال وضعهم بأمكنة يكون لهم فيها مركز مادي أومعنوي.... وعندها يتحولون لأبواق للنظام الحاكم....

الفرق العاشر:أن أصحاب نظرية الإصلاح يعترفون بكل هذه الأنظمة سواء أكانت ملكية استبدادية أو جمهورية أو غيرها.....ولا يتعرضون عادة لصاحب الجلالة أو الفخامة ولو بكلمة أنه مخطئ بكذا.

المبحث الرابع والثلاثون

ثورة الشعوب العربية.. بين الأنظمة الملكية والأنظمة الجمهورية

ما الفرق بين الثورات والاحتجاجات الشعبية العربية في الدول الجمهورية،والدول الملكية الوراثية؟

وما سبب قوة الاحتجاجات وحيويتها في الجمهوريات (تونس،مصر،اليمن،ليبيا،سوريا)،وضعفها وخورها في الملكيات (المغرب،الأردن،السعودية،دول الخليج)؟!

هل السبب الحالة المادية للمواطنين؟

لو كان الأمر كذلك لكانت المغرب البلد الفقير،أولى بالثورة من ليبيا الغنية!

أم السبب المدنية ورسوخها؟

ولو كان الأمر كذلك أيضا لكانت ليبيا واليمن أبعد ما تكونان عن الثورة لوضعهما القبلي!

أم السبب هو استشراء الظلم والفساد،وظهور الطغيان والاستبداد؟

ولو كان الأمر كذلك لكانت الملكيات أولى بالثورة من الجمهوريات! فالفساد في الملكيات وانتهاك حقوق الإنسان فيها وإهدار كرامته أشد وأنكى!

إذن ما تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية السياسية مادام الأمر لا يرتبط بالأوضاع الاقتصادية،ولا بمدى استشراء الظلم،ولا بالمدنية والقبلية؟

وما الفرق بين الإنسان العربي في ظل الجمهورية،والإنسان العربي في ظل الملكية؟

ولماذا كانت الجماهير العربية ترفع شعار (الشعب يريد إسقاط النظام) بكل شجاعة نفسية،بينما لا يجرؤ المتظاهرون في الملكيات برفع شعار أبعد من (الشعب يريد إصلاح النظام)!

فهل السبب هو الحب والهيام،والود والغرام،بين الشعوب وملوكها في الملكيات؟!

الحقيقية كما يظهر للمتأمل الاجتماعي أعمق من ذلك كله،فلكل نظام سياسي طابعه الذي يطبع به الإنسان الذي يعيش تحت ظله،وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة الاجتماعية { إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } [النمل:٣٤]!

إن الملك بطبيعته يقوم على الإذلال والقهر،وتحطيم الشخصية الإنسانية واستعبادها،ولهذا تتحلل مع طول الأمد وتوارث الملك من قيمها المعنوية لتتحول إلى مسخ مشوه،حتى ينشأ إنسان ذليل مقهور حتى لأضعف الملوك الذين لم يكن لهم يد في صناعة الملك،اللهم إلا أنه ورث العرش والصولجان،والأرض والإنسان!

وهذا بخلاف الجمهوريات مهما كانت مستبدة طاغية،فإن الإنسان فيها يتحين تغيرها وتبدلها،ويحتفظ بمخزون إنسانيته إلى حين ذلك،إذ لا يطبع بطابع العبودية التي يطبع بها الإنسان في الأنظمة الوراثية،فهو لا يستشعر أن بينه وبين من هو في السلطة أي فرق،ويرى بأن أي مواطن قد يصبح رئيسا بكفاحه ونضاله،بخلاف الأنظمة الوراثية التي يتحلل فيها شعور الإنسان شيئا فشيئا وجيلا فجيلا حتى ينعدم إحساسه بالمساواة بينه وبين الملك وسلالته،فيبدأ المخيال الشعبي باختلاق أوهام عن الخصوصية والاصطفاء والصفات التي جعلت من هذه السلالة تتبوأ هذا المقام السامي،ليتلاشى شيئا فشيئا إحساس الإنسان بإنسانيته أمام هذا الحاكم وسلالته ولو كانوا أطفالا صغارا!

بل قد يبلغ الأمر ذروته بالعلماء والمفكرين والأدباء والأذكياء أن يصبحوا أسرى الوهم في ظل الملكيات حتى أنهم لا يتصورون أصلا إمكان وجود المجتمع والدولة بدون الملك وأسرته!

وقد يبلغ بهم الخوف من تغير الأوضاع وزوال الملك وأسرته حد الهوس والجنون،كالعبد الذي لا يتصور أن بإمكانه العيش والحياة دون سيده!

لقد تحدث عن هذه الظاهرة الإنسانية وعبر عنها قبل أربعة قرون المفكر الفرنسي لوبواسييه في كتابه(العبودية المختارة)،ونجح في تحليل نفسية الإنسان في ظل عبودية الملك بقوله (إن السبب الذي يجعل الناس ينصاعون طواعية للاستعباد هو كونهم يولدون

عبيدا،وينشأون على ذلك،ويسهل تحولهم تحت وطأة الطغيان إلى جبناء مخنثين،وإنه بزوال الحرية تزول الشهامة).[١٠٤٩]

فالفرق الأول بين إنسان الجمهورية وإنسان الملكية،هو في احتفاظ الأول بقدر من حريته وإنسانيته تتجدد كلما تغير رئيس مكان رئيس،بخلاف الثاني الذي يولد في العبودية كما ولد أبوه،ليورث العبودية إلى أبنائه من بعده،كما ورثها عن أبيه،حتى تصبح العبودية طبعا فيه!

فالفرق هنا هو بين الإنسان والإنسان،أما الفرق الثاني فهو بين السلطان والسلطان،والطغيان والطغيان،إذ يختلف طغيان الملكية عن طغيان الجمهورية،كما يقول لوبواسييه عن صور الطغيان:

(هناك ثلاثة أصناف من الطغاة:من يمتلك الحكم عن طريق انتخاب الشعب – ليستبدوا به بعد ذلك كما في الجمهوريات – أو من يملك بقوة السلاح – كالانقلابات العسكرية – أو بالوراثة المحصورة في سلالتهم،وهؤلاء عادة ولدوا وأرضعوا على صدر الطغيان،يمتصون جبلة الطاغية وهم رضع،وينظرون للشعوب الخاضعة لهم نظرهم إلى تركة من العبيد،ويتصرفون في شئون المملكة كما يتصرفون في ميراثهم).[١٠٥٠]

فالفرق بين الرؤساء في الجمهوريات،والملوك في الملكيات،هو أن طغيان الرؤساء يكون طارئا عليهم بعد السلطة،وينشأ شيئا فشيئا،وقد يفقد الرئيس السلطة قبل أن يبلغ به طغيانه حد التأله،ثم لا يلبث أن يعود إلى طبيعته بعد تغير أحواله وخروجه من السلطة،بخلاف طغيان الملوك،فإنهم يرضعونه من ثدي أمهاتهم،فلا يصلون إلى الحكم إلا وقد بلغ الطغيان فيهم حد التأله،ويكون الشعب قد بلغ حد العبودية،من حيث لا يشعر بعبوديته لهم!

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ،قَالَ:أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ،فَكَلَّمَهُ،فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ،فَقَالَ لَهُ:«هَوِّنْ عَلَيْكَ،فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ،إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»[١٠٥١]

1049 – العبودية المختارة ص ٧٢ بتصرف.

1050 – العبودية المختارة ص ٦٣ بتصرف.

1051 – سنن ابن ماجه (٢/ ١١٠١)(٣٣١٢) صحيح

فنفى عن نفسه أن يكون ملكا،مع كونه ﷺ ذا سلطان وملك،ولهذا ذكّر الرجل بأنه ابن امرأة كباقي النساء،ليعيد لهذا الإنسان شعوره الطبيعي بإنسانيته،وليزول عنه الخوف والرهبة،التي اختزنتها ذاكرته عن الملوك وسطوتهم!

إنه حالة من العبودية التي تبذل بسببها الشعوب طاعتها بكل هدوء ووداعة للملوك والطغاة،كوداعة قطيع الأغنام لرعاتها،لا حبا ولا احتراما بل خشية وعبودية،كما قال لوبواسييه (لا أفهم كيف أمكن هذا العدد من البلدان والأمم أن يحتملوا طاغية واحدا لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه،ولا كان يستطيع إذاءهم لولا إيثارهم الصبر عليه بدل مواجهته،فترى الملايين من البشر يخدمون في بؤس،وقد غلت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر منهم،وإنما سحرهم مجرد الاسم الذي ينفرد به الطاغية،وكان الأولى بهم ألا يخشوا جبروته فليس معه غيره،ولا أن يعشقوا صفاته فما يرون منه إلا خلوه من الإنسانية،إن ضعفنا نحن البشر كثيرا ما يفرض علينا طاعة القوة! أي تعس هذا! أي رذيلة هذه! أن نرى عددا لا حصر لهم من البشر لا أقول يطيعون بل يخدمون،ولا أقول يُحكمون بل يستعبدون،لا ملك لهم ولا أهل،بل حياتهم نفسها ليست ملكا لهم،ويحتملون السلب والنهب وضروب القسوة،لا من جيش أجنبي ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضده،بل من واحد لا هو هرقل ولا شمشون،بل هو في أكثر الأحيان أجبن من في الأمة،وأكثرهم تأنثا! ومع ذلك فهذا الطاغية لا يحتاج إسقاطه إلى محاربته وهزيمته،بل كاف الامتناع عن طاعته،فالشعوب هي التي تترك القيود تكبلها،أو قل تكبل نفسها بنفسها).[1052]

وتزداد الخطورة حين تلبس هذه العبودية لبوس الدين،وتصبح باسم الله،فهنا يكون الأمر قد بلغ الغاية القصوى من الانحراف بالفطرة الإنسانية السوية،ليتجاوز الأمر طاعة الملوك والعبودية لهم،إلى المحبة والإخلاص في هذه الطاعة لتكون لهم وحدهم،وخالصة لهم!

[ش – (ترعد) أرعد الرجل أخذته الرعدة. والرعدة الاضطراب. وأرعدت أيضا فرائصه عنه الفزع. (الفرائص) واحدها فريصة. لحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد من الدابة(القديد) هو اللحم المملح المجفف في الشمس. فعيل بمعنى مفعول.]

1052 – العبودية المختارة ص ٦٣ بتصرف.

(إن الطغاة أنفسهم يعجبون لقدرة الناس على احتمال ما يصبونه على رؤوسهم من العذاب،لقد احتموا بالدين واستتروا وراءه،ولو استطاعوا لاستعاروا نبذة من الألوهية سندا لهم،إن الطغاة كانوا يسعون دائما ليستتب لهم سلطانهم إلى تعويد الناس أن يدينوا لهم لا على الطاعة والعبودية فحسب،بل بالإخلاص كذلك).[١٠٥٣]

وفي مقابل ذلك وليعوض الطغاة عبيدهم عن الحرية الحقيقية التي استلبوها منهم،فتحوا أمامهم الباب لحرية زائفة يمنحها الطغاة لشعوبهم بل عبيدهم ليلهوهم بها،وليعيشوا وهم الحرية،وحرية الوهم!

كما قال لوبواسييه (ويتجلى التحايل من قبل الطغاة على التغرير برعاياهم – لاستعبادهم – بفتح دور الدعارة والخمر والألعاب الجماهيرية،فانصرف هؤلاء المساكين البؤساء إلى التفنن في اختراع الألعاب من كل لون وصنف،لقد كانت المسارح والألعاب والمصارعون والميداليات واللوحات وغيرها من المخدرات لدى الشعوب طُعْم عبوديتها،وثمن حريتها،وأدوات الاستبداد بها).[١٠٥٤]

إن من ينظر في واقع المجتمعات العربية اليوم،يجد أنها توافق تمام الموافقة،وتطابق تمام المطابقة حالة الشعب الفرنسي قبل أربعة قرون،ليصدق بذلك حديث النبي ﷺ (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة،حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه،فارس والروم)!

إن من يشد الأغلال في أعناق الشعوب،ويقيدها بحلق قوائم العروش،ليس الجنود والجيوش،بل هم عصابة بين السبعة والتسعة كما قال تعالى{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)} [النمل:٤٨ – ٥٣]!

1053 – العبودية المختارة ص ٧٨.

1054 – المصدر السابق ٧٤ بتصرف.

إنهم مجموعة من السماسرة والنخاسين،من المفكرين ورجال الدين،من بطانة السوء،الذين يثرون فجأة من أموال الشعوب،فيجعلون أعراضهم دون عرض الرئيس والملك،وأرواحهم دون روحه،لا حبا فيه،بل خوفا من سقوطه،وذهاب مكانتهم وطريقتهم،كما حذر من ذلك الملأ الفرعوني { فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) } [طه:٦٢ - ٦٤]!

كما قال لوبواسييه (ليس فرق المشاة،ولا قوة الأسلحة،تحمي الطغاة،بل أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه،ويشدون البلد كله إلى مقود العبودية،يتقربون أو يقربهم إليه،ليكونوا شركاء جرائمه،وقواد شهوته ولذته،هؤلاء الخمسة أو الستة يدربون رئيسهم على القسوة نحو المجتمع،وينتفع في كنفهم ست مئة يفسدهم الستة مثلما أفسدوا الطاغية،ثم هؤلاء الست مئة يفسدون معهم ستة آلاف تابع،يوكلون إليهم مناصب الدولة،والتصرف في الأموال،ويتركونهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم بقاء إلا في ظلهم،ولا بعدا عن طائلة القانون إلا عن طريقهم،ليطيحوا بهم متى شاءوا،ليصبح ليس فقط الستة أو الستة آلاف بل الملايين يربطهم بالطاغية هذا الحبل،لو شده لجذبهم كلهم إليه،فصار خلق المناصب الجديدة،وفتح باب التعيينات والترقيات على مصراعيه،كل ذلك لا من أجل العدالة،بل من أجل أن تزيد سواعد الطاغية،فإذا الذين ربحوا من الطغيان،يعدلون - بل يعادون - في النهاية من يؤثرون الحرية،فما إن يستبد ملك حتى يلتف عليه حثالة المملكة وسقطها،ليصبحوا أنفسهم طغاة مصغرين في ظل الطاغية الكبير).[1055]

إن سر وداعة الشعوب العربية وخورها في ظل الملكيات،وحيويتها وشجاعتها في ظل الجمهوريات،ليس الرضا عن الملوك،ولا الحب لهم،ولا الرغبة في حكمهم،إنما هي وداعة العبيد أمام سادتهم،حين يفقدون إنسانيتهم،ويتنازلون عن حريتهم،ويتجردون من كرامتهم،فيصبح ذلك فيهم مع توارث الأجيال طبعا وسجية،ثم تزداد الخطورة حين يصبح

1055 - العبودية المختارة ص ٨١ بتصرف.

تدينا وورعا كاذبا،ويبلغ ذروته حين يصبح فكرا وفلسفة وحكمة يتمتع العبيد بها،ونعمة يرتعون فيها![١٠٥٦]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[1056]- http://www.ommahconf.com /

المبحث الخامس والثلاثون

الثورة العربية وسحر الأنظمة الملكية

ذكرت في المقال السابق (الثورة العربية والشعار المبارك) الأسباب الظاهرة للنصر الـــذي تحقق للشعوب العربية التي رفعت شعار (الشعب يريد إسقاط النظام)،بخلاف من رفعـــوا شعار (الشعب يريد إصلاح النظام)،حيث لم يتحقق لهم حتى الحد الأدنى مما أرادوا،بل لم تزدد حكوماتهم إلا طغيانا وظلما!

وسأحاول في هذا المقال بيان الأسباب غير الظاهرة التي تحول دون رفع هذا الشعار المبارك في كثير من الدول العربية التي شهدت ثورة أو إرهاصات ثورة،وأكثرهـــا دول ملكيـــة وراثية وهي دول الخليج العربي والأردن والمغرب،مع أنها كلها تقريبا شهدت حركـــات احتجاج شعبي إلا إنه لم ينتظم فيها عامة الشعب،ولم ترفع شعار (الشعب يريد إســـقاط النظام)،مع أن الظلم والفساد،والفقر والاستبداد،والطغيان وانتهاك حقوق الإنسان،أشـــد في بعضها من الدول التي نجحت فيها الثورة!

بل إن أشد المعارضين في الأنظمة الوراثية لا يستطيع أن يتصور إمكانية وجود الدولة دون وجود الملك وأسرته! ولا يتصور إمكانية التغيير والإصلاح دون إرادتهم السامية!

ويصل الأمر لدى الشعوب في الملكيات والأنظمة الوراثيةحدالخوف غير الطبيعي من زوال الملك والنظام الوراثي،فهو بالنســـبة لهـــم محـــور وحـــدتهم وأمنهم،وســـبب اســـتقرار أوضاعهم،فهم يعيشون في ظل ملكهم أو أميرهم آمنين مهما كان طاغيا،وادعين مهمـــا كان مفزعا،ومن دونهم تضطرب الحياة،وتدب الفوضى في المجتمع!

أي أنهم يؤلهونهم من حيث لا يشعرون،ويتعلقون بهم تعلق العبيد بأربابهم مـــن حيـــث لا يعون،ويتخذونهم أندادا يرهبونهم ويرغبونهم ويخشونهم ويتزلفون إليهم،ويصرفون لهم كل معاني العبودية من حيث لا يتصورون أن هذا هو الشرك الذي ندد القرآن به،وهذه هـــي الوثنية البشرية التي حاربها الإسلام،كما قال تعالى:{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّـــا وَهُـــمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف:١٠٦]!

وكما في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ،حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»،قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ:«فَمَنْ»[1057]

وقد دار حديث بيني وبين كثير من المعارضين في الملكيات والأنظمة الوراثية،الذين تعرض بعضهم لكل صور التعذيب والسجن والإذلال،فكان بعضهم يدافع عن الأنظمة الملكية ويرفض تغييرها ويعتذر لها عن كل جرائمها،وطائفة أخرى لا يجرؤون على التفكير فضلا عن الدعوة لأسقاطها مع تمنيهم حدوث ذلك!

هذا في الوقت الذي لو دخلوا على اليوتيوب وعرضوا رابط (أشجع فتاة مصرية) لوجدوها تهتف في بداية الثورة المصرية،وأمام مبنى أمن الدولة المصري،بما لا يستطع أشجع المعارضين في الأنظمة الملكية الهمس به بين أصحابه وفي داره!

وقد شاهد العالم كيف تخرج التظاهرات في بعض دول الخليج،ويقوم المعارضون لا بالتنديد بالنظام وكشف فساده،بل بتمجيده والتسبيح بحمده،والدعاء لرأس النظام،والاقتصار فقط على نقد الحكومة ووزرائها!

وهي حالة نفسية لا يمكن فهمها إلا بدراسة طبيعة الأنظمة الوراثية وكيف يتشكل فيها وعي الإنسان تجاه الملك أو الأمير على نحو ديني يقوم على الخوف والإجلال لهذا الإله البشري،مهما كان هذا الإنسان ماديا ليبراليا،فضلا عن عامي أمي،دع عنك المتدينين على اختلاف تياراتهم!

ومن أوضح الأدلة على أن الملكية الوراثية أشد أنواع الأنظمة السياسية انحرافا واستبدادا،هو أنها كانت غاية طموح الرؤساء الطغاة المستبدين في الجمهوريات

فقد كانت أقصى أماني حسني مبارك مع طغيانه واستبداده هو توريث الحكم لولده السفيه جمال،وكانت أقصى أماني القذافي توريث ابنه المجرم سيف الإسلام،وكانت أقصى أماني صالح توريث الحكم لولده من بعده،وكان ذلك ما تحقق للأسد حين ورث الحكم ابنه بشار!

[1057] – صحيح البخاري (٩/ ١٠٣)(٧٣٢٠)

فما يعد أقصى أماني الرؤساء الطغاة في الجمهوريات،هو أبسط الحقوق للملوك في الملكيات والأنظمة الوراثية!

وقد سبق أن كتبت مقالا بعنوان (الثورة العربية بين الأنظمة الجمهورية والملكية) تحدثت فيه عن حالة الهزيمة النفسية والخور لدى أفراد الشعب في ظل الملكيات،وسأحاول في هذا المقال كشف ما تمارسه الأنظمة الملكية من سحر ديني وإعلامي وثقافي تدجن من خلاله الشعوب لخدمتها وعبادتها والخضوع لها مع ضعفها وتخلفها!

فما هو هذا السحر في الأنظمة الوراثية حتى تنقاد لها الشعوب هكذا كقطيع من الأغنام على نحو وادع مهما سفك الطغاةمن دمائها،وانتهكوا من أعراضها،وصادروا من حرياتها وحقوقها،ومهما نهبوا من ثرواتها!

وقد رأينا كيف مات ملوك وأمراء بلغت تركاتهم لورثتهم عشرات المليارات من ثروات شعوبهم وقوتهم،ومع ذلك بقي لهم في نفوس كثير من شعوبهم التي أفقروها وأذلوها كل حب وإجلال وتأليه!

إن السر وراء ذلك هو في قيام الأنظمة الملكية والوراثية في أصل نشأتها الفرعوني على أساس التأله البشري باسم الملك،وارتكازه على ثلاثة أركان (الخرافة والسحر والدين)،حيث تتشكل في ظلها ثقافة دينية وحالة نفسية،تجعل من الشعوب عبيدا في صورة مواطنين،وتجعل من الملوك آلهة وأربابا،في صورةبشر متميزين،مصوني الذات،مستحقي الثناء والمجد والمدح،فلا يتصور والحال هذه أن يكونوا مصدر الشر والظلم،بل يقع الظلم دون أذنهم ودون معرفتهم،وكل ما تحتاجه شعوبهم هو أن تتضرع إليهم أن يرفعوا عنها الظلم والضيم والضر،ويدفعواعنها الفقر والشر،لينعم شعبهم بالأمان والعدل تحت ظل عروشهم،حيث لا ظل إلا ظلهم

إنها الركائز الثلاث (الخرافة والسحر والدين) التي قامت عليها الملكيات المستبدة وما تزال!

فالخرافة حيث يغيّب العقل والمنطق،فلا تدرك العقول قبح ما هي فيه من عبودية وذل لبشر ضعيف ليس له من القوة إلا ما منحته الشعوب،ولا من السلطة إلا ما تنازلت عنها له!

والسحربكل أنواعه وأشكاله ووسائله من الشعر والخطابة والدعاية والإعلام حيث تغيّب الحواس عن إدراك حقائق الأشياء،فلا ترى قبح صورة الطاغية،وقبح أفعاله،وقبح مآله،ولا ترى فيه إلا الخير والعدل لولا بطانته التي هي سبب الظلم والفساد!

والدين حيث تستسلم الإرادة بشكل مطلق للسمع والطاعة لغير من يستحقها،بل لمن يحرم طاعته،ويجب مقاومته!

ثم الترهيب بالسجن والتعذيب،والترغيب بالمال والجاه والزينة،فهذا كل ما يحتاجه الطاغية والإله البشري لتتحقق له السيطرة والعلو في الأرض!

إن هذه الحقيقة السياسية الاجتماعية تكاد تغيب عن الأنظار في المجتمعات العربية والإسلامية لشدة تماهيها في المخيالالشعبيمع دين الإسلامالمبدل والثقافة العامة الممسوخة،مع أن القرآن جاء لهدم هذه الظاهرة الوثنية،التي كانت من أقدم وأخطر أسباب انحرافالمجتمعات البشرية،إلا إنه،وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْجَاهِلِيَّةَ. وَهُوَ كَمَا قَالَ عُمَرُ،فَإِنَّ كَمَالَ الْإِسْلَامِ هُوَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَتَمَامُ ذَلِكَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْ نَشَأَ فِي الْمَعْرُوفِ لَمْ يَعْرِفْ غَيْرَهُ فَقَدْ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ مَنْ الْعِلْمِ بِالْمُنْكَرِ وَضَرَرِهِ مَا عِنْدَ مَنْ عَلِمَهُ،وَلَا يَكُونُ عِنْدَهُ مِنْ الْجِهَادِ لِأَهْلِهِ مَا عِنْدَ الْخَبِيرِ بِهِمْ،وَلِهَذَا يُوجَدُ الْخَبِيرُ بِالشَّرِّ وَأَسْبَابِهِ إِذَا كَانَ حُسْنُ الْقَصْدِ عِنْدَهُ مِنْ الِاحْتِرَازِ عَنْهُ وَمَنْعِ أَهْلِهِ وَالْجِهَادِ لَهُمْ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ.[1058]

فعلينا معرفة تلك الجاهلية العالمية قبل الإسلام،ومنها جاهلية الملكية الفرعونية،وسننها ووسائلها التي أخضعت الشعوب لسطوتها،وهذه بعض ملامح هذه الوثنية البشرية كما أثبتتها الدراسات العلمية للحضارة المصرية الفرعونية،والآشورية والبابلية العراقية،وهي أقدم الملكيات التي عرفتها البشرية،وعنها توارثت الملكيات سننها الجاهلية الوثنية،وكما

1058 - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١/ ١٨) والفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٦٤) ودرء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٥٩) ومجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١) ومنهاج السنة النبوية (٢/ ٣٩٨)

جاء في كتاب التاريخ العام للحضارة:(لا تعتبر السلطة الملكية المطلقة التي تقررهـــا إرادة الإله تجديدا في الشرق،وتعد هذه النظرية جزءا من مفهوم النظام الملكي المصري)[١٠٥٩]

وهذا يؤكده ما جاء في القرآن الكريم من أخبار عن انحراف تلك المجتمعات على أيـــدي ملوكهاوطغاتها،كما قال تعالى لموسى:{ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [طه:٢٤]،وهـــذا هو السبب في قص القرآن خبر فرعون مصر،وخبر نمرود العراق،حيث قال الأول لنبي الله موسى ولقومه:{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات:٢٤]،وقال الثاني لنبي الله إبـــراهيم وهـــو يحاججه:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّـــيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة:٢٥٨]!

وبين القرآن كيف تتشكل نفسية الإنسان في ظل طغيـــانهم،وكيف يســـتخف الطاغيـــة بالشعب،فيتبعون أمره على غير هدى،ودون تردد ودون اعتـــراض:{ فَاسْـــتَخَفَّ قَوْمَـــهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (} [الزخرف:٥٤]،{ وَلَقَدْ أَرْسَـــلْنَا مُوسَـــى بِآيَاتِنَـــا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) } [هود:٩٦،٩٧]

هذا ومن أبرز أسس الملكية الوراثية الفرعونية في كل عصر ومصر وأشد مفاهيمها خطرا على الإنسان والمجتمعكما أكدته الدراسات العلمية الاعتقاد بأن:

١- الوطن والأرض والشعب ملك خاص للملك وأسرته،لا بـــدعوى الملـــك فقط،بـــل باعتراف الشعب له بهذا الاستحقاق،سواء بلسان الحال أو المقـــال،فهم لا ينازعونـــه ولا يرضون أحدا ينازعه في ملكه،لاعتقادهم بأنه صاحب الأرض وهو سيدهم،وهو أحق بهـــا وبهم منهم أنفسهم!

وأول ملكية عرفتها المجتمعات البشرية هي الفرعونية في مصر،ولهذا تحدث القرآن عنـــها بكل تفصيل لأنها أول من سن الربوبية البشرية،كما جـــاء في كتـــاب (التـــاريخ العـــام للحضارة):(كانت مصر إذ ذاك ملكا خاصا لســـيدها وربهـــا الفرعون،يســـتثمرها،كما

1059 – التاريخ العام للحضارة (٢١٩/١)

يستثمر عقارا خاصا به.. كإله أو ابن إله،فالفرعون رب أرض مصر،وسيد من عليها،فلم نر أي تمييز ولو فكريا بين تملك خاص،أو تملك تابع للتاج،وبين دولة قائمة بذاتها،كل شيء في مصر الفرعونية يتوقف على الملك وعلى الملك وحده،وهذه هي القاعدة الذهبية الذي قام عليها تاريخ مصر قديما)[١٠٦٠]

وهذا معنى قوله تعالى عن فرعون ودعواه حين قال لقومه {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الزخرف:٥١]!

إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون،أمر قريب مشهود للجماهير،يبهرها وتستخفها الإشارة إليه. فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما – ومصر لا تساوي هباءة فيه – فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه،وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد! والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد! ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب![١٠٦١]

وهذا هو واقع كل الملكيات اليوم،فهناك ثقافة تتشكل بالخطاب الإعلامي والديني والثقافي توحي بهذا الاستحقاق المزعوم،تارة بشكل صريح،وترة بالتلويح،بأن الأرض والوطن للملك،ولهذا يقرن الملك بالله والوطن في الشعارات والنشيد الوطني (الله الوطن الملك)![١٠٦٢]

٢- والملك هو السيد والمرجع الأعلى وهو فوق الجميع،وذاته مصونة عن النقد،وهو فوق المساءلة فضلا عن الحساب والعقاب،وإليه يرفع الشعب استرحامه وتضرعاته،ففي المصدر السابق:(الملك ليس رب البلاد ومالكها الأعلى فحسب،بل السيد المطلق الفعلي للأرض وما عليها)![١٠٦٣]

1060 – (التاريخ العام للحضارة)(١/٥٥)

1061 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٤٠٠٢)

1062 – طبعا هذا شرك صريح أكبر {قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)} [الشعراء: ٩٦ – ٩٨]

1063 –(التاريخ العام للحضارة)(١/٥٩)

وقال عن الفرعون (فالملك في مصر هو المرجع الأعلى وإليه وحده يرفع طلب الاسترحام)[١٠٦٤]

،وهو ما جاء في قوله تعالى عن فرعون ودعواه حين قال:{ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات:٢٤]،وهذا هو الطغيان الذي نعاه الله عليه حين أرسل إليه موسى:{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [طه:٢٤]

وهي الدعوى ذاتها التي ينتحلها الملوك والأمراء اليوم،فهم المرجع الأعلى،وهم فوق السلطات كلها،ومنهم تستمد السلطات الثلاث شرعيتها،وباسمهم تصدر الأحكام،وباسمهم تنفذ،وباسمهم يوقف تنفيذها،وباسم يتم تعطيلها.. الخ

فهم آلهة وأرباب بشرية بحكم الواقع حتى وإن تظاهروا بغير ذلك مكرا لا تواضعا،وحتى إن نفى عنهم عبيدهم ذلك جهلا بحقيقة الربوبية والوثنية التي يمارسونها واقعيا!

٣- ومشيئة الملوك نافذة،وسلطتهم لا حدود لها،فما يأمرون به يكون دينا وفرضا يجب طاعته والالتزام به وتطبيقه طوعا أو كرها،كما جاء في تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها:(فسلطته لا حدود لها،وليس لإرادته من رادع ولا حسيب.. فمشيئة الملك وإرادته هي القانون،ولها ما للعقيدة الدينية من قوة وشكيمة) وكما جاء في المخطوطات والأثريات المصرية (فكل ما يتفوه به صاحب الجلالة يجب أن يتم وأن يتحقق بالحال.. فهو يعمل ما يجب ولا يفعل قط ما يكره،وأقواله لها من الحتمية بحيث لا يسع المصري إلا التسليم والخضوع لأوامره مهما بدت له قاسية لا تحتمل،أو بغيضة لا تطاق)![١٠٦٥]

وهو ما أخبر به القرآن عن فرعون حين خاطب قومه:{ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩]!

إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابا،وأعتقده نافعا. وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا؟! وإلا فلم كانوا طغاة؟![١٠٦٦]

1064 -(التاريخ العام للحضارة)(٥٤/١)

1065 - تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها (٥٢/١)

1066 - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٧٤)

وقوله للسحرة حين آمنوا:{قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } [طه:٧١]

والطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب،وصحوة القلوب ولا يكره أحدا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة ولا ينقم على أحدكما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية. ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور،عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب. فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح،الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين:{قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } [الشعراء:٢٩]!..

هذه هي الحجة وهذا هو الدليل:التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين. فليس السجن عليه ببعيد. وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز،وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع. وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد![1067]

فهو لا يحتمل أن يخالف أحد أمره،أو يرد عليه قوله،بل يجب على الجميع الخضوع له،وإلا فالجزاء عنده القطع والصلب والسجن والقتل!

وهذا هو حال الأنظمة الملكية والوراثية فإنها تتأله وتطغى وتخضع الشعوب للرب الأعلى،الذي يحتمل كل شيء،بما في ذلك نقد وزرائه والتظلم من ممارساتهم،إلا أنه لا يحتمل أن يتعرض له أحد،فهو شيء آخر،وله من القدسية ما يجعل الأبصار تخشع له،والأصوات تخفت عنده،والقلوب تخشى سطوته،مهما فعل من الجرائم فإنه لا يُسأل عما يفعل والجميع يُسألون!

وحتى الطاعة له لا مثنوية فيها ولا منازعة،ولهذا جاء القرآن ليهدم كل صور الألوهية البشرية هذه،وليقرر أن الله وحده هو { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء:٢٣]،وليقرر أنه { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}

[1067] -في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٣٢٩)

[البقرة:٢٥٦]،والدين هو الطاعة والعبادة،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،يَقُولُ لَنَا:«فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ»[١٠٦٨]

وعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»[١٠٦٩]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ،وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ،فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ،وَقَالَ:أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا:بَلَى،قَالَ:قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا،وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا،ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا،فَأَوْقَدُوا نَارًا،فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ،فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ،قَالَ بَعْضُهُمْ:إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ،إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ،وَسَكَنَ غَضَبُهُ،فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:«لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا،إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»[١٠٧٠]

مع أنه ﷺ لا يأمرهم إلا بالحق والعدل والمعروف،إلا أن هذا كله منوط بقدرهم واستطاعتهم،وهو ما لا يرضى به الملوك،فطاعتهم مطلقة!

٤- والملوك والأمراء هم مصدر الأمن والاستقرار،وفي فقدهم يضطرب الأمن وتضيع الدولة،ويعش الشعب في فوضى واقتتال،فهذا التصور الخرافي يُلقى في روع الشعب حتى يصبح عقيدة راسخة مهما كان الملك فاسدا،ومهما كان وجوده عائقا للإصلاح،ومدعاة للاضطراب! ولهذا خاطب الحكيم المصري إيبور فرعون مصر - كما في تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها - حين اضطربت أحوال مصر بقوله (إن ما تشهده البلاد بعض نتائج الاضطراب الذي زرعته يداك في طول البلاد وعرضها،ولذا ترى الناس يلجؤون إلى

1068 -صحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧٢٠٢)

[ش (على السمع والطاعة) أن أسمع وأطيع فيما أومر به من المعروف. (فيما استطعتم) فيما يكون في طاقتكم ووسعكم قاله ﷺ إشفاقا عليهم ورحمة بهم.]

1069 -شرح السنة للبغوي (١٠/ ٤٤)(٢٤٥٥) صحيح لغيره

1070 - صحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٩ - (١٨٤٠)

[ش (عزمت عليكم) آمركم وأؤكد أمري لكم وأجد فيه. (ما خرجوا..) لأن الدخول فيها معصية فإذا استحلوها كفروا واستحقوا الخلود فيها وهذا جزاء من جنس العمل. (الطاعة) للأمر واجبة. (المعروف) هو ما لا يتنافى مع الشرع]

العنف بعضهم ضد البعض الآخر،إن الشعب يتمثل أمرك)! (فالدعوة للثورة على الملك لم ترتد يوما رداء العقيدة،فسلطة الملك حتى لو أصبحت مدعاة للضر والأذى تحافظ على طابعها الإلهي)![1071]

فمع أن مصر عاشت حالة من الفوضى والحرب الأهلية بسبب فساد الحكم،وضعف الملك نفسه،وهو سبب حدوث الاضطراب،إلا أن الشعب لا يقاتل الملك،ولا يثور عليه،بل يقاتل بعضه بعضا،وفي الوقت نفسه يطيع الجميع الملك!

وحتى الذين يثورون على الملك لا يرتدون رداء العقيدة الدينية،لأن الدين قرين الملك،ولا يمكن الثورة على الدين الملكي باسم الدين،فالملك إله بشري،والدين هو طاعته،ومن يخرج عليه يخرج عن الدين!

وقد أخبر القرآن عن هذه الظاهرة الفرعونية كما في قوله تعالى:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [غافر:٢٦]

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني،عن موسى رسول الله – عليه السلام – «إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ»؟!!

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد،يتكرر كلما التقى الحق والباطل،والإيمان والكفر. والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين.[1072]

فرعون يخشى على دين شعبه أن يتبدل بخروجهم عن طاعته،ويخاف عليهم من فساد الأحول واضطراب الأمور!

1071 – تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها (٥٢/١)

1072 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٧٢)

فالملك هو صمام الأمن،وسبب الاستقرار،وجامع الوحدة الوطنية،بحيث لو ذهب لتقاتل الشعب فيما بينهم،وفسد حالهم!

٥- والملك والأمير هو محور وحدة الدولة والشعب،وهو موحد الوطن،وتاريخ الدولة والشعب يبدأ ببداية حكم الملك وأسرته،كما جاء في تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها:(الملك محور الوحدة وخالقها.. يعزو المصريون إلى ملكهم الأول تنظيم البلاد على أساس توحيدها،فالملكية في نظرهم بدء تاريخ الإنسان في البلاد،وقد جعلوا من نقطة الانطلاق هذه حدثا إلهيا دبرته الآلهة وهيأت له الأسباب)[١٠٧٣]

وهذا حال كل الملوك والأنظمة الوراثية،فالدولة وتاريخها يبدأ ببداية حكم الأسرة الحاكمة،وأول ملوكها هو مصدر وحدة الدولة،وهو موحدها ومؤسسها! وما جرى على يديه هو باصطفاء من الله وتوفيق منه!

فكما أن الوجود مصدره الله الخالق الواحد الأول،فالدولة والمملكة مصدرها الأسرة الحاكمة،فوجودها مرتبط بوجود الملك،فهو البداية والأول والموجد!

٦- وفي الملكيات تتجلى روح الخضوع المطلق للشعب أمام الملك بكل جلال وخشية ورهبة،كالعبد أمام سيده،والعابد بين يدي ربه وإلهه،فهناك تتماهى الطاعة له كأب للشعب تارة،وكإله تارة أخرى،وكرئيس تارة ثالثة،فتختلط مشاعر الحب والخشية والرهبة،وتتشكل حالة نفسية تطبع الشعب كله بطابع العبودية للملك والأمير ذلك الرب والإله البشري،وكما جاء في تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها:(الرعب والقلق والاضطراب العام يشل أسباب الحياة.. وهذا ما يفسر روح الخضوع والامتثال التي ميزت الشعب المصري،فالفكرة الدينية مهما بلغ من قوتها وشدة تأثيرها،لم تكن تستطيع وحدها أن تضفي على النفس المصرية مثل هذه المشاعر والأحاسيس،وهي مشاعر وأحاسيس كثيرا ما اتخذ منها الفراعنة يدا لكبت النوازع الأمارة بالسوء)![١٠٧٤]

1073 - تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها (١/٤٤)

1074 - تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها (١/٥٥)

فسطوة هذه المشاعر والأحاسيس التي تتشكل في ظل العبودية للملوك،أشد تأثيرا من سطوة الدين على نفوس الشعوب! ولهذا قد يعصي الشعب ربه الخالق،ولا يعصي ربه الحاكم!

وهذا معنى قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:٦٠]،وقوله:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } [البقرة:١٦٥] قال ابن جرير الطبري عَنِ السُّدِّيِّ،{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} [البقرة:١٦٥] قَالَ «الْأَنْدَادُ مِنَ الرِّجَالِ يُطِيعُونَهُمْ كَمَا يُطِيعُونَ اللَّهَ إِذَا أَمَرُوهُمْ أَطَاعُوهُمْ وَعَصَوْا اللَّهَ»[١٠٧٥]

٧- المال للملك وحده يهب منه ما يشاء ويمنع من يشاء،ويتصرف في الثروة كما يتصرف في السلطة بشكل مطلق،فهو السيد الأعلى للدولة والشعب وإرادته نافذة في الجميع،وإذا كان له الحق في التصرف في السلطة فمن باب أولى تصرفه في الثروة،كما جاء في تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها (الملك إله متسلط على الحياة والدين وهو الملك الذي يملك كل شيء،ويهب على هواه)[١٠٧٦]

وقال:(فوفرت - الفرعونية - لملوك كثيرين مثلا أعلى للعقيدة الملكية،التي تبرر سلطتهم المطلقة،ولتنظيم الإدارة التي توجه الثروة نحو الحكومة المركزية)![١٠٧٧]

وهذا أبرز ملامح الملكيات والأنظمة الوراثية منذ وجودها خاصة العربية في هذا العصر،فالملوك يتصرفون في المال العام بناء على هذه (العقيدة الملكية الفرعونية)،فلا حسيب ولا رقيب على تصرفهم في الثروة والمال العام،فما يمنحونه للشعوب هو مكرمة ملكية وأميرية،من صاحب الفضل والنعمة،ربهم الذي ينعم على عبيده بما يشاء!

1075 -تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ١٨) صحيح مقطوع

1076 - تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها (١٠٧/١)

1077 - تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها (١٣٢/١)

٨- وللملك والأمير حق التوريث للسلطة كما يورث ماله الخاص،فالملوك والأمـــراء في الأنظمة الوراثية يورثون الحكم على أساس أن الوطن والشعب ملك خاص يورثـــه الأب للابن،وقد يشركه بالأمر في حياته،وهي أبرز مظاهر الفرعونية،كما جاء في التاريخ العـــام للحضارة:(فالابن البكر يخلف أباه الملك،ويعمـــد الملـــك أحيانـــا إلى تـــأمين خليفتـــه بنفسه،فيختاره أو يشركه بأعباء الحكم وهو في قيد الحياة،فيحكم كوصي مشارك)![١٠٧٨]

فالأنظمة الملكية التي تقوم على قهر الشعب،لا تصل إلى هذه الحالة مـــن القـــدرة علـــى التوريث إلا بعد تدجين الشعوب،واستلابها إرادتها وحريتها وكرامتها،وبعد تشكل حالـــة عامة من الخضوع الطوعي،وفقدان الإنسان فيها لإنسانية،ليصبح متاعا ينتقل مـــن ملـــك الأب للابن!

ثم يبلغ الانحطاط بالشعب والإنسان في ظل الأنظمة الوراثية أن يفقد كرامتـــه وإنســـانيته وحريته حتى لا يشعر أصلا بأن في ذلك مشكلة حين تنقل ملكيته كإنسان وكشعب مـــن الأب إلى ابنه الوريث،فهناك دستور ونظام أساسي ينظم عملية انتقال الملكيـــة بشـــكل طوعي،بل وبكل سرور وبهجة،يستقبل الشعب مهمة نقل الملكية كقطيع أغنام من الملـــك أو الأمير إلى ولي عهده ووريث شعبه من بعده!

٩- وإرادة الملك سامية لا تهدف إلا لتحقيق السعادة لشعبه،ولا يمكن أن تكون أوامـــره اعتباطية،فهو بشر في الصورة،إله في الحقيقة،لا يصدر عنه إلا الخير،كما جاء في وصـــف الفرعون:(كان الأساس لدى الجميع أن الإرادة الملكية،لا يمكن أن تهـــدف إلا لســـعادة مصر،كذلك من الأمور البدهية عند المصري أن إرادة الملك وقضاءه أحكام لا يمكـــن أن تأتي اعتباطية،فالأحكام التي تصدر عنه حق وعدل)![١٠٧٩]

وهذا ما تدعيه الأنظمة العربية الوراثية،فالإعلام فيها يعبر عن هـــذه الظـــاهرة أوضـــح تعبير،فالملك أوالأمير هو صاحب الجلالة والعظمة الذي إرادتـــه ســـامية كريمـــة،وأوامره حكيمة،وظهوره للناس مكرمة عليهم... الخ

1078 - التاريخ العام للحضارة (٤٨/١)

1079 - التاريخ العام للحضارة (٥٢/١)

كما أخبر القرآن عن دعوى فرعون حين خاطب قومه:{قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر:٢٩]

ففرعون يزعم بأن كل ما يصدر عنه هو رشد وحكمة وعدل وحق،فهو معصوم عن الخطأ والظلم والسفه،بما له من حظ في الألوهية والربوبية!

قال ابن جرير الطبري:" قَالَ فِرْعَوْنُ {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} [غافر:٢٩] يَقُولُ:قَالَ فِرْعَوْنُ مُجِيبًا لِهَذَا الْمُؤْمِنِ النَّاهِي عَنْ قَتْلِ مُوسَى:مَا رَأْيُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الرَّأْيِ وَالنَّصِيحَةِ إِلَّا مَا أَرَى لِنَفْسِي وَلَكُمْ صَلَاحًا وَصَوَابًا،وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَقُولُ:وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ فِي أَمْرِ مُوسَى وَقَتْلِهِ،فَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَقْتُلُوهُ بَدَّلَ دِينَكُمْ،وَأَظْهَرَ فِي أَرْضِكُمُ الْفَسَادَ."[١٠٨٠]

١٠- والملك وأسرته فوق القانون وفوق عامة الشعب،وهذه الفوقية في الأنظمة الوراثية قائمة على أساس من الشعور الزائف بألوهية بشرية،تجعل لهم من الخصوصية والاستحقاق المزعوم ما ليس لغيرهم،كما كان عليه حال الفرعونية:(الملك في مصر منذ بدء الملكية فيها إله،للتدليل على سلطته المطلقة،وتساميه فوق العامة،ليس بصورة رمزية أو مجازية،بل عكس ذلك تماما فالنص الحرفي ينم عن هذه العقيدة)![١٠٨١]

ولا يحتاج الواقع المعاصر للأنظمة الملكية والوراثية العربية إلى كبير عناء لأثبات هذه الحالة الفرعونية في ممارساتها الواقعية،فالملوك والأمراء وأسرهم وحاشيتهم فوق القانون،ولهم من الخصوصية والامتيازات والمعاشات ما ليس لعامة الشعب،بناء على هذه العقيدة الملكية الفرعونية،ويعزز هذه الحالة ثقافة شعبية ودينية ترى مشروعية هذه الممارسات،وتبررها وتدافع عنها وباسم الإسلام والسنة!

١١- والملك هو معبود الجماهير وملهمهم،ومصدر عزهم ومجدهم،يقبلون يده،ويخشعون بحضرته،ويسبح بحمده الشعراء،ويمجده الخطباء،وتهتف باسمه العامة،ويخرج بموكبه وزينته ليقفوا له،وتصرف له كل صور الإجلال كإله بشري،وهي أبرز ملامح الحكم الفرعوني

1080 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٠/ ٣١٤)

1081 - التاريخ العام للحضارة (١/٤٦)

كما جاء في المصدر السابق:(فحياته على مر الأيام حياة إله،وابن إله،وهو موضوع عبادة الجميع وتكريمهم،فالكل يعفر جبينه أمامه،ويتشرف أسعدهم حظا بتقبيل قدميه،وحركاته وسكناته تجري وفقا لمراسم معينة،فلا يظهر للناس إلا بـــرداء خاص،مرصـــع بالأحجـــار الكريمة..)،[١٠٨٢]

وقال:(الفرعون إله على الأرض له كهنته وعبادته اليومية،وأناشيده الخاصـــة،وله أعيـــاده أعياد الجلوس على العرش،والأعياد التذكارية،والمواكب)![١٠٨٣]

وهو ما أخبر به القرآن عن فرعون كما قال تعالى في شأنه:{ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [طه:٥٩]!

وهذه الفرعونية لم تنته بزوال الحكم الفرعوني في مصر بل انتقلت إلى كل النظم الوراثيـــة التي أعقبتها في كل مكان،كما حدث في فارس:(بعد داريوس نظمت مبادئ دقيقة جـــدا جميع أعمال الملك،ولم يشاهده الخاضعون لحكمه إلا في أيام الاحتفالات حيـــث يخضـــع الجميع أمامه عندما يطل على عرش العظمة،أو عربة الأبهة)![١٠٨٤]

ويشاهد العالم كله ومن خلال وسائل الإعلام في الأنظمة العربية الوراثية كيـــف يقـــف رجال الدولة وقادة الجيش وعامة الشعب طوابير ليتشرفوا بمصافحة الملك أو الأمير،وتقبيل يده وكتفه،والانحناء أمامه،على نحو وثني لا يقع مثله حتى في الدول الوثنية!

١٢- والحكومة ومؤسسات الدولة وإداراتها السياسية والإدارية والماليـــة والعســـكرية في النظم الملكية والوراثية هي لخدمة الملك،ولتنفيذ إرادته وطاعته،وكل مـــا يصـــدر عـــن مؤسسات الدولة يصدر باسم سموه،كمـــا كـــان شـــأن الدولـــة المصـــرية في الحقبـــة الفرعونية:(يجري كل شيء باسم الملك،وتتخذ القوانين الملكية العمومية شكل تصـــريحات شفوية)![١٠٨٥]

1082 - التاريخ العام للحضارة (٤٨/١)

1083 - التاريخ العام للحضارة (١٠٧/١)

1084 - التاريخ العام للحضارة (٢٩١/١)

1085 - تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها (٢٢٠/١)

وقال:(إن الملوك بقبولهم تعظيم هؤلاء الهاتفين أو بلجوئهم إليهم،قد استهدفوا إعلاء شأن نفوذهم الشخصي،وإثبات تعلق مؤمنيهم بهم،وألفت الملكية بين نظرية الإنسان المتفوق،وبين النظرية القانونية الشرعية أي نظرية الحق السلالي في التملك،وتكون هذه النظرية قاعدة متينة للسلطة المطلقة كحق إلهي وبشري معا من جهة،وانطلاقا من هذه السلطة تشكل جهاز إداري ومالي وعسكري كامل،توجته العبادة السلالية بغية ضمان تنفيذ قرارات الملك،وجمع القوى المادية والأدبية في أراضيه على يديه)![1086]

١٣- والملك هو محل عناية الله واختياره،وهو ظل الله في الأرض،والملك والدين قرينان،فحاجة الملك للدين أساسها الاعتقاد بأن الله يتجلى بقضائه وقدره في الملوك،فبأيديهم الحياة والموت،والمنع والرزق،والإغناء والإفقار،والإعزاز والإذلال،ولهذا يتحالف الملوك مع رجال الدين والسحرة والعرافين لتعزيز سلطتهم باسم الله وباسم عالم الأرواح والقوى الخفية،كما جاء في شأن ملوك الآشوريين في العراق:(السلطة الملكية تستند دوما إلى أساس إلهي " لقد هبط النظام الملكي من السماء " فالملوك الآشوريون الأوائل مع تسمية ذواتهم بالملوك إلا إنهم لا ينفكون عن اعتبار أنفسهم " نواب الإله آشور " ويظهر كل هذا الدور السياسي الذي يلعبه رجال الكهنوت،أو الكاهن الأعظم في شئون المملكة،وهكذا فإن النظام يحتفظ بالمظهر الثيوقراطي (الديني)،فالسلطة الملكية لا تصبح علمانية،ويفترض في الآلهة أمر تعيين صاحب السلطة ولا غرابة في التوفيق بين هذا الاصطلاح ومبدأ الوراثة إذا أن الملوك يفخرون بالأصل الملكي الذي ينتسبون إليه،ولكنهم مع ذلك لا يتناسون في الوقت نفسه عن التذكير بالانتخاب الذي وقع عليهم من قبل الآلهة،ويباشر الملك وهو على قيد الحياة بانتخاب أحد بنيه)![1087]

١٤- وصور الملك وتماثيله هي تجلي لذاته المصونة على شعبه،فيجب أن تكون في كل مكان في الدولة،فتنصب تماثيله في الميادين،وتعلق صوره في الطرقات والإدارات،حتى لا ينساه أحد،وحتى يتذكر الشعب في كل مكان أن الملك والأمير معهم،يطلع على

1086 - تاريخ الحضارة عن ملوك مصر وفرعونها (١/ ٤٣٤)

1087 - التاريخ العام للحضارة (١٣٩/١)

أعمالهم،ويراقب تصرفاتهم.. الخ وهي مظاهر للملكية الفرعونية التي ورثها الملوك في كل عصر،كما في المصدر السابق!

١٥- والملك مصدر البهجة والسرور والسعادة،فالقرب منه سعادة،والإقصاء عنه شقاء،فهو جنة الحياة ونارها،جاء في المصدر السابق:(كان على الناس أن يفرحوا ويبتهجوا،لأن أحد الأرباب أقيم رئيسا على البلاد،والحياة رغد بين لهو وضحك.. ويرافق اسم الملك إشارات ترمز للحياة والصحة والقوة،وبواسطة الملك تتجه - هذه النعم - إلى كل المملكة وسكانها...)![1088]

كما إن الملك يحب القنص والصيد وكل ما يرمز إلى القوة والبهجة..الخ ![1089]

وكل ما سبق ذكره من مظاهر وسمات لكل الملكيات والأنظمة الوراثية على اختلاف الشعوب التي خضعت لها،وعلى اختلاف أديانها،منذ العصر الفرعوني إلى اليوم،تكرس ظاهرة ألوهية الملك،مهما تظاهر في البشرية،ولهذا تم في الثقافة الدينية المعاصرة تصوير الألوهية التي ادعها فرعون مصر على نحو يخالف حقيقتها لقطع الصلة بينها وبين الملكيات المعاصرة،مع أن القرآن جاء وبكل وضوح لبيان هذه الألوهية البشرية التي يعيشها الملوك في كل عصر،ولهذا جعل الله من الإيمان به وتوحيده اعتقاد أنه وحده ملك الناس {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)} [الناس:١ - ٣]،وأن الملك له وحده لا شريك له { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء:١١١]،وأنه سبحانه {رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة:١٢٩]،وأنه جل جلاله {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة:١٠٧] وأن { وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [الفتح:٧]..الخ

وفي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي سَلَمَةَ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ " يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ،وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ،ثُمَّ يَقُولُ:أَنَا المَلِكُ،أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ "[1090]

1088 - التاريخ العام للحضارة (٤٧/١)

1089 - التاريخ العام للحضارة (٤٩/١)

1090 - صحيح البخاري (٦/ ١٢٦)(٤٨١٢) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٤٨)٢٣ - (٢٧٨٧)

فالله جل جلاله لا ينازعه في الأرض في الملك والحكم والطاعة والتشريع والكبرياء والجلال إلا الملوك الطغاة،فهم أرباب العروش،وهم أرباب الجنود،وهم أدعياء الملك.. الخ
ويستخدمون لترويج ذلك وتكريسه (الخرافة والسحر والدين) افتراء على الحق،وتضليلا للخلق!

وقد تحدث القرآن عن هذه الوسائل في قصة فرعون،وكيف تمت له السيطرة على شعب مصر بالخرافة والسحر والدين!

فقد ذكر القرآن علوه في الأرض{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [القصص:٤]

وادعاءه ملك الأرض{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الزخرف:٥١]

وادعاءه استحقاق الطاعة استظهارا بالقدرة على السجن والتعذيب{ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} [الشعراء:٢٩]

وادعاءه الخوف على الدين واستحلال قتل الأبرياء بحجة حماية الدين {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر:٢٦]

وذكر استخدامه للسحر وتضليل الشعب بالخرافة { فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف:١١٦]

وذكر القرآن بأن الله جلال جلاله أبطل سحر فرعون،وكشف فساده في الأرض على يد موسى{قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)} [يونس:٨١،٨٢]

وذكر إكراهه للسحرة ليمارسوا تضليل الرأي العام ليطيعوه {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه:٧٣]

وذكر القرآن بأن فرعون كان يغوي الناس بالأموال والزينة،ويصدهم عن الحق ويفتنهم بهما،{ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا

عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } [يونس:٨٨]

وهو حال الأنظمة الملكية والوراثية في عالمنا العربي اليوم فهي تقوم بشراء الناس وشراء ولائهم بالأموال،وفتنتهم بالزينة،وسحرهم وتضليلهم برجال الدين وبالأدباء والشعراء والخطباء،وإرهابهم بالسجن والتعذيب والقتل،لينشأ بعد ذلك أجيال تستمرئ العبودية،وترفض الحرية،كما حصل لقوم موسى على يد فرعون وملئه،حين قال موسى لفرعون{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء:٢٢]،{فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } [المؤمنون:٤٧]،قال ابن جرير الطبري في تفسيره:"{لَنَا عَابِدُونَ} [المؤمنون:٤٧] يَعْنُونَ أَنَّهُمْ لَهُمْ مُطِيعُونَ مُتَذَلِّلُونَ،يَأْتَمِرُونَ لَأَمْرِهِمْ ، وَيَدِينُونَ لَهُمْ وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ مَنْ دَانَ لِمَلِكٍ عَابِدًا لَهُ،وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ لِأَهْلِ الْحِيرَةِ:الْعِبَادُ،لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ طَاعَةٍ لِمُلُوكِ الْعَجَمِ "[1091]

فلما دعاهم موسى ليحررهم من عبوديتهم لفرعون وطاعتهم له وللملأ من قومه،رفض بنو إسرائيل حتى قال شيوخهم وكبارهم { قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف:١٢٩]

ولهذا لم يؤمن مع موسى ويخرج عن طاعة فرعون إلا بعض الشباب الفتية كما قال تعالى:{ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [يونس:٨٣]

وهو حال الشعوب العربية التي تم تعبيدها عقودا طويلة للأنظمة الوراثية،حتى لم تعد تعرف معنى الكرامة والحرية،ولا تعرف حقيقة الشرك والوثنية،ولهذا كانت أضعف من أن تثور،فضلا عن أن ترفع شعار (الشعب يريد إسقاط النظام)،فهي أحوج ما تكون إلى

[1091] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٧/ ٥١)

تحريرها من أوهامها ومخاوفها،وفك سحر فرعون عنها،وتحرير عقولهـــا ونفوســـها،حتى تستعيد إنسانيتها،ثم بعد ذلك تستعيد حريتها وكرامتها![١٠٩٢]

[1092] – كتبهاد.حاكم المطيري،في ٢٠ يونيو ٢٠١١
http://darussalam.ae/content.asp?contentid=١٨٠٥
٧١٩

المبحث السادس والثلاثون

استحباب تعجيل الزكاة للشعب السوري المنكوب بطاغيته

يجوز تعجيل زكاة المال قبل أن يحلَّ وقتها،على أن لايتجاوز التعجيل سنتين قبل وقت وجوبها،لما روى عَنْ عَلِيٍّ،«أَنَّ الْعَبَّاسَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فِي تَعْجِيلِ صَدَقَتِهِ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ،فَرَخَّصَ لَهُ فِي ذَلِكَ»،قَالَ مَرَّةً:فَأَذِنَ لَهُ فِي ذَلِكَ"[1093]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:(وَأَمَّا تَعْجِيلُ الزَّكَاةِ قَبْلَ وُجُوبِهَا بَعْدَ سَبَبِ الْوُجُوبِ فَيَجُوزُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد. فَيَجُوزُ تَعْجِيلُ زَكَاةِ الْمَاشِيَةِ وَالنَّقْدَيْنِ وَعُرُوضِ التِّجَارَةِ إذَا مَلَكَ النِّصَابَ. وَيَجُوزُ تَعْجِيلُ الْمُعَشَّرَاتِ قَبْلَ وُجُوبِهَا إذَا كَانَ قَدْ طَلَعَ الثَّمَرُ قَبْلَ بُدُوِّ صَلَاحِهِ وَنَبَتَ الزَّرْعُ قَبْلَ اشْتِدَادِ الْحَبِّ. فَأَمَّا إذَا اشْتَدَّ الْحَبُّ وَبَدَا صَلَاحُ الثَّمَرَةِ وَجَبَتْ الزَّكَاةُ.)[1094]

وصرفها إلى المنكوبين بطاغيتهم من الشعب السوري من أهم المهمَّات،وأولى الأوليَّات،لاسيما اللاجئين إلى تركيا التي آوتهم،وحمتهم،ورعتهم ـ شكر الله سعيها[1095] ـ

أو الذين في المدن المحاصرة،حتى لو كانت لهم أموال خارج الحصار إنْ كانوا لايصلون إليها،لأنَّهم في حكم (ابن السبيل).

ومعلوم أنَّ كثيراً من الأسر في سوريا،قد استُشهد ـ نحسبهم شهداء ـ عائلُهم،من الأرامل،و الأيتام،فهم في أشد الحاجة إلى من يمدّ لهم يدَ العون.

ويقدم فقراءُ،ومساكين الشعب السوري،على غيرهم لما أصابهم،من المصيبة العامة التي حلَّت بديارهم من طاغيتهم المتجبِّر قصم الله ظهرَه،وحزْبه اللعين،وأراح المسلمين من شرورهم.

1093 - سنن أبي داود (٢/ ١١٥)(١٦٢٤) وسنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٥٤)(٦٧٨) حسن

1094 – مجموع الفتاوى (٢٥/ ٨٥)

1095 – قلت: تركيا قصرت كثيرا بحكم اللاجئين والثورة السورية

وكذا تُصرف لجهود الإطاحة بالطاغية،لتخليص المسلمين من عدوٍّ غائلتُه أشدُّ ضرراً،وجرائمُه أقبحُ معرَّة،على أهل الإسلام،من كلِّ الأعداء.

فهو يهريق الدماء،ويهتك الإعراض،ويهلك الحرث،والنسل،ويعيث في الأرض فساداً،ومعلوم أنَّه لا أوجب من جهاد هذا العدوِّ،وأمثاله من السَّاعين في الأرض بالفساد ؟

وقد ذكر الله تعالى أنَّ نصرة المسلم من أنواع الجهاد في سبيل الله،وكذا كفٌّ بأس الأعداء عن أهل الإسلام،كما تعالى:{ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ } [الأنفال:٧٢].

وقال:{ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا } [النساء:٨٤].

ولهذا نهيب بأهل الدثور من المسلمين،أنّ يعجّلوا بزكاتهم للشعب السوري المنكوب،وقد فتح الله تعالى الطريق من تركيا،كما نهيب بالجمعيات الخيرية أن تسرع للإغاثة،وتوصيل الزكوات،والصدقات،وجهود الإغاثة لإخواننا هناك.

هذا ونسأل الله تعالى باسمه الأعظم،الحيّ القيوم،ذي الجلال والإكرام،ذي العزة،و الكبرياء،والعظمة،الملك،الجبار.

اللّهم إنّك العزيز ذو انتقام،اللهمّ انتقم من طاغية الشام،وأعوانه،الذين غرَّتهم دولتُهم،وقوَّتُهم،بما ملكوا من الجند،والأموال،فتكبّروا في الأرض،وطغوْا في البلاد،حتى أكثروا فيها الفساد.

اللهم إنهم تسلَّطوا على عبادك المسلمين بالقتل،حتى قتلوا الأطفال،وعذَّبوهم،وهتكوا الأعراض،وقطعوا السبيل،وأهكلوا الأموال،وطغوْا طغيانا كبيرا.

اللهم خذْهم أخذَ عزيزٍ مقتدر،اللهمّ شتِّت شملهم،ودمّر دولتهم،واجعل عاليها سافلها،وأدر الدائرة عليهم،وردّ مكرهم في نحورهم،وأرنا فيهم عجائب قدرتك،وأنزل بهم بأسك الذي لايردُّ عن القوم الظالمين.

التعليق:

أولا- جزى الله الشيخ العلامة الداعية حامد بن عبد الله العلي عنا خير الجزاء.....فهو دائما مع قضايا الأمة المصيرية،يعيش مع الحدث ويبدي رأيه ناصحا وموجها ومرشدا كثَّر الله تعالى من أمثاله... قال تعالى:{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } [الأحزاب:٣٩]

ثانيا- نتمنى من بقية أهل العلم أن تكون لهم فتاوى صريحة وجريئة بحق أهل سورية المظلومين المضطهدين من قبل الطاغية الصنم بشار الأسد وعصابته المجرمة.

وقد حذر الله تعالى من كتمان العلم في وقت حاجة الناس إليه،قال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) } [البقرة]

وقال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) } [البقرة]

ثالثا- لا نشك أنه تجب مساعدة أهلنا في سورية المادية والمعنوية،والواجب على الأغنياء في سورية أن يتوجهوا بأموالهم إلى أسر المنكوبين والمتضررين والشهداء والمعتقلين،وأن يكونوا كالأشعريين الذين مدحهم رسول الله ﷺ،فعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ

[1096] – الشيخ حامد بن عبدالله العلى حفظه الله http://h-alali.org/

الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ،أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ،فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ» [1097]

فهذا هو الإسلام الحقيقي....

وكذلك فقد حث الرسول ﷺ على مساعدة المحتاجين،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا،نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ،يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا،سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ...» [1098]

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْبِرُّ لَا يَبْلَى،وَالْإِثْمُ لَا يُنْسَى،وَالدَّيَّانُ لَا يَمُوتُ،فَكُنْ كَمَا شِئْتَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ» [1099]

وعن زَيْدَ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا،وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا» [1100]

رابعا- من الواجب المشاركة في الانتفاضة السورية في الداخل والخارج،وعلى كل واحد من المسلمين المشاركة بما يستطيع،بنفسه أو بماله أو بقلمه أوبكلمته أو بكتابته.....لأنها واجبة على الجميع قدر المستطاع..

فعَنْ أَنَسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ» [1101]

[1097] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٨)(٢٤٨٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٤)١٦٧ - (٢٥٠٠)

[(أرملوا) من الإرمال وهو فناء الزاد وقلة الطعام أصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل من القلة. (في إناء واحد) أي اقتسموه بمكيال واحد حتى لا يتميز بعضهم عن بعض. (بالسوية) متساوين. (فهم مني وأنا منهم) طريقتي وطريقتهم واحدة في التعاون على البر والتقوى وطاعة الله عز وجل ولذلك لا أتخلى عنهم]

[1098] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤)٣٨ - (٢٦٩٩)

[1099] - جامع معمر بن راشد (١١/ ١٧٨)(٢٠٢٦٢) صحيح لغيره

[1100] - صحيح البخاري (٤/ ٢٧)(٢٨٤٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٥٠٧)١٣٦ - (١٨٩٥)

[(جهز غازيا) هيأ له ما يحتاجه في سفره وغزوه والغزو الجهاد. (فقد غزا) كتب له أجر الغزو وإن لم يغز لأنه ساعد عليه. (خلف غازيا) قام مقامه في قضاء حاجات أهله حال غيبته. (بخير) بإحسان وأمانة وإخلاص]

[1101] - سنن النسائي (٦/ ٧)(٣٠٩٦) صحيح

وعَنْ عَائِشَةَ،أَنَّهَا قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ:«إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ،وَعَنْ رَسُولِهِ»[1102]

وعَنِ الْبَرَاءِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" يَا حَسَّانُ اهْجُ الْمُشْرِكِينَ،فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ،أَوْ إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ "[1103]

خامسا- لا يجوز المن بهذه المساعدة أبداً،قال تعالى:{ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)} [العنكبوت:٥،٦]

وقال تعالى:{ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة:٢٦٢]

سادسا- لا يجوز البخل بتقديم العون المستطاع للمحتاجين أبدا،قال تعالى:{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد:١٠]

وقال تعالى:{إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) } [محمد:٣٦ - ٣٨]

وعن إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَشِيرٍ قال:سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ،وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولَانِ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا مِنَ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ

[1102] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٩٧)(٧١٤٧) صحيح

[1103] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٦١٧)(١٨٦٧٨) صحيح

وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ،إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ،وَمَا مِنَ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ،إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»[1104]

سابعاً – ينبغي أن تكون هذه المساعدات سرية،حتى لا يفسرها النظام الإجرامي الطاغوتي بتفسير يناسب أكاذيبه وأراجيفه....

وحتى لا يكون فيها منًّا ولا أذى.....

أو خشية أن يصادرها إن علم بها لمجرمون،لأنهم لو وجدوا مزبلة لنهبوها،فهم ينهبون كل شيء يقع بين أيديهم أو يتلفونه.....لأنهم عديمو الرحمة والإنسانية

فعَنْ مَنْصُورٍ،سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ يَقُولُ:سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»[1105]

بل لا يوجد أي رابط يربط بينهم وبين المسلمين أبدا،فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا،وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا» [1106]

وعَنْ عَامِرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو،يَقُولُ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ،وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»[1107]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ فِي الْخُطْبَةِ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ،وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».[1108]

1104 – سنن أبي داود (٤/ ٢٧١)(٤٨٨٤) حسن لغيره

1105 – الأدب المفرد مخرجا (ص: ١٣٦)(٣٧٤) صحيح لغيره

1106 – الأدب المفرد مخرجا (ص: ١٣٠)(٣٥٥) صحيح

1107 – صحيح البخاري (٨/ ١٠٢)(٦٤٨٤)

1108 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ٤٢٢)(١٩٤) صحيح

ثامنا- يجب أن تكون هناك لجان شعبية مأمونة وصادقة لتوزيع هذه المساعدات الإنسانية لأهلنا في الشام،ويعطى المتضررون على حسب الضرر وحسب المال الموجود العيني أو غير العيني.....

تاسعاً -في النكبات والملفات والفتن تعرف معادن الرجال،فيتميز المؤمن الصادق من الدعي المنافق،قال تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } [آل عمران:١٤٢]

وقال تعالى:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [التوبة:١٦]

أَظَنَنْتُمْ أَنْ يَتْرُكَكُمُ اللهُ مُهْمَلِينَ،لاَ يَخْتَبِرُكُمْ بِأُمُورٍ تُظْهِرَ فِيكُمُ الصَّادِقَ مِنَ الكَاذِبَ،لِيَعْلَمَ الذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِه،وَيُخْلِصُونَ فِي جِهَادِهِمْ وَنُصْحِهِمْ،للهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلمُؤْمِنِينَ،وَيَكُونُ ظَاهِرُهُمْ كَبَاطِنِهِمْ،فِي الإِخْلاَصِ للهِ وَلِلرَّسُولِ،وَلَيْسَ لَهُمْ بِطَانَةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ،وَلاَ رَوَابِطُ مَعَ المُشْرِكِينَ،وَلاَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِأَسْرَارِ المُسْلِمِينَ وَخُطَطِهِمْ،وَاللهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً.

وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ أنَّ التَكْلِيفَ الذِّي يَشُقُّ عَلَى الأَنْفُسِ هُو الذِي يُمَحِّصُ مَا فِي القُلُوبِ،وَيُطَهِّرُ السَّرَائِرَ،وَيَكْشِفُ مَكْنُونَاتِ السَّرَائِرِ الخَبِيثَةِ.[1109]

في ١٢ رجب ١٤٣٢ هـ الموافق ل ٢٠١١/٦/١٣ م

[1109] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

المبحث السابع والثلاثون

وجوب تحكيم الإسلام عقيدة وعبادة ومنهج حياة

إنَّ الرجوع إلى الله له صورة واحدة وطريق واحد.. واحد لا سواه.. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها. والتحاكم إليه وحده في شؤونها. وإلا فهو الفساد في الأرض،والشقاوة للناس،والارتكاس في الحمأة،والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله:«فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ. وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ؟ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»..

إن الاحتكام إلى منهج الله تعالى المتمثل في كتابه وسنة الله رسوله ﷺ ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار،إنما هو الإيمان..أو.. فلا إيمان.. «وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ».. «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً،وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ،وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ»..

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ،فَقَالَ:إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ وَلَكِنَّهُ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تَحَاقَرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ،فَاحْذَرُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ،إِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخُو الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ،وَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ،وَلَا تَظْلِمُوا وَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ "[1110]

والأمر إذن جد.. إنه أمر العقيدة من أساسها..ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها.

إن هذه البشرية – وهي من صنع الله – لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده – سبحانه – وقد جعل في منهجه

[1110] – الاعتقاد للبيهقي (ص: ٢٢٨) صحيح

وحده مفاتيح كل مغلق،وشفاء كل داء:«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ»..

«إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ».. ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه،ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه،ولا تسلك في أمر نفسها،وفي أمر إنسانيتها،وفي أمر سعادتها أو شقوتها.. ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة.. وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز. ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه،فترده إلى المصنع الذي منه خرج،ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب،الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف،الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه:«إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟»

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة. البشرية المسكينة الحائرة،البشرية التي لن تجد الرشد،ولن تجد الهدى،ولن تجد الراحة،ولن تجد السعادة،إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير،كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير!

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثا هائلا في تاريخها،ونكبة قاصمة في حياتها،نكبة لم تعرف لها البشرية نظيرا في كل ما ألم بها من نكبات...

لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعد ما فسدت الأرض،وأسنت الحياة،وتعفنت القيادات،وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة و «ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ»

تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن،وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن،وبالشريعة المستمدة من هذا التصور.. فكان ذلك مولدا جديدا للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته. لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا،كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور،قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء.. نعم! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال،والعظمة والارتفاع،والبساطة واليسر،والواقعية والإيجابية،والتوازن والتناسق...

بحيث لا يخطر للبشرية على بال،لولا أن الله أراده لها،وحققه في حياتها.. في ظلال القرآن،ومنهج القرآن،وشريعة القرآن.

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة ونحي الإسلام عن القيادة. نحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى،في صورة من صورها الكثيرة. صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم،كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان!

إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية. يضعون لها المنهج الإلهي في كفة والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى ثم يقولون لها:اختاري!!!

اختاري إما المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدعته يد الإنسان في عالم المادة،وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله!!!

وهذا خداع لئيم خبيث. فوضع المسألة ليس هكذا أبدا.. إن المنهج الإلهي ليس عدوا للإبداع الإنساني. إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة.. ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض. هذا المقام الذي منحه الله له،وأقدره عليه،ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافىء الواجب المفروض عليه فيه وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع.. على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله،ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام،والتقيد بشرطه في عقد الخلافة وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله. فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلهي في كفة،والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى.. فهم سيئو النية،شريرون،يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال،وهمت أن تسمع لصوت الحادي الناصح،وأن تؤوب من المتاهة المهلكة،وأن تطمئن إلى كنف الله...

وهنالك آخرون لا ينقصهم حسن النية ولكن ينقصهم الوعي الشامل،والإدراك العميق.. هؤلاء يبهرهم ما كشفه الإنسان من القوى والقوانين الطبيعية،وتروعهم انتصارات الإنسان في عالم المادة. فيفصل ذلك البهر وهذه الروعة في شعورهم بين القوى الطبيعية والقيم الإيمانية،وعملها وأثرها الواقعي في الكون وفي واقع الحياة ويجعلون للقوانين الطبيعة

مجالا،وللقيم الإيمانية مجالا آخر ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير في طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية،وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا. اتبعوا منهج الله أم خالفوا عنه. حكموا بشريعة الله أم بأهواء الناس!

هذا وهم.. إنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية هما في حقيقتهما غير منفصلين. فهذه القيم الإيمانية هي بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء. ونتائجها مرتبطة ومتداخلة ولا مبرر للفصل بينهما في حس المؤمن وفي تصوره.. وهذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس حين تعيش في ظلال القرآن. ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة وانحرافهم عنها وأثر هذا الانحراف في نهاية المطاف:«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ». وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه:«فَقُلْتُ:اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً،وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ،وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً».. وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسي للناس والواقع الخارجي الذي يفعله الله بهم:«إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ».

إن الإيمان بالله،وعبادته على استقامة،وإقرار شريعته في الأرض... كلها إنفاذ لسنن الله.

وهي سنن ذات فاعلية إيجابية،نابعة من ذات المنبع الذي تنبثق منه سائر السنن الكونية التي نرى آثارها الواقعية بالحس والاختبار.

ولقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية،حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية.. هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق ولكنها تظهر حتما في نهايته.. وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامي نفسه. لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية. وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما. وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا..

وفي الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم. تقف كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار،بينما جناحه الآخر مهيض،فيرتقي في الإبداع المادي بقدر ما يرتكس في المعنى الإنساني ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك.. لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله،وهو وحده العلاج والدواء.

إن شريعة الله للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون. فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون.. والشريعة إن هي إلا ثمرة الإيمان لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير. فهي موضوعة لتنفذ في مجتمع مسلم،كما أنها موضوعة لتساهم في بناء المجتمع المسلم. وهي متكاملة مع التصور الإسلامي كله للوجود الكبير وللوجود الإنساني،ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى في الضمير،ونظافة في الشعور،وضخامة في الاهتمامات،ورفعة في الخلق،واستقامة في السلوك... وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها سواء ما نسميه القوانين الطبيعية وما نسميه القيم الإيمانية.. فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود.

والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود. وعمله وإرادته،وإيمانه وصلاحه،وعبادته ونشاطه.... هي كذلك قوى ذات آثار إيجابية في هذا الوجود وهي مرتبطة بسنة الله الشاملة للوجود.. وكلها تعمل متناسقة،وتعطي ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق بينما تفسد آثارها وتضطرب،وتفسد الحياة معها،وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة حين تفترق وتتصادم:«ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ».. فالارتباط قائم وثيق بين عمل الإنسان وشعوره وبين ماجريات الأحداث في نطاق السنة الإلهية الشاملة للجميع. ولا يوحي بتمزيق هذا الارتباط،ولا يدعو إلى الإخلال بهذا التناسق،ولا يحول بين الناس وسنة الله الجارية،إلا عدو للبشرية يطاردها دون الهدى وينبغي لها أن تطارده،وتقصيه من طريقها إلى ربها الكريم..[1111]

[1111] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٤)

المبحث الثامن والثلاثين

ما هي حقيقة الاستخلاف في الأرض ؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم.. إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض،اللائق بخليقة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح،لا على الهدم والإفساد. وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة،لا على الظلم والقهر. وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري،لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان! وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض – كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم – ليحققوا النهج الذي أراده الله ويقرروا العدل الذي أراده الله ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله.. فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض،وينشرون فيها البغي والجور،وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان.. فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض. إنما هم مبتلون بما هم فيه،أو مبتلى بهم غيرهم،ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده:«وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ».. وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب،كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها. فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض،وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض. ودينهم يأمر بالإصلاح،ويأمر بالعدل،ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض. ويأمر بعمارة هذه الأرض،والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة،ومن رصيد،ومن طاقة،مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله.

«وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً».. ولقد كانوا خائفين،لا يأمنون،ولا يضعون سلاحهم أبدا حتى بعد هجرة الرسول – ﷺ – إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة.

عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي قَوْلِه:" " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " إِلَى آخِرِ الآيَةِ، قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِه وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ سِرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ لا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ، حَتَّى أُمِرُوا بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ وَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمْسُونَ فِي السِّلاحِ، وَيُصْبِحُونَ فِي السِّلاحِ، فَغَبَرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ رَجُلا مِنْ أَصْحَابِه، قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه، أَبَدَ الدَّهْرِ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا، مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ فِيهِ السِّلاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - :لَنْ تَغْبُرُوا إِلا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ"،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " إِلَى آخِرِ الآيَةِ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ نَبِيَّهُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السِّلاحَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ نَبِيَّهُ - ﷺ - فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنَيْنِ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا وَكَفَرُوا بِالنِّعْمَةِ فَأَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ الَّذِي كَانَ رُفِعَ عَنْهُمْ، وَاتَّخَذُوا الْحَجَزَةَ، وَالشُّرَطَ وَغَيَّرُوا فَغَيَّرَ مَا بِهِمْ" [1112]

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - وَأَصْحَابُهُ الْمَدِينَةَ وَآوَتْهُمُ الأَنْصَارُ،رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ كَانُوا لاَ يَبِيتُونَ إِلاَّ بِالسِّلاحِ وَلا يُصْبِحُونَ إِلاَّ فِيه،فَقَالُوا:تَرَوْنَ أَنَّا نَعِيشُ حَتَّى نَبِيتَ آمِنَيْنِ مُطْمَئِنَّيْنِ لاَ نَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ؟ فَنَزَلَتْ:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥] ".[1113]

[1112] - تفسير ابن أبي حاتم [١٠/ ١٩٣] (١٥٥٦٨) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٦/ ٧٩] والدر المنثور للسيوطي -موافق للمطبوع [١١/ ٩٧] حسن

[1113] - المستدرك للحاكم(٣٥١٢) صحيح

«وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ».. الخارجون على شـــرط الله. ووعـــد الله. وعهد الله..

لقد تحقق وعد الله مرة. وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط الله:«يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً».. لا من الآلهة ولا من الشهوات. ويؤمنون - من الإيمان - ويعملون صالحا. ووعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة. إنمـــا يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن.

لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة أو في تكليف من تكاليفه الضخمة حـــتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء،وجـــازت الابتلاء،وخافـــت فطلبـــت الأمن،وذلـــت فطلبـــت العزة،وتخلفت فطلبت الاستخلاف.. كل ذلك بوسائله التي أرادها الله،وبشـــروطه الـــتي قررها الله.. تحقق وعد الله الذي لا يتخلف،ولا تقف في طريقة قوة مـــن قـــوى الأرض جميعا.

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبألا يحسب الرسول - ﷺ - وأمته حسابا لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذي ارتضى لهم:«وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ،وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِـــزِينَ فِي الْأَرْضِ. وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ»..

فهذه هي العدة.. الاتصال بالله،وتقويم القلـــب بإقامـــة الصـــلاة. والاســـتعلاء علـــى الشح،وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة. وطاعة الرسول والرضـــى بحكمه،وتنفيـــذ شريعة الله في الصغيرة والكبيرة،وتحقيق النهج الذي أراده للحياة:«لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـــونَ» في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال،وفي الآخرة من الغضب والعـــذاب والنكال.

فإذا استقمتم على النهج،فلا عليكم من قوة الكافرين. فما هم بمعجزين في الأرض،وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق. وأنتم أقوياء بإيمانكم،أقوياء بنظامكم،أقوياء بعدتكم التي تستطيعون. وقد لا تكونون في مثل عدتهم من الناحية المادية. ولكن القلوب المؤمنة الـــتي تجاهد تصنع الخوارق والأعاجيب.

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله في تلك الآيات. ولا بد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية،وهو يدرك شروطها على حقيقتها،قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب،أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله،وحكمت هذا النهج في الحياة،وارتضته في كل أمورها.. إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن. وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت في ذيل القافلة،وذلت،وطرد دينها من الهيمنة على البشرية واستبد بها الخوف وتخطفها الأعداء. ألا وإن وعد الله قائم. ألا وإن شرط الله معروف. فمن شاء الوعد فليقم بالشرط. ومن أوفى بعهده من الله؟"[1114]

[1114] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٣٢٦٢)

المبحث التاسع والثلاثون

خرج الشعب يوما هاتفا (الشعب يريد إسقاط النظام)

عندما خرج الشعب يوما هاتفا (الشعب يريد إسقاط النظام)
إلى الآن لم نر شعبا وعد بما خرج من أجله
أي إسقاط نظام حكم سرى عليه عقوداً أكل الأخضر عنده واليابس
نظام حكم أغرقه في وحل الذل والهوان وأكل حقوقه وداس على كرامته ومكانته بالأقدام
لا أعرف إلى الآن هل الشعب كان يعي بما كان يهتف به أم كان مثله كمثل من رأى مسيرة تجوب أحد الشوارع تهتف:
فليسقط وعد بالفور فزج نفسه بينهم دون أن يدري بماذا يهتفون به
وبدأ يصرخ فليسقط واحد من فوق
فلم يسقط لا وعد بالفور ولا واحد من فوق
فبقى وعد بالفور قائما وبقى من هو فوق فوق

خرج الشعب يريد إسقاط النظام و لم نسمع منه أي نظام يريده مكان النظام الذي يريد إسقاطه
حتى خيل إلينا أن الشعب لم يخرج لإسقاط أنظمه أكثر من إسقاطه حكومات
الشعب يريد إسقاط النظام
نفهم من هذا الهتاف الذي صمَّ آذاننا
أن الشعب يريد إسقاط نظام الحكم أي الدستور والقوانين المعمول بها واستبدالها بنظام آخر جديد يريده هو
إلى اليوم لم نسمع شيئا عن ماهية النظام الذي أراده الشعب والذي خرج من أجله لإسقاط نظام ساد عليه عقودا...

ولم نسمع حتى اليوم من الذين في الشارع يهتفون بنفس الهتاف ماهيـــة النظـــام الـــذي يريدونه ويبذلون من أجله الدماء

عندما تنادي بإسقاط نظام يعني هذا أن لديك نظاماً آخر تريد أن تحكمه على نفسك،غير النظام الذي أسقطته أو تريد وتنادي بإسقاطه

ما هو النظام الذي أردته مكان النظام الذي أسقطته؟

نظام علماني لبرالي شيوعي إلحادي إسلامي؟

أفصح لا يوجد هناك نظام اسمه النظام الديمقراطي(نريد نظام ديمقراطي)

هذه صفة وليست نظام صفة يوصف بها نظام الحكم

يعني نظام علماني ديمقراطي نظام شيوعي ديمقراطي نظام بعثي ديمقراطـــي نظـــام عهـــر ديمقراطي

أما نظام اسمه نظام ديمقراطي فهذا ليس موجودا على الإطلاق

عندما تقول:إننا نريد وونادي بنظام ديمقراطي

نريد أن نعرف ما هو هذا النظام الديمقراطي؟

هل هو إسلامي علماني إلحادي رأسمالي؟؟

ماهية هذا النظام ؟؟؟

عندما خرج الشعب المصري ينادي بإسقاط النظام لم نسمع منه شيئا عن ماهيـــة النظـــام الذي أراده مكان هذا النظام الذي أسقطه

ما نراه اليوم هو أن الجميع أسقط نظام ويبحث بين أنقاضه عن حجارة يرى أنها صـــالحه لبناء وإقامة نظام حكم جديد

صحيح أنه تم إدخال حجارة مكان حجارة تحطمت بسقوطها،ولكن البناء هو نفسه

نفس الجدران،نفس الشكل،نفس الغرف،نفس العدد

تستطيع أن تقول:إنه نظام تمَّ تجديده

لو كان الشعب حقا يريد نظاماً غير الذي كان لواصل هتافه ومسيرته واعتصامه لتحكيم النظام الذي يريده وخرج من أجله مفصحاً عنه علناً حتى لا تتداخل الأمـــور في بعضـــها البعض والكلُّ يغني على ليلاه ويعزف على وتره

إلى الآن لم يسقط شعبٌ نظاماً واحداً،وانما الذي أسقطوه هو حكومات

الكلُّ يتنافس ويتصارع للحل مكانها،للقيام على نظام حكم كان ألبسوه رداءً جديدا اسمه "الديمقراطيه"

يعني نفسه النظام السابق ولكن أضافوا عليه ديمقراطي

أيها الشعب أفصح عن ماهية النظام الذي تريد واثبت عليه

ولا تقل لنا إنك تريد نظاماً ديمقراطيًّا،لأن الديمقراطيه صفةٌ وليست بنظامٍ

أفصح عن ماهية النظام الذي تريده والذي صفته الديمقراطيه

نقِّط الحروف وشكِّلها حتى لا يلتبس الأمرُ على الناس

==========

قلت:

لا شكَّ أن في هذا الكلام كثيرا من الواقعية والموضوعية...

فغالب الشعب الذي ضحَّى بالغالي والنفيس لا يعرف ما هو النظام البديل عن هذا النظام الذي قام يعلن إسقاطه....

ولكن نقول لهذا الشعب وذاك:

أولا- لا يمكن أن يصلحنا أي نظام أرضي على الإطـــلاق - مهمـــا نمَّقـــه أصـــحابه وزركشوه- لأنه من صنع البشر القاصر - المتغير - الأهوائي - الشهواني.....

قال تعالى:{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِـــيمٌ } [النور:٦٣]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«خَمْسٌ بِخَمْسٍ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا خَمْسٌ بِخَمْسٍ؟ قَالَ:«مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ،وَمَا حَكَمُـــوا

بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ،وَلَا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ،وَلَا طَفَّفُوا الْمِكْيَالَ إِلَّا مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ،وَلَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلَّا حُبِسَ عَنْهُمُ الْقَطْرُ»[1115]

ثانيا- جميع الدول التي تتشدق بالنظام الديمقراطي تنتشر فيها جميع الموبقات والشهوات،ولا أمن فيها ولا أمان،ولا سعادة للإنسان،بل أكثر حوادث الانتحار والأمراض والنفسية والعقلية تسيطر عليها....

ثالثا- هذه الدول الديمقراطية هي التي تغزوا الشعوب المستضعفة وتنهب خيراتها وتهلك الحرث والنسل كما في أمريكا وغيرها باسم الديمقراطية.....

رابعا- لقد طبقت شعوبنا أو طبق عليها كل هذه الحلول المستوردة على أمتنا المسلمة منذ إقصاء الخلافة الإسلامية،فماذا جنت الشعوب الإسلامية إلا التخلف والبطش والنهب والسلب وضياع الحقوق والحريات والكرامة وتسليم بلاد المسلمين للكفار والفجار،والتبعية العمياء لأعداء الإسلام... قال تعالى:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [المائدة:٥٠]

خامسا- النظام الوحيد الذي يمكن أن يصلح البشر ويحقق لهم السعادة والأمن والأمانة والطمأنينة في الدارين إنه نظام الإسلام الذي هو من عند الله تعالى وليس من عند البشر،قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)} [آل عمران]

[1115] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٤٥)(١٠٩٩٢) صحيح لغيره

وقال تعالى:{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)}
[المائدة:٤٨،٤٩]

اللهم إني قد بلغت فاشهد

المبحث الأربعون

الإسلامي متهم حتى تثبت براءته وغيره بريء من كل التهم !!!!

الحمد لله وحده،وبعد..

أتحفظ دوما على استخدام مصطلح (الإسلامي)،ذلك أنني ما استطعت أن أعثر على فارق واحد بين ما يعتقده (الإسلامي) وبين ما يعتقده (المسلم)،بالإضافة إلى أنني وجدت أكثر من يستخدمه –ربما لحاجة في أنفسهم،وربما تكون بغية عزل (الإسلامي) عن المجتمع- هم أناس لا يرتضون منهجهم ورؤيتهم،حتى صار المصطلح عَلَما على كل من دعا أو أصّل لتبني النظرة الشمولية للإسلام،ولتطبيقه في دنيا الناس،بدءا من سياسة الدولة وحتى معاملة الرجل لأهله في بيته،وليت الأمر اقتصر على مجرد عزلهم،ولكن انضم إلى ذلك السعي الحثيث إلى تشويه صورتهم،بحيث تقولها بملء فمك:قد لاقت هذه الطائفة من صنوف الافتراء ما لم تلقه غيرها ربما ولا بنو يهود،لا لشيء إلا لأن الله قدر –ابتلاء لعباده وتمحيصا- أن يقع الإعلام بأيدي من يريدون بشتى الطرق إقصاءهم،مع أنهم –أعني الإسلاميين- قد بُحتْ أصواتهم وصدحوا بها مرارا:"لا نحملكم قسرا على تبني مشروعنا،بل نعرض ما لدينا ولتعرضوا ما لديكم،والشعب سيختار في النهاية ما يراه الأقرب للصواب والأنفع للبلاد"،ولكن قد أسمعت لو ناديت حيا! وشيئا فشيئا،أضحى الإسلامي دوما متهما حتى تثبت براءته،ودونه ودون حكم البراءة خرط القتاد! إذ كيف تُبرّأ ساحتك،وخصمك هو الحكم؟

العجيب،أن بعض الإسلاميين أنفسهم صار لديهم قدر من التبلد تجاه هذا الظلم،أو قل:استعذبوا الظلم بعد أن وقع عليهم عقودا،فقد ألِفه الإسلاميون يوم كان يمارس بصورة أخرى –ربما أشد بغيا وقهرا-،حين كان الواحد منهم يوقن مع صباح أول يوم يدعو فيه إلى اتباع السنة وتبني النظرة الشاملة للإسلام أنه قد صار عرضة لأن يُستل من بين أهله وأولاده أو أن ينتزع من بين أحضان والديه في جوف الليل،مدانًا بشتى التهم التي سوف

يتذرع بها جهاز أمن الدولة لرميه خلف القضبان،وذلك بعد فاصل من الصعق والجلد وربما السلخ! ووالله إنها لآهات وزفرات كتمتها صدورهم،وتالله ما لاقى أحد في هذه البلاد ما لاقوه،حتى صار كل بلاء بعده يسير!

وكان الإعلام –بمختلف صوره،لاسيما في حقبة التسعينات– يمهد ويسعى في إضفاء شيء من الغطاء الشرعي على هذا القمع منقطع النظير،فكان السيناريست الموهوب يؤلف الرواية،والفنان يبدع في عرضها على شاشات السينما،وضابط أمن الدولة يجرجر إلى غيابة الجب.

كنا نراهم يغضون الطرف عن كل فساد في البلاد،ويتقصدون هؤلاء الشباب ويقعدون لهم كل مرصد،فكل مجرم بريء وإن امتص دماء الشعب جهارا وبكل تبجح،بينما من دعا إلى الله –وافقناه في طرحه أو خالفناه – فهو أخطر خلق الله على أمن البلاد.

وإنا لنحمد الله أن ثبتنا،فلقد كدنا نركن إليهم شيئا قليلا،ولكنّ الله –وله الحكمة البالغة– قدّر عليهم لونا جديدا من البلاء،إذ صاروا فاكهة مجالس الغيبة والنميمة والبهتان على برامج الحوار وعلى المواقع الإليكترونية –وكأنه عقاب لهم أن تنسموا عبير الحرية كمنا تنسمه غيرهم–،بحيث لو خلا المجلس من افتراء عليهم لظننت أن أمرا غريبا قد طرأ،ولكن الذي لعله يخفى على البعض،أن أشد صور هذا البلاء إيذاء وجرحا لهم:هو ظلم ذوي القربى.

كم كان الواحد منهم يحزن إذا ما اعتقله ظَلَمَة أمن الدولة بدون وجه حق،ثم يبلغه أن جيرانه وخلّانه يتناولون أخبارا مفادها أن فلانا كان يخطط لعمل إرهابي أو شيء من هذا القبيل،مرددين ما يبثه ضابط الأمن وكأنه الصادق المصدوق. وكذلك،فإن ما يُقطّع نياط قلوبهم اليوم،أن يروا إخوانهم وأصدقاءهم ممن لا ينتمون لتيار بعينه يرددون كلام الإعلام الجائر،دون تمحيص ولا تثبت ولا حتى عرض على منطق العقل،فهذه والله إحدى الكبر..

وعلى الرغم من وجود قائمة طويلة من التهم التي كان من الممكن أن يُرمى بها الإسلاميون،إلا أن الإعلام ومن تأثر به ممن لا يتقي الله في إخوانه قد آثر أن ينتقي من بينها كلها تهمة (المتاجرة بالدين)،ولو كان المجتمع معتادا على استخدام مصطلح (النفاق) لبادروا بالتصريح به،وهي أشد التهم وطأة على القلوب،إذ أن المؤمن الصادق قد يتحمل شتى الافتراءات ومختلف الطعونات في عرضه،أما الرمي بالنفاق والغدر والخيانة،فلها وقع مختلف كما لا يخفى،وقد كان من أشد البلاء الذي لاقاه النبي ﷺ أن قيل عنه (ساحر كذاب)،ولذا فقد واساه ربه في أكثر من موضع،وهوّن عليه حين قال:{ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)} [الأنعام:٣٣،٣٤].

وفي نظري،فإن أبلغ ما يبين مقدار الظلم الواقع على القوم،هي تلك الثنائيات التي تبين بلوغ القوم في التناقض منتهاه،لو تأملها منصف للاح له كيف جافى هؤلاء –عفا الله عنهم- العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض،فعلى سبيل المثال:

-مثّلت الأفلام والمسلسلات شتى التوجهات الفكرية والأخلاقية وأظهرت أصحابها في أبهى صورة،بينما لا تجد مسلسلا أو فيلما واحدا قدّم لنا رجلا متدينا ناجحا،بل إما (إرهابي) يفجر ويكفّر،أو (درويش) لا يفقه شيئا في دنيا الناس،أو (صاحب شركة توظيف أموال)،أطلق لحيته ليتاجر بالدين.

-حكم الاشتراكيون والقوميون وغيرهم البلاد من قبل،وأُعطوا الفرصة كاملة،وتفاوتت درجات نجاحاتهم وإخفاقاتهم،أما الإسلامي،فمحكوم على مشروعه بالفشل قبل أن يخطه على الورق.

-إن طرحت كل الطوائف رؤيتها للدستور كان ذلك رقيا حضاريا وإثراء للحراك السياسي،فإذا ما تمور إسلامي وطرح نموذجا لدستور إسلامي،صار على الفور واضعا لبذور الفتنة الطائفية.

-إن شارك الإسلامي في العمل السياسي كان ولا ريب طامعا في السلطة،وإن شارك كل الناس غيره كانوا أصحاب برامج نهضوية وغيرة وطنية.

-إن خرج مرشح إسلامي للرئاسة في حديث إعلامي،حُشر في خانة ضيقة وتوالت عليه أسئلة الإرهاب الفكري:هل كذا عندك حرام أم حلال؟ ألا ترى أن رؤيتك تكرس للتطرف والانعزال؟ كيف ستحل أزمة كذا وأنت تتكلم بالحلال والحرام؟ فإذا ما خرج مرشح غيره،فرشت له الأرض بالورود،وسئل عن برنامجه ورؤيته للنهوض بالبلاد،بل وقدمت له الأسئلة المفتوحة التي لو أجاب عليها بأي جواب لنال إعجاب الجمهور!

-فإذا ما تولى إسلامي الحكم،في مثل هذه الظروف العصيبة إلى أبعد حد،فحقق نجاحا نسبيا،فسوف يقال على الفور:ها قد فشلت تجربة الإسلام السياسي،فنحن (محلك سر)،فإذا ما تولى غيره،ولم يحقق مثقال حبة من نجاح،فسوف يقال:(قد ورث تركة مثقلة،وأصلح ما استطاع).

-إنْ رفض رأس طائفة الأقلية حكم المحكمة إذ تعارض مع عقيدته وشريعته،كان الإنصاف يقتضي أن نحترم رأيه بل ونثني على حزمه وجده في نصرة شريعته وإن خالفناه فيها،فإذا ما نادى إسلامي بإسقاط كل قانون يخالف شرعة الله،-والإسلام دين الأغلبية- كان متعصبا متشددا رجعيا فاته قطار الحضارة.

-إذا ما أخطأ شيخ على قناة إسلامية في حق رمز ليبارلي،توعده بحرب ضروس وصرح بسعيه في إغلاق القناة! فإذا ما تواطأت قنوات الأرض جميعها على تشويه صورة الإسلاميين،كان ذلك من قبيل:(منبر الرأي والرأي الآخر!).

- إنْ دعا إسلاميٌّ إلى التظاهر مرة في العام:قالوا سيخرّب البلاد ويعطل الإنتاج،فإذا ما دعا غيره إلى التظاهر بصفة شبه (أسبوعية)،كان مناصرا للحرية حريصا على مكتسبات الثورة،وكان التظاهر حقا مشروعا ما لم يضر.

-إن رفع الإسلاميُّ مطالبه التي يرى فيها صلاح البلاد،صار مفرقا للجماعات مرسخا للشقاق،فإن رفع غيره مطالبه الخاصة،قيل:وما الضير،له مطالب يسعى لتحقيقها بالوسائل المشروعة،والتظاهر من الوسائل المشروعة!

-فإنْ رفع الإسلاميُّ المطالب التوافقية التي يحلم بتحقيقها كما يحلم غيره من المصريين،صار على الفور متاجرا بها،متلاعبا بعواطف الشعب،وإن رفع غيره نفس المطالب كان ساعيا لتوحيد الصف.

-إن طالب الإسلاميُّ باحترام رأي الأغلبية صار متهما باستغلال الديمقراطية لتحقيق مآربه،وإن طالب غيره بتهميش رأي الأغلبية كان الأدرى بمصالح (الغلابة المستغفلين)!

-إن جاء سياسيٌّ بما ينافي كل الأخلاق:قالوا وأي علاقة بين السياسة والأخلاق،ثم هو بشر يصيب ويخطئ،وإن أخطأ إسلامي:قالوا على الفور:هذا الذي يريد أن يسوس الناس،انظروا إلى أخلاقه وكيف يعامل غيره!

-إذا ما ظهرت التوقعات –فقط توقعات- بفوز الإسلاميين في انتخابات نزيهة للبرلمان يعلن فيها الشعب عن اختياره،بنسبة تمنحهم الأغلبية في اللجنة التأسيسية لصياغة الدستور،ظهر الاعتراض:كيف تستأثر جماعة بعينها بوضع الدستور،فإذا ما استأثر أفراد معدودون لم يختر الشعب واحدا منهم بصياغة مواد حاكمة غير قابلة للنقض تخضع لها كل مواد الدستور ولا تخضع لاستفتاء الشعب،كان ذلك سعيا (للوفاق الوطني)!

-إذا تكلم شيخٌ في السياسة بكلام مجمل متفق عليه،قالوا:(من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب)،فإذا تكلم فنان أو روائي مثلا في أدق التفاصيل السياسية في البلاد،كان مثقفا واسع الاطلاع.

-الإسلاميُّ موضوعٌ تحت المجهر في كل تصرفاته وأيا كان تخصصه،مُطالب دائما بأن يكون في تعاملاته المالية والاجتماعية وفي حياته كلها ملكًا يمشي على الأرض،فإذا ما دعاهم الإسلامي إلى تطبيق الشريعة في جميع مجالات الحياة،قالوا:ربك رب قلوب،والدين علاقة بين العبد وربه.

-إذا ما قام حزب ذو مرجعية إسلامية،قالوا لا يصح قيام الأحزاب على أساس ديني،فإذا ما قام حزب يساري أو ليبرالي،قالوا:وما الضير،فكلما كان المتحزبون أكثر توافقا في الأفكار:كان ذلك لإنجاح مشروعهم أقرب.

-إذا ما انتقد إسلاميٌّ منهجا يراه مخالفا لرؤيته:قالوا (إقصائي لا يرضى بغيره)،فإن رمى غيره الإسلاميين كافة بكل نقيصة،من تطرف وتشدد ورجعية،فقيل له:أنت بهذا تحرض عليه وتقصيه! قال:إنما أحذر من التطرف والإقصائية!

-إذا ما دعا الإسلاميون إلى حشد الناس للدفاع عن إرادة الشعب التي لا ترضى تعديا على جناب الشريعة:صاروا أهل فتن وقلاقل،فإذا ما دعا غيرهم إلى تدخل أمريكا وإسرائيل لحماية مصر من بطش الإسلاميين،دوفع عنهم،والتُمس لهم العذر أن قد لقوا من التهميش ما لا يليق!

-يحاكم الإسلاميون دائما إلى تجارب (إيران) أو(السعودية)،فيقال:(أهذا هو نموذج الحكم الإسلامي؟ أتريدون ترسيخا للديكتاتورية؟) فإذا ما حاكمت ليبراليا إلى تجربة أمريكا وإمبرياليتها التي استعبدت بها العالم بأسره،قالوا:(نحن في مصر،ولكل بلد ثقافته وظروفه،فمالي ولأمريكا؟!) و(صلاح المنهج لا يستلزم وجود النموذج الصالح في كل وقت).

-إن أخطأ إسلاميٌّ على شاشات الإعلام،تحمل الإسلاميون كلهم وزر خطئه،وإن أخطأ غيره:فلا يمثل إلا نفسه،ويكون التعميم عين الظلم.

-إن أخطأ شيخٌ في مسجد مغلق،تناقلت وسائل الإعلام خطأه ليدخل كل بيت،وإن أخطأ غيره ربما بما هو أشد إيذاء لمشاعر الناس على شاشات الفضائيات،غُض الطرف عن خطئه خشية إثارة الفتن في هذه الظروف الحرجة التي تمر بها البلاد.

-يحاكم الإسلاميون إلى بعض الممارسات التي قام بها من سبقهم في الثمانينات مع أن أحدا منهم لم يقرها،فإذا حاكمت غيرهم لممارسات سلفهم ممن تبنوا أيديولوجياتهم في أوائل القرن العشرين قال:اسألني عن نفسي،فإنه (لا تزر وازرة وزر أخرى).

-إذا فاز الإسلاميون في انتخابات مجلسي الشعب والشورى،صاروا أهل تدليس واستغفال لجهلة العوام وفقيري الثقافة،وقيل:ليس هذا تعبيرا عن وزنكم الحقيقي،فإذا ما سألت

صاحب هذا الادعاء:وهل من الممكن أن يستغفل الإسلاميون طبقة المثقفين،فيفوزوا بمقعد نقيب الصيادلة مثلا،قال:وارد أيضا،ولكن بطرق أخرى لا أعلمها.

-إن أخطأ إسلاميٌّ،صار المنهج ذا خلل يخرج دائما منتجا مشوها،فإن أخطأ غيره،رُفع على الفور شعار:(المنهج صحيح متكامل،والفرد غير معصوم من الخطأ).

السؤال الخطير الآن:لماذا هذا الارتباط عند القوم بين الدين وبين هذه التهم؟ هل المراد تنفير الناس من (المتدينين) أم من (الدين)؟ هل الهدف أن يقال:إن الإسلام دين نظري،أفكار وقيم سامية،لكنه غير صالح للتطبيق في دنيا الناس،وإلا فأخرجوا لنا نموذجا يحتذى؟!

الإسلاميُّ عند القوم –سامحهم الله- لو حك رأسه لاتهم بحك الرأس مستغلا الدين لتحقيق مصالح شخصية،وإنك لتعجب:إن كان الأصل أن يُحكم بالنفاق على كل من يظهر الدين ويدعو إليه،فأين الصادقون المخلصون المتدينون الخلص؟!

أخبرونا يا عباد الله كيف ندعو إلى الدخول في السلم كافة كما أمرنا ربنا،بدون أن نُرمى بالنفاق والمتاجرة بالدين؟

أشيروا علينا:كيف نساهم في بناء مصرنا الجديدة،دون أن نوصم بالغدر والخيانة؟

هل لديكم نموذج لمسلم التزم شرع ربه وجاهد في الدعوة إليه،وما تاجر بالدين أو استغفل خلق الله؟

للأسف،هم يريدون مسلما يتعبد الله في بيته أو مسجده لا يراه مخلوق فضلا عن أن يسمع دعوته،فإذا خرج داعيا لتحكيم الشرع في معاملات المجتمع وفي سياسة الدولة،فهو مسيلمة القرن الحادي والعشرين.

أي ظلم هذا وأي قهر هذا؟

أي فارق إذاً بين فعلهم –سامحهم الله وأصلح حالهم- وبين فعل قريش،حين ساءهم أن يدعو النبي ﷺ إلى إله واحد،{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ

الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)} [ص:٥ - ٧]،ما هذا لوجه الله أبدا،بل لأمر يريده محمد يوشك أن يفتضح أمره!

فعلوا ذلك،وقد علموا أنه أصدق الناس قولا وأعف الناس لسانا وأكثر الناس حرصا على مصالح الخلق.

الإسلاميون ليسوا معصومين،ومن ادَّعى ذلك فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان،ولكن اتباع المنطق السليم يصل بنا –ولابد- إلى نتيجة،هي أنه طالما كان الدين مهذِّبا للأخلاق مزكِّيا للنفوس محسِّنا للمعاملات،فطبيعي –وهذا واقع- أن تتضاءل مخالفات من حاول تطبيقه –كما وكيفا- مقارنة بمخالفات غيره،وإن كانت ستظل موجودة بقدر،فكيف يعكس الأمر بالكلية،ويبلغ حد (الاقتران الشرطي)،بحيث لا يُذكر المتدين إلا وتذكر المخالفات الأخلاقية؟!

هذا والله ظلم لا يقوى صاحبه على تحمل تبعاته لا في الدنيا ولا يوم يعرض على ربه،وهو أبلغ إساءة للدين الخاتم الذي رضيه الله لعباده.

يا أفاضل..والله ما خرج الإسلاميون يوم خرجوا يدعونكم ويطرحون أمامكم رؤيتهم إلا تأسيا بأنبياء الله،متمثلين قول ربهم حاكيا عن نوح عليه السلام:(وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم)،هذا والله هدفهم،وهذه غايتهم التي أعلنوها،سعادة الناس ونجاتهم في الدنيا والآخرة،فإن حاد عن الطريق أحدهم،فلكم في يوسف عليه السلام أسوة حسنة:{قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ} [يوسف:٧٩].

إنْ كان الإعلام قد آثر سلوك هذه الطريق،فأقسمنا عليكم معاشر المسلمين لسلكتم طريق التثبت والتبين وتقديم حسن الظن،قبل أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

أما الإعلام،فقسما بالله العظيم،إنه لن يفلح يوما في أن يزيل التدين مـــن الوجود،بـــل إن جذوره تتمادى ضربا في باطن الأرض كلما زاد بغي خصومه،والله يحكم بيننا وبينهم يوم القيامة،وإنا أو إياهم لعلى هدى أو في ضلال مبين.[١١١٦]

قلت:

وهذا يحدث في كل مكان في العالم الإسلامي

واليوم يحدث هذا في سوريا سواء في الداخل أو في الخارج

أما في الداخل فيتهم المتظاهرون الذين يصدحون ب لا إله إلا الله والله أكبر بكل التـــهم الكاذبة الفاجرة

بينما من يعبدون الأسد ويصدحون بهذه العبادة ليل نهار لا أحد مـــن مشـــايخ النفـــاق والبلاط ينتقدهم بكلمة واحدة

وأما خارج سورية:

فغالب أطياف المعارضة السورية من شيوعيين وملحدين وعلمانيين وحـــداثيين يريـــدون تحييد الدين من الثورة السورية ومن بناء سورية الحديثة فيما بعد سقوط الطاغية الصنم

فهذا يرفض تحكيم الدين الإسلامي لأن من يطلب تحكيم الإسلام هو طائفي

وذاك يرفض تحكيم الإسلام لأن الزمان قد تجاوزه

وهذا يقول:الدين علاقة بين الإنسان وربه ولا علاقة له بالحياة

بينما يعتبرون أننا إذا استوردنا عفن الحضارة الغربية وشر ما عندهم أنه فتح عظيم وهـــو الذي سوف يرتقي بنا صعدا نحو درجات الكمال....

لكن نقول للجميع:

هذه الثورة إسلامية بحتة ولا أحد له فضل عليها غير الإسلام

ولن نقبل بغير الإسلام بديلاً رغما عن أنوفكم وأنوف أساتذتكم

[1116] http://www.nahdaislah.com/article/-%D١٦%AA...%٩٧%٨٧aspx.

فالإسلام ليس من صنع أمريكا ولا الغرب ولا الشرق ولا أحد من الخلق...

إنه دين الله تعالى الذي ارتضاه لخلقه جميعا،قال تعالى:{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]

يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ:اليَوْمَ يَئِسَ الكُفَّارُ مِنَ القَضَاءِ عَلَى دِينِ اللهِ،وَمِنْ رُجُوعِ المُؤْمِنِينَ عَنْ دِينِهِمْ،لِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيكُمْ،إِذْ وَفى بِوَعْدِه،وَأَظْهَرَ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ،فَلاَ تَخَافُوهُمْ فِي مُخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُمْ،وَاخشوني أنا،فَأَنَا أَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ،وَأَجْعَلُكُمْ فَوْقَهُمْ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ.

ثُمَّ يَقُولُ مُخَاطِباً المُؤْمِنِينَ:إِنَّهُ أَكْمَلَ لَهُمُ اليَوْمَ دِينَهُمُ الإِسْلاَمَ،فَلاَ يَحْتَاجُونَ إِلى دِينٍ غَيْرِه،وَلاَ إِلى نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ. وَلَمَّا أَكْمَلَ اللهُ لَهُمْ دِينَهُمْ تَمَّتْ عَلَيهِمْ نِعْمَةُ رَبِّهِمْ،فَلْيَرْضَوْا بِالإِسْلاَمِ ديناً لَهُمْ،فَإِنَّهُ الدِّينُ الذي أَحَبَّهُ اللهُ وَرَضِيَهُ لَهُمْ.[1117]

ولن يقبل الله تعالى دينا آخر أو تشريعا آخر غير الإسلام الذي أنزله،قال تعالى:{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران:٨٥]

مَنِ ابْتَغَى ديناً لاَ يَقُودُهُ إِلَى الإِسْلاَمِ الكَامِلِ للهِ،وَالخُضُوعِ التَّامِّ لَهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،فَلاَ يُقْبَلُ مِنْهُ هَذا الدِّينُ،وَيَكُونُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ،لأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ سَلَكَ طَرِيقاً غَيْرَ مَا شَرَعَهُ اللهُ.

ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين،دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها. وهي توحيد الألوهية وتوحيد القوامة. ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه. ودون أن يتبع شهادة أن محمدا رسول الله معناها وحقيقتها. وهي التقيد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة،واتباع الشريعة التي أرسله بها،والتحاكم إلى الكتاب الذي حمله إلى العباد.

ولن يكون الإسلام إذن تصديقا بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله.. دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملي،وحقيقته الواقعية التي أسلفنا..

[1117] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات،أو إشراقات وسبحات،أو تهذيبا خلقيا وإرشادا روحيا.. دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج للحياة موصول بالله الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر،والإشراقات والسبحات،والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد.. فإن هذا كله يبقى معطلا لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصب آثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في إطاره النظيف الوضيء.[1118]

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة،باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية،يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح. فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله. والتسامح يكون في المعاملات الشخصية،لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي.. إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام،وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلا ولا يقبل فيه تعديلا – ولو طفيفا – هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ».. «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ».. «وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ».. «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ.. بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».. وفي القرآن كلمة الفصل.. ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين! ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة والتي يترل القرآن من أجلها بهذا التحذير:«فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ،يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ».. روى ابن جرير عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:جَاءَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ مِنْ بَنِي الْحَرْثِ بْنِ الْخَزْرَجِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لِي مَوَالِيَ مِنْ يَهُودَ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودَ وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ:إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدَّوَائِرَ ، لَا أَبْرَأُ مِنْ وِلَايَةِ مَوَالِيَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ:«يَا أَبَاالْحُبَابِ مَا بَخِلْتَ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودَ عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَهُوَ إِلَيْكَ دُونَهُ» قَالَ:قَدْ قَبِلْتُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

[1118] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٦٩٤)

آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}[المائدة:٥١] إِلَى قَوْلِهِ:{فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}[المائدة:٥٢] "[1119]

إن الغاية التي تسعد العالم كله هي دين الإسلام،ومن يرد دينا غير ذلك فلن يقبله الله منه. فإن كان هناك من لا يعجبه تقنين السماء ويقول مندهشا:إن في هذا التقنين قسوة؛ إنك تُقطع يد إنسان وتشوهه نرد على مثل هذا القائل:إن سيارة تصدم سيارة تشوه عشرات من البشر داخل السيارتين،أو قطار يصاب بكارثة فيشوه مئات من البشر.

ونحن عندما نبحث عن عدد الأيدي التي تم قطعها في تاريخ الإسلام كله،فلن نجدها إلا أقل كثيرا من عدد المشوهين بالحوادث،وأي ادعاء بالمحافظة على جمال الإنسان مسألة تثير السخرية؛ لأن تقنين قطع يد السارق استقامت به الحياة،بينما الحروب الناتجة عن الهوى شوهت وأفنت المئات والآلاف،إن مثل هذا القول سفسطة،هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب؟ لا،إن تشريع العقوبة يعني تحذير الإنسان من أن يرتكب الذنب.

وعندما نقول لإنسان:«إن قتلت نفسا فسيتولى ولي الأمر قتلك» أليس في ذلك حفاظ على حياته وحياة الآخرين؟ وحين يحافظ التشريع على حياة فرد واحد فهو يحافظ في الوقت نفسه على حياة كل إنسان،يقول الله تعالى:{وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٧٩].

وهكذا يصبح هذا التقنين سليما غاية السلامة،إذن فقول الحق سبحانه:{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} يدلنا على أن الذي يشرع تشريعا يناقض ما شرعه الله فكأنه خطأ الله فيما شرع،وكأنه قد قال لله:أنا أكثر حنانا على الخلق منك أيها الإله؛ لأنه قد فاتتك هذه المسألة.

وفي هذا القول فسق عن شرع الله،وعلى الإنسان أن يلتزم الأدب مع خالقه. وليرد كل شيء إلى الله المربي،وحين ترد أيها الإنسان كل شيء إلى ربك فأنت تستريح وتريح،اللهم إلا أن يكون لك مصلحة في الانحراف. فإن كان لك مصلحة في الانحراف فأنت تريد غير

[1119] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٠٥) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٠٤) وفيه انقطاع

ما أراد الله،أما إذا أردت مصلحة الناس فقد شرع الحق ما فيه مصلحة كل الناس؛ لـــذلك قال الحق:{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين}.[1120]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[1120] – تفسير الشعراوي (٣/ ١٥٩٥)

المبحث الحادي والأربعون
أعداء الثورة السورية

لكل ثورة بعد نجاحها أعداء يسعون بكل ما أوتوا إلى محاربة هذه الثورة والعمل على إفشالها ، والراصد للثورة السورية يلحظ أن لها أعداء خمس هم:

١- فلول النظام:

وفلول النظام وهم أعوانه المنافقون ومن سيتبقى منه من رجال أمن الدولة ورجال الأعمال ورجال الحزب وغيرهم ، وهؤلاء قد أيقنوا أن حياة الثورة ممات لهم ، وأن المكاسب التي حققوها إبان العهد السابق عرضة للخطر ، وأن من كانوا يحمونهم ويفتحون لهم أبواب الفساد والتربح وعقد الصفقات المشبوهة سيسقطون سقوطا مريعا

ولذلك وجب التبيه على كيد هؤلاء ومكرهم

٢- بعض أعضاء الجماعات الدينية:(ممن أسموا أنفسهم بالعلماء والمفكرين والمثقفين)

فهناك بعض من أعضاء الجماعات الدينية والذين مازالوا يحرمون المظاهرات بكافة أشكالها وأنواعها ، وهؤلاء بجهلهمن عملوا على إذكاء نارالعداء لشعبهم المظلوم من حيث لايعلمون وغرسوا بذور الفرقة بين الشعب ولو نطقوا بالحق لكان خيرا لهم.

ولقد وجدنا كثيرا منهم سقطوا من أعين الناس لأنهم وقفوا مع الظالم وأعانوه وقد عارضوا التظاهر منذ البداية ومازالوا حتى الآن يقولون بحرمة التظاهر وليتهم سكتوا بل ويعملون على إشعال نيران الفتنة وطرح قضايا ليس هذا زمانها ولا مكانها لتفريق شأن الأمة. وهم كثر لاكثرهم الله لذلك وجب الحذر منهم

٣- الأنظمة العربية:

فهناك بعض الأنظمة العربية وبخاصة الدول الخليجية التي حاولت إفشال الثورة السورية بكل ما أوتيت من أموال ، وما زالت تضغط على السوريين عبر التضييق عليهم في قوانينهم

ولكن لنا الله في سوريا فلا نريد منهم أي دعم ولكن ليسكتوا عن إعانتهم للظلمة

٤- التدخلات الخارجية:

منذ بدأت الثورة وحتى الآن مازالت ستقدم اسرائيل وامريكا تقدمان دعمهما الكامل للنظام الاسدي وهذا لايخفى على كل ذي لب ومن قال بغير ذلك فهو جاهل
.ووالله ثم والله

اسرائيل لو أستطاعت وضع كل امكانيتها الدعائية والامنية والعسكرية والتكنولوجية والسياسية في تصرف النظام لماقصرت

فالنظام الاسدي احبيبها وربيبها و ستحرص اسرائيل على قمع التحركات الشعبية ضده في داخل سورية وفي جميع المدن العالمية.

وودوا لو وأدوا الثورة في مهدها وهؤلاء حربنا معهم طويلة حتى تحرير الاراضي المغتصبة كلها

٥- بعض العوام البسطاء:

وهناك بعض الناس البسطاء من العوام وغيرهم ممن ألفوا الاستكانة للظلم والرضا به ، وظنوا أن سعادتهم ومصالحهم الشخصية في بقاء الأمور على ما كانت عليه ، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان وهؤلاء يتعجلون الأمور ، وتجلس مع أحدهم فيصيبك بالإحباط ويهاجم الثورة ومن قام بها ، ويقول لقد تعطلت مصالحنا وهناك أزمات في البلد واعتبرهؤلاء من أعداء الثورة على الرغم من نياتهم الحسنة وعدم إدراكهم لحقيقة الأمور لأنهم يشيعون روح اليأس والإحباط في الناس وهم بذلك يشاركون أعداء الثورة الحقيقيين في التطبيل والتزميرللنظام ومعاداة كل جديد قادم.

وهؤلاء نسأل الله أن يهديهم

فخمسة شهور وهم في سذاجتهم ولايعرفون شيئا فهذا غباء غير محدود

نسأل الله أن يرد كيد أعداء الثورة في نحورهم ويعيذنا من شرورهم

جزاك الله خيرا أخي السلفي وسدد خطاك

أولا– لا شك أن أعداء الثورة كثر فأولهم المستفيدون من النظام وهم كثر كالذي يتعامل بالربا والقمار والزنا وأكل أموال الناس بالباطل والنهب والسلب والغش والاحتكار والاحتيال وأقارب النظام فهؤلاء ومن لفَّ لفهم لا شك أنهم ينظرون إلى المسألة بالميزان الضيق البعيد عن الإيمان بيوم القيامة

ومثل هؤلاء كمثل قوم شعيب عليه السلام،قال تعالى:{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)} [هود:٨٤ - ٨٧]

ومثلهم مثل قوم لوط عليه السلام {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النمل:٥٦]

بل قالها كل المترفين سابقا،قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)} [سبأ:٣٤،٣٥]

فهي قصة معادة،وموقف مكرور،على مدار الدهور. وهو الترف يغلظ القلوب،ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل،ولا تتفتح للنور.

النوع الثاني –أما زعماء بعض الجماعات الدينية في الشام فهؤلاء قد اشتراهم النظام منذ زمان ومن ثم فهم يدافعون عن هذا النظام الطاغوتي دفاع المستميت ويزينون له الباطل،وهم بلاعمة العصر،وهم أخطر على أمة الإسلام من الدجال بيقين،فعن أَبِي تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ،يَقُولُ:كُنْتُ مُخَاصِرَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا إِلَى مَنْزِلِهِ،فَسَمِعْتُهُ

يَقُولُ::"غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِي مِنَ الدَّجَّالِ " فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَدْخُلَ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَيُّ شَيْءٍ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِكَ مِنَ الدَّجَّالِ؟ قَالَ:"الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ "[1121]

فهؤلاء يخدعون عامة الناس باسم الدين،وقد باعوه بثمن بخس،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ مِنْ أَسْوَأِ النَّاسِ مَنْزِلَةً مَنْ أَذْهَبَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ»[1122]

لقد حضرت درسا في الثمانينات للدكتور عبد اللطيف فرفور في السادات بعد العشاء وقد أخذ يثني على النظام الحاكم ثناء عجيباً وليس له أي محل درسه

وقال زورا وبهتانا:

نحن لم نر الأمن والأمان والطمأنينة إلا في هذا العهد الميمون يعني عهد المقبور حافظ الأسد فتأمل يارعاك الله وتألم !!

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ،قُلْتُ:مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ:هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّذِينَ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ،وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ،أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟ "[1123]

النوع الثالث– الأنظمة العربية:

إن موقفهم طبيعيٌّ تماماً،لأنهم جميعاً جاءوا بعد اتفاقية سايكس بيكو وهم لا يمثلون الشعوب بل يمثلون من نصبهم كابوسا على صدور الأمة،ومن ثم فلا يقلُّون خطرا ونهباً وسلباً وإجراماً عن الأسد،وهؤلاء جميعا كانوا من التحوت،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ،وَالْبُخْلُ،وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ،وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ،وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ،وَتَظْهَرَ التُّحُوتُ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوُعُولُ وَالتُّحُوتُ؟ قَالَ:«الْوُعُولُ:وجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ،وَالتُّحُوتُ:الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ».[1124]

1121 - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ٢٢٣)(٢١٢٩٧) صحيح لغيره

1122 – مسند أبي داود الطيالسي (٤/ ١٥١)(٢٥٢٠) حسن

1123 – الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٤٠)(٢٤٤) حسن

1124 – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٥/ ٢٥٨)(٦٨٤٤) صحيح

وهم يمثلون المرحلة الرابعة من مراحل نظام الحكم في الإسلام وهو الملك الجبري القهري

فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ "[1125]

وهم المنافقون من هذه الأمة،فعَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ،سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو،يَقُولُ:«إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُوضَعَ الْأَخْيَارُ ، وَيُرْفَعَ الْأَشْرَارُ ، وَيَسُودَ كُلَّ قَبِيلَةٍ مُنَافِقُوهَا»[1126]

وعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ قَيْسٍ الرُّعَيْنِيِّ،أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَسُودَ كُلَّ قَبِيلَةٍ مُنَافِقُوهَا»[1127]

النوع الرابع – التدخلات الخارجية:

إن ملة الكفر واحدة قال تعالى:{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال:٧٣]

وهم أعداء للأمة المسلمة عبر تاريخها الطويل،قال تعالى:{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [البقرة:١٢٠]

بل كلهم إذا ظفر بنا لا يرقب فينا إلا ولا ذمة،قال تعالى:{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا

1125 – مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٣٥٥)(١٨٤٠٦) صحيح

1126 – السنن الواردة في الفتن للداني (٤/ ٧٩٩)(٤٠٣) صحيح

1127 – السنن الواردة في الفتن للداني (٤/ ٨٠٠)(٤٠٤) صحيح

لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)} [التوبة:٧ - ١٠]

بل هم حريصون على إضلالنا وإبعادنا عن ديننا ليل نهار،فعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»،فَقَالَ قَائِلٌ:وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:«بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ،وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ،وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:«حُبُّ الدُّنْيَا،وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[1128]

ومن ثم يحرم توليهم والثقة بهم،قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) } [آل عمران:١١٨ - ١٢٠]

فامر طبيعي أن يكونوا مع النظام الطاغوتي في الشام ضد أهل الشام لأنهم يريدون الحفاظ على مصالحهم،ويريدون حماية ظهر اليهود،ويريدون الحفاظ على مخططاتهم الخبيثة،ويريدون سحق الصحوة الإسلامية بكل ما أوتوا من قوة { وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [يوسف:٢١]

النوع الخامس –بعض العوام البسطاء:

وهذا أمر طبيعي في كل زمان ومكان،إذ كان غالب الناس يتبعون الأقوى والإغراء....

[1128] – سنن أبي داود (٤/ ١١١)(٤٢٩٧) صحيح

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل إما أن تربح ربحا معينا محددا في هذه الأرض،وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحا وأيسر حصيلة! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية – والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان – يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة،ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله،باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات!.. ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف،وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضا. وأنه من ثم لا تنضم إليها – في أول الأمر – الجماهير المستضعفة،إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله،التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة،وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا. وأن عدد هذه الصفوة يكون دائما قليلا جدا. ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق،بعد جهاد يطول أو يقصر. وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجا.[1129]

وأخيرا نقول:

إن أعداء الثورة السورية كثر في الداخل والخارج ولكن هذا أمر طبيعي في الصراع بين الحق والباطل،وهذه الثورة المباركة سوف تغربل الناس،فلا يبقى ثابتاً فيها إلا أخيار الناس الذين هم أخيار الشام،فعَنْ عُقَيْلٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي مَكْحُولٌ،أَنَّ رَجُلًا،مِنْ بَنِي حَوَالَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَيَكُونُ جُنْدٌ بِالْعِرَاقِ ، وَجُنْدٌ بِالشَّامِ ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ» ، قَالَ:فَقُلْتُ:اخْتَرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ ذَلِكَ ، قَالَ:«عَلَيْكَ بِالشَّامِ ، فَإِنَّهَا صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ أَرْضِهِ ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا صَفْوَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ»[1130]

1129 – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٦٨٢)

1130 – السنن الواردة في الفتن للداني (٤/ ٩٤٣)(٤٩٩) صحيح

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَوَالَةَ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:" وَاللَّهِ لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِيكُمْ حَتَّى تُفْتَحَ لَكُمْ أَرْضُ فَارِسَ وَالرُّومِ ، وَأَرْضُ حِمْيَرَ ، وَحَتَّى تَكُونُوا أَجْنَادًا ثَلَاثَةً:جُنْدًا بِالشَّامِ ، وَجُنْدًا بِالْعِرَاقِ ، وَجُنْدًا بِالْيَمَنِ " ، فَقُلْتُ:اخْتَرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ ، قَالَ:«أَخْتَارُ لَكَ الشَّامَ ، فَإِنَّهَا صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ بِلَادِهِ ، وَإِلَيْهَا يَجْتَبِي صَفْوَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَعَلَيْكُمْ بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ ، فَإِنَّ صَفْوَةَ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ»[1131]

وعَنِ ابْنِ حَوَالَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً جُنْدٌ بِالشَّامِ،وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ،وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ»،قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ:خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ،فَقَالَ:«عَلَيْكَ بِالشَّامِ،فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللَّهِ مِنْ أَرْضِهِ،يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ،فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ،فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ،وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ»[1132]

وسوف تنتصر بإذن الله تعالى على عدوها وعدو الإنسانية الطاغية الصنم بشار الأسد،قال تعالى:{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)} [النمل:٤٨ - ٥٣]

وقال تعالى:{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

[1131] - السنن الواردة في الفتن للداني (٤/ ٩٤٤)(٥٠٠) صحيح

[1132] - سنن أبي داود (٣/ ٤)(٢٤٨٣) صحيح

الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)} [البقرة:٢٤٩ - ٢٥١]

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض. ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة،لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع،فتنفض عنها الكسل والخمول،وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة،وتظل أبدا يقظة عاملة،مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة.. وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء.. يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة. تعرف الحق الذي بينه الله لها. وتعرف طريقها إليه واضحا. وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض. وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل،وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه..

وهنا يمضي الله أمره،وينفذ قدره،ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا،ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية،التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه. وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر. ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض،وتمكين الصلاح في الحياة. إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار. [1133]

ذلك النصر وعد من الله،فلا بد من تحققه في واقع الحياة:«لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ» فوعده صادر عن إرادته الطليقة،وعن حكمته العميقة. وهو قادر على تحقيقه،لا راد لمشيئته،ولا معقب لحكمه،ولا يكون في الكون إلا ما يشاء.

وتحقيق هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذي لا يتغير «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ولو بدا في الظاهر أنهم علماء،وأنهم يعرفون الكثير. ذلك أن علمهم

1133 - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٥٢٠)

سطحي،يتعلق بظواهر الحياة،ولا يتعمق سننها الثابتة،وقوانينها الأصيلة ولا يدرك نواميسها الكبرى،وارتباطاتها الوثيقة:«يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا».. ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه.

وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير،مهما بدا للناس واسعا شاملا،يستغرق جهودهم بعضه،ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة. والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل،تحكمه نواميس وسنن مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه.

والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصرفه،يظل ينظر وكأنه لا يرى ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة،ولكنه لا يدرك حكمته،ولا يعيش بها ومعها.

وأكثر الناس كذلك،لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود. والمؤمنون هذا الإيمان قلة في مجموع الناس. ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية.[١١٣٤]

[1134] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٣٥٠٩)

المبحث الثاني والأربعون
أهمية الكلمة في مواجهة الطغيان[1135]

قد يتساءل البعض منا عن قيمة الكلمة في مواجهة أمواج الطغيان المتلاطمة على صخرة الإسلام اليوم؟

وقد يقول البعض الآخر:ما قيمة الكلمة وجراحات الأمة تثعب دماً،وما فائدة الكلمة ورصيد جراحات الأمة بازدياد،وسجل انتهاك العدو لها في تطاول؟

فبدايةً نقول:

إن جراحات الأمة وكلومها بل إن قتلاها وشهداءها ودماءها ليست أموراً مرادةً لذاتها،وإنما هي وسائل تعبير عن سمو الهدف ونُبل الغاية،إنها ترجمةٌ لحقائق إيمانية تصدر عن نبع الحق،وحكايةٌ عن أروع نماذج العبودية لله عز وجل،وتعابير عن إفناء الأجساد في خضم رحلة السمو بالروح.

إن عروق هذه الأمة التي تثجُّ بدماء التضحية والاستشهاد،وأشلاءها المبعثرة على وجه البسيطة في كل مكان،إنما تصدر عن قلبٍ نبضه لا إله إلا الله وعن أمةٍ لسانها لا إله إلا الله،وجوارحها تختلج بلا إله إلا الله،إنها أمةٌ عنوانها كما ترى كلمةُ لا إله إلا الله،ومن هنا تنطلق أهمية الكلمة.

إن استطالة الأعداء على ديار الإسلام وانتهاكهم لحرمات الإسلام حقيقةٌ لا ينكرها إلا غافل جاهل أو عميلٌ متواطئ مخذِّل،وليس الأول بأقل خطراً من الثاني،ولهذا كان لا بد من الكلمة؛ الكلمة التي تنبه الغافل وتعلِّم الجاهل،الكلمة التي تفضح المنافق وتُشهِّر بالمخذِّل المتخاذل،الكلمة التي تستنهض الأمة لإعلان النفير فتشن الغارة على عدو الداخل بنفس الشدة التي تشنها على عدو الخارج،الكلمة التي تعلن هوية الصراع وتجلّي الراية،وتدك أرجاء الكون بلا إله إلا الله،وهل يكون هذا الاستنهاض إلا بالكلمة،قال تعالى:{ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [الحجر:٩٤].

[1135] – وسيم فتح الله بتحقيقي

وأقول:

إن الغاية من تقرير أهمية الكلمة في هذا المقام ليست الاقتصار عليها أو تحجيم الصراع بمجرد التمتمة بها أبداً،بل الغاية من الكلمة أن تكون عنواناً وهويةً وانطلاقاً لكل ما سواها من تضحياتٍ عملية في سياق معركة العقيدة التي نعيش اليوم،إن الغاية من إعلان الكلمة أن تكون الفيصل بين جند الحق وجند الباطل،بين أسرى الحق وأسرى الباطل،بين قتلى الحق وقتلى الباطل.

إن الكلمة هي عنوان الإسلام،بل هي عنوان الإيمان،تأمل معي كيف كان أبو طالب مقراً بأفضلية دين محمد ﷺ ولكن لم يعلن بكلمة التوحيد،فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ:أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ،وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ:" يَا عَمِّ،قُلْ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ " فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ،وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ:يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ،وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ:هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَأَبَى أَنْ يَقُولَ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ:{ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [التوبة:١١٣] "[1136]

ولكنه لم يقلها،فمات حين مات وهو كافرٌ،أرأيت إلى الفيصل بين موتٍ على الحق وموتٍ على الباطل،إنها الكلمة.

والكلمة هي عصمة الدماء والأموال والأبضاع،تأمل معي حديث النبي ﷺ،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ

[1136] – صحيح البخاري (٢/ ٩٥)(١٣٦٠)

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه،وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ،وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ،فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ،وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه»[1137]

فبكلمة التوحيد تعصم الدماء وتحترم الأموال،وبالقتال والغنيمة والسبي تُستحل الدماء والأموال والأبضاع التي أبت الخضوع لخالقها بإسلام أو جزية.

وإذا قرأت قول الله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّه مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء:٩٤] علمت أن الفيصل في ذلك كله قول لا إله إلا الله،وعلمت أن الفيصل في ذلك كله هو الكلمة.

والكلمة هي ميراث النبوة،فالأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً،وإنما ورثوا هذه الأمانة العظيمة التي ثقلت على السموات والأرض والجبال،تأمل معي قول الله تعالى عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) } [الزخرف]،فهذا هو ميراث النبوة وهذا ميراث أبي الأنبياء؛ إنها الكلمة.

والكلمة هي عنوان العيش الطيب،وهل يطيب عيشٌ في هذه الدنيا إلا في ظل لا إله إلا الله،وقد قال تعالى في هذه الكلمة:{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) } [إبراهيم]

،وإن أثر هذه الكلمة الطيبة لَيمتد إلى البرزخ والحياة الآخرة حيث يكون التثبيت من الله تعالى لعباده المؤمنين بها.

تأمل معي قوله سبحانه وتعالى:{ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } [إبراهيم:٢٧]،ترى ما الفرق بين ذلك المؤمن الثابت المؤيَّد في الدارين وبين من حالُه كما وصف الله تعالى:{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ

[1137] – صحيح البخاري (١/ ١٤)(٢٥)

خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} [إبراهيم:٢٦]،أليس الفرق بينهما هو هذه الكلمة؟

والكلمة هي تعبير العبد الغيور عن غضبه حين تُنتهك حرمات ربه فيشتد لسانه بالنكير على من سولت له نفسه التجرؤ على محارم الله وحدوده،إن الكلمة هي الفارق بين ذلك العبد الغيور وبين ذلك الشيطان الأخرس الصامت الذي قد يتلبَّس بنسكٍ وعبادة ولكنه لا يبالي بالغضب والنكير على صاحب منكر ولو بكلمة طالما سلِمت له معايشه ورياسته وأمواله ودنياه.

إن الكلمة هي الفارق بين ذاك الأخرس وبين ذاك الذي يلبي أمر النبي ﷺ:فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» [1138]. نعم إنها الكلمة.

والكلمة هي الفيصل بين الحلال والحرام،بين الطيب والخبيث ولو أعجبك كثرة الخبيث،ألم تر إلى وفرة أسباب المجون والزنا واللواط والخنا في جنبات مجتمعات اليوم،ألم تعلم أن الفيصل بين ذلك الخبيث المحرَّم وبين الحلال الطاهر الطيب كلمة؛ أليس تملك بِضع زوجِك وتستحل هي بضعَك بزوَّجتُكَ وقَبلتُ،وهل عقد الزواج هذا إلا كلمة.

وقد يستخف البعض بالكلمة فيهوي بذلك في أودية الردى والهلاك،في حين يجتهد غيره في العمل بالكلمة فيسعد بها،فها هو الرجل يشرب الخمر مراراً وتكراراً فلا يخرج بذلك عن كونه فاسقاً،في حين أن من لم يطعمها ولو مرةً في حياته يكفر لو استحل الخمر بكلمة! وها هو الرجل لا يبالي ما يزلُّ به لسانه من كلمات فإذا بها تكبّه على وجهه في نار جهنم،وغيره يتكلم بكلمات يرتقي بها درجات الجنة،وصدق المعصوم ﷺ إذ قال:«إِنَّ

[1138] – صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ – (٤٩)

العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ،لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا،يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ،وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ،لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا،يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[1139]،وإنما هي كلمة.

والكلمة هي منهج المسلم في حياته وخطة المسير في رحلته،فعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ،قَالَ:«قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ»،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ،فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ،ثُمَّ قَالَ:«هَذَا»[1140]

والكلمة هي طريق توبته عند الزلل قال تعالى:{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة:٣٧].

والكلمة هي بريد الداعية إلى الله وعنوان رسل الله سبحانه وتعالى إلى الحق،قال تعالى:{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [فصلت:٣٣]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً،وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ،وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا،فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1141] وإنما طريق ذلك كله الكلمة.

وهي أعظم الجهاد في سبيل الله تعالى،فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[1142]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،قَالَ:عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَى،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ،فَلَمَّا رَمَى الْجَمْرَةَ الثَّانِيَةَ،سَأَلَهُ،فَسَكَتَ عَنْهُ،فَلَمَّا رَمَى

1139 – صحيح البخاري (٨/ ١٠١)(٦٤٧٨)

1140 – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٠٧)(٢٤١٠) صحيح

1141 – صحيح البخاري (٤/ ١٧٠)(٣٤٦١)

1142 – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٩٣)(٧٧٨٦) صحيح

جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ،وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ لِيَرْكَبَ،قَالَ:«أَيْنَ السَّائِلُ؟» قَالَ:أَنَا،يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:«كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ ذِي سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[1143]

وما يقوم به أهلنا بالشام من أعظم الجهاد في سبيل الله،حيث صدعوا بالحق أمام الطاغية الصنم،وهي أعظم من وقع السيف عليه،ومن ثم حق لمن قال كلمة الحق من العلماء والدعاة أو عامة الناس في وجه الطاغة فقتلوه أنه سيد شهداء زمانه بلا ريب،فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[1144]

وبعد:

فإن الكلمة هي التي ميّزت الناس إلى مؤمن وكافر،وإلى برٍ وفاجر،إلى شقيٍ وسعيد،وإلى مقبولٍ وطريد،إلى صالحٍ وطالح،إلى خاسرٍ ورابح،حتى حطت رحال الناس فريقٌ في الجنة وفريق في السعير.

وإن الكلمة هي التي تفرق لأجلها الأهلون وشُرِّد العباد،وذرفت لأجلها دموع الثكالى وتيتم الأولاد،وإن الكلمة هي التي شرعت لأجلها سيوف الجهاد،فكان سيف الجهاد مشرّعاً أبداً فهو إلى يوم القيامة ماض،ولأجل الكلمة كانت الرماح والأسنة،لأجل قمع البدعة وإظهار السنّة،ولأجل الكلمة أريقت الدماء،ولأجلها نزلت الملائكة من السماء.

لأجل الكلمة كانت بدر وأحد والخندق وتبوك،ولأجلها كانت القادسية وكانت اليرموك،ولأجل الكلمة كانت عين جالوت وحطين.

ولأجل الكلمة ستبقى كتائب الاستشهاديين... ستبقى لتسقط كلمة الكفر تحت أقدام المجاهدين،فقد جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى،وكلمةُ الله هي العليا إلى يوم الدين،وهذه هي قيمة الكلمة.

1143 – سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٠)(٤٠١٢) صحيح لغيره

1144 – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٥)(٤٨٨٤) والمعجم الأوسط (١/ ٢٨١)(٩١٨) حسن

قال الشهيد سيد قطب رحمه الله:"إن كلماتنا ستبقى ميتةً لا حراك فيها هامدةً أعراساً من الشموع،فإذا متنا من أجلها انتفضت و عاشت بين الأحياء،كل كلمة قد عاشت كانت قد اقتاتت قلب إنسان حي فعاشت بين الأحياء،والأحياء لا يتبنون الأموات.."

==========

فهذا صاحب الظلال رحمه الله كان قتله انتصاراً لمنهجه الذي عاش من أجله ومات في سبيله،بذل حياته كلها من أجل أن يبين أن الحكم من أمور العقيدة والتحاكم إلى غير شرع الله،والحكم بغير حكمه كفر بالله عز وجل:إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ [يوسف:٤٠]،وقال تعالى:وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [المائدة:٤٤]،وبعد أن حكم عليه بالإعدام وقبل أن ينفذ فيه الحكم الظالم كتب هذه الأبيات وكتب الله عز وجل لها الحياة وخرجت من وراء القضبان تقول للعالم.

أخي أنت حر وراء السدود..... أخي أنت حر بتلك القيود

إذا كنت بالله مستعصما..... فماذا يضيرك كيد العبيد

أخي ستبيد جيوش الظلام..... ويشرق في الكون فجر جديد

أخي إن نمت نلق أحبابنا..... فروضات ربي أعدت لنا

وأطيارها رفرفت حولنا..... فطوبى لنا في ديار الخلود

أخي إن ذرفت عليّ الدموع..... وبللت قبري بها في خشوع

فأوقد لهم من رفاتي الشموع..... وسيروا بها نحو مجد تليد

فرحمة الله على صاحب الظلال ورحماته. قال عنه أحد الشيوعيين وهو في سجنه:إنني أتمنى أن أقتل كما قتل وينشر مبدئي وكتبي كما انتشرت كتبه.

نعم،لقد وجدنا مطابع النصارى في لبنان تسارع إلى طباعة ونشر كتبه بعدما قتل من أجلها،وهذا ما قصده رحمه الله عندما قال:إن كلماتَنا وأقوالَنا تظل جثثاً هامدة،حتى إذا متنا في سبيلها وغذيناها بدمائنا عاشت وانتفضت بين الأحياء.

إنه نصر وأيّ نصر،إنه أعظم وأجلّ من انتصارات كثير من المعارك والتي سرعان ما تنتهي بانتهائها،أما هذا النصر فإنه يبقى ما شاء الله أن يبقى.

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته،ولو عاش ألف عام،كما نصـــرها باستشهاده،ويظن أعداؤه أنهم قد انتصروا عليه،وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبتـــه الأخـــيرة الـــتي كتبـــها بدمه،فتبقى حافزاً ومحركاً للأبناء والأحفاد،وربما كانت حافزاً ومحركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال.[١١٤٥]

[1145] – المفصل في عوامل النصر والهزيمة (ص: ٨٩٦)

المبحث الثالث والأربعون
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

قال تعالى مبينا أن عدونا يصاب بالأذى والوهن كما نصاب لكن الفرق كبير بينهما:{ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)} [آل عمران]

وَلاَ تَضْعُفُوا عَنِ الجِهَادِ،وَمَا يَتَطَلَّبُهُ مِنْ حُسْنِ التَّدْبِيرِ وَالإِعْدَادِ،بِسَبَبِ ما أَصَابَكُمْ مِنَ الفَشَلِ وَالجِرَاحِ يَوْمَ أحُد،وَلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَقَدْتُمْ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ،فَإِنَّ العَاقِبَةَ وَالنَّصْرَ سَيَكُونَانِ لَكُمْ إِذَا تَمَسَّكْتُمْ بِحَبْلِ اللهِ،وَرَاعَيْتُمْ تَعَالِيمَهُ،فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ،وَقُتِلَ مِنْكُمْ رِجَالٌ يَوْمَ أحُد،فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِمَّا أَصَابَكُمْ،فَلاَ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَقْعُدُوا وَتَتَقَاعَسُوا عَنِ الجِهَادِ بِسَبَبِ مَا أَصَابَكُمْ،فَالمُشْرِكُونَ قَدْ سَبَقَ أَنْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِثْلَ مَا أَصَابَكُمْ أَنْتُمْ فِي أحُد،فَلَمْ يَتَقَاعَسُوا،وَلَمْ يَقْعُدُوا عَنِ الإِعْدَادِ لِلْحَرْبِ وَمُبَاشَرَتِهَا،وَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ،فَكَيْفَ تَتَرَدَّدُونَ وَأَنْتُمْ عَلَى حَقٍّ،وَاللهُ وَعَدَكُمْ نَصْرَهُ،وَجَعَلَ العَاقِبَةَ لَكُمْ؟ وَمِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى مُدَاوَلَةُ الأَيَّامِ بَيْنَ النَّاسِ،فَمَرَّةً تَكُونُ الغَلَبَةُ لِلْبَاطِلِ عَلَى الحَقِّ،إِذَا أَعَدَّ لَهُ أَهْلُهُ وَاحْتَاطُوا،وَتَرَاخَى أَهْلُ الحَقِّ،وَمَرَّةً تَكُونُ الغَلَبَةُ لِلْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ. وَلَكِنَّ العَاقِبَةَ تَكُونُ دَائِماً لِلْحَقِّ وَأَهْلِه. وَاللهُ تَعَالَى يَبْتَلِي المُؤْمِنِينَ لِيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ،وَلِيَتَّخِذَ مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالاً يُكْرِمُهُمْ بِالشَّهَادَةِ.

وَيُدَاوِلُ اللهُ الأَيَّامَ بَيْنَ النَّاسِ لِيَمِيزَ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ،مِنَ المُنَافِقِينَ،وَلِتَطْهُرَ نُفُوسُ بَعْضِ ضُعَفَاءِ المُؤْمِنِينَ مِن كُدُورَتِهَا،فَتَصْفُوَ مِمَّا شَابَهَا وَخَالَطَهَا،وَلاَ يَكُونُ ذَلِكَ إِلا بِالتَّجَارِبِ

الكَثِيرَةِ،وَالامْتِحَانِ بِالشَّدَائِدِ،وَلِيَكُونَ الجِهَادُ وَالحَرْبُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَسِيلةً لِتَدْمِيرِ الكَافِرِينَ الذِينَ إذا ظَفِرُوا بَغَوا وَبَطِرُوا.

وَلاَ تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَبِرَكُمُ اللهُ تَعَالَى وَيُمَحِّصَكُمْ فِي الشَّدَائِدِ وَالجِهَادِ لِيَرَى صِدْقَ إِيمَانِكُمْ،وَيَرَى مَنْ يَسْتَجِيبُ للهِ،وَيُخْلِصُ فِي طَاعَتِهِ،وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ،وَيَصْبِرُ عَلَى مَكَارِهِ الحُرُوبِ.

وَيُخَاطِبُ اللهُ تَعَالَى مَنْ شَهِدَ وَقْعَةَ أُحُدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْراً،وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ شَوْقاً لِلْقِتَالِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَكُونَ لَهُمْ يَوْمٌ كَيَوْمِ بَدْرٍ،وَقَدْ أَلَحُّوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي الخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ لِيُقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ. وَيَقُولُ تَعَالَى لِهَؤُلاءِ:لَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ قَبْلَ أَنْ تُلاَقُوا القَوْمَ فِي مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ،فَهَا أَنْتُمْ تَرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ فَمَا بَالُكُمْ دَهِشْتُمْ عِنْدَمَا وَقَعَ الْمَوْتُ فِيكُمْ؟ وَمَا بَالُكُمْ تَحْزَنُونَ وَتَضْعُفُونَ عَنْ لِقَاءِ مَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَ وَتَتَمَنَّوْنَ؟ [1146]

لا تهنوا – من الوهن والضعف – ولا تحزنوا – لما أصابكم ولما فاتكم – وأنتم الأعلون.. عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده،وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى. فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله،وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله! ودوركم أعلى. فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها،الهداة لهذه البشرية كلها،وهم شاردون عن النهج،ضالون عن الطريق. ومكانكم في الأرض أعلى،فلكم وراثة الأرض التي وعدكم الله بها،وهم إلى الفناء والنسيان صائرون.. فإن كنتم مؤمنين حقا فأنتم الأعلون. وإن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا. فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا،على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص:«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ. وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا،وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ. وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ»..

[1146] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٣٢،بترقيم الشاملة آليا)

وذكر القرح الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله،قد يكون إشارة إلى غـــزوة بـــدر. وقد مس القرح فيها المشركون وسلم المسلمون. وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد. وقـــد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر. حتى هزم المشركون وقتل منـــهم ســـبعون،وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة فلم يتقدم إليـــه منهم أحد. حتى رفعته لهم امرأة فلاثـــوا بهـــا وتجمعـــوا عليهـــا.. ثم كانـــت الدولـــة للمشركين،حينما خرج الرماة على أمر رسول الله - ﷺ - واختلفوا فيما بينهم. فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة. جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك الخروج،وتحقيقـــا لسنة من سنن الله التي لا تتخلف،إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع في الغنيمة. والله قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله،لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد. وتحقيقا كذلك لسنة أخرى من سنن الله في الأرض،وهـــي مداولة الأيام بين الناس - وفقا لما يبدو من عمل الناس ونيتهم - فتكون لهـــؤلاء يومـــا ولأولئك يوما. ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون. كما تتكشف الأخطاء. وينجلـــي الغبش.

«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ.وَلِيَعْلَمَ اللَّـــهُ الَّذِينَ آمَنُوا».

إن الشدة بعد الرخاء،والرخاء بعد الشدة،هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس،وطبـــائع القلوب،ودرجة الغبش فيها والصفاء،ودرجة الهلع فيها والصبر،ودرجة الثقة فيها بـــالله أو القنوط،ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح! عندئـــذ يتميـــز الصـــف ويتكشف عن:مؤمنين ومنافقين،ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم،وتتكشف في دنيـــا الناس دخائل نفوسهم. ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلـــة التناسق بين أعضائه وأفراده،وهم مختلطون مبهمون! والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين. والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور. ولكن الأحداث ومداولة الأيام بـــين النـــاس تكشف المخبوء،وتجعله واقعا في حياة الناس،وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر،وتحول النفـــاق كذلك إلى تصرف ظاهر،ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء. فالله سبحانه لا يحاسب الناس

على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.ومداولة الأيام،وتعاقب الشدة والرخاء،محك لا يخطئ،وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة.

وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك،ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل. والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء،وتتجه إلى الله في الحالين،وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله.

وقد كان الله يربي هذه الجماعة – وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية – فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء،والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب – وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة. لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة. ولتزيد طاعة لله،وتوكلا عليه،والتصاقا بركنه. ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين.

ويمضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة،وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس،وفيما بعد تمييز الصفوف،وعلم الله للمؤمنين:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ».

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق – إن الشهداء لمختارون. يختارهم الله من بين المجاهدين،ويتخذهم لنفسه – سبحانه – فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد. إنما هو اختيار وانتقاء،وتكريم واختصاص.. إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة،ليستخلصهم لنفسه – سبحانه – ويخصهم بقربه.ثم هم شهداء يتخذهم الله،ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس. يستشهدهم فيؤدون الشهادة. يؤدونها أداء لا شبهة فيه،ولا مطعن عليه،ولا جدال حوله. يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق،وتقريره في دنيا الناس. يطلب الله – سبحانه – منهم أداء هذه الشهادة،على أن ما جاءهم من عنده الحق،وعلى أنهم آمنوا به،وتجردوا له،وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق وعلى أنهم هم استيقنوا هذا،فلم يألوا جهدا في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس،وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس.. يستشهدهم الله على هذا كله

فيشهدون. وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت. وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال! وكل من ينطق بالشهادتين:شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. لا يقال له إنه شهد،إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها. ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إليها. ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله. فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد وأخص خصائص العبودية التلقي من الله.. ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله. ولا يعتمد مصدرا آخر للتلقي إلا هذا المصدر..ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض،كما بلغها محمد - ﷺ - فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس،والذي بلغه عنه محمد - ﷺ - هو المنهج السائد والغالب والمطاع،وهو النظام الذي يصرّف حياة الناس كلها بلا استثناء.فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله،فهو إذن شهيد. أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها. واتخذه الله شهيدا.. ورزقه هذا المقام. هذا فقه ذلك التعبير العجيب:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ.. ».

وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله،ومقتضاه.. لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع! «وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ»..

والظلم كثيرا ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك. بوصفه أظلم الظلم وأقبحه. وفي القرآن:«إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».. وفي الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:سَأَلْتُ - أَوْ سُئِلَ - رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ،قَالَ:«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ:ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ:ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ» قَالَ:وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:{وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ} [الفرقان:٦٨][1147]...

وقد أشار السياق من قبل إلى سنة الله في المكذبين فالآن يقرر أن الله لا يحب الظالمين. فهو توكيد في صورة أخرى لحقيقة ما ينتظر المكذبين الظالمين الذين لا يحبهم الله. والتعبير بأن الله لا يحب الظالمين،يثير في نفس المؤمن بغض الظلم وبغض الظالمين. وهذه الإثارة في

1147 - صحيح البخاري (٦/ ١١٠)(٤٧٦١)

معرض الحديث عن الجهاد والاستشهاد،لها مناسبتها الحاضرة. فالمؤمن إنما يبذل نفسه في مكافحة ما يكرهه الله ومن يكرهه. وهذا هو مقام الاستشهاد،وفي هذا تكون الشهادة ومن هؤلاء يتخذ الله الشهداء..

ثم يمضي السياق القرآني يكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث،في تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى،ولتكون أداة من أدوات قدره في محق الكافرين،وستارا لقدرته في هلاك المكذبين:«وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ»..

والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز. التمحيص عملية تتم في داخل النفس،وفي مكنون الضمير.. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية،وتسليط الضوء على هذه المكنونات. تمهيدا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب،وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق،بلا غبش ولا ضباب..

وكثيرا ما يجهل الإنسان نفسه،ومخابئها ودروبها ومنحنياتها. وكثيرا ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها،وحقيقة ما استكن فيها من رواسب،لا تظهر إلا بمثير! وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله – سبحانه – بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء،يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير:محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية.

ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص.. ثم إذا هو يكشف – على ضوء التجربة العملية،وفي مواجهة الأحداث الواقعية – أن في نفسه عقابيل لم تمحص. وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوي من الضغوط! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه،ليعاود المحاولة في سبكها من جديد،على مستوى الضغوط التي تقضيها طبيعة هذه الدعوة،وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة! والله – سبحانه – كان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية،وكان يريد بها أمرا في هذه الأرض. فمحصها هذا التمحيص،الذي تكشفت عنه الأحداث في أحد،لترتفع إلى مستوى الدور المقدر

لها،وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها:«وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ».. تحقيقا لسنته في دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق،وخلص من الشوائب بالتمحيص

وفي سؤال استنكاري يصحح القرآن تصورات المسلمين عن سنة الله في الدعوات،وفي النصر والهزيمة،وفي العمل والجزاء. ويبين لهم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره،وزاده الصبر على مشاق الطريق،وليس زاده التمني والأماني الطائرة التي لا تثبت على المعاناة والتمحيص:«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ،وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ. وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ. فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ»..

إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور:تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان:أسلمت وأنا على استعداد للموت. فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان،وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان! إنما هي التجربة الواقعية،والامتحان العملي. وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء،ثم الصبر على تكاليف الجهاد،وعلى معاناة البلاء.

وفي النص القرآني لفتة ذات مغزى:«وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ».. «وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ»..

فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون. إنما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضا. التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان. فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر،ويختبر بها الإيمان. إنما هنالك المعاناة اليومية التي لا تنتهي:معاناة الاستقامة على أفق الإيمان. والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك،والصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني:في النفس وفي الغير،ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية. والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر! والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات. والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال. والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحدا منها،في الطريق المحفوف بالمكاره. طريق الجنة التي لا تنال بالأمانيّ وبكلمات اللسان!

«وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ. فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».. وهكذا يقفهم السياق وجها لوجه مرة أخرى أمام الموت الذي واجهوه في المعركة،وقد كانوا من قبل يتمنون لقاءه. ليوازنوا في حسهم بين وزن الكلمة يقولها اللسان،ووزن الحقيقة يواجهها في العيان. فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حسابا لكل كلمة تطلقها ألسنتهم،ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعي في نفوسهم،على ضوء ما واجهوه من حقيقتها حين واجهتهم! وبذلك يقدرون قيمة الكلمة،وقيمة الأمنية،وقيمة الوعد،في ضوء الواقع الثقيل! ثم يعلمهم أن ليست الكلمات الطائرة،والأماني المرفرفة هي التي تبلغهم الجنة،إنما هو تحقيق الكلمة،وتجسيم الأمنية،والجهاد الحقيقي،والصبر على المعاناة. حتى يعلم الله منهم ذلك كله واقعا كائنا في دنيا الناس! ولقد كان الله - سبحانه - قادرا على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنهجه منذ اللحظة الأولى،وبلا كد من المؤمنين ولا عناء. وكان قادرا أن ينزل الملائكة تقاتل معهم - أو بدونهم - وتدمر على المشركين،كما دمرت على عاد وثمود وقوم لوط..

ولكن المسألة ليست هي النصر.. إنما هي تربية الجماعة المسلمة،التي تعد لتتسلم قيادة البشرية.. البشرية بكل ضعفها ونقصها وبكل شهواتها ونزواتها وبكل جاهليتها وانحرافها.. وقيادتها قيادة راشدة تقتضي استعدادا عاليا من القادة. وأول ما تقتضيه صلابة في الخلق،وثبات على الحق،وصبر على المعاناة،ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية،وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف،ووسائل العلاج.. ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة. وصبر على الشدة بعد الرخاء. وطعمها يومئذ لاذع مرير!..

وهذه التربية هي التي يأخذ الله بها الجماعة المسلمة حين يأذن بتسليمها مقاليد القيادة،ليعدها بهذه التربية للدور العظيم الهائل الشاق،الذي ينوطه بها في هذه الأرض. وقد شاء - سبحانه - أن يجعل هذا الدور من نصيب «الإنسان» الذي استخلفه في هذا الملك العريض! وقدر الله في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضي في طريقه،بشتى الأسباب والوسائل،وشتى الملابسات والوقائع.. يمضي أحيانا عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة،فتستبشر،وترتفع ثقتها بنفسها - في ظل العون الإلهي - وتجرب لذة النصر،وتصبر

على نشوته،وتجرب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء،وعلى التزام التواضع والشكر لله.. ويمضي أحيانا عن طريق الهزيمة والكرب والشدة. فتلجأ إلى الله،وتعرف حقيقة قوتها الذاتية،وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله. وتجرب مرارة الهزيمة وتستعلي مع ذلك على الباطل،بما عندها من الحق المجرد وتعرف مواضع نقصها وضعفها،ومداخل شهواتها،ومزالق أقدامها فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة.. وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد.. ويمضي قدر الله وفق سننه لا يتخلف ولا يحيد. [1148]

[1148] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٧٨١)

المبحث الرابع والأربعون
مفهوم النصر وحقيقته

قال الله -سبحانه وتعالى-:(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [سورة غافر،الآية:٥١].

وقال -سبحانه-:(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) [سورة الروم،الآية:٤٧]. وقال:(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)[سورة محمد،الآية:٧]. وقال -جل ذكره-:(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) [سورة الحج،الآية:٤٠]. وقال:(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)[سورة الصافات،الآيات:١٧١ - ١٧٣].

هذه الآيات وأمثالها تدل على انتصار الداعية،سواء أكان رسولا أو أحد المؤمنين،وهذا الانتصار يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

والذي علمناه من القرآن والسنة،أن من الأنبياء من قتله أعداؤه ومثّلوا به،كيحيى وشعياء وأمثالهما،ومنهم من هم بقتله قومه،فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيا بنفسه،كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقا لقومه،وعيسى الذي رفع إلى السماء،إذ أراد قومه قتله،ونجد من المؤمنين من يسام سوء العذاب،وفيهم من يلقى في الأخدود،وفيهم من يستشهد،وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد،فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ وقد طُردوا أو قتلوا أو عذبوا؟

نحن نعلم يقينا،أن وعد الله لا يتخلف أبدا،ومنشأ السؤال والإشكال أننا قصرنا النظر على نوع واحد من أنواعه،وهو النصر الظاهر وانتصار الدين،ولا يلزم أن يكون هذا هو النصر الذي وعد الله به أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين.

والله قد وعدهم بالنصر،وهو متحقق لا شك في ذلك،ولا مرية،وذلك في الحياة الدنيا قبل الآخرة،لأن الله -سبحانه- قال:(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [غافر الآية:٥١]. ومن أصدق من الله قيلا.

١- وتجلية لهذه القضية،وبيانا لهذا الجانب لا بد من إيضاح معنى النصر،وأنه أشمل مما يتبادر إلى أذهاننا،ويسبق إلى أفهامنا إن النصر له وجوه عدة،وصور متنوعة أهمها ما يلي:

أ- لأنه نصر ظاهر يراه الناس ويحسون به.

ب- أنه هو الانتصار الذي يجمع بين انتصار الدين وظهوره وانتصار الداعية.

ج - أنه محبب إلى النفوس،وهو النصر العاجل،"والنفس مولعة بحب العاجل" ولذلك قال -سبحانه-:(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) [سورة،الصف:١٣].

٢- أن النصر قد يكون بإهلاك هؤلاء المكذبين،ونجاة الأنبياء والمرسلين،ومن آمن معهم،كما حدث لنوح،عليه السلام،حيث نجاه الله وأهلك قومه،)فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ)(١٠) [سورة القمر،الآيات:١٠-١٤].

وكذلك قوم هود،(فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)(١١) [سورة الأعراف،الآية:٧٢].

وقوم صالح،(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) [سورة الأعراف،الآية:٧٨].

وقوم لوط،(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)[سورة الأعراف،الآية:٨٤].

وقوم شعيب،(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [سورة الشعراء،الآية:١٨٩]. إن أخذ المجرمين بالعذاب الأليم نصر عظيم للداعية،وكبت للمكذبين والمرجفين،والله يمهل ولا يهمل أبدا:(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [سورة العنكبوت،الآية:٤٠].

٣- قد يكون الانتصار بانتقام الله من أعدائهم،ومكذبيهم،بعد وفاة هؤلاء الأنبياء والرسل،كما حدث مع من قتل يحيى،-عليه السلام- وشعياء،ومن حاول قتل عيسى،عليه السلام،قال الإمام الطبري " يَقُولُ الْقَائِلُ:وَمَا مَعْنَى:{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر:٥١] وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَهُ أَعْدَاؤُهُ،وَمَثَّلُوا بِه،كَشُعَيَاءِ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا وَأَشْبَاهِهِمَا،وَمِنْهُمْ مَنْ هَمَّ بِقَتْلِهِ قَوْمُهُ،فَكَانَ أَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَخْلُصَ مِنْهُمْ حَتَّى فَارَقَهُمْ نَاجِيًا بِنَفْسِه،كَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ مِنْ أَرْضِهِ مُفَارِقًا لِقَوْمِه،وَعِيسَى الَّذِي رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ إِذْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ،فَأَيْنَ النُّصْرَةُ الَّتِي أَخْبَرَنَا أَنَّهُ يَنْصُرُهَا رُسُلَهُ،وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،وَهَؤُلَاءِ أَنْبِيَاؤُهُ قَدْ نَالَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ مَا قَدْ عَلِمْتَ،وَمَا نُصِرُوا عَلَى مَنْ نَالَهُمْ بِمَا نَالَهُمْ بِهِ؟ قِيلَ:إِنَّ لِقَوْلِه:{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر:٥١] وَجْهَيْنِ كِلَاهُمَا صَحِيحٌ مَعْنَاهُ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ:إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِمَّا بِإِعْلَائِنَاهُمْ عَلَى مَنْ كَذَّبَنَا وَإِظْفَارِنَا بِهِمْ،حَتَّى يَقْهَرُوهُمْ غَلَبَةً،وَيُذِلُّوهُمْ بِالظَّفَرِ ذَلَّةً،كَالَّذِي فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ بِدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ،فَأَعْطَاهُمَا مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ مَا قَهَرَا بِه كُلَّ كَافِرٍ،وَكَالَّذِي فَعَلَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بِإِظْهَارِه عَلَى مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِه،وَإِمَّا بِانْتِقَامِنَا مِمَّنْ حَادَّهُمْ وَشَاقَّهُمْ بِإِهْلَاكِهِمْ وَإِنْجَاءِ الرُّسُلِ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ وَعَادَاهُمْ،كَالَّذِي فَعَلَ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِنُوحٍ وَقَوْمِه،مِنْ تَغْرِيقِ قَوْمِه وَإِنْجَائِه مِنْهُمْ،وَكَالَّذِي فَعَلَ بِمُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِه،إِذْ أَهْلَكَهُمْ غَرَقًا،وَنَجَّى مُوسَى وَمَنْ آمَنَ بِه مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ،أَوْ بِانْتِقَامِنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ مُكَذِّبِيهِمْ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِنَا مِنْ بَعْدِ مَهْلِكِهِمْ،كَالَّذِي فَعَلْنَا مِنْ نُصْرَتِنَا شَعْيَاءَ بَعْدَ مَهْلِكِه،بِتَسْلِيطِنَا عَلَى قَتْلِه مَنْ سَلَّطْنَا حَتَّى انْتَصَرْنَا بِهِمْ مِنْ قَتَلَتِه،وَكَفَعْلِنَا بِقَتَلَةِ يَحْيَى،مِنْ تَسْلِيطِنَا بُخْتُنَصَّرَ عَلَيْهِمْ حَتَّى انْتَصَرْنَا بِه مِنْ قَتْلِه لَهُ وَكَانْتِصَارِنَا لِعِيسَى مِنْ مُرِيدِي قَتْلِه بِالرُّومِ حَتَّى أَهْلَكْنَاهُمْ بِهِمْ،فَهَذَا أَحَدُ وَجْهَيْه"[1149]

وهذا يدخل تحت قوله -تعالى-:(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ)(٣) [سورة محمد،الآية:٤].

أي:لانتقم.

٤- أن ما يتصوره الناس هزيمة قد يكون هو النصر الحقيقي،كالقتل،والسجن والطرد والأذى.

[1149] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٠/ ٣٤٤)

أليس قتل الداعية شهادة في سبيل الله. (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) [سورة آل عمران،الآية:١٦٩]. (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)) [سورة يس،الآيتان:٢٦،٢٧].
(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ) [سورة التوبة،الآية:٥٢]. فقتل الداعية انتصار للداعية من عدة جوانب،أهمها:

(أ) الشهادة،وهي من أعظم أنواع الانتصار،(وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) [سورة آل عمران،الآيتان:١٦٩،١٧٠].

(ب) انتصار المنهج وظهوره،كما حدث لعبد الله الغلام عندما قتله الملك،فعَنْ صُهَيْبٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ،فَلَمَّا كَبِرَ،قَالَ لِلْمَلِكِ:إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ،فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ،فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ،فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ،إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ،فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ،فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ،فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ،فَقَالَ:إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ،فَقُلْ:حَبَسَنِي أَهْلِي،وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ:حَبَسَنِي السَّاحِرُ،فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ،فَقَالَ:الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا،فَقَالَ:اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ،حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ،فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا،وَمَضَى النَّاسُ،فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ،فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ:أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي،قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى،وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى،فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ،وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ،وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ،فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ،فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ،فَقَالَ:مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ،إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي،فَقَالَ:إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ،فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ،فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ،فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ:رَبِّي،قَالَ:وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ:رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ،فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ،فَجِيءَ بِالْغُلَامِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا

تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ،وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ،فَقَالَ:إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا،إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ،فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ،فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ،فَقِيلَ لَهُ:ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى،فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ،فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ،ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ:ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ،ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا،فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ،وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ،فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَقَالَ:اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ،فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ:كَفَانِيهِمُ اللهُ،فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ،فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ،فَذَهَبُوا بِهِ،فَقَالَ:اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ،فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ:كَفَانِيهِمُ اللهُ،فَقَالَ لِلْمَلِكِ:إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ،قَالَ:وَمَا هُوَ؟ قَالَ:تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي،ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ،ثُمَّ قُلْ:بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ،ثُمَّ ارْمِنِي،فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي،فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ،ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ،ثُمَّ قَالَ:بِاسْمِ اللهِ،رَبِّ الْغُلَامِ،ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ،فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ،فَقَالَ النَّاسُ:آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ:أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ،قَدْ آمَنَ النَّاسُ،فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ،فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ،وَقَالَ:مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا،أَوْ قِيلَ لَهُ:اقْتَحِمْ،فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا،فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ:يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ "[1150]

[1150] – صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٩)٧٣ – (٣٠٠٥)

[ش (الأكمه) الذي خلق أعمى (بالمئشار) مهموز في رواية الأكثرين ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء وروى المنشار بالنون وهما لغتان صحيحتان (ذروته) ذروة الجبل أعلاه وهي بضم الذال وكسرها (فرجف بهم الجبل) أي اضطرب وتحرك حركة شديدة (قرقور) القرقور السفينة الصغيرة وقيل الكبيرة واختار القاضي الصغيرة بعد حكايته خلافا كثيرا

ونجد في العصر الحاضر سيد قطب -رحمه الله- كان قتله انتصارا لمنهجه الذي عاش من أجله،ومات في سبيله،حتى قال أحد الشيوعيين وهو في سجنه:إنني أتمنى أن أقتل كما قتل سيد وينتشر مبدئي وكتبي كما انتشرت كتب سيد قطب.

بل إننا وجدنا مطابع النصارى في لبنان تسارع إلى طباعة ونشر كتب سيد -يرحمه الله- كالظلال،والمعالم،وخصائص التصور الإسلامي،لما تدره من أرباح هائلة،نظرا لكثرة القراء والمستفيدين.

وهذا ما قصده سيد عندما قال:إن كلماتنا وأقوالنا تظل جثثا هامدة حتى إذا متنا في سبيلها وغذيناها بالدماء عاشت وانتفضت بين الأحياء.

(ج) الذكر الطيب بعد وفاته،قال إبراهيم،عليه السلام،(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)[سورة الشعراء،الآية:٨٤]. والمقتول في سبيل الله له ذكر طيب عند المؤمنين،وهذا أمر مشاهد ومحسوس.

وكذلك الطرد والإخراج،قد يكون انتصارا للداعية،حين يتصور كثير من الناس أن هذا هزيمة له،ولذا فإن الله -جل وعلا- قال عن رسوله،ﷺ حين أخرجته قريش من مكة. { إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٤٠].

ولا شك أن خروجه من مكة كان انتصارا من عدة أوجه،أهمها:

(١) أن الله نجاه من المشركين،وحماه منهم،وأعماهم عنه،حيث أرادوا قتله.

(فانكفأت بهم السفينة) أي انقلبت (صعيد) الصعيد هنا الأرض البارزة (كبد القوس) مقبضها عند الرمي (نزل بك حذرك) أي ما كنت تحذر وتخاف (بالأخدود) الأخدود هو الشق العظيم في الأرض وجمعه أخاديد (أفواه السكك) أي أبواب الطرق (فأحموه فيها) هكذا هو في عامة النسخ فأحموه بهمزة قطع بعدها حاء ساكنة ونقل القاضي اتفاق النسخ على هذا ووقع في بعض نسخ بلادنا فأقحموه بالقاف وهذا ظاهر ومعناه اطرحوه فيها كرها ومعنى الرواية الأولى ارموه فيها من قولهم أحميت الحديدة وغيرها إذا أدخلتها النار لتحمى (فتقاعست) أي توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار]

(ب) أن الدعوة انتقلت إلى بيئة أخرى تحميها وتؤازرها بدل أن كان رسول الله،ﷺ محاربا مطاردا،وأصحابه يعذبون ويقتلون،ولا يتمكنون من إظهار عبادتهم لله كما حدث لهم في المدينة.

(ج) قيام دولة الإسلام في المدينة،وانطلاقة الجهاد بعد ذلك،ثم بدء دخول الناس في دين الله أفواجا.

وكذلك نجد أن هجرة الصحابة للحبشة كانت انتصارا لهم،وكبتا لأعدائهم،ولذلك لاحقتهم قريش إلى هنالك،ولكنهم عادوا خائبين حيث حماهم النجاشي،بل أسلم ودخل في دين الله !!

وقل مثل ذلك عن السجن والتعذيب والأذى،فإن انطلاقة الداعية قد تكون بداية من سجنه أو إيذائه.

فهذا داعية اتهم في عرضه من قبل أعدائه،وتصور كثير من الناس أن هذا الداعية قد انتهى،ولن يكون له شأن بعد اليوم،ولكن كانت هذه التهمة انطلاقة كبرى لهذا الداعية،من عدة أوجه:

(١) انتصر على نفسه حيث عرف أن رهبة السجن أكبر من حقيقته،حيث أدخل السجن مرتين،فأصبحت لديه مناعة من الخوف أو الرهبة من غير الله.

(ب) تكشف له الباطل،وعرف زيف بعض من كان يتلبس بالحق تمويها وخداعا.

(جـ) عرف صديقه من عدوه،وكما قال الشاعر:

جزى الله الشدائد عني كل خير... عرفت بها صديقي من عدوي

(د) زاد عدد طلابه ومحبيه،وكثر المستمعون للحق الذي يدعو إليه،فأصبحوا عشرات الآلاف بل ويزيدون.

(هـ) كبت الله أعداءه وخصومه،وتجرعوا كأس الهزيمة وهم ينظرون.

أليس هذا هو الانتصار في الحياة الدنيا قبل الآخرة؟! (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) [سورة المنافقون،الآية:٨]. وقبل أن نغادر هذا النوع من أنواع الانتصار،لا بد من الوقوف أمام حقيقة تخفى على الكثيرين،وهي نوع من أنواع انتصار الداعية،ذلك أن الداعية عندما

يقتل أو يسجن أو يؤذى أو يطرد فإن خصمه قد ذاق ألوان الأذى المعنوي والعذاب النفسي قبل أن يقدم على ما أقدم عليه،بل وأحيانا بعد أن يفعل فعلته،فإنه لا يجد للراحة مكانا،ولا للسعادة طعما،ولذا فإن الحجاج بن يوسف عند ما قتل سعيد بن جبير،ذاق ألوان العذاب النفسي حتى كان لا يهنأ بنوم،ويقوم من فراشه فزعا ويقول:ما لي ولسعيد،حتى مات وهو في همه وغمه.

ولهذا جاء القرآن معبرا عن هذه الحقيقة،كما في سورة آل عمران،فقال -سبحانه-:(وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) [سورة آل عمران،الآيتان:١١٩،١٢٠].

وقال -سبحانه-:(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً) [سورة الأحزاب،الآية:٢٥].

بينما نجد الداعية يعيش في سعادة وهناء،قال الإمام الطبري في قوله -تعالى-:(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) [سورة الصافات،الآيات: ١٧١ - ١٧٣] عَنِ السُّدِّيِّ،فِي قَوْلِه:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} [الصافات:١٧٢] يَقُولُ:«بِالْحُجَجِ» وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ يَتَأَوَّلُ ذَلِكَ:وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ بِالسَّعَادَةِ "[1151]

وهذا -أيضا- معنى حديث رسول الله،ﷺ،فعَنْ صُهَيْب،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ،إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ،وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ،إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ،فَكَانَ خَيْرًا لَهُ،وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ،صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1152]

ولذلك قال شيخ الإسلام معبرا عن هذه الحقيقة:ماذا ينقم مني أعدائي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري،قتلي شهادة،ونفي سياحة،وسجني خلوة.

1151 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩/ ٦٥٧)

1152 - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥)٦٤ - (٢٩٩٩)

وهو ما عناه أحد الزهاد عندما قال:لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من اللذة والنعيم لجالدونا عليه بالسيوف.

وهنا ندرك من المنتصر ومن المنهزم،وأن الانتصار والهزيمة أبعد معنى مما يراه الناس في الظاهر،بل هناك حقائق قد لا تدرك بالعيون،وصدق من قال:

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل نفسها... إن لم تجد ما تأكله

٥- أن ثبات الداعية على مبدئه،هو انتصار باهر،وفوز ساحق،حيث يعلو على الشهوات والشبهات،ويجتاز العقبات بشجاعة وثبات،بل إنه لا يمكن أن يتحقق الانتصار الظاهر إلا بعد تحقق هذا الانتصار،فإبراهيم،عليه السلام،وهو يلقى في النار كان في قمة انتصار،(قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) [سورة الصافات،الآيتان:٩٧،٩٨].

والإمام أحمد -رحمه الله- عندما ثبت على مبدئه في محنة القول بخلق القرآن،ورفض الاستجابة لجميع الضغوط ومحاولات التراجع كان في قمة انتصاره.

وأصحاب الأخدود وهم يلقون في النار،ولا يقبلون المساومة على دينهم،ويفضلون الموت في سبيل الله كانوا هم المنتصرين،(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [سورة البروج،الآية:٨].

ونجد هذا المعنى من معاني الانتصار في الحديث عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ،قَالَ:شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا:أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ:«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ،يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ،فَيُجْعَلُ فِيهَا،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ،وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ،مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ،فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ،حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ،وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1153]

1153 - صحيح البخاري (٩/ ٢٠)(٦٩٤٣)

فبين،ﷺ أن الانتصار هو الثبات على الدين،وعدم التراجع مهما كانت العقبات والمعوقات.

٦ -أن النصر قد يكون بقوة الحجة،وصحة البرهان،قال الإمام الطبري في قوله تعالى:(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ) [سورة الصافات،الآيتان:١٧١،١٧٢]. يقول -تعالى ذكره- ولقد سبق منا القول لرسلنا أنهم لهم المنصورون،أي مضى بهذا منا القضاء والحكم في أم الكتاب،وهو أنهم لهم النصرة والغلبة بالحجج.

قال السدي:(إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ) بالحجج.[١١٥٤]

وقال الطبري:يَقُولُ اللَّهُ:{فَجَعَلْنَاهُمْ} [الأنبياء:٧٠] أَيْ فَجَعَلْنَا قَوْمَ إِبْرَاهِيمَ {الْأَسْفَلِينَ} [الصافات:٩٨] يَعْنِي الْأَذَلِّينَ حُجَّةً،وَغَلَّبْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ بِالْحُجَّةِ،وَأَنْقَذْنَاهُ مِمَّا أَرَادُوا بِهِ مِنَ الْكَيْدِ.[١١٥٥]

وكذلك نجد هذا المعنى في قوله - تعالى:(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ) [سورة الأنعام،الآية:٨٣]. والرفع هو الانتصار.

وكذلك في سورة البقرة بعد أن ذكر الله محاجة الذي كفر لإبراهيم في ربه،قال الله -تعالى- (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)[سورة البقرة،الآية:٢٥٨]. والبهت هو الهزيمة،أي انهزم الكافر وانتصر إبراهيم بالحجة والبرهان.

إذن فانتصار الداعية بقوة حجته هو انتصار حقيقي،بل هو وسيلة من أهم وسائل انتصار الدين وظهوره.

٧- أن انتصار الداعية،غير محصور في زمان أو مكان،فزمانه الحياة الدنيا ثم الآخرة،ومكانه أرض الله الواسعة.

ولذا فقد يضطهد الداعية في مكان وينتصر في مكان آخر،كما حدث لنبينا محمد،ﷺ فقد اضطهد في مكة،ثم انتصر في المدينة أولا ثم في مكة ثانيا.

1154 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩/ ٦٥٧)

1155 -تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩/ ٥٧٦)

وموسى،عليه السلام،اضطهد في أرض فرعون وانتصر بعد ذلك في مكان آخر،وقد يضطهد الداعية في زمان،ثم ينتصر في زمان آخر. كما حدث لشيخ الإسلام ابن تيمية،فمات في سجنه -رحمه الله- ولكن انتصرت دعوته أعظم الانتصار بعد عدة قرون من وفاته ولا تزال.

وهذا أمر معلوم ومشاهد،فكم من داعية هزم في مكان وانتصر في مكان آخر،وأوذي في زمان وانتصر في زمان آخر،سواء في حياته أو بعد وفاته.

٨- أخيرا،فإن النصر قد يكون بالمنع،أي بحماية الداعية ومنع أعدائه من الوصول إليه،وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي مَعْنَى قَوْلِه:{وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة:٤٨] وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ نَصِيرٌ يَنْتَصِرُ لَهُمْ مِنَ اللَّه إِذَا عَاقَبَهُمْ.[1156]

{وَلاَهُمْ يُنْصَرُونَ} يَقُولُ:وَلَا لَهُمْ نَاصِرٌ يَنْصُرُهُمْ،فَيَسْتَنْقِذُهُمْ حِينَئِذٍ مِنْ عَذَابِ اللَّه ، لَمَا أَقَامُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ،وَلَسَارَعُوا إِلَى التَّوْبَةِ مِنْهُ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ،وَلَمَا اسْتَعْجَلُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْبَلَاءَ[1157]

وقال- جل وعلا-:(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) [سورة الحجر،الآية:٩٤،٩٥].

قال الإمام الطبري في معنى هذه الآية:يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ يَا مُحَمَّدُ،الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ وَيَسْخَرُونَ مِنْكَ،فَاصْدَعْ بِأَمْرِ اللَّه،وَلَا تَخَفْ شَيْئًا سِوَى اللَّه،فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ مَنْ نَاصَبَكَ وَآذَاكَ كَمَا كَفَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ،وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْمُسْتَهْزِئِينَ قَوْمًا مِنْ قُرَيْشٍ مَعْرُوفِينَ. ذِكْرُ أَسْمَائِهِمْ:[1158]

وقال -سبحانه-:(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [سورة المائدة،الآية:٦٧].

هذه بعض أوجه النصر،بل أهم أنواع النصر،ولو تأملنا في هذه الأوجه ثم نظرنا إلى سيرة الأنبياء والرسل،عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام،لوجدنا أن كل واحد منهم قد

1156 -تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١/ ٦٤٠)

1157 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٦/ ٢٧٦)

1158 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٤/ ١٤٥)

تحقق له نوع من هذه الأنواع أو أكثر من نوع،كما حدث لنبينا محمد،ﷺ فقد انتصر بظهور الدين وتمامه،وانتصر بإهلاك من كذبه في بدر وما بعدها،وانتصر،وهو يخرج من مكة،وانتصر بالحجة والبرهان،وانتصر بالمنع من الأعداء،وانتصر في مكان غير بلده،وانتصر بالثبات على دين الله والصدع بكلمة الحق،(وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً)[سورة الإسراء،الآية:٧٤].

ويتفاوت الأنبياء والرسل،عليهم السلام،في الانتصارات التي حققوها،ولكن وعد الله قد تحقق لهم (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)[سورة الصافات،الآيات:١٧١،١٧٢،١٧٣].

وكذلك كل مؤمن صادق فسيتحقق له الانتصار،سواء في حياته أم بعد مماته تحقيقا لوعد الله:(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [سورة غافر،الآية:٥١].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا المفهوم الشامل للانتصار،وأنه لا يجوز لنا أن نحدد نوع الانتصار الذي نريده.

فالأمر لله من قبل ومن بعد،ولسنا سوى عبيد له،سبحانه،نسعى لتحقيق عبوديته،ومن كمال العبودية أن نعلم ونوقن يقينا جازما لا شك فيه أن وعد الله متحقق لا محالة،ولكننا قد لا ندرك حقيقة هذا الأمر لحكمة يعلمها الله،وقد يتأخر النصر ابتلاء وامتحانا،وصدق الله العظيم:(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) [سورة الروم،الآية:٤٧].

المبحث الخامس والأربعون
أسباب تأخر النصر الظاهر

النفس مجبولة على حبّ العاجل،وتحقق النصر الظاهر لدين الله أمر محبب إلى النفس كيف لا،وهو ظهور دين الله وقمع الباطل وأهله،ولذلك قال -سبحانه-:(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)(٢) [سورة الصف،الآية:١٣].

ونحن مأمورون بالسعي لإقامة دين الله (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)(٣) [سورة البقرة،الآية:١٩٣].

وكثير من الناس -وأخص الدعاة منهم- يستبطئون تحقق النصر،وقد يسبب لهم هذا الأمر شيئا من اليأس أو الانحراف عن المنهج،ويغفلون عن الأسباب التي تؤخر النصر الظاهر،مع أن معرفة هذه الأسباب أمر مهم،وله آثاره الإيجابية على حياة الدعاة والمدعوين والأتباع،وذلك أن هذه الأسباب على نوعين:

١- أسباب سلبية،والمعرفة بها سبيل إلى تلافيها وإزالتها.

٢- أسباب إيجابية،وفقهها وإدراكها عامل مؤثر في ثبات الداعية على المنهج الرباني،سواء تحقق النصر عاجلا أو آجلا.

وسأقف مع أبرز الأسباب التي تكون عاملا مؤثرا في تأخير النصر أو عدم وقوعه في حياة الداعية أو على يديه،وسأختصر فيها حسب مقتضى المقام:

١- تخلف بعض أسباب النصر المشروعة:

وذلك أن للنصر أسبابًا،فإذا تخلّفتْ هذه الأسباب أو بعضها تخلف النصر؛ لأن السبب عند الأصوليين،هو ما يلزم من وجوده الوجود،ومن عدمه العدم لذاته،وإن كان لا يلزم من وجود السبب هنا وجود النصر لمانع آخر،ولكن يلزم من عدمه العدم.

فمثلا:نجد من أسباب النصر المشروعة الإعداد للمعركة لأن الله -تعالى- يقول:(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ

دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) [سورة الأنفال،الآية:٦٠]. فعدم الأخذ بالأسباب سبب من أسباب الهزيمة أو تأخر النصر.

وقد يكون انتصار الداعية بعد وفاته أعظم من انتصاره في حياته،لأن المراد هو انتصار المنهج،أما الأشخاص فإن الله قد تكفل بإثابتهم وإكرامهم،جزاء دعوتهم وصدقهم،ولذلك جاءت الآيات تبين هذا الأمر:(وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) [سورة آل عمران،الآية:١٦٩]. (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)[سورة يس،الآية:٢٦،٢٧]. (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [سورة النحل،الآية:٣٢]. (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) [سورة فصلت،الآية:٣٠،٣١]. إلى غير ذلك من الآيات.

وكم من داعية لم ينتصر الدين في حياته،ولكنه انتصر أعظم الانتصار بعد مماته،فهذا عبد الله الغلام،وسبق بيان قصته،وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية مات في سجنه،ولكن منهجه انتصر انتصارا باهرا بعد عدة قرون من وفاته.

وسيد قطب سجن ثم قتل،ولكن مؤلفاته انتشرت أكبر الانتشار بعد قتله!!.. وهكذا.

إن تأخر النصر فيه ابتلاء وتمحيص للدعاة،وفيه من العبر والدروس ما يفيد اللاحقون منه فوائد جمة. قال -تعالى-:(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [سورة البقرة،الآية:٢١٤]. وقال:(الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)(٢) [سورة العنكبوت،الآية ١ - ٣]. والآيات كثيرة معلومة.

وبعد:

فهذه أبرز أسباب تأخر النصر الظاهر حسب ما تبين لي،وقد تتكشف لنا أسباب تأخر النصر،وقد لا تتكشف.

والذي يجب أن نعتقده أن علينا فعل الأسباب الشرعية،سعيا لنصرة دين الله،أما تحقق النصر فليس لنا بل هو لله (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)(٣) [سورة آل عمران،الآية:١٢٦].

والنصر لن يتحقق إلا إذا حان موعده في علم الله لا في تقديرنا القاصر.

ولن يتحقق النصر إلا بعد الإيمان الجازم بوعد الله،(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)(٤) [سورة الروم،الآية:٤٧].

أما من عنده شك وريبة فلا يستحق النصر.

٢- قد يكون سبب تأخر النصر حدوث مانع من الموانع

والمانع هو:ما يلزم من وجوده العدم،ولا يلزم من عدمه وجود ولا عدم لذاته. والموانع كثيرة جدا،كالظلم والركون للكفار والمعاصي وغيرها. وموانع النصر هي أسباب الهزيمة،ولذلك نجد في غزوة أحد لما بدت علامات النصر ثم وقعت المخالفة من الرماة لأمر الرسول،ﷺ حلت الهزيمة،كما قال - تعالى-:(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) [سورة آل عمران،الآية:١٦٥]. قال محمد بن إسحاق وابن جرير والربيع بن أنس والسدي. (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) أي بسبب عصيانكم لرسول الله،ﷺ حين أمركم ألا تبرحوا مكانكم فعصيتم،يعني بذلك الرماة.

وفي حنين لماذا تأخر النصر،يقول - سبحانه-:(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)(سورة التوبة آية:٢٥.).

حيث ذكر الله - سبحانه- أن قول أحد المسلمين لن نغلب اليوم من قلة،وكان عددهم (١٢) ألفا مانعا من موانع النصر،لأن الله - سبحانه- وكلهم إلى كثرتهم فلم تنفعهم شيئا،ثم تحقق النصر بعد ذلك عندما زال هذا المانع حيث ثبت أن الكثرة وحدها لا تجلب النصر،وإنما الاعتماد على الله -سبحانه- بعد الأخذ بالأسباب.

ومن خلال ما سبق يتضح أهمية مراعاة الأسباب،والحرص على تحصيلها،مع تلافي الموانع واجتنابها.

٣- الانحراف عن المنهج

الانحراف عن المنهج مانع من الموانع،ولكن أفردته لأهمية التنبيه عليه،فقد تتبعت بالاستقراء واقع كثير من الجماعات الإسلامية والحركات الجهادية المعاصرة،وبحثت عن سر عدم انتصارها وتحقق ما تعلنه من أهداف خيرة نبيلة،حيث إن تلك الجماعات تسعى لنصرة دين الله،وتحكيم شرعه،فوجدت إن من أبرز الأسباب -حسب ما ظهر لي- انحرافها عن المنهج الصحيح -منهج أهل السنة والجماعة- في ثوابتها أو وسائلها.

وقد يكون الانحراف يسيرا -في نظر البعض- ولكنه خطير جدا ومؤثر في تحقيق النصر.

فمن ذلك التساهل في قضية العقيدة وعدم اعتبارها من الأولويات التي تتميز بها تلك الجماعة.

وكذلك تمييع مفهوم الولاء والبراء،والركون إلى الظالمين ومداهنتهم.

ومن ذلك تأصيل الحزبية،مما يؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين،وتنافر القلوب. وكذلك اعتبار أن الغاية تبرر الوسيلة،وهلم جرا.

إن تحرير الأصول والثوابت،وتنقيتها مما قد يشوبها،أمر جوهري وأساس في سلامة منهج الدعوة وصدق التوجه.

وكذلك عرض كل وسيلة من الوسائل على القواعد والأصول الشرعية،حماية لها من الانحراف تحت ضغط الواقع وحجية المصلحة المتوهمة.

٤- عدم نضوج الأمة،وضعف استعدادها

إن دين الله عظيم،ويحتاج إلى أمة قد تربّت على هذا الدين زمنا حتى تتمكن من حمله وتبليغه للناس.

أمة قد اجتازت المشقة والعقبات قبل أن تحصل على النصر،بل من أجل الحصول عليه.

ثم إن قيام هذا الدين يحتاج إلى طاقات ضخمة،كثيرة العدد،متعددة المواهب والتخصصات،وهذا الأمر يحتاج إلى زمن ليس باليسير،فإعداد الرجال وتربيتهم من أشق المهمات وأصعبها.

ولذلك نجد أن رسول الله،ﷺ بقي ثلاثة عشر عاما يربي الرجال واحدا واحدا،ويهيئ الأمة جماعة جماعة،استعدادا لحمل الرسالة والذود عنها.

فقوم في دار الأرقم،وآخرون يهاجرون إلى الحبشة،ومرة يحصر الجمع في شعب أبي طالب،ثم تأتي الهجرة إلى المدينة.

كل هذا وغيره هيأ هذه الأمة لحمل الرسالة حتى كمل الدين وفتح الله على المسلمين فتحا عظيما.

ومما سبق يتضح أن هذا الأمر يحتاج إلى زمن لتمامه،واكتمال بنائه،وهو سبب من أسباب تأخر النصر وظهور دين الله مهيمنا على البشر.

٥- عدم إدراك قيمة النصر:

إن مجيء النصر سريعا دون كبير مشقة ولا عناء،يجعل الأمة المنتصرة لا تعرف قيمة هذا الانتصار،ومن ثم لا تبذل من الجهود للمحافظة عليه ما يستحقه وما يحتاج إليه.

وسأضرب مثلين يوضحان هذه الحقيقة:

(ا) الرجل الذي عاش في الفقر ثم جد واجتهد في تحصيل المال حتى أصبح غنيا،نجد أنه يحافظ على هذا المال محافظة عجيبة،ويبذل كل الوسائل الممكنة للذود عنه وحمايته.

وذلك لأنه ذاق طعم الفقر ومذلته،ثم إنه تعب في جمع هذا المال وتنميته،فليس من السهولة أن يفرط فيه،ويكره أن يعود للفقر بعد أن أخرجه الله منه،كما يكره أن يعود للكفر بعد إذ أنقذه الله منه.

أما أولاده وورثته،فتجد أن الكثير منهم لا يولي هذا المال ما يستحقه من عناية واهتمام،بل قد يعبث فيه حتى يصبح فقيرا.

وذلك أنه لم يعرف قيمة هذا المال،ولم يتعب في جمعه وكسبه،ولم يذق طعم الفقر كما ذاقه مورثه.

(ب) قيام الدول وسقوطها:

مما يلحظ بالاستقراء والتتبع أن الدول تكون إبان قيامها قوية مهابة،وتجد أن الأمراء والخلفاء يبذلون جهودا مضاعفة للمحافظة على الدولة،وتلافي جميع أسباب ضعفها.

ثم تأتي أجيال لم تساهم في قيام الدولة،وورثت الملك كما يرث الوارث المال،وهنا ينشغلون عن الدولة بمكاسبها،ويغفلون عن تبعاتها،وتبدأ الدولة في الضعف والتفكك حتى قد يئول الأمر إلى سقوطها.

ولذا فإن مجيء النصر دون تعب أو عناء قد يكون سبباً في عدم استمراره،وصعوبة المحافظة عليه،ومن هنا فقد تقتضي حكمة الله أن يتأخر النصر حتى يستوي الأمر ويوجد الرجال الذين يعرفون قيمة النصر،والثمن الذي يستحقه.

٦- قد يكون في علم الله -جل وعلا- أن هؤلاء لو انتصروا لن يقوموا بتكاليف الانتصار

من إقامة حكم الله في الأرض،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وإقام الصلاة،وإيتاء الزكاة. وذلك أن الانتصار ليس مرادا لذاته،وإنما لما يتحقق منه،وهو إخماد الفتنة،وأن يكون الدين كله لله.

وهذا مما يفهم من قوله -تعالى-:(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [سورة الحج،الآية:٤٠،٤١]. وقد لا نعلم نحن سبب ذلك ولكن الله يعلمه.

وذلك أن هناك فئة من الناس تثبت في حالة الشدة والعناء،وتصمد في حالة المواجهة والبلاء ولكنها تضعف وتتقهقر في حالة النعم والرخاء والأمن.

وقوم هذه حالهم لا يستحقون النصر،والله أعلم بما كان،وما يكون،وما لم يكن لو كان كيف يكون.

٧- من أسباب تأخر النصر أن الباطل الذي يحاربه الدعاة لم ينكشف زيفه للناس تماما

فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه،ممن هم ليسوا على هذا الباطل،ولا يقرونه لو اكتشفوا حقيقته.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك قصة المنافقين،فكثير من الصحابة -رضوان الله عليهم- لم يكونوا يعرفون عددا من أقطاب النفاق،بل إنهم يحسنون الظن بهم،ولذلك وجدنا من

يدافع عنهم،حتى إن بعض كبار الصحابة من الأنصار كانوا يدافعون عن عبد الله بن أُبَيٍّ،لعدم معرفتهم بما كان عليه من الباطل وبخاصة في أول العهد المدني.

عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ،قَالَ:حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ وَعَبْدُ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعَاصِمُ ابن عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ،فِي قِصَّةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِيمٌ هُنَاكَ،إِذَا اقْتَتَلَ عَلَى الْمَاءِ جَهْجَاهُ بْنُ سَعِيدٍ الْغِفَارِيُّ،وَكَانَ أَجِيرًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَسِنَانُ بْنُ زَيْدٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ،قَالَ:ازْدَحَمَا عَلَى الْمَاءِ،فَاقْتَتَلَا،فَقَالَ سِنَانٌ،يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ،وَقَالَ الْجَهْجَاهُ:يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ،وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ وَنَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ،فَلَمَّا سَمِعَهَا قَالَ:قَدْ ثَاوَرُونَا فِي بِلَادِنَا،وَاللهِ مَا عِزُّنَا وَجَلَابِيبُ قُرَيْشٍ هَذِهِ،إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ،وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ مِنْ قَوْمِهِ،فَقَالَ:هَذَا مَا صَنَعْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ،أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ،وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ،أَمَا وَاللهِ لَوْ كَفَفْتُمْ عَنْهُمْ،لتحوّلوا عَنْكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ،إِلَى غيرها،فَسَمِعَهَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ،فَذَهَبَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ غُلَيِّمٌ،وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ،فَقَالَ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللهِ! خُذْ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ،فَلْنَضْرِبْ عُنُقَهُ،فَقَالَ ﷺ:فَكَيْفَ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ يَا عُمَرُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ،لَا. وَلَكِنْ نَادِ يَا عُمَرُ فِي الرَّحِيلِ،فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ بَلَغَ رسول الله ﷺ أَتَاهُ،فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ،وَحَلَفَ لَهُ بِاللهِ مَا قَالَ مَا قَالَ! عَلَيْهِ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ،وَكَانَ عِنْدَ قَوْمِهِ بِمَكَانٍ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ! عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الغلام أو هم،وَلَمْ يُثْبِتْ مَا قَالَ الرَّجُلُ،وَرَاحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُهَجِّرًا فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَرُوحُ فِيهَا،فَلَقِيَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ،فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِتَحِيَّةِ النُّبُوَّةِ،ثُمَّ قَالَ:وَاللهِ لَقَدْ رُحْتَ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ،مَا كُنْتَ تَرُوحُ فِيهَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكَ ابْنُ أُبَيٍّ،زَعَمَ أَنَّهُ إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ سَيُخْرِجُ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ،قَالَ:فَأَنْتَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ الْعَزِيزُ،وَهُوَ الذَّلِيلُ،ثُمَّ قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ ارْفُقْ به،فو الله لَقَدْ جَاءَ اللهُ بِكَ،وَإِنَّا لَنَنْظِمُ الْخَرَزَ لِنُتَوِّجَهُ،فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنْ قَدِ اسْتَلَبْتَهُ مُلْكًا،فَسَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ،حَتَّى أَمْسَوْا وَلَيْلَتَهُ،حَتَّى

أَصْبَحُوا وَصَدْرَ يَوْمِهِ،حَتَّى اشْتَدَّ الضُّحَى ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ لِيَشْغَلَهُمْ عَمَّا كَانَ مِنَ الْحَدِيثِ،فَلَمْ يَأْمَنِ النَّاسُ أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ،فَنَامُوا وَنَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ"[1159]

إذن المنافقون في نظر كثير من الناس أصحاب لرسول الله،ﷺ لأن حقيقتهم لم تنكشف للناس،وحقيقتهم،(هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) [سورة المنافقون،الآية: ٤].

ولذلك قال رسول الله،ﷺ لعمر في نهاية المطاف لما تكشفت حقيقة هؤلاء عند كثير من المسلمين:" كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِيَ لَأَرْعَدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ.فَقَالَ عُمَرُ:قَدْ وَاللَّهِ عَلِمْتُ لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي. "[1160]

فهذا الحديث يصور معنى هذا السبب الذي ذكرته أدقّ تصوير وبيان.

والدخول في معركة مع قوم لم تنكشف حقيقة أمرهم تماما،له آثاره السلبية على الأمة المسلمة،إذ أن بعض المسلمين سيقف في صف أولئك،كما وقف بعض الصحابة مع المنافقين.

كما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطُولِهِ قَالَ فِيهِ:قَالَتْ:فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ،وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ،فَقَالَ:«يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ،مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي،وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا،وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا،وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي». قَالَتْ:فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ،فَقَالَ:أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ،فَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ،وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ،قَالَتْ:فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ،وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ،وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ،وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ،قَالَتْ:وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا،وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ،فَقَالَ لِسَعْدٍ:كَذَبْتَ

[1159] – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٤/ ٥٢) صحيح مرسل

[1160] – إمتاع الأسماع (٦/ ٣٦٢) والروض الأنف ت السلامي (٧/ ٢٣) والسيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٢٠) والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٣٠١) وسيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٢٩٣)

لَعَمْرُ اللَّه لاَ تَقْتُلُهُ،وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْله،وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ،وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْد،فَقَالَ لسَعْد بْن عُبَادَةَ:كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّه لَنَقْتُلَنَّهُ،فَإِنَّكَ مُنَافقٌ تُجَادلُ عَنِ الْمُنَافقينَ،قَالَتْ:فَثَارَ الحَيَّان الأَوْسُ،وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتلُوا،وَرَسُولُ اللَّه ﷺ قَائمٌ عَلَى الْمنْبَرِ،قَالَتْ:فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُخَفِّضُهُمْ،حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ.."[1161]

وقد لا يقف بعض المسلمين مع هؤلاء،ولكن سيكون وقوفهم مع الدعاة ضعيفا ومترددا،لأنهم لم يتيقنوا أن هؤلاء على الباطل،مما يؤثر على المعركة التي يخوضها المسلمون ضد أعدائهم،وقد يؤدي إلى فرقة المسلمين وتأخر النصر.

٨- ومن أسباب تأخر النصر،أن البيئة المحَارَبَة قد تكون غير صالحة بعد لاستقبال الحق والخير والعدل

مما يقتضي أمورًا تهيئها لذلك قبل الدخول معها في معركة،ومن ذلك بذل جميع الوسائل الشرعية لبيان أن هؤلاء القوم -المحاربين- على الباطل،ومحاولة إقناعهم ودعوتهم وبيان حقيقة الإسلام،وفساد ما هم عليه من باطل.

فإن هذا الأمر إن لم يكن سببًا في هدايتهم قبل المعركة فإنه وسيلة لمعرفة الحق،ومن ثم القبول به بعد المعركة،ولذا فإن الدعوة إلى الإسلام تسبق الدخول في المعركة.

٩- ومن أسباب عدم الاستجابة لدين الله أن عوامل النصر قد تتوافر بالنسبة للداعية،لكن هناك موانع تتعلق بالمدعوين

- كالأمر السابق- ومن ذلك عدم تقدير الله هداية هؤلاء القوم،حيث كتب عليهم الضلالة،قال -سبحانه-:(أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَميعاً)[سورة الرعد،الآية:٣١]. وقال:(فَمنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْه الضَّلاَلَةُ) [سورة النحل،الآية:٣٦]. وقال -جل وعلا-:(أُولَئكَ الَّذينَ لَمْ يُرِد اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) [سورة المائدة،الآية:٤١]. إلى غير ذلك من الآيات.

[1161] - صحيح البخاري (٥/ ١١٦)(٤١٤١) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٩)٥٦ - (٢٧٧٠)

المبحث السادس والأربعون

متى تنتصر ثورتنا المباركة على الطاغية الصنم بشاروعصابته المجرمة

أقول وبالله التوفيق:

الثورة السورية في طريقها إلى النصر المؤزر بإذن الله تعالى،لأنها أخذت بما تستطيعه ضمن ظروفها الراهنة من عوامل النصر،والله تعالى يقول لنا:{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن:١٦]

وفي كل يوم تزداد عوامل النصر وتضمحل عوامل الهزيمة...

فقد خرجت هذه الثورة المباركة من أطهر مكان في الأرض،{ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)} [النور]

وهؤلاء الأحرار لم يسجدوا إلا لله وحده،كيف لا وهم الذين يقول عنهم دجال النظام البوطي (ما عرفت وجوههم السجود) !!!!!

نعم لم تعرف السجود للبشر ومنهم الطاغية الصنم بشار الأسد وأبوه اللذان يدافع عنهما البوطي

وإيمان الثوار بالله واعتمادهم عليه يزداد يوما بعد يوم بفضل الله تعالى – رايحين على الجنة بالملايين – الله أكبر – ما لنا إلا الله....بالرغم من كل أدوات البطش والإرهاب التي تستخدم بحقهم {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) } [آل عمران]

وكذلك محبة الناس لبعضهم البعض صارت عالية جدا فقد تمثلوا حديث الرسول ﷺ

فعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ،أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ،فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»[1162]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ،وَتَرَاحُمِهِمْ،وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى "[1163]

وكذلك تسليمهم بما يقضي الله تعالى فيهم من قتل وعذاب وأذى وتشريد لأنه الفعال لما يريد،نرى ذلك على لسان كل الثائرين وأهلهم رجالا ونساء وأطفالا،قال تعالى:{ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) } [التوبة:٥١ - ٥٢]

وهم يتمثلون حديث المصطفى ﷺ،فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،أَنَّهَا قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:" مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ،فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ:{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة:١٥٦]،اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي،وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا،إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا "،قَالَتْ:فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ،قُلْتُ:أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا،فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ...»[1164]

والله ليخلفنهم الله تعالى خيرا مما قدموه،ويكفيهم قول الله تعالى:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) } [البقرة:١٥٥ - ١٥٧]

يقينهم بنصر الله تعالى لهم لأنهم مظلومون وأصحاب وخصمهم ظالم فاجر صاحب باطل،قال تعالى:{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا

1162 - صحيح البخاري (٣/ ١٣٨)(٢٤٨٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٤)١٦٧ - (٢٥٠٠)

1163 - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)٦٦ - (٢٥٨٦) وصحيح البخاري (٨/ ١٠)(٦٠١١) وهذا لفظ مسلم

1164 - صحيح مسلم (٢/ ٦٣١)٣ - (٩١٨)

رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) } [القمر:٩ - ١٧]

وقال تعالى:{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)} [النمل:٤٨ - ٥٣]

إن هذه الألسن التي تصدح بكلمة التوحيد وبكلمة:الله أكبر،لن يخذلها الله تعالى أبدا،قال تعالى:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) } [الصافات:١٧١ - ١٧٣]

ولسان حالهم قول النبي ﷺ يوم بدر بدعائه الندي،فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ،وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:«اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»،فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ،مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ،حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ،فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،وَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ،كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ"[1165]

وكيف يخذلهم الله تعالى وقد تكالب عليهم:

كل أعداء الإسلام الصرحاء في الداخل والخارج...

[1165] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣)٥٨ - (١٧٦٣)

بائعو الذمم

قال تعالى:{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)} [الزخرف:٥١ - ٥٦]

وعليهم أن يعلموا أن عدوهم قد أصيب بأذى شديد كما أصيبوا،قال تعالى:{إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [آل عمران:١٤٠]

إن الشدة بعد الرخاء،والرخاء بعد الشدة،هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس،وطبائع القلوب،ودرجة الغبش فيها والصفاء،ودرجة الهلع فيها والصبر،ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط،ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح! عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن:مؤمنين ومنافقين،ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم،وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم. ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده،وهم مختلطون مبهمون! والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين. والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور. ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء،وتجعله واقعا في حياة الناس،وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر،وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر،ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء. فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.

ومداولة الأيام،وتعاقب الشدة والرخاء،محك لا يخطئ،وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة.

وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك،ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل. والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء،وتتجه إلى الله في الحالين،وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله.

وقد كان الله يربي هذه الجماعة - وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية - فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء،والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب - وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة. لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة. ولتزيد طاعة لله،وتوكلا عليه،والتصاقا بركنه. ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين.

ويمضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة،وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس،وفيما بعد تمييز الصفوف،وعلم الله للمؤمنين:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ»..

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق - إن الشهداء لمختارون. يختارهم الله من بين المجاهدين،ويتخذهم لنفسه - سبحانه - فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد. إنما هو اختيار وانتقاء،وتكريم واختصاص.. إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة،ليستخلصهم لنفسه - سبحانه - ويخصهم بقربه.

ثم هم شهداء يتخذهم الله،ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس. يستشهدهم فيؤدون الشهادة. يؤدونها أداء لا شبهة فيه،ولا مطعن عليه،ولا جدال حوله. يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق،وتقريره في دنيا الناس. يطلب الله - سبحانه - منهم أداء هذه الشهادة،على أن ما جاءهم من عنده الحق،وعلى أنهم آمنوا به،وتجردوا له،وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق وعلى أنهم هم استيقنوا هذا،فلم يألوا جهدا في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس،وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس.. يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون. وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت. وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال! وكل من ينطق بالشهادتين:شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول

الله. لا يقال له إنه شهد،إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها. ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إليها. ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله. فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد وأخص خصائص العبودية التلقي من الله.. ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله. ولا يعتمد مصدرا آخر للتلقي إلا هذا المصدر..

ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض،كما بلغها محمد - ﷺ - فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس،والذي بلغه عنه محمد - ﷺ - هو المنهج السائد والغالب والمطاع،وهو النظام الذي يصرّف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله،فهو إذن شهيد. أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها. واتخذه الله شهيدا.. ورزقه هذا المقام. هذا فقه ذلك التعبير العجيب:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ.. ».

وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله،ومقتضاه.. لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع![1166]

وهذا النظام الإجرامي هو عدو الأنبياء ودعوة الرسل وأتباع الرسل،والله سوف ينتقم منهم لا محالة،قال تعالى:{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان:٣١]

ولله الحكمة البالغة. فإن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوي عودها ويطبعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها. وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها - مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق - هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة وهو الذي يمحص القائمين عليها،ويطرد الزائفين منهم فلا يبقى بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة،التي لا تبتغي مغانم قريبة. ولا تريد إلا الدعوة خالصة،تبتغي بها وجه الله تعالى.

[1166] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٧٨٢)

ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة،تسلك طرقا ممهدة مفروشة بالأزهار،ولا يبرز لهـــا في الطريق خصوم ومعارضون،ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون،لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة،ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل،ووقعت البلبلة والفتنـــة. ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات،هو الذي يجعـــل الكفـــاح لانتصـــارها حتمـــا مقضيا،ويجعل الآلام والتضحيات لهـــا وقـــودا. فـــلا يكـــافح ويناضـــل،ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون،الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع،وأعراض الحياة الدنيا. بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها. ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عودا،وأشدهم إيمانا،وأكثرهم تطلعـــا إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس..

عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل. وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء مـــن الضعفاء. وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها،واجتازوا امتحانها وبلاءها. أولئك هم الأمناء عليها الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته. وقد نالوا هـــذا النصر بثمنه الغالي،وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين.

وقد علمتهم التجارب والابتلاء ات كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور. وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم ومقدراتهم،فنما رصيدهم من القوة وذخيرتهم من المعرفة. فيكون هذا كله رصيدا للدعوة التي يحملون رايتها على السراء والضراء.

والذي يقع غالبا أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بـــين المجـــرمين وأصـــحاب الدعوات حتى إذا تضخم رصيد التضحيات والآلام في صف أصـــحاب الـــدعوات،وهم ثابتون على دعوتهم،ماضون في طريقهم،قالت الكثرة المتفرجة أو شعرت أنـــه لا يمســـك أصحاب الدعوة على دعوتهم على الرغم من التضحيات والآلام،إلا أن في هذه الدعوة ما هو أغلى مما يضحون به وأثمن.. وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ما هو هذا العنصـــر الغالي الثمين الذي يرجح كل أعراض الحياة،ويرجح الحياة ذاتها عند أصـــحاب الـــدعوة. وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجا في هذه العقيدة بعد طول التفرج بالصراع!

من أجل هذا كله جعل الله لكل نبي عدوا من المجرمين وجعل المجرمين يقفون في وجه دعوة الحق،وحملة الدعوة يكافحون المجرمين،فيصيبهم ما يصيبهم وهم ماضون في الطريق،والنهاية مقدرة من قبل،ومعروفة لا يخطئها الواثقون بالله. إنها الهداية إلى الحق،والانتهاء إلى النصر:«وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً».

وبروز المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي. فدعوة الحق إنما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو في البشرية. فساد في القلوب،وفساد في النظم،وفساد في الأوضاع. ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون،الذين ينشئون الفساد من ناحية،ويستغلونه من ناحية. والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد،وتتنفس شهواتهم في جوه الوبيء. الذين يجدون فيه سندا للقيم الزائفة التي يستندون هم في وجودهم إليها.. فطبيعي إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعا عن وجودهم،واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه. وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة،ولا يستطيع الحياة إلا في المقاذر،وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري،ولا يستطيع الحياة إلا في المستنقع الآسن. وكذلك المجرمون.. فطبيعي إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق،يستميتون في كفاحها. وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية،لأنها تسير مع خط الحياة،وتتجه إلى الأفق الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله،والذي تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما أراد الله.. «وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً»..[1167]

نصر الله قريب ولكن له ثمن باهظ:

قال تعالى:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة:٢١٤]

إنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة.. إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه. من الرسول الموصول بالله،والمؤمنين الذين آمنوا بالله. إن سؤالهم:«مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟ » ليصور

[1167] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٣٢٩٣)

مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة. ولن تكون إلا محنة فوق الوصف،تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب،فتبعث منها ذلك السؤال المكروب:«مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟ ».

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة.. عندئذ تتم كلمة الله،ويجيء النصر من الله:«أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ»..

إنه مدخر لمن يستحقونه. ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية. الذين يثبتون على البأساء والضراء.

الذين يصمدون للزلزلة. الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة. الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله،وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها،فهم يتطلعون فحسب إلى «نَصْرُ اللَّهِ»،لا إلى أي حل آخر،ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله. ولا نصر إلا من عند الله.

بهذا يدخل المؤمنون الجنة،مستحقين لها،جديرين بها،بعد الجهاد والامتحان،والصبر والثبات،والتجرد لله وحده،والشعور به وحده،وإغفال كل ما سواه وكل من سواه.

إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة،ويرفعها على ذواتها،ويطهرها في بوتقة الألم،فيصفو عنصرها ويضيء،ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية،فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها. وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما وقع،وكما يقع في كل قضية حق،يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق،حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم،وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين..

على أنه – حتى إذا لم يقع هذا – يقع ما هو أعظم منه في حقيقته. يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها،وأن تنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة،والحرص على الحياة نفسها في النهاية.. وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها،وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء. كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون،المؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته. وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف.. وهذا هو الطريق..هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى،وللجماعة المسلمة في كل جيل.

هذا هو الطريق:إيمان وجهاد.. ومحنة وابتلاء. وصبر وثبات.. وتوجه إلى الله وحـــده. ثم يجيء النصر. ثم يجيء النعيم..[1168]

شبهات حول تأخر النصر ومناقشتها:

الشبهة الأولى –قال تعالى:{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْـــرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [الحج:٣٩]

فأين نصر الله،فقد أوذينا أذى شديدا ولم نصل إلى النصر بعد ؟؟؟

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يـــتم نضجهم هم في أثناء المعركة. فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر وهي تدفع وتدافع،وهي تستجمع كل قوتها لتواجـــه القـــوة المهاجمة.. عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ولتؤتي أقصى ما تملكه،وتبذل آخر ما تنطـــوي عليه وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى اســـتيقاظ كـــل خلاياها،واحتشـــاد كـــل قواها،وتوفز كل استعدادها،وتجمع كل طاقاتها،كي يتم نموها،ويكمـــل نضـــجها،وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء،والذي يتنزل هينا لينا على القاعدين المستريحين،يعطل تلك الطاقات عن الظهور،لأنه لا يحفزها ولا يدعوها.

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه. أولا لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة. وثانيا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ بـــه و لم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه. فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

[1168] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٤٥٥)

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة،والكر والفر،والقوة والضعف والتقدم والتقهقر. ومن المشاعر المصاحبة لها.. من الأمل والألم. ومن الفرح والغم،ومن الاطمئنان والقلق.

ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة.. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة،وتدبير الأمور في جميع الحالات.. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

من أجل هذا كله،ومن أجل غيره مما يعلمه الله.. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم و لم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء.[١١٦٩]

الشبهة الثانية–لقد كنا نعذب عذابا شديدا من قبل النظام وكانت حرماتنا تنتهك قبل الثورة ولكنها بعد الثورة ازدات بشكل لا يوصف ونحن لا نعتمد إلا على الله تعالى ونصدح بذكره ليل نهار فأين نصر الله لنا ؟؟

الجواب في قوله تعالى:{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)} [الأعراف:١٢٧ – ١٢٩]

فهذا الذي حصل مع بني إسرائيل تماما قبل مجيء النبي موسى عليه السلام ليحررهم من عبودية فرعون وقومه...

إنها رؤية «النبي» لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه. ولحقيقة الواقع الكوني والقوى التي تعمل فيه.

[1169] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٣١٣٦)

ولحقيقة السنة الإلهية وما يرجوه منها الصابرون.. إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد،وهو الملاذ الحصين الأمين،وإلا ولي واحد وهو الولي القوي المتين. وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه.

وألا يعجلوا،فهم لا يطلعون الغيب،ولا يعلمون الخير.. وإن الأرض لله. وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها. والله يورثها من يشاء من عباده - وفق سنته وحكمته - فلا ينظر الداعون إلى رب العالمين،إلى شيء من ظواهر الأمور التي تخيل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مزحزح عنها.. فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها! وإن العاقبة للمتقين.. طال الزمن أم قصر.. فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير.

ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا في البلاد،فيحسبونهم باقين..

إنها رؤية «النبي» لحقائق الوجود الكبير.. ولكن إسرائيل هي إسرائيل! «قالُوا:أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا»:إنها كلمات ذات ظل! وإنها لتشي بما وراءها من تبرم! أوذينا قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك. وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية! ويمضي النبي الكريم على نهجه. يذكرهم بالله،ويعلق رجاءهم به،ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم.

واستخلافهم في الأرض. مع التحذير من فتنة الاستخلاف. «قالَ:عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ،وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ،فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ».

إنه ينظر بقلب النبي فيرى سنة الله،تجري وفق وعده،للصابرين،وللجاحدين! ويرى من خلال سنة الله هلاك الطاغوت وأهله،واستخلاف الصابرين المستعينين بالله وحده. فيدفع قومه دفعا إلى الطريق لتجري بهم سنة الله إلى ما يريد.. وهو يعلمهم - منذ البدء - أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم. ليس أنهم أبناء الله وأحباؤه - كما زعموا - فلا يعذبهم بذنوبهم! وليس جزافا بلا غاية. وليس خلودا بلا توقيت. إنه استخلاف للامتحان:«فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ».. وهو سبحانه يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون.

ولكنها سنة الله وعدله ألا يحاسب البشر حتى يقع منهم في العيان،ما هو مكشوف من الغيب لعلمه القديم.[1170]

الشبهة الثالثة – متى يأتي نصر الله ؟؟؟

قال تعالى:{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (} [يوسف:١١٠]

إنها ساعات حرجة،والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر. والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض. فتهجس في خواطرهم الهواجس.. تراهم كذبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر. وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة:٢١٤] ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ،ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس،والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة،وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات،وما يحس به من ألم لا يطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب،ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل،ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملا حاسما فاصلا:«جاءَهُمْ نَصْرُنا،فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ،وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»..

تلك سنة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد،ولا بد من الكروب،حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة. ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس. يجيء النصر من عند الله،فينجو الذين يستحقون النجاة،ينجون من الهلاك الذي

[1170] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ١٨٢٢)

يأخذ المكذبين،وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالمجرمين،مدمرا ماحقا لا يقفون له،ولا يصده عنهم ولي ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصا فتكون الدعوات هزلا. فلو كان النصر رخيصا لقام في كل يوم دعيّ بدعوة لا تكلفه شيئا. أو تكلفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثا ولا لعبا. فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج،ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء. والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة،لذلك يشفقون أن يدّعوها،فإذا ادّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها،وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة الله،ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة!

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل إما أن تربح ربحا معينا محددا في هذه الأرض،وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحا وأيسر حصيلة!

والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية – والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان – يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة،ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل!

إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله،باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات!..

ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف،وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضا. وأنه من ثم لا تنضم إليها – في أول الأمر – الجماهير المستضعفة،إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله،التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة،وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا. وأن عدد هذه الصفوة يكون دائما قليلا جدا.

ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق،بعد جهاد يطول أو يقصر. وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجا. [1171]

شبهة أنه عاهد الله تعالى مع بعض الإخوة على الشهادة في سبيل الله فنالها البعض دونه وهو حزين لذلك،ويسعر أنه مقصر لذلك:

الأخ الفاضل حموي حرر

أولا- الحياة والموت بيد الله تعالى وليست بيد البشر،فليس الإقدام يقرب الآجال وليس الإحجام يبعدها،قال تعالى:{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)} [التوبة:٥١،٥٢]

ثانيا- الذي قدر له الموت والشهادة في سبيل الله سوف ينالها حتما،قال تعالى:{ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [آل عمران:١٥٤]

ثالثا- الشهادة في سبيل الله تعتبر أعلى الدرجات عند الله تعالى حتى تمناها الأنبياء والمرسلون،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ،لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي،وَإِيمَانًا بِي،وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي،فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ،نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ،إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ،لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ،وَرِيحُهُ مِسْكٌ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا،وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ،وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً،وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ

[1171] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٦٨١)

أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»[1172]

رابعا- جزاء الشهيد يوم القيامة لا يعادله جزاء عند الله تعالى،فعَنْ قَيْسٍ الْجُذَامِيِّ،رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" يُعْطَى الشَّهِيدُ ستَّ خِصَالٍ عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ:يُكَفَّرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ،وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ،وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،وَيُؤَمَّنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ،وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ "[1173]

وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْعَ خِصَالٍ:يُغْفَرُ لَهُ عِنْدَ أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ،وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ،وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ،وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،وَيُجَارُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ،وَيَأْمَنُ يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ،وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ،الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَيُزَوَّجُ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ "[1174]

خامسا- من يتمنى الشهادة في سبيل الله صادقا ولا ينالها في الدنيا بلغه الله تعالى منازل الشهداء يوم القيامة فعن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ،بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ،وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[1175]

سادسا- لا يمكن تحقيق النصر على أعدائنا دون تضحيات جسام،قال تعالى:{ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران:١٤٠]

وقال تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } [آل عمران:١٤٢]

سابعا- عليك أخي الحبيب مواصلة السير على الطريق الذي قطعته أنت وأحبابك واثبت حتى النهاية لعل الله تعالى أن يجمع بينك وبين من تحب يوم القيامة،فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قُلْتُ:يَا

1172 - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٥)١٠٣ - (١٨٧٦)

1173 - مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٣٢٢)(١٧٧٨٣) صحيح لغيره

1174 - الجهاد لابن أبي عاصم (٢/ ٥٣٣)(٢٠٤) صحيح

1175 - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧)١٥٧ - (١٩٠٩)

رَسُولَ اللَّه،الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَلْحَقَ بِعَمَلِهِمْ؟ قَالَ:«أَنْتَ يَا أَبَا ذَرٍّ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»،قُلْتُ:إِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،قَالَ:«أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ يَا أَبَا ذَرٍّ»[1176]

فكن صابرا محتسبا عسى الله أن يبلغك مناك،قال تعالى:{ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران]

[1176] – الأدب المفرد مخرجا (ص: ١٢٨)(٣٥١) صحيح

المبحث السابع والأربعون

اشتراط إذن الإمام ووجود الراية في قتال الكفار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد المرسلين،وعلى آهل وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه الفتوى في الأصل للدكتور حاكم المطيري حفظه الله

وقد قمت بتحقيقها وتخريج أحاديثها وشرح غريبها وتدقيق نصوصها ومصادرها ونقل النصوص كاملة دون اختصار،وذكرت الأدلة التي لم يذكرها الدكتور أو أشار إليها إشارة فقط،مع بعض التعقيبات وقد وضعت لها عناوين جزئية أيضا...لتكون بذلك متكاملة وموثقة،خاصة وأن هذه القضية من القضايا الخطيرة والتي يروِّج لها فقهاء الهزيمة وفقهاء السلاطين الذين باعوا دينهم بثمن بخس.

نسأل الله تعالى أن ينفع بها كاتبها ومحققها وقارئها وناشرها في الدارين.

الشهاب الثاقب

في ٥ شوال ١٤٣٢ هـ الموافق ل٢/١٠/٢٠١١ م

نص الفتوى

وهذا نصها:" انتشر بين الناس في هذه الأيام فتاوى كثيرة في الجهاد،ممن ينسبون إلى العلم،يقولون فيها بأن الجهاد في العراق أو فلسطين،أو غيرها من البلاد التي احتلها الكفار،يشترط فيه إذن الإمام ووجود الراية،وكان ممن عرض هذه المسألة عرضاً علمياً مؤصلاً الدكتور حاكم بن عبيسان المطيري (المدرس بقسم التفسير والحديث في كلية الشريعة بجامعة الكويت)،وذلك في إجابة له على السؤال التالي:

السؤال:**فضيلة الشيخ،هناك من يقول بأنه لا جهاد إلا بوجود إمام وراية،وأن ما سوى ذلك فهو قتال فتنة،لا يعد من قتل فيه شهيداً،وأنه يحرم قتال العدو إذا احتل أرضاً**

للمسلمين إذا لم يكن للمسلمين به طاقة،فما رأيكم في صحة هذا الأقوال وفق أصول الشريعة وأقوال فقهائها ؟

الجواب:

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبيه الأمين وآله وصحبه أجمعين،وبعد:

هذا القول لا أصل له بإجماع الأئمة وسلف الأمة،بل هو قول ظاهر البطلان مصادم للنصوص القطعية والأصول الشرعية والقواعد الفقهية،ومن ذلك:

١) أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تأمر بالجهاد في سبيل الله ليس فيها اشتراط شيء من ذلك.

بل هي عامة مطلقة والخطاب فيها لعموم أهل الإيمان والإسلام،كما في قوله تعالى:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [البقرة:١٩٠].وقوله عز وجل:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة:١١١].

وعَنْ أَنَسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[1177]

قال ابن حزم رحمه الله:" وَقَالَ تَعَالَى:{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ} [النساء:٨٤] وَهَذَا خِطَابٌ مُتَوَجِّهٌ إلَى كُلِّ مُسْلِمٍ،فَكُلُّ أَحَدٍ مَأْمُورٌ بِالْجِهَادِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَحَدٌ،وَقَالَ تَعَالَى:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} [التوبة:٤١]،وَقَالَ تَعَالَى:{فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا}[النساء:٧١] "[1178]

وقال ابن قدامة:"وَالْجِهَادُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،إذَا قَامَ بِهِ قَوْمٌ،سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ) مَعْنَى فَرْضِ الْكِفَايَةِ،الَّذِي إنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ مَنْ يَكْفِي،أَثِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ،وَإِنْ قَامَ بِهِ مَنْ يَكْفِي،سَقَطَ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ.

1177 – السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٦٩)(٤٢٨٩) صحيح

1178 – المحلى بالآثار (٥/ ٤٢١)

فَالْخطَابُ فِي ابْتِدَائِه يَتَنَاوَلُ الْجَمِيعَ،كَفَرْضِ الْأَعْيَان،ثُمَّ يَخْتَلِفَان فِي أَنَّ فَرْضَ الْكِفَايَة يَسْقُطُ بِفِعْلِ بَعْضِ النَّاسِ لَهُ،وَفَرْضُ الْأَعْيَانِ لَا يَسْقُطُ عَنْ أَحَدٍ بِفِعْلِ غَيْرِه وَالْجِهَادُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَات،فِي قَوْلِ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ."[1179].

وقال العلامة عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب:"ولا ريب أن فرض الجهاد باق إلى يوم القيامة،والمخاطب به المؤمنون،فإذا كانت هناك طائفة مجتمعة لها منعة وجب عليها أن تجاهد في سبيل الله بما تقدر عليه،لا يسقط عنها فرضه بحال ولا عن جميع الطوائف " [1180].

٢) انعقاد إجماع الأمة على أن الجهاد فرض كفاية.

والمخاطب به أصلاً الجميع حتى يقوم به من فيه كفاية وقدرة،فيسقط الوجوب حينئذ عن الباقين،ما لم يصبح فرض عين،قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري:" هُوَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ حَتَّى يَقُومَ بِهِ مَنْ فِي قِيَامِهِ الْكِفَايَةُ،فَيَسْقُطُ فَرْضُ ذَلِكَ حِينَئِذٍ عَنْ بَاقِي الْمُسْلِمِينَ كَالصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَائِزِ وَغَسْلِهِمُ الْمَوْتَى وَدَفْنِهِمْ،وَعَلَى هَذَا عَامَّةُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَذَلِكَ هُوَ الصَّوَابُ عِنْدَنَا لِإِجْمَاعِ الْحُجَّةِ عَلَى ذَلِكَ،وَلِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ،وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [النساء:٩٥] فَأَخْبَرَ جَلَّ،ثَنَاؤُهُ أَنَّ الْفَضْلَ،لِلْمُجَاهِدِينَ،وَأَنَّ لَهُمْ،وَلِلْقَاعِدِينَ الْحُسْنَى،وَلَوْ كَانَ الْقَاعِدُونَ مُضَيِّعِينَ فَرْضًا لَكَانَ لَهُمُ السُّوأَى لَا الْحُسْنَى."[1181].

وقال ابن عطية في تفسيره:" قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ:وَالَّذِي اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ أَنَّ الْجِهَادَ عَلَى كُلِّ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَرْضُ كِفَايَةٍ،فَإِذَا قَامَ بِهِ مَنْ قَامَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ،إِلَّا أَنْ يَنْزِلَ الْعَدُوُّ بِسَاحَةِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ حِينَئِذٍ فَرْضُ عَيْنٍ"[1182].

1179 – المغني لابن قدامة (٩/ ١٩٦) و والهداية على مذهب الإمام أحمد (ص: ٢٠٧) وشرح الزركشي على مختصر الخرقي (٦/ ٤٢٤)

1180 – الدرر السنية ٧ / ٩٨

1181 – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٦٤٤)

1182 – تفسير القرطبي (٣/ ٣٨)

وفي الموسوعة الفقهية:" ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ إِذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ لِحُصُولِ الْمَقْصُودِ وَهُوَ كَسْرُ شَوْكَةِ الْمُشْرِكِينَ،وَإِعْزَازُ الدِّينِ.وَمَعْنَى الْكِفَايَةِ فِي الْجِهَادِ أَنْ يَنْهَضَ إِلَيْهِ قَوْمٌ يَكْفُونَ فِي جِهَادِهِمْ،إِمَّا أَنْ يَكُونُوا جُنْدًا لَهُمْ دَوَاوِينُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ،أَوْ يَكُونُوا أَعَدُّوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ تَطَوُّعًا بِحَيْثُ إِذَا قَصَدَهُمُ الْعَدُوُّ حَصَلَتِ الْمَنَعَةُ بِهِمْ،وَيَكُونُ فِي الثُّغُورِ مَنْ يَدْفَعُ الْعَدُوَّ عَنْهَا،وَيَبْعَثُ فِي كُلِّ سَنَةٍ جَيْشًا يُغِيرُونَ عَلَى الْعَدُوِّ فِي بِلاَدِهِمْ.وَفَرْضُ الْكِفَايَةِ:مَا قُصِدَ حُصُولُهُ مِنْ غَيْرِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ،فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ إِلاَّ وَاحِدٌ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ،كَرَدِّ السَّلاَمِ،وَالصَّلاَةِ عَلَى الْجِنَازَةِ.فَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِالْوَاجِبِ مَنْ يَكْفِي،أَثِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ.[1183]

٣) أن الجهاد نوعان:

النوع الأول:جهاد الفتح:

وهو طلب العدو في أرضه،فهذا النوع لا يشترط لصحته وجود الإمام،بل إذا كان الإمام قائما بالجهاد فإنه لا يسوغ الافتئات عليه والتقدم إليه،إلا عن إذن الإمام ورأيه،إذ الأمر موكول إليه،فاستئذانه واجب لا شرط صحة،فيأثم من جاهد دون إذنه،وجهاده صحيح،فإن لم يكن هناك إمام أو فقد أو قتل فإن هذا الجهاد لا يتعطل،قال ابن قدامة:" فَإِنْ عُدِمَ الْإِمَامُ،لَمْ يُؤَخَّرْ الْجِهَادُ؛ لِأَنَّ مَصْلَحَتَهُ تَفُوتُ بِتَأْخِيرِهِ.وَإِنْ حَصَلَتْ غَنِيمَةٌ،قَسَمَهَا أَهْلُهَا عَلَى مُوجَبِ الشَّرْعِ.قَالَ الْقَاضِي:وَيُؤَخَّرُ قِسْمَةُ الْإِمَاءِ حَتَّى يَظْهَرَ إمَامٌ احْتِيَاطًا لِلْفُرُوجِ."[1184].

فلو كان وجوده شرطاً لصحة الجهاد لوجب تعطيل الجهاد وتأخيره حتى يوجد الإمام،ولما ساغ المضي فيه بدعوى المصلحة،ولما حلت الغنيمة،وكذا إذا كان الإمام موجوداً،إلا أنه تعذر على أهل الجهاد استئذانه،فإن لهم أن يمضوا دون إذن الإمام مراعاة للحاجة.

1183 – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٢٩)

1184 – الأسئلة والأجوبة الفقهية (٣/ ٩٦) والإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢/ ٦) والشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٣٧٣) والمغني لابن قدامة (٩/ ٢٠٢) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٣/ ٤١)

قال ابن قدامة:" فَإِنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ إلَّا بِإِذْنِ الْأَمِيرِ؛ لِأَنَّ أَمْرَ الْحَرْبِ مَوْكُولٌ إلَيْهِ،وَهُوَ أَعْلَمُ بِكَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَقِلَّتِهِمْ،وَمَكَامِنِ الْعَدُوِّ وَكَيْدِهِمْ،فَيَنْبَغِي أَنْ يُرْجَعَ إلَى رَأْيِهِ،لِأَنَّهُ أَحْوَطُ لِلْمُسْلِمِينَ؛ إلَّا أَنْ يَتَعَذَّرَ اسْتِئْذَانُهُ لِمُفَاجَأَةِ عَدُوِّهِمْ لَهُمْ،فَلَا يَجِبُ اسْتِئْذَانُهُ،لِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ تَتَعَيَّنُ فِي قِتَالِهِمْ وَالْخُرُوجِ إلَيْهِ،لِتَعَيُّنِ الْفَسَادِ فِي تَرْكِهِمْ،وَلِذَلِكَ لَمَّا أَغَارَ الْكُفَّارُ عَلَى لِقَاحِ النَّبِيِّ - ﷺ - فَصَادَفَهُمْ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ خَارِجًا مِنْ الْمَدِينَةِ،تَبِعَهُمْ،فَقَاتَلَهُمْ،مِنْ غَيْرِ إذْنٍ،فَعَنْ إيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ،عَنْ أَبِيهِ سَلَمَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَاهُ سَهْمَ الْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ،وَهُوَ عَلَى رِجْلَيْهِ،وَكَانَ اسْتَنْقَذَ لِقَاحَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ:«خَيْرُ فُرْسَانِنَا أَبُو قَتَادَةَ،وَخَيْرُ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ»." [1185]

فلو كان وجود الإمام وإذنه شرطاً لصحة جهاد الطلب لما صح الجهاد في حال عدم وجوده،ولما صح مع وجوده دون إذنه عند الحاجة،إذ الشرط ما يلزم من عدمه العدم،وهنا لم يبطل الفقهاء جهاد الطلب في هاتين الحالتين،فدلَّ ذلك على أن وجوده ليس شرطا لصحة هذا النوع من الجهاد،بل المراعى في الحالتين تحقق المصلحة ودفع المفسدة كما علل بذلك ابن قدامة رحمه الله.

النوع الثاني:وهو جهاد الدفع عن أرض المسلمين:

فالأمر فيه أوضح وأجلى إذ لا يشترط له أي شرط إطلاقاً،بل على كل أحد الدفع بما استطاع،فلا يستأذن الولد والده،ولا الزوجة زوجها،ولا الغريم غريمه،وكل هؤلاء أحق بالإذن والطاعة من الإمام،ومع ذلك سقط حقهم في هذه الحال؛ إذ الجهاد فرض عين على الجميع فلا يشترط له إذن إمام فضلاً عن وجوده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" وَأَمَّا قِتَالُ الدَّفْعِ فَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ دَفْعِ الصَّائِلِ عَنْ الْحُرْمَةِ وَالدِّينِ فَوَاجِبٌ إجْمَاعًا فَالْعَدُوُّ الصَّائِلُ الَّذِي يُفْسِدُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَا شَيْءَ أَوْجَبَ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ دَفْعِهِ فَلَا يُشْتَرَطُ لَهُ شَرْطٌ بَلْ يُدْفَعُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ "[1186].

[1185] – الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٤٦١) والمغني لابن قدامة (٩/ ٢١٣) والحديث في الأموال لابن زنجويه (٢/ ٧١٣)(١٢١٣) صحيح

[1186] – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٨) والمستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٥)

وقال أيضاً:" وَإِذَا دَخَلَ الْعَدُوُّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهُ عَلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إذْ بِلَادُ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَلْدَةِ الْوَاحِدَةِ،وَأَنَّهُ يَجِبُ النَّفِيرُ إلَيْهِ بِلَا إذْنِ وَالِدٍ وَلَا غَرِيمٍ،وَنُصُوصُ أَحْمَدَ صَرِيحَةٌ بِهَذَا وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا فِي الْمُخْتَصَرَاتِ.لَكِنْ هَلْ يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَكَانِ النَّفِيرُ إذَا نَفَرَ إلَيْهِ الْكِفَايَةُ كَلَامُ أَحْمَدَ فِيهِ مُخْتَلِفٌ وَقِتَالُ الدَّفْعِ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ كَثِيرًا لَا طَاقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ لَكِنْ يُخَافُ إنْ انْصَرَفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ عَطَفَ الْعَدُوُّ عَلَى مَنْ يُخَلِّفُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَهُنَا قَدْ صَرَّحَ أَصْحَابُنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَبْذُلُوا مُهَجَهُمْ وَمُهَجَ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ فِي الدَّفْعِ حَتَّى يَسْلَمُوا وَنَظِيرُهَا أَنْ يَهْجُمَ الْعَدُوُّ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَتَكُونَ الْمُقَاتِلَةُ أَقَلَّ مِنْ النِّصْفِ فَإِنْ انْصَرَفُوا اسْتَوْلَوْا عَلَى الْحَرِيمِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ قِتَالُ دَفْعٍ لَا قِتَالُ طَلَبٍ لَا يَجُوزُ الِانْصِرَافُ فِيهِ بِحَالٍ"[1187].

وقال ابن حزم :" وَلَا يَجُوزُ الْجِهَادُ إلَّا بِإِذْنِ الْأَبَوَيْنِ إلَّا أَنْ يَنْزِلَ الْعَدُوُّ بِقَوْمٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَفَرْضٌ عَلَى كُلِّ مَنْ يُمْكِنُهُ إعَانَتُهُمْ أَنْ يَقْصِدَهُمْ مُغِيثًا لَهُمْ أَذِنَ الْأَبَوَانِ أَمْ لَمْ يَأْذَنَا – إلَّا أَنْ يَضِيعَا أَوْ أَحَدُهُمَا بَعْدَهُ،فَلَا يَحِلُّ لَهُ تَرْكُ مَنْ يَضِيعُ مِنْهُمَا."[1188].

وقال الجصاص:" " وَمَعْلُومٌ فِي اعْتِقَادِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ إذَا خَافَ أَهْلُ الثُّغُورِ مِنْ الْعَدُوِّ وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمْ مُقَاوِمَةٌ لَهُمْ فَخَافُوا عَلَى بِلَادِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ أَنَّ الْفَرْضَ عَلَى كَافَّةِ الْأُمَّةِ أَنْ يَنْفِرُ إلَيْهِمْ مَنْ يَكُفُّ عَادِيَتَهُمْ عَنْ الْمُسْلِمِينَ وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ إذا لَيْسَ مِنْ قَوْلِ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إبَاحَةُ القعود عنهم حين يَسْتَبِيحُوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيَ ذَرَارِيِّهِمْ "[1189].

وقال الخطيب الشربيني الشافعي:" (الثَّانِي) مِنْ حَالَيْ الْكُفَّارِ،وَهُوَ مَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ (يَدْخُلُونَ بَلْدَةً لَنَا) أَوْ يَنْزِلُونَ عَلَى جَزَائِرَ أَوْ جَبَلٍ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَلَوْ بَعِيدًا عَنْ الْبَلَدِ (فَيَلْزَمُ أَهْلَهَا الدَّفْعُ بِالْمُمْكِنِ) مِنْهُمْ،وَيَكُونُ الْجِهَادُ حِينَئِذٍ فَرْضَ عَيْنٍ،وَقِيلَ كِفَايَةً،وَاعْتَمَدَهُ الْبُلْقِينِيُّ وَقَالَ:إنَّ نَصَّ الشَّافِعِيِّ يَشْهَدُ لَهُ (فَإِنْ أَمْكَنَ) أَهْلَهَا (تَأَهُّبٌ) أَيْ اسْتِعْدَادٌ (لِقِتَالٍ وَجَبَ) عَلَى كُلٍّ مِنْهُمْ (الْمُمْكِنُ) أَيْ الدَّفْعُ لِلْكُفَّارِ بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ (حَتَّى عَلَى فَقِيرٍ) بِمَا يَقْدِرُ

1187 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٩)

1188 – المحلى بالآثار (٥/ ٣٤١)

1189 – أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (٤/ ٣١٢) وأحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١٤٦)

عَلَيْهِ (وَوَلَد وَمِّ دينٍ) وَهُوَ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ (وَعَبْد بِلَا إِذْنٍ) مِنْ أَبَوَيْنِ وَرَبِّ دَيْنٍ وَمِنْ سَيِّدٍ،وَيَنْحَلُّ الْحَجْرُ عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ؛ لِأَنَّ دُخُولَهُمْ دَارَ الْإِسْلَامِ خَطْبٌ عَظِيمٌ لَا سَبِيلَ إِلَى إِهْمَالِهِ،فَلَا بُدَّ مِنْ الْجَدِّ فِي دَفْعِهِ بِمَا يُمْكِنُ،وَفِي مَعْنَى دُخُولِهِمْ الْبَلْدَةَ مَا لَوْ أَطَلُّوا عَلَيْهَا،وَالنِّسَاءُ كَالْعَبِيدِ إنْ كَانَ فِيهِنَّ دِفَاعٌ،وَإِلَّا فَلَا يَحْضُرْنَ."[1190].

وقال أيضاً:" " وَالْحَالُ الثَّانِي مِنْ حَالَيْ الْكُفَّارِ أَنْ يَدْخُلُوا بَلْدَةً لَنَا مَثَلًا فَيَلْزَمُ أَهْلَهَا الدَّفْعُ بِالْمُمْكِنِ مِنْهُمْ.وَيَكُونُ الْجِهَادُ حِينَئِذٍ فَرْضَ عَيْنٍ سَوَاءٌ أَمْكَنَ تَأَهُّبُهُمْ لِقِتَالٍ أَمْ لَمْ يُمْكِنْ عَلِمَ كُلُّ مَنْ قَصَدَ أَنَّهُ إنْ أُخِذَ قُتِلَ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ إنْ امْتَنَعَ مِنْ الِاسْتِسْلَامِ قُتِلَ أَوْ لَمْ تَأْمَنْ الْمَرْأَةُ فَاحِشَةً إنْ أُخِذَتْ.وَمَنْ هُوَ دُونَ مَسَافَةِ الْقَصْرِ مِنْ الْبَلْدَةِ الَّتِي دَخَلَهَا الْكُفَّارُ حُكْمُهُ كَأَهْلِهَا وَإِنْ كَانَ فِي أَهْلِهَا كِفَايَةٌ؛ لِأَنَّهُ كَالْحَاضِرِ مَعَهُمْ فَيَجِبُ ذَلِكَ عَلَى كُلٍّ مِمَّنْ ذُكِرَ حَتَّى عَلَى فَقِيرٍ وَوَلَدٍ وَمَدِينٍ وَرَقِيقٍ بِلَا إِذْنٍ مِنْ الْأَصْلِ وَرَبِّ الدَّيْنِ وَالسَّيِّدِ.."[1191]

وفي الموسوعة الفقهية:" لاَ يَجُوزُ الْجِهَادُ إِلاَّ بِإِذْنِ الأَبَوَيْنِ الْمُسْلِمَيْنِ،أَوْ بِإِذْنِ أَحَدِهِمَا إِنْ كَانَ الآْخَرُ كَافِرًا،إِلاَّ إِذَا تَعَيَّنَ،كَأَنْ يَنْزِلَ الْعَدُوُّ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَفَرْضٌ عَلَى كُلِّ مَنْ يُمْكِنُهُ إِعَانَتُهُمْ أَنْ يَقْصِدَهُمْ مُغِيثًا لَهُمْ،أَذِنَ الأَْبَوَانِ أَمْ لَمْ يَأْذَنَا،إِلاَّ أَنْ يَضِيعَا،أَوْ أَحَدُهُمَا بَعْدَهُ،فَلاَ يَحِلُّ لَهُ تَرْكُ مَنْ يَضِيعُ مِنْهُمَا "[1192]

وهذا هو معنى كونه فرض عين،فلو كان يشترط له شروط صحة،كوجود إمام أو إذنه لما كان فرض عين في حال هجوم العدو على المسلمين،وهو ما لم يقل به أحد من علماء الأمة؛ ولذا قال الماوردي:" " وَفرض الْجِهَاد على الْكِفَايَة يَتَوَلَّاهُ الإِمَام مَا لم يتَعَيَّن وَأَقل مَا عَلَيْهِ أَن لَا يأتى عَام إِلَّا وَله فِيهِ غزَاة إِمَّا بِنَفسِهِ أَو بسراياه،فَإِن لم يقم بِهِ مَعَ الإِمَام من فِيهِ كِفَايَة خرج النَّاس حَتَّى يقوم بِهِ منْهُم من فِيهِ كِفَايَة،وَإِن سَار الْعَدو إِلَيْهِم تعين فرض جهاده على كل من أطَاق دَفعه من الْمُسلمين حَتَّى يردوا "[1193].

1190 – الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٢/ ٥٥٨) وحاشية البجيرمي على الخطيب = تحفة الحبيب على شرح الخطيب (٤/ ٢٥٤) ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٦/ ٢٢)

1191 – حاشية البجيرمي على الخطيب = تحفة الحبيب على شرح الخطيب (٤/ ٢٥٤)

1192 – الموسوعة الفقهية الكويتية (١٦/ ١٣٢)

1193 – الإقناع للماوردي (ص: ١٧٥)

٤) أن كتب الفقهاء قد نصت في كتاب الجهاد على شروط وجوبه،وعلى من يجب ومتى يتعين،وليس فيها نص على اشتراط وجود الإمام أو وجود الراية:

وقد ثبت في الحديث الصحيح عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:أَتَتْهَا بَرِيرَةُ تَسْأَلُهَا فِي كِتَابَتِهَا فَقَالَتْ:إِنْ شِئْتِ أَعْطَيْتُ أَهْلَكِ وَيَكُونُ الوَلاَءُ لِي،فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ذَكَّرْتُهُ ذَلِكَ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«ابْتَاعِيهَا،فَأَعْتِقِيهَا،فَإِنَّمَا الوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ» ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّه ﷺ عَلَى المِنْبَرِ،فَقَالَ:«مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ،مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ،وَإِنِ اشْتَرَطَ مِائَةَ شَرْطٍ»[١١٩٤]

وقد قال العلامة عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في بيان بطلان هذا الشرط:" بأي كتاب،أم بآية حجة أن الجهاد لا يجب إلا مع إمام متبع؟! هذا من الفرية في الدين،والعدول عن سبيل المؤمنين؛ والأدلة على إبطال هذا القول أشهر من أن تذكر،من ذلك عموم الأمر بالجهاد،والترغيب فيه،والوعيد في تركه،قال تعالى:{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} [سورة البقرة آية:٢٥١]،وقال في سورة الحج:{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ} الآية [سورة الحج آية:٤٠].وكل من قام بالجهاد في سبيل الله،فقد أطاع الله وأدى ما فرضه الله،ولا يكون الإمام إماماً إلا بالجهاد،لأنه لا يكون جهاد إلا بإمام،والحق عكس ما قلته يا رجل،وقد قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى} الآية [سورة سبأ آية:٤٦]،وقال:{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} [سورة العنكبوت آية:٦][١١٩٥] .

وقال صديق حسن خان:" الأدلة الدالة على وجوب الجهاد من الكتاب والسنة وعلى فضيلته والترغيب فيه وردت غير مقيدة بكون السلطان أو أمير الجيش عادلا بل هذه فريضة من فرائض الدين أوجبها الله على عبادة المسلمين من غير تقيد بزمن أو مكان أو

1194 – صحيح البخاري (٣/ ١٩٨)(٢٧٣٥) وصحيح مسلم (٢/ ١١٤٢)٨ – (١٥٠٤)

1195 – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ١٩٩) و وفتاوى واستشارات الإسلام اليوم (٧/ ٤٠٢) وفتاوى واستشارات الإسلام اليوم (٧/ ٤٧١

شخص أو عدل أو جور فتخصيص وجوب الجهاد يكون السلطان عادلا ليس عليه أثارة من علم "[1196].

فالجهاد ماض إلى قيام الساعة،سواء وجد إمام أو لم يوجد،وسواء وجدت هناك راية أو لم توجد.

وقد استدل شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم،وعبد الرحمن بن حسن وغيرهم من الأئمة،بقصة أبي بصير ـرضي الله عنهـ وجهاده المشركين بمن معه من المؤمنين،وقطعهم الطريق عليهم،قال ابن القيم:" وَمِنْهَا:أَنَّ الْمُعَاهَدِينَ إِذَا عَاهَدُوا الْإِمَامَ فَخَرَجَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ،فَحَارَبَتْهُمْ وَغَنِمَتْ أَمْوَالَهُمْ،وَلَمْ يَتَحَيَّزُوا إِلَى الْإِمَامِ،لَمْ يَجِبْ عَلَى الْإِمَامِ دَفْعُهُمْ عَنْهُمْ وَمَنْعُهُمْ مِنْهُمْ،وَسَوَاءٌ دَخَلُوا فِي عَقْدِ الْإِمَامِ وَعَهْدِهِ وَدِينِهِ أَوْ لَمْ يَدْخُلُوا،وَالْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَكُنْ عَهْدًا بَيْنَ أبي بصير وَأَصْحَابِهِ وَبَيْنَهُمْ،وَعَلَى هَذَا فَإِذَا كَانَ بَيْنَ بَعْضِ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ وَبَعْضِ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ عَهْدٌ جَازَ لِمَلِكٍ آخَرَ مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَغْزُوَهُمْ وَيَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ،كَمَا أَفْتَى بِهِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي نَصَارَى مَلَطْيَةَ وَسَبْيِهِمْ،مُسْتَدِلًّا بِقِصَّةِ أبي بصير مَعَ الْمُشْرِكِينَ."[1197]

حتى قال النبي ـﷺـ في شأنه "وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ،لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ،فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ البَحْرِ قَالَ:وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ،فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ،فَجَعَلَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ،حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ،فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا،فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ.."[1198]

و لم يكن أبو بصير ـرضي الله عنهـ تحت ولاية النبي ـﷺـ ولا في دار الإسلام،و لم يكن إماماً،و لم تكن معه راية،بل كان يُغيرُ على المشركين ويقاتلهم ويغنم منهم واستقل

1196 – الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية (ص: ٢١٨) والروضة الندية شرح الدرر البهية ط المعرفة (٢/ ٣٣٣) و الدراري المضية شرح الدرر البهية (٢/ ٤٤٠)

1197 – زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٧٤)

1198 – صحيح البخاري (٣/ ١٩٣)(٢٧٣١)

بحربهم،ومع ذلك أقره النبي ـ ﷺ ـ وأثنى عليه،قال عبد الرحمن بن حسن مستدلاً بهذه القصة:" فهل قال رسول الله ﷺ:أخطأتم في قتال قريش،لأنكم لستم مع إمام؟ سبحان الله ما أعظم مضرة الجهل على أهله؟ عياذاً بالله من معارضة الحق بالجهل والباطل!!"[1199].

٥) أن إقامة الإمام حكم واجب كوجوب إقامة الجهاد:

فيجب على المجاهدين أن يقيموا إماماً منهم إن لم يكن هناك إمام عام،وليس وجود الإمام شرطاً في وجود الجهاد،بل العكس هو الصحيح،إذ إقامة الجهاد شرط لصحة إمامة الإمام،فلا إمام بلا جهاد،لا أنه لا جهاد بلا إمام،كما قال العلامة عبد الرحمن بن حسن:" وكل من قام بالجهاد في سبيل الله،فقد أطاع الله وأدى ما فرضه الله،ولا يكون الإمام إماماً إلا بالجهاد،لأنه لا يكون جهاد إلا بإمام،والحق عكس ما قلته يا رجل،وقد قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى} الآية [سورة سبأ آية:٤٦]،وقال:{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} [سورة العنكبوت آية:٦]." [1200]

ومعلوم أن أول واجبات الإمام حماية بيضة المسلمين وإقامة الدين،فإن كان عاجزاً عن الجهاد وحماية الأمة والملة،فقد خرج عن أن يكون إماماً،بل صار وجوده وعدمه سواء،فإنْ حال بين المسلمين والدفع عن أنفسهم وأرضهم وحرماتهم،كان عدمه خيراً من وجوده وبطلت إمامته شرعاً؛ إذ لم يتحقق المقصود من إقامته،وقد جاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ،يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ،وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ،كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ،وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ» [1201]

1199 – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ٢٠٠)

1200 – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ١٩٩)

1201 – صحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٣ – (١٨٤١)

[ش (الإمام جنة) أي كالستر لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ويمنع الناس بعضهم من بعض ويحمي بيضة الإسلام ويتقيه الناس ويخافون سطوته ومعنى يقاتل من ورائه أي يقاتل معه الكفار والبغاة والخوارج وسائر أهل الفساد وينصر عليهم ومعنى يتقى به أي شر العدو وشر أهل الفساد والظلم مطلقا والتاء في يتقى مبدلة من الواو لأن أصلها من الوقاية]

وعن أبي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا،وَإِنْ أَمَرَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ وِزْرًا»[١٢٠٢]

فيجب إقامة الإمام ليكون جنة ووقاية يحمي الأمة ويحفظها،وتقاتل الأمة من ورائه،فإن صار جنة للعدو لم يكن قطعاً إماماً للمسلمين في حكم الشارع،وإن كان إماماً بحكم الأمر الواقع،قال الشوكاني في (وبل الغمام):" ملاك أمر الإمامة وأعظم شروطها وأجل أركانها،أن يكون قادراً على تأمين السبل وإنصاف المظلومين من الظالمين،ومتمكناً من الدفع عن المسلمين إذا دهمهم أمر يخافونه،كجيش كافر أو باغ،فإذا كان السلطان بهذه المثابة فهو السلطان الذي أوجب الله طاعته وحرم مخالفته،بل هذا الأمر هو الذي شرع الله له نصب الأئمة،وجعل ذلك من أعظم مهمات الدين "[١٢٠٣].

٦) أن الجهاد يطلق على كل قتال بين المسلمين وعدوهم،سواء كان هذا القتال في جهاد فتح أو جهاد دفع:

قال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ:" كل من أقام بإزاء العدو وعاداه،واجتهد في دفعه،فقد جاهد ولا بد،وكل طائفة تصادم عدو الله،فلا بد أن يكون لها أئمة ترجع إلى أقوالهم وتدبيرهم؛ وأحق الناس بالإمامة من أقام الدين الأمثل فالأمثل،كما هو الواقع،فإن تابعه الناس أدوا الواجب،وحصل التعاون على البر والتقوى،وقوي أمر الجهاد،وإن لم يتابعوه أثموا إثماً كبيراً بخذلانهم الإسلام"[١٢٠٤].

والمقصود أن حقيقة الجهاد بذل الوسع في مناوأة أعداء الله وأعداء أوليائه،والقتال هو أشرف أنواعه،فكل من قاتل العدو طلباً أو دفعاً فهو مجاهد،وقتاله جهاد،وكل من مات في هذا القتال فهو شهيد،له أحكام الشهداء في الدنيا،سواء كان رجلاً أو امرأةً،كبيراً أو صغيراً سنياً أو بدعياً صالحاً أو فاسقاً،كما قال الحافظ ابن حجر:" وَالْمُرَادُ بِالشَّهِيدِ قَتِيلُ

1202 – سنن النسائي (٧/ ١٥٥)(٤١٩٦) صحيح

1203 – (إكليل الكرامة لصديق خان ١١٤– ١١٥)

1204 – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ٢٠٢)

الْمَعْرَكَةِ فِي حَرْبِ الْكُفَّارِ انْتَهَى وَكَذَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ بَعْدَ مَنْ لَمْ يَرَ غُسْلَ الشَّهِيدِ وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا حُرًّا أَوْ عَبْدًا صَالِحًا أَوْ غَيْرَ صَالِحٍ "[1205].

فلا خلاف بين العلماء على أن كل مسلم يقتل في المعركة مع الكفار شهيد في أحكام الدنيا،ولذا اختلفوا في هل يصلى عليه أم لا ؟ وهل يغسل أم لا ؟ وأكثر الفقهاء على أنه لا يغسل ولا يصلى عليه،و لم يختلفوا في كونه شهيداً؛ إذ سبب خلافهم في غسله والصلاة عليه،هو اتفاقهم على كونه شهيداً له خصوصية ليست لغيره من موتى المسلمين،كما ثبت في السنة،ولا يقتضي ذلك القطع له بالجنة والشهادة له بها،إذ لا يعلم ذلك إلا الله،كما قال الحافظ:" " (قَوْلُهُ بَابُ لَا يُقَالُ فُلَانٌ شَهِيدٌ) أَيْ عَلَى سَبِيلِ الْقَطْعِ بِذَلِكَ إِلَّا إِنْ كَانَ بِالْوَحْيِ...وَعَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ النَّهْيُ عَنْ تَعْيِينِ وَصْفِ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ بَلْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الْإِجْمَالِ...فَمَنْ ثَبَتَ أَنَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُعْطِيَ حُكْمَ الشَّهَادَةِ...وَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ يُعْطَى حُكْمَ الشُّهَدَاءِ فِي الْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ وَلِذَلِكَ أَطْبَقَ السَّلَفُ عَلَى تَسْمِيَةِ الْمَقْتُولِينَ فِي بَدْرٍ وَأُحُدٍ وَغَيْرِهِمَا شُهَدَاءَ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ الْحُكْمُ الظَّاهِرُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الظَّنِّ الْغَالِبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ "[1206].

وإنما قتال الفتنة هو القتال الذي يقع بين المسلمين لعصبية جاهلية،أو قتال على ملك وسلطان ونحو ذلك،فهذا هو قتال الفتنة الذي يحرم الدخول فيه،بل يجب فيه السعي في إصلاح ذات بينهم،فإن فاءت إحدى الطائفتين وجب قتال من لم تفيء،حتى تفيء إلى أمر الله.

أما قتال العدو الكافر إذا دهم أرض المسلمين فليس قتاله قتال فتنة،و لم يقل هذا القول أحد من علماء سلف الأمة،بل الفتنة هي في تركه وعدم مدافعته،بل ليس بعد الشرك بالله أعظم من الصد عن قتال المشركين.

قال ابن حزم:" وَلَا إثْمَ بَعْدَ الْكُفْرِ أَعْظَمُ مِنْ إثْمِ مَنْ نَهَى عَنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَأَمَرَ بِإِسْلَامِ حَرِيمِ الْمُسْلِمِينَ [إلَيْهِمْ] مِنْ أَجْلِ فِسْقِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ لَا يُحَاسَبُ غَيْرُهُ بِفِسْقِهِ؟ "[1207].

1205 – فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٠٩)

1206 – فتح الباري لابن حجر (٦/ ٩٠)

1207 – المحلى بالآثار (٥/ ٣٥٢)

وكما قال ابن تيمية رحمه الله:(وَأَمَّا قِتَالُ الدَّفْعِ فَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ دَفْعِ الصَّائِلِ عَنِ الْحُرْمَةِ وَالدِّينِ فَوَاجِبٌ إجْمَاعًا فَالْعَدُوُّ الصَّائِلُ الَّذِي يُفْسِدُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَا شَيْءَ أَوْجَبَ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ دَفْعِهِ فَلَا يُشْتَرَطُ لَهُ شَرْطٌ بَلْ يُدْفَعُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.)[١٢٠٨] .

٧) ثبوت الأحاديث النبوية بوصف من قاتل دون ماله أودبنه أوأهله فهو شهيد

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِهِ،فَهُوَ شَهِيدٌ»[١٢٠٩]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَانِي رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟،قَالَ:«لَا تُعْطِهِ مَالَكَ»،قَالَ:أَفَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟،قَالَ:«فَقَاتِلْهُ»،قَالَ:أَفَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟،قَالَ:«فَأَنْتَ شَهِيدٌ»،قَالَ:أَفَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟،قَالَ:«هُوَ فِي النَّارِ»[١٢١٠]

ومعلوم أن هذا الحديث عام في كل أحد،بل هو في حق الأفراد بلا خلاف،وأن للمسلم أن يدفع عن ماله وعرضه ودينه ولو كان وحده،ولو كان الصائل عليه مسلم مثله فإن مات فهو شهيد.

فمن اشترط وجود الإمام أو إذنه فقد أبطل دلالة هذه الأحاديث،بل ثبت في صحيح عن ثَابِتٍ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّهُ لَمَّا كَانَ بَيْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو وَبَيْنَ عَنْبَسَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ مَا كَانَ تَيَسَّرُوا لِلْقِتَالِ،فَرَكِبَ خَالِدُ بْنُ الْعَاصِ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو فَوَعَظَهُ خَالِدٌ،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو:أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[١٢١١]

1208 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٨) والمستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٥)

1209 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٤)(٣٥٤٣) صحيح

1210 – الإيمان لابن منده (٢/ ٦٣٣)(٥٨٣) صحيح

1211 – صحيح مسلم (١/ ١٢٤)٢٢٦ – (١٤١)

[ش (تيسروا للقتال) معناه تأهبوا وتهيئوا (خالد بن العاص) الفصيح في العاصي إثبات الياء ويجوز حذفها وهو الذي يستعمله معظم المحدثين أو كلهم]

فقد استدل بهذا الحديث على جواز أن يدفع المسلم عن ماله ونفسه وعرضه،حتى لو كان الصائل عليه هو الإمام نفسه،وقد استعد عبد الله بن عمرو ـرضـي الله عنـه ـ لقتـال السلطان لما أراد أخذ أرضه منه واستدل بهذا الحديث.

فإذا كان لا يشترط في مثل هذا القتال إذن إمام ولا وجود راية،فكيف بدفع العدو الكافر عن النفس والدين والأرض والمال والعرض ؟! فهو أحق بهذا الحكم بقيـاس الأولى بـل شك.

٨) أحاديث الطائفة المنصورة التي تصفهم التي تجاهد في سبيل الله حتى قيام الساعة

عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»،قَالَ:" فَيَنْـزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ،فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ:تَعَالَ صَلِّ لَنَا،فَيَقُولُ:لَا،إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَـرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ "[1212]

وعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ،لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[1213]

وعَنِ الْمُغِيرَةِ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَـاهِرِينَ عَلَـى النَّاسِ،حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[1214]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا،يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَـابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[1215]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ،أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ هَانِئٍ،حَدَّثَهُ،قَالَ:سَمِعْتُ مُعَاوِيَـةَ،عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَـةً بِـأَمْرِ اللهِ،لَـا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»[1216]

[1212] – صحيح مسلم (١/ ١٣٧)٢٤٧ – (١٥٦)

[1213] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٣)١٧٠ – (١٩٢٠)

[1214] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٣)١٧١ – (١٩٢١)

[1215] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٢ – (١٩٢٢)

[1216] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٤ – (١٠٣٧) وانظر كتاب " الخلاصة في أحاديث الطائفة المنصورة"

والمراد به المجاهدون،وقد سئل الإمام أحمد،عن هذه الطائفة المنصورة،فقال:"هم الذين يقاتلون الروم كل من قاتل المشركين فهو على الحق"ا.هـ[1217].

ومعلوم أن الطائفة بعض الأمة وليست كل الأمة،وظهورهم وجهادهم دون الأمة ودون الإمام،إذ لو كان الإمام معهم لكانت الأمة معهم تبعا للإمام،ولما كان حينئذ لهذه الطائفة خصوصية دون الأمة،فدل الحديث بدلالة الإشارة على مشروعية جهاد الطائفة من المسلمين للمشركين،ولو خذلتهم الأمة كلها،ولو لم ينصرهم الإمام،ولو كان يشترط لصحة الجهاد وجود الإمام أو إذنه لما جاز قتال هذه الطائفة المنصورة،ولما خصها الله بهذا الفضل العظيم دون سائر الأمة.

٩) الإجماع العملي عبر العصور الإسلامية

إن الإجماع العملي مؤكد للإجماع القولي،إذ ما زال المسلمون في كل عصر ومصر إذا دهمهم العدو تصدوا له ودافعوه ولو من دون وجود إمام،كما حصل ذلك بعد سقوط العالم الإسلامي تحت الاستعمار الغربي وبعد أن سقطت الخلافة،فقام العلماء والمجاهدون في كل مكان يدافعون عن أرضهم وحرماتهم،كما في الجزائر وليبيا ومصر والشام والعراق والهند وغيرها من بلدان المسلمين،وقد أطبق العلماء على مشروعية جهاد من جاهد منهم ووجوب نصرته،مع أنه لم يكن هناك إمام عام للمسلمين ولا إمام خاص في تلك الأقاليم،ولم تكن القوى متكافئة،بل كانت حرب عصابات كما كان حال أبي بصير وأصحابه رضي الله عنهم حتى تحررت أوطانهم وخرج الاستعمار الغربي،وكذا كان حال الجهاد الأفغاني إبان الغزو الروسي الذي أطبق العلماء على مشروعيته ووجوب نصرته،ولم يمنع من ذلك وقوف الحكومة الأفغانية آنذاك مع الروس،ولا عدم وجود قيادة موحدة للمجاهدين،فمن اشترط وجود إمام أو راية لصحة الجهاد،فقد أبطل جهاد كل من جاهد الاستعمار الأجنبي،من علماء المسلمين وزعمائهم وملايين الشهداء الذين قاتلوا العدو عن أرضهم ونسائهم وأطفالهم.

[1217] – كما في (مسائل ابن هانئ ٢ / ١٩٢)

١٠) أن الجهاد عبادة وفريضة معقولة المعنى،وليست حكما تعبدياً محضاً غير معقول معناه:

فالغاية من مشروعيته حماية بيضة المسلمين،وإظهار الدين،ودفع العدو،وإرهابه قبل هجومه،أو إخراجه بعد هجومه،فكل وسيلة أو طريقة يمكن بها دفعه فهي مشروعة،سواء كانت مقاومة سلمية أو مسلحة،وسواء كانت مقاومة ظاهرة أو سرية،وسواء كانت المقاومة تحت سلطة واحدة وراية واحدة أو دونها؛إذ نصوص الفقهاء لا تشترط أي شرط خاصة في جهاد الدفع،كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية،بل على كل قادر من رجل وامرأة وكبير وصغير وغني وفقير الدفع بما استطاع،حتى ولو بالحجر كما نص عليه الفقهاء كما في حاشية البيجوري الشافعي،قال في جهاد الدفع:" أن يدخل الكفار بلدة من بلاد المسلمين أو يتزل قريباً منها،فالجهاد حينئذ فرض عين عليهم،فيلزم أهل ذلك البلد حتى الصبيان والنساء والعبيد والمدين ولو بلا إذن من الأولياء والأزواج،والسادة ورب المال،الدفع للكفار بما يمكن منهم ولو بضرب بأحجار ونحوها " [١٢١٨]انتهى.

ولا يشترط كذلك تأهيل لقتال أو توافر إمكانات أو ظن تحقيق نصر.

قال الخطيب الشربيني الشافعي:" وَالْحَالُ الثَّانِي مِنْ حَالَيْ الْكُفَّارِ أَنْ يَدْخُلُوا بَلْدَةً لَنَا مَثَلًا فَيَلْزَمُ أَهْلَهَا الدَّفْعُ بِالْمُمْكِنِ مِنْهُمْ.وَيَكُونُ الْجِهَادُ حِينَئِذٍ فَرْضَ عَيْنٍ سَوَاءٌ أَمْكَنَ تَأَهُّبُهُمْ لِقِتَالٍ أَمْ لَمْ يُمْكِنْ عَلِمَ كُلُّ مَنْ قَصَدَ أَنَّهُ إنْ أُخِذَ قُتِلَ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ إنْ امْتَنَعَ مِنْ الِاسْتِسْلَامِ قُتِلَ أَوْ لَمْ تَأْمَنْ الْمَرْأَةُ فَاحِشَةً إنْ أُخِذَتْ.

وَمَنْ هُوَ دُونَ مَسَافَةِ الْقَصْرِ مِنْ الْبَلْدَةِ الَّتِي دَخَلَهَا الْكُفَّارُ حُكْمُهُ كَأَهْلِهَا وَإِنْ كَانَ فِي أَهْلِهَا كِفَايَةٌ؛ لِأَنَّهُ كَالْحَاضِرِ مَعَهُمْ فَيَجِبُ ذَلِكَ عَلَى كُلٍّ مِمَّنْ ذُكِرَ حَتَّى عَلَى فَقِيرٍ وَوَلَدٍ وَمَدِينٍ وَرَقِيقٍ بِلَا إذْنٍ مِنْ الْأَصْلِ وَرَبِّ الدَّيْنِ وَالسَّيِّدِ،وَيَلْزَمُ الَّذِي عَلَى مَسَافَةِ الْقَصْرِ الْمُضِيُّ إلَيْهِمْ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ دَفْعًا لَهُمْ وَإِنْقَاذًا مِنْ الْهَلَكَةِ.فَيَصِيرُ فَرْضَ عَيْنٍ فِي حَقِّ مَنْ قَرُبَ وَفَرْضَ كِفَايَةٍ فِي حَقِّ مَنْ بَعُدَ."[١٢١٩]

[1218] – حاشية البيجوري الشافعي (٢ / ٤٩١)

[1219] – حاشية البجيرمي على الخطيب = تحفة الحبيب على شرح الخطيب (٤/ ٢٥٤)

وفي دليل المحتاج شرح المنهاج للإمام النووي " الثاني من حال الكفار أن يدخلوا بلدة لنا أو يترلوا في جزر أو حبل في دار الإسلام ولو كان بعيداً عن المدن المأهولة بالسكان فليزم أهلها دفع بالممكن ويكون الجهاد حينئذ فرض عين قال تعالى:(انفروا خفافاً وثقالاً) التوبة٤١.فالنفير يعم الجميع المقل منهم والمكثر ولا يجوز لأحد التخلف إلا من يُحْتَاجُ إلى تخلفهم لحفظ المكان والأهل والمال "[1220]

وقال الخطيب أيضاً:" الْحَالِ (الثَّانِي) مِنْ حَالَيْ الْكُفَّارِ،وَهُوَ مَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ (يَدْخُلُونَ بَلْدَةً لَنَا) أَوْ يَنْزِلُونَ عَلَى جَزَائِرَ أَوْ جَبَلٍ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَلَوْ بَعِيدًا عَنْ الْبَلَدِ (فَيَلْزَمُ أَهْلَهَا الدَّفْعُ بِالْمُمْكِنِ) مِنْهُمْ،وَيَكُونُ الْجِهَادُ حِينَئِذٍ فَرْضَ عَيْنٍ...(فَإِنْ أَمْكَنَ) أَهْلَهَا (تَأَهُّبٌ) أَيْ اسْتِعْدَادٌ (لِقِتَالٍ وَجَبَ) عَلَى كُلٍّ مِنْهُمْ (الْمُمْكِنُ) أَيْ الدَّفْعُ لِلْكُفَّارِ بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ (حَتَّى عَلَى فَقِيرٍ) بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ (وَوَلَدٍ وَمِّ دِينٍ) وَهُوَ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ (وَعَبْدٍ بِلَا إذْنٍ) مِنْ أَبَوَيْنِ وَرَبِّ دَيْنٍ وَمِنْ سَيِّدٍ،وَيَنْحَلُّ الْحَجْرُ عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ؛ لِأَنَّ دُخُولَهُمْ دَارَ الْإِسْلَامِ خَطْبٌ عَظِيمٌ لَا سَبِيلَ إلَى إهْمَالِهِ،فَلَا بُدَّ مِنْ الْجِدِّ فِي دَفْعِهِ بِمَا يُمْكِنُ،وَفِي مَعْنَى دُخُولِهِمْ الْبَلْدَةَ مَا لَوْ أَطَلُّوا عَلَيْهَا،وَالنِّسَاءُ كَالْعَبِيدِ إنْ كَانَ فِيهِنَّ دِفَاعٌ،وَإِلَّا فَلَا يَحْضُرْنَ"[1221]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:" وَإِذَا دَخَلَ الْعَدُوُّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهُ عَلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إذْ بِلَادُ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَلْدَةِ الْوَاحِدَةِ،وَأَنَّهُ يَجِبُ النَّفِيرُ إلَيْهِ بِلَا إذْنِ وَالِدٍ وَلَا غَرِيمٍ،وَنُصُوصُ أَحْمَدَ صَرِيحَةٌ بِهَذَا وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا فِي الْمُخْتَصَرَاتِ.لَكِنْ هَلْ يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَكَانِ النَّفِيرُ إذَا نَفَرَ إلَيْهِ الْكِفَايَةُ كَلَامُ أَحْمَدَ فِيهِ مُخْتَلِفٌ وَقِتَالُ الدَّفْعِ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ كَثِيرًا لَا طَاقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ لَكِنْ يُخَافُ إنْ انْصَرَفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ عَطَفَ الْعَدُوُّ عَلَى مَنْ يُخَلِّفُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَهُنَا قَدْ صَرَّحَ أَصْحَابُنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَبْذُلُوا مُهَجَهُمْ وَمُهَجَ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ فِي الدَّفْعِ حَتَّى يَسْلَمُوا وَنَظِيرُهَا أَنْ يَهْجُمَ الْعَدُوُّ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَتَكُونَ الْمُقَاتِلَةُ أَقَلَّ مِنْ النِّصْفِ فَإِنْ انْصَرَفُوا اسْتَوْلَوْا عَلَى الْحَرِيمِ فَهَذَا

[1220] – دليل المحتاج شرح المنهاج للإمام النووي (٤/ ٢١)

[1221] – مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٦/ ٢٢)

وَأَمْثَالُهُ قِتَالُ دَفْعٍ لَا قِتَالُ طَلَبٍ لَا يَجُوزُ الِانْصِرَافُ فِيهِ بِحَالٍ وَوَقْعَةُ أُحُدٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ"[1222]

وهذا كله محل اتفاق بين الأئمة وعلماء الأمة،فلا يلتفت في جهاد الدفع إلى طاقة المسلمين ولا إلى إمكانياتهم،ولا إلى ترجُّح تحقق النصر،بل عليهم بذل مهجهم في الدفع عن حرماتهم،حتى مع تيقن هلاكهم.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:" لَا أَرَى ضِيقًا عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَحْمِلَ عَلَى الْجَمَاعَةِ حَاسِرًا،أَوْ يُبَادِرَ الرَّجُلُ،وَإِنْ كَانَ الْأَغْلَبُ أَنَّهُ مَقْتُولٌ؛ لِأَنَّهُ قَدْ بُودِرَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَحَمَلَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ حَاسِرًا عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ بَعْدَ إعْلَامِ النَّبِيِّ - ﷺ - بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْخَيْرِ فَقُتِلَ."[1223].

وهذا في جهاد الطلب فمن باب أولى جهاد الدفع.

هذا ولا يشترط في صحة جهاد الدفع أن يكون من أجل إعلاء كلمة الله،نعم أشرف أنواع الجهاد وأعظمه من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله،فعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا،وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً،فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ،قَالَ:وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا،فَقَالَ:«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1224]

وأوضح ما يكون ذلك في جهاد الطلب والفتح،ولا ينافي ذلك مشروعية جهاد الدفع،وأن من قتل فيه دون ماله وعرضه ونفسه شهيد أيضاً،كما ثبت في الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[1225]

1222 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٩) والمستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٨)

1223 – الأم للشافعي (٤/ ١٧٨)

1224 – صحيح البخاري (١/ ٣٧)(١٢٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٣)١٥٠ - (١٩٠٤)

[ش(غضبا) انتقاما حالة الغضب.(حمية) محاماة عن العشيرة.(كلمة الله) كلمة التوحيد ودعوة الإسلام.(العليا) العالية فوق كل ملة ومذهب]

1225 – صحيح البخاري (٣/ ١٣٦)(٢٤٨٠)

[ش (دون ماله) مدافعا من يريد أخذ ماله ظلما.(شهيد) له أجر الشهيد عند الله تعالى ولكنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ولا يعامل معاملة الشهيد من هذه الناحية]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[١٢٢٦]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِهِ،فَهُوَ شَهِيدٌ»[١٢٢٧]

لأن جهاد الدفع مشروع للدفع عن الأرض والعرض والنفس والمال والدين،بشكل فردي أو جماعي،ويكون أيضاً بتعاون المسلمين على اختلاف طوائفهم،أو مع غير المسلمين كأهل الذمة للدفع عن وطنهم جميعاً،وكذا تسوغ الاستعانة بغير المسلمين من الشعوب والدول الأخرى لدفع العدو الكافر عن المسلمين وأرضهم وحرماتهم.

وقد عاهد النبي ﷺ يهود في المدينة على الدفع عنها إذا دهمها عدو[١٢٢٨]،كما استعان الصحابة رضي الله عنهم بنصارى العرب في الشام والعراق في قتال عدوهم،وقد قاتل شيخ الإسلام ابن تيمية التتار في الشام بمن خرج معه من أهلها،مع شيوع أنواع البدع فيهم آنذاك،وخلص أسارى أهل الذمة من اليهود والنصارى من أيدي التتار حين تفاوض معهم،و لم يرض بإطلاق أسرى المسلمين فقط،حتى أطلقوا أسرى أهل الذمة معهم[١٢٢٩].

1226 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٥)(٣٥٤٤) صحيح

1227 – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٤)(٣٥٤٣) صحيح

1228 – **قلت: اليهود كانوا من سكان المدينة الأصليين،فهذا واجب على الجميع الدفاع عنها ومنهم اليهود**

1229 – **قلت:** " قال الشوكاني في "السيل الجرار: "وأما الإستعانة بالكفار فلا تجوز على قتال المسلمين لأنه من تعاضد الكفر والإسلام على الإسلام وقبح ذلك معلوم ودفعه بأدلة الشرع لا يخفى "السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص: ٩٤٦)

والذي يترجّح لي بعد عرض هذه المسألة هو مذهب الجمهور فلا يجوز الاستعانة بالكفار على المسلمين البغاة،وذلك لما يلي:

١) –أن قتال البغاة يختلف عن قتال الكفار،فالمقصود من قتال البغاة ردّهم إلى الطاعة ودفع شرّهم لا قتلهم،وتسليط الكفار عليهم قد يؤدّي إلى قتلهم.

٢) – أن قياس الحنفيّة الاستعانة بالكفار ضد البغاة على الاستعانة بالكلاب قياس مع الفارق؛ لأنّ الكلب حيوان لا نيّة له،وإنما هو رهن إشارة لصاحبه،وأما الكافر فإنه له نيّة وقصد،وقد أخبر الله عن نوايا الكفار بقوله:{ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ } [التوبة: ١٠] وغير ذلك من الآيات الدالة على إرادة الكفار للشر بالمؤمنين.

٣)– أن الإمام إذا ضعف عن قتال أهل البغي فله أن يُؤخّر قتالهم إلى أن تُمْكِنَه القوةُ عليهم،فيؤخّرُهم حتى تقوى شوكةُ أهل العدل ثم يقاتلهم"

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَقَدْ عَرَفَ النَّصَارَى كُلُّهُمْ أَنِّي لَمَّا خَاطَبْت التَّتَارَ فِي إطْلَاقِ الْأَسْرَى وَأَطْلَقَهُمْ غازان وقطلو شاه وَخَاطَبْت مَوْلَايَ فِيهِمْ فَسَمَحَ بِإِطْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ.قَالَ لِي:لَكِنَّ مَعَنَا نَصَارَى أَخَذْنَاهُمْ مِنْ الْقُدْسِ فَهَؤُلَاءِ لَا يُطْلِقُونَ.فَقُلْت لَهُ:بَلْ جَمِيعُ مَنْ مَعَك مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ ذِمَّتِنَا؛ فَإِنَّا نُفْتِكَهُمْ وَلَا نَدَعُ أَسِيرًا لَا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ.وَأَطْلَقْنَا مِنْ النَّصَارَى مَنْ شَاءَ اللَّهُ.فَهَذَا عَمَلُنَا وَإِحْسَانُنَا وَالْجَزَاءُ عَلَى اللَّهِ.وَكَذَلِكَ السَّبْيُ الَّذِي بِأَيْدِينَا مِنْ النَّصَارَى يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ إحْسَانَنَا وَرَحْمَتَنَا وَرَأْفَتَنَا بِهِمْ؛ كَمَا أَوْصَانَا خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ حَيْثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ،وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِنَفْسِهِ «الصَّلَاةَ،وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»[1230]،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ:{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا } [الإنسان:٨،٩].وَمَعَ خُضُوعِ التَّتَارِ لِهَذِهِ الْمِلَّةِ وَانْتِسَابِهِمْ إلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ؛ فَلَمْ نُخَادِعْهُمْ وَلَمْ نُنَافِقْهُمْ؛ بَلْ بَيَّنَّا لَهُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْفَسَادِ وَالْخُرُوجِ عَنْ الْإِسْلَامِ الْمُوجِبِ لِجِهَادِهِمْ وَأَنَّ جُنُودَ اللَّهِ الْمُؤَيَّدَةَ وَعَسَاكِرَهُ الْمَنْصُورَةَ الْمُسْتَقِرَّةَ بِالدِّيَارِ الشَّامِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ:مَا زَالَتْ مَنْصُورَةً عَلَى مَنْ نَاوَأَهَا.مُظَفَّرَةً عَلَى مَنْ عَادَاهَا."[1231]

والمقصود أنه لا يشترط لصحة جهاد الدفع أي شرط،لا وجود إمام،ولا وجود راية،ولا قصد إعلاء كلمة الله،ولا فتوى عالم،ولا وحدة الصف،ولا وجود القوة،ولا ترجح النصر،وهذا لا ينافي وجوب أن يقاتل المجاهدون صفاً واحداً تحت قيادة واحدة،فإن تعذر ذلك لم يبطل الجهاد و لم يتعطل،والله تعالى أعلم أحكم." [1232]

انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٥/ ٢٩) والمحلى بالآثار (١١/ ٣٥٥) ووحاشية ابن عابدين ٣ / ٤١٦،وحاشية الدسوقي ٤ / ٢٩٩،والتاج والإكليل ٦ / ٢٧٨،والمهذب٢ / ٢٢٠،ونهاية المحتاج ٧ / ٣٨٧،والمغني ٨ / ١١١،وكشاف القناع ٦ / ١٦٤

[1230] – سنن ابن ماجه (٢/ ٩٠٠)(٢٦٩٧) صحيح

[1231] – امجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٧)

[1232] -http://almoslim.net/node/ ٨٢٤٦٩

المبحث الثامن والأربعون

مظاهرة الكافرين على المسلمين تعتبر من نواقض الإسلام

أيها الأحبة الكرام:

هذا موضوع من الموضوعات الخطيرة جدا،فالذي يظاهر الكافرين والمجرمين والطغاة ويساعدهم ويدافع عنهم فإنه منهم،وحكمه حكمهم،وهذا الفعل يخرج المسلم من الإسلام إذا فعله باختياره،وإن فعله مكرها فهو من أكبر الكبائر،وسوف نفرد الكلام عن الجاسوس ببحث خاص

والمقصود من مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين:أن يتخذ البعض الكفار والمشركين أولياء،فيكونوا لهم أنصارا وأعوانا ضد المسلمين،وينضمون إليهم،ويذبون عنهم بالمال والسنان والبيان؛ فهذا كفر يناقض الإسلام.والله عز وجل نهانا في آيات كثيرة أن نتخذ الكفار والمشركين أولياء،ومن معاني هذه الولاية التي نهينا أن نصرفها لهم:المحبة،والمودة الدينية،والنصرة،والتأييد على المسلمين[1233]

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:[اعلم أن نواقض الإسلام عشرة:الثامن:مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين،والدليل قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١].][1234]

1233 – المفيد في مهمات التوحيد (ص: ٨٥)

1234 – الأسئلة والأجوبة في العقيدة (ص: ٣٥) والإرشاد إلى توحيد رب العباد (ص: ٢٩) والتوسط والاقتصاد (١/ ٩١) والعقيدة الصحيحة وما يضادها ونواقض الإسلام (ص: ٣٨) والمفيد في مهمات التوحيد (ص: ٨٥) والموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية (١/ ٢٠٥) والولاء والبراء في الإسلام (ص: ٧٦) وعقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك (ص: ٤٧) وعقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي (٢/ ٦٧٦) ومجموعة رسائل في التوحيد والإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب،الجزء الأول) (ص: ٣٨٦)

وقد ذكر الشيخ رحمه الله تعالى أن مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين من نواقض الإسلام،وهذا حق وصدق،فقد اتفق العلماء على أن مظاهرة الكفار على المسلمين كفر وردَّة عن الإسلام،قال العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله:[وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم عليهم بأي نوع من المساعدة فهو كافر مثلهم].[1235]

وقال العلامة عبد الله بن حميد رئيس مجلس القضاء الأعلى بالسعودية سابقاً:[وأما التولي:فهو إكرامهم،والثناء عليهم،والنصرة لهم والمعاونة على المسلمين،والمعاشرة،وعدم البراءة منهم ظاهراً،فهذا رِدَّةٌ من فاعله،يجب أن تجرى عليه أحكام المرتدين،كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأئمة المقتدى بهم] [1236]

وقال العلامة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في فتوى له في بيان حكم التعاون مع الإنجليز والفرنسيين أثناء عدوانهم على مصر:[أما التعاون مع الإنجليز،بأي نوع من أنواع التعاون،قلّ أو كثر،فهو الردّة الجامحة،والكفر الصّراح،لا يقبل فيه اعتذار،ولا ينفع معه تأول،ولا ينجي من حكمه عصبية حمقاء،ولا سياسة خرقاء،ولا مجاملة هي النفاق،سواء أكان ذلك من أفرادٍ أو حكوماتٍ أو زعماء،كلهم في الكفر والردة سواء،إلا من جهل وأخطأ،ثم استدرك أمره فتاب وأخذ سبيل المؤمنين،فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم،إن أخلصوا لله،لا للسياسة ولا للناس][1237]

وقالت لجنة الفتوى بالأزهر في فتوى لها:[... لا شك أن بذل المعونة لهؤلاء؛ وتيسير الوسائل التي تساعدهم على تحقيق غاياتهم التي فيها إذلال المسلمين،وتبديد شملهم،ومحو دولتهم؛ أعظم إثماً؛ وأكبر ضرراً من مجرد موالاتهم... وأشد عداوة من المتظاهرين بالعداوة للإسلام والمسلمين... والذي يستبيح شيئاً من هذا بعد أن استبان له حكم الله فيه يكون

1235 – مجموع فتاوي ابن باز ١/ ٢٧٤

1236 – الدرر السنية ١٥/ ٤٧٩.

1237 – كلمة حق ١٢٦ – ١٣٧.

مرتداً عن دين الإسلام،فيفرق بينه وبين زوجه،ويحرم عليها الاتصال به،ولا يُصلَّى عليه،ولا يدفن في مقابر المسلمين...][1238].

وقال الشيخ عبد العزيز الراجحي:[إذا أعان المشركين على المسلمين فمعناه أنه تولى المشركين وأحبهم وتوليهم ردة،لأن هذا يدل على محبتهم،فإذا أعانهم على المسلمين بالمال أو بالسلاح أو بالرأي،دلَّ على محبتهم ومحبتهم ردة،فأصل التولي هو المحبة،وينشأ عنها الإعانة والمساعدة بالرأي أو بالمال أو بالسلاح فإذا أعان المشركين على المسلمين فمعناه أنه فضل المشركين على المسلمين] شرح نواقض الإسلام[1239].

وقال الشيخ سليمان العلوان:[ومظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين فتنةٌ عظيمة قد عمت فأعمت،ورزيةٌ رمت فأصمت،وفتنةٌ دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون بحب المشركين،ولاسيما في هذا الزمن،الذي كثر فيه الجهل،وقلَّ فيه العلم،وتوفرت فيه أسباب الفتن،وغلب الهوى واستحكم،وانطمست أعلام السنن والآثار... لأن مظاهرتهم رِدَّة عن الإسلام] [1240]

وقال الشيخ سليمان العلوان أيضاً:[وقد حكى غيرُ واحدٍ من العلماء الإجماع على أن مظاهرة الكفار على المسلمين ومعاونتهم بالنفس والمال والذب عنهم بالسنان والبيان كفر وردة عن الإسلام قال تعالى:{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}. وأي تولٍ أعظم من مناصرة أعداء الله ومعاونتهم وتهيئة الوسائل والإمكانيات لضرب الديار الإسلامية وقتل القادة المخلصين].

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله:[أما الكفار الحربيون فلا تجوز مساعدتهم بشيء،بل مساعدتهم على المسلمين من نواقض الإسلام لقول الله عز وجل {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}][1241].

1238 – مجلة الفتح العدد ٨٤٦

1239 – http://www.muslm.net/vb/showthread.php?t=١٧٧٢٧٦

1240 – التبيان شرح نواقض الإسلام ص ٤٩.

1241 – فتاوى إسلامية الفتوى رقم ٦٩٠١

وقال الشيخ صالح الفوزان في شرح الناقض الثامن السابق:[الشيخ رحمه الله تعالى أخذ نوعاً واحداً من أنواع موالاة الكفار وهو المظاهرة،وإلا فالموالاة تشمل المحبة بالقلب والمظاهرة على المسلمين والثناء والمدح لهم إلى غير ذلك،لأن الله سبحانه وتعالى أوجب على المسلمين معاداة الكفار وبغضهم والبراءة منهم،وهذا ما يسمى في الإسلام بباب الولاء والبراء][1242].

وقال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ:[أما مظاهرة المشركين وإعانتهم على المسلمين،هذا من نواقض الإسلام،كما هو مقرر في كتب فقه الحنابلة وذكره العلماء ومنهم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في النواقض العشر في الناقض الثامن. وهذا الناقض مبني على أمرين:الأول:هو المظاهرة،والثاني:هو الإعانة،قال:مظاهرة المشركين وإعانتهم على المسلمين. والمظاهرة:أن يجعل طائفة من المسلمين – يجعلون- أنفسهم ظهراً للمشركين،يحمونهم فيما لو أراد طائفة من المؤمنين أن يقعوا فيهم،يحمونهم وينصرونهم ويحمون ظهورهم ويحمون بيضتهم،وهذا مظاهرة .بمعنى أنه صار ظهراً لهم،فقول الشيخ رحمه الله مظاهرة المشركين وإعانتهم على المسلمين مركبة من الأمرين – الناقض مركب من الأمرين – المظاهرة بأن يكون ظهراً لهم – بأي عملٍ يكون ظهراً يدفع عنهم ويقف معهم ويضرب المسلمين لأجل حماية هؤلاء. أما الثاني فالإعانة:إعانة المشرك][1243].

وقال الشيخ عبد الرحمن البراك ـــ حفظه الله ـــ:" فإنه مما لا شك فيه أن إعلان أمريكا الحرب على حكومة طالبان في أفغانستان ظلم وعدوان وحرب صليبية على الإسلام كما ذكر ذلك عن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية،وأنّ تخلي الدول في العالم عن نصرتهم في هذا الموقف الحرج مصيبة عظيمة،فكيف بمناصرة الكفار عليهم،فإن ذلك من تولي الكافرين؛قال تعالى:((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين)) وعد العلماء مظاهرة

[1242] http://www.yasaloonak.net/-٢٠٠٨-٠٩-١٨-١١-٣٦-٢٦/٢٠٠٩-٠٧-٠٧-١٢-٢٢-١١٣٨/٥٩-٢٠٠٨-٢٠-١٣-٤٨-٣٨.html

[1243] http://www.fatwa-١.com/anti-erhab/Kofar/sal_esteanh١.html

الكفار على المسلمين من نواقض الإسلام لهذه الآية،فالواجب على المسلمين نصرة إخوانهم المظلومين على الكافرين الظالمين "[١٢٤٤]

وقال أحد علماء نجد:" فمن أعان المشركين على المسلمين،وأمد المشركين من ماله بما يستعينون به على حرب المسلمين اختياراً منه فقد كفر "[١٢٤٥].

وكلام أهل العلم في بيان ذلك كثير جداً لا يتسع المقام لذكره.

وأما مستند إجماع العلماء على أن مظاهرة الكفار على المسلمين كفر وردة عن الإسلام،فأدلته كثيرة منها:

قول الله تعالى:{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} سورة آل عمران الآية ٢٨.

وقوله الله تعالى:{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً} سورةالنساء الآيتان ١٣٨ – ١٣٩.

وقوله الله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} سورة المائدة الآية٥١.

قال ابن جرير الطبري في تفسير الآية:[وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنْ يُقَالَ:إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ نَهَى الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا أَنْ يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَنْصَارًا وَحُلَفَاءَ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَنِ اتَّخَذَهُمْ نَصِيرًا وَحَلِيفًا وَوَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّهُ مِنْهُمْ فِي التَّحَزُّبِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْهُ بَرِيئَانِ.][١٢٤٦].

[1244] – http://almoslim.net/node/٨١٩٥٤

[1245] – كما في الدرر ٩ / ٢٩١

[1246] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٠٧)

وقال الإمام ابن حزم:[وَصَحَّ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١] إنَّمَا هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ بِأَنَّهُ كَافِرٌ مِنْ جُمْلَةِ الْكُفَّارِ فَقَطْ - وَهَذَا حَقٌّ لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ.][١٢٤٧]

ويدل على ذلك أيضاً قوله الله تعالى:{تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَااتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} سورة المائدة الآيتان ٨٠ - ٨١.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:[فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف لو التي تقتضي مع انتفاء الشرط انتفاء المشروط،فقال:{وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ} فدلَّ على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده،ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب،ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه. ومثله قوله تعالى:{لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمناً،وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم،فالقرآن يصدق بعضه بعضاً][١٢٤٨]

وغير ذلك من الأدلة.

وخلاصة الأمر أن مظاهرة الكافرين على المسلمين تعتبر من نواقض الإسلام،ويدخل في ذلك مظاهرتهم مادياً كتقديم العون والمساعدة لهم بغض النظر عن شكلها وحجمها،وكذا تقديم الدعم المعنوي لهم كمساندتهم وممالئتهم في وسائل الإعلام المختلفة.[1249]

[1247] - المحلى بالآثار (١٢/ ٣٣)

[1248] - مجموع الفتاوى (٧/ ١٧)

[1249] - فتاوى يسألونك (١٤/ ٣٦) و/http://almoslim.net/node ٨١٩٥٤

الفهرس العام

المبحث الأول ٥

أهمية إقامة الدولة الإسلامية ٥

المبحث الثاني ١١

وجوب العدل وتحريم الظلم ١١

مقتطفات من رسالة القاضي أبي يوسف إلى الخليفة الرشيد رحمهما الله ١٢

المبحث الثالث ١٦

جميع وسائل إزالة الظلم جاء النص عليها إما عاما أو خاصًّا ١٦

المبحث الرابع ١٨

لايشترط أن تكون الوسائل مستعملة في زمن النبوة حتى تكون مشروعة ١٨

المبحث الخامس ٢٠

الأحكام الكونية والقدرية والشرعية للثورات العربية ٢٠

أولا– الأحكام الكونية القدرية: ٢١

ثانيا–الأحكام الخبرية: ٢٤

ثالثا:الأحكام الشرعية التكليفية: ٢٦

المبحث السادس ٣١

الأدلة الشرعية على مشروعية المقاومة السياسية السلمية ٣١

الدليل الأول ٣١

تقرير قاعدة الدعوة إلى الإصلاح بالحكمة والموعظة والمجادلة ٣١

الدليل الثاني ٣٢

تقرير قاعدة عدم السيطرة على المخالف ٣٢

الدليل الثالث ٣٥

الدعوة إلى اعتزال السلطة الجائرة وعدم العمل لها أو معها – المقاومة السلبية والمقاطعة الكلية– ٣٥

الدليل الرابع ٣٧

المقاطعة الجزئية بعدم العمل في الوظائف التي تستقوي بها السلطة على الأمة كالشرطة وجباة الأموال ٣٧
الدليل الخامس ٣٨
عدم الاعتراف بشرعية السلطة الجائرة ٣٨
الدليل السادس ٣٩
التصدي للسلطة الجائرة وتغيير منكرها ومنعها من الظلم والأخذ على يدها ٤٠
الدليل السابع ٤٠
عدم دفع الزكاة والضرائب ونحوها لهم إذا كان يستقوي بها الطغاة على الأمة ٤٠
الدليل الثامن ٤١
العمل على تغيير السلطة الجائرة وإسقاطها بالفعل بغير قتال ٤١
المبحث السابع ٤٣
نماذج من أقوال السلفيين المانعين للمظاهرات ٤٣
المبحث الثامن ٤٥
فتاوى سلفية أخرى تبين جواز المظاهرات ٤٥
حكم تنظيم المظاهرات والاحتجاجات ٤٥
حتمية الفصل بين الجنسين أثناء المظاهرات ٤٧
المبحث التاسع ٤٩
الرد على مانعي مشروعية المظاهرات السلمية ٤٩
الأدلة على مشروعية المظاهرات السلمية ٤٩
أولاً:قاعدة الأصل في الأشياء الإباحة. ٤٩
ثانياً:قرر العلماء أن للوسائل أحكام المقاصد. ٥٧
ثالثاً:إذا سلَّمنا بأنه لم يرد دليل شرعي خاص في المظاهرات – مع أن القائلين بالجواز أوردوا أدلة كثيرة – فيمكن تخريج جواز المظاهرات بناءً على قاعدة المصلحة المرسلة. ٥٩
رابعاً:إن ما زعمه المانعون من المظاهرات بأنها بدعة لم ترد في الشرع،وأن كل بدعة ضلالة،أقول هذا الكلام مردود. ٦٠
خامساً:قول المانعين للمظاهرات بسبب ما يرافقها من أمور منكرة،لا يعني منعها مطلقاً. ٦١

سادساً- المظاهرات في الأصل هي من باب الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله. ٦٢
سابعاً- بيَّن تعالى أن من يطيع الحاكم في معصية الله تعالى فهور شريكه في الإثم. ٦٤
المبحث العاشر ٦٧
أمثلة تاريخية على جواز المظاهرات ٦٧
المبحث الحادي عشر ٧٦
أنواع الخروج على الحاكم ٧٦
١- خروج محرم بالنص والإجماع: ٧٧
٢- وخروج مكروه كراهة تحريمية: ٧٧
٣- وخروج واجب بالنص والإجماع: ٧٨
٤- وخروج مندوب وقد يجب: ٧٩
٥- وخروج جائز: ٩٢
المبحث الثاني عشر ٩٤
هل الثورات العربية ثورات إسلامية ؟ ٩٤
الأدلة على أن الثورات العربية ثورات إسلامية ٩٥
الأول:أنها ثورة على الظلم المحرم شرعا،من أجل إقامة العدل الواجب شرعا. ٩٥
الثاني:أن الثورة على هذه الأوضاع من باب (تغيير المنكر). ١٠٠
الثالث:أن هذه الثورة من باب (إقامة القصاص) واسترجاع الحقوق من غاصبيها،وهو واجب بالإجماع. ١٠١
الرابع:أن هذه الثورة من باب (جهاد الجائر). ١٠٢
خامسا:أن الثورة العربية المعاصرة في حقيقتها هي خروج الشعب إلى الميادين العامة بشكل سلمي،والاعتصام بها،حتى تستجيب السلطة لهم،وهذا في حد ذاته مشروع بلا خلاف. ١٠٣
سادسا:أن أكثر من وقع فيها من الضحايا هم من المتظاهرين سلميا على يد رجال السلطة ظلما وعدوانا،فالمتظاهرون معتدَى عليهم،والسلطة هي التي اعتدت. ١٠٤
سابعا:وهذا كله على فرض أن هذه الحكومات شرعية،وأنه تجب لها طاعة على الأمة. ١٠٥
المبحث الثالث عشر ١٠٩
الانتفاضة السورية الأسباب والدواعي ١٠٩

وأما على مستوى الوظائف ١١٠
وأما الاقتصاد ١١١
وأما على مستوى السياسة ١١٢
وأما على مستوى الجيش ١١٣
أما على المستوى الخارجي ١١٤
وهناك عدة حوادث قميئة جدا قد ارتكبها هذا الدكتور (الفهمان): ١١٥
أيها الإخوة الأحباء في سورية الحبيبة:عليكم بالتظاهر حتى إسقاط النقام ١٢٠
أيها الأحبة الكرام:ماذا يخطط النظام الأسدي لكم ؟ ١٢٢
لكن نقول لهؤلاء الشياطين: ١٢٣
أيها الأحبة الكرام:وجوب الاستمرار في الانتفاضة حتى تحقيق النصر ١٢٥
المبحث الرابع عشر ١٢٧
الأدلة على جواز الخروج المسلح على النظام السوري ١٢٧
الأدلة على كفر النظام السوري ١٢٨
المبحث الخامس عشر ١٣٤
الأحكام الفقهية لشهداء الحرية والثورات العربية ١٣٤
أولا– عموم أحكام الشريعة لأفعال المكلفين: ١٣٤
ثانيا– مشروعية القتال عن الدنيا ١٣٥
ثالثا– ثبوت أحكام الشهادة للمتظاهرين دفاعا عن حقوقهم: ١٣٩
رابعاً – أقسام الشهداء وأحكامهم: ١٤١
القسم الأول:شهداء في حكم الدنيا والآخرة: ١٤١
القسم الثاني:شهداء في حكم الدنيا فقط ١٤٢
القسم الثالث:شهداء في حكم الآخرة فقط ١٤٣
خامساً – حكم أصحاب المعاصي إذا تحقق لهم وصف الشهادة: ١٥٠
سادساً– حكم خروج أهل الذمة على السلطة الجائرة: ١٥٣
المبحث السادس عشر ١٥٨
شهداء الثورات العربية بين جرائم الطغاة وفتنة الدعاة ١٥٨
أولا–أسباب الكتابة في هذا الموضوع الجلل: ١٥٨

ثانيا - هل الحكومات العربية التي تحكم بالحديد والنار لها ولاية شرعية ؟ ١٦٠
ثالثا- أحوال المتظاهرين الذين خرجوا في الثوراة العربية: ١٦٥
١- مظلومون ابتداء تعرضوا للظلم: ١٦٥
٢- أو مدافعون عن المظلومين: ١٦٥
٣- أو مصلحون محتسبون خرجوا بشكل سلمي بنية إعلاء كلمة الله،وتغيير المنكر: .. ١٦٧
٤- أو مجاهدون خرجوا على طاغية فقاتلهم،فقاتلوه لدفع عدوانه: ١٦٧
رابعا- إذا كانت هذه الحكومات شرعية فيجب عليها إقامة العدل وإزالة الظلم: ١٦٨
سادساً- صفات الإمام العادل: ١٦٨
سادساً- لا يجوز إعانة الحاكم المسلم على الظلم: ١٧١
سابعاً - إذا كانت السلطة غير شرعية فيجب الخروج عليها: ١٧٥
ثامناً- في بيان معنى أحاديث السمع والطاعة: ١٧٨
١- إن حقيقة دين الإسلام وغايته أن تكون الطاعة لله وحده: ١٧٩
٢- كما إن الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو هداية الخلق وبيان الحق والقسط والعدل الذي يحبه الله ويرضاه لهم: ١٧٩
٣- كما حرم الله جل جلاله الظلم على عباده مطلقا،ونفاه عن نفسه: ١٧٩
٤- وقد حدد الله ورسوله حدود الطاعة للسلطة في الإسلام: ١٨٠
تاسعاً- هناك شرطان لطاعة أولي الأمر: ١٨٤
عاشرا- من صور ردة الحاكم ووجوب الخروج عليه: ١٨٧
الحادي عشر- في بيان معنى لفظة (اسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك) ١٩٦
الثاني عشر - ملامح الانحراف السياسي وتحوله من خلافة راشدة... ..... ٢٠٩
الثالث عشر - ليست كل سلطة شرعية وتجب طاعتها ٢١٢
الرابع عشر- أهل السنة والجماعة لا يعترفون بتعدد الأئمة: ٢١٤
الخامس عشر- لا تجوز طاعة هؤلاء الطواغيت ٢١٦
السادس عشر- الرد على علماء الطواغيت في تحريم الخروج عليهم: ٢٢١
السابع عشر - الأئمة الذين تجب طاعتهم والأئمة الذين لا تجوز طاعتهم: ٢٢٢
المبحث السابع عشر ٢٢٥
نظرات شرعية في النظم الدستورية والأنظمة الجمهورية ٢٢٥

أولاً– تعريف الفقه السياسي: ٢٢٥
ثانياً– الخلاف في الحكم على الواقع وكيفية علاجه: ٢٢٨
ثالثاً– أحمد شاكر والموقف من النظام البرلماني الدستوري: ٢٣١
رابعاً– الفرق بين الدستور والقوانين عند هؤلاء الأئمة: ٢٣٢
خامساً– معرفة حدود المقدور عليه في تغيير الواقع: ٢٣٦
١– الغاية المثلى والهدف الأقصى أن تعود (أمة واحدة وخلافة راشدة). ٢٣٦
٢– الغاية الوسطى والهدف المرحلي وجود حكومة راشدة: ٢٣٧
٣– الغاية الدنيا والهدف القريب،وهو الإصلاح الجزئي. ٢٣٧
سادساً– ممارسة العمل السياسي وفق المقدور عليه: ٢٤٠
١– أن بلدان العالم الإسلامي،هي في الأصل دار إسلام،وأهلها مسلمون. ٢٤٠
٢– أن كل ولاية اليوم غير ولاية الأمة على نفسها،وغير الولاية الشرعية التي شرع الله لها،هي ولاية باطلة،ولا شرعية لها. ٢٤٤
٣– وأنه لا تلازم بين عدم شرعية الأنظمة التي تحكم العالم الإسلامي،وكفرها أو عدم كفرها. ٢٤٧
٤– وأن الإصلاح باب واسع،وهو منوط بالقدرة والاستطاعة. ٢٤٨
سابعاً– هل عدم شرعية الحكومات تعطل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟..... ٢٥٣
ثامناً– موقف الشيخ عبد الرحمن السعدي من الأنظمة الجمهورية ٢٥٤
١–مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أي مجتمع: ٢٥٦
٢– أفضل الإصلاح العمل من أجل الخلافة الراشدة: ٢٥٩
٣– الدعوة إلى الإصلاح لا تقتصر على دار الإسلام: ٢٥٩
٤– الأمر بالهجرة للحبشة لأن بها ملكا لا يظلم الناس ٢٦٠
تاسعاً– لا يجوز ترك الدعوة للإصلاح بحجة عدم شرعية السلطة الحاكمة ٢٦٠
عاشراً– الاعتزال عن الناس اليوم مستحيل ٢٦١
المبحث الثامن عشر ٢٦٥
الثورات العربية من الاستبداد إلى الخلافة الراشدة ٢٦٥
أولاً–(الثورة العربية والحكم الراشد): ٢٦٥
١– الحكم الراشد ومعاييره: ٢٦٦

٢- أهم ملامح الحكم الراشد: ٢٦٧
الأول:تجلّي إرادة الأمة الحرة في اختيار نظام الحكم وطبيعته: ٢٦٨
الثاني- استعادة سيادة الدولة واستقلالها عن النفوذ الأجنبي: ٢٧٢
ثالثا:تحقيق النهضة والتنمية في جميع المجالات: ٢٧٤
الرابع- تحقيق حالة السلم والأمن الاجتماعي لجميع مكونات المجتمع: ٢٨٠
الخامس - كيف تتحقق حالة السلم والأمن الأهلي ؟ ٢٨٥
السادس- تعزيز الوحدة والاتحاد بين كل دولة قطرية،والدول العربية المحيطة بها: .. ٢٨٦
السابع- بلورة مشروع سياسي،ورسالة إنسانية يستعيد العالم العربي من خلالها دوره الحضاري على المسرح العالمي: ٢٨٦
ثانيا- من الحكومات الراشدة إلى الخلافة الراشدة: ٢٨٩
١-مقدمة تاريخية ٢٨٩
٢-عدم الاكتراث بالمشككين بالمشروع الإصلاحي الإسلامي ٢٩٢
٣- أهم الأمور التي يجب الاهتما بها: ٢٩٤
ا- تحديد الهوية والمرجعية السياسية للمشروع السياسي الإصلاحي: ٢٩٥
ب- هل المقصود بسنن الخلفاء الراشدين اجتهاداتهم ؟ ٣٠٠
ت- تحديد الرؤية السياسية لتحقيق المشروع الإصلاحي ٣٠٦
ث- معرفة مكامن القوة الأمة ومكامن الضعف ٣٠٩
المبحث التاسع عشر ٣١٢
التنظيم الراشدي وشروط النصر ٣١٢
أولا-صفات القيادة الراشدة: ٣١٤
١- صديقية أبي بكر وعقائديته: ٣١٤
٢- العبقرية العمرية: ٣٢٣
٣-القديسية بحلمها وحيائها ورحمتها وسخائها(عثمان رضي الله عنه) ٣٢٥
٤- الفدائية والطهورية: ٣٣٠
ثانيا- صفات الأعضاء والأنصار: ٣٣٣
١- الإيمان بالله،علما وعملا: ٣٣٣
٢- الاستقامة على الحق والإصلاح في الأرض: ٣٣٣

٣- الجهاد في سبيل الله بمفهومه الشامل: ٣٣٧
٤-الأخوة بين المؤمنين من الأعضاء والأنصار: ٣٤٠
٥-الرحمة بالعالمين والإحسان إلى الخلق أجمعين: ٣٤٢
الثالث- شروط نجاح التنظيم الراشدي: ٣٤٦
المبحث العشرون ٣٦٢
الأجوبة الفقهية الدستورية عن الأسئلة الليبية والسورية ٣٦٢
المطلب الأول..... ٣٦٢
هل يجوز السماح بأحزاب مخالفة للإسلام في بلاد الإسلام ؟ ٣٦٢
المطلب الثاني ٣٦٥
يشترط في أفعال المكلف حالة الاختيار عدم مخالفتها للشرع وما سوى ذلك فجائز ٣٦٥
المطلب الثالث ٣٦٩
تحرير المصطلحات مطلوب شرعا وجوهر الديمقراطية لا يخالف الإسلام ٣٦٩
الدولة الإسلامية ليست دولة دينية بالمفهوم الغربي..... ٣٧٤
المطلب الرابع..... ٣٨٢
الدولة التي يجب على المسلمين العمل لإقامتها..... ٣٨٢
موقف العلماء اليوم من الخلافة الإسلامية ٣٨٧
الفرق بين الحكومة الراشدة والخلافة الراشدة ٣٨٧
البدء بقطر من الأقطار بالحكومة الراشدة هو المناسب للظروف الراهنة ٣٨٩
المطلب الخامس..... ٣٩١
المساواة بين المواطنين مبدأ عام مع اختلاف بالتفاصيل ٣٩١
السياسة الشرعية هي كل فعل يكون الناس معه أقرب للصلاح والعدل..... ٣٩٤
المطلب السادس..... ٣٩٦
وجوب الإصلاح والعدل حسب الإمكان..... ٣٩٦
تطبيق الشريعة لا ينعي تطبيق الحدود فقط..... ٣٩٧
المبحث الحادي والعشرون..... ٣٩٩
(التجربة الإنسانية والثورة العربية نموذجا) ٣٩٩
المبحث الثاني والعشرون ٤١٠

(الثورة الأخلاقية شرط النهضة الحضارية) ٤١٠
المبحث الثالث والعشرون ٤٢٤
الفرق بين الخطاب القرآني والخطاب السلطاني ٤٢٤
المبحث الرابع والعشرون ٤٣٩
(الحرية روح الثورة العربية) ٤٣٩
أنواع الحرية في الإسلام: ٤٤١
المستوى الأول:الحرية الفردية: ٤٤١
الثاني:الحرية الشعبية والمجتمعية: ٤٤٣
الثالث:الحرية الوطنية: ٤٤٣
الأحكام العملية التي تحفظ الحرية والكرامة الإنسانية ٤٤٩
الأحكام العملية لصيانة حرية المجتمع وحقوقه الجماعية ٤٥١
حماية الحرية بمفهومها الوطني ٤٥٧
مكانة الحرية في الدائرة الثانية من دوائر الدين،وهي دائرة (الإيمان) ٤٥٨
١- الإيمان بأنه وحده الملك فهو ملك السموات والأرض ٤٥٨
٢- والإيمان بأنه وحده الرب الذي له السيادة والطاعة وحده لا شريك له: ٤٥٩
٣- والإيمان بأنه وحده الحَكم،وله وحده الحُكم،وله وحده الأمر: ٤٥٩
٤- والإيمان بأن الله هو الإله وحده لا شريك له: ٤٦٠
الثالثة من دوائر الدين في الإسلام دائرة (الإحسان) ٤٦٢
المبحث الخامس والعشرون ٤٦٥
الإعلام ببطلان القول بوجوب الطاعة والاستسلام لمن نصبه العدو الكافر في أرض الإسلام ٤٦٥
أولا:وجه بطلان هذا القول أصلا: ٤٦٥
ثانيا:وجه بطلان هذا القول فرعا: ٤٦٩
١) أن السمع والطاعة لولي الأمر من الأحكام الشرعية: ٤٦٩
٢) أن العدو الكافر الذي نصب هذا الحاكم له أحول وهي: ٤٧٥
الحال الأولى:أن يكون قد تدخل في تنصيب هذا الحاكم أو فرضه على بلد إسلامي دون أن يدهم أرضها،ودون أن يستحلها،أو يسفك دماء أهلها: ٤٧٦
الدور في حياة النبي ﷺ ثلاث ٤٧٧

الحال الثانية:أن يكون العدو الكافر قد نصب ذلك الحاكم في البلد الإسلامي،بعد أن دهمها،واحتل أرضها،وجعل من هذا الحاكم درءا يدرأ به،ويقاتل معه،ومن ورائه: ٤٧٩
الرد على استدلالهم بقصة النبي يوسف عليه السلام ٤٨٣
أولا:أن شرع من كان قبلنا من الأنبياء ليس شرعا لنا إذا عارض شرعنا بإجماع الأمة . ٤٨٣
ثانيا:أن هذه القصة حدثت في أرض مصر في عهد ملك كافر من ملوك مصر،فليست داره دار إسلام أصلا:..... ٤٨٤
ثالثا:أن هذه القصة استدل بها شيخ الإسلام ابن تيمية على جواز أن يتولى المسلم الصالح الولاية تحت حكم الإمام المسلم الجائر،إذا كان يستطيع الصالح دفع مفسدة أكبر،أو جلب مصلحة أكبر للمسلمين: ٤٨٥
رابعا:أنه ليس في قصة يوسف أي مظاهرة لملك مصر على المسلمين: ٤٨٦
تحريم تقليد المفتي فيما أخطأ فيه ٤٨٦
واجب المسلمين إذا غلب على بلدهم الكفار وعجزوا عن دفعه الصبروإعداد العدة... ٤٩٤
المبحث السادس والعشرون..... ٤٩٥
الحرية وضوابطها في الإسلام ٤٩٥
مفهوم الحرية: ٤٩٦
أنواع الحرية:..... ٤٩٧
الصنف الأول:الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المادية: ٤٩٧
أ – الحرية الشخصية:..... ٤٩٧
١) حرمة الذات: ٤٩٨
٢) تأمين الذات:بضمان سلامة الفرد و أمنة في نفسه و عرضه و ماله: ٤٩٩
ب–حرية التنقل (الغدو والرواح):..... ٥٠٠
ج–حرية المأوى والمسكن:..... ٥٠٢
د–حرية التملك:..... ٥٠٨
١) أنواع الملكية: ٥٠٨
٢) وسائل الملكية: ٥٠٩
هـ– حرية العمل:..... ٥١٠
الصنف الثاني:الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المعنوية ٥١١

أ–حرية الاعتقاد: ٥١١
ب– حرية الفكر والقول:: ٥١٧
وأهم القيود على هذه الحرية: ٥١٩
ج–حرية التعلم: ٥٢١
د– الحرية السياسية: ٥٢١
المبحث السابع والعشرون ٥٣١
قصة الثورة العربية الخلاقة إرهاصاتها فلسفتها غاياتها ٥٣١
دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ: ٥٣٨
بين يدي الموضوع: ٥٣٩
ضرورة الحرية والتحرر من الاستبداد والاستعمار: ٥٤٣
هدف أمريكا الحقيقي من احتلال العراق: ٥٤٥
الانتفاضة العفوية: ٥٤٨
سقوط بغداد نهاية عصر وبداية عصر: ٥٤٩
عدم وجود فهم حقيقي للشرع وللواقع عند الحركات الإسلامية: ٥٥٠
تحالف الإسلاميون مع الأنظمة القمعية والمستعمر: ٥٥٣
حصار المطيري والحرب الإعلامية عليه وعلى فكره: ٥٦١
أهمية كتاب تحرير الإنسان وتجريد الطغيان: ٥٦٤
(الاحتلال الأمريكي والسجن العربي) ٥٦٥
(اليمن ورياح الثورة) ٥٨١
المبحث الثامن والعشرون ٦٠١
رسالة مفتوحة إلى حكام البلاد العربية وغيرها ٦٠١
الوصول للسلطة بالقوة والعمالة: ٦٠١
صفات الحاكم المسلم : ٦٠٤
وجودكم من علامات الساعة : ٦٠٧
صفات الحاكم الصالح: ٦٠٨
إن الحاكم الصالح هو الذي يثيب المحسنين ويعاقب المسيئين ٦٠٨
والحاكم الصالح لا يطلب الحكم بنفسه ٦٠٩

الحاكم المسلم الصالح هو الذي يحكم بمال أنزل الله تعالى: ٦١٠
والحاكم المسلم لا يتحاكم إلى الطاغوت:..... ٦١١
قدوتكم فرعون : ٦١٣
صفات الخلفاء الراشدين : ٦١٤
لا يقول لك أحد حولك أخطأت:..... ٦١٦
الحاكم الصالح يحبه شعبه ويحبهم:..... ٦١٧
مجاهدة الحكام الظالمين :..... ٦١٧
كيل التهم الجاهزة لمن خالفه :..... ٦١٧
أيها الحاكم لست إلها ولا تجوز طاعتك في المعصية أبدا مهما كنت:..... ٦١٩
أيها الحاكم سوف تموت فإن كنت عادلا نجوت وإن كنت ظالما هلكت وأهلكت..... ٦٢٤
أيها الحاكم الجائر لن يتركك الله تعالى بلا عقاب ٦٢٧
ونهايتك سوف تكون كنهاية فرعون..... ٦٣٥
أيها الحاكم عندما تطبق القرآن وتحكم بالقرآن عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة فابق في
كرسيك لا مطمع لنا بها ٦٣٦
أيها الحاكم مهما أخذت بأسباب البقاء سوف تموت رغما عنك فانظر إلى عاقبتك..... ٦٤١
فكر بمصيرك يوم القيامة وجرائمك التي ستلقاها أمامك: ٦٤٣
المبحث التاسع والعشرون..... ٦٤٩
رسالة من القلب للشباب الثائر على الظلم في سورية..... ٦٤٩
المبحث الثلاثون..... ٦٦٣
أيها الإخوة في الشام إما الخوف من الله أو الخوف من الأسد وزبانيته ٦٦٣
المبحث الحادي والثلاثون..... ٦٧٠
نصر الله آت بإذن الله تعالى ولكن له ثمن باهظ..... ٦٧٠
المبحث الثاني والثلاثون ٦٨٤
لماذا يبطئ النصر؟ ٦٨٤
المبحث الثاث والثلاثون ٦٨٧
الثورة العربية والشعار المبارك الشعب يريد إسقاط النظام ٦٨٧

المبحث الرابع والثلاثون ٦٩٣
ثورة الشعوب العربية.. بين الأنظمة الملكية والأنظمة الجمهورية ٦٩٣
المبحث الخامس والثلاثون ٧٠٠
الثورة العربية وسحر الأنظمة الملكية ٧٠٠
المبحث السادس والثلاثون ٧٢٠
استحباب تعجيل الزكاة للشعب السورى المنكوب بطاغيته ٧٢٠
المبحث السابع والثلاثون ٧٢٧
وجوب تحكيم الإسلام عقيدة وعبادة ومنهج حياة ٧٢٧
المبحث الثامن والثلاثين ٧٣٢
ما هي حقيقة الاستخلاف في الأرض ؟ ٧٣٢
المبحث التاسع والثلاثون ٧٣٦
خرج الشعب يوما هاتفا (الشعب يريد إسقاط النظام) ٧٣٦
المبحث الأربعون ٧٤١
الإسلامي متهم حتى تثبت براءته وغيره بريء من كل التهم !!!! ٧٤١
المبحث الحادي والأربعون ٧٥٤
أعداء الثورة السورية ٧٥٤
١- فلول النظام: ٧٥٤
٢- بعض أعضاء الجماعات الدينية:(ممن أسموا أنفسهم بالعلماء والمفكرين والمثقفين).... ٧٥٤
٣- الأنظمة العربية: ٧٥٤
٤- التدخلات الخارجية: ٧٥٥
٥- بعض العوام البسطاء: ٧٥٥
المبحث الثاني والأربعون ٧٦٤
أهمية الكلمة في مواجهة الطغيان ٧٦٤
المبحث الثالث والأربعون ٧٧٢
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٧٧٢

المبحث الرابع والأربعون ٧٨١
مفهوم النصر وحقيقته ٧٨١
المبحث الخامس والأربعون ٧٩٣
أسباب تأخر النصر الظاهر ٧٩٣
١- تخلف بعض أسباب النصر المشروعة: ٧٩٣
٢- قد يكون سبب تأخر النصر حدوث مانع من الموانع ٧٩٥
٣- الانحراف عن المنهج ٧٩٦
٤- عدم نضوج الأمة،وضعف استعدادها ٧٩٦
٥- عدم إدراك قيمة النصر: ٧٩٧
٦- قد يكون في علم الله -جل وعلا- أن هؤلاء لو انتصروا لن يقوموا بتكاليف الانتصار ٧٩٨
٧- من أسباب تأخر النصر أن الباطل الذي يحاربه الدعاة لم ينكشف زيفه للناس تماما.... ٧٩٨
٨- ومن أسباب تأخر النصر،أن البيئة المُحَارَبَة قد تكون غير صالحة بعد لاستقبال الحق والخير والعدل ٨٠١
٩- ومن أسباب عدم الاستجابة لدين الله أن عوامل النصر قد تتوافر بالنسبة للداعية،لكن هناك موانع تتعلق بالمدعوين..... ٨٠١
المبحث السادس والأربعون ٨٠٢
متى تنتصر ثورتنا المباركة على الطاغية الصنم بشاروعصابته المجرمة ٨٠٢
نصر الله قريب ولكن له ثمن باهظ: ٨٠٩
شبهات حول تأخر النصر ومناقشتها: ٨١١
المبحث السابع والأربعون ٨١٩
اشتراط إذن الإمام ووجود الراية في قتال الكفار ٨١٩
نص الفتوى ٨١٩
١) أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تأمر بالجهاد في سبيل الله ليس فيها اشتراط شيء من ذلك. ٨٢٠
٢) انعقاد إجماع الأمة على أن الجهاد فرض كفاية. ٨٢١
٣) أن الجهاد نوعان: ٨٢٢

النوع الأول:جهاد الفتح: ٨٢٢
النوع الثاني:وهو جهاد الدفع عن أرض المسلمين: ٨٢٣
٤) أن كتب الفقهاء قد نصت في كتاب الجهاد على شروط وجوبه،وعلى من يجب ومتى يتعين،وليس فيها نص على اشتراط وجود الإمام أو وجود الراية: ٨٢٦
٥) أن إقامة الإمام حكم واجب كوجوب إقامة الجهاد: ٨٢٨
٦) أن الجهاد يطلق على كل قتال بين المسلمين وعدوهم،سواء كان هذا القتال في جهاد فتح أو جهاد دفع: ٨٢٩
٧) ثبوت الأحاديث النبوية بوصف من قاتل دون ماله أودبنه أوأهله فهو شهيد..... ٨٣١
٨) أحاديث الطائفة المنصورة التي تصفهم التي تجاهد في سبيل الله حتى قيام الساعة ٨٣٢
٩) الإجماع العملي عبر العصور الإسلامية ٨٣٣
١٠) أن الجهاد عبادة وفريضة معقولة المعنى،وليست حكما تعبدياً محضاً غير معقول معناه: ٨٣٤
المبحث الثامن والأربعون..... ٨٣٩
مظاهرة الكافرين على المسلمين تعتبر من نواقض الإسلام ٨٣٩